امين الريحاني

"قلب لبنان"

المخطوط

(٩ رحلات)

اضافة إلى المتصرّفات

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة الأولى: إلى الأرز

الرحلة الاولى

الارز

~~الرحلة الوسطى~~

~~[illegible]~~

١- نظرة في الماضي

٢- التأهب للسفر

٣- نهر الكلب

٤- نبع الحديد

٥- الاودية المقدسة

٦- الارز

٧- حقائق ورقائق

٨- عين زوما

٩- حلت البركة

الرحلة الاولى رشيد سعيد

الارز علّام

مصروفات الرحلة

١٨

الرحلة الوطنية

فيافي الصيف الى الاردن

٢٢ X ٢٨

نظرة في الماضي

١٨

في العود الى الماضي ترويح للنفس وتبريح، نذكر بها بعض ما مضى ثم

الحياة، فنستعيش وننكمش، نبتسم ونكتئب، ثم نحمد الله اننا

نستطيع ان نحيي بالذكرى ما كان، ونحمد الله ان ما كان لا يعود.

وآية الذكريات تبقى كلها، او تبقى على الدوام؟ وآية الذكريات

تعيد الينا ما يبعث فينا طيب الحياة، ولا يكون فيه اثر لألم، او

ظل لتعوّده؟ وآية الذكريات تبعث فينا نشاطا من الحبور، ويجدد

لبعض قديم السرور، دون ان يهيج فينا الحنين، وما يحيه من عامل واهتمام

وهل هي من حقائق الحياة اوضح وابرز من الحقيقة التي اثبت

ذا اسم، ذا ذكر، ذا خيال؟ وهل الماضي في قرب وليه غير

ظل على الاجيال من الظلال؟ ام انه مع ذلك حري بالتشاؤم

والتقليد، وان العود اليه، على تعدد الوجوه فيه، وتباين

الالوان، وعلى تباعد الصور بين ما هو كائن وما كان، لا يخلو

اذا ضربنا صفحا عن لواعج الخيال، ودواعي الحنين، من شيء يروح

القلوب، وان لم يكن ذلك الشيء غير كلمة لكاتب، او

ثبت لشاعر، او صورة، او تمثال لفنان.

وحينئذ لا اريد في هذا المقام ان استشفع بالعبرة الذكرى، ولا اريد

ان احيي بالذكرى بعض ما مضى، واعطيك صورة مجردة من

الشرح والتفسير الا ما كان واجبا لاداء ما فاتني او الالمام ايضاح

بعد التوكل اذن على الله، وعلى الذاكرة، الطوي بعض الماضي نحو

تسعة عشر سنة، اقف عند السنة السالفة السحابة والالف

على كتف وادي القرنية، لاعرف الى الفارق ثم بالسيارة

اقرب

كان قد هاجر الى امريكا وعاد منها ، يحمل الكتب الادبية ، لا النفحات
المالية ، واتخذ الوادي منسكاً له ، فبنى معبداً فيه ، او
حسب معبداً كل مشهد فيه مسجده ، كل مكان لقف
فيه القلب منتهجاً ، والفكر منتوجاً ، والروح خاشعة
مطمئنة
وكان

وكان ذلك الشاب مشغوفاً بالكتب والكتابة، فما عرف بكل هواه وكل
جنونه البهي. فما استشهد بالقلوب عنهم، وما وصل الجنة الا منذ كان منهم نسيباً
لشاعر او مغنٍ المجان هناك. فظل على شيء من هذه النسيبة المؤنسة حتى ما
ادعى النبوة مرة ولا القداسة.
ولكنه رأى ان يعبد الله في المعبد الاكبر، في الفلاة، في الحقول، في
الوادي، في ظلال الصنوبر والزيتون، فقال الناس انه كافر ينكر وجود الله.
وقد سمعه الناس يقول: الطبيعة امي، ويرددها، فقالوا انه يجدف على الله تعالى
ورأوه يقف مأخوذاً عند جدول يترقرق فيه غناء الطيور، او عند زهرة
[illegible] بين الصخور، او عند جندولة تفوح طيباً بين الادغال، او على رابية
خضراء فوق جبل اجرد اصم، ورآه الناس في المعقول وفي الغابات، فقالوا انه
انه يناجي الجن، ويجتمع بهم في مجاهل الوادي، وانه لذو جنة. فكانوا الذين
يتهامسون عليه، فيتكلمون بالحكمة، فيجاريهم المستهزئون ويهزأون
قائلين: من العاقل منهم يا ترى ومن المجنون؟ ... في المدينة العظمى ... وقد
ذلك الشاب، لقد ادرك في تلك حياته حقائق الوجود الكبرى، من
نوحها، عاد الى مسقط رأسه في لبنان ينشد سبيلاً اقرب اليها. ووجدها
فوجدها في العزلة، او وجد في العزلة سبيلاً الاعلم الاصدق عليها. ووجدها
في الطبيعة، او وجد في الطبيعة الدليل الالطف ناحية من نواحيها. ووجدها في
في البساطة، او وجد في البساطة الرمز الانور من رموزها. ووجدها في
في الجمال، او وجد في الجمال صورتها الساحرة، وهي جالسة
الوداعة، او وجد في الوداعة واخيه القمر
بين اختها الشمس، في السنة السابعة
وفي تلك السنة التي وقفنا عندها، في الوادي، في
التسعمائة والالف، احس ذلك الشاب، وهو جالس على صخرة في الوادي، فادرك
انه ابداً يمسح جبينه، وتذكر ما بين عينيه، انه
كل صورة ساطعة، وان كان ابناؤه يبنون الكنائس، وانه
في جبل القداسة، وجلال الروابي، وادرك
انه في جمال الاودية
ليضما اليه يرى للخالق اثراً في جمال الاودية، لا يرقى اليه الوهم
لذلك ان العبادة لا تبنى التقادم، وان القداسة لا
وان الاشراق والنشاط والضحك من نعمائه تعالى.

لقد تجلت هذه الحقيقة للزائر الغريب، وهو [illegible]
حين ال اول ~~حقيقة تجلت~~
يوم على صخرة فوق هاوية سحيقة، تنتهي الى ضفة نهر مزدانة
بالجوز والدفلى، تظلل مياهًا تجري جريًا هادئًا لتسقي
في السهل البساتين. تبارك العظم تحت رجليك، والجمال
بين يديك، والسمو والاسمار امام ناظريك. [illegible] الجوز [illegible] اي وتبارك الارز [illegible]
لشمسه، وتحت الجوز والدفلى تستريح، وفي الاب [illegible]
تتعاون والتربة على الجد والتقوى.
الجبل المقدس – جبل لبنان: وهي ان احد كبار
ثم تجلى لذلك الزائر حقيقة اخرى جليلة في الوادي
في الجبل المقدس هو الارز [illegible] بني العابد معبد [illegible] [illegible]
وظل ابنه الطبيعة، تحت الارز؟ هذا هو الدهر بعينه
مكان في لبنان، لا [illegible] الارز [illegible]
وقد آلى ذلك الغريب على نفسه ألّا يكون من الكافرين.

التأهب للسفر

اعتزمت الرحيل الى الشمال لأزور الأرز، وزرعت الوطني للأرز والمجد الالهية.
وما كانت الأسفار في تلك الأيام كما هي اليوم، أسهل من تلك الفكاهة، واسلم من
الجلوس في دور السينما. بل كانت، والحق يقال، من الأمور المهمة الخطرة،
تعترض فيها السجعتان وتترادفان: الأسفار، الأخطار. ثم الحزم
اما العقبات وعرًا وعمقًا، والمشقات، التي تذهب بالقوة حتى كان
ولا تبقي على غير الروح فيك، فتحدث عنها والحرج. وقد كانت تكثر سقة، مختبئة
وراء وهاد، فتلف بين اودية متعددة سحيقة، ثم تنتهي بك
بعضها وراء بعض، او لا يتصل بنهر الكلب، واخرها بنهر قاديشا. اما كل محدود
ما كان من اسباب الاسفار للركوب محدث الايام غير العربات في
جلها في السواحل، والدواب فوق تلك الجبال وعرها وحارها، فلا يسلم فيها منذ الالف
اما العربات فقد كانت آنية في الاتصاد الشرقي، والطرق السلطانية
غير الصعب والاوعار. وما كانت طرق "الكروسة" والدواب،
اخل من العربات حسنًا واتقانا. فلمن كان يأمل ان يسلم فيه غير الصعب والاوعاد، ذو
يقتضيه الدواب ركوبًا وراحة. اما الجمل فليس منه في لبنان للاسفار
الرفقة حمار وبغل او كديش وراس، وليس في الجبل افراس للاجرة
اسلم لا يفلح ولا يصلح في الجبال، بما صوته يجذبها. الكديشة للسهول
الكديشة مثل الجمل في الاعلاء الجبالية، الكديشة من نفسه. اي عندنا
والحمير والبغال والعربات في المدن، وعندنا شهر طوف طوف البلاد حافلًا
والزانة للبيع فنشترة حفري طوف. الكديشة
يعرض للبيع عند الغياب، عندي الدواب آ!!
لذوي الاوجاع الدواء — دواء ٢، وقل نفقة كان
والعرى، ذو الكنائس والعقائد فلما نفد كان حقيقة
من الصنف الكثيف المؤنسة، الا النوع الجميل الجليل الى القبرصي؛
اما الحمار فكان في الجبل انواع منه في الحجاز، وفي البحرين،
ما تخلت بني مروحة بعيدًا في لبنان، وجدت ما يشبهه، فلست معجبا به، وبحريه
وجدته في بعض رحلاتي هناك
ورحمه

٤

٥

وجسمه سوكه كل الرجمات . حتى انه صوته ليختلف عن اصوات سائر الحمير . وقد

المتناسبه

وصفه اللغوي في قوله حمار جبلاً جبل اي حافي الشهيق . والحمير في لبنان

من الحمر المصرية المتحدرة من الفرحية . ليس في لبنان ، على قربه من قبرص ، فردوس

الحمير ، غير كل ذي شوهة وعاهة . كما يشير الى ان في سلالة هذا

الحيوان الطائع الوادع حلقة مفقودة ، وان هذه الحلقة وجدت عندنا

فالتقي اذن عند البغال اخنا منها بغلا او بغلة . وبين الذكر والانثى

من هذا الحيوان المشهور بالعصيان نسب تناسخ . بين الاثنين نسب يكاد ينحصر

الخفيه لا تؤثر في غير العادة

في النوع وفي الدم . اما في التفاصيل والصفات كالفوارق الظاهرة خفية

اما الظاهر كنايهم فاهمها الرقبة والعينان والاذن والحافر . فالرقبة في البغل

فاسية ، تبليها لطرف الرسن الذي يستعمله الراكب كالكرباج والرحى

لحجر شديد المكاري . والعينان تشتعل فتشتد احمرارا

لاقل عامل خارجي يكدر البغل . والاذنان تجمعان في مقدمة الرأس

وترتفعان انذارا بالويل والثبور . والحافر يلبي سريعا دعوة العينين

والاذنين ، فيرسل البغل الركلة تلو الركلة ، من الخلف الى الوراء ،

على الهواء اذا لم يلق هدفا غير الهواء . ثم يجري فينفض حمله

ليسبر ويدور ويدور على محوره . ثم يأخذه الذعر ، فيجد

حتى ، فيعثر على اول ثورة او اول ذلة اخاه . اما حمله

فاذا كان من الارضة فهو ينتقل من ظهره الى تحت بطنه . واذا كان

من البشر ، وما كان فارسا ماهرا ، يمد لواءه على الارض — هشيما

تحت هم على الارض — والاغلب ان يابسين يستحقون التعزية —

والاعتناء الطبي .

اما البغلة فهي تمتاز عن اخيها بكل ما تقدم ذكره . رأسها

لينه ، دقيقة الحس ، عيناها ناعسة ، واذناها ناعمة مسترخية ، ٥

وحافرها قلما يرفع في الهواء او عليه . ودا او نشوة

والبغلة تمتاز عن البغل بحسن صلاتها البشرية ، وما عرفت من بني آدم

تلك الاوصاف من الصفات الطيبة . ليتفضلا وما عرفت

ابو عبد

سلام

عن اصحاب الفضيلة واهل البر والنهى، فتشرفت باسمائهم، ٦

واشتهرت بسجاياهم العقلية والروحية، فقال الناس: بغلة

القاضي، ما شاء الله! وبغلة الرئيس، سبحان الله، وبغلة المطران

وبغلة الشريف، تبارك اسم الله! وهناك من البغلات التاريخية

بغلة ابن خلدون، التي احبها تيمورلنك قبل ان يراها — والاذن

تعشق قبل العين حتى في المحاسن الحيوانية — فاهداها له المؤرخ

المشهور يوم رافق الوفد الدمشقي اليه ليفاوضه في الصلح، وهناك

من البغلات الكريمات كثيرات لم يحظها الله بشاعر يتغنى بجمالها

او بمؤرخ ينشر في صفحاته بذكر مآثرها: مسيحي

اذن، على ظهر البغلة الى الارز. واين البغلة؟ ليس

في القرية اسأل هذا السؤال فقال: "البغلة عند محبوب. وليس

في المكارين اصدق من محبوب، واعلم منه بطرق الجبال. بغلة

في البغلات اعقل من بغلته... بغلة طائعة مباركة. التي

لطيفة ظريفة." ليشير الاشارة التي

ضم القسيس اصابعه الاربعة الى باهمه

تثبت ما قال: ويحضرنا المعاهدة. مجيدة

سمعتها من القسيس وطلب محبوبا، اجرته واجرة بغلته،

واحدة من مجيديات الدولة العلية كل يوم، واجبوها وازودها

وضمانة بثمن البغلة اذا ادركتنا قطاع الطرق، عندنا نعود (٦)

على مالنا وقلبنا. ثم "شوفة خاطر" (اكرامية) فحنا القرشة وقبيلها

من الارز سالمين. وعقدنا المعاهدة باشهد علينا

وفي ذلك اليوم تشمر كل شيء في البيت عند ساعة وساعدها — وزرعوا اجمعا يعملون

الدم والتفقة والخادم والحادثة يعاونهم الجيران — دقت

في تحضير الزاد... اجل، نعم، فالى الارز..

الكبة، وشوت وقليت كبابا وفراخا، وذبحت الدجاجة الهندية

وخرج

اخلب

ضاع في الزل البغلة الشهباء التي اهداها المقوقس صاحب الاسكندرية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم

دورة الجراب

وذبح الديك الرومي ، وسلقت البطاطا والبيض ، وطبخ بالزيت السابغ

وورق العريشة ، وخبز على الصاج خاصة . . . امس بقبري

لنذ وبدنا بالخبز الطري . وقد تندوت ام محمد

مباركة على الورد . لكنيستي الزيتونية في احل الست في الفرن . لتحفظ ابنها في الطريق والعيد الى بيد

النذور ما شموع زيت وبخور . محسوب في مجد اليوم التالي تقود نعلته المكسوبة ، وقد

الاطراق ، وفيه الشراريب والاجراس

الرابنجين خرزة

انقل عنقها القلائد والاطواق ، وفي احداها بين الخرز ، وفيه الودع

اطواق

العاجب ،

حجاب

صفحة ٧

هي هبتها لسفرادها . وجاء

٧

اطواق من الصوف حمراء زرقاء خضراء مجدولة مفتولة، وبعضها طوق مرصّع بالودع.
ومزدان بالصف من الجلاجل الصفراء المدورة – عشرة منها. فكانت النعجة الموكبة
ماشية، وكانت اذا هزت رقبتها، او ضربت برأسها ذبابة هنا او هناك، تخرج
من تلك الاجراس اصوات وقرقعات تجفل المواشي، وتفزع الطيور.
قلت لمحبوب: لا بأس بهذه القلادة التي فيها التعاويذ، وبهذه الحمراء
الخضراء ذات الشراريب، وبهذه المرصّعة بالخرز والودع. اما الجلاجل –
الجلاجل يا محبوب، هي لعب الصغار، ولعلك كبيرة حليلة موقّرة،
لا يليق بها ما يليق بجحاش البغال."
فهز محبوب برأسه اقتناعا، وهو منتزع القلادة الموسيقية
من رقبة محبوبة ويقول مخاطبا الهواء: هي مستأنسة بالاجراس.
وكأني بمحبوبة تلتذ في الحال. فقد رمقتني بنظرة من عينيها الناعسة،
وهزت برأسها عموديا لتخبرني شاكرة انها مرتاحة الى هذا التشذيب في
زينتها. بعد ذلك جاء الكلام بالسجادة والمخدتين، ففرش محبوب السجادة على
ظهر البغلة، ووضع مخدتيها الى الامام والى الوراء، المخدتين واوثقهما بالحبال
فغدا الجلال سرجا محكما ناعما، وفي احد عدليه الزاد
وحاجات الحادة وزوجة المختار بالخرج المنفصل
وحاجات السفر الاخرى، فشد الى مؤخر السرج
وفي الاخر حاجات المسدس. احمله انت ممنطقا به."
"وهذا يا محبوب هو مسدس عسكري طويل، خطير، اشتريته في
ذلك المسدس بمنطقة الجلد هو مسدس ... هناك عن "الضباط"
نوبرانك، قبيل عودتي منها، لما كان يباع في الكنيسة هناك ... ولكني لم احمله مرة، ولا
قطاع الطرق في جبل لبنان، والبعض الاخر هواة ما تقود
اضطررت مرة الى استعماله. هذا لبعض الحقيقة في امره،
حمل السلاح، ولا تعلمت استعماله. ولكني كنت استأنس بوجود ذلك المسدس في درج مكتبي.
وما برحت ان اذاعت خبره، فاصبح مشهورا، وجاء الناس
يقولون: "مسدس الريحاني" كما يقولون: "اسطول بريطانيا العظمى" ويبتسمون.

نهر الكلب

وودعنا الاقارب والجيران في غمرة من القبلات والدموع : وكانت قبلة
الام لابنها آخر القبل ، تبعها رشة والحليب التي رسمتها على وجهه جدوده .
ومشى محبوب يقود البغلة ، ومشيت وراءها حتى طرف القرية .
ذلك لان القسيس كان قد علمني شيئاً من الاصول المرعية في ركوب
البغال . وردد النصائح قبل يوم السفر كما يردد الوصايا العشر . — لا تشد بارسنه
لا تهز برجليك ، لا تلوح بيدك ، لا تحكّ ظهرك ، اكرم المكاري ..
في طلعة ، ولا تزعجه في نزلة ، لا تركب داخل القرية ، عند طرف القرية
حين بلغنا القرية ماشيين ، ومررنا بالكنيسة العتيقة ثم رسم
المجاورة ، وقف محبوب امام الباب ، ومسح العتبة بيده ، وقبلها ، اركب ."
اشارة الصليب على جبهته وقال : تفضل يا معلمي بالرسن .
اركب بعون الله ، ولذلك بعون المكاري الذي احتفظ . فأخرج
وطمأنني ، فاطمأننت
سأقودها في هذه النزلة ." وقال : تمسك بها ولا تخف ."
حلقة الجلال من تحت السجادة على الخلال بعد عودتي
أذلني بـ "لا تخف" ولكن هي المرة الاولى والحق
من ابرشية ، ابتلعتها ، واجتهدت في هضمها ، فكانت وكنت من
بغال نافعة . حملتني على مغالبة الخوف فغالبته ،
الى حين اترك الحلقة ، واشعر اني منتصر عليه
ولكننا في نزلة تشتد وعوراً وانحداراً . هي نزلة النهر التي
وامهر الحيوان ، لا ننزلها ابداً .
اعرجي ماشياً ، واعرف ان اشجع المكارين
فترجلت ، ومشيت وراء محبوب ومحبوبته : ان في جبال لبنان
النزلة الى الوادي — عقبة نهر الكلب — في انزلاق ووعورها
الطول منها مدى ، واشد انحداراً ، ولكنها
ونندد

٧٠

اوراق مجدولة من الطرف الاحمر والازرق

وتدكدك صخورها، واعوجاج سطورها، هي فريدة وجديدة
عجيبة. لا يا سيدي، لو كانت طريق
وهي مع ذلك تدعى طريق النهر.
النهر لذهبت مياهه بشيء من تلك الوعورة، ود[illegible]
التدكدك والاعوجاج. لا يا سيدي العزيز، هي درجات
وهل هي الطريق الى النهر؟ في ذلك الانحدار
وحوز
ودكات وصخور مشققة ~~[illegible]~~ صعبة على مدى الأيام، ونجله حفرا جوانبها،
جبلي الى النهر. بيد ان ابنه الجبل ونجله [illegible] بعيد [illegible]
وغيّرا لونها. فصار احمر ادكن، فاذا نظر الناظر [illegible] واغبر الصخور
الجبل المقابل، بدت كطريقها بين احمرار الادغال، وما خفف ودفقت.
قلت: ابنه الجبل ونجله. فبالغت [illegible] المقاييس البشرية اهمالاً
فانا لها اعوانا لا ترى ايديهم، ولا تقدر بالمقاييس [illegible] اصطنعتها
درجة عالية غليظة يتبعها درجة واطئة وادعة ملساء. وهذه
[illegible] احيال جبلية، للانسان والحيوان، قديمها وحديثه. وهذه
الادحل من اجيال [illegible] الامطار والرياح، وجعلتها الايام والليالي درجات
دكة هشمها [illegible] وهذه صخرة نقلها الزلزال
ودرجات تندمج الواحدة بالاخرى. [illegible] عندها، ودارت
تحت قوائم [illegible] الى تحت حوافر البغال، تحرنت عندها، وهل ان
حولها، فتقت طريقا هينا للانسان، وجعلت مروثة لها. ووقع
وقع الحافر على الحافر اغرب من وقوف الدواب عند الاكمة الحامضة [illegible] بشيء
الروث على الروث؟ وهذه صخور مركومة بعضها فوق بعض
من النظام [illegible] تشبه درجات هرم الجيزة، [illegible]
وهذه درجة بيضاء [illegible] العقبة بطريق وجب عليها [illegible] ونقفان
للانسان والحيوان تنفسان في الصعداء. [illegible] الحلبي
التوبيد [illegible] من الهاوية بين [illegible] جذب الصنوبر
ليستمعا صوت النهر الصاعد من الهاوية، وان كانت لا تزال محجوبة بحجاب [illegible] الصباح
لقد دنونا من ~~[illegible]~~ الغابة المرادي [illegible]
[illegible] صوت النهر [illegible] البنا [illegible] الساع
وهذا [illegible] فيبدو لنا [illegible]
محبوب!

التعبير [illegible]

٥٧

محبوب: "هذه المغارة. قف مكاني وحد نظرك في بنية
الصخور تجد هناك، تر المياه قدام بابها." وهن
الى جنبي، وحاذرها على حافة الطريق، [illegible] المحبوب الى
وقفت محبوبة. تميل بوجهها الى المكان الذي [illegible]
تطال ~~[illegible]~~ فوق الهاوية، ثم [illegible]
نخلة طائفة، نخلة فهيمة؛ في طريق الطف الكبار، ذي درجات واسعة
شبابها فرحين في طريق [illegible] اوحامدها الحيوانية. وقد بان
لبس فيها من التهدم ما يرجح الانس او [illegible] وتنبت هنا الحوض الذي يتحكم
النهر، والحجر يسقف يلمع في نطاقه. هو الحوض بالخورة القائمة
فيه صبيان القرية عندما يؤمون الوادي.
حوله في مجرى النهر، صخرة ضخمة العناصر والزمان كرسيا بمجلسها
وان بان للعلا الصخور، صخرة ملساء مكونة الطف تكونه
مجوفة بسندات للظهر واليدين. تحت شلال فضي ينصب فوق
تجري فوقه المياه، فتجلسه فيها. هو نعيم النهر، نعيم الوادي،
نعيم الطبيعة، أم الوادي والنهر، وأمك وأمي
نفسك وعلى صدرك يا ابنك. [illegible] اول من جلس عليه واسماه
هو هذا العرش عرش الآلهة نبتون. ذلك المكاري محبوبا عليه
عرشا فاصبح معروفا بهذا الاسم الحديث. [illegible] ~~[illegible]~~ نازل واحجا به الى
فقال: "حرت اخبر اني [illegible] عندما تقول لي انه [illegible] والله، يا جعلي،
النهر ليجلسوا على العرش وصعدوا السلطنة. (١)
زادت عدد السلاطنة والملوك في القرية."
— وانت، يا محبوب، سلطان؟
— والله يا معلمي من لا له ولا عليه في هذه
— لا كثر خير ربنا. والله يا معلمي من لا له ولا علي ولا لي. لا [illegible]
الدنيا هو سلطان، وانا، وحياة [illegible] وام [illegible] عندي
ولا اذين. عندي هذه النخلة، ما السلطان ما البيع. وعندي
سوم شرائق مائة اقة. وعندي [illegible] كرمي شريت خوابي نبيذ، ومن
[illegible] ب. رتبوني

(١) من اهل القرية رجل كان يلقب بالسلطان وآخر بالملك وسنحدثك عنهما فيما بعد
~~[illegible]~~

زيتوني زيت السنة. وادفع الميرة للحكومة والعشور للخاطف
بالضبط غب الطلب." — "انت احسن من السلطان؟"
— "السلطان لا يدفع لا ميرة ولا عشوراً." لذخيدومنا."
قبّل محبوب اناملها ورفعها الى جبينه قائلاً:
ثم وقف فوقفت البغلة ووقفت معها: "عندي سؤال يا معلمي ارجوك
ان تجاوبني عليه. انت تقرأ في الكتب وتعلم كل شيء. ما هو الذي
سمّى هذا النهر نهر الكلب، ولماذا سمّاه بهذا الاسم؟"
قلت: "اجاوب فانسيا. اما اني اقرأ الكتب فهذا صحيح،
واما اني اعلم كل شيء فهذا بعيد بعيد جداً عن الصحة. ومحال
علمه يا محبوب الاصل والسبب في اسم هذا النهر. فالكتب ليس فيها
[illegible] البحث. اما تقول ان اليونان كانوا يسمونه
نهر الذئب. فكيف صار الذئب كلباً انا لا ادري..."
— "ولا المنجم يدري؟"
— "قد يدري المنجم ولا يدري العلماء." فقد يكون هناك عبرة
لا بأس ان اكمل كتابته ما قلته لمحبوب.
العلم، وان كان لا يفيد [illegible] الاغنياء [illegible] فقد كان يجري [illegible]
من المحابيب. ان سؤال محبوب جواباً في الاساطير الاقدمين. فقد طرحه على
النهر كلب كبير خطير فصيح اللسان، محب للالغاز، فيطرحها على
المارين ليحلوها. فمن حل لغزاً اخفق اعطاه الامان واذن
له بالمرور، ومن عجز ابتلعه دون ان يبقي عظماً له عظامه.
وقالت الاساطير ان الوثنيين نصبوا عند مصب النهر صنماً في
صورة كلب كانوا يعبدونه لانه كان يرى العدو من بعيد
فينبح لينبه عبّاده ويحذرهم منه.
وقالت

١٢

وقالت لي لدى ان بعض الصخور القريبة من النهر تشبه الذئب

الصنم.
— أتشبه الكلاب؟"
— نعم، ومن الصخور ما يشبه الخنازير والثيران. وقيل لي انه
في جوار جبيل يوجد كثيرا منها يسند ها اليوم. ولو كان اول من اسمى
هذا النهر بالكلب كاتبا، يا محبوب، مثلي، وكان مثلي ذا خصب بخياله
على تقدير فضول الناس، لكان سجّل في بطون الكتب اسمه وسبب
تسمية الكلبية للنهر، كما سأسجل انا اخبار هذه الرحلة،
في اخبارك انت ومحبوبه، ولا انسى الصخرة في مجرى النهر التي اسميتها
العرش، فلا يجوز ان ينفرد احد بخصوصها وخصوصا في المستقبل
حتى بجالا
ولا احد يسأل السؤالات التي يجيب عليها العلماء
بفكة من الخرافات."
كنا قد وصلنا الى الطواحين التي تندفق من فوقها المياه
في شكل زهرة ضخمة من الاشكال البيضاء، او كدولاب كبير
من دولاب الالعاب النارية.
وقفنا عند الدكاكين لنشتري لمحبوب علبة سكاير، ليسأل عنه
صاحب الدكان وزوجته، ثم مشينا الى الجسر ذي القناطر العالية
فاجتزناه الى ضفة النهر الشمالية، فاصبحنا في كسروان، في سفح
الجبل المجلبب بالمردان، بغابات من الصنوبر براقة الاخضرار،
وفيه الطريق تدعونا للتصعيد.
— تفضل يا معلمي، اركب." قدم لي الرسن خاشعًا،
وبعد ان اعانني، واطمأن لجلستي،
"يرشد، ولا ترخي. هكذا. ولا تخف!" ولكني عزمت ان اخدم المحبوب، اي لا
احرمه من هذه "اللاتخف" قبل ان نصل الى آخر المرحلة في ذلك النهار، اي الى
البرهان والدليل في اسم نهر الكلب.
اعرف من الخوف اكثر مما اعرف من الحقيقة
وبدأت

بطرف الرسن المربوط بها فهتم،
وبدأت في الحال . بدأت أسوق البغلة ~~[illegible]~~
على حالك يا معلمي،
فراحت تنهب العقبة نهباً ، فصاح محجوب بي :
"على مهل !" فذكرت اذ ذاك قول قسيس القرية ان ليس من الاصول
المرعية في ركوب الدواب ان يركض الراكب دابته في الركوب .
وكانت الطريق تلتف حول جذوع الصنوبر ، في فيئها العاطر
المنعش ، التفافاً هادئاً لطيفاً منبسطاً ، فيمشي محجوب في
(١٣) المقربات ليدركنا . رأى الجبل يشير بيده ان قف .
ورأيته عندما دنونا منه
فوقفت . فجاءني يلهث ويقول : السيكارة طيبة تحت هذه
الصنوبرة . فاشعلت غليوني . وقررنا ان نأكل طعام الظهر
قبل ان نصل الى ريفون ، فلا نقف في البلدة ، وان نواصل السير حتى
الى ميروبا . فنبات فرح يمشي الى جنب البغلة لا وراءها ،
استأنفنا السير . وكان محجوب يمشي الهوينا ورأسه الى عنقها ،
اذا استحثثتها فاسرعت بادره اليها [illegible] والرسن .
فتكنفته في [illegible] بالرغم من ان يكون من اقرب [illegible] ذي الاشجار الهرمة التي
مررنا بارض جعيتا فوق بستان الزيتون في عرض الجبل
[illegible] ووقفنا بعد ساعة من السير وربط محجوب البغلة وانزل
يتجاوز عمر بعضها الالف ~~[illegible]~~ صنوبرات ناعمة الظلال ،
عند دكان وخيمة بين صنوبرات ، ومسح به جبينه
الخرج ، ثم اخرج منديله الاحمر ومسح به جبينه ، القاطع التي حجبت
ليس في المشاهد الجبلية من هذا المكان يتجلون اجمل من ناحية القاطع التي تحتها
لبنان يكشف جنب الجبل الاعلى ، وينبت شباب على صدر الجبل
منه . هناك سلسلة من القرى - ان ذرة الذرة وخزنة الحمراء وخزعة
ومنها غرباً سلسلة - متصلة بعضها ببعض . وهناك الى
بشوع ودير المخلص وبيت الشعار - بالقليل من الارض المنحدرة منه
بيت الرجال ، وقد ذهبت المسافة ، فيخيل للناظر اليه من هذا المكان انه قائم على حفة
شفا الوادي
الوادي

(١٤)

على شفا

الوادي كأنه فوق الهاوية.

جاء محبوب بالإبريق يتبعه صاحب الدكان بكرسيين وطاولة

صغيرة. وبعد أن كان ~~[illegible]~~ يخرج الزاد من الخرج أشار بيده الى

فمه، فطلبت له كأساً من العرق، شرب جرعة، وأكل قطعة الكبة،

وهو يقول: "اليوم يا معلمي عيدك". فطلبت له كأساً آخر من العرق.

وبعد أن انتهينا من الغداء نظرت اليه والغليون الفارغ بيدي

فقام وقال لصاحب الدكان: "اركيلة للخواجا". صفا وقت. الاركيلة طيبة

تحت هذه الصنوبرة. ما احلى راحتي، لا قال.

وكان محبوب قد قسم الطريق الى ثلاث مراحل من اجل راحته كذلك

ولكني علمت بالتقسيم ~~[illegible]~~ بالتدريج انه كان يحرص على راحة الذين

راحة بغلته المصفوفة محبوبة. وعلمت ايضاً بالاستقراء انه من الذين ~~[illegible]~~

يعتقدون وان لم يقولوها ~~[illegible]~~ ان العجلة من الشيطان. فما نحن من السيرة يجلسون الى

فجعلنا في الخلجة يجلسون. وما نحن في [illegible] في ارض صخرية جرداء

الغفوة. ولكني ويحة صاعدون الى فيترددون [illegible] البغلة. فلبثت طائفة

لاطل فيها وهي تشعر بالحر، فاستنشقت [illegible] فقعدا محبوب

وهي تحدف فتردد الصخور صدى [illegible] من الشائب

بارك الله فيه وقال: يا معلمي

وراءنا وقطع النقرة فادركنا. على مهل يا معلمي

والخوف: "الوقفة بين هذه الصخور ملعونة"

على مهل." لا تخف يا محبوب: والتذكير الظفر

فكامنة بلهجة فيها شيء من نبرة الظفر

الفوارس.

لا تخف." والله يا معلمي صرت من الفوارس

فضحكت وقال: وركلت ركلة "عنيفة"

وهي تنت الفتنة وقفت محبوبة فجأة كل ذرة

وهي تضرب وركيها بذنبها لتطرد ذبابة كانت تزعجها

بسرعة ~~[illegible]~~ كادت تكون مفجعة. فقد تغلغل "الفارس" وهوى

على ظهرها. ولولا لطف الله ومحبوب لطاح بنا الصخور. بالاذن الصورة!
مشينا بعد ذلك المشي الهون كما يقول عرب نجد ووصلنا عند الاصيل
~~مسقطها~~
متحف الصخور في جوار فيتيرون:
اقول متحف الصخور ولا اغالي. كان هناك بقعة بركانية وتركيب صخورها فقط،
منقطعة النظير في لبنان. فهي لامتيازها بتعدد وكأن يد
لا يمتاز كذلك بالاشكال التي اتخذتها تلك الصخور
المكون ~~[illegible]~~ الاعظم ~~[illegible]~~ بدفنان جلس ههنا ينحت التماثيل
والاشكال البشرية والحيوانية والهندسية، جلس ههنا يعمل على هواه
في هذه الصخور فتكوّن منها كل ما يستطيع ان نتخيله احلى الشعراء
خيالاً، كل ما يستطيع ان يبدعه ابعد العلماء ~~[illegible]~~ من الصور والاشكال
والرائع والقاطع والقبيح والعابس والمضحك
فلا مبالغة في القول ان متحف الصخور. فقد حجبت
ولا يمكن ان تتملأ العين منه بربع ساعة. رغبة تخففت بعد بضع سنوات
في النفس رغبة بالعودة اليه، وخصوصًا
وهذا المتحف لا يبعد عن البلدة فهو متنزه اهلها
الشبان منهم والفتيات، يقصدونه عند الغروب بين تحف الصخور
تقاطيع من القطط، اذكر منهم الغزلان،
وما كان في لبنان سنلتقي بفيتيرون من جميل المناحيات انتخبني
ذكرت الاولى وهي المتحف بعد ان مررنا بدير الهباتك
وقت واحد
وهذه الثانية. عند طرف البلدة، تحية حارة، تحية معرفة وصداقة ومحبة، وحيانا
حيانا احد ابنائها تحية التجبر، ولكني علمت بعد ذلك ان خبر سفرنا
قد جاءت مدعوة لوداد التحية، فكتب اليه يعلمه بقدومنا
كانت اخت احد ابنائي فيتيرون
الا الدكتور الذي اصبح صديقنا عزيزًا وبطل
وحده لنا. ~~[illegible]~~ – الذي اصبح صديقنا بعد ذلك وبطل
وهذا الصديق الجديد – مضيفنا ~~[illegible]~~ – الذي اصبح صديقنا عزيزًا وبطل
شأن اكرم الزائرين، وصار صديقنا حميمًا قديمًا هو الدكتور رضا
دريان

١٦

نبع الحديد

حططنا الرحال في فيتزرون، وكانت ليلة في بيت دريان تذكر وتعاد. وقد تعددت بعدها العودات وكنا في كل عودة نشعر بالشعور الاول، بشعور الدهش والابتهاج، وقد قرن بعدئذ بزيادة المعرفة والتقدير، وبزيادة الحب والاعجاب.

تمتاز الضيافة الكسروانية عن سواها في لبنان بشيء يصعب وصفه وتحديده. فهناك الكرم واللطف والمروءة وشيء معها يجعلها من الصفات التي لا تنفيها، وان اوجبتها، التقاليد والعادات. فقد تتغير العادات والتقاليد، وهي لا تتغير، كما هو الحال في هذا الزمان. فالضيافة الكسروانية لبنانية، وليست الضيافة اللبنانية دوما كسروانية.

ولهذه الضيافة الكسروانية آفة من جنسها، تدخل على قلب الضيف شيئا من الهم يمازج ما فيه من سرور، ويتغلب في بعض الاحيان عليه. لا نكران ان رب البيت يشعر سرورا فائقا صافيا بكل ما يبتدع في سبيل ضيفه. وكان الضيف، خصوصا اذا كان من ناحية المتن او الشوف، حيث تتعدد النزل الحديثة، وتقل الضيافة المأثورة، يخشى ان يكون مقصرا – وسيكون ولا ريب مقصرا – ان انقلبت يوما الآية وصار مضيفه ضيفا في بيته. فهو لا يخشى ان يقال في كرمه او ادبه او مروءته كلمة نقد او كلمة معيبة، او كلمة تفسد هيبته، ولكنه يخشى ان يقال فيه انه لا يلح على الضيف ساعة الوداع الالحاح اللازم اللائق ليبقى يوما او اسبوعا او شهرا آخر في ضيافته، ولا يخرق ثوبه، وهو متمسك به، ليحول دون الارتحال.

وقد عرف الدكتور حنا دريان واهله ذلك صباح اليوم التالي ساعة الرحيل، وما اذنوا باستئناف السفر الا بعد ان اقسمت بمبا – ان [?] – وحق ربنا، ربي وربكم [?] مغلظة، بشرفي، بحياة امي.

ا ع ج /

اعرّج في العودة منه الارز عليهم، واقيم عندهم اسبوعاً
واحداً في الاقل.

— "اخرج فلان، والله فلان! حبنا منه خبركم وخير الله
مايلفي لسفرة الى حلب."

هذه الكلمات كان يرددها محبوب عند خروجي منه البيت.

وسمعت الخدم يقولون: "ما عملنا ما يليق بكم — ما في شي
منه قيمتكم — لا تؤاخذونا" وهم يدسون في الخرج ارغفة
الزاد، وزجاجات منه النبيذ.

ثم جاء الدكتور حبنا بمكتوب كتبه الى صديق له في المغيرة
واعطاه المكاري، وهو يقول له: "باتوا الليلة في المغيرة. وان
لا تتجاوزوها اليوم وان وصلتم اليها الظهر. ولكننا نريد راحة الافندي"
الخطر؟ لا خطر هناك — [illegible] الليلة الباردة
ولكن المكارية الذين تحدث واياهم [illegible] خطر
على [illegible] في الورود — لا يخلو منه [illegible] فالمغيرة
قالوا له ان الطريق ~~العالية~~ الاسفل الى لبنان فالغابات [illegible] متراً) ان
ويحتو [illegible] يلزم الطريق [illegible] (١١٥٠
فيتر [illegible] هي في مستوى ظهور الشوير [illegible] صعوداً الى مسرور.
ومكان الارض منها صعود الشوير مثلاً
كم من تعلوها طليك. وكان الارض الكائنة بينه ظهور الشوير وانه
وما دونه هي اخشن واوعر منه الارض الاكثر عمراناً منه فضاء كسروانه
وعيطوره المتن. ولا عجب فقضاء المتن الا [illegible] بعض
فالطريق منه قنبرون العيرون، وان عدت شاء الله"، وان كانت في بعض
اجزائها تمر بجل الاردم، هي منه الورود وخشونة الورود لو كان. هي طريق
تسرو اليه خطاير الشرو [illegible] قد تبلغ حوافر الدواب فيها، وتسمع صفير [illegible]
من وراء الخور، ومن خبايا العقبات.
بعد ساعتين منه السير مررنا في ضواحي ميروبا العالية وصعدنا

ص/

19

١٨

مرهفات بين الدوم الى الصرود الشفيقة، حيث سالمجل ان الجمار،
وشمائل الظلال، فتغدو في بادية صخرية قاحلة شديد حرها
عميم نور شمسها، لعيش القرار سكينتها، وهي مع ذلك لا تحرم
حسنات الطبيعة كلها. بل تمتاز بحسنات، منها
النسيم البارد المنشط وينابيع المياه الباردة المنعشة.
ولعمري ان اللبناني اللاصق بصخور جباله هو مثل الصرود
في اخشيشانها، وفي نسيمها وينابيعها. هو ذلك النسيم العاصف في لطفه
ومروءته، وهو ينبوع الماء القراح في كرمه. وهل فيه بعد ذلك ما
نشاء، فتظل كفة الخير في ميزانه راجحة.
وهذه من عيون الصرود عين الجرن، وعين الفجح، وعين غوث
جرابة - ونبع الحديد! فكان كتب على محبوب ان يتخذ الطريق
الاسفل، الى الاستا. فضل بين
ما الذي جاء بنا الى نبع الحديد؟ الا لاوصل - الى الاستا. فضل بين
الصخور، دون ان تعلمني بذلك - وامض في الطريق الذي كان
بعثناه، الطريق العالي الى مغارة افقا. ثم قال: واي شيء في مغارة
وكنت قد طلبت منه ان نمر بافقا فجمجم الكلام ثم قال: ... بيروت صور
افقا؟ فتح في جبل (الاقرع) غدا تشتري كارت في بيروت صور
افقا. وما هي مغارة افقا - صورك احسن منها، والله يا معلمي. ولبد
فترى انها لا تستحق الزيارة."
ان تراها تقول صدق محبوب، الذي هو على عدة فقط ضد المغارة،
لكنه مع ذلك في نبع الحديد، الذي هو على ... فلا دل
وها هو مع ذلك في نبع الحديد، بين الصخور ... تشبع ماء ... فانت
نبع الحديد بركة صغيرة بشكل تنور ... بركة بين الصخور ... اليه يدك فانت
على وجهها الجيب كأنه في غليان. واذا مددت
لا تحتمله فيه ربع دقيقة. بحرقك البرد.
حينا فعددت خمسة عشر وسحبت يدي خفافا
مكسوب ثلاثين ونحب يده من الماء، هادئ البال محورا
وصولنا فقد عد (عشرين)
اما المغاز الذي كان هناك عند
المغار

والطريق ... الى الاعلى ... ١٥ ...

٢٠

١٨

المعاز على نبع الحديد شيء مألوف . وكنت لا أزال أذكر ذئب

المعازات بـ[illegible] عاد يسبح في ذهني من جباله الجبلي البارز في عباب

سوداء كبيرة براقة النور، وفي فم قرمزي فستقياني، كأنه الإله تموز،

وكان قد فك جرابه وأخرج منه الخبز اليابس، الخبز الأغبر، يبلل

الرغيف منه بالماء، ويلفه ويلكمه كدقيتين، ومد يده الى خبئه يأخذ

حمراء ورمى بـ[illegible] احدى العنزات الشاردة ليردها الى القطيع،

[illegible] الخمرة بين تلك الخمور فاز محبوب الخرج وفتحه ففاحت منه روائح

الدجاج المقلي والكبة المشوية . وكان المعاز لا يزال يسبل الرغفان ويكدم

خبزه، فناديته فقال: كثر الله خيركم !! فألححت فجاء مترددا

خجولا، ثم جلس على حجر الى جنبي معتذرا !! فشاركنا وقبل ما قدمناه

له من الزادين زاد الفرد وزاد العشرين "[illegible] دفقة واحدة" وراح [illegible] وهو

ثم قال: أحوجكم أن تنتظروا [illegible] سطلا من الحليب فهو النقد

من السحور كاحدى عنزاته وعاد بعد قليل يحمل سطلا ليبرد

في ماء النبع. فوضعناه [illegible] على حرارة الضرع

لا يزال [illegible] كالحليب المثلج. وسمعت هذا يقول!

طعم رائق أثناء ذلك يكلم المعاز [illegible] الأبط رفيقه

أنت المكاري — رمى بحجر من كتف [illegible] الى المكان الذي

"هذه طريق أفقا — وهناك طريق لبنان" [illegible] الى المكان الذي

هذه طريق افقا . هناك الطريق الذي يجتازه [illegible] فيه وجدنا

معاز قنقوش عاليا — هناك الطريق الذي ... قطاع الطريق

وكان محبوب سائرا في الطريق الذي هو خوفا منه قطاع غربا بشمال

~~شتنة انا وما شاءه هو بأن الجادة التي تدور شمالا غربا الى الاعلى~~

~~الى جبب طاح حجر المعاز واحد فتقصف [illegible] اشتر~~

(اصلا) ثم تستقيم غربا نحو [illegible] الى افقا وقال انا ربيت [illegible] تحت جدر الطريق

عندما رفض محبوب ان يسير الى افقا ظننت ان الرجل ليس فيه [illegible] دونا منه افقا

بدوت هو واحتدت منه، طننت ان الرجل دار دورة طويلة

وعندما رأيت انه في [illegible] وضلاله اخلفت ظني وقلت انه جبان.

وحادث ذلك عنه

٢/

ثم يستقبل غرناطة، فيقطع ساقية ترعى لها بنوذي، فتمر بحمامها

بغرب مشواتها، [illegible] وتكل بستانها بحو ثلاثين في نفسها، من المساوله،

وتمر إلى الأندلس.

٢

ثم حدث الحادث الآخر الذي زاد تعلقي فيه واصلحه. كنا في المنزلة

فسددني الى الاراك. فمررنا بغابة من شجر الزمزريق الاخضر

فقلت للمحبوب: "اقطع هذه السلسلة وهات لي عصا منه"

فقال: "قد اغنانا كثيرة منه السبحة زنبق" الا ان تذكره على المذ الواحد

وما كان عليه الاول بحيازة حداثة. فابى، فسجلت

وفي نفسي شغف عشرة اضعاف الى تلك الشجرة. هي ذي الخيانة

عليه الجبن والكسل، وصورتها احسنه منها". هو ذا الكسل

افعال تقتب في جبل. المنافقة: "الزمزريق كثير في الطريق قدامنا". هو ذا

الكريم الكذاب الرفيق، ولكنه لا يزال

ليس فتل الطريق لنا وكشف محببات

في المرحلة التالية لطف الله بنا، وستر عيوبنا

٢٧

٥

٢١ كله

الاودية المقدسة

من حسنات هذا الطريق الى الارز انه طريق جبلي يمر بك على ثلاثة
انهر تاريخية، هي نهر الكلب ونهر ابرهيم ونهر قاديشا، وثلاثة مغاور اثرية
عجيبة هي مغارة جعيتا، ومغارة افقا، ومغارة بشراي.
ومن صفات هذه الانهر والمغاور صفة قدسية زرع بزورها الكهان، وقد غرست الامم الشرقية
والغربية على ضفافها تلك الاديان، وانماها ذوو الورع والايمان، وطمعها بتغذية الزمان. وقد اعراس الاساطير والخرافات، ووسمتها بالميسم الديني
الوطني، فكانت يوماً فينيقية، ويوماً يونانية رومانية، ويوماً سريانية
او ارامية او عربية.

لقد مررنا بآثار اليونان والرومان في نهر الكلب، ونجد الان مشرفون
على فينيقية المنتشرة في هذا النهر الحامل اليوم اسماً سامياً ولكنه غير
فينيقي. ولادونيس وآثاره في الاسماء مشهورون، اقرب الى مصدر حيث يستقي منه النهر، ولولا
اما المغارة فهي في اسمها
جبانة المكاري محجوب لكنا واصلنا السير في الطريق العالي البهي فالفرق
في المسافة الى محجتنا بالمغيرة لا يربي على العشرة الكيلومترات ونعود
الى هذا الموضوع. ويستطلع القارئ على
بشري ومغارة افقا ان شاء الله ذلك الحادث الذي كاد يفرق شملنا كله
الحادث المنكود الذي سيتبين محجوب وحبيب ومنه فائدة. فلولاها لكنا
الثلاثة، اي صاحب هذه العلة محجوب لم تخل ومنه فائدة
انما اقول الان ان جبانة محجوب لم تخل، هي غريبة في اسمها وفي

حرمنا رؤية بلدة في هذا الوادي الفينيقي المقدس الذي ينبع في
اهلها وفي اوضاعها الدينية.
هي قرية صغيرة كائنة آمنة في منعطف الوادي في هذه القرية
راسه نبع الحديد ويجري عند قدميه نهر ادونيس. وان في هذه القرية ~~...~~ هي في اهل القرية
ثلاث ~~...~~ المسلمة الشيعية
يحترمها، وفي كرسي اسقفها، وفي اهلها الاسقفي
المناولة. وفي اسمها الهندي الصليبي، وفي كرسيها الاسقفي
المسيحي

المسيحي الكاثوليكي الماروني، حاب آدونيس وعشتاروت
وانه عبادهما في هذه الشطائب والشواذات ؟
واظنه ان المطران يوحنا الحاج رئيس اساقفة ابرشية بعلبك
التي هي مقره الصيفي
يستطيع ان يخبرنا ما الاصل والسبب في اسم القرية
الى لبنان ؟
لاسا — من اين جاء هذا الاسم
مدينة لاسا المشهورة بأديرتها
ان في بلاد المغول ~~بالتبت~~ بالتبت
والخرافات. لاسا — عرشه
ورهبانها وبوذييها الكثيرة الطقوس
لاسا، المدينة المقدسة لبوذه
الآلهة في لغة اهل الهند الاقدمين — وبين هذه اللاسا
والبوذيين — ما الصلة يا ترى بينها ~~[illegible]~~
اللبنانية التي تحتوي على ~~[illegible]~~ عائلات
منه المتاولة ؟ وكان سؤالي موجهاً الى محبوب لا الى محبوب،
قبل ان تقف المكاري،
ليت انا الى اثر هذه المرة، فتوقفت البغلة
في هبوطها الى لاسا ~~[illegible]~~
فاشين. فقال محبوب:
الطريق، وهي لا تزال تعرف الدب
وتنا نحن الثلاثة حسب الاشترى فاصولياً،
عند بيت الى هنا اخر مرة، وقد قلت لي انك
— "وقفت فطنة ذكية !"
— هل بعد هذا تنكر انها لعلة في الطريق الاعلى الى افقا
~~[illegible]~~
— ولم لم تشتر
الرجل العاقل فشفقته بيته ؟ لا
سألته مرات عديدة. فهل لك ~~[illegible]~~
— "لا ادري يا معلمي. فطنة ذكية. هل لك
ولكن يا معلمي اني مسؤول عنك. صدق محبوب."
والبغلة العاقلة. ونحن نراها وتقول:
ان صورة افقا حسنة فيها، وطقسهم في البيع
— وما جاوبت على سؤالي الاول...
— "بخصوص لاسا ؟ والله يا معلمي اهلها اوادم،
والشراء معروف. ولكنهم يعتدي بعض الاحوال مثل العقبان الكاسرة
فيطلعون الى الجرود (الصرود) ويقطعون الطرق."
— "وهل تظن انهم اشجع من غيرهم ؟"
— "اظن ان سلاحهم احسن"

"ا.ح.سُ

٢٧

السيدة

عائدات حارونية شركاء الناظر زليته، وما لا يزال عملهم

ته المتناولة

— "احسبه من السلاح الحامله انت، يا محبوب!"

— "الله يخليك، لا تكثر على السؤالات. قلت لك، يا حلمي، اني مسؤول عنك. ومع ذلك اذا كنت تريد ان تذهب الى افقا ... على راسي وعيني!" وهو ضرب البغلة بكفه على خشبها فدارت كالدولاب، فما فهمنا صعوداً ودبدا الدوز. يلمح بها: "دبه دبه!" وبسبب دين افقا ... وعندما

— "لا تتعب، يا محبوب، لا تتعب. قريبا نصل الى المغيره"، زاح تروقا. "دعني انا اسوق البغلة!"

— "انا رايق، والله رايق." ولكن سؤالاتك يا حلمي تعكر حتى نبع الحديد! ... لسا ..."

— "سؤالي هذه المرة، يا محبوب، هو بخصوص لسا ..."

— "كل ما اعرفه عن لسا هو اننا نحمل اليها فخار بيت شباب ونبيعه لاهلها باسعار غالية، ونشتري منهم الفاصوليا والحمص والعدس باسعار رخيصة." ودخلنا قرية العاقورة، وكنا قد اجتزنا البلدة ذات الاسم المهول ... قبل ان جاء الانسان، فبنى ... التي لا يخطاها السهو. فقد كان المكان للاشجار وفيه منها غابات ... هو نهر الاحمر ... قطعنا ... مكان الاشجار قرية على ضفة النهر الخنوبية ... الى ... حسره الى الضفة الشمالية فوصلنا بعد ربع ساعة ... وتجتمع بعد العاقورة ... الغابات بمياه النهر التي تجري فيه مياه العاقورة، القرية المقيم فيها الى المغيرة ... فقطعنا الجسر ... التاريخي. وكان بيانوح في العهد ... من يحمل كتابا الى ... الفينيقي يانوح. كانت المغيرة حيث كانت تدعى بالاسم ... فصارت في العهد المسيحي ديراً ... معاصراً لهيكل افقا ... الفينيقي هيكل ... ودونيس ... اقام ... فيها ثمانية عشر ... وصار الدير مقرا للبطاركة الموارنة ... في المغيرة ... من بطاركة ذكرهم الدويهي في المجمع اللبناني ... ومن آثار الرؤساء الموارنة ... الآثار الفينيقية ... قصر ونواويس ... ارزاق ... سنأكل الليلة ... الذي كان ... يوسف ... صعدنا الى بيت داود حلكون ... وصاحب الملك ... في ... له بالمغيرة ... المطران يوسف دريان

امين ... (اقليم)

امسيا في الجوار الواحد في غمرهذه الفانية رحمها الله
الى لا ازال اذكر داود الطاهر المبسم ، الخفيف
الظل الذي كان يجسد النكتة ، كما يجسد جرى الضيف ، واذكر
مع بسمته الطاهرة حديثه الفلفل ، وقد تغلغل منه
محبوب في تلك الليلة ، وتغلغل الفلفل الى دمه ،
عندما كنا جالسين الى الطعام

الطعام

التابع في صفحة ٤٧

~~امسيا في الجوار الواحد في غمرهذه الفانية رحمها الله~~
~~[illegible] السنة [illegible] من هذا القرن العشرين~~
~~اما الحجة الاولى في السنة [illegible] ال [illegible]~~
~~وفي الطريق الى [illegible] والنزال في ضيافة ال [illegible] الخفيف~~
~~الى لا ازال اذكر داود اللطيف المبسم~~
~~الظل الذي كان يجسد النكتة كما يجسد جرى الضيف~~
~~واني لا ازال اذكر حديثه الفلفل الذي تغلغل محبوبا في~~
~~تلك الليلة وتغلغل الفلفل الى دمه~~

فُرشت فوق حصير على الارض، جوفي طبق
الطعام، على سجادة
من النحاس الابيض. وكان الحديث في قُطّاع الطرق، فقال
داود وهو يسكب العرق في قدح محبوب:
— مساكين، الواحد منهم يخاف من خياله. ولكن احوالهم عرض
سموهم طارين" لانهم اليوم هنا وغدا
وشواربهم طويلة مفتولة . . . ولو علمت الحكومة ان
على النبع، مثل الطيور — لبعيد الشبه . وعندهم [illegible]
سلاحهم صدئ وبارودهم مثل التراب المندّى . . . ولكنه
الحكومة — ايضا ايضا — الحكومة تخاف من الطيار" والطيار تخاف
من خياله ." — هذا الجبن "
— وهل الحكومة وحدها تخاف الطيارين — فرمى الكأس من يده
لحقت باسمه،
استياء محبوب غيظا قبل ان
وهو يسب [illegible] الطيارين ودمه احتقانا في احوال المزعجة في
وقد كان على ان احفظ منهم ما [illegible] فلا اغلط في الاول
ذكور الدواب، المؤنثة [illegible] وهي: اكرم مكاريك، وفي كل علم شيء من الخبر
محبوبا وان هواه [illegible] رأيت بعلمي، فحماني ذلك على
بدا ان الكلمة التي فرطت مني [illegible] محبوب، — وانا اخشى
خلقا آخر من اخذ محبوب [illegible] احكمه
فقد اكتشف اثناء احد حياتنا السلام [illegible] ومن فضلك
الكاظم [illegible] هات الابريق، فسلاك
الاحمر المجرد فاقول: من فضلك افرش السجادة . . ." تلك الليلة
ذلك الخرج ومن فضلك فاقتسرك، وراح منذ ساعة كانت الحادثة
وقد اعجبته هذه العبارة وهو يخاطب داود على السطح"
يستعملها جزافا، فقال [illegible] من فضلك [illegible] التراب" حصوها اذا
تفرش لنا الفرش للنوم ميسور الحال [illegible] وقد كان داود شيخ
كان الشيخ في تلك الايام [illegible] ذي نفوذ كبير [illegible] لعادة في استثمار الملك
كان [illegible] المطران او [illegible]
ذلك الوادي، [illegible] معاونون

معاونون، وتخدم احد نسائهم او بناتهم في بيته. اذا

وكان منزل ذلك الشريف، مثل منازل الشركاء والفلاحين جميعا، ذا

سقف واحد او لبيتين مسقفين، ينفتحان من احدى جهتيهما على سطح لقبو تحتهما،

وظلل السطح خيمة من الشيح، او من عرائش العنب. منزل مرتق تلعب

الرياح فيه - مرتق الارض - سقفه القاتم المخيف - وهو قائم على عمود

واحد من حجر كبير، وروافد من خشب، يكسوها دخان الموقد بالسواد،

وتختبئ فيها الحشرات والحباب، فيسقط منها في بعض الاحايين

في طعامك وانت تأكل، او في فراشك وانت تنام! فاكلنا

ما كان شيء من هذا والحمد لله يوم اضافنا داود، فاكلنا

دجاجه المحمر وشربنا نبيذه المعتق، ونمنا آمنين متنعمين في فرشه

النظيفة الوثيرة. لا ازال اذكر ما كان في ذلك البيت البسيط

الحقير من آثار النظافة والاناقة في كل ما احتواه من فرش وماعون

انتهت الضيافة جميلة في وداعتها، كبيرة في روحها. وما انتهت في

صباح اليوم التالي عندما همنا بالرحيل. فقد كان داود يسرج

حماره على ما كانت لنا دهشة نتبادل وحشوا آبابنا المحاملة

والاعتذار. فقد اضاف الى ما تبقى من الزاد زادا جديدا، فصار خرجنا كالخرج المسحور

~~الرحيل وزادا~~ جديدا، الف ليلة وليلة! فماذا تبتغي من الفواكه

للكردي المشهور في كتاب ... فماذا تبتغي من الشراب.

الخضر؟ وماذا تبتغي من الماكل؟ وماذا تبتغي من

الخمر؟ العرق؟ الكازوزا؟ حاضر، سيدي.

وركب داود في معيتنا الى نبع اللالو، مسافة ساعة ونصف

ساعة. ووقفنا عند بيت شعر لي اخي هناك كان داود رحمه الله

يعرف صاحبته الحسناء، فسلم عليها سلام الاحباب، وردت السلام بمثله

وتمازحا بعد ذلك وتضاحكا. فاشار داود بعصاه الى القبة

تحت صدرها، وهو يقول: "وابنه من هذا؟" فاجابته

الزينة ضاحكة: "الله اعلم."

وودعنا

ودعنا داود جي الألو لعدان دل مجبوبا على الطريق، فمشينا
شرقاً بشمال من أعلى مكان أدركناه في ما نقصد من الرحلة (١٨٠٠ متر) فمررنا
فوق سنوري ثم صعدنا الى الجبل المكسو بالارز المعروف بارز الحدث
او ارز البطريرك! ذلك لان هذه الغابات المزروعة بالارز
والشربين هي مشاع لاهل الحدث، يشتركون في استغلالها
حسب نظام وضعته البطريركية المارونية وتولت المحافظة عليه؛
ومن هذه الغابة، التي تدنو في علوها من مستوى الارز الاشكر،
نزلنا الى الحدث فاستهدينا من الطرق الجبلية الوعرة الى طريق العربات،
وهي تمتد في وسط الجبل على كتف وادي قاديشا من الحدث
الى حصرون فبزعون فبشراي، في مستوى فوق سطح البحر يتراوح
بين الالف ثمانمائة والالف [illegible] من الامتار؛ فقطعناها
وكان المكاري مجبورا ان يزال متعكر الخاطر من حديث الليلة البارحة
ويزداد طولا حتى هذه الثالثة في سوء حاله، فكان يغتاظ من حماره
الى جنبه او امامه، فيسب دين كل شي الشيء
اذا ما انعكس [illegible] الاصيل في
سوى التعب والضجر، وهي مطهمة كالفرس الاصيل في
وقد سب حتى بغلته المحبوبة، فجمحت
جبل الحدث، ورماها بحجر اصاب ما وراء اذنيها، لولم [illegible]
وشالت بذنبها، وكادت ترمي بفارسها الى الارض،
انه اصبح حقا من الفوارس، ومشى الى جنب البغلة، وخاطر على
وعندما ادركنا طريق العربات خف سير الهوينا من الحدث الى
استعمال الرسن في استحثاثها، وقد كان يحسن بركدان
بشراي، دون ان نقف للاستراحة وللغداء،
نقف في حصرون، او بزعون، او بشراي للغداء والاستراحة،
فقلت جازما: لا غداء ولا استراحة الا في الارز،
فزاد ذلك في تغيظه وتعكر مزاجه
ردينه!

دليبه ! دليبه !! لغناي الشوط الاخير ~~[illegible]~~ بيان شرائي

والارز، فانعقد نحي جادة ضيقة فتعرجت، فتهددتنا هائرة الجرف الخارجي،

تدور دورة لولبية، ونحن محشورون فيها بين حائط الجبل والانحدار،

بل بين سور عالٍ يحجبهم المسافرين، وهاوية سحيقة ترحب بهم فخفقت

وكان قد خاطر بهذا الطريق، وسمعت محبوبة وشنبها ونخوفها وترددها.

دريعاً الطريق، فحاولت ان استحثها بالقول

محبوب على الرسن، اصوّت به على رقبتها، فحاولت ان استحثها بالقول

والمجاملة : يا بنت الحلال، يا مباركة، يا محبوبة يا زينة البغال،

المعروف، يا قرة عين محبوب ! انتهي كما بدأتي – لو في حتى النهاية

يا عروس الدروب، لا تضيعي في هذه العقبة

المقدسة ما احرزته من المجد في الرحلة كلها. ثم خاطبتها بلغة المكارية!

٢٩

دليبه ! دليبه !! النغلة !

وصاح محبوب بي : بلا دليبه دليبه، يا معلمي، بلاها .

افهمها انت بلسانك. انا اكلمها .

دليبه !!

دليبه . ا دين الي ما بك ، دليبه !! ومحبوب جابر

وكانت محبوبة تخطو بطيء خطوات، فكرّرت ولقفت ، عندما رآها في متسع

عليها ، وهو يمشي وتقف معها ، فحدّق الى الارض ثم اعوجاج رقبتها . ثم

من الجادة ، وقذف بالحجر الاول فسبح وركبها ، وبالثاني فقوم

عدا وراءها ، فادركها في منعطف الجادة ، فمشى الى جنبها لاصقاً بها ،

فتلت الرسنة – سري الغيظ الي – فدارت دورة حادّة ، فارتطم كفلها

بصدر محبوب ، فرفعه الى الارض عند شفا الهاوية ، وكاد يسقط فيها !

تخيلته منتدحرجاً كالصخر في ذلك المنحدر الهائل الى قعر

الوادي ، فارتعبت ، وحزنت ، واعتذرت :

– لا تؤاخذني ، يا محبوب ، لا تؤاخذني .

محبوب ، وهو ينفض الغبار عن ثوبه ، ويصلح الكوفية على رأسه : لا اسفه

يا معلمي اسفه . اذا وقفنا في كل طلعة نؤاخذ بعضنا لا نصل اليوم !!

وكنا ، والحمد لله والحمد لله ، اطللنا بعد قليل على الارز . وفي الساعة

الثامنة زوالية من اليوم العاشر من شهر آب من السنة الف تسع

مئة وثلاثين ، دخلنا الجوار المقدس سالمين جميعاً

والبغال والاثقال . ——

٣٠

٦ ٢٨

الارز

سالمين،
وصلنا اليك يا ارز لبنان، والخيال طاح من سماه، والقلب
ولكن الرمل تدهور من علياه، عندما أطللت على مجدك المكلوم تحت
تكيب في ابهائه وهواه،
جفن الجبل: — كنت اتخيله منتشرًا فوق الرواسي، متممًا
مجد الارز — مرتفعًا كقوس قزح فوق الاودية والسهول، حاملًا
على البطاح والربى، جامعًا في ظلاله كل انواع الاخضرار،
في عبيره شذا الازاهير وطيب الرياحين، وبين بخور السواقي، وعند ملتقى
باسطًا من ظلاله على وجه المياه،
الوهاد والشعاب — كنت اتخيل الارز في هذا المجد الرفيع العميم،
فرأيته منزويًا مقعنسًا في حنية من طرف فم الميزاب.
كنت اتخيل الجبل في ظل الارز، فالفيت الارز في ظل الجبل،
كنت اتخيل الزمان نجمًا في غابات الارز، فرأيت
الارز صاغرًا في كف الزمان، آفاق حاسرًا، وشلو اجنحة
كنت اتخيل اخضرارًا يزيد البحر عنه بذوره وجذوره، فرأيت لفحة
النسور في التحلق الى موطن، ونسرًا يبسط فوقها جناح الكبرياء،
سوداء، في جنوة ذكاء، وعرضها وعلوها واكدارها، ومسّل
كنت اتخيل مجدًا يملأ الجبال طولها، وطيبًا للسهول تنشره على عرضها مرجها
من علياه نفحات للمروج تزيد بعبيرها، وضياء القمر في
وغديرها —
كنت اتخيل مجدًا يلفّ نور الشمس في بابه،
كنت اتخيل الفاظًا قدسية، تردّدها الاجبال والازمان
محرابه، فيرسلها الفاظًا شعرية، على عروش ذهبية، في رحاب
كنت اتخيل امجادًا، وفي دهشة، وفي عتمة
الهيبة تجرأت ووقفت عند الباب، وفي حسرة محرقة: كنت اتخيل هذا!

٢١

٢٧ فرح

بدوي

الإنباء؟

فهل الارز صفحة من التاريخ؟

وهل الارز قصيدة من قصائد الشعراء او نشيد من الاناشيد؟

وهل الارز مسطور في كتاب خفي؟

وهل الارز بخور في مبخرة الزمان؟

وهل الارز مدّة من قلم، وريشة على علم؟

قيل ان كل كبير في الطبيعة وفي الفنون هو صغير لمن في قربه.
فيجب ان نبعد عنه قليلاً ليتجلى لنا كل ما فيه من سمو وجمال، ولندرك كل ما
هو عليه من حقيقة العز والعظمة.
هذا القول يصح في بعض الاشياء، ولا يصح في غيرها. يصح مثلاً
في الجبال العالية: فانك لا تدرك حقيقة العلو فيها وانت واقف في
سفحها. ولا يصح في الصروح والمعابد والآثار والاشجار الكبرى.
فاذا وقفت في سفح جبل الارز ظننت انك تستطيع ان تصعد في
نحو ساعة الى اعلى قنة فيه. واذا نظرت في السماء الى القمر
يطلع من وراء ذلك الهضب ظننت ان في امكانك، لو كنت ذا جناح، ان
تثب وثبة واحدة من احد اغصان الارز اليه. فهي خدعة بصرية
تريك المسافات مطوية، والبعد
وقد يصح ان نقول ان القرب يطوي المسافة العمودية، والبعد
ينشرها، اللهم البعد المحدود. فقد يمازج الحقيقة شيء من الوهم عندما
نتجاوز حداً ما، فيبدو الجبل العالي في نظرنا اعلى مما هو في افقه.
ومما لا ريب ولا وهم فيه هو ان شيئاً من البعد واجب لادراك
حقيقة العلو والجمال في الجبال والاشجار العظيمة،
اما في الصروح والمعابد الكبرى، وفي الآثار المدهشة العجيبة
فالحقيقة هي على ما استلفت بيانه. فانك لا ترى الا اذا
في الغابات العالية يدنا منها السحاب بنوبوك مثلك

دلوث

ولا تشعر بهول العلو في العمد الستة في آثار بعلبك
إذا دنوت منها،
الا اذا وقفت في ظلها، او تحت افريزها،
ولا يتجلى لك الفن بكل جماله، والقداسة بكل جلالها، في معبد
كبير مشهور، مثل كنيسة نوتردام في باريس او قبة الصخرة في القدس
الا اذا تجاوزت الظل، ودخلت الباب، ووقفت تحت
القبة الى جنب عضادة من عضاداته،

دخلت الهيكل موقناً مشفقاً، ومشيت في الاروقة المفروشة
بالطنافس السوداء المصنوعة من ورق الارز وترابه، ووقفت تحت
القبة الخضراء، الى جنب عضادة من العضادات الكبرى،
وانا احلم بما دهمني ساعة الاستظلال، وما غمرني ساعة التجلي،
دخلت الغابة التاريخية القدسية، هيكل الطبيعة الجليل
وانا ابحث في سكينتها الرهيبة موطنا للقلب
المفقود الساهي، ومحرابا للروح الى ان شعرت، سكينة
الهائم، ويعطر جوانبها الارز،
سكينة يحتضنها الجبل، فتجر الاذيال على ماتتنا ثم منها
تتهادى تحت الاغصان، النسيم في السحر - صوتا هو الهمس
فتحدث صوتا ولا صوت، يسبق البلاغة والبيان،
السهل الممتنع، الذي تحتويه ابواب البلاغة بين العمد الشامخة،
وقفت في ذلك الهيكل تحت القبة الخضراء بين العمد الشامخة
اعفر في تراب السكينة وجه الشك، وامسح بعطرها عين الشوق،
وارهف لها اذن الحب والغفران،
ثم سمعت للبلاغة اصواتا قديمة، وللبيان لهجات غريبة،
همسات ونبرات، كانت تتساقط كورق الارز
بالتمجيد، او لمطرب فيه على ورق التوت،
في احضان السكينة، او اصواتا

اصواتاً ناعمة عذبة، واصواتاً رفيعة حاده، واصواتاً كهدير
جريان المياه في الجبال، واصواتاً كهديل الحمام في سكينة الفجر،
واصواتاً كهمس الاشجار على ضفاف الانهار، واصواتاً كطنين
الذباب في الهجيرة، واصواتاً كدوي الامواج بين الصخور.

سمعت الفينيقي يصف محاسن خشب الارز في مصر
ليسمع فرعون — خشب صلب صقيل، جميل اللون والعروق،
جميل الرائحة، زينة الهياكل والقصور — الزمان لا
يقوى عليه، ولا السوس يدنو منه. خشب
عجيب، يابس كالجلمود، املس كالزجاج، جميل كالورد..

وسمعت كلمات الفينيقي تردد في بلاط ملوك لبتوه
وفي بلاط ملوك كلدى
وآشور. وسمعت اصوات الفؤوس والمناجل في الغابات،
واصوات المطارق والمناشير في مصانع طرابلس وجبيل.
وسمعت آشور بنيبال الفاخر بجزيته من شجر الارز،
وسمعت سنحاريب يتبجح انه زار الارز في شماريخ الجبال.

وسمعت بعد اصوات الفاتحين والناهبين، اصوات
المجد والشعر والقداسة. سمعت اشجار الرب ارز لبنان
صاحب المزامير يهتف بأكم نخبة الخشوع
وصاحب نشيد الانشاد يتغنى برائحة لبنان
ورائحة عروسه الشبيهة برائحة
شجر الارز، وسمعت اشعيا مجد ارز لبنان العالي
المرتفع، وعاموس يشبه الاموري الجبار بالارز.
وسمعت

وسمعت صوت هوشع يقول ان حسن الارز

لفخر لبنان، المكللة قنته بغابات منه غبياء، والموشى

~~[illegible]~~ عن قبال كهدى الامواج بين الصخور -

غبياء الظل،

ازرة لبنان، بهيجة الافنان،

شامخة القوام، ورفعها الفخر الى اعالي

ازره لبنان عظمتها المياه،

الجبال. تعشش في اغصانها كل طيور

ازرة لبنان وقد تحت فروعها كل حيوان البر

السماء، وولد

وسكن في ظلالها كل الامم العظيمة.

بهيجة في سموها، بهيجة في امتداد اغصانها

بهيجة في تكوينها - حسدتها كل اشجار عدن التي

هي في جنة الله.

وسمعت صوت اليونان ليوكيدس عن الرذائل ونبيه، وسمعت

شعراء الفرنجة يرددون اصداء اصوات الانبياء والمؤرخين.

وكانت الغابة وانا استمع اصوات الشعر والتاريخ، تتشح

اماي، وتمحي شيئا فشيئا، ثم هبت على

رأس الجبل غابة كبرى، تمتد شرقا وغربا - وشمالا

جنوبا، يتلوها غابات غبياء.

وسمعت من تلك الغابات اصوات الفؤوس

والمناشير، واصوات القطاعين والحطابين

ورائين

٢٤

ورأيت خشب تلك الغابات في مصر، يتفحم بالواح
جدران قصور الفراعنة وهياكلهم، وتذكارًا لسيادته على جثث
الملوك المحنطة، ويتفحم بأطيبه توابيت الموميات.
ورأيت خشب تلك الغابات في هياكل آشور، وفي قصور
ملوك فارس.

وفي بلاط داود
وفي هيكل سليمان بأقدسه واطاليه.
وفي هياكل آلهة الرومان بأفخم
ورأيت خشب تلك الغابات في البحار فوق أمواجها
الصاخبة. سفن الفينيقيين التي اقتحمت أهوال
السفن التجارية، والتي هدت الأمواج تفتت
قتل ~~صولته~~
اللجج عند اقدام هرقل ~~وصولته~~ ~~والالئ~~ والمنسوجات
على شواطئ الجزر البريطانية
المخور الكلسية التي حملت الاصباغ والزجاج
سفن الفينيقيين الى شواطئ الغرب الشمال شواطئ
ومهد الشواطئ الزرقية القديمة الى العالم الجديد
الفرس التي عبرت بحر الظلمات
سفن الفينيقيين ~~البرتغال~~ أو بلغت النوبية عند خط الاستواء.
على شواطئ الغابات،
وطوف الشراع
المناجيل في الغابات
سمعت أصوات الفؤوس و
سمعت أصوات المطارق والمناشير في مصانع جبيل.
السفن الحربية التي غزا بها
ورأيت خشب الارز في
الفرس بلاد الاغريق.
في الغابات اللبنانية
سماع لأصوات الهدم ~~والهلاك~~
ولاصوات البناء في المصانع الفينيقية.
وان

ان الاسكندر في سوق الخشب يبتغي من الارز اجوده

لبناء الجسور امام صور فيصل الجزيرة بالمدينة . خشبًا

من ارزكم لأؤدّب صور -

يسماع لاصوات الفؤوس تردد صداها الاودية ، والوديان

المطارق تحمل صداها الامواج من جبيل الى طرابلس ومن طرابلس الى ارواد .

لقد جاءنا طلب من الملك انطيغون - انطيغون الملك

يأمر ببناء خمسمائة سفينة حربية لبغزو بها المدينة التي

تمردت على الاسكندر ، ليكتسح بها صور وكل فينيقية .

واصحاب الغابات فينيقيون ، وتجار الخشب فينيقيون ، وصانعو

أليسوا فينيقيون !؟

اي نعم يابني . وما أعدم ذلك الخان الوطنيين :

لقد كان هناك من لهم سوالف من آثروا مصلحتهم على مصلحة الوطن .

وقد كان هناك صوت عالٍ للتذمر ، وصوت احتجاج بلا احتجاج .

ولكنها التجارة ، يابني ، التجارة على الدوام ، في كل

زمان ومكان . - اسطول انطيغون الملك :

هذا خشب الارز في اسطول انطيغون الملك

وبعد ذلك

وهذا بعد الف سنة ، خشب الارز في اساطيل

الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان .

الاساطيل ضخ الفينيقيين ..

٢٦

كلنا للوطن ، كلنا للعلم .

حقائق ورقائق

—

ما كان في الارز من بناء في تلك الايام غير كنيسة صغيرة ودكان.
وما كان من مأوى للسياح غير بضع خيمات عتيقة مرقعة، مصفوفة داخل
السور. فاستأجرت خيمة منها وطلبت المكتوب: الضيافة
ثلاثة ايام. انت الآن ضيفي، وانا ضيف الرب. — لا تؤاخذني —
— "انت، يا معلمي، تغلبني في كل شيء ما عدا — وانت، يا معلمي،
انا رحت اليوم الى الكنيسة وسمعت قداس الخوري. فمن منا يكون ضيف الرب؟"
زارني الخوري وعزمك وما رحت. اسمع القداس غداً عندي وعني.
علمتني، يا محبوب.
— "بالله
وسلم على الخوري." آدمي هذا الخوري، وكريم. عزمني
— "وهو قال لي: سلم على معلمك." ومشينا بعد ذلك في هذه الغابة
للفطور معه مع الخ علي. فطرنا، دلني الخوري على الارزة التي كان يسكن
العجيبة، وما اكثر عجائبها. والارزة التي فيها جرن ماء، والجرن
في جذعها الناسك. والماء في الجرن، جرن الشجرة
ملآن — بركة لا تنقطع — الحرن في جسم. اخبرني الخوري عنها كثيراً.
اين هي؟ هي عجيبة من عجائب الب الكنيسة.
— "منذ آمنا بالجرح بدأ. أما قالها السيد المسيح؟"
— "بلى. وايمان الذين آمنوا. ما خبرتك عن الجرح في رجلي
كنت اتعب، اهلك في الطريق. وكنت اعاني على جرحي وامشي،
وما الفائدة؟ ولا تدري، ولا تكترث"
وانت تخيل "البغلة" وانا عجيب: وعندها نزح مكتوب
وانتهت فوق ذلك بالكسل! انه حقا لامر عجيب
لينني الجرح — جاني رجل البغي تحت الكاحل بحجم حبة الفول
حتى الدهشة، والحزن والخجل شيء اشد بد:
وانه مفتح وملتهب، عراني منه الدهشة والحزن. ولكني سكنته بالماء من جرن الارزة."
وكان اكبر مما ترى.

وهو

وهو الذي احسنه. سبحان الله! فقأناه ودهناه له بالمرهم السود، وأخرجت الموسى

فقلت له ان لو انّا اذا فقأناه

والزجاجة من حقيبتي، فقال: "لا، يا معلمي، دواء الرب يكفيني".

رأيته بعد مرة يزور الشجرة ذات الجرن، وبعد أن يمسح جرحه بمائها

مسح وجهه كذلك. كان خارجاً من الكنيسة. راضياً مرضياً. لا يحمل له

وكان محجوب في تلك الأيام من السعيدين في الناس. وكان النوم أحب

اليه بعد الأكل والحديث وزيارة الأشجار المباركة - والنوم بعد زيارة للشجرة ذات الجرن، من كل شيء آخر.

ولكنه أبى أن ينام في الخيمة معي. ففرش فراشه تحت خيمة الرب، كما

كان يقول، وعلى سجادته الأرجوانية الناعمة. وأنت تنام على فراشه وتلاثة

- "أنا، يا معلمي، أنام على فراشه وسجادته، لا أخف".

- "ولكني لا أقرب الوحش".

- "وهل يحلو لك أن تقيم في أرزاب الرب يا محجوب؟" النوم يمسك البوار البائح

- "الخوف، يا معلمي، ماله قاعدة. الرجل الجاري يخاف والرجل الضعيف

يحسب الحية من جحرها. ولكن عندما أراه ينادي: يا بو كال! ينصب اجداده لنفصر منه او

تعرفونه، يرقص اليها مثل الطفل المؤدب، وعندما توجهه الخوف ماله قاعدة.

يرجف امامها مثل القصبة. - وهل يلح فيك؟

الجمال"، "أنا لا أخاف غير

- وهل يلح كلامك في كل الناس - من الغيظ وقال:

في السيارة تزيده بشيء، وتكون امه واخوه وعمته

وخالته ومن خيالي. ولكن عندما أكون مع ذات شغلك، من أجله من أجلك يا معلمي +

الله. الفسيح المختار وصوتي فيه أخاف من الله عز وجل

أخاف والله من خيالي. لا تتعب. اذا تخلّى الله عن ابنه ساعة التخلّي".

خلافه بين خياله وخيال الموت. "ارحمنا يا رب" ساعة التخلّي" ثم

شغل سيكارة وهو يردد "ارحمنا يا رب" في الحديث.

قال: "ولا تظنني ذكرت الخيال لأضحكك او لأجاريك في الحديث.

في هذه الطلعة الاخيرة، طلعة الدرز خفت والله من خيالي.

مجاهدة

في هذه الظلمة المشوّهة كان التعب قد لازمني وكانت البغلة متخوفة
من الطريق فتلك ومثلي وخفّف حدة من حياتي. فلما رأت
خيالي امامها جفلت وعثرت ولم اسرع اليها
واسكّن روعها كانت تهوّرت ... من خيالي ، من خيال صاحبها.
هل تلومني اذا قلت اني اخاف خيالي من اجلك ...
كفانا في هذا الحديث . علمني من فضلك شيئاً ما تعلمته
من الكتب بخصوص الارز . كم عمر الارزة من الارزات الكبيرة
القريبة من الكنيسة ؟
— يقول احد العلماء ان اكبر شجرة من تلك الشجرات عمرها ثلاثة
الاف سنة ، اي انها كانت غرسة صغيرة يوم كان سليمان الحكيم
جالساً على عرشه في اورشليم.
— كيف توصل العلماء الى هذا العلم ؟" الا تعرف ان عمر الصنوبرة
من عقدها ؟ الاشجار عقد تنبئ بعمرها .
— اما الارز فتعلو ويظهر العقد العالي سهل ولكن عندنا نقف
في ارتفاعها ، وينحصر نموها في جسمها حتى تخنقها سالب سعرقه عمرها.
— ليس على العلماء . فاذا في جذع الشجرة ما ينبئ كذلك بعمرها
فاذا نشرتها ترى في جزئها دوائر الدائرة تلو الاخرى من قطبها الى قشرها . هل
وهذه الدوائر مثل العقد من الخارج تساعد ... في معرفة عمرها
قسنا الارزة التي قرب الكنيسة ؟
— قستها بالحبل . وهذا هو . فاذا
مددنا الحبل فقسناه منه رأسه الى المكان المعقود فاذا
هو ثلاثة وعشرون ذراعاً . اي ان قطر جذع تلك الارزة هو كذا اربعة
عشر متراً . اذا تحققنا عمر الكبيرة ، افلا يمكننا ان نعرف بالنسبة
— واذا هذه الارزة العالية مثلاً . كم عمرها في علوها
عمر مثيلها ؟ ويمكننا

(١) فرقعت : ... بعضها

ويمكننا انت وانا ان نطوقها باذرعنا. فما هو عمرها؟"

— علوها بالتقريب عشرون مترا. ولا اظن ان عمرها يزيد على الثلاثمائة

سنة. لا عند العلماء ومن اخبار التاريخ ما يثبت ذلك. فان في هذه

الغابة اليوم نحو اربعمائة شجرة كبيرة ووسط وصغيرة، وما كان فيها منذ ثلثمائة

سنة بشهادة مؤرخ جوّاب في هذه البلاد من علماء الفرنجة، اكثر من خمسة وعشرين

شجرة. وتجدد الغابة الصغيرة بعد مائة سنة، اي في القرن الثامن عشر، نقصت

عشر شجرات اي لم يبق هاهنا غير خمس عشرة شجرة، وهي هذه الكبيرة الضخمة

التي نراها اليوم. ثم اخذت الغابة تتجدد فاصبحت شجراتها في

القرن الماضي ثلاثمائة واحدى وسبعين شجرة بشهادة عالم الماني زارها

في اوائل القرن التاسع عشر وعدها. وبعد ذلك زارها عالم سويسري فأيد

ما كتب قول من تقدمه.

— "اذا كان عددها ٢٧٥ منذ مائة سنة، وهو اليوم ... ٤٠٠ فما زادت

غير خمس وعشرين شجرة. وهذا قليل."

— لولا عناية الموارنة كما يقول الروسي وعدد من العلماء المحققين المدققين،

ما زادت قطعا. بل كانت نقصت واوشكت ان تضمحل. ولكن الذين

البطاركة رحمهم الله كانوا يهددون بالحرم كل من قطع منها شيئا".

— هم البطاركة - الله يحرس دينهم! لا يؤثر بالرعد والبرق والاوطاد

— ولكن حرم البطريرك يا محبوب، لا يؤثر بالزلازل والاعاصير. وقد كان الرب نفسه يغضب في

والرياح. لا يؤثر بالزوابع والاعاصير مما هو غاضب اليوم، فيرسل الرياح والاعاصير

بعض الاوقات على الموارنة تذكيرا وتأديبا. وقد ذكر النبي داود

والزلازل على ارزهم ... صوت

الرب في زماجره فقال (المزمور ٢٩) "صوت الرب مكسر الارز، ويكسر الرب ارز لبنان".

— علمك بحر يا معلمي بحر. ولكن ما كل العلوم تلذ الناس.

انا - لا تؤاخذني - افضل ان اجلس او اتمدد تحت هذه الشجرات العالية

وأتأمل الشيء الذي لا اظنك انتبهت اليه - عشق الارزات بعضها لبعض.

انا دائما اقول ثم هنا: بين الاشجار، مثل ما بين الناس والجبال، عشق

الممتد من هذه الشجرة الى
عشق وغرام . انظر الى ذلك الغصن
وقد ولد من عناق الغصنين
جارتها، الاصغر بغصن من اغصانها .
غصن ثالث، هو الابن — الاب والام والابن، هذه عائلة مقدسة .
وانظر الى تلك الشجرة أم الجذعين . انا اقول، على تجربتي في العلوم،
كما تقول انت، يا معلمي، انا اقول ان الواحد من الغصنين ذكر
والثاني انثى . ورب الارز كلل العريس والعروس،
وظل الواحد ملتزاً الى الآخر حتى لصق الصدر
بالصدر، ودام العشق والغرام، وجاء للزوجين اولاد —
هذه الاغصان الكبيرة العالية . وستعيش هذه العائلة المباركة
كما عاشت الارزة القريبة من الكنيسة، ستعيش ثلاثة
الاف سنة واكثر ان شاء الله ."
— "اللهم زد وبارك ."
— "واكتب، يا معلمي، في كتابك، الذي سيقرأه الناس
بعد ثلاثة الاف سنة ان شاء الله، كما تقرأ انت اليوم من اخبار داود"
(شككت في حسن نية مجبور في هذا الدعاء ولكني قبلته متوقعاً من جرس ان يكون)
اكتب في كتابك، يا معلمي، الى ابا البوحنا مجبور
الى الارز وقلت ان ابن الاشجار
الملاح رافقتك ابن البشر . وان
من العشق والغرام اكثر من ابن التي فيها
جرس ما في هذه الغابة، بعد الارزة
جرن الماء المقدس، الارزات المتلألئة المتدرجة،
العاشق بعد ليبقى .

عابر روما

من حق الزائر للارز في تلك الايام ان يدعى حاجاً، لقداسة المكان
ولا عجب اذا كان
فقط بل لمسالكه الوعرة ايضاً، وخصوصاً القسم الاخير منه. اقامتنا هناك (٤)
الزوار الحجاج في تلك الايام قليلين. ما رأينا مدة اقامتنا هناك وبعض الرعاة والحطابين في الجوار
هناك غير الخوري وصاحب الدكان، لا من السياح الاجانب بل من اهل البلاد،
المقدس، وحاجين لا غير، [illegible] يراه ليزيد بعلمه واكتنافه
وكنت ارى محبوباً يحدث كل راع او حطاب [illegible] صوناً لانفسنا والبغلة،
في ما يتعلق بالطريق الذي قررناه - بالاجماع - كان يفضل - يبشرى ابن عبد الارز،
فلا نعود في ذلك الجبل الذي يفصل الذي عزمنا على العودة فيه، ومع
فنتدهور كلنا ونهلك في تيا هيره طريق الصرد الاعلى الذي الى ظهر القضيب
ومع انه لم يكن يعرف التصعيد الى قمة جبل الارز،
انه ذلك الطريق يستوجب الاعتراض او التردد. ونحن نتأهب للعودة صباح اليوم الرابع
حالما بدا منه شيء من [illegible] عن عمر ارزته المصبوغة، قبل ان
وقد سألته [illegible] ولكني رأيته يزور ابداً الجبل رأيته يزور
جبينه
فقال لي انه احبه [illegible] وراء الخرج [illegible] وبهذه كنت جبينه
يرفع المخلاة منذ رحلة جاء من جذعها
تلك الارزة، وبهذه [illegible] الصلب من الارز قدمه لي قائلاً:
وهو يبتسم على وجه [illegible] وهو يحمل عصا من الارز حملت في نفسي دائم
ثم جاء الخوري يودعنا وقد كان لعمله هذا وقع جميل في نفسي من الامتنان
"بركة الارز ترافقكم دائماً" وقد كان تقبلته بوعي منه الخراف
الى اذكره اليوم، بعد ثمانين سنة، بمثل ما [illegible] وراء الشارد الى الخراف
والرعاب. هو ذا الراعي الصالح الذي يعدو وراء الشارد! اذ (١٨: ١٢)
ليرده الى الحظيرة. انما السيد المسيح قال لنا رواه متى في انجيله
الضالة. وقد قال اكثر من ذلك [illegible] ووجه محبوب، مكملاً ما
ودعت ذلك الخوري الكريم وتوكلت على الله.
"الوصي يشد الارز".
طلبه [illegible] دعائي!

كاتب

كانت الشمس ترسل طلائع نورها فتلمع وتتلألأ على حافة ظهر القضيب

ساعة شارفنا وشرعنا نتقدم في الجبل:

ان ارتفاع الطرود اللبنانية يتراوح بين الالف وخمسمائة والالفين

متر، وفيها طرق مسلوكة لا يسلكها غير العقبان منه السهول [illegible] او في انحدار او

اما الطرق نفسها فانها على الاجمال في مستوى واحد،

صعود سهل منبسط، وهي تمتاز بحسنات الجو العالي لمن لا

يشكون ضعفا في التنفس او نقصا او زيادة في ضغط الدم.

ومن الارز الى ما

والارز (١٩٢٥ مترا) يعد في الطرود، قد أذلت الجواء

الى السماء. وغرقنا كانت الطيارة فوق غبار الارض. كان العلاء

فوقه يعد في العالية، كما تفصل اليوم، فنحسبها من روعة ومجد واعتزاز،

علاء بكل ما في معانيه، الى قمم الرواسي، الى شماريخ

الى ما فوق الطرود اذن، مثل شنحاريب سور عندما عاد الى

الجبال! واطني يحبّ يومئذ، وقد زرنا الارز في شماريخ لبنان!

نشوة هذه الغزوة السورية تقول: كريمة حملت اللذة والنشاط

كانت الغزوة الاولى من الصعيد سامية مميزة. فقد كانت محسوبة

لصاحب الرحلة، ولصاحب البغلة والبغلة نفسها. كانت شربة ماء او صفنة

تأخذ الطلعات" – لغة المكارين – كلها تخطى، فتتردد صدى

على خفتها وسرعتها فتحلق، وتتطاير تحت سنابكها الشرر والحصى.

وكانت تشق بين الصخور، وتختال بالرسن او بغيره، والا الى

وما كان من حاجة الى اي محتسب.

تشجيعها بـ "ديه" حتى اذن تختلف نصيبه

الى العلياء، الى الاعالي! وكانت محبوبة تقف

وتلفت لتسرح نظرها في ما كان ينبسط من

في جنبات من خفايا الطريق. أفق يبعد فيذوب لونه من لون

الافق الغربي وراءها. وهناك غابة الارز، فهي

السماء، ونحن نمعن في الصعيد.

ناظر

٤٤

وهي تصغر شيئاً فشيئاً، وقد بدت في نهاية امرها ازاءنا مثل كومة

شيح في ظل الجبل.

الى العلياء! الى الاعالي! وما ابهج التصعيد، وما اطيب

الهواء، وما انعم اشعة الشمس الساقطة في وجوهنا، وما اكرم

الجبل بها، وان خاف طريقنا [?]، وما آنس العزلة التي تدنينا

من القنن، من الشماريخ، وما فوقها من سماء ضاحكة

رحبة، مواليه.

لا يعرف السائح كل لذات الجبل، وكل جماله، وكل حسناته [?]، وكل

الا بعد ان يقف ولو مرة واحدة على

مصادر الصحة والوحي فيه. وقد بدا

[?] ساحته [?] الى ظهر الهضبة.

انا لا نزال في الهضبة الى السطح [?] في خطى محبوبة، وفي وقفاتها

التعب، بعد الساعة الاولى من التصعيد. وها هو يخلع

عند حنايا الطريق. وها هو يقف يستوقفنا

وفي خطى محبوب كذلك، فيقطع بالسكين قطعة منه، يضمد بها

حذاءه، ويخرج المنديل الاحمر من جيبه (الى الداخل) (الحذاء لكيفه) ويلبسه

جرحه، ثم يبني [?] هو حز الحذاء [?]، معلمي احسنت." ولكني

وبمشيئة [?]، وعندما سألته عن الجرح قال: احسنه [?]، وتجلد وتظلم وشكى عنه.

"الاحسن" من

احسست ما وراء [illegible]، فعرض عليه الاسعاف، وهز براسه

خفت ان يكون قد ازداد التهاب الجرح، كشف بيده عليها، "هذه

فشد عصاه وراءه، ابتسامة [?] وراء البرقع [?] تشفيه، وبسمته [?] "دولتبرل"

فاستأنفنا التصعيد بغير المفادي بروحه."

طريق يعلبك لا يقطعه [?] شرقاً على بعلبك

وكنا قد دنونا من القمة التي تشرف هناك تتنقل في

من الصخرة العجيبة في وضعها عند تلك القمة.

دقيقة

٤٥

دقيقة واحدة من المغرب الى المشرق. هناك وانت تصعد حول
تلك الصخرة تدنون من الخط الفاصل، فتقف على ظلع الطريق بين
الافقين. وهناك الاعجوبة: فان خطوة واحدة شرقاً تنقلك
من الآفاق البحرية الى الآفاق البرية، ومن وادي قاديشا الى
سهول بعلبك، ومن هيكل الارز الى هيكل الشمس!
وقبل ان تخطو الخطوة الاخيرة فتولي وجهك شطر المشرق،
قف قليلاً هناك على حرف الافق الغربي. ترَ مشهداً منقطع
النظير في جبال العالم. وما الاودية والشعاب تتقطع بعضها
بعض ثم تتصل، وما الانهار والسواقي تفترق بعضها عن بعض
ثم تلتقي، وما الحقول المزروعة والمحصودة المتعددة
الالوان، وما البطاح والآكام تتدرج بعضها الى بعض
فتموج وتلمع في اخضرارها واصفرارها، وما الوهاد دانية شاهقة، ذلك المشهد
والصخور الشاهقة تخنو عليها، ما هذه بكل محاسنه محوك مستحب،
الحاجب القريب. فان هناك دونه، على البعد، وهناك في
ازرقاق البحر وهو يتشح وليدنو من ازرقاق السماء، حين تكون الجو
الناحية الشمالية من الافق البحري تبدو لك
صافياً شفافاً، بقعة قاتمة صغيرة هي جزيرة ارواد.
وقفة عند تلك الصخرة، ثم خطوة حولها، فينتهي المشهد الغربي باحمر
فينكشف امامك المشهد الشرقي بسهول خضراء، ومروج ورباه، والوان
ارض وسماء. فتجنح حنيناً الى طرائق الجرد الاعلى - وذلك الطريق
قليلاً من هذا المشهد الفسيح فتجنح عنه النظر شيئاً فشيئاً
بين سماء رحبة، فينخفض
المنحدر بين حافتي خندق الجبل، ٢٠٦٧ متراً الى الحسنة
الافقان الغربي والشرقي، بانحدار الابتداء
وهذا الطريق يبدأ الذي عند كمو القضيب هو نحو
لا يرى، وينتهي في العاقورة (١٤٥٠ متراً)

أ. ع.

عشر كيلومترا.

ومن صفاته ان في جدرانه الى الغرب والى الشرق، التي

تعلو كلما امعنا جنوبا، فجاجا هي كالشبابيك، تريناطوله الافق

الغربي، وتارة الشرقي، فنلمح منها البحر حينا، وحينا السهول.

وفي منتصف الطريق بين نهر القضب والعاقورة، فوق تنورين

عين روحا، المعروفة عند الرعاة والحطابين ببركتها، المشهورة بانها

في هذه النواحي الشمالية. واشاد بمحاسنها، وخصوصا عجوبة.

وقد حدثنا خوري الارز، واذا كان هناك احد الرعاة تشاهد من الاعجوبة ذات الحزن.

يشربون من مائها البارد، ولا يلومه ايمانه بالاعجوبة فقد كنا في الغزال دا

بالاعجوبة.

وكانت آمال المحبوب بهذه العين. ولكنه غاب قبل ان يصل الى محجته.

فصعد على جرح، وكان قد ظهر الجرح في قشر مكتوب. قد

من السير، وكان قد ظهر الجرح في ... لينقف الجرح، فاذا به الماء الطاهر

وقف ووقفت محبوبه، فارحلت وعدت بزجاجة طلب الموسى، فترددت

وسالت الميدة منه. وبادرت الى الخرج ثم طلب الموسى في وسط

انقطاع وسالت الميدة منه، بعد ان الحت عليه اذ ذاك السلسلة في وسط

انقطاع. ففعل هو الجرح، فقبل اذ ذاك الجراحة،

ولفة من القطن. فرفضت، الآن اكون الجراح، وباشر العملية الجراحية

فكرر الطلب ... جزئية تحته ... وباشر العملية شق اللحم السليم

معلقا طرفي ... بضربات عنيفة كشف اللحم والوجه هادئ كأنه

كشط اللحم المقتح المنتهي منه جاحظة، والوجه هادئ قبل ان يدهنه بصبغة

فسال منه الدم. ففعل ذلك والعين منه ... وبعد ذلك

تقشر خيارة او ليمونة. ومن وقت الغداء،

رسود. ... على ... العين

... اذن اردفك.

ليكن ... الان يمشي. فقلت:

فغمرت العلية ... السير، وقد سبقنا العزى الى

فاي. قريب منه العين

لنا نصيبه

حال

قال هذا وهو يشير الى الابقار الطرية في الطرب. ولقد
كان الدليل ~~ولقد هذه الدليل~~ صادقاً: فهناك القطيع، وهناك المعاز
وهناك في ظل السنديانة العين،
مستنداً على بندقيته، وهناك
عين روما، اشربوا من مائها وشاهدوا الاعجوبة. وتقدمني
وما الاعجوبة؟ سألت المعاز، فقال: تفضل»
فنزل بضع درجات، ووقف على الاخيرة عند حوض صغير، لا يجاوز
المتر والنصف المتر طولاً والثلاثة الارباع المتر عرضاً، وهو ملآن، وليس
الا تحت الدرجة الاخيرة. كان
في جوانبه أثر ظاهر لمجرى المياه، علوه نحو خمسة اصابع
بين اسفلها وبين المياه طبقة هواء - فراغاً - لا في الصيف ولا في
قال المعاز: هذه العين لا تزيد ولا تنقص، لا في الصيف ولا في
الشتاء. مئة رأى، الف رأى، من الحرى والانتقاص
في تلك النواحي تجد عندي عين روما
كذلك قال الخوري: بل هذا هو الحق فكانت ويسمى عنزاتي»
المعاز: لا تزيد البرهان: ابق مكانك للقطيع ثم الى جنب العين
للملأ ثم اظل السطل تقطر لا تتغير»
وشرع يخرج من الحوض السطل مثل قدرة الرب وما ظهر في
وهو يقول: اعين مباركة، فقد ملأ المعاز الجرن. ان
وانها حقاً لا تتغير، فقد لا يسر ذكره المؤمنين
نقصان. اما السبب فهو عمل
الجرن فوقها
الحاجب نقصان من الحوض تحت الدرجات الى حتى يختفي
نقل الماء بالسطل في مستوى الماء الذي في
بطيء، فلا يكاد يظهر الفرق الطفيف
للمستفي ان يراه. فلو كان لنا ان نستخرج الماء
وليس بطريقة سريعة، بمضخة مثلاً، لظهر السبب وزال العجب
الحوض بطريقة سريعة، فلما تتغير لقربه من
ومما لا شك فيه هو ان للحوض مجرى مياه تحت الدرجة الاخيرة
مخازن الثلج الذائب في هذه الاعالي، ولذلك لا ينفذ

/ الجرى

٥٩

تجري منه المياه التي تفيض فيه . وهذا المنفذ وذلك
المجرى محجوبان عن الانظار .
فلا عجب اذا قال المعاز والحطاب ، وصدقهما اهل
القرية انها لأعجوبة .
اذن : لا بد ان يكون للرب يد في امتلاء الحوضة على الدوام ،
ولا بد ان تكون تلك اليد الخفية البيضاء متصلة بسبب من
الاسباب الخفية - مثل مجرى العين ومنفذها - لتبقى انباء
هذه الحال وايمانهم
فالاعجوبة هي في ايمان الناس اكثر مما هي في عين روما
او في الوزنة ذات الثقب المتحجر في جذعها . فليس اسهل على
الرجل الصالح المؤمن من ان يعاونها لتتم الاعجوبة ،
واذا قصرت الامطار في املاء الجرن ،
ولتكمل مشيئة الرب .
لي ان اقول ان لا دخل لروما او للرومانيين في
العين . فان اللفظة سريانية تشبه بما خيل لي وقفنا ما تنها
العين ان الماء ذو قوة للغذاء والانشراح ، وسقينا مكتوبة ،
~~[illegible]~~ اسنانفنا
فحررنا بمقالع
وغلبنا جرح محبوب . ثم ونشاط مستجد ،
السير تأمل متشعشع الشبيه بالرخام - وما اشده في تلك
البلاط الابيض البيادر بدنونا من الارض المزروعة
الورود - ثم انبأتنا العاقورة في الاصيل ،
العمران ، فوصلنا الى
والى المجدل فالمغيرة قبل الغروب .

٥٠

حلّت البركة

—

من مفاجآت الحياة مفاجأة تفعل بالنفس فعلها فتزعزعه او تغيره،
وقلما تزعج و تسيء، ومفاجأة تسيء وتؤلم، وقلما تغيرها في القلب من عقيدة وايمان.
خذ المثل الاول. قد اتهمت محبوبًا بالكسل والجبانة، وما تسرعت بالتهمة
بل كنت ادق من مدعي الجمهورية العام في التحقيق، وفي الاستقراء والاستنتاج،
وما اكتفيت بالدليل الاحد والشهادة الواحدة. حفظت الحقائق وسلسلتها، وعندما
اجتمع لدي منها ما ظننته كافيًا — وما اظنه يكفي مدعي الجمهورية العام — قررت التهمة
وانتبهت بالبرهان والدليل، وحكمت الحكم على المسكين محبوب بالكسل والجبانة.
ثم كانت المفاجأة في الاوراق ساعة كشف الحكيم جرحه، في المكان المعول عليه
عقبه، وكان قد مشى مع ذلك، خمسين كيلومترًا، دون
بالمشي، في [illegible]، وقد مشى ابعاد من الوزراء الى حيث
ان يقول آخ او يفوه بكلمة. في طريق الطرد الاعلى، بستين
القصب، وعمل العملية الجراحية وجهه او ونشرة من
جزاء، دون ان اقول بعد هذا ان محبوبا كسلان جبان؟
حقوقه. فهل يحق ان اقول بعد هذا ان محبوبا كسلان جبان؟ المبني على الحقائق
هذه المفاجأة بالحقيقة الكبرى غيرت نفسي. على انها ما ازعجتني
الصغيرة التي لا تخلو من باطل خفي، من بطانة مجهولة. سرورًا بما بان، ما اشبا
والحق يقال، بل كنت
وراء الساعات الي
لما كان.
وخذ المثل الثاني: لقد آمن محبوب بالجرح — آمن بالرزة ذات
الجرنا، ومعانيها القدسية، فقدته جرحه، ووجهه، وروحه، وهو
يستشفع الشفاء العاجل، ويرى — او تريه عين الايمان —
اثر من يوحنا فيوجا. فكان الامر عكس ما عليه، وفاجأته
الورود الحقيقة المؤلمة حقًا، فاطمة الما شديدًا، دون ان
تغير بعقيدته، او تؤثر بايمانه.
هذا المثال الصغير، المأخوذ من لوح صغائر الامور،
انبه ههنا عما يستحقه من البيان والتوكيد لانه
/مثال

فهنالك كذلك للكبير الخطير في حياتنا الاجتماعية والسياسية
والعلمية. فكم من المفاجآت التي تزعزع منا اليقين، وتغير الاعتقاد،
وتقضي على ما قررناه من "قواعد ثابتة" في السياسة وفي العلوم؟ وهي
تزعجنا وتؤلمنا بقدر ما تنافي ما تعودنا من مصلحة أو كراعة. ولكنها
لا تؤلم ولا تزعج إذا كانت آخر الحقيقة فيها على الكرامة والمصلحة.
وكم من المفاجآت التي تزعجنا، تؤلمنا، تحزننا،
وتحرمنا فوق ذلك المال والجاه والنفوذ، أو السيادة والعز والاقتدار،
ولا تغير ما رسخ فينا من ما تعلمناه، أو اكتسبناه، أو ورثناه من
خرافة أو سخافة، أو من عادة سقيمة، وتقليد عقيم. وتكاد
هذه الظاهرة الطبيعية النفسية شائعة،
تكون عامة. وساحظها الآن في أحوال شخص زاملنا وتعاملا برهة
من الزمن عند ... ظاهرة نفسية أخرى عجيبة. فإن الذي ينتفع بمثل هذه
المفاجآت انتفاعاً عقلياً، بل انتفاعاً أدبياً روحياً، فيؤثر الحقيقة
على مصلحته وكرامته، يكون غالباً محبوباً مغلوباً، والذي يترجح ويتألم
ويظل متمسكاً بما ورثه أو اكتسبه من الترهات، أو ما تعلمه من الخرافات،
يكون غالباً الغالب المكرم من الإكرام. الأول في نظر الناس
خاطئ ضعيف متندم، والثاني بطل جبار. وهذا الكاتب في نظر داود
كذلك كنا نحن الاثنان محبوب في الغيبة. فقد تحدثنا تلك الليلة بحجة
ملكوت ضيفنا للمرة الثانية، بما كان من أمرنا، فجهرت بالحقيقة المنذلة ظاهراً
ليسون إلى السماط، لمحبوب، فأكبر داود المكاري وقال
جاسون المشرقة في كل حال وحق الله. وسنذهب كلنا
لنفسي؛ وأنا رفيقكم غداً إلى أفقا، وعندنا حمار
مشياً! محبوب بيننا أهل أحسن الحمد.
إلى المغارة ركباناً. غسل به
ليطمئن بالك."
بعجاب، بدل أن يبشر محبوب العرق
وفي تلك الليلة على الماء المطهر (السليماني)
هي العقيدة الموروثة، فغطا كالمحبرة
جرحه، فقلت: وكان الجرح أسمر في الذهب
وصبغة البود.

جهاد

٥٢

وتجدد التفتح فيه . مما زاد بتخوفي
جمحاً بعد ان كان كالمغلول ،
فصممت على العودة في الطريق
وقضى على رغبتي بزيارة افقا ،
الاقصر الى القرية :
وهناك عامل آخر من عوامل هذا الانقلاب لا اخفيه عن القارئ :
النفسي باجمعه في اشخاص الرواية الثلاث
وقد جعلته يشهد للمظهر
فقد احسست تلك الليلة برعدة صحبها شيء من الحمى ، وانهضت صباح
اليوم التالي على غير نشاطي المألوف ، فنظرت الحال في المرآة
وقلت لنفسي : لا كلام بعد هذا : العود احمد :
الرفيق والمضيف ، اصبح من
ولكنه الشخصية الاخرى في الرواية :
زيارة افقا +
واشد رغبة مني في
السائح المغامر ، ان يتخلى عني
ومن الغريب العجيب في كل هذه المفاجآت ، فتفلسفت او بالحري
انقلب الى محبوب ، وخوف محبوب يرى الي ، ومحبوب لا يستطيع
تفلسفت بالحياة دفاعاً عن السر العسكري الخطير ، وهل شاهدت في
وما نفع كبرياء افوح نفسه ؟ في غير الفصول الرومنتيقية
ان نقف على رجله ، او قرات في روايته دون
زمانك طلالاً على حمار سنكوبنزا اختلاف
اخبار حمار عنتري ، الحمار سنكوبنزا ، فهل
كيشوت ؟ ولو فرضنا ان حمار الفنيقيين ، بالغيرة ، لما كان
داود ملكوت بينابيع الجبال اللبنانية ؟ كيفما نظرنا
حمار على قطاع الطريق في وعور الجبال الاسبانية ؟
يهجم على قطاع الطريق في سهول الاسبانية المسافرين
ظننه يهجم والسب الهواء في والبطل
يهجم على دون الحمار غير متخشنين
الى هذه المسألة زي الحمار غير متى
وتلفت ، متباينين غير وخطر واحد
عبر خوف في مكان واحد ووقت واحد
يتمنعون
ويفكون
لذلك

(٥٩)

لذلك اشيح بوجهي عن افقها، واحرم نفسي مشاهدة غارها

وآثارها في هذه الرحلة.

وبعد المشادة والمناقشة بيني وبين البطل محبوب والفدائي

داود تلك الليلة اجمعنا الرأي على ان يكون للبغلة المحبوبة رفيق

من الحمير للرفيق المجرح، وان يكون الحمّار ممن يقوون على المشي،

ويعرفون مسالك الجبال.

وقد قررنا لذلك ان ننهض في اليوم التالي مع لمحة الصبح - الزهرة -

اي قبيل ساعة الفجر، ونشد الرحيل لنصل الى الفريكة في ذلك النهار.

وكذلك كان: فساعة كانت الزهرة تتلألأ

عند حرف الافق الشرقي العالي، مشت القافلة في السكينة الرهيبة

التي هي هدأة الوصل بين الليل والفجر، يتقدمها محبوب راكباً حمارته، والى

جنبه الحمّار حاملاً عصاه على كتفه كالبندقية، ووراءه

محبوبة الرفيق المرضية، كأنها في غبطة علوية لركوبها صاحبها

راكبها.

وقد اجتزنا بأمان الله الشعاب والآكام والينابيع، فاستقام

لنا الظل بفيترون، فدخلنا البلدة وخرجنا منها ساعة كان الناس

يأكلون او يتناولون القيلولة، كما رآنا احد من آل درباس الكرام،

الذين كانوا ينتظرون عودتنا ليستضيفونا اسبوعاً في الزغل كاملاً.

وكان الجوع قد أخذ فينا جميعاً، وفي السبيل حططنا الرحال

في القليعات للغذاء والاستراحة. ثم نزلنا الى داريّا، ومنها الى

فردد الجبلان

نبع الكلب الناضب صيفاً لما هو شرقي الفعارة منه، ومن هناك شرعنا في التصعيد الى

جرى وقع الحوافر على بلاطه وبين صخوره. وادي شبيب [illegible] ، فادركنا ساعة الغسق

عن بحر دبي ~~[illegible]~~ فالشبانية، وادي هيفا على ظلام الكان، ومنها الى الفريكة

طريق العربانية، ونزلنا فيه ... علينا من وراء جبل صنين.

فدخلناها آمنين عندما كان البدر يطل علينا من وراء جبل صنين.

. . . . . .

ودي

٥١

وفي اليوم ~~الثالث~~ بعد عودتنا من الارز، جاء محبوب يعرج ويتكئ على

عصاه لتفقد "معلمه" الذي كان طريح الفراش من مرض جلدي

سكري جلبوه اليه يوم كان "ضيف الرب" في تلك الخيمة العتيقة

الوسخة بالارز.

وبعد التحدث بالبركات الظاهرة والخفية، والموجعة والمبهجة

قدمت لمحبوب الاكرامية التي وعدته بها قبل السفر، فابى ان يأخذها

وقال: "ما عدنا، يا معلمي، سالمين. فقد حلّت البركة علي

وعليك. ولكن، يا معلمي، الله يجرّب خائفيه."

ــــ ٨ ــــ

٥٥

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة الثانية: حيث شاء الطريق

١. الأمّ حنّا
٢. دير مار جرجس
٣. الضيعة وضمائرها
٤. في ظلال الجوز
٥. سطوح الجبال
٦. حلم بشغرين
٧. وادي الجماجم
٨. صنّين
٩. مع المكاريين
١٠. العروس المزيّنة
١١. القصر المنيف

الرحلة الثانية

~~ال~~حديث شتاء الطريق

–

١- الاخ حنا

٢- دير مار جرجس

٢- الضيعة وضيعاتها

٤- في ظلال الجوز

٥- سطوح الجبال

٦- حكيم بشعري

٧- وادي الجماجم

٨- صَنّين

٩- مع المكارين

١٠- العروس المزيّنه

١١- القصر المنيف

الرحلة الثانية: الى حيث مشاء الطريق

١

الوخ حنا

تعودت المشي في الجبل لا رغبة بالنزهة فقط
بل حبًا بالاستكشاف عن جمال الطبيعة في مشاهدها
المشي قليلاً في بادئ الامر، فتعودت عليه،
وتلوناتها. ممارسة
ايّ بحيرة، كما يقال،
فصرت اهبط الوادي، واصعّد فيه، واتسلق
الصخور، واقفز فوق الدكاكات، كالاشداء من ابناء
القرية. بل صرت صنوًا للرعاة والحطابين منهم،
اباريهم متى شاءوا، ولا خوف علي. وصار المشي
يشوقني حبًا به ولشيءٍ سواه، مثل كل عمل يحسنه
المرء فيهواه. فنشأت فيّ، بعد العودة منه
الدار، رغبة برحلة على الرجل مثل المكارين —
رحلة طويلة، لا تعد بالساعات بل بالايام.
ولكني عدوت عن المألوف حتى في هذا الشيء الذي
يحسبه ابن الجبل غير مألوف لدى من كان مثلي. ولا اخفي عليك
ان والدي كان من خواجات لبنان، وفوق ذلك من
"الكرخنجية" فيه، اي من اصحاب معامل الحرير. فوجب على
اولاده ان يترفعوا عن العمل مهما كان صغيرًا. فاذا
كان الابريق مثلاً قيد يد احدهم في البيت، وهو متربع
على الديوان يدخن الاركيلة، ينبغي له ان يصفق بيديه
ويقول بلهجة السيد الآمر: هات الابريق يا ولد. واذا
شاء السفر فيجب ان يكون ذلك على فرس من الاصايل او
بغلة من كريمات البغال، تعلو حلالها سجادة
ووسائد متددة اليه (تقدم المثال في "محبوبة"
بغلة محبوب) ويمشي الى جانبها خادم او الى جانبيها خادمان.

على اني، كما علمت، او كما بدأت تعلم، ارغب عن
المألوف في كل شيء، ولو شيء يحجبني الوجهة، او يغمني جماعها،
اذا ما وطنت النفس على امر فيه الشذوذ كله او بعضه.
فالرحلة ماشيًا تقررت في مخدعي، وقد ازمعت الرحيل كذلك
وحدي. هذه في غير المألوف فعلة مزدوجة — فعلتان.
وهناك الثالثة، وهي اقطع الفعلات في نظر الجيران.
ذلك اني فكرت في الضيافة اللبنانية، وفي الاكتشاف
عن حقيقتها الكلية. فقد اسلفت القول انها في
كسروان وافرة الحواشي، طيبة الاريج. وقد تفوق
محاسنها الجمة سواها في اماكن اخرى من الجبل. هذا
ما وددت أن أتحققه بالخبر والمشاهدة.

وما كنت في تلك الايام اتحرج من اختبار الامور بنفسي
مهما كانت الشقة او التضحية، او مهما كانت السماجة تلفه.
أضف الى ذلك اني مثل أترابي اللبنانيين من نسل ورع تقي
متقشف. وقد كانت زهرة هذا النسل في الماضي تختار
الكهوف والاودية والغيران تتنوّر بها. وكلمة لا مجاز فيها
كان الاجداد يتنسكون حتى التوحش، اي حتى الوحشة
والجوع، فينأون عن الانس ومنازل الانس، ويقتدون
قولًا وعملًا بالسيد المسيح، فلا يحملون ذهبًا او فضة.

وهي ذي كبيرة التجاوز في رحلتي. فقد وطنت النفس على
الاقتداء باجدادي القديسين وبالسيد ذي المجد الاعلى، فلا احمل
في الترحال شيئًا من زاد او مال. وسأسير على بركة الله
وحدي. بيد اني لم اكن وحدي في البيت، فاستقل في
تنفيذ ما قررت. فلما علمت بالامر الوالدة، رحمها الله،
رفعت يديها الى السماء متوسلة، ثم الي مضطربة مستنكرة.
فقالت ان ذلك مستحيل، وانه جنون مني. فقلت انه
جنون الايمان. وما الايمان؟ تناقشنا في ما هو
الايمان نظرًا وعملًا، ثم تساومنا سوامًا أوليا.

تقلبت

قبلت الوالدة، وهي التقية النقية، ان اقتبل بالنساك،
وقبلت انا بما فرضته علي اي بالرفيق، فلو ارحل الرحلة وحدي.

وكان في بيتنا يومئذٍ راهبٌ حوليٌّ - مبتدئٌ
ابن سنة - يدعى الاخ حنا. هو شاب من القرية ذو فطنة
وابجة، ومخيلة فازعة، يكره الفلاحة والزراعة، ويزدري
رعاية البقر او الغنم او المعزى، ولو طيب له المشي كالمكاري
وراء البغال. فقد كان الاخ حنا يحلم الاحلام الذهبية في
ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم. كان يحلم بالثروة
او بالسياده. وبما ان الهجرة لم تكن متيسرة له تغلبت
السيادة على الثروة في حلمه الذهبي، حلم الراهب الذكي

الكسلان. فقد كان الاخ حنا
ها قد فاجأتك بالسر في باطن حاله.
يقول: اني اتشوق الى خدمة الله. اريد ان اكون راهبا متعبدا.
انما رغبته بالرهبنة كانت مقيدة بمطامع دنيوية. نعم. لكان
الاخ حنا طموحًا، يمد يده ليتناول القمر. وكان يرى السلّم
امامه كأنه سلّم يعقوب منصوبا بين الارض والسماء،
فيردد في نفسه، ويسر في بعض الاحيان الى رفقائه في
القرية، هذا النغم في حلقات التصعيد الى العلاء:
الاخ حنا - القس حنا - المدبر حنا - الرئيس حنا. ومن
الرهبان من تختارهم النعمة الالهية للاسقفية، فيقفز
الرئيس حنا الى صاحب السيادة الاسقف حنا. وما يدريك،
وما يدريك، فقد كان في كل اسقف جرثومة بطريركية. وما يدريك، فقد
تكون هذه الجرثومة كامنة في ابن اخلع ابن القرية هذا.
اذن، ليست الدرجة العليا في خدمة الرب القدوس بالامر
بمستحيل. واذن - حنا نعمة الله بطريرك الطائفة
المارونية، بطريرك انطاكية وسائر المشرق!!
هذا هو الحلم الذهبي الذي كان يحلمه حنا بن جرجس بن
رحمه الملاح في ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم.

ا. ل.

بل هذا ما كان يقوله لبعض رفقائه في القرية: ولكن ابا
حنا كان يقول، بعد ان هرب ابنه من البيت: «كسلان،
وجبان، ودائماً جوعان. هرب من الشغل،
فاستراح المعجن منه. والى اين هرب؟ الى الدير!
كأن الدير قصر البرامكة. الله يساعده على ما في الدير.»
وما عتم ان رأى الاخ حنا ما في الدير. فقد كان
يعمل في بيت ابيه ساعتين او ثلاث ساعات في النهار، فيرعى
الغنمات، ويحلب البقرة، ويوقد لأمه النار وهي تخبز له الخبز على
"الصاج". فصار يعمل في حراثة الارض، ارض الدير،
وفي خدمة رؤساء الرهبان، اثنتي عشرة ساعة في النهار
ما عدا ساعات الصلاة والتهجد. وكان يأكل اللحم في
بيت ابيه مرة او مرتين في الاسبوع، اي في الآحاد والاعياد،
فصار فنال التقشف، لا يأكل غير "المخلوطة" – طبيخ
من العدس والحمص – ولا يشم رائحة اللحم الا على مائدة الرئيس.
كان معجن الخبز في بيت ابيه طوع يده، يسحب منه الرغيف
تلو الرغيف ولا رادّ ولا سائل، فصارت تُعَدّ عليه الارغفة
وما يشفعها من بصل او زيتون. كان يسمع القول المعروف
من والده ممزوجاً في بعض الاحايين بشيء من التوبيخ لوفرة
اكله وقلة شغله، فامسى في الدير لا يسمع غير كلمات التوبيخ
والانذار اذا شوهد مرة جالساً على صخرة يستريح، او
متأبطاً رغيفاً وهو سائر الى الحقل. واين الزيتونة
الهرمة يحلم في ظلها حلمه الذهبي؟
ثلاثة اشهر من هذا الكد والتعب والجوع – جوع الجسد وجوع
الروح – ومن الاوامر المدبجة بغليظ الكلام، ثلاثة اشهر كاملة
تحملها وصبر عليها لمجد يسوع بن مريم. وكان في تلك الاثناء،
وهو يختلس الدقائق للتأمل، يرى حلمه الذهبي منتسجاً
امامه، فيشتد اسوداداً ثم يختفي. ويبدو تارة
كالتنين وطوراً كالحية. هالته هذه الرؤيا، وروّعته
في تردادها. وفي ذات يوم وهو عائد من الحقل تخيل
ظله

ظلّه منتصباً امامه، فتناول حجراً وضربه به، فرآه
احد الرهبان، فسارع الى الرئيس يقول: "جنّ الاخ
حنا يا محترم. فقد رأيته يرشق خياله بالحجارة،
ويسمعه سبّ الدين."

وفي اليوم التالي، بعد ان وقف الاخ حنا في حضرة
الرئيس يستمع كلمات التوبيخ والانذار، رأى الراهب الذي
وشى به، فعاتبه، فانكر الراهب اللوم، فدعاه كذاباً
منافقاً، فتشاجرا، فالقم الاخ الصادق الاخ الكاذب
حجراً شجّ به رأسه. ثم فرّ هارباً من الدير.

عاد الاخ حنا تائباً الى بيت ابيه. ولكن اباه ابى ان
يقبل توبته، فطرده من البيت. وما أفلحت أم حنا فتوسّلها
من اجله. فقد كان ابو حنا رجلاً عنيداً، وذا اخلاق كالصوان.
فراح الاخ المطرود يطوف في القرية وجوارها، طالباً عملاً،
مسترزقاً ~~[illegible]~~، وما استطاع، وهو المبرّز
في الهرب، ان يهرب من الجوع. ~~[illegible]~~ فرثت لحاله الوالدة،
فاستخدمته في البيت، وهي ترجو ان تعود النعمة
الى قلبه، فيعود الى الدير.

طابت للاخ حنا الاقامة في بيتنا لاسباب شتّى على
ما اظن. فما كان عليه غير القهوة والنارجيلة يعملها ويقدّمها
للزائرين. وما كان عليه من مراقبة في المطبخ، فيأكل ما تشتهيه
نفسه وساعة تشتهي. وقد توفّرت لديه ساعات
الفراغ فكان يملؤها بالتأمل — والنوم!

ومع ذلك فقد احببت الراهب حنا، لانه كان قليل الكلام،
وكان يحسن عمل القهوة، وما كان مثل اخوانه الرهبان يكثر من مجالسة
البنات، ووعظهن. وهناك سبب آخر في حبي له، وهو
اني، على رغبتي بالنسك والتقشف، كنت احسّ بسرور
بمخالطة بعض الزهو، بل بتموّجات من الاحساسات تتموّج في
قلبي، واذا ناديته قائلاً: هات القهوة يا "خي" حنا،
هات النارجيلة يا "خي" حنا!

فيجي،

٦

فيجيء الوخ حنا بطلعته المشرقة، وقد زيّنها بلحية

فتية مدورة، وبقامته الطويلة، وقد البسها الثوب

الاسود والقلنسوة، يجيء والطيف بيده، وهي

ممدودة مرفوعة الى مستوى لحيته، كأنه تعلم

الخدمة في نزل بباريس، او في الفاتيكان بروما.

هي ذي الهيئة بعينها. راهب في خدمة من يحب

كثيراً اصحاب القلانس. وقد أطعمت الوالده، كما

اسلفت القول، فقبلت الوخ حنا رفيقاً لي في

الرحلة السعيدة. وهذه شمس الأصيل تطل من وراء

[illegible]

بسم الله.

جبل صنين لترحب بنا. [illegible]

[illegible]

— الى اين يا خواجا امين؟

— الى حيث يشاء الطريق، يا اخي "حنا"، وحيث يشاء

الله." وسرنا على بركة الله. الوخ حنا في ثوبه الاسود وقلنسوته، وقد

القى بجبته على كتفه، وانا في ثوب افرنجي من النسيج الاصفر —

الكاكي — العسكري — وبيدي عصا من السنديان.

وما زاد في غرابة الهيئة خافات من الجوخ مشدودة

حول الساق على الطريقة العسكرية، ومربطة سوداء

فوق شعر مسترسل، بل فوق شلالات منه

الشعر.

اثنان قلما اجتمعا في القصد الواحد، وقلما

شوهد مثلهما في الطريق.

— ما اظن الرحلة طويلة يا خواجا امين."

— الوجهة بيدنا يا اخي "حنا" والعودة

بيد الله."

ب

دير مار جرجس

ليس من اغراض هذا الكتاب، وهو كتاب اسفار
ومشاهدات، سردُ الاخبار الشخصية او العائلية. ولكننا نحدث
ونخبر بما فيه منها عبرة او ذكرى، ونروي من الحوادث
التاريخية، الخصوصية والعامة، ما لا يخلو من فائدة او تفكهة.
بل نزيد على ذلك، من حين الى حين، عندما نقف في التسيار
نستريح. فاذا كان هناك مشهد جميل وقفناه، او اثر قديم
استنطقناه، واشرنا الى الطريف من ماضيه. وما آثار الامم
غير نتيجة ظاهرة لمجهود افراد منهم امتازوا عن السواد
بافكارهم واعمالهم، او باطماعهم وعنجهيتهم، او بشيء
مكَّنهم من المثل الاعلى في طلب السيادة والمجد.
هذا الدير القديم منذ، القائم على رابية صخرية بأين
المحمرّة حجارته من عوامل الطبيعة
القريبة والشاوية، [illegible] والتراب والشمس — هو دير مار
والزمان — من الامطار والرياح
جرجس بحردق (لا تسألني عن البحث في اسمه. فان الالغاز
والاصول الخفية في اعلام هذا الجبل لتكثر في تاريخه القديم والحديث)
الذي اعلمه هو ان هذا الدير كان للرهبان في القرن الثامن عشر،
فصار في القرن التالي للراهبات، ثم تحوّل الى مدرسة اكليريكية في عهد المطران
يوسف جعجع، ثم الى بيت خصوصي ومعصرة للدبس والخمر، ثم الى
مدرسة علمانية انشأها المرحوم نعوم مكرزل قبل ان هاجر الى
الولايات المتحدة الاميركية، وكان هذا الكاتب من تلاميذها في العاشرة
/من

من سنته. اما اليوم فالدير أثر من الآثار المسربلة بجلال،
العتق والقدم. (64)

لقد جئتك بالعنوان لبعض الفصول في تاريخه، ولا بأس
بلمحة منه الخصها لما فيها من التفكه. هذا الدير واملاكه الكثيرة هو
وقف "مشايخ بيت الحايك" من بيت شباب، "وقفاً مخلداً" لقاء
بركة نشدوها، ومساعدة حددوها. فقد جاء في صك الملك المحبوس،
الذي أقرّه المطران باسيل عبد الاحد البجاني سنة ١٧٢٢، ان
للمحتاجين من اسرة الواقفين حق الاعاشة من الدير، وللاسرة كلها قداسان
اثنان كل سنة رحمة وبركة. اي ان غابة الصنوبر التي تكسو هذه
الرابية، واحراج السنديان والملّول دونها، والاراضي الواسعة
بدكاتها وبطاحها، المغروسة كرماً وتوتاً وزيتوناً، هي كلها
للدير لقاء قداسين اثنين يقدسها الرئيس او احد رهبانه
المعاونين، خلافاً لنفس الواقفين!

وقد حل محل الرهبان، بعد حقب من الدهر، راهبات كن في الدير
غير خاشعات، على ما يظهر، وغير تقيات. فقد جاء في اخبارهن انهن
في العقد السابع من القرن التاسع عشر أقلقن راحة اسقف الابرشية
المطران يوسف جعجع، فغضب عليهن غضبة مشرّدة. وقد كان
ذلك الحبر المفضال مشهوراً بعدله، وحدّة طبعه، وشدة ساعده،
يشارك عماله في حراثة الارض، له ضربة معول فالح، وضربة
مهدّة تفتت الصخور. وكان في احكامه، مثله في معوله
ومهدّته، ذا آثار مجيدة، لا يهادن في الحق، ولا يلين للباطل.

فلما حدث الشقاق في الدير، وتطايرت منه مجمرة الكنيسة شررُ الاحقاد والشهوات، انذر اولئك الاحبار، ثم هددهم بالطرد، ثم طردهم واقفل الدير، فامسى فارغًا غامرًا لا متعبدون فيه ولا متعبدات.

وفي كتاب كتبه المطران ححجع سنة ١٨٧٠ الى رئيس مجمع الايمان المقدس بروما، ليرفعه الى قداسة البابا، قال انه عازم على تجديد الدير بعد ان "فرّق الاحبار وبعضهم عن بعض" "لاجل طمأنينتهن وراحتهن" واستأذن بان يجعله مدرسة اكليريكية، فاذن البابا بذلك. ولكن تلك المدرسة الاكليريكية، مثل المدرسة العلمانية المكرزلية بعدها، لم تدم طويلا.

ولقد كانت مدرسة نعوم، على قصر مدتها، كثيرة التنقل. فقد انشأها في عين عار، ثم نقلها بعد سنة الى دير مار جرجس الحذاء، ومن الدير بعد نصف سنة الى الفريكة، وبعد ذلك ببضعة اشهر انتقلت الى رحمته تعالى

اني اذكر من ايامها في عين عار يومًا مجيدا. فقد كان قنصل فرنسه مارًا بالبلدة في طريقه من بيروت الى مصيفه ببكفيا. فخرج تلاميذ المدرسة باثواب العيد صفًا مبهجًا وراء معلمهم نعوم، يرحبون بسعادة القنصل في ساحة البلدة، بين مزراب العين وسنديانة معمل الحرير.

وكان

وكان معلمنا، غفر الله ذنوبه، قد نظم في مدح ~~[illegible]~~ القنصل ودولته
قصيدة رنانة، فاختارني لالقائها، فالقيتها ببهجة، أعجبت
القنصل، فخصني بعطفه ووعد بان يستصحبني عندما يعود الى
في آخر الصيف الى بلاده لتعلم في احدى مدارسها.

بعد هذا الفوز المبين اعتز الى شيء من الزهو، فأثر في دروسي
وسلوكي. فقد كنت الاول في الصف، فصرت دون ذلك بدرجات،
وكنت العاقل الطائع البار، فصرت "كبير الرأس" مشاكساً
مشاغباً. ولا ازال اذكر قصاصاً فاجأنيه المعلم نعوم، وهو انه
ضربني على رؤوس اناملي مجموعةً بعضها الى بعض عشر ضربات شديدات
بالمسطرة!

لا احاول التحليل والاستقراء لما كان من تأثير هاتين الحادثتين في
نفسي، اي عطف القنصل الفرنسي واخلافه بعد ذلك بوعده، وقصاص
نعوم القاسي. ولكني اذكر كذلك اني أثارت من معلمي في دير
مارجرجس. فقد دعاني يوماً للوحة التمرين السوداء وقال: خذ
الطبشورة واكتب. فوقفت امام اللوحة والطبشورة بيدي
انتظر الاملاء. فقال: اكتب — الحمار. فكتبت — الحمار.
فضحك التلاميذ
فقال: اكتب — ابن. فكتبت — نعوم.
واستشاط نعوم غيظاً. ثم امرني ان اقف ووجهي الى
الحائط عشر دقائق.

مررنا تحت الدير الذي بعث هذه الذكريات من تجاويف الماضي،
وحسبي ما تقدم من الاكليريكية والعلمانية منها، العامة والخاصة.

وها

وها نحن امام الكنيسة القديمة حيث كان الدير الصغير قبل
ان نُقل الى رأس الرابية وكُبِّر بعدان وقف له آل حائك
الوقف الذي تقدم ذكره.

هي كنيسة صغيرة حقيرة، بنيت عند جدرانها العليق
والقندول، لا جرس في قبتها، ولا قفل لبابها. حولها مقبرة اهل
الشاوية، وهي بضع حجرات مربعة تعلوها الصُلُب والقباب،
ومنها حجرة بيت الريحاني، في ظل سنديانة فتية الى جانب
الطريق. هاهنا مدفون الوالد والوالدة، والعم والعمه، والجد
والجده.. وهاهنا، في ظل هذه السنديانة، عند سفح هذه
الرابية المظللة بالصنوبر الدائم الاخضرار، اريد ان تتفيأ عظامي
ابد الدهر. وانا الان استنزل لعنة الله على من يقطع هذه
الشجرة المقدسة او يمسها بسوء. واني اسأله تعالى
ان يسبغ الرحمة والنعمة على كل من يعتني بها، فيدفع عنها
عاديات الزمان والفساد، ويشذبها لتنمو في جمالها وتدوم،
فتفرش وارف ظلها فوق المقبرة والكنيسه، ولكل من شاء
الاستراحة من المارين. اني انظر الى هذه السنديانة بعين
الغيب ~~وقد اعود فاراها بعد الف سنة قائمة هاهنا~~
~~يزورها الناس ويتبركون بها كما يزورون اليوم الارز.~~
فاراها بعد الف سنه — وقد اعود بعد الف سنة فاراها
يومئذٍ بالعين التي تراها اليوم — قائمةً هاهنا يزورها
الناس ويتبركون بها كما يزورون في هذا الزمان الارز.

رقلن

قلت هذا للأخ حنا فقال: "افكارك مثل اعمالك، ياخواجا امين، غريبة عجيبة. وهل تظن ان الانسان بعد موته يعود الى الارض؟"

قلت: "الهندوس يعتقدون بالتقمص او التناسخ، اي بانتقال النفس الناطقة من جسد الى جسد. وللانسان تقمصات عدة تتنوع بحسب اعماله الصالحة او الطالحة. فالصالحون بعض الصلاح يتدرجون في التقمص وهو دومًا في ارتفاع، فيعودون الى هذه الارض مرارًا الى ان يدركوا درجة الكمال الروحي، فيندمجون اذ ذاك بالفيض الازلي الابدي الذي يُدعى عندهم نرفانا."

هزّ الاخ حنا برأسه، وهو ينقل جبته الملقاة على كتفه الى الكتف الاخرى، ثم قال: "هذا فوق ادراكي. واذا كان لي ان اعود الى هذه الارض، فافضل ان اتجسد في هذه السنديانة لادفع عنها الاذى، واظل ابدًا في جواركم."

الاخ حنا الخالد في سنديانة مقبرة مار جرجس! أعجبني هذا التخيل منه. ولكنه في تجسده الحاضر لا يطمئن الى ظل من ظلال الاديرة.

مررنا بقرية الشاوية، مسقط رأس الوالد، فسألني سؤالًا يتعلق بالعائلة. فالذي حمل والدي على نقل بيته الى الفريكة؟ يظهر ان التنقل من الصفات اللازمة لبيت الريحاني. منذ ثلاثمئة سنة ويزيد نقل جد العائلة من بجّه في جبيل الى بيت شباب. وبعدها بمئة سنة نقل الخوري (ثم المطران (٢)) باسيل عبد الاحد الريحاني من بيت شباب الى القرية المجاورة

المجاورة لها اي الشاويه. فبنى له قلاية فيها، وكان الآس
الذي يدعى في هذا الجبل الرجان يكثر في تلك الناحية،
فقال الناس: قلاية الرجان. ثم نُسبنا اليه فقالوا: بيت
الرجاني. وهذه بيوتنا لا تزال قائمة تحت بيت شباب
ولكنها مهجوره. هي اليوم خبر لبعد عين، وغدًا لا عين ولا خبر.

اما السبب في انتقال الوالد الى الفريكه فهو الحب.

كان والدي شريكًا لخاله امين هاشم في معمل الحرير بالفريكه.
فاضطر ان يقضي معظم ايامه فيها، وقد كان يجتمع في بيت
خاله بانيسة جبَّال طعمه من قرنة الحمراء، وهي
في بيت عمتها امرأة خال ابي. فأحب فارس انيسه،
وأحبت انيسه فارسًا، فانغرس الحب في قلبيهما،
ثم توّج بالزواج فأثمر، فكنت انا بكرهما الغالي، اطال
الله بعمري وجمّل احوالي.

٦٨

فهذا يا اخ حناه ما جاوبت بالتدقيق على سؤالك.

لقد اختلف فارس وانيسه قبل الزواج في امر جوهري، هو
محل الاقامه. وذلك لان انيسة جبال طعمه، لعنجهية
طعمية فيها، رفضت ان تسكن في الشاويه، وابى فارس
انطون الرجاني، لعنجهيته الرجانيه، ان ينقل بيته الى قرنة الحمراء
او يسكن في بيت عمه هناك. وكاد الخلاف يؤدي الى
المشاقة والجفاء لولا الحب قاهر العنجهيات البشرية.

/ فقد

فقد اوحى الحب اليهما بالمساواة فتساويا من اجله،
وتقرر بالاجماع في مجلس عائلي ألا يقبر العريسان في
الشاوية ولا في قرية الحمراء، بل في ما بينهما، بل ~~في قرية~~
~~وهكذا كان~~ في قرية الفركية! وهكذا كان.

وهذا هو السبب في نقمة اهل الشاوية
علي. فان الشهرة التي جناها الدهر على الفركية في
عهدي كان ينبغي ان تكون لشاوية. ولكنهم
يقولون: وان كان البيت بالفركية فالمقبرة عندنا.
وقد تدوم المقابر، والبيوت لا تدوم. سبحان الحي الباقي

٦٩

—

الضيعة وضيعاتها

في تحديد القاموس لبعض الالفاظ ما لا ينير من الذهن
موضع الابهام، فيلبلبل ويغلط. ومن هذه الالفاظ القرية والدسكرة
والمدينة والمزرعة والضيعة التي يهمنا الآن التدقيق في معانيها.
فأية منها تُطلق على "البيتين والتنور" في عرف اللبنانيين، وأية
منها تليق بما هو اكبر من "المصر الجامع" واصغر من المدينة المنورة؟
ان في جبل لبنان من "الامصار الجامعة" ما لا يتجاوز عدد سكانها
المئة نفس، وفيه ما يتجاوز الثلاثين الف، وفيه ما بين الاثنين الكثير.
فهل لنا ان نبدأ بالدسكرة، ونتدرج منها الى القرية فالبلد فالمدينة؟
ولكن المدينة المنورة تدعى قرية الانصار، ومكة المكرمة تدعى بالبلد.
أفيجوز لنا اذن ان نقول قرية بيروت، ونسمي نيويورك او باريس البلد؟
اما المدينة فهي في عرف ارباب القاموس ما كان حولها سور بخلاف
البلد او القرية. ولكننا نحتاج في هذا الزمان الى غير هذا التحديد،
والا فالمدن الحديثة، وهي غير مسورة، تُعد من القرى. فتحديد
المعقول اذن، ودع عنك الاصطلاحات اللغوية. فالقياس المعقول
في تحديد القرية او البلد او المدينة هو عدد السكان.
وهذا ما يتقيد به اصحاب القواميس الاوروبية. فاذا لجأنا الى
القاموس الانكليزي مثلاً نرى التحديد دقيقاً معقولاً لا ابهام فيه.
ان للصف الواحد او الصفين من البيوت في بقعة معينة اسماً
واحداً لا اسمين، وهو همْلت (hamlet) ويجيء بعده ڤيلج
(Village)

village) اي القرية في اصطلاح الناس، ثم طَوْن (town)
وهي اكبر من القرية، واصغر من المدينه. هذا صحيح صحيح.
فهل لنا ان نجدد التحديد العربي بما يماثل ذلك فنقول
دسكرة، او مزرعة في اصطلاح العامة (hamlet) وقرية لما فوقها،
اي (village) ثم بلد (town) ثم مدينة؟
على ان في قرى لبنان تفاوت لا يرضى اهلها باهماله. فالغريبة
«بيان وتنور» اي دسكرة او مزرعة. لا مماراة في ذلك، ولا
اعتراض عليه، لا مني ولا من مختار المزرعة او قسيسها. اما البعيدات مثلاً
الحنتارة وقرنة الحمراء فهي من القرى، ولا اظنه ان احداً من اهلها
يدعي انها من المدن. فلا تُعد من
على ان هناك امصاراً مجموعة مثل دير القمر وبشري وبكفيا وشبابه
بيت شباب مثلاً فليس منها
من القرى ولا من المدن. فاذا قلت قرية بيت شباب
الف شاب ليرفع الاهانة. ولا يكترثون لما قال القاموس في القرية،
وان المدينة المنورة قد شرفت اللفظة بان انتحلتها اسماً لها
قد عيبت قرية الانصار.
بقيت البلد، والبلد ما قاله فيها الفيروزابادي: «البلد والبلدة
مكة شرفها الله تعالى وكل قطعة من الارض مستحيزة عامرة او غامرة.
والبلد التراب والقبر والمقبره» اذن يصح ان نطلق اللفظة على
الدسكرة والقرية والمزرعة، وعلى الغامرة منها مثل العامرة،
اي على المقبرة! فاين التدقيق والقياس المعقول في هذا التحديد؟
اما اهل بيت شباب فكأني بهم قد استناروا بنور احد
ادبائهم او بعلم احد المتأدبين، فنبذوا البلدة والمقبرة
كما

كما نبذوا القرية والدسكرة، وأسموا "قطعة ارضهم المستحيزة"
ضيعة. بل هي الضيعة المشرّفة بال التعريف. وقد اعترف
بهذا الاسم اهل القرى المجاورة لها، من ديك المحدي الى اشرويه،
فيقول احدهم، اذا كان ذاهباً الى بيت شباب او قادماً منها:
رايح الى الضيعة، جاي من الضيعة.
ولكننا لا نزال في مبهمات الفيروزابادي واخوانه اللغويين،
فالضيعة لا تدخل في تحديدات "قطع الارض المستحيزة" اي المجموعة.
الضيعة — خذني بحلمك وعُدمي الى القاموس — هي الارضة المغلّة.
وليست ارض بيت شباب على شيء يذكر من الغلّة. والضيعة
حرفة الرجل وصناعته. ها هنا بابان من النور. ها هنا شيء
من الحقيقة. واذا كانت قد خفيت على اهل بيت شباب صناعاتها،
فهي حياً وكرامة ظاهرة جليّة. لقد امتازت بيت شباب
بصناعاتها العديدة. وبحسب القياسات كلها، العقلية واللغوية،
التصويرية والمعنوية، يجب ان تدعى وبحق هي تدعى الضيعة.
وقد كانت الضيعة في تلك الايام، اي منذ عشرين سنة، عامرةً
مزدهرةً بالصنعات، بالصناعات. تُصنع فيها الاجراس، وتنسج المنسوجات
الوطنية (الديما) ويُعمل الفخار، وتُحل في معاملها شرانق الحرير. وقد
كان حدادها ونجّارها وبنّاؤها، مثل نسّاجها وفخّاريها، مشهورين
في القاطع، بل في المتن، بل في جبال لبنان شمالاً وجنوباً.
وما اجمل هذه الضيعة مشهداً للقادمين اليها من الفريكة، او
للمشرفين عليها من طرف بكفيا الغربي. انها لتملأ صدر الجبل ببيوتها
وبساتينها ومصانعها وكنائسها، تحيط بها غابات الصنوبر،
وتظللها /

وتظللها الكروم. كثيرة الينابيع، غزيرة المياه. يتصاعد من مداخن
معاملها الدخان، وتنتشر من جنائنها الروائح الزكية.

ضيعة متصاعدة بجمالها، متقطعة بعمرانها، تملأ صدر الجبل
الطويل العالي، الذي يتصل جنوبًا بجبل بكفيا، ويدنو شمالًا
من جبل كسروان. الاول من منازلها يعلو لستمئة متر عن سطح البحر،
والاخير ثمانمئة وخمسين مترًا. وبين اسفلها واعلاها تجتمع البيوت
بعضها فوق بعض، وتنتشر، وتتسلسل، وتستدير، باشكال
قائمة من الحجارة البيضاء والسطوح الحمراء المسنمة، وقد تخللتها
جميعًا بساتين التوت، وبواسق الحور والجوز والصفصاف.

اما سوقها فهو مؤلف من ثلاث ساحات، السفلى والوسطى
والعليا، يصلها بعضها ببعض طريق العربات الكثير التلويح والالتفاف -
والاجراف الهائلة. على انك تستقبل في الساحة الاولى
كنيسة السيدة - سيدة الجوزة - فتنذر لها نذر السلامة
اذا كنت من المؤمنين، وتستمر في العربة صعدًا في ذلك
الطريق اللولبي، ولا خوف عليك ان شاء الله

اما اذا كنت من غير المؤمنين بالسيدات القديسات وكنائسهن -
وما اكثر كنائسهن في الضيعة - نخبرك ان تلك الجادات ذوات
الدرج، المتغلغلة في صميم البلدة، فتتعرج في التوقل على
بيوت الصناعات ومعاملها.

هي الجادات التي سلكناها انا والاخ حنا بالرغم عند تردده
وتبرمه، لانه في السير مثل المياه الجارية يدور الدورات
ليتخلص من الاوعار والعقبات. وفي عقبات الضيعة
تنحل

تُحلّ الرُّكَب، وتُفكّ الرِّقاب. سلكنا احدى الجادات
مستهترين، ودخلنا آسفين. فأول ما استوقفنا
بيت فيه نول، وفي حفرة النول، وراء الخشبة، حورية
شبابية، تشتغل في النسيج يديها ورجليها. فاليد الواحدة
على الخشبة، والاخرى ~~[illegible]~~ تقبض على حبل المكّوك، ورجلاها
الحافيتان تصعد وتنزل على الدوّاستين كأنها تمرنهما على
الرقص. هي فتاة النول المتحرك المتحركة. وليس صوته، وهو
كصوت الدف، الذي استوقفنا، بل صوتها وهي تغني "العتابه".
ولكنها، عندما وقفنا في الباب المفتوح، أوقفت عن الغناء والعمل
ودعتنا للدخول. وكانت هناك امرأة اخرى جالسة على
وسادة امام دولاب اللُّحمه، وهي تديره باليمنى، وتعالج
باليسرى الخيط وهو يلتف على البكرة ~~[illegible]~~ التي تستعملها
الناسجة في مكوكها.

٧٢

وقفت السيدة وخرجت الفتاة من نولها ترحبان بنا.
فعلمنا ونحن نمتهن لطفهما بالسؤالات ان الفتاة عروس جديدة، وان
زوجها مدير في معمل الحرير، وان المرأة التي تعدّ لها البكر للمكوك
هي حماتها. وعلمنا كذلك ان في الضيعة اكثر من الف نول للنسيج
الوطني تديرها النساء والرجال، فيتعاون في العمل الاخ واخته،
او الزوج وزوجته، واحيانا العائلة كلها.
هوذا العمل الحر الشريف - النول في البيت تشغله ساعة تشاء
وقدر ما تشاء من الوقت - ساعتين او عشر ساعات او عشرين
ساعة في النهار. النول في البيت هو رمز الحرية في العمل. وهو فوق
ذلك

فوق ذلك سياج الكرامة، ومصدر الرزق، والحافظ الأكبر
للصحة والعافية. فالناس عاشت في النول تشتغل بيديها
ورجليها وهي خير الألعاب الرياضية.

كنت ترى النول في كل بيت من بيوت شباب قبيل الحرب العظمى،
بل كان في كل بيت نولان وثلاثة أنوال. وكان الإنتاج من النسيج
الوطني يضاهي الإنتاج "كمية" لا "ثمنًا" من الحرير. فيصدر التجار
منه الى خارج الجبل وخارج سوريه - الى مصر وفلسطين والأناضول
ثم نُكب النول في الحرب العظمى وبعدها، وكادت تضمحل صناعة
الحياكة. طغت عليها الأقمشة الأوروبية المنسوجة على الأنوال
الميكانيكية. وطغت عليها الهجرة، فقد هاجر من أهل بيت
شباب أكثر من ثلث سكانها. وقد طغى على النول كذلك
فساد الأخلاق، فصارت النساء تترفع عليه، وتتكل
على رجالهن - بالفرنجية - على أزواجهن أو أخوتهن أو آبائهن - بكل ما
تحتجن اليه من ملبوس ورزق، ومن أدوات الزينة والبهرجة.
ثم نُكب لبنان في عهد الانتداب الفرنسي بأزمة اقتصادية
شديدة، فصار الناس يبحثون عن "دفاتر أجدادهم"، وقام
من بيت شباب أناس يجددون صناعة النسيج الوطني، ويتفننون بها
ليقبل عليها أبناء هذا الزمان. ولكن العمال قليلون. وليس في
الضيعة اليوم وفي مزارعها ومزارع بكفيا مقدار ما كان في الضيعة
وحدها من الأنوال منذ ثلاثين سنة. ولكن صوت النول قد
عاد اليها والحمد لله، وسيعود اليها كذلك صوت فتاة النول وهو
ينسج لتلبسها ثوبًا من "المواليا"

دهنادة

١٧

وهناك، بالرغم من الهجرة، جهود تبذل في تجديد الصناعات
الاخرى التي كادت تضمحل بعد الحرب. على ان النجّار والبنّاء والحداد
والفخّاري كلهم او اكثرهم فتنوا بافريقية، تلك الساحرة السوداء،
وراحوا يطلبونها. واذا كان في الضيعة اليوم نجار او حداد او
بنّاء فانه يعمل بهمة باردة، وبروح يعتريها السأم. ان
افريقية تناديه.

ولا تغني عن افريقية حتى صناعة الاجراس، وفيها السر المكنون
الذي يتوارثه آل نفاع ابا عن جد من قديم الزمان، فمن في لبنان، في سورية، يجيد
صب الاجراس اجادة هؤلاء الشبابيين؟ ومن يدرك السر
في الاجادة؟ ان الجرس لفي صوته. وان في الاصوات لسحرا.
تشهد على ذلك اجراس الكنائس في جبل لبنان، وهي تختلف في
اصواتها وتتنوع ما شاء الصانع وشاء فنه. فمنه العريض البعيد
الصدى الى الحاد واللين والدقيق، وبينها الطريف الوان واطايب
من التهدار والطنين.

صوت الاجراس عند الغروب، يدوي في قباب الاديرة على قمم الجبال،
فيحمله النسيم وتجسمه ~~[illegible]~~ اصداء الاودية، فيتموج ويتشبع
في الفضاء، فيزداد جلالا وشجوا. هو ينادينا كما نادى الاجداد.
هو يبعث في النفس الخشوع والتقوى. هو يذكر بالماضي كقصيدة
او انشودة. جرس الغروب، جرس الصلاة من اجل اولئك الذين
سبقونا الى دار الخلود — من اجل الاموات. جرس الذكريات
التي يتعانق فيها الحزن والسرور. جرس الآمال التي يرددها تهدار
الحديد، وتضخمها الاودية بشذا الزنابق والرياحين. كل
مرة اسمع جرس المساء يرسل صوته المهيب من قبة
الدير

٧٣ ٧٥

الدير القائم على رأس الجبل ببيت شباب اشهر اشياء من الذهب
والحرير تنتظم تراتيل محزنة ، واشتمّ روائح البخور في
الفضاء . هو الخيال في الفن المسجّى على مائدة السماء ،
هو السحر في الحزن المسربل بالغسق . .

هي ذي ضيعة الضيعات في بيت شباب . وهي [illegible]
تكاد تضمحل . ليقول لك صانع الاجراس ان الطلب محدود ، والارباح
قليلة ، وان تكاليف الحياة تعددت ، وان ، وان - وهذه
رفرقبه تنادي ، دوما تنادي . واللبنانيون يلبون :
لبيك ، ايتها الساحرة السوداء ، لبيك ! الحياة والموت
بيديك ! .

ومعمل الحرير . هل جاءك نبأ الدودة التي تغرس من
اجلها بساتين التوت ، وتُشيَّد اخصاص ، تلك البذرة الغالية
الكامن فيها خيط الحرير . بذرة قرنيّة ساكنة ، فجرثومة
متحركة ، فدودة نهمة ، تأكل من ورق التوت ليل نهار
سبعة ايام متواصلة ، ثم تصوم يوما كاملا ، ثم تعيد الكرّة
على الاطباق الخضراء ، وبعد صومات واكلات معدودة
تصعد الى الشيح لتحوك الشرنقة حبسا لها من حرير ، فيجيء
يوم القطاف ، وما يلحقه من اجل بموسم مبارك . وهذي هي
الشرانق تنقل الى المعامل فتخنق في مخانقها وليّة نعمة
الانسان . ثم تنقل الشرانق المختنقة فيها الديدان ،
الى اجران المعمل وفيها المياه الحامية ، ووراءها
الحلولات

المحلّلات والمحلّلون يتناولون بأناملهم خيوطها الذهبية ،
فتحل ، فتلف على الدواليب ، ثم يُرزم الحرير
المحلول خُصلاً ، فبالات تُشحن الى اوروبا .

المحلّلون والمحلّلات . سمعتهم يرتلون الصلوات
ساعة الغروب ، وهم في عملهم بين الاجران والدواليب .
ترفع جميلة الصوت منهم صوتها طلبة العذراء . كيريا ليسون
كريستيا ليسون . يا سلطانة العذارى ، يا سلطانة
الملائكة ! فيردد العمال خمسون او مئة منهم : تضرعي
لاجلنا . فهل يخطر في بالك ان في هذا الزمان الصناعي الاقتصادي
المادي ، المضطرب المضطرم بحروب العمال وارباب المال ، يجد من
نسل آدم من يعملون راضين قانعين ناعمي البال ، ويرتلون

٧٦

فوق ذلك اثناء العمل ؟!
انها لظاهرة عجيبة ، وقد كانت في لبنان من الظاهرات
المألوفة العادية . وهناك حركة الموسم ، موسم الشرانق ، وما اكثر
بركاتها . لقد كانت تشعر بها حتى قوافل البغال وهي
تحمل احمالها الغالية ، اكياس الشرانق ، من شتى القرى الى شتى
المعامل ، فتتهادى في زينتها وبين قلادات الودع
جلاجل تسمعك دويًا فيه البشرى — جاءت الشرانق ! —
فيه الخير ، فيه الجذل . . . .

هي الضيعات الضائعه، تحل محلها البطالة والتبل
والقنوط. هي المعامل المقفلة تعزيك بها الكنائس —
في بيت شباب عشرة منها — والاديرة للرهبان والراهبات.
هي الثروة الذاهبة تندبها الجرائد — في بيت شباب جريدتان —
والرزايا الغريبه. هي الكرامة الوطنية ترحل بالجرب الشباني —
الوطنائي — وتأكل خبزها مغموسًا بعرق افريقيه!
على ان هناك ضاعة واحدة لا تزال قائمة وان كانا
قد قل انتاجها. فقد لبى حتى الفخاري نداء تلك الساحرة
السوداء، ومن شرتين معمل للفخار لم يبق غير بضعة
معامل. منها معمل جدي وبيتي في المدرسة الحاج ابو يسوع.
فقد قرأنا معًا كراسة الحجد والمزمور الاول من مزامير النبي
داود. قرأناهما على الشدياق متى، تحت الجوزة في
الساحة السفلى، يوم كان والدي مقيمًا ببيت شباب وهو يدير احد معامل الحرير فيها،
اي في العشر الثامن من القرن الماضي. اذكر
الخيك تذكر القول المأثور: من علمني حرفًا كنت له عبدًا.
للشدياق متى رحمه الله عبيد كثيرون. وقد سبقت شهرته في
هذه الناحية من جيل شهرة معلمي الثاني نعوم مكرزل.
ترحمت على الشدياق متى. ولكن ابا يسوع لا يشاركني
في هذا الترحم. فقد كان بعض التلاميذ يقولون يومئذ في معلمهم
الشدياق: «ضاعت السبتية فيه؟» والسبتية،
طالت اياملك، ارغفة من الخبز يحملها كل تلميذ يوم
السبت

السبب الى المعلم متى لقاء التعليم. والحاج ابو يسوع لا يزال
يردد هذه الكلمات: "ضاعت السبتيّة فيه." ذلك لانه، ٧٧
على ما يرى، لم يكن مرموقاً بنظره الاعلى. ما أذكى فيه شعلة
النبوغ كما اذكاها في سواه — فيّ انا مثلا. وكثيراً ما
يقول سائلاً: "ما السبب في الفرق بيني وبين امين؟
قد لقطنا الحرف سوية في مدرسة الشدياق تحت الزوج،
امام كنيسة سيدة الزوج. واين هو اليوم واين انا؟ هو
الفيلسوف، وانا [illegible]؟ ما انا؟ فاخوري يلعب بالتراب...
انا اظن ان الشدياق اعطاك مفتاح العلم يا امين، وحرمني
اياه. افلا تلومني اذا قلت: ضاعت السبتيّة فيه!"

على ان الحاج يسوع فيلسوف مطبوع. لا تسحره
زخرفيه، ولا تغره الدنيا. القناعة كنز لا يفنى — اللقمة هي النعمة
الكبرى — الاستغناء هو الغناء. هي الكلمات التي يرددها دائماً. وهو
يستمع كذلك لكلام الكاهن في ايام الاعياد والآحاد، فيحفظ
منه ما يلتئم وفلسفته، وينبذ الباقي نبذاً هادئاً، ولا ادعاء
ولا كبرياء. "الانسان من التراب، يا امين. والذي يشتغل
بالتراب هو اقرب الى الله من الذي يشتغل بالحرير."
هذا الفخّاري الحكيم، اللاعب بالطين، يعتقد كذلك ان
الله خلق آدم من تربة بيت شباب، من هذا الصلصال الذي يصنع
منه اليوم القوارير والخوابي. انه لمن الطف اللاعبين
بالطين

فطنة

بالطين، كما انه ينزههم وحكمه. ولكنه، جميل
زملائه وابناء عمه جميعاً لا يزال في صناعته حيث كان
شالوم بن مشولوم في ايام رفقة زوجة اسحق بن
ابراهيم أبي الآباء عليهم السلام. وان اليد التي تكوّن
الطين على الدولاب جفنةً او قارورةً لهي اليد التي لا
تستعين بغير العين والذاكرة لتستقل اليها ما كان منذ
خمسة الاف سنة منتهى الاتقان في الصناعة، وما يزال
بعد خمسة الاف سنة في كرّاسة الوجد منها.

فان شئت ان تشاهد الفخّاري الذي صنع قوارير
الزيت للشونميّة في قديم الزمان، وتشاهده في عمله يمدد
الطين ويكوّنه بيديه كالتراب لوناً ولِيناً، ويسيّر ٧٨
الدولاب برجله الحافية الشبيهة بكتلة من الفخّار —
تراب بتراب! — والى التراب نعودا! — فزر الفخّاري
٧٩ الفيلسوف بضيعة بيت شباب.

في ظلال الجوز

دخلنا بيت شباب بسلام، وطفنا في معاملها وبيوت صناعاتها بسلام وامان، تخللها حادث غير جدير بالذكر لولا الاشارة الشيطانية فيه. فقد اجتمع حولنا زمرة من الاولاد، وسمع الاخ هنا احدهم يقول لرفيقه: "هذا اللي حرمه المطران" فهمس الكلمة في اذني وهو يستعجلني في الخروج من الشيعة. فقد ما خفي امرنا على اولئك الاولاد، وكاد لذلك يضطرب. خشي الاخ هنا على روحي، بل خشي كذلك على روحه، اذ ان خبر فراره من الدير كان قد شاع، وخرق الاسماع. فلا عجب اذ خيل اليه، كما أدركت بعد ذلك، انه سمعهم يقولون كذلك: "وهذا اللي هرب من الدير" اثنان كافران، تنكأ عليهما الصبيان. عجل باخراجنا اميل.

انا من الواجب علي الان، وان عجلنا، ان احيط القارئ علما بخبر الحرم الاسقفي. لقد اشرت في الفصل الاول من الرحلة الاولى الى عقيدة الكاتب الدينية الشاذة، وما كان من تأثيرها في اهل الفريكة. فقد وقفوا حائرين تجاه بدعة فاقت ادراكهم، وكان من حسن تعقلهم انهم في تلك الحيرة آثروا الحياد على اظهار العداء او الولاء.

وقد كان كتاب "المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية" حديث العهد يومئذ، واثره لا يزال عالقا في انفس الناس، وكلهم او اكثرهم لا يقرأون. انما الاشاعات تعددت، وتجاوزت /

وتجاوزت في انتشارها حدود القرية، فانبرى من احدى القرى
المجاورة احد الغيورين على الدين يهيج جيرانه على الكافر. وقد
الف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان، وراحوا يحتجون
الى اسقف الابرشية، ويطلبون مساعدته في استئصال شأفة (٨٠)
الكفر من بينهم. الحرم، يا سيدنا، الحرم. لا يؤدبه غير الحرم!
فاستجاب سيادته طلبتهم، وأصدر حرمًا كبيرًا رهيبًا يمنع فيه
امين بن فارس بن انطون الريحاني العاطل في القرية بابرشيته تحديدًا "من قبول
الاسرار الكنيسة ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم" او
بالحري يمنع المؤمنين من مخالطته.

وقد كنت في تلك الايام شديد التمسك بقواعد التنسك،
أوثر الوحدة الكاملة على مخالطة الناس، فجاء الحرم في وقته
ومحله، فكتبت الى سيادة الاسقف اشكره عليه، والى اهل
القرية احضهم على طاعة اسقفهم، فيعملون بما يوجبه الحرم
عليهم، ويتركوني وشأني.

استمرت هذه الحال بضعة اشهر، والناس بين محبذ
ومنكر، وطائع وساخر، فما نجم من الضرر ما يذكر، والحمد لله،
لا على المحروم ولا على جيرانه المؤمنين. على ان المحروم ظل موضوع
احاديثهم ردحًا من الدهر، وغدا كالثور الابلق، يشار اليه
بالبنان في القرى المجاورة للقرية، وحتى في بيت شباب كما
يبدو في الحادث الذي استوجب هذا البيان.

وبين /

وبينا نحن في تلك الحلقة من المتكأكئين، وقد اقتعدوا
بنا في التسآل فاحطونا وابلوا منه، سمعنا صوتاً كصوت جرس
من اجراس بني نقاع نيتهر اولئك الصبية، ويشتتهم
ذعراً ووجلا. ثم سلم صاحب الصوت علينا، وهو يعتذر عن
فضولهم ويقول: تشرفت الضيعة. اهلاً وسهلاً بكم.

لقد كان لظهور سعيد الحائك في تلك الساعة وذلك
المكان وقع جميل في نفسي ونفس الرفيق. اما تعليل الظهور،
فهو كما علمنا ان سعيداً رآنا من شرفة بيته، فبادر الينا
لينقذنا من صبية البلد، وليدعونا الى البيت للغداء.

وقد كان سعيد في تلك الايام ولا يزال في حدقة الشبان
المثقفين الاحرار. وهو اول من ~~[illegible]~~ خاطر بروحه فاحتقر حدود
ذلك الحرم واقتحمها، فتزاني في الكنيسة، لو معزياً كما قال: بل
مهنئاً. هي جرأة تذكر في تلك الايام. بل انا سعيد
الحائك في الجبل وقسطنطين يني في بيروت كانا الاثنين الاوليين
من الانحصار بعيد عودتي من اميركه في صيف السنة الرابعة
من القرن العشرين. اني اذكر لهما هذه المأثرة وتلك
الجرأة على الدوام.

وبينا نحن في الطريق الى بيت سعيد بان ازيد القارئ
علماً به وان كان يكره الظهور. فان المروءة والحمية تغلبان
المرء بما يريد؛ الحقيقة نفسها لا تخدم مشيئة الناس.

اقول

أقول إذن ولا حرج ان سعيداً من اسرة لبنانية كريمة يتّقد
فيها الطموح وحب المغامرة. فقد كان عم سعيد (الشيخ ابو الحسن الحاج رحمه الله) اول من تمدّد
ببصره وبمنية قلبه الى ما وراء الافق البحري، الى الغرب،
فهاجر الى مصر ثم الى انكلترا يحمل ما يحسنه من اللغة الانكليزية
الى من يحتاج الى علمه من السياح.

ثم اقتدى به ابو سعيد فصار مثل اخيه رفيقاً لاولئك
الانكليز والاميركيين الذين تستهويهم بلادنا، فيؤمّونها سائحين،
متنزهين ومستكشفين. فلا عجب اذا اقتفى سعيد
اثر ابيه وعمه فراح يحمل مصباح الهداية في الاسفار في شرقنا
العربي. فاشتهر في هذه المهنة، وكان الرفيق فيها للكثيرين
من اهل الجاه والمال والعلم، فافاد واستفاد، وغدا بين
اهله مقدماً عُرف بأصالة الرأي، والجرأة الادبية، وحرية الفكر والعمل.

وقد سافر سعيد مرتين الى الولايات المتحدة، فتعرف هناك
الى صديقي – صديق العرب والجياد العربية – الفنان المشهور هومر
داڤنپورت. وقد سمع من غيره وهو هناك ما جعله يصدّق
كل ما قاله في من أحب، ثم قرأ كتابَيَّ الاول "التساهل الديني"
والثاني "المحالفة الثلاثية"، وعاد بعد سنة يحمل الكتابَين
في حقيبته، ومعهما الى مؤلفهما سلام الاحرار من وراء البحار.
بل جاء وفي جراب علمه بذور جديدة للمزارعين.
فمن مزاياه الحميدة انه لا بد ان يستأثر بفضل او نعمة،
ويعز

ويعز عليه ان يقال ان ليس في بيته شبابا من الشبان
الاحرار سواه. ان فيه شيئا من نفسية الرسل الاطهار،
يسارع الى نشر ما يدركه من علم، ولا ينفك يدعو لما
يتيقنه من حقيقة، او عقيدة.

ولا بد في مثل هذه الحال ان يكون من المزعجين، اي
من اولئك المتحاربين، ذوي الغيرة والحماس، الذين لا يحسبون حسابا
لما قد ينجم عن غيرتهم وحماستهم من الكرب لانفسهم ولاصدقائهم.
فقد كان سعيد النصير الاول، كما قلت، الذي تجاسر ان يزور الفريكة
بالرغم من غضب الاكليروس على ناسكها. اما اليوم فالسعيدون
كثيرون بفضله، ومع ان عددهم لا يشبه السعيد الاول،
فقد صرت اخشى من الازدياد على وحدتي، وصار الناسك
يستغفر الله لطريقة الرسول.

اما وقد عرفتك اليه في ما هو بارز من مزاياه فلا يجوز ان اهمل
واحدة منها: هو اخو اسفار. هو رفيق الكبار. هو ~~...~~ في مقدمة الاحرار،
وهو صديق الابرار. فيجب ان تعلم كذلك انه من اولئك الذين
يرفعهم العرب الى اعلى منزلة من الفضائل، اي انه من اهل الكرم والجود.
على ان الكرم انواع منه المكتسب، ومنه الموروث، ومنه الطبيعي.
فصاحب الكرم المكتسب ~~...~~ ينشد في كرمه الوجاهة والسيادة.
وصاحب الكرم الموروث يرعى التقاليد في الكرم محافظة على
ارث مجيد ~~...~~ او غير مجيد في بيته. اما الثالث

فهو لا يرى في الكرم غير الكرم اولاً وآخراً . هو الكرم الطبيعي ،
وان فيه لصاحبه اللذة الكبرى .
ليس احب الى قلب سعيد من الضيافة ، وليندر من هم اكرم
منه فيها واعلم . قد يكون لمهنته الفضل في ذلك العلم ، اما الباقي
فمن فضل ربك . ولكن العلم وحده يدهشك ، والتبذير نعيك
ان حديثي لعربي محبب في اقامة الآداب ، وانه لأدعى
الاعجاب به . هو شاعرها . هو
من عرفت في ارتجالها ، اذا جاز التعبير . ولا اظن ان اجنبيًا يمر ببيت
سعيد . هو مختبئ
شباك دون ان يعلم به سعيد الحائك ، فيقطع عليه
الطريق ، ويعرض عليه الضيافة . . .
وجلسنا الى البيت القائم في قلب الضيعة ، عند مستند من الجبل ،
في ظلال بساتين الجوز ، وقد ~~[illegible]~~ تخللتها المياه الفضية ، الجارية من ينابيع
الساحة العليا . على ان الطريق اليه ، فمنها امام بابه ، محفورة
في اسناد الجبل ، وقلما تتسع . تدخل من الجهة الشرقية والجبل
وراءك قائم كسور الصين . اما من الجهة الغربية فالمشهد متراي
الاطراف جليل ~~[illegible]~~ مهاب . هناك من قرى بيت شباب الشاوية
والقنيطرة والفريكة . وهناك الى الشمال جبل كسروان بصخوره
وخنادقه الهائجة ، وبغاباته وقراه المطمئنة ، وبأديرته
المتناثرة بالربى المحصنة بها . وهناك دون الاديرة
والغابات خط ازرق ، او بالحري جدار ازرق متصل بالسماء —
هو البحر كما يبدو من اعالي الجبال . وهناك اشياء بيضاء شبيهة
بالحمام /

٢٢

بالحمام هي أشرعة المراكب التي كانت قديماً سيدة البحر

المتوسط. وقد

كانت الساعة تدنو من الظهر عندما وصلنا الحاليب.

رحبت بنا فاؤه الفاضلات أم سعيد وزوجته وامرأة عمه،

وهن يُهيّئن "اللقمة" للضيوف. وما أكثر المقدمات

لتلك "اللقمة"! فقد جاءتنا احدى السيدات بكؤوس من

شراب التوت، ثم جاءت الخادمة بالقهوة والنراكيل، وبعد

قليل دخل الخادم يحمل طبقاً كبيراً مزيناً بالقناني، ومزدحماً

بالمقبلات –

قد تظنه ان المشروب والمقبلات في الضيافة اللبنانية الذي يتقيد

حيلة يحتالون بها على الضيف فيشغلونه في الوقت ~~اللازم~~ الى حضر

الطعام. ولكني أظنه يغني عن بعض الطعام او كله. فالمقبلات نفسها لتدهشك

بتعداد أشكالها وألوانها: البسيطة والمركبة، والمطبوخة والخضراء،

المجلوبة من البحار وما وراء البحار، ومن شتى البساتين والبلدان.

فهناك لحم الخنزير الاوميربلي، ومعجون الكبد الفرنسي، والسردين

الطلياني، والجبن الهولندي. وهناك الباذنجان المكبوس الدمشقي،

والفستق الحلبي، وخبيزة اللبن البدوية، والقصبة النيئة الشايبه، والكلاوي

المشوية. وهناك البزورات، قوافي قصيدة المقبلات. (٨٤)

وهناك المشروب العرق والبيرا والويسكي والصودا..

كأن لصاحبنا "جراب الكردي" المشهور في قصة من قصص ألف

ليلة وليلة. هات، يا خادم الجراب! لبيك، يا صاحب

الجراب

الجواب .

هو ذا المضيف الذي يتبارى الذوق والكرم في
ضيافته . ثم يدهشك الدهشة الكبرى اذ يدعوك الى
"اللقمة" - الى مائدة هي بنت ساعتها - بعد ساعة
ونصف ساعة من وصولك .

هي الادارة والحركة والدماثة التي تتصف بها النُزُل الكبيرة
في المدن العظمى . وهو الكرم الذي يتصف به اللبناني الكريم .
وهي السرعة في التحضير التي تمرن عليها مضيفنا في مهنته .
مادبة فاخرة سيحرها من عالم الغيب الى عالم الوجود خادم ،
"جراب الكردي" ، فاتحتها لحوم افرنجية مدبجة بالبقولات
اللبنانية ، وخاتمتها ثمار الجبل ، وبين الاثنين فصول
شائقة تتمثل فيها الالوان الوطنية التي تتقدمها الكبة
النيئة ، ويتلوها الدجاج المحمَّر ، والمحاشي على انواعها .

وقد شربنا من خمر لبنان المعتقة ، التي تفوق
ال"شري" الاسبانية ، وال"بورت" الانكليزية ، وال"ديبونه"
الفرنسية ، تفوقها كلها بطيب المراد والشذاء ، وبنعومة
الحد والصفاء . شربنا على ذكر احد قائنا في الغربة ، وفي
مقدمة الاجانب منهم ذلك الاميركي المحب للسوريين ، هوكر
دافنبورت رحمه الله . وشربنا على ذكر احد قائنا الوطنيين ،
وفي مقدمتهم ذلك الشاب الكريم ، اول من هاجر من
سبت

بيت شباب الى فرنسه، واصبح نقيب النجار في باريس،
ذلك التاجر الاديب، والوطني اللبناني الصميم، عباس
البجاني رحمه الله رحمة واسعة.
وكنت ارى سعيداً يخص بالاكرام الاخ حنا عندما علم
انه فرّ هارباً من الدير، وانه قريباً يخلع الثوب الاسود ويهجر
الجبل كما هجر الرهابين.

(١٥)

هو الذي جهر بذلك، بعد ان افرغ الكأس الثانية من الخمر.
"سأسافر الى اميركا ان شاء الله" قالها وسكت. انه تعليل
الكلام، وخصوصاً عند الطعام، فلا يجمع بين العملين الاكل والكلام.
بيد انه في الاول أمهر منه في الثاني. كيف لا، وهو يأمر على
سماط هجمات الابطال. يدير خبزته في صحن الكبه فتزول
نصفه بلحظة عين، ويتناول الدجاجة بكلتا يديه فيذهب بالفخذين،
وانت تتشهد الملكين، ويلتهم محشي الكوسى المحشاية تلو
المحشاية كأنها حبات من الزيتون! لله درُّ الاخ حنا،
القاهر الخوان، المذلّ الجفان.
حاول سعيد ان يملأ له الكأس الثالثة من الخمر،
فحالت دون ذلك، فجمجم حدى اعتراضي، وفي صدره رغبة رابضة.
فقد كان يظن اننا سنقضي النهار والليل عند صاحبنا، فأخطأ
الظن. وهل يجوز، بعد هذه المادبة، ان تلقي على مضيفك
اثقال اختها؟ او ان تخجله فتحمله على الاعتذار ساعة
العشاء؟ مع اني كنت متيقناً انه يستطيع
ان

خيره خيراً

ان يفوقكم وابداعه ابداعاً لبعد ست ساعات اخرى فقد
هجعت، واستأذنت بالرحيل.

وكانت هجعة الصيف حادقة، لا احاول ان اصفها،
اشترك فيها صاحب البيت وخواتينه الكريمات. فذكروني في
العزيمة والالحاف، وفي استملافهم اياي باني اعود لاقضي
عندهم بضعة ايام، ذكروني باجدادي الكسروانيين. فوعدت
وودعت. بل وعدت ليؤذن لنا بالوداع
وما رضي سعيد بوداع واحد في بيته، فرافقنا
أسعد معنا الى رأس الضيعة، فوقفنا هناك
مودعين الوداع الاخير [illegible]

٨٦

ب.

سطوح الجبال

ان للجبال في تكوينها انواعاً من العظمة والجمال لا يدركها
المرء وهو بوسطها او بالقرب منها. فهي لا تبدو بشتى
اشكالها، وبما يرمز الى حالها، الا من المشارف العالية، او
من الموقف الكشاف، النائية نأياً متوسطاً لا يحول دون
مدى البصر وان يزيد عليه. فالقرب يشوهها، والبعد
يموهها، فتبدو كالاطلال حيناً، وحيناً كالظلال. اما اذا
اشرفت عليها، او نظرت من المكان الكشاف اليها، فانك
لتراها مجموعة متقطعة، متموجة متسلسلة، هاوية
شامخة، مرحبة متجهمة، مطمئنة متمردة.
هاكها تحت قدميك فاغرة فاها، هاكها امام ناظريك
ناشزة بهاها، هاكها الطريق المباح لذوي الاجنحة
والرياح — فها نحن في رأس الجبل المتمردة
والمتطاولين عليهم. وهذه القرى المنتشرة في
على صدره بيت شباب. صغيرة حقيرة.
ناحيتها الغربية هي من الوجهة الاجتماعية
ينظر اليها ابناء الضيعة من أسيادهم ومنحدراتهم
نظرة الواقف على القنة الى المقيم في سفح الجبل، او
في واد من اوديته، او بين اضلعه وروابيه.

هي /

هي محتقرة مستضعفة ، واهلها فلاحون مزارعون .

اما المشهد الطبيعي ، المنفصل عن الحالة الاجتماعية ، فهو

من اعالي بيت شباب مشهد رائع في تنوع اشكاله ، القائمة في

اوديته ، المتسلسلة في روابيه ، المحتضنة بين اضلعه ،

الحافلة بالدساكر والقرى . وما اجملها من هذا الموقف ، تلك

القرى المغمورة بالشمس البهيجة ، فتبدو بقرميدها الاحمر

خلال البساتين والغابات كجزر من المرجان في بحر

من الزمرد واللازورد . [illegible] للناظر

ودعناها من المكان الذي هو الافق الشرقي

اليه منها ، المكان الذي تشرقه شمس الصباح بتبسمها ، ٨٧

ولينا الوجه شطر المشرق ، فاذا هناك ،

[illegible] وبوطئ قدمها . جبل صنين . جبل ضخم ،

فوق الوادي العديد ، سيدها الاكبر صنين . قد تعودت ان اشاهد هذه

احد جبابرة السلسلة اللبنانية ، فرايتني بل خيل الي

في اوج مجده ، وفي سائر عظمته ، من القربة ،

عندما شاهدته للمرة الاولى من مكان اعلى من الفوقية واقرب اليه .

هل يتجلى بطلعته ، بمهابته وجلاله ، باشراقه وظلاله ،

بشموخه واستشرافه ، وبما يطأطئ الرأس عند قدميه من

الآكام والربى ، وبما يمثل بين يديه من الاودية والوهاد ،

هل يتجلى صنين بمجموع عظمته وجماله من غير الجهة البحرية ،

ام

من احدى الآكام الغربية؟ فلو نظرت اليه من سهل البقاع
مثلاً لما رأيت غير شعفه الاعلى، ولضاعت نواحي مجده كلها.
ولو وقفت عند نبعه ورفعت اليه البصر لبدا لك مقطوعا
مبتورا، جافا جافيا، اذ تدرّجه شمس الفجر، ولا
تؤثر به شمس الغروب.
حزين ساعة الغروب! هل شاهدته مرة يتجلبب بالالوان
التي تنسجها له الشمس الغاربة على منول الغيوم البحرية؟ هاكه
في جلباب ذهبي. هاكه في ثوب ارجواني. هاكه في قميص من
نسج الورد والزعفران (هاكه في جبة الغضى العجلان.) وهل شاهدته ساعة الفجر،
ساعة تطل الشمس من وراء عرشه فترسل اشعتها الناعمة
على الحقول والآكام، وفوق الاودية المائلة بين يديه، فتستخرج
ما فتشجانها حقائق ~~[illegible]~~ الفن في الحياة؟ ساعة
الشروق تستيقظ رعشة جنينها، وتلبس على مهل ثيابها، فهي
اذ ذاك بهجة للناظرين. فالغابات المنتثرة بين الربى
تغدو خضراء، والآكام القائمة دونها دكناء، والبطاح
الحلية صفراء، والاودية السحيقة سمراء، والحقول المفلوحة
المزروعة بنية حمراء. وبينها اديرة عامرة في وحدتها،
تفرش قرميد سطوحها لنور الفجر، فيلمع فيه الذهب،
وترفع زجاج نوافذها للنور المغيب، فيبرق فيه الماس.
اما

١٨

اما في رائعة النهار الشموس فان وهج الاشعة العمودية
يذهب بالالوان الا الاسحم منها في الغابات ، والادكن المخطط
بالخطوط الصهباء - أثر الحديد - في الآكام الصخرية. وهناك
في التلوين عوامل جوية اخرى غير ما يكون منها في ساعتي
الشروق والغروب. فالضباب الشفاف بعد المطر مثلاً يتخلل
النور والظلال فتتميز الالوان بعضها عن بعضه ، فيبدو أثر
الحديد في الصخور أشد احمراراً ، وتغدو خضرة الحقول
اصفى اخضراراً ، وتبرز حروف الآكام جلية ، فتشعر
بما يفصل بعضها عن بعض من الوهاد ، وهي في كل حال سحيقة
قصية خفية.

ليس للجبال حدود مستمة كما يظهر في الآفاق . بل
ان الارض لتنفرج وراء كل افق وتتسع . وان لكل جبل مدارج
من السفح الى القنة ، وسطحاً دونها فسيحاً . وهناك
للجبل الواحد سطحان وثوثة سطوح ، قائم بعضها فوق بعض .

انما الان سائرون على سطح جبل بيت شباب الممتد
شرقاً من بكفيا الى بتغرين . وهو يتراوح في علوه عن سطح
البحر بين الشعمئة والالف متر . اي انه في مستواه
صعوداً خفيفاً من الشرق الى الغرب - من بكفيا الى بتغرين -
لا يتجاوز المئة متر . اما في الجهة الشمالية فهو يتهدم
فينقطع

فيتقطع وهاداً واودية، فتتكون فيها الاضلع
والآكام، وهي تنحدر كلها هادئة حيناً، وحيناً
مضطربة، بفعل العناصر المعادية او الزلازل، حتى
~~حد~~ الظهر اللبيب.

ولكن في الجهة الجنوبية أسناداً تصل بك مدارجها
الى سطح آخر من هذا الجبل، مستواه مائتا وخمسون متراً
اعلى من مستوى السطح السائرون الآن عليه. فثمة ظهور
الشوير (١٢٠٠ متر) الى المروج (١٢٢٠ متراً) الى المتن،
(١٢٠٠) ثم يستمر الإسناد الى عينطوره (١٢٥٠ متراً) والى ما
فوقها من الصرود التي تتصل بالقنن العليا المشرفة على
سهل البقاع.

ان شكل الجبل اذن هو على الاجمال مدرّج تدريجاً، ادات
الدرجة منه قطعة من الارض واسعة، وآخره مسطح لا مستقيم.
زد على ذلك ان الدرجات متهدمة هائرة. والارجح ان
يقال انها تهدمت منذ مئات الالوف من السنين وتثبت
في هذا الشكل المتهدم، الذي يتخلل وهاده، ويلتف بثناياه
العمران! فالانسان وهو ينشد مكاناً يقطن فيه يختار اولاً
ما كان قريباً من المياه، ثم ما كان خصب التربة جليل الوعود.
هذا على الاجمال.
على ان اجدادنا اللبنانيين الاقدمين كانوا يفضلون
على ما يظهر،
الاماكن الوعرة النائية عن الطريق العام، لاتقاء اللصوص
مثلاً

فقط، بل خلوًّا مما كان في تلك الأزمان أكثر الشرور، اي
من التسخير - الاستعباد - المدني، او الاضطهاد الديني.
بكفيا - بيت الصخرة، كما يقول العالمون بالاصول الربانية -
فهل يعلم احد اولئك المتطلعين من علوم الاقدمين وآثارهم
كيف ابتنيت بكفيا - ومن ذا الذي وضع الحجر الاول في
البيت الاول فيها؟ اني اتمثل ذلك الكلداني المتكلّد
الذي فرّ هاربًا من تسخير ملك جبيل، او من اضطهاد
كهان البعل، وبنى له كوخًا في ظل هذه الصخرة،
على رف من رفاف هذا الجبل، وأسماه بكفيا.
وقد يكون لصًّا شريدًا، او مجرمًا طريدًا، ذلك الودعي
الدروسكي الذي توغل هذا الجبل الى سطحه فاختار زاوية
من احدى زواياه أوى الى كهف فيها، وأسماه محبوس الشردان..
[illegible]
[illegible] شنلر او [illegible]
بعد ان تخرج من بكفيا، قرة عين المصطافين،
الشمال انحدارًا هادئًا، فيتبع
نجد سطح الجبل الى ... وآكامًا، تطمئن اليها المزارع التابعة
وتتقطع حقولًا وتزدهر كالمياسة منها وعن
لبكفيا. فتعمر ... الى الجنوب - الى يميننا -
الحروة ووديها ... فتجتاز - والارزي - جهور
[illegible] في إسناد مستمر ... وبين [illegible] القرنتين
والشوير فوقنا، ثم المروج، ... رغابة

(ادى الى هنا ... او بالم جرنته ابو ميزانا)

(كان الارزة ... الطريق ... الجبل الكبير)

كوادي شاهين دعمان الحروبه

والمسابسه وعجلايا ~~والمعيد~~

تحت شوايه-

دير كفا

وابو جبران تحتها وفيها "شركاء"

دير مار الياس شوايه للروم-

وتحت الوجبراه في قعر الوادي (40)

دير شمرا وهي مزرعة لمار الياس

شوايه للموارنة. وهناك

اراض اخرى مزروعة هي ملك

دير مار انطونيوس (بيت شباب) وغيرها

لدير مار نوهرا القائم في [illegible] كرمح ٣٣

بيت شباب - وبكفيا. كل ما

هي مزروعة من جهة الجبل الى السهل هي لدير [illegible]

غابة من الصنوبر جليلة ظليلة، امست ليومئذ
محط رحال المتأنقين من المصطافين، فجارت
~~بوس اللبون!~~
(الحاجب) تدعى بالوزخيبة [redacted] بوس اللبون!
~~لواره بولوس، وانا لعرها بقول لوكان~~
وهذه شواياه الى يسارنا، وهذا، الى اليمين
على تلك الرابية، الدير المزدوج المعد للصالحين من
رهابين الموارنة والروم: [redacted] هو دير النبي الياس
الماروني، وهو دير النبي الياس الارثوذوكسي.
والديران متحاذيان، غير متحازبين - الا ان
الماروني جنبهما، وهو وقف المطران فيلبس الجميل الذي استوطنه
جده شوايا في اوائل القرن الثامن عشر، آثار حربا بين
الرهبان وسيادة الاسقف الواقف، اختلطت فيها
المطامع الرهبانية - الحلبية واللبنانية - فتدخل
البطاركة في الامر وانقذوا الدير من براثن الاطماع
والاحقاد، فصفت الهيبة للنبي الياس الماروني
الجوار لاخيه النبي الياس [redacted] الارثوذوكسي. وفي
الدير القريب اليوم سلام، والحمد لله - وخمر معتقة،
قال احد السياح الانكليز، الذي زار لبنان في اوائل
القرن التاسع عشر: ان الاديرة ترحب بالطارئين وتضيفهم
بكرم زائد، من جيد الخمور اللبنانية." لذلك
ولتقدم لك
كان

للعربية

بواده بولون. وأما تشأر هذه الذه

اسموها بهذا الاسم شعره ونختاره فنقول :

جرج بولان.

ولكن ذلك الانكليزي
كان يفضل ضيافة الاديرة على سواها.
لم يكن محروماً مثل هذا الكاتب، من مخالطة المؤمنين!!
قد كان في النية، مع ذلك، ان ازور دير الاكليكيين
النبيين عليهما السلام، وابيت فيه، لولا رفيقي
الروح هنا الهارب من الاديرة. فسنّة السفر
تقضي بألّا تعرّض رفيقك لشرور الزمان، او
لكيد الرهبان.

٩١

لذلك استمررنا سائرين، فوصلنا الى الخنشارة
القائمة في ارض يكثر فيها معدن الحديد. وقد استثمره
في القرن الماضي ابراهيم باشا عندما كان محتلاً هذه
البلاد. هذا ما يقوله شيوخ القرية، ويزيدون
عليه ان أثر المناجم والمسابك لا تزال بادية للعيان.
ما عاينّا ذلك الاثر، ولا كذّبنا الخبر.
على ان في الخنشارة ما يدل عليها من الآثار الحية
الطيبة. فمما لاريب فيه ان لهذه القرية فضلاً
على طرق جبل لبنان، وان للخزنة اللبنانية فضلاً
على اسرة سماحة المشهورة ببنائيها ومهندسيها.
هذا في ايامنا السعيدة. اما في الزمن الماضي الاسعد
فقد نبغ في الخنشارة عدد غامر من رجال الدين
ومنهم /

وفيهم الايكونوموسية والمطارين من ابرار بيتي

الكفوري والباشي، الذين خدموا ربهم بقدر ما

فقهوا من اغراضه، وادركوا من الوهيته. فأنت منهم

من هم من مشاهير هذا الزمان

كدت انسى، والاعتراف لو نسيت، من قام في هذا

الزمان من آل الكفوري يقتفون اثر اجدادهم الصالحين،

في خدمة رب العالمين، ويزيدون عليهم خدمة اخوانهم

بني آدم في هذه الدنيا قبيل الآخرة. ولا شك عندي

ان روح اولئك الايكونوموسية والمطارين تنظر اليوم

بعين الرضى عن المكملين لبرّهم، المقدسين

لسرّهم، من انسبائهم المعاصرين، وفي مقدمتهم

الخوري بولس الكفوري رحمه الله، والاستاذ جورج

الكفوري أمدّ الله بايامه.

على ان شهرة الاثنين الكفوريين هي كالحبة

اذا قيست بتلك القبة الحمراء لشهرة ذلك الباشي

"التائه" الاستاذ اسكندر، المعلم الاكبر، للفن الاشهر

المحبب الغرام بين الانام، المشعل للسرور مصابيح في

هذه الفانية، الرافع علم المسيح للعوس والزانية. فان

شهرة اسكندر الشهرة دوبشرية اذا نفخت شهرة من

تتقدمه

٩٧

تقدمه من ابرار اسرته واسرة كفوري نفحة"
واحدة جعلتها هباءً منثورا. (٩٢)

قرأنا السلام على الرباشني والكفوري،
(٩٢) وعلى بني سماحة (ما الصلة بين الاسم والمساحة؟)
وواصلنا السير الى تبغريش، فأدركنا
"خراجها" - تخومها - بُعيد الغروب.

ـــ

حكيم بتغرين

٩٨

—

سألت الدليل حنا، قبل ان دخلنا القرية: أي بيت نطرق للمبيت؟ وهل تعرف احدًا في بتغرين؟

فاجابني مستفهمًا: وهل تظنه ان لي في كل قرية من قرى لبنان صديقًا مضيافًا كمن لقينا في بيت شباب؟

فقلت معترضًا: وهل تنزل ضيفًا على الغريب؟

فقال مستنكرًا: وهل اخشى ان أُرَدَّ خائبًا وانت معي؟

فقلت ماضيًا في الاستفهام والاعتراض:

— ارجوك، يا معلمي، ألّا تتهكم علي.

— انت تخشى ان نُعامَل كشحاذين الكلدات. وما ضرنا اذا نمنا في الفلاة، او في تنّور؟

— انا اعتدت المشقات. ولكني اخشى عليك منها. وقد اوصتني الوالدة بك.

— اذن، جاوب على سؤالي الاول: اي بيت نطرق للمبيت؟

— ما لنا غير بيت الشيخ، شيخ القرية.

— أتريد ان تقول: عصفور باليد ولا ~~[illegible]~~ عشرة بالشجرة.

— انت ثعلب في ثوب راهب. ـــنتعدى

بتغرين، وظل ماشين الى بسكنتا.

— الى

- الى بسكنتا ؟ أنقطع وادي الجماجم في الليل ؟!

- وما المانع ؟

- لو تسوّ الخندقي ، يا معلمي ، هذا جنون منك .

- وهل تأبى ان تجن مثلي ؟ اذن ، عُد الى البيت . انا ماشٍ الليلة الى بسكنتا . (٩٤)

قلت هذا بشيء من الغضب ، وخلّفته . فلحق بي مسرعاً ، وهو يقسم بالله ويسب الشيطان .

فقلت : وما معنى القسم والسب ، يا "خي" هنا ؟

فاستوقفني وهو يلهث ويقول : والله ، يا معلمي ..

- والله - وبعد والله ماذا ؟

- انا لا اخشى ان انام في الفلاة ، ولا اخشى ان ... ولكني اخشى عليك . ووادي الجماجم وادٍ وحشي في الليل ، هائل مخيف .

- وما الخوف ؟ ان كان في الوادي وحوش ضارية فالقديس فرنسيس شفيعنا الدهر . القديس فرنسيس الاسيسي هو قديسي الاطهر ، وهو العاقد والذئاب معاهدات ولاء ووفاء . وان كان في وادي الجماجم قطاع طرق فهم هناك ليسلبوا المسافرين اموالهم . فماذا يسلبوننا ونحن لا نحمل ذهباً ولا فضة .

- كلامك على الرأس والعين يا معلمي . ولكني لا اخفي /

اخفي عليك ...

— قل . افلح عمابك؟

— المشي ، لا في النهار ولا في الليل ، يتعبني .

ولكنه يؤثر في بعدئذ التأثير المزعج .

— وهل انت جائع ؟ أما أدبت منذ ساعتين ، والآن جوعان !؟

[illegible] ، يا معلمي ، ويفتح الشهية للأكل .

— المشي يعجل بالهضم ، بعشائك .

— انت تفكر اذن بعشائك .

— بعشائنا ، يا معلمي .

— ثعلبان في ثوب الرهبان . ستنام الليلة

بدون عشاء . — كما تريد .

— كما تريد ، [illegible]

وكنا قد دنونا من البيت الاول في تبغرين ،

خففت [illegible] الصوت ، ولطفت اللهجة ، فقلت مطمئنًا

٩٥

الرفيق : سيكون لك ما تشاء . قل ان شاء الله .

— ان شاء الله . ستختار البيت على خيرة

— وتخففًا للأمل [illegible]

قل : على خيرة الله .

— على خيرة الله . ونطرق ، بعد التوكل

— سنعد اذن اثنتي عشر بيتًا ،

على الله ، باب البيت الثالث عشر .

أختار

- أتختار العدد ١٢؟ سمعتك مرةً تقول

ان الناس باميركه يتشاءمون به. فهل من شؤم او سوء؟

- وهل نحن الآن باميركه؟

توكّل على الله يا اخي حنا.

مع توكّل على الله.

- توكلت عليه عندما دخلت الدير، يا معلمي.

- فأنقذك، سبحانه وتعالى، من الدير.

- صحيح، صحيح. توكلت على الله، توكلت عليه تعالى.

- وهوذا البيت الاول من بيوت بتغرين. عُدّ،

ولا تخطأ في العد.

سرنا بين بساتين من التوت، نعد البيوت، بصوت

فصّاح سمعه الواقفون في الابواب الدكاكين فتهامسوا،

وسمعه الصبيان في الطريق فقهقهوا، كأن يقولون:

هو مسّ من الجنون

بالغريبين. ها نحن امام البيت الثالث عشر المحاذي للطريق. هو

بيت وضيع، يقوم امامه، ملاصقاً للحائط، بعض اشجار

الازدلخت. وقد كان الباب مفتوحاً، وصاحب البيت واقفاً

هناك، فسلمنا عليه باللغة اللبنانية: نمسيكم بالخير.

فرد السلام بمثله: أسعد الله مساكم. تفضلوا.

تفضلوا. مستبشرين، فأثلث

فتفضلنا. او بالحري وقفنا

تابع

قائلين: تفضلوا، وأردفها بـ"شرّفوا".

دخلنا البيت صامتين، فإذا نحن في دار منه صغيرة،
مرصوفة بالبلاط البلدي، وإلى جانبيها ديوانان عربيان (متقابلان) بمساندهما
ومماشيهما الشامي المخطط، ومفروشهما المخرّج الأطراف،
الناصع البياض.

جلسنا على الديوان، وكان المألوف من [illegible] السلام. ثم
انتقل صاحب البيت إلى الفصل الثاني من الحديث فسألنا: من
أين حضرتكم؟ أمن الفريكة. أنا أمين بن فارس الريحاني، وحضرته
قلت: ابن عمي حنا بن جرجس بن بطرس الملاح.
وقد سرني أن يكون للوسيطين وقع واحد في نفسه.
سرني أن شهرة "الكافر" لم تصل إلى تنورين،
ثم سألنا عن بعض من يعرفهم في الفريكة وجوارها،
ففتح للاح حنا بابا للحديث. فجاءت
وكان قد أوعز إلى امرأته بتقديم القهوة، فجاءت
فطال الحديث بها. وبعد أن شربناها ودعونا بدوامها، سألنا
صاحب البيت السؤال الثالث: هل جئتم تستشيرون الطبيب؟
الطبيب! أكنت قد سمعت بحكيم تنورين الذائع
الصيت ليس في قضاء البترون فقط، بل في كل ربوع لبنان،
فيقول

فيقول الناس، ان كان في كسروان او في الشوف: حكيم التغريني،
وتكي. ومنهم من كانوا يعرفونه باسمه الاول
فيقولون: حبيب التغريني.

ما كان حبيب من الاطباء الرسميين، الحاملين الشهادات
الفخمة، المكتوبة باللغتين العربية والتركية في ذلك الزمان.
ولا كان من الدجالين، ابناء عم المغاربة، الذين يداوون
جميع الامراض بالاعشاب وبالقراءة في كتب السحر والتنجيم.
بل كان طبيباً قليل العلم بما في الكتب (١) كثيره بالخبر
والتجربة. وقد اشتهر خصوصاً بالجراحة والتجبير، وكان يجيئه
المعلولون من اقاصي الجبل، فينزلهم في بيته الذي كان
شبه مستشفى، ويحسن معاملتهم ان لم يحسن المعالجة.
فمن اخلاقه الطيبة انه كان كريماً متواضعاً، وما كان يطمع بالمال.
اجل كان، رحمه الله، من الطراز القديم المبارك، من سلالة
اولئك المحسنين الى الناس بما علموا وان قل علمهم. ولا اظن
ان اغلاطهم في المداواة كانت اكثر من اغلاط اطباء هذا
الزمان الرسميين، او ان ضحايا جهلهم، او قل جهل علمهم،
كانت اوفر مما هي في المستشفيات الحديثة. ومما هو

---

(١) من الكلمات العربية المأثورة: من اخذ النحو عن الكتب
لحن في الكلام، ومن اخذ الفقه عن الكتب افسد في الاحكام،
ومن اخذ الطب عن الكتب قتل الانام.

مؤكد محقق ان اولئك الاطباء المتخرجين من مدرسة
التجارب والزمان، كانوا مشهورين ببرهم، وكان
اشدهم حباً للمال يداوي المرضى مجاناً اكثر من النطاسي
الشفيق الكريم في هذا الزمان. تباركت تلك الاخلاق
العاليه، وتبارك العلم الذي لا يفسدها

ومما هو جدير بالذكر والاعتبار — ما زلنا في الموضوع —
ان الامراض في زماننا هي على الاجمال سريعة في مجراها، مثل
غيرها من مظاهر الحياة. نعم، هي سريعة الفتك
والشفاء — على الاجمال. وما كانت الرحمة صفة ملازمة
للمهنة كما هي اليوم.

في ذلك الزمان، زمان التبغريني حبيب واسلافه الصالحين،
كان يجيئ من قبل المريض احد اهله او اصدقائه، ومعه بغلة
بسجادة فوق جلالها لحضرة الحكيم. فيركب حضرته، وتسير
البغلة سير الخالي البال المتنزه، والرسول ماشياً على
هواها، وراءها او قدامها. وكان يستمر السفر يوماً
او يومين او ثلاثة ايام في بعض الاحايين، فيصل الحكيم الى
بيت المريض فيجده هناك، منتظراً نعمة الشفاء والعافيه.
حتى وان تكررت العيادة الطويلة السفر الكثيرة المشقة،
فالمريض لا يخيب امل الحكيم فاذا اشتفى او مات
فعلى مهل في الحالين، على مهل.

٩٨

١٠١

اما اليوم فالمريض في بسكنتا مثلاً يطلب النطاسي
الشهير في بيروت، فيركب هذا سيارته الكبيرة الفخمة،
ويعطيها البنزين بكرم اميركي، فيصل الى تلك الضيعة
في سفح جبل صنين بعد ساعة ونصف ساعة، فيلقى
المريض في حالة يهز بها رأسه، او يلقاه وقد لفظ
النفس الاخير او كاد، فيقبض اجرته نقداً ذهباً،
ويعود الى المدينة باسرع مما جاء منها. ولا عجب ان
العجلة من الشيطان، وان عزرائيل هو ابن عمه.

اما في قديم الزمان، وفي زمان جب التبغريني، فقد
كان الحكيم يركب البغلة او الاتان، والعجول للشيطان:
لا تستعجلني، ولا تطمع برجائي. فاني طبيب مؤمن بالله
ورسله، وبقديسيه واوليائه جميعاً، وما انت الا
شيطان. فاذا كنت المبشر بـ "[illegible] الاوادل" (1)
فامسح العرق من جبينك، واجلس هنيهةً فتستريح
وريح البغلة. ومتى وصلنا بخيب جبعاك ان شاء
الله، ولا يخيب املي.

وهاكم الحكيم جب في لبته مثله في عياداته، لا يعجل
ولا يستعجل. قال لنا [illegible] شعرناً: تفضلوا. ثم قال:
شرفوا. ثم سلم سلاماً لبنانياً فسأل عن حالنا وعن
الاخبار /

(1) الكلب

"يمشي وعزرائيل في خلفه
فسيّر الارادات للقضاء"

الاكواب في الغرفة، وقدم خلال ذلك القهوة، فشربناها
ونحن ننفخ فيها لنبرّد حرارتها — والاخ حنا يطلق صوت
في النفخ والشرب صوت صفير البلابل — كل ذلك على
مهل، على مهل، الى ان حان وقت العمل فسألنا:
هل جئتم تستشيرون الطبيب؟
وما ذهب بشيء من رخيم صوته او لطف ابتسامه، عندما
اجبته فائزاً: انا والحمد لله بخير. ولكننا على سفر، ولا
بد من ماسبب. ورفيقي يشكو الجوع.
فقال الحكيم هاش باش: اهلاً وسهلاً ومرحبا.
وكررها. ثم نهض ينادي السيدة زوجته، وهو يعتذر الينا
عما قد يكون من تقصير. نحن نبكر في العشاء، فقد
سبقناكم. ولكن المثل يقول: خير الجود الموجود.
وبعد قليل دعتنا السيدة الى السماط، [illegible] وفي وسطه
من غذاء البيت البطاطة باللحم والرز، وحولها الزيادة —
نعمة كريم — تتقدمها بيضات مقلية بالدهنة معها بصلات
بيضاء كبيرات مدورات، وتحف بها سلطة البندورة،
والجبن والزيتون، وجفنة كبيرة من التين المطبوخ
ووفرة من الخبز الرقيق.
انطلع الزاد با"خي" حنا.
ورسم الاخ حنا شارة الصليب على وجهه، وصد

/ بده

يده الى بجلة من البجلات ، فقطع رأسها [illegible] بأسنانه ،
ووضعها على الارض فقفز بمجموعة يده ، فسال منها العصير ،
فسال له لعابه . ولا أظنه اكتفى بالبيضات
والبجلات . يكفي ان اقول انه ، بعد اربع ساعات من
تلك المأدبة الفاخرة في بيت شباب ، فتك بسماط
الحكيم حبيب فتكًا ذريعًا . وبعد ان "حلّى ضرسه"
بلفافات عظيمات من التبغ المطبوخ ، وتمخط شاكرًا
حامدًا ، رسم شارة الصليب ثابتة على وجهه ،
ونهض والعافية ملء جبينه .
ومع العافية السلامة ، والرغبة في دوامها . الا انه ارتاب
على ما يظهر في دوامها اذا استمر انفعالي في هذه المرحلة .
فقد سمعته ، قبيل ان دخلنا غرفة النوم ، يسأل الحكيم
عن وادي الجماجم ، [illegible] ورأيته يهز جمجمته .
وفي صباح اليوم التالي ناديت ، عندما استيقظت ، الاخ
حنا ، فلم يجبني . الحق يا اخي "حنا" . سبقتنا الشمس
يا اخي "حنا" . لا جواب ، ولا صوت شخير او صفير .
قد يكون سبقني الى الدار . اخطأت الظن . قد
يكون منتظري خارج البيت . اسرفت في الأمل .
ثم سألت الحكيم : اين الاخ حنا ؟ ولكن الحكيم لا يدري
ولا المنجم يدري . على ان زوجة الحكيم قالت انها سمعت
الباب .

الباب يُفتح باكراً، فنظرت من الشباك فرأت الاحدب
في الطريق وهو يمشي مسرعاً صوب الخمّاره!

.....

حاشية: قد يسأل القارئ عن مصير الاخ حنا بعد ذلك، فاني مختصر الجواب، اذ لست الآن مؤلف رواية او تتبع سيرة روية بهي الحميد. جل ما اعلمه انه عاد الى الفركة، وخلع لعدئذ عذار الاسود — ثوب الراهب — واعتذاره لابس الخلاعة، ثم سافر "مسروراً بخلعه وخلعته" — العفو يا سيدي القارئ[1] — الى اميركه.

....

حاشية اخرى: كان حبيب التنغريني الحكيم الوحيد لبوشيز في تنغرين. وهو اليوم السلف الصالح لرهط من الاطباء من أُسر [illegible] الرسميين، [illegible] حليبا والمر وصوايا، الى حاملي الشهادات المزينة بالختوم الذهبية — المفترض صلاحهم. وهنالك رهط آخر من اسياد هذه الاسر الثلاث الحاملين اللقب الجزل الجليل "ايكونوموس" واكثرهم اسجوا من المجاورين لربهم. اما اذا كانوا من غير المجاورين، وفقه الله، فالثلاثة النوابغ التنغرينيون الاصل او المولد، حتى المر الموسيقي ودبس المر الكاهن وابناء المر المهندس، يشتغلون بالموسيقى بكبرهم وطبائعهم ان شاء الله

(1) أدب

وادي الجماجم

كانت الشمس الشارقة تبعد عن قنة صنين السماء بعداً يربي على الالف ميل في الحساب الفلكي، ولا يتجاوز المسافتين في ما يتراءى للاديب او البقال. والارجح ان البقال كان قد دار شرقاً نحو الف ميل من الكرة الارضية، بعد ان بزغت الشمس من وراء صنين، احدى الرواسي البارزة في السلسلة التي تدعى جبل لبنان — لله من التدقيقات العلمية! كلما دققت توغلت في الخطأ. فالاديب العربي يقول في الشمس وارضها في مثل هذه الساعة من النهار: تكبدت الشمس السماء، ولا يبالي ان كانت في كبداء السماء فوق لبنان، او في ما وراء الدَّراك.

وحسبي ~~[illegible]~~ انا ان اقول انها كانت هنالك، شمس ذلك النهار من ايلول — هنالك في مطلع مجدها الارجي المسمّى في القاموس الضحى، تغمر الاودية والجبال، والقرى والكروم، ببريق نورها وحرارته، عندما وقفت اودع مضيفيَّ الكريمين، فارتفع صوت الحكيم وصوت زوجته بالنفس الواحد، واللهجة الواحدة، ان لا يجوز ذلك ولو بليق. فيجب ان اقيم عندهم يومين او ثلاثة ايام. فشكرتهما واصررت على الوداع، فقال الحكيم ان اجتيازي وادي الجماجم وحدي ~~[illegible]~~ مغامرة لا تخلو من خطر. فما عدلت عن قصدي. وقالت سيدة البيت ان المسافة بعيدة، وقد لا اصل الى بسكنتا حتى الغروب، واني قبل ان ابلغ حرج الصنوبر في الجبل (المقابل لبنتغرين) احس بالجوع. قالت هذا واستمهلتني. ثم عادت تحمل رزمةً صغيرةً ملفوفةً بجزدان مربوطةً بخيط من المشمّس، وهي تقول

تقول: لا تؤاخذنا. غاضة النظر.

حملت الرزمة الصغيرة في حُجنة عصاي على كتفي،
والرزمة الاخرى الكبيرة - رزمة اللطف والكرم - في قلبي،
وشبت أقصد بسكنتا، وانا اتأمل هذه الفطرة
الطيبة في اللبناني، واقول لنفسي: ان بيتًا واحدًا
في كل قرية من قرى لبنان، مثل هذا البيت الكريم، يكفي
ليمحو ذنوب اهل الجبل جميعًا.

وما ان خرجت منه لتنغرين حتى أطللت على الوادي
العميق الهائل، وادي الجماجم، الذي ذكره صاحب القاموس
فقال انه سُمّي بهذا الاسم لحرب وقعت فيه،
وتراكمت فيه جماجم القتلى حتى سدّت ~~[illegible]~~ طريق
النهر الجاري هناك".
وهذا هو الطريق الى النهر، يدور منحدرًا في
نعف الجبل، ثم يدور فيدور، فلا ترى غير اليسير منه
البادي امامك. اما في النعف الآخر السحيق، المقابل
لجبل تنغرين، فالطريق يبدو لناظريك بكامله، وهو
ينساب كالحية البرشاء بين الادغال الخضراء الصفراء،
والصخور الدكناء الشماء، صاعدًا متلولبًا، من خفة
النهر الى الحرج المظلل السند الاعلى منه الجبل.

/ان

ان وادي الجماجم لأشد اودية لبنان وحشة وهولا.

فلا عجب اذا روّع مجرده باسمه الوخ حنا، ففضل سلامة

الجسد على سلامة السمعة.

بيدان المشاهد الطبيعية، على هولها ووحشتها،

هي حافلة بانواع المحاسن المغرية الفتانة، شكلاً ولوناً

ومعنى. فبعد قليل من السير في الطريق المنحدر المتلوي،

نجتاز بساتين التوت والكروم، فنبلغ الوعور الملتفة

فيها ادغال الغضه والبلول، الناشرة على حواشيها

اعلام الفندول والعليق، والغار والزمزريق، فتحييك

منها الزاهير الصفراء والبنفسجية والعناقيد الحمراء والارجوانية،

والروائح الناعمة الندية. تحييك من أجناب الطريق

وتحييك من مختبآتها بين الصخور والآجام

هناك العطار الاعظم يمزج روائح التربة الندية

بروائح الاشجار المخضلة، بروائح النباتات العطرية، وما ابقى

وهن الجفاف من الزاهير البرية وان قلت، المجهولة الاسماء،

فينتشر من مجموعها عرف طيب ميه حركته عجيبة يعجز عن تحليلها علماء

النبات والكيمياء.

وهنالك الفنان الخالد يمزج اخضرار الودية بازرقاق

السماء، والاشنين بذهب الشمس وفضة السحب الشفافة،

فيبلغ في فن التلوين حد الاعجاز الذي يتبرق دونها اليه

ويحاول

ويحاول ادراكه الفنانون الفانون.

وفي شتى أنحاء الوادي ترى آثار المثّال الاكبر، وقد
نحت منه الصخور التماثيل العجيبة في معانيها، الغريبة في
الغازها، المدهشة المروّعة في ظاهر اشكالها، وقد
جمع بعضها فنًّا الى فن يكمل المصور مثلاً وفن البنّاء -
وجمالاً الى جمال، وروعة تضاف اليها الروائع. فهناك
جدارًا عاليًا قائمًا تحت جفن الجبل، اجتمعت فيه المحاسن
الهندسية والنباتية، فغدا كواجهة معبد من معابد الهند.
وهناك صخرة ملساء منحوتة في ساعة جذل والهام، فبدت
كأبي الهول، وقد نبت في فمه الصعتر والقرقفان، وبين
مخالبه الفندول، مفتوح زهره طيبًا في الربيع. فتتغلغل
وتنطلق من فمه في الفصول
في جميع الغاب،
جميعًا كلمات الصعتر الزكية تحيي العابرين.

حياك الله يا ابا الهول، الناطق بالصعتر والقرقفان.
حياك الله يا قرقفان، حياك. للنور وحدها ذراك.
وحيّا زهورك الشوكية البنفسجية المنقطعة النظير،
بين الازاهير.

فما عثرت على
وادي الجماجم! اغفر الله لمن أسماه.
جمجمة [illegible] او [illegible] بشرية من جمجمة فيه. ولا رأيت حيوانًا
رمة

من الحيوانات الضارية فيه، لا ذئب ولا ضبع ولا شبه ضبع،
او ذئب في الطريق او في ما دون الطريق. وادي الجماجم
في الزمان الغابر - وادي الروائع في هذا الزمان. هناك
في بحر من النور، فوق بحر من السكون، فوق بحر من السلامة
والاطمئنان. ترتل فيه الجنادب ترتيل الظهر والمساء، وتؤذن
فيه الوروار ودويك الجبل، وتغرد فيه الحساسين.
وانك لتسمع انغامها حين الى حين وقع حوافر الدواب، وهي
تنزل او تصعد في مدارجه، فيردد صداها بين الصخور.
والمعلقات من الصخور، والهاويات تحتها! هاويات سحيقات [؟]
تسكن فيها اجنحة النسور، وهي هابطة سابحة جامدة، كأنها
من ~~[illegible]~~ جلد او ورق، ثم تنتشر فيها الحياة
فتصفق، فتحلق الى ما فوق الأسناد.
مشيت ساعة مشية من لا يعرف همًا من هموم الدنيا،
مشية المتنزه المسحور، بل المتعبد المحبور، فنسيت المسافات
والوعور، ونسيت المهاوي والصخور المعلقة. اجل،
لقد سكرت بما شاهدت من روائع التكوين، وبما تنشقت من
اريج الازاهير والرياحين، وبما سمعت من الالحان السكينة
المؤتلفة بذهب الشمس.

وما

وما ادركت اني مسحور الا عندما فوجئت بالخطر المهلك ،
وانا واقف على حافة الهاوية ، فانهارت الارض تحت قدمي ،
فرحت متدحرجًا ثم ساحبًا على ظهري بضعة امتار ، فانقذتني
شجيرة من الآس تشبثت بها ، وعدت أدبُّ الى
الطريق سالمًا والحمد لله .

ذكرتني هذه الزحلقة بما ينهار احيانًا من الجبال نفسها ،
ابان الزلازل ، فتنفلت صخرة من بين اخواتها ، او ينفصل جزء
من الجبل عن اصله ، ويروح سابحًا او متدحرجًا الى اعماق الوادي .
وقد قرأت في تاريخ الامير حيدر الشهابي ما يلي انقله
بالحرف الواحد :

« زلزل سفح جبل نهر الصفا [redacted] الذي هو تحت قرية
كفرنبرخ وانسلخ عن اصله ومال الى الجهة الثانية
التي تحت قرية مجد المعوش حتى التصق بها وردم مجرى
النهر الذي كان في الوادي بين الجانبين واندثر تحت
ذلك الردم عدة عقارات . وكان في الوادي قرية
صغيرة فهلك جميع اهلها تحت الردم . وقيل انه كان
رجل حامل كوارات نحل وسائرًا في ذلك السطح
فلما زلزل ومال سار مع تلك الارض المائلة . وقد
دخله الاندهاش والارتعاش من سير الارض به ولم
يشعر

ميشعرالا وهو في الجانب الثاني الذي تحت قرية
مجد المعوش المذكوره ويبقى سالماً . الا انه زال
عقله مما صادفه من انتقال الارض به من جهة
الى جهة . وهذه الخسفة كانت في ثامنة عشر من
كانون الاول سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٧ م . "

وفي ذلك اليوم من الاول من السنة الخامسة والتسعين والالف
والثالثة والعشرين والثلاثمئة والالف هجرية، ما "زال"
مسيحية، انتقل الانتقال
عقلي انا مما حدث في وادي الجماجم، بل كدت انتقل الانتقال
المطلق، وانا واقف فوق الهاوية، مسحور بها، ثم متزحلق
على ظهري اليها، وهي فاغرة فاها لتضمني الى سكينتها
الابدية!
ولقد أوقف الخوف في حس التلذذ بجمال الطبيعة
ومحاسنها. فسددت خطواتي بشيء من الاسراع، وعيناي
كنوري السيارة لا تحيدان عن الطريق امامي، الى ان بلغت
قعر الوادي، فجلست على صخرة في ظل دفلة هناك، اتأمل
مدارج الجبل الذي هبطت منه، واحمد الله على السلامة.
وما علو ذلك الجبل بشيء يذكر لمن اعتاد التصعيد
في جبال سويسرا مثلاً او جبال طيبة باسية. فالانحدار
من بتغرين الى نهر الجليب في قعر الوادي هو نحو ثمانمئة قدم،
اي

اي ان علو الوادي عن سطح البحر، في هذه الناحية منه، لا يتجاوز
الخمسمئة والثمانين من الاقدام. وعلو سكنتنا يبلغ الاربعة
الالف قدم. فالذي عليّ منه التصعيد اذن هو نحو
ضعف المسافة التي اجتزتها من تبغرين الى النهر.
الف وخمسمئة قدم من التصعيد! ما ارهقني هذا الحساب.
وكنت اشعر فوق ذلك، وانا في قعر الوادي الضيّق، بين الجبلين،
بشيء من الانقباض – بكثير من الانقباض. وسرعان ما
ذهبت محاسن الطبيعة التي ملأت صدري في سويعة،
منذ ان منه جذلاً وحبوراً.

ذهبت منه افق احساسي، لا منه الوادي، وهي منتشرة
في كل مكان منه. فلوشوشة جري الماء بين الصخور هو اعذب منه
صوت الجنادب. وشذاء النباتات والازاهير هو اشد
في مضائق الجبال منه في مسارحها. والسكينة في قعر الوادي
هي ابلغ معنىً منها في اعاليه. ما تغيرت المحسوسات، وما
ذهب شيء من جمالها وبهجتها. انما تغير الاحساس الانساني
الذي يستجلي فيه وجودها.
والذي غيّر الاحساس هو الخوف المستولي على صاحبه. فلو
لقيت قاطع الطريق في تلك الساعة لتهيبت ان اقول له: لست
احمل ذهباً او فضة، ولرفعت يديّ مستسلماً. ولو لقيت
ذئباً لما خطر لي ان اذكره بمعاهدة الذئاب وقديسي
الاطهار

الاطهر فرنسيس الاسيسي رضي الله عنه .

وما سبب الخوف ، يا رجل ؟ وقد نجوت ، بفضل الآنسة ،

يد الله ، من الهلاك . أفليس من المعقول ، بل من الواجب ايضاً ،

ان تكون شاكراً مسروراً ؟ اني شاكر مسرور . ولكن أثر الخوف

لا يزال عالقاً بنفسي ، ومغشياً عليها . وربّ أثر اشد

من الحدث المسبب له . فقد سرى منه القلب الى المخيلة ،

فتخيل لي ان وادي الجماجم جمجمة عظيمة هائلة ، مشقوقة

الرأس ، واني انا حشرة في قعرها .

فانتفضت اذ ذاك ورفعت صوتي بالغناء ، فعاني ، الشعور السقيم

على قباحته ، وردّني الى نفسي ، فعاودني

حشرة في قعر جمجمة ! حشرة في قعر جمجمة ! ثم بغتةً

وعيت ، وأبيت ، وشففت او بالحري سقت فكري

على مخيلتي فدحرها ، وربح الصوت الذي سخر مني ،

وقد شئته غناءً فكان مكاءً . تيقنت اذ ذاك

أن الخوف الذي غشيني كالكابوس اضمحل او كاد ،

وعادت الحشرة في الجمجمة بشراً مفكراً حكيماً . ثم نهض

ذلك البشر يحمل زاده في حجنة عصاه ، وصعد في الجبل

ساعة - ساعتين . والطريق الذي تراءى

لي منه الجبل المقابل كالحية انبعج صاعداً امامي ، ولدينهي .

وثمة

وشمس ايلول في رائعة النهار تبعث الذكرى بايامها في
تموز. وانا في التصعيد اسرد الخطوات ولا الوي على شيء.
لقد أسرعت في البدء فاخطأت، اذ ما عتمت ان
ثقلت رجلي، وثقل النفس في صدري، وثقلت حتى
العصا في يدي.
ثم عراني العطش - والجوع! فجلست في فيئة
صخرة استريح، وانظر بعين "كاسرة" الى الزاد بين يدي.
ما الحيلة؟ هل يغني الخبز عن الماء؟ بالعكس. اذن الى
الوراء، الى الاعالي. استأنفت التصعيد، وفي القلب
صوت ينادي غابة الصنوبر! اين انت، ايتها الغابة؟
ساعة اخرى من التعب العطش والجوع..
وهاك الغابة تفرش ظلالها الندية لتقبلي
الاحمال والتعبان. تبارك الصنوبر، وتباركت ظلاله.
لقد أمسكت الرمق مني، واعادت الي شيئا من
القوة والامل. فدخلت الغابة حامدا شاكرا،
وانسرحت في ظل اول شجرة منها.
اني انتبه هاهنا الى خطأ، في ما كان من مسلكي،
ما أعددت لقد ذلك. فاذا كنت ماشيا في الجبال،
اها

ايها القارئ العزيز، وامامك واد عميق تجتازه من
جبل الى جبل، فلا تشغل نفسك، وانت ~~[illegible]~~
هابط، بمحاسن الطبيعة، إنزل مسرعاً، ولا
تكترث لشيء حولك او امامك. ثم صعّد في
الاسناد على مهل، واستمتع بكل ما هنالك من جمال
الطبيعة وبدهشاتها. فكلما عراك شيء من التعب
قف هنيهة، وسرّح النظر والتفت في ما حولك.
استنشق — وانت في حال الادراك — الهواء الصافي،
والروائح الطيبة تنتعش. استمع لصرير الجنادب
وللنسور تصفق بجوانحها تستأنس. ثم خذ
بضع وريقات من الغار والقصعين فادلك بها يديك
وجبينك تسترح وتستعد النشاط والعافية.
انك اذا فعلت ذلك لا تشعر بشيء من التعب في
التصعيد، مهما كان من وعورة الجبل. ١٠٨

بعد ربع ساعة في ظلال الصنوبر استأنفت السير
آملاً بتقرب الوصول الى بيت يقيني سورة العطش. فما كدت
اجتاز الغابة حتى بدا ذلك البيت على حاشية ظلها.
هو بيت قديم مربّع بسطح منبسط من التراب، حوله
بستان

بستان تين، وكرمه.

وهناك صبيًا يرعى بقرة في الجوار. ناديته فبادر
الي. نشدت الماء، فراح مسرعًا الى البيت، وعاد
يحمل الابريق.

وكنت قد فككت الرزمة التي زودتنيها زوجة الحكيم
ببيتغرين، فاذا فيها البيض المسلوق والبصل، والجبن والزيتون، والخبز
الرقيق، ومنه رغيف ملفوف مشغل يحتوي على كتلة
كبيرة من التين المطبوخ ~~بالـ~~ بدبس الخرنوب. ففرشت
الجريدة على بساط ناعم من ورق الصنوبر اليابسة، وصففت
الزاد عليها، ودعوت الصبي ليجلس امامي ويشاركني.
فشكر واعتذر. ثم قال انه تغدّى. ثم قبل ان
يأخذ لقمة من التين المطبوخ. فعملت لفافة منه في
نصف رغيف من الخبز، وقدمتها له. فتناولها هاشًا، وعاد
يعدو الى البيت. فسألته، وانا في دهشة منه
امره، ان يرجع، فاشار بيده اشارة الايجاب.
وبعد قليل عاد، وفي احدى يديه عنب، وفي الاخرى
تين اخضر. والاثنان ينضجان في تلك الاعالي من الجبل
(٢٥٠٠-٤٠٠٠ قدم) بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع من
نضجهما

نتجهما في القرية وجوارها. نحن نقول: عبيد الرب (آب)
بلغ الحب (نضج العنب) وكلما علوت على القرية تأخر
عبيد الرب، أو بالحرى بلوغ الحب. فبينا نحن نقطف
الكرمة، أهل يستتنا "يحبحبون" عناقيدها.
وهذا الصبي يحمل الجفنة خير السنة عناقيد عنبرية،
وتيناً ارجواني اللون. انه حقاً لبناني كريم، لبناني من الطراز
الاول، من الطراز القديم. ولقد ذكرني، عندما بادر الى
بارئ الماء، بتلك السامرية التي خلدت في سيرة
المسيح. كأنه منه سلالتها المباركة.
عملت له لفافة" أخرى مما تبقى من التين، فاخذها
كما اخذ الاولى ولم يأكلها. فسألته السبب في ذلك
فقال: "انا لا احب التين المطبوخ، ولكن اختي الصغيرة
في البيت تحبه كثيراً"
اسمه طنوس. وهو في الثانية عشرة من سنه. ازرق
العينين، وردي الخدين. في صوته رنة الثقة بالنفس، وفي
حركاته يتبارى اللطف والنشاط. وهو كبير المسافرين
لأنه سافر مرة "سفرة طويلة" وعرف "الناس الأوادم".
— والى اين سافرت يا طنوس؟
— الى

— الى فاريّه، ومنها الى ميروبه، ومنها نزلنا الى جونيه —
جونيه مدينة كبيره وفي دكاكينها كل شي — ومنها عدنا عن
طريق انطلياس وبكفيا الى البيت. بقينا غائبين عشرة
ايام — كنت انا والوالد. واشترينا هذه البقره، وعشره
تم جبه. اشترينا القبرصيه في فاريّه، وبعناها في
سوق جونيه وركبنا فيها مجيد تايني.
وقد اخبرني ان له اخا اكبر منه، عنده حمار
يكاري عليه" واخت غير الصغيره، التي تحب التين المطبوخ،
اخت كبيره "تزوجت في السنة الماضية عا اميركه"
اي ان شابا من القرية عاد موفقا من اميركه، فاقترن
بأخته، ورجع وإياها الى محل تجارته هنالك.
وابو العين الزرقاء طنوس، التاجر بالبقر والمعزى، عاقد
النية على السفر الى اميركه، حيث اخته وصهره.
— وفي اميركه نتاجر (هو يتكلم غالبا مثل بابا رومه بصيغة الجمع) ونربح
ونصير "زناكيل" (اغنياء) انشالله.
قبل ان ودعت طنوس، ودعوت "الهر" بالتوفيق،
سألته اذا كانت بسكنتا لا تزال بعيده، فاجاب:
وصلت. اول بيت منها تصيبه من رأس
الشير (الصخر) هناك. بضربة حجر.

—
ب

ضنّين

قال فكتور هوغو: الضيافة مفتاح الاخاء الانساني

الضيافة عماد الانسانية.

وقال كاتب افريقي قديم: الحرية وحسن الضيافة هما عنوان الشعوب

العظمة في الشعوب. فبعرف الفرنسي الشهير

فالشعب اللبناني العربي،

هو من عماد الانسانية لانه مضياف. لم يبلغ من العظمة

ولكنه في عرف الكاتب الافريقي

الا نصفها او بعضها اي القسم ~~...~~ القائم بحسن الضيافة. اما القسم

الآخر، اي الحرية، فهو لا يزال مفتقرا اليه. هو لا

يزال ينشد الحرية، ويتغنى بها، ويسلّي نفسه

بخيالها وقصائد شعرائه فيها. وان الله

ليس اجمل من لبنان في جبال الارض.

ليكلأ هذا الجمال، وما هو في شططه كما في جوهره.

فلا خوف عليه في الحالين. اما الشعب اللبناني

فمن كلائه ما ترى، ~~...~~ وما هو في حسن ضيافته؟

الحرية – والاحرية في ذلك. ان كلمة الفيلسوف

الافريقي لعين الصواب. فالشعب الحر يستطيع ان

يكون مضيافا، والضيافة مع الحرية تدوم الى الابد. اما

بدون الحرية فالشك في دوامها اقرب الى اليقين

عند العرب في شبه الجزيرة فلا نجدهم يقدسون

بعد الدين اثنتين: الحرية والضيافة. وعند

الآخرين من الامة الاميركية وهو نقيض الاول

~~يمثل الآخر من الامة الاميركية ... الحاضرة.~~

اما الضيافة ~~...~~ موجودة وخصوصا في الولايات الجنوبية

والغربية. ولكنها لا تحسب من المزايا الاميركية

البارزة. هنالك ضيافة فيّاضة فيّاحة في طبقة

الاغنياء الكواشي، باهرة الاسباب

الاغنياء منه الرحمة، على أن مزايا الاخرى الحسنة
منها والسيئة - انما هي التي تغلب في شعبها
المتوسط والفقير دون اغنيائها. فالضيافة
الحقيقية لا تزال ناقصة هناك كما هي في
لبنان. وعندنا في لبنان عكس ما في امريكا، فالضيافة
لا تزال مرعية كواجب من الواجبات الانسانية، في
الحياة اللبنانية، وخصوصا في الطبقتين المتوسطة
والفقيرة. اما الطبقة العالية، في الاصطلاح المدني،
اي طبقة الاغنياء، فهي مثلها في امريكا، تشرف
على الضيافة، تارة طلبا للجاه، او حرصا على سمعة،
وطورا تقتبس مما للفرنجة من تقاليد وعادات
باردة في الضيافة، فتلجأ الى النزل لتقوم بواجب
ضيافة سمحة. وكلما كثرت النزل الحديثة
في لبنان، وانتشرت تجارة الاصطياف، قلّت الضيافة
الحقيقية العربية الجميلة الاصل
والاثر في بيوت اللبنانيين. ومما لا
ريب فيه انها كانت في الماضي شاملة عامة.
جاء في كتاب انكليزي لاحد السياح الذي
ساح في هذه الجبال في اوائل القرن الماضي ما يلي:
"لا خوف على السائح من ان تقضي ليلته في الخرج
او في كوخ لاحد الرعاة. فان اجمل اسباب السياحة
في جبال لبنان هو انك تسوح فسألك "ما تشكو"!
خلفك من الضيافة في اخر كل مساء، فانك
تتوقف دائما الى بيت تنزل فيه ضيفا كريما
مكرما".

مكرماً."
وانك لتجد بعد مئة سنة، اماكن في جبالنا
مثل كسروان ونواحي الشمال، وبعض المتن، كالناحية
هذه التي جئتها ماشياً، يصح فيها هذا القول،
فهي لا تزال عامرة بالضيافة، ~~[illegible]~~ عنوان
فخرنا اللبناني العربي.
فحبذا المحافظة على هذه الخلة الطيبة العالية، حبذا
الرجال يجاهدون في سبيل الحرية، ويصونون هذه الحرية
مصدر الإباءة والفضل والكرم. وحبذا النساء
يشاركن الرجال في الجهاد، فيلبسن السعادة لابناء
هذا الجبل (١٢) وليثقن انهم سوف ينشأون احراراً
كراماً يقرون الضيف، ويأبون الحيف، ويأنبون
بالسيف. فلا يقال في المستقبل: كان الخازني،
وكان الحبيشي، بل يكون ابناء المستقبل كلهم
جميعاً من الطراز الاول الواحد الذي تغتبط
به ارواح اولئك الاجداد، فيشهدون مجداً
آخر دنيوياً ليفوقوا ما كان من ماضيهم في حرب
السبق، ودفع الحيف، وقرى الضيف.
~~جالت هذه~~ عرضت لي هذه الخواطر ~~[illegible]~~ نفسي بعدان ودعت
الولد طنوس، وانا افكر في فطرة اللبنانية الطيبة —
في لطفه ومروءته وارتكبته — في ما قاله عند الوداع:
"[illegible] الى اجدية وشاجر [illegible] .. زنا كيل"
(انتباني) وكانت الخواطر والحقائق تتجاذبني،
فتغالب العقل مني، ويملك الشعور: وهل
للشعور مجال في محضر الحقائق الراهنة؟ وهل
تنكر

١٣٤

تنكر الكفيفة الغالبة التي نكاد ننحصر اليوم في
المهاجرة والمناجرة والملال؟ لا سبيل الى نكرانها، انكارها
ولا حيلة في دفع ما يجره الاجترار ٣٢ منه
النعاس والألم، منه النعاس وانا
النفس غالبة عليها تلك الليلة،
وما كانت شاءت التقادير ان تكون ضيفتي.
حدثت امرأة فسبقتها بالخبر
رأيتها في الطريق اذ جلبت البلدة، وهي تنظر الي بعين الاستغراب.
فحسبتني بالسعادة، وهي تنظر [illegible] التي
والاستحباب. فما ترددت في المحادثة وما
ادت الى التعارف، سألتني هل كنت
في امريكا فسرها الجواب. وعندما علمت اني اعرف
احد انسبائها في نيويورك، انتعشت لذكرى اسمه
انشأنا نحلله شيء من حرارة الذكرى وتوابلها. [illegible] على
كانت في العقد الرابع من سنها وصارت بعد هجرة النسيب
شيء غير يسير من الملاحة وارملة تحسن حجاب ما في
اما الثلاثة اولاد
نفسها
جلست واولادها الثلاثة الياس والطرس وبولس
الى طبق من النحاس الابيض، ترفعه عن الارض وتختفي
تحته طاولة صغيرة واطئة. وعلى الطبق الطبخة التي
كانت قد طبختها الام لاولادها، هي المجدرة، وما
اضافته اليها، اكراما للضيف، من عجة البيض واللبن.
١١٢ قالت ام الياس وهي تقدم مسندا لاجلس عليه:
لا نقدر ان ننزع منك وانت في هذه الثياب الفخيمة
وكانت قد هددتني قبل العشاء على قراءة السؤالات
واخرجت من جيوب النفس لفظ مكنوناتها،
فنادتني باسمي الاول وسألتني ثلاث سؤالات
مزعجة.
/هل

- هل انت متزوج يا خواجا امين؟
- لا يا ستّ ام الياس.
- وهل توفقت في اميركه
- والحمد لله.
- وهل رجعت الى بلادك تفتش عن عروس؟
ما شئت ان يكون جوابي لهذا سلبيا كذبا او
مبهما، ولا شئت ان اكون كاذبا. فسكت، فاردفت
سؤالها بكلمة استدراك قائلة: ما عرفت لبعد
من رجع من اميركه لغير هذه الغاية. كأن اميركه ما
فيها بنات. ولكن ابنه خالي عمل، بالعكس.
هجر بلاده فتزوج في اميركه
وقفت هنيهة ثم قالت: وما رأيك في الزواج؟
- الزواج يا ست ام الياس، صورة ظاهرة وصورة
خفية. فالخفية لا يعرفها غير الله، والظاهرة مثل الطغراء
السلطانية، يعرفها كل الناس ولا احد يفهمها.
- مشكلة مشكلة. ولكنها طريفة. اظنه هذا معناك
ولا اظنك تنكر ان الزواج ضروري للشباب الذي مثلك
ومثل ابني الياس. ~~...~~
- وما قول الياس؟
- هو خاطب ومتردد.
- في الاثنين معا. خير. والخير اما في
الخطبة واما في الاقتناع.
- الحق معك. ثم قلت لام الياس هذا القول. دعي
فقال الياس مغتاظا: وما الفائدة من هذا الحديث

114

الرجل يا امي. الحق معك. شغلناه بالحكي. ما اكلت منه
فقالت ادم: بطهرانك تكب المجدرة مثل ابني بولس
العجب يا خواجا امين. لانه ذر ال... عشرة من سنه
بولس ثاني اولادها. فقال مستطعما: واحب
وهو يعلم في مدرسة انه ... البلد.
ا عبدها

١٢٨

غيرها من الاكل. ام جاك لانفضلون طبخه على طبخه.

باربره بالث الثلاثة واذكاهم، حال بوجهه الى

وفي عينيه تألق من الخبث وقال: اسأله [illegible]

هل يجب [illegible] المحمول ان يركب المعمول.

بولس: وحضرتك بالورعتي [illegible]

باربر: احبه واحبه ولا استحي ولا اكذب.

بولس: من هو الكذاب

باربر: لا انا ولا ابي [illegible]

بولس: وحق الصليب ان أعدتها . . .

ابي يحد لسانه متحببا، وبولس يكلم باربره، فتصيح الام

باربر يحد لسانه متحببا [illegible] اسكتوا. ذكر المعمول

يحيا: عيب عليكم. اسكتوا. لنا اقارب في رحلة

يحكالي. وقصة [illegible] يا حواجا امينة وقصة [illegible] الشهر لنقضي حاجات

وعدونا بزيارة. يا ست يطير الى بيروت [illegible] [illegible]

وفيها للضيوف علبة معمول، ولكن يوم موعد

الزيارة ما جاء احد. كتبوا اعتذارهم وقالوا ان

الزيارة ما جاء احد. وفي الاحد وجاء

سبر ودرس الاحد الثاني. ومر الاحد

وعلبة المعمول منتظرتهم في الخزانه

احد منهم. ففتحت الخزانه

والاولاد ها جوا [illegible] وماجوا

فهجموا عليها كلها هجمة واحدة.

أبحثها [illegible] وعلبة المعمول

وبعد بوقية وحيانه، جاء الضيوف [illegible]

فارغة! الذي قلبها [illegible] اقوله

لانتو احد نا [illegible] الحلو في بيتنا لا يدوم

هازال الثلاثة موجوعين

دعوت لاولادها بالصحة والهناء وطول العمر

ومنت وانا [illegible]

وبانى ذنت لها من الحب والنعمة

وهي الفطنة

جبني وأحبّ خطواتي، فهمت

فقالت: تعوّل على قاطع طرق

الى الى النوم احمل

ودواء التعب النوم

بحاجم تقطع الظهر

[illegible]

هي كفيفة بعينها، لطفتها غني لطافتها،
كأنها تعلمت ادب الضيافة في بيت امير عربي كريم
وما بيتها هي غير مربع كبير مفروشة بالحصر وآخر
صغير الى جنبه، فرشت لي وحدي فيه فرشة
ونيرة نظيفة، على الارض. ولكنت نمت تلك
الليلة ملء جفني حتى على الارض اليابسة العارية.

نهضت باكرًا في اليوم التالي لاواصل السير الى نبع
صنين. وكانت ام الياس قد علمت من سؤالاتها لي، بغاية
غرضي من هذه الرحلة، فمنعتني من السفر باكرًا وقالت ان
لاخيها دكانا على النبع، وان ابنها الياس يكاري له. ~~وانه~~ وانه
ذاهب ~~اليوم~~ في ذلك اليوم اليه يحمل بضاعة. فالأحسن ان يكون معك
رفيق يعرف الطريق. ساعة تمشي فيها معه
وكان في منتصف الساعة عند الضحى انا والياس وراء البغل
المحمل زرنا وكنا وصلنا الى دكان خاله على النبع.
الطريق من مسكننا اليه طريق جرد ... وعر ... العروض ... وكلها
العقبات القصيرة بين مدات طويلة ~~...~~ وهي في المسافة
اوجها بين الكروم والحقول المزروعة.
سير ساعتين منه السير الهوين، والف وخمسمئة قدم من
التصعيد. اي ان نبع صنين يعلو على مسكننا بقدر
علو الفريكة على الطلبان (مسكننا ٤٠٠٠ قدم عن سطح
البحر والنبع ..٥٥٠٠ قدم) ورفيقي ثالث هو
رافقنا في هذا الطريق انا والياس وما تخلف
السكوت. شاطره كلانا انسه واطمئنانه.
الرفيق الثالث عنا الا مرة عندما سألني ~~...~~ الياس
عن ابن خال امه في اميركا، وهل هو موفق في اشغاله
وفي حياته الزوجية. فاجبته بما اعلم، وما كان بالشيء
الكثير. فعاد السكوت يرافقنا، ويسترعي ناظري
انا الى ما تراكم من الجبال والربى ويبدو ويختفي
من الاودية والبطاح عنكت من ضباب.
وكنت في ذلك اتأمل الاحتكاكات الذهنية والسكون والسكوت
والروحية

والروحية في خصبها وعقمها، في حرارتها وبردها، في
تصادمها وتعانقها، في اضطرابها وسكينتها. فما
احببتها في كل حال من احوالها. لقد احسست
عندما رأيت ام الياس في الطريق، ومشيت وراءها
الى بيتها، أن هناك ذهنية يقظة مضطربة وثابة
ذات اعصاب دقيقة متينة كخيوط الكتان، بل وكأسلاك
الكهرباء. وشعرت أن وراء تلك الذهنية
روحًا تصبو الى الاتصال بغيرها من الارواح، فيطيب
لها الاخذ والعطاء، واستعراض ممكنات السعادة
والشقاء في هذه الحياة الدنيا. هي ذهنية ادبية
مفكرة في جسم جبلية فلاحة. هي روحية اميرة
كريمة في شخصية بسيطة وادعة. فلا عجب
اذا أنست بها، وعدت معها الى سوق
الفكر والروح فرحًا مطمئنًا، كأني اعرفها منذ
ايام الصبا، فأخذت وأعطيت، وانصرفت
واستشعرت. وكان كلانا في الحالين من
الفرحين الرابحين. عليه بشيء من
اما الابن الياس فما انعم الله المتكمشة
فالمست طرفًا منه ذهنية
شمائل امه. ولا رأيت بصيصًا منه روحيته الصغيرة
الجامحة، افترقنا وما التقينا. كلانا بعيد عن الاخر بعدًا شاسعًا.
المتوارية، اذا صح التعبير، كان الياس في وادي ٨
ذي انفعالات ملموسة ~~بعيدين الوحيد الرفض~~ صنين.
وكأني انا في صرود وابن ام الياس
القريب وانا سائر
واني استطيع الان الى المستقبل
الى النبع ان انظر منه قيمة ذلك الزمان
فاري بعض الغيب في ذلك الطريق فيهمسًا
ينشر امامي جزوءًا جزوءًا لا اجمالاً، كأنه يكون قبل
وجوده

الآس OK ١٣١
٩

بشيء
وجوده ٢٠ عشرين سنة.
فمنذ سنة ١٩٠٦ نشب وشبّه الى الاحلام،
فنقف عند سنة ١٩٢٧، بين صيفها وخريفها، في
سفح جبل صنين خارج بسكنتا، نتأهب للرحيل.
هناك وسادة للسيدة.. هناك سجادة للأستاذ.. ١١٧
هذا البغل حرون لا يوافق... هذه البغلة للآنسة
سلمى. وهذه للسيدة بحلا. وهذه للشغيلة [illegible]،
جهز السروج كلها بالركب، يا رجل. والاجمة، ان
للركب شموسنا واقمارنا. فهل يمكنك ان تتصور
ما يحدث اذا هوت الشمس عن ظهر بغلك.
الركب والاجمة - لا تتحرك بلادها
مشت قافلة النور الى نبع صنين. وهناك
فيها شمس النبع الكاتبة الاديبة سلمى صائغ، وشمس الصيف
المتقدة الاديبة بحلا الكفوري. وهناك بنات الشمس
كواكب تترنح تتلألأ على جوانبها وامامها وورائها
من حين الى حين النجمة عايدة ابنة سلمى، و[illegible] التي هي
السيدة زوجة ابن عم اللبناني صلاح [illegible] العلمانية في التعليم
وهناك بين الفرسان فخر [illegible] الى جنبه البغل الحامل قمر
جورج كفوري، يخب الى جنبه [illegible] وفخر البرلمانات والآداب
الدنيا البرلمانية اللبنانية يومئذ، خليل تقي الدين. والى الجنب الآخر
الريان اليوم
كوكب هوى قبل اوانه، بعدان انار لاول مرة في الادب
العربي ذلك الشعر الرمزي - اديب مظهر رحمه الله
وبين وراءهم كوكب حمادة القدسي قمر الدنيين
الاديب المسلم المسيحي تقي الدين الصلح، وعمر فخر المطابع
العربية في البلاد اللبنانية والسورية، وناشر اعلامها
واسعها في الافلاك القانونية والادبية، للواسع
ابراهيم صادر. وفي تلك القافلة التشاحة،

[illegible]

+ ١٣٢ (٤٣)

كنت ترى الدليل الامين، تارةً في المقدمة، وطوراً في
المؤخرة، يمجد الشموخ والانحدار كما يفعل الان.
ورأى الفضيلة في الادب الاثانه. احامي،
هذه القافلة التي زارت سنة ١٩٠٦
وانا اليوم اراها اذا ما نظرت الى الوراء. انها في
الخالي قافلة نور وهدى مرت بها ذات يوم في
صرود صنين، وهي لا تزال من الذكريات الطيبة.
وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب، بقي
طوال الدهر نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا
يأوون اليه. بقي نكرة الى ان اشع فيه نور القلم
١١٨ والادب. بعد ثلاثين سنة منذ هذه الرحلة. لست
ادري انه كان متفائل بنعيمه [illegible] يرد موارد
العلم، ويثقف ما وهب من ذكاء، ومواهب من ادب.
ولكني وانا انظر الى المستقبل بعين ثاقبة صائبة
اري متفائل، وقد اتخذ الشخروب في العقد الثالث
من القرن العشرين، منسكاً له يطبع فيه طبعات
صوفيه، ويعمل النوافل والخواطر الادبية،
ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس
لوجه الله تعالى. هنيئاً للبنان الاودية فقد
احدادنا المتعبدين المتصوفين
عاد اليهم في القرن العشرين، عن طريق جديد
ثم صنين، وانبح في سكونهم الطاهر
وهنالك في نويورك اليوم صوت ينادي
صنين ويحن اليه صنين صوت الناي الى الغابة الذي
قطع منها. هو صوت احد ابناء صنين الاصفياء،
وقد زادته الغربة حباً وشوقاً وحناناً. وما
فرحت على البلبل الغريد الذي اختبأ [illegible]

اطلع

١٣٣ الباكي

اضلعه يوم رحل من بيننا في العقد الاخير
من القرن السابق فقد ظل ~~هذا~~ ذلك البلبل مختبئا
جاثما ربع قرن منذ الترحل، فرأى صاحبه الثلج ذات
يوم يتراكم في اسواق نيويورك، وسمع رفرفة
طير شريد يحوم حول المدخنة على سطح
مسكنه البطلي، فهزّته هزًّا رافقه
الشعر وساقت اليه
الهزج، فسمعنا رنة
القوافي العذبة الملتاعة، بين
في ذلك اليوم، منذ ربع قرن من زماننا، ولد شاعر
في ظل مدخنة من مداخن ضباب في
ثلوج نيويورك، ومن قبل حين
على بعد سبعة الاف ميل رشيد ايوب
ضنين، اطل على هذه الفانية فنشأ متبلا
ذلك اليوم بشبه، ولا يزال الجسم
ان عز الدرويشية يروح ويجي في اسواق نيويورك جحيم التمدن
بالكبول الاصطناعية، ياكل نعاله ويخترق
وهلا تبعه كالماشي في النوم
الاضلع منه الى الصميم
بسم ضاق العبث به البلد
~~[illegible]~~ طيب
ايها الشاعر الدرويش، وزاله، انته الذي
قاطمه فقيد وله وروزاله
نحمله الى ماوى جسمك في نيويورك،
ونطمئنه به انفاسك وقوافيك

١١٩

#٢٤٣٢٦ الباكر

مع المكاريين

كانت ام الياس قد عهدت الى ابنها في ان يوصي بي
اخاها بطرس صاحب الدكان على النبع. ففعل ذلك عند
وصولنا، فرحب بطرس بي وانزلني على السطح في خيمة
من الشيح تغطي ارضها حصير عليه فرشة مطوية.
ثم قال: ستنام عندنا الليلة — حلت البركة — وغدا
صباحا تمشي مع المكاريين الى زحلة.
ما كان يومئذ من عمران على النبع غير هذا الدكان
وبيت يجاوره لاحد المزارعين. وكان صاحب الدكان
يناقش وصاحب البيت ساعة وصلنا، وردد
الاثنان بلهجة حادة متهكمة بالمسبات. ذكر
نقرات وراعيه ففهمت من المناقشة ان الولد
الراعي يؤوم، وان النقرات، اثناء نومه، تغتنم
الفرصة فتسرح وترعى في حقل بطرس.
وقد اشتعلت المناقشة في اصيل ذلك
النهار، وكادت تفضي المسبات فيها الى معركة دامية
لولا توسط المكاريين. فرجع صاحب النقرات الى بيته، تحت وابل
من شتائم بطرس القذعة، وهو يقف — الفينة بعد
الفينة — ليردها عليه مثنى وثلاث ورباع — بلغة
الوحي السماوي: يا كذاب — يا منافق — يا لص!
بطرس: انت الكذاب — انت الكذاب.
صاحب النقرات: انت اللص — انت اللص الخ.
الخ.
عجبا لهذا الانسان وقد خلقه الله على شكله ومثاله،
واعطاه بصيرة وجادة الصفاء
ومع ذلك لا يستطيع ان يعيش في مهد السكينة والنور
والصفاء حتى في اعالي الجبال، في مهد السكينة الكاذبة
ارفعه قمة الالف قدم عن الهيئة الاجتماعية الى رأس
المناظرة المتطاحنة المتكالبة، فنحمل معنا الى رأس
الجبل

١٢٠

الجبل جرائم الثعالب والضغينة والاقتتال. كل ذلك
من اجل بقرة رعت في مرجة جيرانها. وهل رأيت
زمانك بقرات تقتتل وتتناحر من اجل مرعاها؟
ان في الحقل حشيشاً يكفيها جميعاً. والارض
بطولها وعرضها تضيق بالانسان. فمن هو الحيوان يا ترى؟
هل يتميز الانسان عن الحيوان ~~بالوقوف على الرجلين~~
وبالمشي على الاثنين؟ دون ان ادعو
بت تلك الليلة في خيمة الشيخ عندما
ونفع البلغ الثائر الظرف صاحب البقرة
بالخبر يبشر. فسمعت
قمت باكراً في اليوم التالي. ورأيت ناطوري
ينادي من سطح بيته صاحب الدكان. ظناً منه أن هناك حادثاً
يخرج مسرعاً من دكانه على صوته سائلاً:
يستوجب الاهتمام، ويطلق
من صاحب الصوت؟ فسمعته يصيح:
انت المنافق! انت اللص!
وهذا في صفاء الفجر، قبل بزوغ الشمس، على علو
عشرة الاف قدم من سطح البحر! أو تقول لي
ان في صرود الجبال التجلي والتأمل والصلاة، ويعمر القلب
بالحب الانساني؟
عجلت في لبس ثيابي، وكان المكارية قد شدوا
الرحال. فاغتدينا على الاقدام، والطير في وكناتها، كما يقول
الشاعر. خرجنا من بين بواسق الجوز والدلب، فمررنا
بالنبع المنبجس من بين الصخور، فاستندنا في الطريق الصخري
الوعر الى ضلع من الجبل هو الاقف العقبة، فاشرفنا
منه على ارض اخرى هي في شكلها كالارجوحة بين
الافقين.
اني في كتابة هذه الرحلة اليوم استعين بمذكراتي
في تلك الايام، وأعجب وانا اقرؤها لما كان من خواطره
وتلفيق

ولفيق، ولمن كانوا رفقاء الطريق.

قال احدهم يخاطبني: سمعنا في الدكان أنك ١٢١

مهندس.

وقال الاخر: وسمعت انا على النبع انك معلم اولاد

وقال الثالث: وقالوا انك قسيس بروتستنت

فمن الصادق منهم؟

قلت: كلهم صادقون فقد مارست هذه المهن كلها

قال الاول: وما هي مهنة حضرتك اليوم؟

قلت: مبشر بالجبل.

فضحك الثاني وقال: اسمع هذه الحكاية. كان احد المبشرين مثل حضرتك مارا بكنيسة في الجبل ساعة كان الناس في الصلاة، فقال لاحد الواقفين في باب الكنيسة وهو يضرب بيده على قفاه — كان الرجيل في جيبة بنطلونه من وراء — قال وهو يضرب بيده على قفاه: دير السما من هنا — من هنا!

للمكاري لسان تنبت فيه النبات والنكات، زاهرة شائكة. وهو على الاجمال ذكي الفؤاد يقظ الفكر تعلمه الفلوات، وتؤدبه الشدائد. كان في الماضي يغني وهو يتخذ وراء بغله فتردد صوته الاودية. وكان صبورا الا على بغله، لا يكلمه بغير الحصى واللعنات. وهو مع ذلك خفيف الحيا، مزاح ضحاك. كأنه يتنزل!

فاض الفخر بخفة في الفلاة. شمس الجبل تظهر كل شيء. وهواء الجبل يلطف كل شيء.

قال البلاذري في فتوح البلدان: نقل معاوية سنة ٤٩ هـ الى السواحل قوما من زط البصرة (وهم يدعون ايضا بالمطربة لان مهنتهم التطريب) ان المكارية على ما اظن من سلالة اولئك الزط

والى القارئ اقدم الآن من ~~كانوا الرفقاء~~ رفقاء.

رفقاء الطريق:

هذا ابو العباءة في سراويل من الخام المصبوغ بالنيلي،
يشدّه بنطاق من الجلد، وفي النطاق مسلكين طويل
شبه خنجر، معلق بسلسلة صفراء، عباءته
قصيرة مخططة، وعمارته لبّادة طويلة لبنيّة، تذكّر
بعمارة الدراويش المولويين، وقد لف عليها الكوفية،
وأطلق المذؤابة فوق أذنه -
ابو العباءة هذا يكثر في احديثه من ذكر النساء، ١٢٧
هو مجان فاسق، حلقه مزيج من الرمل الذهبي والزبل،
هو الذي حكى حكاية المبشر بالانجيل
وهذا ابو كبران كبرانه من الصوف المنسوج
في خيام البدو. يلبس السراويل المزنّقة، اللاصقة بالكاحلين
والساق المنفرجة في ما فوقهما، ويحتذي حذاء عتيقاً
مثقلاً نعله بالمسامير،
ابو كبران لا يملك الاجرة في السنة يوم يعترف
ويتناول القربان المقدس. هذا الذي قاله فيه ابو العباءة
وما أثبت القول هو ولا نفاه
وهناك مدينيّاً في اعجب القباقبات من أسود الى قدميه
حذاء طويل بشرائط عديدة مشدودة، فوقه سراويل من الخام
المصبوغ، فوقها صدرية بزرّين زرّان واحد منهما، فوقها سالكو
أو جبة مرقعة الكوعين، وفوق الجميع على الرأس
طربوش كان احمر اللون في قديم الزمان:
هذا المدني يحجب نفسه، او لا يرى في نفسه ما يستوها

وهناك بدويا بعباءة خشنة مخططة، وكوفيته
مشدودة حول عنقه، وجرته الى ما يحت الرأس
بلا عقال في الديار
نزل فيه رجلاه على الرحب والسعة
هذا البدوي ~~لا~~ المرئي يحسب نفسه
ينظر الى
فوق الجميع
رجال
نظرة تساؤل وازدراء

OR ١٣٨ ١ باليم 17

قال الخاطبي بعد ان سمع حكاية المبشّر بالانجيل:
وانت يا زين، ما تقول بدرب السما. دلنا عليه
وحياة والديك.
ابو عباءة: حضرة يا زين؛ ما هو رجل ليدل الهداة.
والله اذا وعظت عن المسيح هو رجل يقوم الكونة عليك. يجب ان
وبرطوت: فعله مشبعه. وما ربحك في الوعظ؟ يجب ان
يكون اكثر منه ربح الخوارنة لان عملك اهم وفيه خطر.
البوكيران: مهنة الاكليروس ان كانوا من الخوارنة او منه
القسس البروتستنت اربح المهن واهونها. ولكن الله سبحانه
يوزع المهن على الناس. انا والمطران... مثلاً قرأنا
في كتاب احد حكماء السندبانه، وكنت انا اذكى منه، وكنت
اساعده واصلح غلطاته في القراءة. فابن انا اليوم وابن
سيادته؟ سبحان الله.
فقال البدوي بغير اكتراث: سمعنا انك لا تحب المال
والانحمل في حلاليك ولا الامارة.
قلت: صدقوا واخبرك. مستطلعا الوقت،
وفي تلك الاوقة اخرجت ساعتي من جيبي
فرآها ذلك البدوي وهشّ لها، ثم قال: يكفي قاطع الطريق
ان يكون معك هذه الساعة فقط، ونكفيه ما انت
لابس يا زين: هذا الحذاء - هذه الثياب
الفرنجية.
أَلا تخاف من قطاع الطريق؟
قلت: وهل اخاف منهم وانتم الرفقاء؟
فقال ابو الطربوش مشيراً الى البدوي: هو منهم، صاحبهم
حرامي. لو كنت كلك
فصاح البدوي به: يا ملعون الوالدين! ... عليك.
ما ذهب واحد بالله، لطفت عليك.
ابو الطربوش: المجنون يحاسب البدوي على ما تقول.
البدوي: تقول اني مجنون! خسئت يا ملعون.
ابو الدنيه: قال هذا ووقف امامه.
فقال

١٧ ١٢٩ ٥٨ ١ ج

فقال ابو الطربوش: الصفقة - وصاحبها - تحت رجلي.

فالها هو يبدو ما استقر على حجر منه فهم البدوي

فلم يجرب. فقال ابو كدران دون ذلك. وقال

ابو العباءة للاثنين: من فضلكم لا ترافق الاوادم

اسكتوا. اعقلوا. والا..

سحب السكين من نطاقه ولوح بها.

فسكت البدوي وابو الطربوش، ومشى الواحد

منهما يقتفيا اثر الآخر.

زاد في القافلة السكون برهة من الزمن

وكنا نقطع تلك الاصقاع الكثيرة الوهاد، ما عرفت طريقا

في الجبال اشبه بهذا الطريق من صنين الى زحلة -

لا بوعورة، فهو في بعضه سهل موطأ - بل بآفاقه

العريضة المتعددة - المضيئة الهيبة لمثلها.

مثل لنفسك لوحة من طين فيها منخفضات ١٤٢

كالجور تعلو الواحدة الاخرى، هذه وفي

بالضلوع حولها، هي والضلوع حولها طريق تسلكه طائفة منا

تهبط الى الجور التي قلتها. من الضلع الاول تهبط الى

الجورة فتجتازها الى الضلع الثاني، ومنه الى الثالث

المقابل له، ومنه الى الرابع، فالخامس، فالسادس.

وكل جورة لا تتجاوز مسافتها من الضلع الى الضلع

الكيلومتر الواحد. تكاد تزهق

هي الآفاق الواطئة الضيقة. صورة الرجاء

النفس فيها. هي الآفاق المتعددة تمحو كل منها، ولا تدري

وقلب السافر اذ تقف بين الوقفات

اين تنتهي السلسلة، واين زحلة. لكنك

الكل

١٨ ١٤٠ ابلغ

كل مرة نجتاز افقاً ونشرف على آخر اظنه ان زحلة
وراء ذلك الافق. فعددت عشرة منها، وتعبت
افكر فيما قرأته لشاعر الايطالي العظيم دانتي في
روايته الخالدة – الكوميديا البشرية – من الوصف الرائع المروّع لطبقات
الجحيم.
وفي هذه الصورة من حالي سألني ابو عباءة سؤالاً
باردا، وقد اراد لذلك ان يتطرق في الحديث الى النساء.
فحكى الحكاية التي حكاها ولا شك
حكاها له مايرد مية مرة من قبل، وختمها بهذه الكلمة: كيد النسوان
مثل كيد الرهبان، واشد يا سيدي، اشد.
قال البدوي: انتم النصارى لا تحسنون معاملة النساء.
العصا لمن عصا. وحنا نقول: العصيّة للمرية.
فاندفع ابو طربوش وقال: البدو وحوش.
البدوي: يا ملعون الوالدين، قال لك الرجل! اسكت.
ونعود تحتسي
ابو طربوش: احبسني واسكت.
وتستهزئ بي؟! والله بالله
البدوي:
يحجم، وهو يقسم بالله عليه
ابو كبران: يا قود – رجعنا للكل الـ... ادبحه

١٢٥ — ٦

وخلصنا ~~[illegible]~~ منه وفتك،
ابو عباءة، وهو يحب السكين ويلوح بها: اسكتوا
يا ولاد//تي اسكتوا. والا انا اذبحكم كلكم.
وكانت الدرب قد ضاقت، ونحن نجتاز احد الافاق،
فصرنا نمشي صفاً، يتقدمنا ابو طربوش، ويتبعه ابو
كبران، فالبدوي، فابو العباءة وهذا الرفيق
ابو السؤال الواحد! واين زحلة؟

سأله

سألته سؤالي هذه المرة للوف عال حريح، فجاء
الجواب منه الى طربوش، وهو في منعطف الطريق: هذا
السهل - وشتي قلت السهل قلت رحلة.
وشد ما كان فرحي عندما اشرفت على سهل البقاع
البهيج الاخضرار، الناعم الانوار، وقد زخرفت خلاله
قطع من الغمام. وبعد [illegible] لبثت بالقهوة ولا
بالطويلة" من الانحدار، وصلنا الى عين حزير، فوقفنا
امام دكانها، فنادى ابو كدران صاحبة الدكان باسمها
فخرجت مرحبة مسلمة ترحيباً. ثم جاءتنا بابريق
الماء فشربنا وودعوا. وكنت انا من المودعين.
تخلف ~~[illegible]~~ لأني وعدت
الاستراحة في ~~[illegible]~~ عين حزير على ان اصل الى زحلة وبي
شيء من الضنك والتعب. وكنت احس بالجوع
فتذكرت الزوادة التي زودني بها صاحب الدكان في
صنين اخو تلك الاعربة في بسكنتا، فافتقدتها المعلقة في مؤخر الجلال
المكاري ابا العباس ووضعها في مخلاة بغله، وما ان همت
بطلبها حتى رأيته عائداً بها فأعطانيها قائلاً:
نشتك مسيحية الزوادة إه!
~~مسيحية إه.~~
"قالها الحبيب وهو يغمز بعينه.
وكانت مسيحية من الجراحات المكسرات
وقد اثرت في الكحل والياسمين فأعجب
الخاطر. وقد [illegible] على كثرة ما يغدون
يتلهون بشيء الازاهر [illegible]
عليها من المكاري والسائرين، سهلت الانقياد
بالحديث، بارعة في الطريقة [illegible] فباعتني ١٢٦
تقول لها: انت من احيد [illegible]
رحلتنا

٢٠ ١٤٢ ص الكـ

قلت: لبناني كان في اميركه.
فقالت مستبشرة ما استترت من علمها: هذا حسناً
وانا كنت في اميركه - في "البايرن". ثم سألتني بالانكليزية
اذا كنت اتكلمها. فسرّها جداً جوابي، ودعتني
للجلوس وهي تقدم لي كرسياً، وتجلس على آخر امامي.
ثم اندفعت تتكلم عن "البايرن"، وشارع السوريين
وبيت التي عمّه كانت تعرفهم هناك، وكل ذلك
وهي منبسطة مسرورة الصدر، فحاورتها باللغة الثانية التي
أحببتها، على ما كان من لهجتها الشعبية الانكليزية، ولفظها
الفضاح:
قالت: آي لَيك البايرن يو نو You kno
قلت: آي لَيك إتْ تو يو نو؛
وكانت هذه ال "يو نو" كلمة السر بيننا.
فرحت على كأس من العرق، ووقفت شاكراً، وقلت:
اسمحي لي ان افتح زوادتي في دكانك. فصاحت
بملء صوتها: يا عيب الشوم! انت ضيفنا الآن.
بعد قليل يعود زوجي من الكروم فتتغدى معنا
وتأكل من عيشنا.
حاولت ان اثنيها عن عزمها فما انثنت.
بل أصرت بالانكليزية على ان اشاركها في الغداء، ثم دخلت
ودخلت الى غرفة وراء الدكان وعادت
وعادت، فتذكرت مع هذه الاحتجابات
والتجليات، وكانت تحمل في كل مرة تعود [illegible] بقلاً او
تذكرني بما كانت تحبه في "البايرن".
آي لَيك كوني آيلند يو نو.
وهي تعود الى النعم او الخافتة من غرفة الاسرار
رجاء

٢١ ـ ١٤٢

جاءت تحمل طبقاً من نحاس عليه فنجانان وهي
تقول: والقهوة، الا تحب القهوة؟ تفضل.
وبينا نحن نشرب القهوة عاد زوجها من
الكرم يحمل سلة عنب. فعرفتني اليه "قائلة بالانكليزية":

(١٢٧)

هي كم وام بابرك بولو الشيء الخطير
فما كان وقع الخبر في نفسه زوجها. فقد
هو قادم من بيروت مثلاً او من زحلة.
كما لو قالت: ثلاث سنوات حسبها
اخبرني انه اقام في نيويورك ثلاث سنوات وان بلادنا في
نظري سنه، وانه لا يحب الغربة،
نظره اجمل بلاد الله. لو نوفقنا ما عدنا.
فقالت مسجيه: لا اصدق! احب الصبح دائماً.
كم مرة قلت لك يا حنا ...
عند الفاصولياء؟ اغسلها وردها الى الخزانة.
فامتثل حنا امرها وراحت هي تحضر الطعام.
فرشت المائدة الصغيرة بغطاء من الكتان المشمع، ودخلت
وقد كان حنا الخادم الطائع الوديع
الى الغرفة تحمل عملاتها ثم صحناً مثلاً
صحناً من البيض المقلي
فجاء يحمل اللبنة والخبز والعنب، ففتحت
الباذنجان، ثم اضيف اليها ما كان معي،
فاستأذنت ان اضيف بيضات مسلوقة وبطلتان
فاخرجها ثلاث بيضات ملفوفة كلها بارغفة
الزوادة من الحب الطري.
وثلاثة قوالب من الجبن وقالت انها ستطلب
منه الخبز. احبت مسجية الجبن
من صاحب الدكان جنبين قطعة ارطال منه.
وبعد الغداء نمت القيلولة في الغرفة المجاورة
للدكان، وفيها ما عدا ادوات الطبخ، ديوان وسرير.
نمت على الديوان فاصرت مسجية ان انام على السرير
وهي / (اقلب)

٧١

ابج

وهي تقول: اهلا واهلا بمحبة منه
السرور جاوقد
وقد الحت عند الوداع ان اقيم عندها
ذلك اليوم فكرة بالعربية والانكليزية
وسجلت اسمها مع اسم ام العباس
ربة نشاط في سفر النساء
الكاتبات

١ ـ ٢

١٤٤ ٤٣

العروس المزيّنة

وأستكبر الاخبار قبل لقائه
فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ

حببت هذه المدينة، واحببت اهلها يوم لم اكن اعرف من وطني سوى اسمه - يوم كنت في الولايات المتحدة الاميركية. وعندما عدت الى سوريه كانت اول رغباتي ان ازور زحلة، فجئتها ماشياً من الفريكة، ونسيت مشقة السفر ساعة اشرفت عليها من بين الكروم، وقلت: صدقوا والله - "زحلة عروس مزينة"! فان منظرها مع ما يرى من هذه المناظر حولها لمن ابهج المناظر في لبنان.

وقفت بين الكروم، على تلك الربوة الجميلة، حييت المدينة التي هي مسقط رأس اعز اصدقائي في المهجر، وحييت فيها بواكر الحور، لسان حال رجالها، وروائع الصفصاف، لسان حال نسائها، ولعجيب البردوني الجاري في حياة ابنائها. ووقفت متأملاً هذه المدينة المختبئة بين الجبال كلؤلؤة بين الصخور، او كزنبقة بين الادغال، واردد قول الشاعر الانكليزي غراي:

كم زهرة وسط الادغال عابقة
وحسنها عن منظور من البشر

من الخطبة - الترقيع في العمل - التي
القيتها في زحلة في صيف سنة ١٩٠٨

ارائي في كتابة هذه الرحلة آتياً بما لم تستطعه الاوائل
لن يستطيعه المتأخرون، اجازة واستقبالاً، الا اذا
لجأوا الى طريقتي واقتدوا بي، فان جمع الاضداد
لا

OM ١٤٥ ٢٣

يستحيل، بعض الامور غير مستغرب، اذا استعرضنا
حقائق التاريخ، وتصرفنا بتنظيمها تصرف الصائغ ١٢٩
او الفنان. هاك، ولا عجب، الحاضر والماضي
والمستقبل في زمان واحد، ومكان واحد. (وهل
كان للزمان، قبل ان رأت عين الانسان الليل والنهار
ماضٍ، ومستقبل؟) قف حينما اقف الان
اذن، لعبنا لعبة البعد عن "عدّاد" الزمان،
تر الاعجوبة، ولا عجب. فهاك السائح سنة ١٩٠٦،
والخطيب سنة ١٩٠٨، والكاتب سنة ١٩٢٨، وقد اجتمعوا
في شخص واحد، وفي وقت واحد، بل وفي ساعة
واحدة. هي ان عنه التي انا فيها.
كيف لا وانا الان رفيق المكارين المشددين الى
زحلة، والخطيب في حفلة سياسية بزحلة في اوائل
عهد الدستور، والكاتب المدون للخبرين
الجامع للنقيضين، فتسمعها مما هو آت
على ما قد فات، وتقرن من لم يكن قد انس
الوجود بمن كان يجوب الآفاق ليدرك الادب
من الحب الانسي.

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

زيديني
اي زحلة، ربة الوادي، ومحجة القلوب، زيديني
حبا، زيديني نورا، زيديني صفاءً في التحنان، وصدقا
واخلاصا في التبيان. ان فيك الاحرار والاحبار، خلاني
ورب زماني. ان فيك الشعراء والابطال، احبائي
وخيرة ايامي (وهل تستغرب الخيرة، والحنين الى حبيب
النبوغ مقيم؟) ان فيك جمالا يغنيك، وقد
فاض على ضفتي نهرك اذا نضب القاموس من استقام

ا فان

٤٤ ١٤٦ ابراهيم

الزمان .

اي رحله ، ربة الكرمة والساقي ، وحبيبة العود والناي زيديني علماً ونوراً . ان فيك الشعراء والادباء والخطباء ، وان فيك للعقل السدة العليا .

خطبت ودك بنت الحان ، وتغنت بواديك الركبان ، ومجد يردونك امراء الشعر والبيان . وما كل يوم تقال لك الكلمة الفاسية الصافية ، المجردة من كل شئ غير الصدق والحب . استمعي لها اذن ، واحفظيها .

زرت الوادي في ايام مجده الاول ، الصافي كمحبة الطبيعة الجمة —

الجبال : فالاجتني مكامن الظليلة ، خلوات الشمس ، فسحات المترقرق فيها نور الشمس ، صفصافة المتبجج على العائفة بطيب الباحث ، والهواء صفي النهر ، حوره الناشر فوق الصخور اعلامه ، تتنشقه الماشي في مضائق ضباب ورد واسير ، وها هنا بين هذه الطيور فيها منها التغريد . خلا المبهجات بغير قفاه متباعدة منها مسة — لا تجود الانس والسرور من المسارح المسيحة ، ولا تقدّ نواعم يحتبس للمتنزه حب نظر فيها ، فيرددها الاصوات . بل يأخذ المرء حتى على افكاره ، ويسمع حفيف اجنحتها في مطلقة محلقة ، وتفانيف الوادي ، مجاني الافنان ، والجمال ،

اي وادي العرائش ، عرائش الحب والجمال والسكون والجلال ، واللهو والخيال ، اي وادي البردوني ، ملعب الصبيان والصبايا ، مضرب الالباء والاصفياء ، مجة القلوب الودعة ، والقلوب المنعمة ، والقلوب الطائفة الفائقة — عرس ارباب القوافي والاوتار — هودج العروس

العروس المزينة! كنت للطبيعة يومئذ ولكنت
لابنائها المحبين للطبيعة المعتصمين في جوارها
الطاهر.

جلست يومئذ تحت العرائشة، بين العروش السندسية
الزاهرة، وحييت اربابها تحية الحب والاجلال، وحييت يومها
الذي كان دوماً يوم العيد. وحملت من الذكريات اطيبها
واحلاها، فرفعت لها العرائش في الفؤاد، وتعهدتها بيدي
الغبطة والحبور، وبذورات "هي غرر في جبين السنين.

ثم مضت الايام تغيبه طولة الوعد، تغيرت في اثنائها
الاحوال، وعقلية النساء والرجال، فصارت تجارات الناس
وشؤون الدول موكولة كلها بالطبل والزمر — بالدعايات تمهد
لها وتغري بها، وتنشر اعلام مجدها وكسبها في اربعة
اقطار الدنيا. وما كانت رحلة لتتفرد فتشتتني.
البشر يبشرون
فراح الحداة يغنون للوادي، وانطلق الصفر، الصفر! الاصطياف
في كل صقع وبلد ومجالسه.
وسارع
الاصطياف! هرع الى الوادي
وجاء الناس من كل حدب وصوب يصطافون، والضائقون مطامح
الماجدون والمرتزقون، فغدت المسارح مضائق،
ومخلفات. فتبدل طيب الرياحين بروائح الشواء
والاراكيل والاتجرة، وقد تخللتها جميعاً انفاس الناس ١٢١
المحتشدين في القهوف والمتفرجين، غطت
صفا النهر بالمقاهي، وسمعت الطبول دق
الزجران، فهجرت الافنان!

صفقة المتنزهين والمصطافين —
الصفر! بعدان ا...
زرتها في مساء يوم من ايام الصيف، فهالني ما رأيت. جموعاً
اشبه من علبة سردين الارض محدودة، الى موائد
محشودة في الضيق من الارض، كمجالسة الناس البهائم
محدودة تكاد تكون متلاصقة
والظهر

والظهر الى الظهر، والساق الى الساق، رجالاً ونساء،
هم على الكنبة متكدسون، يشربون ويأكلون - ويدخنون العرق،
الا فليعذرني القارئ، الى متخبط لفظ الحب بالولادة
ويتخدرون. ولما حركت اليراع كلمة في هذا
المشهد المزعج - (منظر الناس يأكلون حتى في
ذوق وأناقة غير هو مستحب) - لو كانت المقاهي غير
مختلطة بقليل من البعض، ولو كانت الموائد فيها غير ملاصقة
متلاززة، فلا يرى الناس حولها غير الناس حولهم،
ولا يرون من الوادي غير اغصان الاشجار وقد تعلقت فوق الرؤوس
فيها انوار الكهرباء،
وهواء الوادي المتلقي في مضائق جنباته وروابيه -
والحاملة بأبخرة المطابخ ودخان الاراكيل،
انه لمنقل، وارايح الوادي الفائح من ازاهره ورياحينه -
الكزبرة! والنبك والعرق المختلطة
لقد تبدل بروائح الشواء بفوهة الطبول في الوادي - لقد
بها انفاس الناس الكزبرية
فشلها المدقة وهي تدق في اجران الكبة على الدوام!
هاكم الخدامين وقد شمروا على زنودهم ورفعوا اطباق الطعام
والشراب
فوق رؤوسهم، يخطون بين الموائد والجموع المزدحمة
ويصيحون: الدرب - افتحوا الدرب!
اين انباؤك
رحلة غروي مزينة، وحزينة بمعاطفها: اين راعيك الله لندب
من جمال واديك؟ اين راعيك كما رفعه على
النوابغ ما ذهب بركوب؟ ابن انكريك (٢) برفع صوته عليك
وسط الوحي فيك؟ ابن الكت بيانه الراجب، ويقنع الطيور وتتعود ١٧٢
الهما لصباحك (٢) لعبيد الليك، وابن خليلك منه بني معلوف
ابن شبلك صفاف وجودك، المتواري
الى الفنان الكاسل الشعر لجمالك
مغردة الى افنان صفافك، بالغران الكاسل
الاحوان فوزي وشفيق، والعرائش الخرساء:
بين الصخور القاتمة، فتحرني الذكرى
الى ذلك الجمال في يوم مجده،
الانسان بشره جمال
واعود الى الفكر التي شواسبا،
الذكرى، فبادر الفكر التي تدفعه اليه اطماع المادية. والانسان بعوض
الطبيعة بأعمال

(١) راجي الراعي (٢) شكري بخاش (٣) شبل دموس
عشرة

عنه فعلات أخيه الانسان باعمال توجيهه اليه المطامع والرهبة.
معول يهدم صروح الجمال، التي لا ترى كاملة بغير عين الروح،
ومعول يبني صروحا للعبقرية خالدة. والهادم والباني
أخوان يتنازعان عوامل الحياة، ويعملان في الهدم والبناء
على الدوام. اما الكفيل بالتعويض الاكبر بل ببقاء كل
اثر مجيد من آثار العبقرية انما هو الزمان.
قلت ان صروح الجمال لا ترى كاملة بغير عين الروح،
والانسان الهدام لا يهدم غير الظاهر منها - اما جمالها الروحي فهو ينتقل
او يتحول الى محارف البنائين - الى اللوحة المصورة، الى قيثارة
المنشد، الى صومعة ابن عربي، الى براعة الاديب، هي مصادر
الوحي المتألقة يردها في جرائد الاقدمين كما يردها في جرائد
الطبيعة وقد غزاها الانسان كسبا واثراء. هي هي
الارث الخالد للفنون الجميلة، ولقد فاز
لقدشل عرش الوادي فوز فحول الشعراء، فحمله الى ما
بالقسط الاكبر ان حلمه الخالد فوزي المعلوف
وراء البحار. راح مثقلا بوقر العبقرية، مكبلا بقيودها
ففك القيود هناك - في البرازيل - واعاد البناء وحي الوادي.
في كتاب من الشعر خالد هو "بساط الريح"
وانه ليليق بي ان اثبت في هذا المقام ما كتبته اعجابا
بهذا الاثر الشعري الفريد حين بابه او في شكله
١٢٧ وجلاله. فقد كتب مقدمته الاديب الاسباني المعجب
بالعرب فرنسيسكو فيلاسباسا، وصور صوره الزخرفية
المطلوبة المصور الروسي ... الى الشرق روح شاعرنا العربي الخالد
شاعرا - الف ليلة وليلة - ثلاثة

على بساط الريح

مررت باشباح الاحزان في ظلمات الزمان،
غداة لاحت في الافق الاسنى،
في الجادة اللازوردية، بين الفرقدين والجوزاء،
ثريا جديدة ذات نجمات ثلاث باهرات،
فسمعتهن يخاطبن من لا تراه العين الفانية!

فقالت

فقالت الاولى: ثلاثة قلوب في عقل واحد يرتلون.

وقالت الثانية: ثلاثة عقول في قلب واحد يسبّحون.

وقالت الثالثة: ثلاثة ارواح على بساط واحد يسجدون.

وقلن كلهن بصوت واحد وقور وديع: هو بساط
الروح، باطننا، بساط الشعر والفن
والثقافة، بساط البشر، مهد الحقيقة
والخيال — بساط الالوهية.

وقالت الاولى كمبدئها: ذات اللسان العربي،
والصوت اللبناني: وهو صنع يدها المحركة
لايدينا، وصنع قلبها النابضة في قلوبنا.

...

وسمعت اصواتاً تتعالى من جسد الاشباح، اشباح الاحزان،
وهي تقول: سعدنا بكما وشقينا دهراً. ١٢٤٠
فجاء الصوت من وراء الحجب مجيباً: احببتم وما
آمنتم، آمنتم وما احببتم، احببتم وآمنتم
وما فاديتم بشيء لكم.

- ٢ -

مررت في شفق الزمان بأولي الاجنحة المتكسرة،
بجيش قائم منهم ومنهن،
وقد وقفوا في الوادي الذي ينير نصفه قمر من احمرار
شمسه الكبرى، فسمعت اصواتاً تتصاعد
من ناحية الوادي العاتمة وهي تقول:
عصفت الرياح فكسّرت فينا الاجنحة.
والصوت من ناحية النور يجيب: لا تتهموا الرياح،
فقد آمنتم بالاجنحة والدواليب، وما آمنتم
بما يحرك محركاتها، آمنتم بالكهرباء
وما آمنتم بمنشئها، آمنتم بالعبادة
وما آمنتم ببساط الروح.

/ وقفت

وقفت في قلب الوادي، عند ملتقى الظل والنور،
فسمعت صوتاً آخر يقول:
حيوا من احبوا، وآمنوا، وابدعوا،
وجادوا بانفسهم محبين، مؤمنين، مبدعين.
وحيوا منهم الثلاثة في الثريا الجديدة، العربي
والروسي والاسباني، وحيوا فيهم
الحقيقة الكبرى خلف الخيال.
وحيوا فيهم الخيال الاتم للحقيقة الكبرى.
بل حيوا فيهم الحب وخلوده، والشعر وكنوزه،
والثقافة ودليلها الأكبر الاعلم.

١٢٥

- ٥ -

كان فوزي رحمه الله، واخوه شفيق طالب القيادة، وليدان يلعبان
بالكلل ويطيران طيارات الورق يوم زرت زحلة الزيارة الاولى، وزرت
الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، صاحب ~~ال~~
ضيفاً على ابيهما صديقي الاكبر وكان الابن الاصغر شفيق السابق
المؤلفات التاريخية القيمة ... في ديوان صغير اسماه
احلام لا الى النظم بل الى طبع ... منظومة، فكتب اليه كتاباً
للنقد، فاهدى الي نسخة منه
الاحلام. انقل منه ما يلي:
~~لعبت~~ في الاحلام يد
استهدانك شاعر. ولكنك في الاحلام هذه
عن كنه الحياة ومقاصدها الكبرى. لقد كانت بين الشعراء
اللهجة — لهجة الكآبة والحزن — رناناً في زمنه
بيرون وهينه. وهي في ربيع الشرق وخصوصاً حبيبا
نخبة السوريين، داء دخيل. فما فضل
الشاعر وهو يبكي ويشكو ... على سائر الناس.
راجيا

١٥٢

أما من الوجهة الفنية فان في أحلامك لشيئاً

منه بديع التصوير، وجميل الخيال، ودقة التعبير، ونعومة

الديباجة. ولكنك مقلد، يا صديقي. لا أقول

إنك مقلد لجبران، وهو مثلك في دموعه، من

المقلدين. اقرأوا أشعيا بدلاً من أن تغمسوا

أرواحكم في دموع أرميا. عودوا إلى شكسبير

وغوته — إذا كان لا بد من العود — بدل أن

تحرقوا أصابعكم ومآقيكم في ~~[illegible]~~ حر أجيال ميتة وبيرون.

ليس إن عز، يا صديقي، زنبقة في جمجمة. إن في هذا

التصور غلواً لبعضهم، وليس فيه شيء من الحقيقة

والجمال. إن فيه تحقيراً للجنس الإنساني. أنت وأنا

وجبران منه، والحمد لله. وإن في الكون وفي

الحياة جمالاً أسمى وأبهى وأعظم وأجل منه

جمال الزنبقة اللطيف المحدود، أنت وأنا

وجبران، والشمس والقمر والمجرة، لمعات

١٢٦

من ذلك الجمال، والحمد لله.

أما إن عز من أهون الناس، فما جميع الناس،

وليس من ظن نفسه فوق الناس بابن عم، لا ابن عم.

إن إن عز الحفيفي مرآة

أصغر الشعراء. إن إن عز الحفيفي في الظلمات، وإنه

الجماعات، وصباح الطاهر في الظلمات

لعون في الملمات وسند في النكبات.

إن شاعر الحفيفي ينشد للأمم وجوداً أسمى

الحب والكلمة والجمال والأمل. كفكفوا

دموعكم، سلمكم الله، وارفعوا لهذه الأمة

التي تتخبط في الظلمات مشعالاً فيه نور،

فيه أمل، فيه محبة وعافية.

هذه الكلمة القاسية، لو كتبت إلى ذي ادعاء وغرور لهاج

وماج، وحمل علي حملات من هجاء في الجرائد شعراً ونثراً. أما المعلوف شفيق فقد

إذ إنه كان سكت وأمسك عن النظم حياته

(الخليج) ١٥٣ ٢١

فقد نشر كتابي في احدى الجرائد، واستمر ينظم بوستنغر مجلو[ا] الوحي، يبعد المجاز للشاعر فيه، فجاءنا بعد خمسة عشر سنة ~~[illegible]~~ الكتاب الذي يجوز ان ندعى صنو بساط الريح، وقد تفضل فاهداني نسخة منه فتصفحته فاذا [illegible] - واذا هو مثل اخيه فوزي مبتكراً مبدعاً، واني انشر هنا الكتاب الذي كتبته اليه والجواب الذي جاءني منه على ادب بادرني فيه وكان هو المجلي:

صديقي العزيز شفيق معلوف حفظه الله

ان ديوانك « عبقر » لتحفة شعرية فنية مطبعية ، نحق المفاخرة به ليس عندكم في البرازيل وعندنا في لبنان فقط ، بل في العالم العربي اجمع. واني اشكرك شكراً جماً على اهدائي نسخة منه فاضعها الى جانب « بساط الريح » بين دواوين أخر في مكتبي وهي كلها من كنوز العالم الخالدة واني اؤكد لك ، يا ثاني الثلاثة — رحم الله فوزي وشدد جناحي رياض — ان سروري وفخري بصداقتي لكم ، المنبثقة من صداقتي للعلامة المفضال والدكم ، لا يؤثران بما اقول في شعركم. فقد أغضبتك مرة ، على ما اظن ، في فجر نبوغك ، وما جاملت امس العزيز رياضاً في دموعه وحبابته.

اما وقد ذكرت الوالد فيجب علي ان اقول ، قبل ان احصر الكلام فيك ، انه فريد زمانه ، بل فريد ازمنة التاريخ قديماً وحديثاً . فهل يا ترى جاء في تواريخ المتقدمين والمتأخرين ذكر والد كان له من ابنائه ثلاثة شعراء ! لا اظنك تجد نظيراً عالماً او امياً ، لصديقي العزيز والدك ولو فتشت عنه في تواريخ العالم كلها . فهنيئاً ثم هنيئاً له

ولكن لهذه النعمة الفريدة ناحية اخرى جديرة بالنظر . ليت شعري ماذا كنت اقول وبماذا كنت اشعر ، لو كنت انا ابا لثلاثة شعراء ، وكل منهم يروم مشاركتي في الكرسي التي لي ، او الموعود بها ، في دار الخلود ؟ وقد لا يكون من قسمتي في سفر الشهرة والمجد غير سطر واحد يحمل للعالم خبري كله ، وهو اني والد الشعراء الثلاثة !

ومع ذلك يجب علي ، ككاتب يحترمه الناس ، ان

افتخر امام الناس بشعرائي الثلاثة الاعزاء ،
واتصنع الفرح والابتهاج ، ولو ركبوا على منكبي
وشرعوا ينظمون الشعر ويرتلون . اما امام الله
فاني والله استجير برب عبقر منهم ، واقول لوالدتهم
— ما الذي اقول للوالدة التي ارضعتهم حليب
العبقرية ؟

وما هي هذه العبقرية التي تشقي صاحبها على
الغالب وتسحر الناس ؟ لقد حملت اخاك فوزي
على بساط الريح الى اعلى آفاق الحياة العاطرة
الساكنة ، الخالدة في تسلسل الحانها واشجانها .
ولقد حملتك انت الى عالم الجن الصخاب المهاب
— بشهادتك — الخالد في تسلسل اوهامه
واحلامه . ومن الحقائق ما كانت امس من الاوهام
ومن مفاجئات الوجود ما كانت احلاما . اوليس
الشاعر ادرى الناس بذلك ؟

ولكنك حملت الى « عبقر » عقيدة واهية ،
وقساوة متناهية وسخرية آسفة لاهية . وقد كان
شيطانك مخيفا (أتذكر شيطان ابرهيم الموصلي
الذي زاره ذات ليلة كما جاء في قصة من قصص الف ليلة
وليلة ، وعلمه الغناء ؟) وكانت عبقرك غير مستحبة
فقد جاء التنافر في وصفك لها اذ قلت :

غمائم زرق على متنها منازل جدرانها تسطع

فافسدت هذا الجمال في البيت الثاني :

تثور في ابراجها ضجة بها يضيق الافق الاوسع

وقد كانت ساحرتك فظيمة

تضطرب الارض متى اقبلت
قاذفة (اليست عازفة احسن) عزيفها المنكرا

١٣٨

الدب

فقد نشر كتابي في احدى الجرائد، واستمر ينشر وينشر
مجلوّات الوحي، وهو يعدد المحاسن لشاعرية
فجاءنا بعد ~~[illegible]~~ عشر سنوات (٦) الكتاب - الذي يجوز
ان يدعى صنو "بساط الريح" وقد تفضل
فاهداني نسخة منه قبل العشرة، فاذا شاعرها
غير شاعر "الاحلام" واذا هو مثل احب
منبر مبدع، لااثر فيه مطلقاً، ولا في فنه
ولا في روحه لاحد من الشعراء المتقدمين او
~~[illegible]~~ المعاصرين. ولا اثر فيه للدموع!
وهو القائل في قصيدة رائعة تلاها في
الحفلة التي اقامتها العصبة الاندلسية
في سان باولو تكريماً له بعد ظهور كتابه:

حجبت عن اهل الكآبة دمعتي
ودرت عليهم بالرحيق المبرد

والى الان انتب الكتاب - الذي كتبته اليه
~~[illegible]~~
والجواب الذي جاءني منه، وكان
بآراء الشاعر فيه
خالياً للادب
لصور المجلي:

المفجعة

والشاعر ، يا اخي ، كما يتمثل في اكبر العباقرة حتى وفي اكبر الساخرين المتهكمين منهم ، لا يتجرد كل التجرد من الرأفة والرجاء ، وحسن الظن والامل

فهو يجلد الناس باسواط غضبه ، او يخجلهم بقهقهات سخريته ، ولكنه لا يهدم الجسر القائم بين حياتهم هذه وبين الحياة الاخرى .
أقول الاخرى لا الآخرة ، لاني ممن يعتقدون بحياة اخرى هنالك ، في ما وراء عبقرك وفوق ابسطة الريح كلها . بل اني اعتقد بحيوات اخريات ، وان كنا لا ندرك اليوم كنهها واهدافها ،

يظهر لي ان علم والدك ، الحافلة به صفحات المقدمة لديوانك ، ما أثر بك او بيقينك السلبي في الجن . فانت ، على رغبتك في استكشاف امورهم واستطلاع اخبار عبقر ديارهم ، لا ترى فيها غير ملعب لعبقريتك ، ومصدر وحي لما قررت من اتجاه شعرك

سامحك الله ، ووقاك شر من وصفت ، وان كان في وصفك من الابداع ما يعبث بالقلوب وطوراً يروعها . ولقد وددت لو ان الساحرة من الجنس الذي لا يروع الناس . ووددت لو انها ساحرة جميلة لها في ما تقول شيء من الجدة والجمال ذاتها لا شتامة سبابة فظيعة مثل جنيات القصص

اننا لا نزال في القشور من اسرار الوجود

فهل يجوز ان تقول : تلاشت الاوهام ، واهلها ماتوا

وما استدراكك ، على جماله ، بخير من ادعائك :

لكنّ من يهزّ منا الرفات
فهو الذي ...
لا تستطيب النجوم — غير تهاليله ،
وليس تبكي الغيوم في غير منديله

هوذا الجمال والروعة في الحزن الابدي .
وهوذا الحزن الابدي في الحب الذي قلت انه « لصيق الثرى »

فيا اخي الشاعر ، فتحت كتاب « عبقر » وانا اتصور فيه الخير الاكبر الاصفى ، او اتأمل ان يكون في الاقل حاملا لبني آدم الذين يجتازون في هذا الزمان اشد واظلم العقبات المفجعة ، شيئاً من نور المطهر والامل ، واشياء مؤاسية منعشة

من وراء سجوف الغيب ، فكان غير ما تصورت ، وغير ما املت

لا تظن ، رعاك الله ، ان هذه الحال النفسية حالت دون تقديري محاسن شعرك ، واستطيابي نتائج عبقريتك . فقد تصفحت الديوان تصفحاً عندما وصلني ، فاستوقفتني في بعض مقاطعه سهام نارية مغلفة بسحب شفافة ، ورائحة كبريتية ، يخالطها روائح الادغال العطرة ، كما استوقفتني رسومه ، وقد اجاد المصور في اكثرها رمزاً وفناً

ثم طالعت الديوان مطالعة المتلذذ المتأمل ، وقد ابهجته آفاق فيه لألاءة ، وارعشته هاويات صخورها هاوية وقصورها شاوية . وهو في الحالين معجب بالهام صاحبه وبخياله ، وبما في فكره من بلاغة ووضوح . ولست مبالغاً في قولي ان في ديوانك هذا شيئاً غير يسير من روعة الشعر الابدية ، وفيه للخيال والفكر امثلة نادرة من القوة والجسارة ، وفيه من السلاسة والانسجام والاقتصاد باللفظ ما لا تجده في كثير من القصائد الطويلة والدووابن الضخام

فاهنئك وادعو لك بالمزيد مما وهبت واحرزت حفظك الله واطال عزيز بقائك

الفريكه في ٦ ت ١ ١٩٣٦

صديقك : امين الريحاني

جواب المعلوف

صديقي الاستاذ الفاضل

طالعت رأيك القيم في « عبقر » فاستهواني منه ما يسحرني في كل ما تكتب . تجرد مطلق ، وصراحة نبيلة ، وشغف باطراء ما تستحب ونقد ما لا تستطيب . فاشكرك على تطويقك جيد « عبقر » بهذه القلادة النفيسة الغالية

شئت يا سيدي الاستاذ – من حيث لا تريد – حشري بين عبدة التقريظ وما انا منهم . تقول انك أغضبتني مرة في فجر نبوغي ، وتعني نقدك الاحلام منذ عشر سنين . فنفياً لظنك افيدك اني نشرت مقالك المذكور منذ اكثر من عام في مجلة « العصبة » عندنا ، واخالك لا تحمل عملي على غير محمل الاعجاب والتقدير وفي نقدك ما فيه من نظرات خبير ناضج وآراء فيلسوف حكيم

اما وقد عرفتك الى هذه الناحية من نفسي فقد جاز لي ان أجاذبك الرأي في ما كتبته عن « عبقر » لا حباً مني بالجدل بل طمعاً بالاستزادة من ترشف معين حكمتك ، والاستنارة بتحليل آرائك

تقول في مستهل نقدك : انني « حملت الى عبقر عقيدة واهية » ثم في مكان آخر : « انا لا نزال في القشور من اسرار الوجود » فماذا علي اذن ونحن لم نكتشف بعد سر الوجود ، اذا كنت في عبقر شاعر جمال لا شاعر عقيدة ، فيممتها غير ناشد للناس فلسفة من وراء الغيب بل متغنياً فيها بجمال الحياة وهناء أهل الحياة ؟

بل ماذا علي اذا جلدت شرور الناس بسوط العرافة « الشنامة الفظيعة » او اكبرت بهجات الحياة بلسان الجنة الجميلة الساحرة ، ما زلت قد فتحت جفني في عبقر على متناقضات الحياة جميلها وقبيحها ، فرسمت في ألواحي ما وقعت عليه باصرتي واحست به نفسي ؟

اما ان اكون حسب قولك « قد هدمت الجسر القائم بين حياة الناس والحياة الاخرى » لاعتقادك « بحياة أخرى بل بحيوات أخريات » حددت مكانها « وراء عبقر وفوق ابسطة الريح » فذلك معتقد يرتكز على الظن ويتكي على عصا الايمان ، والايمان عزاء للناس وأمل ، ولكنه

في رأيي ضعف منهم وخور ، ولو تسامت في البشر الثقافة الباطنية فكانوا ابطالا في المعتقد الذي لا غبار عليه للحدس والظنون ، اذن لاشفقوا على العمر القصير يقطعونه على الارض بالاذى والشرور ، وجملوا وجوه الحياة القبيحة ، ورفعوا بينهم ألوية العدل والحق والسلام ، حتى اذا انتقلوا الى الحياة الاخرى حلموا بالارض في السماء عوضاً عن ان يحلموا بالسماء على الارض

وما انا في شعري سوى قلب مؤمن
أطل على الاحياء من جفن ملحد
سلكت سبيلاً قد اكون ضللته
وربة غاوٍ بالغواية يهتدي

اؤمل ألا تعد مصارحتي تحاملا مني على رأيك وقد يكون فيه كل الهداية وكل الخير ، ولكنني جلوت سبيلي الى عبقر ، وما عليّ الا ان اجدد الشكر على احلالك شعري في المقام الرفيع واطرائك « عبقر » اطراء كنت أحسبه مبالغاً فيه لو لم يدبجه قلمك النزيه ، ولئن فخرت بمديحك بيني وبين نفسي ، فلكي ادفعها بحماس في حلبة البيان علها تفي بما قسط لها من خدمة الادب على قدر ما تستطيع

هذا وتقبل تحياتي مقرونة بالاجلال والاعجاب الخاص

شفيق معلوف

٢٤٤ 156 OK

اذنا

حلموا بالارض في السماء". هكذا

الشاعر رائد الفكر الرائع — السديد في —

في الخيال المشرق البعيد، البعيد

على الدوام. يجب ان تكون حياتنا الدنيا احسن ما في

الحياة البشرية كلها، انها كانت ~~هنا~~ هنا وهناك وهنالك

انها لفكرة مروعة، وان صح لتبع

مجال البحث. فهل تفضل الانسانية نعيماً

يتبعه الموت على موت يتبعه نعيم؟

لا بد ان تكون الكلمة الاخيرة لي،

فالشاعر، وهو ضيفي في هذا الكتاب، احق

بها. اذن: ان نحلم بالارض في السماء

خير من ان نحلم ~~با~~ بالسماء على الارض

واذن: اعود الى ~~[illegible]~~ الرحلة، ~~فالخ~~

فاختم هذا الفصل بالكلمة التي عنونته

بها — زحلة عروس لبنان — وازيد!

وحزنية بنوابغها.

=

١٤٤

~~٢٥~~ ١٥٧

الفجر المنيف

ناظم

ودعت رحلة صيفي فيها العلامة المفضال ابا الشعراء
الاستاذ عيسى المعلوف، وحملت عصا الترحال متوكلاً
على الله، واحببا ان يجعل الرحلة الاخيرة خير المراحل او
يجمعها بمثل ما تقدمها في الاجل من خير ونعمه،
لقد خرجي من زحلة، لبّث وجهي شطر الغرب الجنوبي،
وسرت في طريق معبدة للعربات، في سهل البقاع، بين
الحقول المزروعة، والكروم التي تكسو الربى، تلك الكروم
الوديعة الجاثية على الارض، وقد اختبأ العنب
تحت اخضرارها البهيج، واجملها منظراً
وهذي من الكروم اكثرها اخضراراً، كل جفنة منها
واكثرها رعاية، واغناها ثماراً،
تنطق بالشكر لليد العاملة فيها، الحارثة المشذبة
المثابرة، المستمدة حذقها من العلم الفني، واخلاصها
من الخبرة والحب، واختصاصها من الادارة والنظام،
كروم هي بهجة البقاع وفخره، في وسطها بيوت
تشوقها،
تقارنها ذوقاً واتقاناً - لا فخامة ولا ابهة - ظاهرها يحدث
واطئة السطوح وادعة
بيوت ~~وادعة~~ وتحملك على الاعجاب والاحترام. وبين تلك
داخلها، بداخلها
البيوت كنيسة مثلها وادعة وبناية اخرى ذات
قبة لا تشبه قباب الكنائس، كبناية
ابنائي الكنائس، انها القاري الفرنسي ~~[illegible]~~
الآباء اليسوعيين، وقد تجوزت فيها حقيقة
حقائق الحياة الدنيا، حقيقة تستدعي للاعجاب، وتشد
~~[illegible]~~ والاكتساب،
السكون العمل الفني، واحكم عرى الثقافة
- أتقن العمل الفني، واحكم عرى الثقافة
والنظام، وثابر واجتهد، ثم تكسب الدنيا - ١٤٤
والاخرة؟! أن ما تشاء في باطنه
والاخرة،
حالك، مؤمناً او ملحداً، عفيفاً او فاسقاً،
"حنونا"

زوقاً او عاتياً، ومن طائعاً مجتهداً صبوراً
صبوراً تظفر بالنعمة، خيرك الاكبر. وما
سوى ذلك باطل كله وقبض الريح. اعلم ذلك
ايها الاب المحترم، وانت عاملاً، لا لخيرك،
ولا لخير الناس، ولا لخير الوطن، بل للخير الاكبر
الذي يشمل الناس والوطن جميعاً، الخير الاكبر
الذي يبدأ بهيكلك وينتهي بعد
هيكلك بهيكلك!

قال النبي داود: يا بني، أعطني قلبك. وكأني
بالسوعي الاكبر يقول: يا اخي، أعطني ارادتك.
وكأني بكل اب يسوعي يقول للعامل او الخادم او التلميذ في ذمته: يا بني، أعطني
الارادة منك واليد والعقل، وخذ القلب يجذبك في
المسلك الذي يؤدي
الى الغرض المنشود وان كان المسلك مظلماً، ومعوجاً
وان كان شر الاعوجاج.
العمل العمل. الطاعة الطاعة. النظام النظام!
سبحان العالم بذات الصدور. دع المؤذن يؤذن بالفلاح
والتماس. دع المصلي يتشدق بكرمه، ودونك
ودونك السلطة التي تسيطر عليها. دع المتفلسف يتفلسف
بالحق والعدل والمساواة، حسبك القوة والسلام
والطمأنينة التي تقوم مقامها. يا اخي، أعطني الارادة
منك واليد والعقل، أعطك الخبز والقناعة، وأعطك
الحكمة للمؤرخة في ميزان السوق. وكل ما سوى ذلك باطل
وقبض الريح.
وهاك المثل الاعلى في الكساء – كردما هي البهجة للناظرين.
وكنيسة هي الستر المتين، ومرصداً لا يتثنى، وحمراً
فاخراً يباع للمؤمنين ولخير المؤمنين. فصل السلام
على اليسوعيين.
على ان ذلك ما يدهشنا حقاً ويغيظ. اليسوعيون
يعطوننا

ليعطونا المثل الأعلى في العمل، وجيران منذ أهل
البلاد يردن بجوارهم ويسعون بأذانهم، ولا يستغلون،
ولا يقتبسون. فما زلت تمر بالكروم البهيجة العامرة
فتقول انها للآباء المحترمين. وعندما تدرك حدود
١٤٥ تستقبل كروم الأهالي. إلا الطفرة بكسل
أرضهم، بالجهل منهم والإهمال. ان الفرق بين الكرمين
المجاورين، والوطني لكالفرق بين البقرة
كرم اليسوعيين وكرم
السمينة واختها العجفاء.
وقلت الى تعلجابا، فعجبت على لبيب الشريدي احد
ومن الأغنياء فيها... [illegible]
الأغنياء، فما اظنها تجدد نفعا بوم
جل هذا الغنى صلة خاصة، بين سائر
القياح فقد كان مرتبا
المزارعين اللبنانيين بنعومة صوته، ولطف ابتسامه،
ودقة السلوك. وقد كان يسوعيا في ادارة شؤون:
أعطني يا بني ادارتك ويدك وعقلك، واحمل قلبك
لك ولربك. هو السيد المطاع وهو السيد الوديع الحكيم،
كان يعمل عمله باسما مغربا على الدوام، يمد يده الى
كيسك فيوهمك انه يضع فيه، بدل ان يأخذ منه،
المال! قد يكون اقتبس هذا الرجل بعض علمه من باخلاق الناس
جيرانه الآباء المحترمين. وقد تكون تلك السجايا
سجايا فطرية. ولكنه وشركاؤه جاوروا
اليسوعيين، وما اكتسبوا شيئا مما ظهر في
ارضهم من مظاهر العلم الفني، او من مظاهر
الاجتهاد والاتقان في العمل.
اكلت لقمة في بيت الشريدي وواصلت السير الى الشتورة
التي كانت يومئذ كاملة ملك امرأة لبنانية تخمر
اسمها ... [illegible] من الحديد. ولقد جاورت
الآباء

١٦٠ [illegible]

الآباء اليسوعيين في مضماري الزراعة والتجارة. وكانت ... في النجاح
شأنهم - أوكاديمون. ومما لا ريب فيه ان خمر شتوره كان
مشهوراً كخمر الكساره، وكانت الخمر دية والبسوعية
فرنسي رهبان. ... شتوره - طريق بيروت
وفي ذلك الزمان ما كان في ساحة شتوره . يتثاءب الناس
فيها غير خان واحد وفندق وقهوه. وما كانت
فيها، وتتثاءب هي في ظلال الصفصاف. ويشرف اسم الفاتي
لتحلم بما سيكون لشتوره في المستقبل. فكم النعم
فيها، اخبر فعرج الى منزلة النزل العصرية، ومطعم الجياع
لبناني السائحين بسبب القديسين، مجاناً لوجه
والمساكين، وقصر الآداب ~~للإنسان~~

وهو في الحمر [illegible]

١٤٦٠

الله في الذ الرحابين وخطيبها ومحبة
يحيي اميرها
وعلى ذكر الآداب يحيي روضة النخبة المعتقلة الامراء والحكام،
بيّنه فقد كان جذبان
مارون نارضه وقصره خطيب المحافل السعيد في
كل صاحب لقب ومقام ~~[illegible]~~ الأكبر، والمهلل الأشهر
سورية ولبنان، هو المنبر الاكبر دولة خطيب
صناحب أشد أو سعيد اوخطيب نعمة الله رحمه
هو سليم ايوب ثابت، وهذا المفرق في الطريق
هذا وطرق في زلدا بين ... التوت الغض، وهو
حنو ما فيه، بين ... فيظلك وترافقك
مزين الحسن بالجود والصفصاف
الى عين البركه في الجوار الشريف. فهناك نبع ~~[illegible]~~
ان الاسم يستوي ~~والحمى~~ مسمّاه
صفصاح وبين دروات تليق بالملح والاقداح وظلال للصفصاف
وارفه ~~يطيعها كلما مر النسيم~~ يستكنه
صخر الرياحين طيب شذائها ينشر فيه فرح الاغصان
كلما مر النسيم، ويخفق طرباً لكل زورة من رياح الشرق
والجنوب، فتنفر ذرى الغادل وبي سيبه
انك تسمع في عين البركه همسة في همسها الحبة،
فتسلك ما انت مقتبسه من زمان ومكان
واذا كنت وحدك للأحلام، خمرها واذا كنت والحبيب
~~[illegible]~~ فهنيئاً للكون والعندليب.

الشايقة

~~٢٩~~

استأنفت السير الى المريجات، مسقط رأس الفوارسة
الثلاثة امين وفيليب وفيلكس، وولد المحامي حبيب فارس
رحمه الله، وزوجته الافرنسية الجنسية السويدنبورغية
المذهب - اقلية الاقليات المذهبية في هذه البلاد.
ما كنت أعرف احداً منهم في تلك الايام، فصرت بعهد الذكاء
والادب مرة الغريب. وعوضت بعد ذلك عما كان مني من جهل بما لا يزال
كائناً من صداقة مفروشة بالحب والاعجاب. ولئن تعدد الاخوان
فيليب وامين اذا انا اختصصت فيلكس بما يستحقه
مني ولا يزال الذكر وتنويه. وهو اللبناني المحب لنباتات
الجبل العطرية، الزاهرة والشائكة. ورب شائكة زاهرة
ازكى شذاء من زاهرة ناعمة. ١٤٧.

فيلكس فارس الاخ الحبيب، والزميل الكاتب
المفكر الحر ~~[illegible]~~ الناشر اعلام [illegible]
المشترع ~~[illegible]~~ [illegible] بنظرياته وفلسفاته، الناشر اعلام
الوطنية الحرة في البلاد خطابة وكتابة نثراً وشعراً، القادر في
الانكليزية ~~[illegible]~~ بالفرنسية خيال جمالها، المستتر في هذه الغابة
قواصل بيانه، ~~[illegible]~~ وقد بذّ عجيب سحائه مما وهب واكتسب
في سبيل الاجانب المسيطرين - الترك والفرنسيين -
الناظر منه عليائه، بعجب
فيلكس الملوّح من اغواره للجوزاء، فيلكس فارس
الرائح والجائي الى المستشفيات البشرية، فيلكس الذي عن الملوّح،
فيلكس الخطيب المفوّه، فيلكس الصحة الكبرى، صحة
فيلكس الاديب المروّع - فيلكس الكبرى، صحة
الادب وصحة السياسة! فلولاه حصر قواه ومواهبه
في الادب، لكان اليوم من اكبر ادباء العرب. ولولاه تجرد
للسياسة لكان اليوم السياسي الكبير فكراً وعملاً ونزاهة.
~~والامر الطالع~~ وقد ... ولكن للدهر في نوابغه بهجات،
ونغمات، وهتفات، وأنّات.

صعدت ~~[illegible]~~ من المريجات في الجبل الشبيه
بجبال الباروك الذي فيلكس فيه، فكنت مكتشفاً قبله
ما تعالى امامي وانعطف وتوارى حولي من الأسناد

القاهر

الفاحل، والري الماحل. هو الجبل العامر في شطره الشرقي
المشرف على سهل البقاع، العامر بالقرى والبساتين في شطره
الغربي المشرف على البحر المتوسط. الا ان الشطر الشرقي
لا يخلو من اصقاع تطفح بالكروم، ومن عدور مخضرة تسرح
فيها قطعان من المعزى، تنقط صخورها الدكناء
وتزركشها. فتبدو كصورة صورها بريشة الحبر احد المصورين.
هي الورود في أخف حالها، وخصوصا حول ضهر البيدر
القمة العليا في الجبل (٥٠٠٠ قدم) القريبة من
مستوى النبع في سفح صنين

ومن ضهر البيدر نزل في انحدار خفيف، والتفاف
حينا، يحجب الوادي المتمدد فيه سكة الحديد حينا ويشرف عليه، فاحيف ١٤٢
فنصل الى المدرج، ومنه الى المحجر القهوي، ان مختزن نفد
اعيان بيروت، صوفر العامرة، ونقطة دائرة الاصطياف
صوفر ذات القصور المنيفة، والقمار في لبنان. كنت فتى في ذهني
عندما خرجت من البيت بالعربة الاولى للشوق منشأ
مختبئين لهذه الرحلة، ها رحلة وصوفر، والثاني للفضول
عن صبي لابناء رحلة ونباتها في نيويورك، وعلى "الكازينو"
هوان التفرج على اعيان بيروت في لهوهم — العلم بالشيء ولا
مفخرتهم الكبرى، فاري للمرة الاولى
الجهل به — دولاب الـ"روليت"
وما كان يومئذ في لبنان غير "كازينو" صوفر
ولا كان في بلدات الاصطياف اكبر وافخم من النزل نزلها.
فالفضول اذن مغفور، (ايها القارئ)
ها انا ذا في القصر المنيف، والحمد لله. العفو! لقد
استعجلت النعمة. فاني لا ازال في الروضة الزاهرة القائم
في وسطها القصر، جالسا على احد المجالس المنثورة
بين اشجارها الباسقة، جالسا استريح واهيئ النفس
للنعمة الكبرى. ولكني وانا في تلك الحال، استشففت
ما حولي، ومن؟ فاذا بالعيون، عيون السيدات والسادة
الجالسين

الجالسين الى الموائد المدورة بين الاشجار يشربون القهوة
والشاي، اذا بتلك العيون تسدد الي سهام
التساؤل والتعجب. واذا بحواجبها واصحابها يتهامسون
ويتهانفون! ماذا؟ قيافتي؟ شكلي؟ لا انكر اني كنت
فاذاً شاذاً في الاثنين. ولكن المتمدنات والمتمدنين
والمهذبات والمهذبين، لا يستغربون مستغرباً في
الحياة. او انهم يغضون الطرف شأن الكرام.
دخلت النزل فراداً فيه نظراتهم الى نفه.
وشبت في ناحية من الدار غصّت بالناس، وهم
يدخلون باباً هناك ويخرجون منه. فتبعت
خطاهم الى الداخلية، فاذا انا في البهو الكبير الحافل
بالموائد الزرقاء يجالس اليها اللاعبون واللاعبات
ومشى بين الاندية، وقد ساد بهم السكون والوقار،
لا ادري ما اسميه. هو هو الغباء؟ هل هو القرف؟ هل
هو الهاجس يحتسب بالأمل؟ هل هو التحجر الروحي؟ ام هل هو مزيج
من جميع مخدّر للاعصاب والاذهان؟
خلت اولئك الناس في معبد يصلون. وتصورتهم
يتعاطون الحشيشة. وخلتهم في حجرات سماسرة، والرجال وايديهم في اكياس
النساء وايديهن في جيوب الرجال، وروح الحظ بجناحيه الاسود والابيض يرفرف
عليهم جميعاً. دعهم يلعبون، ويقرفون، ويبأسون -
ويدخنون [illegible]

هي ذي الـ "رولت" بمائدتها الطويلة الخضراء المدبجة
بالارقام وبالمربعات الخضراء والحمراء، المزدانة بتلك الدائرة العجيبة في
وسطها وبدولابها الاعجب. وهوذا القيم الموقر واقفاً
وراءها، وكرة العاج البيضاء بيده الصغيرة، والى جنبه آلة يعاطونه
يجرف بها المال ويدفعه. والناس امام المائدة يضعون
اموالهم على الارقام او على احد المربعات الخضراء والحمراء.
وعندما
اللعب!
اللعب

١٦٤ ٤٢

التالي

وعندما تنتهي عملية المشارطة يقول القيم بصوت
Rien ne va plus!
السيد الوقور، بالفرنسية:
ثم يدير ذلك الدولاب، ويطلق في جوزته دائرية كرة
العاج، فيدور الجميع دورة واحدة سريعة تكاد لا تميز
من سرعتها، ثم تخف بعد هنيهة رويدا رويدا، فتظهر
الكرة وهي تدور وتتنقل في ثقب في الدائرة
المجوفة الى اخر، من رقم الى رقم ولون الى لون، وعيون
اللاعبين شاخصة اليها محدقة بها، والقلوب منهم
الى ان يهدأ الدولاب وتكف حركته
خائفة واجفة حتى تستقر الكرة في الثقب الذي
فيه نصيب اناس وحظهم لآخرين. فيوزع القيم المال
على الرابحين، ويجرف اليه ما تبقى على المائدة. اللعب اللعب!
أخذت لا انتبه الى [illegible] لهذا الاختراع العجيب
من سحرت به. وحسبت نفسي سعيدا بان ادركت ما يجب كما لو غيبتني
وعلقته بالاموال. وبين انا في هذه الغبطة [illegible] الى احد الاعيبه
الخاسرين على ما اظنه ابتسامة منكرة، وارسل القيم من طرف
جفنه برقية الى الحاجب، فجاء الحاجب، وهو جبار عملاق
في بزة غريبة — سراويل من الجوخ وقفطان مقصب ومنطقة من حرير
الشبقلي — جاء هذا الحاجب بين اناني
قلب الغبطة والغبطة في قلبي، فوضع يده على كتفي يدا
ضخمة ثقيلة وقال: تفرجت؟ قلت: أتفرج،
قال: تفضل. قلت: لفرجة اخرى؟ فاعاد الكلمة!
"تفضل"، وهو يتقدمني. فاستوقفته سائلا: هل تعرف
غير هذه الكلمة؟
فاعادها دون ان تغير لهجته الناعمة،
وعاد يلقي يده على كتفي، وهو يفتح الباب. فقلت بشيء
من الغيظ: وما المعنى؟ أتطردني؟
فاجاب هذه المرة الى كلمته الفذة قائلا: ممنوع
الدخول لغير المقيمين في "الاوتيل"

/ [illegible]

١٥

الباب ٢٢ ١٦٥ OL

كنت اعلم ان الكازينو مفتوحة لكل الناس المقيمين
وغير المقيمين. ولكني لم اقل له: انت كذاب. هو [illegible]
عمايف وعازر يا بجبار. فقلت، وانا افكر في قباحتي وشكلي:
اني افضل الاوتيل "للاقامة".
فقال: تفضل ادلك على المكتب تسجل فيه الاسم الكريم.
فقلت: انني تحسنه النطق كما تحسنه الطرد.
ثم جاوزت بالسلامة فعبرت [للطريق عائدا] ولكنت ستندم على
فعلتك. ستندم. اين المكتب؟ اين المدير؟
وكان المدير انعم صوتا، واعذب منطقا من الحاجب.
— "الاوتيل" ملآن، موسيو.
— ولا سرير فارغ في غرفة صغيرة.
١٥١ — ولا سرير واحد يا موسيو.
— انام على الديوان في الدار.
— غير ممكن، موسيو. غير ممكن.
فهمت كل ما وراء هذا اللطف المنكر. الضيوف —
يريد ان يحافظ على راحة الضيوف — وجلوسا على عيونكم.
فمشيت عائدا الى الباب، فمررت بمرآة على الحائط.
فوقفت لحظة امامها، وقلت في نفسي: انك حقا
شيء مفزع.
ولكني عقدت النية على ان انزل في النزل الفخم
تلك الليلة، وألا اكون مدحورا [illegible] جديدا.
خرجت الى الجنينة ساعة الغروب، مقفلا
القطار من بيروت يصل الى صوفر [illegible] ويعودون.
المصطافين الذين يذهبون كل يوم الى اشغالهم من يعرفني
ولا بد ان يكون بينهم [illegible] وينقذني من عار الخيبة.
فيشنعني على "المتمدنين"،
جلست على احد المجالس في الجنينة انتظر،
وما كان موعد وصول القطار بعيدا. وقد وصل الحد
طردت من النزل، نعم
رالى

١٦٦

بعدئذ
في اليوم التالي

الى جريدة بيدرو، فنشرتها بشيء من المبالغة، فنقلتها الجرائد
في الوطن والمهجر، وجميعها ليليق بالمبالغة، فقال الثاني
ضرب الحاجب بعصاي فشججت رأسه!
كنت في تلك الايام نخيلا ابي استعذب قول المتنبي -
لولا مخاطبتي اياك لم ترني. وما كنت احسب نفسي مثل خياط،
فوقي بشعري. وقد قلت لك ان الحاجب عملاق جبار،
ونسيان اقول ان شاربيه ثنيان طويلان مفتولان معقوفان
عظيمان. يضرب صاحبهما بالسيف اعتزازا بهما، ودفاعا
عن عظمتهما. فهل يعقل ان اكون جازفت بالسلامة
تغير تلك الكلمة: ستندم على فعلتك هذه
هي الحقيقة بكاملها
وبعد هذا التصحيح في الرواية اعود الى القصة
بما تقدم من التدقيق والتحقيق، فلا تعجب منه

١٥٢ —

من عجائبات التاريخ.
جلست في الجنينة انتظر الفرج من عالم الغيب
وما همتني عيون الناس، وقد ازدادت عددا وشنفا لما
ذاع في الحال من خبري داخل المنزل. واظنني تحت
ادبنا وهب، فلا ترى عيني تلك العيون. بل اغمضت
جفني وانا لا ارتاح التفلسف تبتسم من التفلسف واعتصم
بالصبر. في تلك الساعة، وانا في هذه الحال،
شعرت بيد تهزني هزة لطيفة، فانفتحت
عيناي على صورة الفرج والحبور. كان الناظر قد
وصل من بيروت، وكانت اليد يد صديقي العزيز الأكبر
جرجي ديمتري سرسق، جابر عثرات الكرام في زمانه
— هذا انت يا امين! متى جئت؟ ولماذا
انت هنا؟ قم ندخل الى الداخل.
فقصصت عليه قصتي فضحك، وهو يتفقى منظره
بشعري وشامت قدمي. ثم بدا في وجهه
الغيظ. فأخذني بيدي ودخلنا المنزل. وهناك
رحي

تابع ١ ~~٥٧٠~~ ١٦٧ ٤٥

في مكتب المدير حيث صديقي جالس غاضبًا:
— أتعرف من اهنت؟ هذا فلان — هذا — هذا (الخ)
ابن مرعي. تعال يا مرعي استغفر الافندي. (يجيء الحاجب
فيستغفر جرجي بك ويستغفرني)
ثم الى المدير: أعطه احسن غرفة عندكم
فينادي المدير احد الخدم ويأمره ان يدلني على الغرفة.
وبعد قليل يجيئني الخادم وبيده من صديقي مشط وفرشاة.
ثم يجيء باشارة منه، متاع الاحذية.
وبعد ان نفضت عني غبار الطريق، وغسلت، "وجددت"
اللمعة الى حذائي، وبعد ان عادت
بالمشط شعري، وبعد ان عادت... جرجي بك ينتظرني للعشاء،
نزلت الى الدار حيث كان جرجي بك، وكان اكثر الضيوف قد
دخلنا ردهة الطعام الطويلة، وكان اكثر الضيوف قد
جلسوا الى الموائد المتعددة فيها، فمشينا جنبًا الى جنب
الى المائدة الصغيرة المختصة بصديقي، وانا معجب بجرأته الادبية
التي احتقرت، على ما كان من قباحتي وامري، واقتحمت بي ١٥٢
تقاليد الاعيان وترهات كبريائهم. فاعاد الى شيئًا
من بهجة الحياة، فنظرت الى الضيوف لارى اين تلك
العيون التي غرزتني في الجنينة فحملتني على الفرار صاغرًا.
اين هي؟ هي الآن مغمورة مخفوضة. هي الان
عيون كرام — كرام الناس بالقوة. إعجب لهذه الهيئة الاجتماعية،
التي تُذِل، وتُذَل، بقدر ما فيها من جهل وكبرياء،
وبقدر ما فيها من تسكع وخنوع... جرجي
ديمتري سرسق صديق الرجل، السكتي... بهوية اصدقاء
جرجي ديمتري "من شيلد"، عظيم النظر...
وقد أقيمت في المنزل تلك الليلة حفلة رقص
فوقفت وصديقي في البهو الكبير نشاهد الراقصين، واكثرهم
من الشباب الاسمية، والافتات في شتى الازياء
الباريسية، والغانيات كلهن مفتوحة الصدر
دكليته

٤٦ ١٦٨ ابراهيم

«دكلتيه». وقد كان يُحسب هذا الزي في تلك الايام

ضرباً من الخلاعة، فقلت لصديقي في سذاجة وطنية:

لا اطيق مثل هذا المشهد بدون احتجاج. فهل يُباح

في هذا النزل؟

ما جاوزت سذاجتي عليه فجاراني بها قائلاً:

أتتيهن ترى؟

وأشرت الى دمشوقة شقراء، في ثوب بنفسجي

اللون، فناداها باسمها، فاقبلت تتغنج بالافرنسية،

فقدمني اليها قائلاً: هذا فلان الكاتب الشاعر لي.

فقهقهت وهي تقول: Vous vous moquez de moi.

وراحت تديره، فكفرت واسترخت.

قال صديقي ضاحكاً: أتريد غيرها. فقلت: الشكر،

أكتفيت.

وفي صباح اليوم التالي ناديت الخادم وسألته اذا كان

في النزل ماء حار للاستحمام.

فقال: حاضر، سيدي. سأشعل النار في «الاتون».

وبعد ربع ساعة تُشرف الحمام، ثم جئت

انتظرت ربع ساعة، وربعاً آخر بعد ذلك، ثم رجعت

فقتحت الباب. فرددت مدحوراً.

١٥٤ «اشرف» الحمام الذي انتشر منه الغرفة كما لو كانت فوهة

بركان مستعر. واستمر في ذلك فملأ الدار، فهرع الخدم

وهم يصيحون: النار! النار! فخرجوا من غرفهم رجالاً

ونساءً في ثياب النوم، وقد استولى الخوف والذعر عليهم جميعاً

(السعاة منهم في)

النار! سمعها الضيوف،

وتقافزوا الى الطابق الاسفل.

فتزاحموا على الدرج

ماذا جرى؟ اضرم الخادم النار في موقد الخزان

الماء، ومضى في اعماله الاخرى. وكان قسطل الخزان

مكسوراً، فامتلأت الغرفة، حُسبت حشواً، بالدخان.

ولقد ادرك ذلك احد الخدم فوقف في الباب

~~دالاً~~ صائحاً:

يهز رأسه، ووقفت به الى داخل الغرفة

أهز

الشباك

حرّ يديك. إفتح الشباك.

وبعد قليل جاءني ليقول: راح

تفضل شوف.

الدخان. طار كله من الشباك. في الخزان

فترفت المكان ثانية فاذا بالماء الحار

قد برد!

سألت الخادم: ولماذا لا يصلحون القسطل؟

فاجاب، وهو يهز برأسه: لو كان القسطل

وحده كانت المسألة هيّنة

قلت: وهلا يستحم الضيوف؟

قال: مرة في الزمان يطلب ضيف غسل جسده

الحمام. واليوم نصلح القسطل، وغدًا ان شاء الله

يكون ذلك ما تريد.

قلت: اشكرك. اكتفيت.

نعم اكتفيت بما في النزل الشريف، والفطور

المنيف من طيبات الحياة.

وقد كان في النية ان اكمل الرحلة ماشيا الى

الفريكة فأمر بجماناً في طريقنا الى حلبا، ومنها الى بعبدات

فتكلفنا، فيبت شباب.

وكان صديقي جرجي ديمتري سرسق، رضي الله عنه،

وقال بشيء من التأنيب: أما اكتفيت

الى على ذلك.

بستة ايام من المشي؟

فقلت: اكتفيت، ان شئت انت.

وقد رافقته، إذ عادنا المشتبه، في

القطار الى بيروت

أمين الرّيحاني

قلب لبنان

الرحلة الثالثة: بلاد جبيل

١. السّرايح

٢. "محفور" الخوري

~~وكان لبناني براهبين اثنين~~

وانتم تتعلمونه ذنب وتتبعونه

ولاشك امرت هدم – بعد ايام

طفا – الاحرار اب حيدة

وفي برشامه بلد درنا في

حسبه العمل هذا اسبوع الايام

~~في احد~~ على [illegible]

يجتمع الكل على [illegible] تنبه

في الجبال حول خرائب

لئن هدموا

القديس منى سل

[illegible] الى ارومه

اجرانا [illegible]

لسا ابكي البابا [illegible] ارتاب

ولقد [illegible] هد الصى [illegible] الاحرار

بث الاحرار

يشفقه القسم الحياده

وهو زبل صعا [illegible] الكرومه شب هو

لسبب في الفضاء [illegible] نسيج

الاحرار

المسابيون

المسيح ~~[illegible]~~

الرحلة الثانية

"قعقور" الخوري

بالرغم من الغزوة الاولى المخفقة

ما ذهبت جبيل من خاطري، ولا عرى ذكرها
شيء من الاهمال او الفتور. فقد زرت ذات
يوم المدينة المشهورة، على الشاطئ القديم، ونزلت
ضيفاً على المدير في القلعة (كان لي في تلك الايام،
اصدقاء في دور الاحكام) وسمرنا على ذكر
الاجداد الصناديد، الذين سخروا الامواج والحيتان
لاغراضهم البعيدة، فحلمت تلك الليلة اني
امير الاسطول، [illegible] بامر عز بعل الملك
المحاصر بلاد [illegible] الغول!

وبعد ايام حننت الى الجبل في التيار،
وانا لا ازال انشد البلاد التي تدر لبناً وعسلاً،
البلاد التي كان يحدث عنها جدي ووالدي،
بلاد الاجداد الجدد، بالنسبة التاريخية، فرحلت
الى عمشيت، واقمت في ظلال الفضل
والكرم فيها، فعلمت أن آباء من أحبهم قلبي
كانوا يعرفون ويحبون الجد والعم والوالد،
ويتشفعون، اكراماً لهم، كل من جاء من وادي
نهر الكلب [illegible] وادي نهر ابراهيم.
ولكن عمشيت [illegible] بلاد جبيل، وما انا ممن
[illegible] يرضون بالوقوف في الابواب. فان بجّة (1)
وان حصاد، وان الثلث الآخر من البلاد
مرت الايام والليالي، وتخللتها الاسفار
في المغارب والمشارق، وانا في اشد ازدحام
الافكار

(١) يقول اهل جبيل: بجه وحصاد ثلثان البلاد

الافكار والعواطف، اقول للنفس من حين الى
حين: وبلاد جبيل، يا بنت الحلال، متى
نشد اليها الرحال؟

شددنا ذات يوم الرحال على الطريقة الحديثة،
فراحت السيارة تقدم بالدقائق الاميال، وتطوي الشاطئ
طيها للجبال، طيًّا برقصه الثعابين، ويجمد الدم
في رقاب البعارين. عليهم بالنية الشيطان،
ودعي الفارضه يسوق الاظعان.

ومررنا كالسهم في جبيل، ودخلنا عمشيت
وقد انطلقت من مدفع جبار،
وخرجنا منها كالقنبلة، ورحنا نصعد - والحمد لله -
في البلاد المتسودة المحبوبة، نصعد رهوًا، بين
الربى والبطاح، المزدانة بالشيح والقندول، الخالية
من الانس والجن، فبلغنا الوادي الفائحة
فوقه حبالين، فاذا في الطريق التي تمشي بين التربة ثلاث
من الغيد في زي اوروبي، من الرأس الى القدم، يزلن
الوحشة من ذلك الوادي، ويدخلن السرور على
القلوب. فهلا يليق ان نمر بهن كما
مر سائق الاظعان بذات الشيح؟

اوقفنا السيارة وحييناهن، فرددن التحية
باحسن منها، وبششن وهششن لنا، ودعوننا الى
بيوتهن. فما هن في الكرم والمعروف نبات الجبل
المبارك، لاغبار عليهن. فما غير الزي الاوروبي
ما فطرن عليه من بساطة الروح ودماثة
الاخلاق. لا وادي الفينيقي ورب المسيحي،
ولا القرمز على الشفاه افسد المنطق منهن،
ولا القصي بالايدي يقتصبن عليها كذبت ما في
القلوب.

ودعنا /

ودّعنا الطيور التي كانت تزقزق على اغصان التين،
ترحيبًا بنا، وبالغيد الساحرات قلوبنا، واجتزنا
جبالين التي تكاد تكون لامحجورة لولا مشاهدنا –
وهجران مع حسان – فاستمررنا في التصعيد الى
القرية المجاورة لها، فعرجنا على بشامات، وزرنا
بيتها الاعلى، وفيه كاهنة واسقف وبنات
لبنانيات، ما عرفن من المدنية غير حسناتها. تباركت
أحشاؤكِ ابنتها اللبنانية الجبلية.

وما انا بالغريب في بيوت الكهان، وان كنت
غريب الايمان؛ فقد كان جد جدي لابي اسقفًا[1]، وكان
على ما يقال من العلماء الصالحين، بل من الاذكياء اللامعين.
حدثني احد شيوخ العائلة عن احد شيوخ آل الخازن قال انه
شاء شيخ خازني ان يختبر علم المطران باسيل عبد الاحد[2]
جدي، فخاطبه ذات يوم قائلًا: لكل ما خلق
الله منفعة يا سيدنا، الا هذه الصخور. فما الفائدة
منها؟ ولماذا خلقها الله؟ فاجابه المطران باسيل فورًا:
هذه الصخور يا ابني، هي عظام الارض.

وفي البيت الاعلى ببشامات كاهنة صادع
الصخور فصرعها، وهيأت عملًا على ما قاله الاسقف جدي.
فقد كست "عظام الارض" ثوبًا من "اللحم" – من التراب
الذي جلبته اليها – ثم غرست الاغراس والعرائش، فازدهرت
واثمرت، وفرشت الارض عطفًا وحنانًا، بجلدها.
وللكاهنة الجبار ببشامات أثر آخر في مغالبة
الصخور، أثر فريد عجيب، هو ظاهرًا حائط ضخم
مستدير، قائم على صدر الجبل، من وسطه الى اعلاه،
هو يستوقف نظرك، ويوقظ فيك الحيرة والاعجاب

(١) ما كان محظورًا في تلك الايام ان يسام الكاهن المتزوج اسقفًا.
(٢) عبد الاحد اسم العائلة والحاجي نسبة الى الرحالة – والبيت القديم بيتنا الاسمر – الذي كان بكفرنا جوار

وانت في الطريق صاعد الى البيت. فما هذه الاكمة
يا ترى، وما وراءها؟ ما رأيت أتونًا بهذه الضخامة.
وليس في هذا الجبل الماء الذي يستوجب السد. فهل
هو حصن فينيقي، ام اثر روماني، ام صليبي؟ ما تمالكنا
بعد وصولنا ان سألنا، فقيل لنا: هذا قعقور
(قُهْقُور) الخوري.

ثم مشينا والكاهن اليه، فاذا نحن على سطح
(هو من الطرف الى الطرف نحو خمسة عشر مترًا) وشكل
مقبرة، في شكل هلال
ذلك علو الحائط الذي رأيناه من الطريق. قلت انه
مقبرة، والكاهن يقول انه قُهقور. فهل انا اعلم منه
بما هو من نبات افكاره، ومن جليل آثاره؟ اقول، نعم.
هو مقبرة لولا الكاهن المحترم الجبار دفن فيه كل ما كان
حول بيته من الحجارة! فبدل ان ينقل العمال تلك
الحجارة من ارضه، ويرمون بها في منحدر الجبل
فتنتهي الى الطريق × فتسدها، قد بنى ذلك الحائط
ان هو يسدًّا منيعًا، وملأ بالحجارة الحفرة التي تكونت
وراءه.

هي ذي المقبرة وفيها "عظام الوحشة"! ومن نبات
افكار هذا الكاهن في العمران انه بنى في اثناء الردم
مربعات "صغيرة، مترًا بمتر، هي الان — او عندما رأيناها
حُفَر في السطح، عمق الواحدة ينيف على المتر. وهذه
الحفر ستملأ ترابًا، وستُزرع فيها الاشجار المظلة.
وسيجلس الكاهن اذ ذاك تحت تلك الاشجار، فوق
"عظام الوحشة"، هو وآله وصحبه، الى مائدة صُفّت عليها
الجفان الصغيرة، وفي وسطها زجاجة العرق! هذا
ما قاله لنا، حياه الله.
ومن يقول بعد هذا ان اجدادنا كانوا جبابرة
وانا نحن اقزام؟

/ قد

١٦٦

قد لا تجد في جبل لبنان كله صنواً لهذا
"القعقور". ولكنك، اذا ما جنحت عن طريق
"التمدن"، وتغلغلت في القرى، تجد لصاحبه
الكاهن، بين الفلاحين، اخواناً في العزم والهمة والنشاط.

هذا الكاهن هو والد المطران بولس عقل.

في المطران بولس، حياه الله، ووفقنا الى الصواب وإياه،
شيء من صخور لبنان، واشياء من ثماره. فهل يسمح بالاستعارة؟
العفو، العفو. لِنَدَع "القعقور" في مجده وجدته.

اما اني شعرت في ذلك البيت اني في بيتي فلأسباب
ذكرت بعضها. وازيد هاهنا ان اهله لبنانيون جبليون،
وانا لبناني جبلي، ابن الاثواب، سوداء كانت او
ارجوانية، لا تخفي ما في القلوب.

١٦٧

ولو لم يكن غير "القعقور" لكفى به صلة
للحب والاعجاب. ولكن هناك غير "القعقور" وغير
المطران بولس. هناك الربات المهذبات الواقفات
في تهذيبهن بين الحرية والتقليد. فالعقل حر،
والنفس مقيدة بتقليد لبناني هو ضمانة الاخلاق والسلوك.

حدثتنا احداهن عن جبران معجبة ناقدة.
وقالت انها تقرأ لذلك الريحاني، وترتأي رأيه
في امور كثيرة، وطنية واجتماعية.

— ودينية؟!

سبحانك اللهم! فان انت شيدت
الفواصل بين العقول، ورفعت الجدران عند
حدود العقائد، في ثغور الشك واليقين، فما
أقمت، جل جلالك، حداً او حاجزاً بين
القلوب الطاهرة.

/عدنا

١٢ ١٨٤

عدنا من جبالنا وشاطئنا ، حاملين اعذب

الذكريات ، وآسفين ان النهار قصير دون رغبتنا بالاستمرار

في السير ، متغلغلين في قلب البلاد ، مستنشقين

نفح النفوس الطيبة ، والقلوب الزكية .

وكنت افكر ، ونحن عائدون مسرعون نطوي الجبل والشاطئ طيًّا

ادهشنا الغسق ، وأغاظ الليل البطيء الخطوات ، كنت

افكر في اولئك اللبنانيات المهذبات ، اللواتي لا يزلن

بعيدات عن برق المدنية الخلّب ، اولئك المتواريات

في القرى القاصية ، وافكر كذلك في شبان المدن

الراغبين بالزواج - الشبان العاقلين وان خلوا في

هذه الايام - كنت افكر فيهم والله وفي اولئك

الكريمات ، واقول لنفسي ما اعيد قوله الآن :-

فتشوا في الجبال تجدوا ، وامعنوا في

التفتيش تجدوا ، وتسعدوا .

١٦٨

بلاد جبيل وأدرجاج

الرحلة الأولى

بقلم أمين الريحاني

الرحلة الأولى

الشوير (١)

يقول العالمون بتاريخ الأُسر اللبنانية، وفي طليعتهم صديقي الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف (وهل في الطليعة أو في المؤخرة غيره؟) ان اكثر اللبنانيين في وسط لبنان وفي طرفه الجنوبي انتزحوا قديمًا من الشمال، وخصوصًا من جبيل. وما سألت لبنانيًا أو بيروتيًا جبلي المحتد: من أين أجدادك؟ إلا وأجابني: أصلًا من جبيل. وإن أنت سألت أحد المتطلعين بالعلوم الفينيقية، أو التاريخ الفينيقي، أو المغرمين بالفينيقيات (أي بالأشياء الفينيقية المعقولة والمنقولة، وغير المعقولة والمنقولة) إن سألت هذا الفاضل: من أين نحن؟ قال لك فورًا: كلنا من جبيل!

تباركت جبيل، وتباركت ثمره - ثمرات - بطنها. أنها على ما نظن مهد الجنس اللبناني. وقد يكتشف غدًا الأثريون في ما ينقبون، تحت الأرض الكبرى، على الشواطئ المجيدة وبين الصخور الخالدة، ما يمكنهم من الإثبات أن جبيل هي مهد الجنس الإنساني، ومنها تفرعت، وانتشرت شرقًا وغربًا، مدنيات العالم كلها. إني أدعو لهم بالتوفيق، وأعلل النفس بالنبأ العظيم.

١٥٩

~~بانتظار البشرى~~ حسبي اليوم ما هو منبوع الجبور وعمراني

فإني مسلم في التاريخ الحديث - المعاصرين. كيف لا وقد نزح أجدادي منذ مائتي سنة، من قلب تلك البلاد - من بجه (نحن بجانيون) - وتوطنوا بيت شباب وأم فلك، ومزارعها، القائم بعضها على كتف الوادي الذي أصبح

(١) الشريك في اصطلاح اللبنانيين هو الموكل بالملك، القائم به مناصفة أو بثلث ريعه.

اصبح يدعى بوادي الفريكه. وقد كان جدي لابي رحمهما الله
يحن دومًا الى تلك البلاد، ويكثر من الرحلات اليها،
فيقبّل ترابها بعد مشقات السفر، ويعود الى اهله
باحمال من خيرها - من تبغها المشهور وتينها المجفف - وبقطيع
من مواشيها.

كان جدي اذن تاجرًا، وكانت التجارة في تلك
الايام تقوم على الاغلب بالمقايضة. فماذا كان يحمل
الى بلاد جبيل غير المال. لست متيقنًا انه كان
يحمل مالًا. فهل كان يحمل سيفًا ويروح غازيًا
بلاد اجداده، فيعود منها غانمًا ظافرًا، ام هل
كان يسوق اليها قطيعًا من الغنم، ومعه حمل من الحرير،
ويعود الى اهله بقطيع من البقر، وباحمال من التبغ والتين؟

ما خطر لي في حياتي ان احقق هذه المسألة.
ولكني اعلم ان تجارة جدي كانت مثل سائر التجارات،
مصدرًا للكسب، وعرضة للخسارة. وكان
الكسب، وكان الدين، وكان على ما يظهر العجز
لدى بعض الجبيليين. فاضاف جدي الارض
الى مكاسبه، وعاد كأجداده ملّاكًا في جبيل.

وقد ورث والدي بعض تلك الاملاك،
قبلي بها. ما استطاع ان يبيعها بما يدنو من
اصل الدين، ولا ان يستثمرها بواسطة شركائه
ويتفننون في الاستثمار، ولا ان ينقلها الى وادي
الفريكه. فبقيت له - وعليه - الى آخر ايامه،
فكتب لي - وعلي - الاهتمام بها
مثله والاغتنام!

وقد

٢

وقد رحلت مرة، مثل جدي ووالدي، الى بعود جبيل،

استقصي خبر ذلك العقار. ورحلت الى نهر ابراهيم

في عربة أثرية، عليها جلال العتق والقدم، يجرها حصانان

من صوامر الخيل الوصيلة، هزيلان جائعان حزينان. وهناك (١٦)

وما كان بجوار النهر ~~[illegible]~~ الوحيل والابغال،

وقفنا

فاستأجرت ما وجدت — حمارًا وابنة أتان.

~~بجوار النهر.~~

وبما ان صاحبه لم يكن يعرف الطريق استأجرت كذلك دليلاً.

ورحنا نصعد في وادي نهر ابراهيم، وادي ادونيس،

في موكب فينيقي قروي، يتوسطه السيد راكب الحمار،

ويتقدمه الدليل، ويحمي مؤخرة الحمّار، وبيده قضيب من

الصفصاف.

وكان الحمّار شغفًا بصوته، فاطلقه بالمواليا،

فازعج الدليل، فأسكته. ثم خطر للدليل ان يقوم

مقامه في إطرابي وتطريبي، فكان صوته انكر من صوت

الحمّار، فأسكتّه. ورحنا نصعد في ذلك

الجبل ساكتين واجمين، حتى وصلنا الى المكان الذي

يشرف على البطحاء المدفون فيها كنز العائلة.

اني لا ازال اذكر ذلك المكان واذكر اسمه.

~~[illegible] ان [illegible] للرهبان~~ واني اذكر كذلك

هو بير الهيشي في الطريق الى قرطبه.

ان فيه ديرًا للرهبان، وان رئيس الدير، عندما شاهد

الموكب — سيدًا على حمار، ومعه رجلان يمشيان امامه

ووراءه — ظنه موكب القائمقام او ابن عمه، ودعانا

للاستراحة.

وما كنت في قبول الدعوة من المجبورين. فقد شاهدت

في الدير كاهنًا كان ~~[illegible]~~ عرفته في نيويورك — كان يرعى الخراف

المارونية هناك، بل يخرفه — فشمت به، وما

أطلت

كان دفن في ظلمات العهد السعيد الى بنو العهد البرونزي والحديد. ولم يعثر في تلك الناحية من الحجر على طريق حتى للعربات.

أطلت الوقاحة. ولو الرئيس، بعدما عرفني، ألح
في الدعوة لفنجان من القهوة. فاكتفينا بالماء من إبريقه،
وودعناه شاكرين.

نزلنا في العقبة من بير الهيشي ماشيين كلنا،
نسوق الحمار امامنا، حتى بلغنا البطحاء. فأعدت تنظيم
الموكب، اكراماً لأهل القرية، وخصوصاً "للشريك" الذي كان
يفاخرهم بـ"معلميه". اي نعم. استأنفت الركوب،
وأمشيت الدليل امامي، والحمار ورائي، وسرنا بهذه
الأبهة الى قرية الحلوف، المخبأ فيها الكنز العظيم. ١٦١
وهناك نزلنا على "الشريك"، فرحب بنا ترحيب
ملهوف، لا مسعود. ولكن "الشريكة" امرأته ذبحت
لنا الذبيحة - دجاجة حبشية ~~أطعمها~~ ، وجعلتها
بيت القصيد لمأدبة، فتحت بزيتون من ارضها،
وختمت بجبن من ضرع بقرتنا.

ثم جاء اهل القرية مسلمين مرحبين، يتقدمهم
الكاهن الذي اثنى على "الشريك"، وشهد أنه من اقلب
احذق الناس وانشطهم في [illegible] عرفت بعدئذ ان الوثنيين
قبرا الشيخ زنكي) لم تحلم القرديون، فأ[illegible]
هلهم في امبريكه، وعنه سعر الشراقة في جهتنا، وبسعر
الزيت وبسعر السمن، وعن البقر واحوالها،
والمعزى ومرعاها، فأحرجوا في سوء [illegible] الدجاجة
أرق

ثم جاء اهل القرية، يتقدمهم الكاهنه، مسلّمين

مرحبين - ومستفرحين. تحدّثنا - والحديث ذو شجون

كما يقول الكاتب ابنه رشيق قرقرت - بل

كما يقول صاحب المقامات.

صوّحونا بالسؤالات

سألونا عن اهله في امريكه، وعن الشرانق

في حياتنا، وعن اسعار القمح والشعير

وعن الطابون والزيتون، وعن البقر والحمار وسوقها

والزيت والزنبور، وعنه وعنه، فاحرجوا حتى

والمعزى ومرعاها،

فجلجلت الدجاجة في بطنه الفيلسوف العليج

"الفيلسوف العليج"

حكاية صحيح.

٥ - ١

وكأنهم سمعوا او احسوا او شعروا بذلك فاسرعوا الزينة السنية

~~في بابي، فتجلت وكادت تسبح ...~~ . وقرأت

[illegible]

في عيني الآية، ففرشت لي ~~...~~ على

[illegible] ~~بعض~~ القصوى،

السطح، تحت خيمة من الشيح كان لا يزال طرياً طيب

الريح — فرشت فراشين، اكرمها الله، الواحد فوق

الآخر، وما تمكنت بما في قلبها من اللطف والحب، من

ازالة ما في حشوهما مما لست اعرفه. ومن غير

الساحر يستطيع ان يعمل من الفراشين الخشنين فراشاً

ناعماً وثيراً؟ بيد اني كنت شاكراً للشيخ طيبه،

وحتى استنشقه كمن يتمنى السكرة منه، فنمت اذ

ذاك على الحجارة.

ولكن النجوم أفسدت على الشيخ عمله. فقد كانت

الليلة صافية الاديم، وكانت الكواكب كلها في احسن وابهج

احوالها. فقمت ارعى النجوم، كما يقول العرب، وصحيح

ما تعلمته من علم الفلك في ليالي لبنان الصافية.

وكنت وانا اقيس المسافات، بين الثريا والميزان،

شدّاً /

٥ - ب

مثلاً، او بين الدب الاكبر والاصغر، بالقياس النظري،

اقول في نفسي: يمكن منها المتمكنة اجتياز هذه المسافة على حمار

بساعة واحدة او بساعتين. ثم استنشق نشقات

كبيرة من طيب الشيخ، وانا اقول: اي اسلّمك

روحي. فما كان سبحانه وتعالى يجدد لدأ البها.

وماذا بعد ذلك غير الاحلام بتعليل ونظم الاشعار؟

اظنني نظمت بيتين من الشعر باللغة الانكليزية، لارسلهما

الى صديقي مستر بورك، انبئه خبرها في رحلتي هذه العجيبة،

اي رحلتي على حمار ابن آتان، من الثريا الى الميزان!

وكنت بعد كل شطحة من شطحات الخيال، وكل

نشقة من نشقات طيب الشيخ، اعود الى حلمي الذهبي، الخفيف والزوال

فاقول لنفسي اليقظة الارقة المتضجرة - اقول لها

مطمئنًا: غدًا يدفع الشريك ما تأخر من حسابه - فأعود الى

قسمتنا من ريع الارض مدة عشر سنوات -

الفريكة، كما كان يعود اجدادنا من رحلاتهم على [illegible].

وجاء

٥٨١٧٦

٥ - ت

وجاء الصباح البسّام، مبدّد الأحلام، فأفضى

الشريك إليّ بأخباره التي بدأت وانتهت بالويل

والبلاء. وكانت بلاياه، يا حلمي، من الزمان،

ومن الحكومة، ومن المرابين، ومن الجيران المعتدين.

والبلية الكبرى، يا حلمي ..

فهمت بالاستقراء والاستنتاج، قبل أن فاه ببيت

القصيد، أن ~~الكنز~~ الكنز قد ذاب، والأحداث في

السؤال عن قسمة أو حساب. ولكن المخيّلة

خذلتني، فما ماشتني إلى أقصى حدود النكبة.

فبعد أن شربنا القهوة، وأكلنا العنب والتين،

وجاءت الشريكة بأحبولة استعارتها من بيت كاهنة القرية،

كشف الشريك الستار

عنه

الباكي

٤٧٧

~~[illegible]~~ عن كل ما به . فعلمت أن البيت
مرهون ، والملك غارق بالديون ، والدهر ،
يا معلمي ، ملعون ابن ملعون .

فهل تشبهت انا بوالدي الكريم ، وبجدي
الكريم ~~[illegible]~~ ، رحمهما الله ، فرفعت ~~[illegible]~~ يد الدائن عن
البيت ، وانقذت الملك من براثن المرابين ؟!

وقد اقسم الشريك بالله وبمريم العذراء وبجميع
القديسين انه ليعيد الي المال لعد سنتين ،
وليعيد الارض الى سابق خيرها وخصبها ،
فتجيئنا اذ ذاك قسمتنا في كل موسم -
وحياة الله يا معلمي ، وحق جميع القديسين !

- - -

ركبت حماري وسقته مسرعًا صوب
العقبة ، فعدا الدليل والحمار ورائي ،
فصحت بهما : المواليا ، المواليا ! فرفعا
عقيرتاهما معًا بالغناء ، فاستعذبته
والله في تلك الساعة ، وشاركت به .

—

١٦٢

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة الرابعة: أرز جاج

١. في الطريق (الى جاج)

٢. الضيافة اللبنانيّة

٣. طريق المعزى وطريق الجن

٤. الأرز

٥. أرز الربّ

٦. الصخور

٧. الجميلات تحت الأرز

الرحلة الثالثة

الى جاج

١

مرت الايام، وما نسيت اني بدأت برحلة لبنانية صغيرة، وما اكملتها. ولا ذهب من البال ان الوادي الذي دخلته، وتذوقت محاسنه الطبيعية والبشرية، ينتهي الى جاج، وان جاج هي الباب الى جبيل. هناك يكنز من الارز كنوزاً مجهولة. نعم، مجهولة، الا ممن يقيمون بذلك الجوار. وقد لا يكون بينهم من زار ذلك الارز غير الصياد والمعاز، والفلاح الذي لا يزال يصيف الارض ويشقها.

وكيف الوصول الى جاج؟ كنت اعرف منها الاسم لا غير. واني اذكره (كما اذكر غيره من اسماء المزارع الجبلية) منذ الصبى، يوم كنت في نويورك. أيدهشك ان اذكر جبيل وانا وليد في نويورك، ومن قاطع التين؟ رحم الله والدي، الذي كان تاجراً هناك. وقد كنت كاتباً في مخزنه، قبل ان صرت كاتباً في مخزن الحياة. وكان فريق منهم يتعاطون التجارة معه من مهاجري بلاد جبيل، فتعلمت صغيراً ان الفظ اسماء قراهم. حاقل، لحفد، شمنه، بجّة، معاد، حبالين — اسماء سبحت في الذهن، ودخلت القلب، وانسحبت الى الوقاحة. اني اذكرها على الدوام، واشعر في زيارتي لتلك القرى بلذة الحبيب العائد الى حبيبه.

أضف الى ذلك صفحة من كتاب الحياة الحديث.
١٧١ فان هناك في تلك الاودية والبطاح من الادباء والمحامين والاطباء من هم مقيمون على دين اجدادهم، اعني في محبة الارض والتمسك بذوائبها. بل يطيب لهم عبر الصخور التي ولدوا في ظلالها، والوعور التي لعبوا فيها، تعلموا الوجد و"طوبى للرجل". فهم يقيمون تحت سندياناتها وزوانبها.

اليوم

اليوم هناك في قصور شيدوها، ولو يبالون انها على
مسافة ساعة او ساعتين من طريق العربات.

ان لي بين هؤلاء اصدقاء احباء. منهم كاهن
ماروني عربي، يعلّم البيان في مدرسة اسقفية لاهوتية،
ويعلم تركية غير ذلك. فهو العالم، وهو الزارع. كيف لا،
وفي تربة القديس اغسطينوس وبين رياحين القديس
توما الاكويني الذابلة، يغرس ارز لبنان، وآس سورية،
ونخيل العراق، وكم نجد وعراره.

ومنهم استاذ آخر يعلم البيان الوطني في مدرستين،
الواحدة وطنية والاخرى انسانية، فيزرع بذور
الحقيقة الصغيرة في بستان الحقيقة الكبرى، ويروي
ازاهر الحقيقة الصغيرة بالمياه المجلوبة من ينابيع
الحقيقة الكبرى. حيا الله ابا محمد مارون عبود
المتنسك صيفاً بعين كفاع. وقد قيل لي ان
له خورنقاً هناك.

سألت عن عين كفاع في رحلتي الاولى والثانية،
وكان في النية اكتشافها، ومفاجأة الصديق فيها.
ولكنها في ثنية مخبيّة، وعن الطريق قصيّة.
فغبطت ابا محمد وحسبته في الحكمة كبيراً واستاذي.
كيف لا وقد اختار لنسكه ذلك المكان بين
الاضلع الجبلية من لبنان. فاين الفريكة في العزلة من
عين كفاع؟ ان ابا محمد هناك لفي حصن حصين. هو قريب
من بحّه، وبعيد عنها. وهو بعيد جداً – اترك
الـ"جد لعيد" للادباء المجددين – هو بعيد جداً
عن الطريق السلطانية. وانا بالفريكة تحت الطريق،
عرضة لكل هابط وكل متشرد. هنيئاً لك يا مارون،
١٧٢
والسلام عليك.

ولو كان لي ان ارسل اليك برقية سلكية

او

١٥

او لو سلكنا الكواكب الى جاج، وحج معنا ارزة، لفعلت.

ولكانت الحجة افضل قربة عند الله تعالى، ولكنت انت من الحجاج

المكرمين. كيف لا وزوجته وضيفنا من السيدات المهذبات

اللواتي يؤثرن في محطاتهن الادب الحر الراقي نثراً وشعراً،

والمضيف من الوطنيين الافاضل، الذين تغربوا في ايام الحرب

وتجربوا، وعرفوا من الحياة فرحها وترحها وعربها، فذاقوا

ما كان كامناً او مجهولاً من مرها وحلوها. فالوثنان في

العروبة صفيان، وفي حب الوطن من لبنان ثم من عدنان.

ولو تحب ان ترى لعدنان في جبيل الاثر الطيب والذكر

الجميل. فان الفينيقي والعربي من اصل واحد هو السامية،

ومن بلد واحد هي بلاد العرب. [1] وان في اللغتين غرساً

عربياً قديماً، راسخ الجذور، وارف الظل. وقد نثرت

الرياح منه روحه في هذه الاودية والبطاح، وبين

تلك الصخور العالية المنيعة.

هي العروبة في لبنان. وقد عطرت سيدتي الطريقا

بذكرها، والتغني بها. هو لبنان في العروبة، وقد انسانا

الدينور وحشة الاودية، وعري الربى، فيما رواه لرجال

لبنان الاكبر شبيد نخله.

قلت "عري الربى" وما بالغت. فان جبيل، بعد

ان نجتاز حياليها، لقاحلة موحشة، وخصوصاً في

اخر الصيف. وكأني بهذه الارض القديمة ملّت

العمران، فكمد قلب البطاح والشعاب، واسودّ

وجهها. ولا عزو [illegible] وينابيع

[illegible]

القرى ضئيلة، والارض غير

ذات فيوض.

بيد ان الهواء، ونحن نصعد من شاحات الى حافل،

ينعش بما تنبو العين عنه. والمشاهد، ونحن

نعلو، تتنوع وتتسع. فهناك بجبه على ١٧٢

(١) راجع كتابي "ملوك العرب" الجزء الثاني صفحة ١٢٩

/ ابو تها

ربوتها وراء شامات، ودونها، في الافق على رأس
الجبل، ظلال سمراء في سحب شفافة هي معاد.

ان لسلسلة لبنان شكلاً جيولوجياً في مصاب
انهاره يكاد يكون مطرداً. فقد حفرت هذه المصاب،
واكثرها غربية، طرقاً الى البحر هي الاودية. وهذه
الاودية تضيق وتنفرج، وفقاً لانحدارها القائم او
المنبسط، وبحسب قوة السيول. فالاودية
هي من السلسلة ادوات وصلها، والى جوانب الاودية
وعلى اكتافها، في بطاحها، وبين اضلعها، وعلى ذرواتها،
نشأت القرى والمزارع، وبنيت الدكات،
لحفظ التربة، وغرس الاشجار.

ولكل واد من هذه الاودية مدخل على الساحل هو في الغالب
الى جانب النهر، وطريق للدواب قديماً، للعربات والسيارات
اليوم، تنتهي الى اقصى قرية فيه واعلاها. فمن
انطلياس مثلاً نصعد الى بسكنتا، ومن جونيه الى
فاريا، ومن نهر ابرهيم الى العاقوره، ومن جبيل الى جاج.
اما الوادي ونهره فلا يسايران الطريق دائماً، وقد
يختفيان في منعطفهما، كوادي جاج مثلاً ونهره
الناضب في الصيف. فبعد ان نعبر الجسر الذي
يدعى باسمه محرّفاً، اي جسر الدجاج، قرب جبيل، يتوارى عن
الابصار، اذ نصعد الى عمشيت، فلا نراه الا بعد
التصعيد في جبالها، ثم بين حاقل ولحفد، حيث ندنو
من الالف متر في العلو عن سطح البحر. فلا عجب
اذا كانت لحفد مصيفاً لبعض العائلات من جبيل وعمشيت.

وهناك العين الى جانب الطريق تجري في ميزاب من
الحجر، وهناك القهوة تحت الخيمة قبالها، لتثبت ان
لحفد هي مصيف هذه الناحية من جبيل. وحسب
المصطاف، بعد الهواء الطيب والماء الزلال، هذه الخيمة
المسقوفة بالشيح، وحسبه فيها الاركيلة والنرد.

ابيد /

بيد ان هناك غيرهما من اسباب الغبطة، كالعرق
خلاء. ثم جوز الكبة على الدوام. ثم المنتقيد في اعالي
هذه الجبال الحافلة بالجمال. وماذا بعد ذلك يبتغي ١٧٢
المصطاف العاقل؟ الرقص والغناء وملكة الجمال؟

اذا صبر القارئ على شجون الطريق - والحديث -
واستمر في مرافقتنا، تمتع ان شاء الله بكل ما تشتاقه
نفسه من محاسن الاصطياف ومغرياته. وان المحاسن
في هذه البقعة من الجبل لصافية في باطنها. وانها
لظاهرة - بقدر الامكان. هي فينيقية في معظمها
وقد لطفها الزمان. وقل هي عربية عليها مسحة من
الزهو الفينيقي. حسبنا هذه الكلمة في محاسن
ما سنشاهد، ايها الرفيق الصبور، ولك الرأي
بعد ذلك والحكم.

اما وقد ذكرنا الطريق فلا بد قبل ان نصل الى آخره
من كلمة فيه. هو لا يزال من التراب والحصى، ولا يعرف شيئًا
من نعيم الزفت الذي نستمتع به طرق السواحل. وهو منه
الساحل الى لحفد طريق عربات، لا طريق سيارات،
وخصوصًا في انواعه الكثيرة الضيقة. ولا اذكر انه
يبرر الثناء على مديرية النافعة، الا في بقعة اماكن
منه جديدة، او بالحري جديدة الترميم. وفي ما تبقى
منه هو يوبخ المديرية المحترمة، ويرميها
احيانًا بالحجارة - تتطاير الحجارة من تحت الدواليب!

اما من لحفد الى جاج فالطريق لا يعني المديرية
المذكورة ولا يهمها. ما هو بطريقها - لا حفرة
فيه، ولا حجر. ولا هي تبالي بما يقوله فيها اهل
جاج. فقد ألفت في العاصمة كل قول، وهي
في الصبر من سلالة ايوب الصديق.

امين الريحاني

حدثني الدكتور قال: كتبنا المعاريض، والمقالات
الوفود - قطعنا الحبر والورق والاحذية - وأرسلنا
مستعطفين. وما كانت الحكومة لتسمع او تجيب.
وما الطريق من لحفد الى جاج؟ لا تتجاوز الخمسة كيلومترات.
ذهب الامل، ونفذ الصبر. فاستنفرت الغيرة شباننا
ورجالنا، فشمروا للعمل. يشقوا الطريق، [illegible]
ويعمروه ويعبدوه، دون ان يكلفوا بشيء من
المساعدة احداً من غير جاج.

ويقول شبان جاج: لولا همة الدكتور
وغيرته ما تم العمل.

الضيافة اللبنانية

لايزال في بلاد جبيل رجال – ونسوة هن أخوات الرجال
في الملمات، وفي المسرات. ولا تزال الضيافة اللبنانية المتصفة
بالكرم والمعروف، المزدانة باللطف والبساطة، من العادات المرعية
هناك، كما هي في الأماكن اللبنانية الأخرى، البعيدة عن
لألاءة الاصطياف وضوضائه.

وفي جاج المضيافة بيت وارف الظل، رحب الذراء،
كسنديانة الكنيسة هناك. وسنديانة الكنيسة، بارك
الله فيها وفيك، شهرة جبيلية بعيدة الآفاق، وظلال
ترحب بمؤتمرات الأهالي السياسية، كما ترحب بمدرسة الأولاد
الأبجدية.

نزلنا في البيت الذي يشرف على السنديانة، ويتصل
في أوشاجه بما وراء الأفق الجبلي شرقاً وشمالاً،
أي بتنورين. فلا تدرك ما هناك من هذا الوصف
الجغرافي. فاعلم أن بين تنورين وجاج الجبال والصخور،
ووكر الحجال والنسور، وغابات أرز تحضنها الدهور.
وبالرغم من ذلك قد غزاها الدكتور، وغنم احدى بناتها،
فصار يونس المغوار نسيبًا لفرحات الجبار، وعقد
بين البلدين معاهدة ولاء وحسن جوار.

وكانت بنت فرحات شقيقة الدكتور يوسف وبنت يونس
شقيقة الدرويش أسعد وزوجة الدكتور، كوكبا تلك الليلة،
ومحورا الحياة فيها. فأضرمتا نيران الضيافة، وأشعلتا
أنوار المسرة والأنس.

وجاء شباب القرية بما وهبوا واكتسبوا من
علم وفن ومعرفة، فكان بينهم القوال والرقاص
والنافخ بالقصب. وجاءت البنات ذوات الجمال
القروي الوديع، تساعدن ربة البيت، فكانت
احداهن تقدم الشراب، والأخرى القهوة، وتجيء الثالثة
بالماء من العين الى المطبخ، والرابعة تهيء الأراجيل، وكلهن
يعملن

١٧٦

يعملن فرحات جنذكوت، كأنهن في عرس راح لهن.
هي المروءة تتغذى القروي والقروية صغارًا بلبنها.
وكنا كأننا في عرس. وعندما جلسنا الى المائدة
شاء رب البيت ان يكون العشاء مصحوبًا بشيء
من الموسيقى والغناء، كما لو كنا في لوكندة
باريسية. فأرسلت شقيقته هرتها الشجي ببيت
من "العتابا"، ونفخ القصاب بقصبه مرافقًا لها. وكان
احد الشبان يباريها، فيبدأ حيثما تقف، دون
ان يبعد عن النغم والمعنى.

اني ممن يحبون بهذا الغناء العربي البدوي،
الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه. واني ممن
يطربهم صوت القصب، ذلك الصوت العريض الوحش،
الذي تتمثل فيه خشونة البادية، ونغمها الوحيد، نغم
الوحشة والقسوة والرمل. اما الرقصة البدوية
الشهيرة التي تدعى "الدبكة" فهي من الفن العالي بمكان.
ان في خطواتها همس المرأة، ونبرة الرجل. وان
فيها الحركات الهادئة المترددة، تقطعها وتصلها
الحركات الآخرة المهددة.

يا حلوه بحياة قدك

والحلوة تميل بقدها، وتغنج برجلها، فيضرب الشباب
الارض برجل ويكمل البيت:

بدنا بوسه من خدك

وعقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات،
وكانت على رأسها ربة البيت وهي تلوح بالمنديل. فنفخ
القصاب بقصبه، وصفق احد اخوانه بيديه هاتفًا:
"زقفه" يا شباب! فلعب الطرب في النفوس، وخفت
الايدي والرؤوس. فكنا كلنا مسوقين بالنغم الوحيد،
والنظم الفريد — نغم القصب العميق، ونظم الارجل الرشيق.
وكان القصاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي

تكاد

١٩٢٢١ ٢٧٧

نكاد تصير حلقةً، يحنو رأسه حيناً وحيناً يرفعه، فيذوب هياماً، ويزيد نار "الدبكة" اضطراماً.

يا حلوه بجباة قدك
بدنا بوسه من خدك

حيَّ هلا - حيَّ هلا!

وبعد "الدبكة" أُخليت الساحة لإحدى البنات اللواتي يحسن الرقص وحيدات، فغير النافخ بالقصب نغمه، فوقفت صاحبة القد الأهيف، والوجه المليح، وقد غضت من طرفها، ومالت الى الكتف برأسها، ثم بسطت يديها، وطفقت تقدم الرجل اليمنى، وتجر رأس اليسرى وراءها، فتمد الخطوات وتدورها كأنها تكتب برجليها أحرف الحب. ثم تثني منها الزند، وتهز الكتف هزة لطيفة، فيغار العنق حتى انثنى الى جنبيه، فيعطف ويميل، ويرسل الى الصدر، في هزات أمامية، رسائل غرامية، فيهيج الطرب في حمامتيه الراجفتين، فتنفضان وتتذبذبان، والمليحة واقفة هنيهة مفرشة الذراعين، ولا أثر في وجهها من الإدراك او الإشارة لما في تلك الهزهزات، من المغريات.

هنيهة في ذلك الأوج ~~[illegible]~~ من سذاجة فنها، ثم تدرج واليد على خصرها، والأخرى أمامها، فتثني منها العطفين، وتعيد الكتابة برجليها لرسالة الحب، مسرعة حيناً، وحيناً متمهلة، ثم تقف فجأة، وتنحني للسلام، كتلميذة مدرسته مثلت دورها.

وما عاب رقصها هذا غير المفاجأة في الختام. فلوانها عندما تتمهل في خطواتها تستمر متمهلة، وهي تبعد من وسط الساحة، فتتوارى كالطيف، لكللت فنها بالذوبان، عكس الراقصة الأوروبية التي تختمه بالعنف

بالعنف والهياج. وعندي ان الحالة الاولى هي اقرب
الى الحقيقة، واشد وقعاً في النفوس المهذبة.
لنستمر في ما يسر ويطرب، فلا نستوقفك للشرح
والانتقاد. ما اقتصر برنامج تلك الليلة على ما تقدم وصفه ١٧٨
من رقص وغناء. فها ان الساحة خالية، وكأن كوكبا البيت،
شقيقة الدكتور وزوجته، قد تواريا، فسكن الدار،
وساد السكوت. هي الفترة المألوفة بين الفصل والفصل
في الرواية. ولكننا في بيت لبناني، لا في ملهى من الملاهي.
فتبنا لذلك حائرين، وتوقعنا شيئاً جديداً.
وكان ذلك الشيء الجديد، ودوت الدار لدى
ظهوره، بالتصفيق والقهقهة. هوذا الكركوز!
شيء متحرك، في لبس اسود، مشدود الوسط،
يميل ببطء يمنة ويسرة، ويداه وهما في الكيس، ممدودتان
متحركتان. شيء فظيع مضحك معاً، كالمفزعة
التي تنصب في الكروم. وطفق هذا الشيء يرقصه،
ويهز رأسه الفخم الذي هو نصف جسمه، ويحرك يديه
القصيرتين، ويدور على محوره كاللعبة الصينية.

قلت لجاري: ما احذق هذا الولد. وكنت قد
ظننت انهم ركبوا في رأسه قفصاً ليكبروه،
فيجعلوه كنصف جسمه. فقال الجار مصححاً
خطأي: هو شاب يجيد الرقص. وقد وضع على
رأسه طبق، وألبس هذا الفنان القفطان،
المربوط فوق رأسه، المغطي حتى قدميه. اما اليدان فهما
عصا شدت تحت القفطان في الوسط، وتدلت الاردان
من طرفيها البارزين، فتهتزان كما ترى كلما انثنى.
انه حقاً لكركوز غريب، بل اختراع في المسخرات
عجيب. ما رأيت قبلاً مثله. ولكنه، كما قيل لي، شيء
معروف شائع في ليالي الطرب اللبنانية. اما ذلك

/لا

٢٢

لا ينقص من قيمته المسرحية . هو آية في السخرية والفظاعة ، ولا اظنك تجد له مثيلاً في غير آلهة اليابان ، ولعب الصينيين .

مثل الكركوز دوره وانصرف . ثم جاء دور هذا الكاتب المظلوم ، المرهق بالادب والسياسة حتى في نزهاته . فقد هبط علينا ادباء القرية في اثناء الدور الكركوزي . جاءوا يسلمون ويتعرفون بالاديب الكبير الخ ، ويتحرشون به . جاءوا يرهقونه بالسؤالات ، والمناقشات ، الادبية والاجتماعية والسياسية والدينية . فهذا طالب حقوق ، وذاك طالب طب ، والثالث طالب لاهوت في ثوبه الاسود ، والرابع خريج احدى الكليات ، ومراسل احدى الجرائد الكبرى في العاصمة . وكلهم من غواة الادب والشعر ، ومن اساطين السياسة ، وفيهم المحب والمؤمن والمعجب ، والمناقش ، والمتفرج . فهات ما عندك يا "فيلسوف" .

ما لبثت ليلة الطرب ، ان تحولت الى ليلة كرب . فكنت اجيب على السؤالات بايجاز الكهان ، الاقدمين ، واسلّم في المناقشات لاتخلص منها ، وانا اعلل النفس بعودة القصاب الى القصب ، ورنة البيت الى الموالبا ؟ هيهات ، هيهات .

فقد ختم الكركوز الليلة بالضحك ، وختمها الادباء بالجدل .

والخير والشر ممزوجان ما رفترقا
وكل شهد عليه الصاب مذرور

=

١٨٠

طريق المعري وطريق الجن

الى الارز - ارز جاج - ارز الرب.

نهضنا صباح اليوم التالي باكرًا، ووجدنا الدكتور
فرحات واهله يعدون العدة للرحيل. وكان في الجماعة عند
جاج من يجهلون مثلنا ما وراء تلك الآفاق السمحاء الشاهقة،
فقدروا للرحلة الاولى الاحقاء قائلين، تنشيطًا لنفسهم
وتشجيعًا لنا: هي ساعة للماشي، واقل منها للراكب.
- وهذا حمارك، يا استاذ. لا تنوء اخذنا. لبسه
مثل الحمير لطريق "الجُرد".

فقلت في نفسي: أليس منه العار اذا اسخر
الحمار لساعة في الجبل؟ وهب انها ساعتان
أيركب الأُتن مَن علا النجدية من الخيل،
والعمانية من الابل؟

فاخوري

فاخرت سانكتا وكابري. الا انّي محبّ

للمشي، رغب به دائماً، وخصوصاً في اعالي

الجبال، حيث يجف الهواء، ويصفو الجو،

وتخف حرارة الشمس. فاعتزمت المشي،

واخترت من ادباء الليلة البارحة رفيقاً،

فشاء ان يرافقني كذلك شقيق الدكتور

فرحات. وهو مثل ابيه واخيه من

العمالقة. وكان الاثنان في انتظاري

صباح ذاك اليوم، وفي كتف احدهما

بندقية الصيد.

تركنا القوم بناهبون، والمكاريين يحملون

الزاد والماء، ومشينا من حاج ساعة الضحى —

كان ينبغي لا نكون في تلك الساعة بالدوز.

ولكن الجملة لبست حملتي. فما انا غير

واحد من الضيوف، وفيهم السيدات اللواتي

لا يخرجن من الخدور قبل ان يوردن

الخدود، ويقرمزن الشفاه — طاحت

بي الجملة، فاخرجتني عن المعنى

المقصود، وهو انه

كان

١٤٢٦ ١٩٧

كان ينبغي ان نسبق الشمس في التسيار ولا ندعها تسبقنا.
لكنها في اعالي الجبال - نحو الالف والاربعمائة متر فوق ١٨١
سطح البحر - في اواخر ايلول، فلما نجوز.
هذا ما خلته وتحققته في الساعة الاولى من التصعيد.
وكنا لا نزال في عقبات صخورها وادعة، وحجارتها
تحت الاقدام ثابتة - عقبات مجاملات، تلين جوانبها للعفص
والزعرور، ولا تخلو من دغل طيب الاريج وهي تتشرف
في المنعطفات على البطاح البنية التربة - غير
المزروعة - والصفراء - بعد الحصاد - ولا تخلو من
فيئات تحلو بها الاستراحة.
وكان الرفيقان الاديبان قد بدأا بمساجلة
شعرية لبناني، كما قالا، مشقات الطريق.
وكلاهما كثير الرواية، سريع الخاطر. فعجبت لثباتهما في
الميدان. فقال السمراني: "وما تشغل الاديب في
هذه القرى الجبلية القاصية غير قراءة الشعر وحفظه".
اما

اما المساجلة - فقد كانت من النوع الذي يروي الاول فيها
بيتاً فيجيء الثاني ببيت يبدأ بحرف القافية المتقدمة.
فبُدئَ ببيت للمتنبي من احدى قصائده اللامية، فكان
الجواب فوراً:

لا تشترِ العبد إلا والعصا معَهُ
إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

ومما ادهشني قولهما انهما يستمران في المساجلة بضع
ساعات، دون غالب فيها ومغلوب، ويستأنفانها
احياناً في اليوم التالي. ومع ان هذا النوع من المساجلة
هو اصعبها، فان في بعض القوافي ما يُعجز وصلُها اكبرَ
الرواة. ومن ملحها ان تكون الابيات لشاعر واحد،
ومن معجزاتها ان تكون من القصيدة الواحدة. كأن
يقول الاول:

سائق الاظعان يطوي البيد طي الخ

فيجيب الثاني من نفس الديوان:

يا قبلتي في صلاتي اذا وقفت اصلي.

١٨٢

او يقول:

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمرانِ

فيجيب الثاني من نفس القصيدة:

نفى وقعَ اطرافِ الرماح برمحه
ولم يخشَ وقعَ النجم والدبرانِ

او بينما

وبينا نحن مسعدون، والمساجلة في ازدهار، رأى
أفنتي الشعر والشعراء وراح
الاديب الصياد سربًا من الحجال، او سمع حفيف اجنحتها
وانبًا من صخر الى صخر، ثم مشى مسرعًا مترفقًا، فجاز الشعب
وتوارى عن البصر. وما سمعنا بعد ذلك طلق بندقيته،
ولا رأينا اثرًا له او للحجال.

مشينا انا والرفيق فرحات في بسطة من السكوت،
وكنا قد سلكنا مقربة تعلو الطريق، فشاهدنا في المنعطف
الاسفل رفاقنا المتخلفين، وكلهم رجال ونساء، صاعدًا
المكارش والخدم، الركبوف الأحمرة. العفو، قارئي.
سرى الي شيء من
فقد نهمة الادباء المجددين في اختيار الغريب
من الجمع. هي فعلة واحدة لا ثانية لها. فالعفو، ايها
الراكبون الحمير.

وهذا الدكتور فرحات يناديبا، واخته الشفيقة
تستوقفنا، وزوجته الكريمة تلوح لنا بالمنديل. قفوا-
قفوا! وبرزت القافلة بكاملها، صفًا واحدًا في الطريق
الضيق، فوقفنا ننتظر الادباء السبع منهم، وهو حمار
الدكتور. فترجل عندما دنا منا، ودعاني للركوب. فشكرت
واعتذرت. وترجلت زوجته، فشكرت واستغفرت.

— اني ناذر نذرًا، يا سيدتي، وكان من الواجب علي ان
امشي الى الدوز حافيًا.

فالحكم

فضحكت وهي تقول: نذر مقبول ان شاء الله.

ثم سألناها عن اخينا الصياد، فقال احد الخدم:

هو هناك. - اين؟ فرفع رأسه ثم يده مشيراً الى

صخور شاهق بعيد، فوق الصخور المطلة الشعاب،

ودونها. هناك، تحت تلك الغيمة البيضاء، على

رأس الصخر القائم كالعضادة في هيكل الطبيعة، انتصب

الرفيق وأهوى ببندقيته. ثم صاح ينادينا، واستمر الصوت

مجلجلاً، فتضاعف الصدى، وهتف فرحات

قائلاً: هو يروي الشعر والله. سمعت البيت.

وسمعت القافية. هي بائية. لبيك يا شمراني،

لبيك!

«بيض صنائعنا، سود وقائعنا،

خضر مرابعنا، حمر مواضينا»

واين المرابع الخضر الان يا فرحات؟ كنا قد بلغنا قنة

الجبل الثاني، وسلكنا الوعر عرضاً الى سفح الجبل القائم

امامنا، وما فيه أثر لأخضر صانه الظل، او لأخضر غضير

الشمس. جبل اشهب تتخلله خطوطاً وتبقع سحماء،

هي ظلال الاضلع والشقوق في الصخور. وبين تلك

الصخور سيول جافة، او منحدرات فرشت

بالحجارة. فقال الرفيق العمليق، وهو يدل على الطريق

التي تلف حول ذلك الجبل: الاحسن

ان

ان "نقودم" (اي نسلك "التقادومية" اي المقرّبة)

وكنا قد أعرضنا عن طريق الدواب، ثم عن طريق المعزى.
وها نحن نعرض عن الطريقين، فنتوقل حيث لا أثر حتى
لذوي الأظلاف — نسلك طريق الجن! ويا له من طريق يا
يا له من منحدر يكاد يكون عمودياً. وحجارته انواع واشكال،
كلسية وصوانية، خشنة وملساء، مسنونة ومدورة.
فتنزل بالقدم حيناً، وحيناً تقرصها، فاسعرانها
خرقت النعل. وكانت الشمس قد تسنّمت السماء
فاشتدت حرارتها، فسال العرق منا، وجفت اللهاة.

وهذه صخرة ضخمة تعترضنا. — هات يدك،
يا استاذ.
فقلت للرفيق العملاق: — اجلس قليلاً في ظلها،
ثم انساورها.

وفكرت اذ جلست في ما خبرت من المسالك الوعرة
في الجبال والصحاري، مشياً وركوباً، وفي مشقات الاسفار
كلها، فكانت هذه اشدها واخشنها. — مشينا فيها
على المحدودات — على الظُبى — وكنا فيها متوقلين، ٢٨٤
وكنا في النوفل مستعينين بالايدي.

اذا الكماة تنحّوا ان ينالهم
حدّ الظُبات وصلناها بايدينا.

ثم فكرت في ما قلت منذ ساعة، فكرت في
النذر، فتمثلت نفسي اصعد حافياً في طريق الجن،
والقديسان انطونيوس وفرنسيس آخذان بيدي.
وبينا نحن في هذه المحنة سألني الرفيق رأيي في
الادب الجديد والادباء المجددين. لله ما تفعل البطولة!
فلو كان لي ان اجيبه في تلك الغفلة لقلت:
الاديب المجدد يقول في مثل هذه الحال: انبهرت (اي
انقطع

٢٢

انقطع نفسي وتتابع من الإعياء) ومن جديد الأدب أن نستعمل
الاشتقاق الآخر الغريب من بَهَر، فنقول: أُبْهِرْتُ.
(أي احترقتُ من حرّ بُهْرةِ النهار)

ولكني بدل ذلك، سألت الرفيق الأديب: أين
الأرز، يا أخي؟ هل هو وراء هذه القنّة؟
فلاح لي أنه لا يدري. فقد زار الأرز مرة في صباه،
وهذه لبعد عشرين سنة المرة الثانية.
بيد أنه طمأنني. فعندما بلغنا القمة قال هاتفًا مستبشرًا،
وهو يدل على الجبل المقابل: هناك بوابة الحجر. حدق النظر تر
بعض القافلة يجتازونها. فإن وراءها الأرز.
حمدنا الله. ونزلنا إلى الشعب فأجزناه، وعدنا إلى
التصعيد. فبلغنا البوابة، وهي مضيق بين الصخور، ودخلناها،
وخرجنا منها، وأطللنا - على جبل آخر أشهب شامخ،
هائل فظيع!
- وأين الأرز، يا أخي؟
- هو ولا ريب وراء هذا الجبل.
وكانت الطرق كلها، طريق الدواب وطريق المعزى -
وطريق الجن - قد أمست واحدة، سبيلًا من الحجارة! فلا ١٨٥
سبيل إلى الاختيار، ولا فائدة فيه.
توكلنا على الله. تجمنا تلك الوعور، وصعدنا بين تلك
الصخور، والنفس ينقطع، والركاب ترتعش. أقول:
الركاب، لأن رفيقي اعترف بما عراه مثلي من العياء والوهن.
وما رأينا، ونحن نتوقل الجبل الخامس أو السادس، رأس غصن
من الأرز. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
وها هنا ~~[illegible]~~ أيضًا سألني الرفيق الفرز سؤالًا آخر،
لا أذكر أني سمعت منه غير: ما قولك يا أستاذ...
ولكني أذكر أني قطعت عليه الكلام قائلًا: أرجوك أن
ترجئ السؤالات إلى أن نبلغ المحجة.
وهذه القنة السادسة بلغناها. وهذا
هو الوادي السابع أشرفنا عليه. وهناك - والحمد ثم الحمد لله -
الأرز!

[illegible]

وكنا قد عرفنا من الطرق طريق الدواب وطريق المعرى.
وها نحن نعرض عن الطريقين فنقصد حيث لا اثر حتى
لذوي الظلف لنسلك طريق الجن.

وما كان بيننا وبينه ظاهراً غير مسافة قصيرة لا تتجاوز

الماشيين من الأمتار، فمشينا صفها فاذا نحن على شفا

هوة، سحيقة، هائلة!

اذا كنت طالعت، ايها القارئ الاديب، ملحمة" من الملاحم

المشهورة، الإلياذة مثلاً لهوميروس، او الإنيادة لفرجيل،

فانك تذكر، ولا شك، المشقات والأخطار التي يخلقها الشاعر

ويرسم بها السُبل الى غرضه الأعلى. وهذا الطريق الذي

اجتزناه سالمين هو ملحمة الطبيعة الى غرضها الأعلى - الى

الدرز.

ولكننا حتى الآن لم نصل اليه. هو امامنا، والمهواة بيننا

وبينه تحيط به كالهالة، غرباً بجنوب. هي منطقة

حرمة، هي حَدّة سيفه، هي خندق حصنه.

وعلينا ان ندور بها اليه. وما ذلك بالأمر الهين.

ولا شيء هين في حرود الجبال. درنا بالهالة.

وهي لا تختلف في مسلكها صعوداً وهبوطاً، عما خبرنا

وقاسيناه من المسالك الخشنة.

ولكننا في اثناء الدوران، ونحن نتعاطى بين

الصخور، مررنا بصهريج من الصهاريج الصخرية الطبيعية،

عمقه نحو خمسة وعشرين متراً، الخازنة فيه السماء ثلجها

من سماء الشتاء.

هو ذا الثلج الخالد في الجوار المقدس.

هي ذي الصفاوة الابدية في ظلال الارز.

١٨٧

-

رحلتي في بلاد جبل

الرحلة الثالثة

٤

الارز

رفعت حجرًا من حجارة الطريق الى فمي، فقبلته ثلاثًا، ورعًا

حامدًا، آملًا، قبل ان دخلت الظلال القدسية.

واستغفرت الارز لو مسهاي حرمة عزلته - هذه العزلة الفريدة،

في اعالي الجبال، فوق وكر النسور، وراء حُجُب الدخان.

استغفرت الارز لاني جئت اشق ستار كعبته، جئت

استنشق مكنون سره.

—م—

إيه، ربة الاشجار، وسيدة الجبل الجبار،

انت الرافعة اعلامك الخضراء، بين هذه الصخور الدكناء،

لبنت الجديدين، واخت الفردوس، حدثيني.

حدثيني وعلميني، وارفعيني الى علياء ايمانك -

فقد جئتك متعلمًا، مترفعًا، مستمدًا من

ينبوعك العالي القوة والحكمة

—٥—

حدثيني

حدثيني عن رياح الشمال .

— تجيئني مولولةً نائحة ، فاوقفها لتستريح ، فتستحيل

انفاساً عطرية .

حدثيني عن الغيث اذا همى ،

— هو يرقص على الصخور حولي ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على

اوتار قيثارتي ، فنسمع اغاني البلابل والامواج .

١٨٨

حدثيني عن العواصف .

— هي تصعد هائجة من الاودية ، وتهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق

حولي طبولها ، فافتح لها قلبي ، فتدخل ثائرة . ثم تتحول اصواتها ، بين

ذراعي ، الى اصوات البوق والمزمار والناي ، ثم تسكن وتنام ، تحت اجنحة السلام .

حدثيني عن الثلوج . فتنفث من ساعد العاصفة ،

— هي حاضني في الشتاء ، ودرعي في الربيع ، ترضعهن

وهي في الصيف أمُّ جذوري

وتلطف حرارة الحب والجمال . فيبتهج قلبي ، ويرتفع رأسي بالحمد والثناء .

(وحمد ٢١ ثناء)

تحت التراب ، وبين اصول الصخور ،

حدثيني عن السيول .

— تعبث في بيتي وتعيث ، فتعرّي مني الجذور ، فانثر فوقها ريشي

— فتحمل الى التراب على جناح الرياح ، فالبسها

فالبس جذوري

في الصيف والخريف . وتعاونني الايام

ثوباً

قوياً جديداً.

حدثيني عن الخمور.

- هي المحدثة قبلي وبعدي. منها ترابي، وإليها مصيري.

وهي في حياتي قرة عيني، وزينة نفسي، [illegible]. بل هي

هيكلي الخالد، العامر اليوم بي، السائل غداً عني.

حدثيني عن السحب.

- هي حجابي، وجلبابي، وهي بخور محرابي.

حدثيني عن الفصول.

- الشتاء سميري، والربيع سفيري، والصيف رسولي، والخريف

كاهن معبدي.

حدثيني عن الجديدين.

- النهار جليسي، والليل نجيعي.

وعن القمرين.

- الشمس جديرة شبابي، والقمر الحاجب في بابي. الشمس تغذي

اخضراري، والقمر يحفظ أسراري.

وعن النجوم.

- هي أيدي الله الوردية، والفضة، والذهبية، والبنفسجية.

هي أيدي الله، تعطي ولا تسأل، تنثر ولا تستعبد.

النجوم /

حدثيني عن السُّحُب.

– هي حجابي وجلبابي، وهي بخور محرابي،

والفصول.

– الشتاء سميري، والربيع سفيري، والصيف

قيّمي النّدي، والخريف كاهن معبدي.

حدثيني عن الجديدين، والاثنين

– النهار حبيبي، والليل نجيبي

يد في يدي وراحلي.

وعن القمرين.

– الشمس حديرة اسبابي، والقمر الحاجب في بابي.

(١٨٩) الشمس تطعم اخضراري، والقمر يحفظ اسراري.

والنجوم.

– هي ايدي الله الوردية الفضية الذهبية

البنفسجية، هي هي ايدي الله تعطي والانامل،

تنثر والتستعيد، وابتهاج

هي ايدي الله التي تحمل الي كل ما فيه جمال و~~[illegible]~~

~~[illegible]~~ وسكينة وهدى.

~~[illegible]~~ ربات الشعر ~~[illegible]~~،

ايدي الله – النجوم – ربات الشعر

اباثة والفنون،

٢٠٨

٥

"ربات الخيال الشفي"

~~الشوق~~ و الغبطة الشجية.

اياماً
النجوم هذه ~~العذارى~~ اللواتي ينشدن
في ظلال منازلي. وهذه العذارى اللواتي يرقصن

البعيدات القريبات،
في معبدي. النجوم هذه الوفيات الصفيات اللواتي
يزلن وجومي، ويلأمن كلومي، ويعلمنني
الابتسام ونسج الاحلام.

أرز جبالي، أرز اجدادي،
ان لياليك لياليّ، وان نجومك

نجومي.

~~الوطن~~ لبنان

١٩٠

ابو عادل

من امين الريحاني

٦

رحلات في بلاد جبيل

الرحلة الثالثة

—

٥

ارز الرب

المسافة بين جاج وادرز مسافات. فهي قصيرة للماشي، اذا كان من الفلاحين او
الرعاة الاشداء، فيجتازها بساعة واحدة. وهي طويلة للراكب الذي يدور بالطريق، فلا يقطعها
باقل من ساعة ونصف ساعة. وهي طويلة جداً لمن يكابر مثلي، فيأبى ان يركب حماراً، ويحسب انه
توقّل الخمسة جبال بساعتين لو غيره — ويفاخر بذلك.
بلغنا المجة، ايها القارئ الكريم، ونحن نلهث إعياءً وعطشاً. وكان الرفاق قد
وصلوا قبلنا، وارسلوا من يستطيعون النزول الى اقرب صهريج من صهاريج الثلج،
فجاءهم بحمل منه. اما الحملة – اي الماء والزاد – فقد كانت تخلفت في الطريق،
فشاهدنا الرفاق وبيد كل منهم قطعة من الثلج يمتصها ليتقي أحرّ العطش.
والرقيقات – السيدات الطروبات الخفيفات الروح والرجل – شاهدناهن،
ورأيتها في قلب احدى الارزات الكبرى، جالسات بين الفروع الضخمة،
وبأيديهن قطع من الثلج يمتصصنها، فتحمرّ منه الشفاه. ما اغرب من الجبال غيد
الحنفية. فهاكم حوريات الجنان، يلعبن بين الاغصان، ويأكلن اقراصاً من
العسل واللبن. وما اللبن والعسل في مثل هذه الحال بألذ من الثلج!

جلستا

جلسنا على حجارة تحت تلك الارزة، ورفعنا الى الحوبات الوجوه، وفتحنا الافواه، فتسقط الثلج في ابداننا، فانعجن منا الصدور حقيقة لا مجازاً، وهللنا كالصبيان، [illegible]، فنسينا عرق السفر، وقد نفحت فيه ريح باردة، فارتعشنا، ورحنا ننشد الشمس.

ثم جلنا في الغابة القائمة على منحدر شكله مستطيل، وفيها اربعون ارزة ونيف، خمس منها ضخمة قديمة، دائرة احداها نحو ستة امتار، وعلوها نحو ثلاثين متراً، ما رأيت مثله في ارز بشري. الا لهذه الارزات الكبيرة شكلاً في النمو غريب، فالجذع، بعد ارتفاع متر او مترين في الارض، تتسع في نموه، فيتكون فوق الجذع الاول جذع ثان، دائرته تزيد الدائرة الاولى مترين او ثلاثة امتار. فيبدو اسفل الشجرة كالمائدة المستديرة بقاعدتها، وتنشأ من المائدة الفروع الضخمة التي تعلو نحو خمسة وعشرين متراً. عددت في احدى هذه الارزات اثني عشر فرعاً، وكلها كبيرة قوية طويلة، فيصح ان نقول انها اثنتا عشرة ارزة نمت من الجذع الواحد، او بالحري من المائدة الواحدة، وتتراوح دائرتها بين المتر الواحد والمترين.

اما

اما الأخرى من اشجار هذه الغابة، فان منها بعض ارزات مزدوجة
ومثلثة الجذوع. وما تبقى هي من ذات الجذع الواحد الطويل القويم، ويتراوح
طولها بين الخمسة عشر والخمسة وعشرين مترا. اما الدائرة فلا تتجاوز في
الكبيرة منها المترين. ولكني اظن ان الارزات
ولست من العالمين المدققين في تاريخ عمر الاشجار. منذ ما ينيف او يزيد ثمانمائة سنة، وان
الخمس الكبرى زرعت هذه الغابة، ففي ذلك الزمان
عمر الوهات يتراوح بين الخمسمائة والستمائة سنة. قليلة الجذور ترعاها الشمس بحرارتها،
كانت البذور تقع في تربة قليلة الظلال كما هي الحالة اليوم في ارز بشري.
وتحفظها اذ تنبت اقدام الناس، النبيتات الخضراء الارزية
فانك ترى تحت اكثر الاشجار مئات من لكثافة الظل
في شكل ٧، اي ذات فرعين، والتعش واحدة منها فيها.(١) ١٩٤ سم
وفلذات التربة بالجذور، التي تستنفد كل غذاء
ومما يرجح صحة ظني ان الوزرات الكبرى زرعت هذه
الغابة هو وجود ارزات فريدة، متوسطة الحجم، متبعثرة في
هذا الجوار، بين صخوره، وفي منحدراته الخصوبة. ومن تلك الوزرات
الوحيدات

(١) وقد قال المهندس الزراعي اسعد يونس، بعد قراءة ما تقدم ذكره:
ومن الاسباب، وارجحها، الجفاف في الصيف.

الوحيدات في عزلتها وتجردها، ما هو من الشكل الواسع الهرمي، اي الروابع
الوعضاة الرقيبة.
عددنا تلك الوحيدات، التي هي فوق الغابة ودونها، شرقاً بشمال،
فاذا هي سبع عشرة ارزة. وكل واحدة منها آية في جمال نموها المستوي،
وفي محيطها الصخري، وفي ذلك الوقوف الفني الذي تظهره الاضداد.
هي اهرام خضراء، بين جلاميد دكناء، وفي انحدارات جرداء بيضاء.
وعندما يصعد الضباب، وترق حواشيه، تبدو تلك الوحيدات الجبارات
فيه كالحسناء في حجابها، ترفعه وتسدله غنجاً ودلالاً، او كالراقصة
في سرابيلها الشفافة، التي تظهر محاسن جسمها وتخفيها. ثم ينجلي
الضباب، فيبدو الاخضرار ندياً، حقلاً جديداً، كأنه خرج في
تلك الساعة من صبغة الله تعالى.
قلت ان في الغابة اربعين شجرة ونيف، وفي جوارها النظائر
للعيان سبع عشرة شجرة فتية. وقد اخبرني الناطور، واثبت
قوله العارفون من ابناء حاج، ان في تلك الحدود، بين الروق الكبير الذي
يخفي تنودنا عن الابصار، وبين الارواق الصغيرة التي دونه –

في /

في الشعاب وعلى اكتاف الاودية — سبع غابات اخرى ، وان لمجموع
ما في اعالي جبال جاج هو يربي على الاربعمائة شجرة :
هذا ارز جاج الذي يعلو عن سطح البحر نحو الفي متر ، ولا
يبعد اكثر من سبع ساعات مشياً من جبيل ، ميناء فينيقية القديم .
ولا ريب ان هذه السبع غابات الصغيرة كانت غابةً واحدةً كبرى
في قديم الزمان . بل ان جبال جاج كانت مكسوة بالارز ،
الذي كان يُدعى أرز الرب . وهل كان يدعى كذلك
في عهد الفينيقيين ؟ ولماذا دُعي ارز لبنان بارز الرب ؟
الجواب على السؤال الاول معروف ، وغير مشكوك فيه ،
والجواب على الثاني مجهول لديهم ولديّ . فاذا كان
لدى نصارى الجبل 195
هناك من يستطيع الجواب عليه ، فهو ذلك العالم بتاريخ الفينيقيين ،
[illegible] ، صديقي الاب رشارد قرم . اني احيلك
اليه ، واسلفك الان بالقليل من علمي .

٢١٤ ابراهيم

فقد فتحت دائرة المعارف، وقرأت ما جاء فيها عن الارز، فاذا
فيه ان بجبال حملايا، اي خلة باديرة البوذيين، ارزاً شبيهاً بارز
لبنان، يدعى أرز الرب! فهل يدعى بهذا الاسم هناك لانه في جوار الاديرة
والمعابد، او لانه اكثر الاشجار مناعةً، واجملها شكلاً، واطولها عمراً؟
وهل جاءنا هذا النوع من الارز، وهذا الاسم اسمه، في قديم الزمان - الزمان
السابق للعهد الفينيقي - من تلك الجبال جبال حملايا؟ اني استرعي لهذه
المسألة نظر صديقي القرم.

واعود الى ما يهمني الآن من الموضوع. فاذا سلمت بان ارز لبنان يُسمّى
بارز الرب لان سليمان بن داود استجلب منه الى القدس لبناء الهيكل، هيكل
الرب، فينبغي ان اسلم ايضاً بان الميناء الذي شُحن الارز منه هو
ميناء جبيل. ولا يعقل ان يكون الملك حيرام جلب الارز براً الى
صور، ومنها شحنه بحراً الى فلسطين.

اقول هذا، ثم اعيد ما قلت ان ارز جاج هو على مسافة سبع
ساعات من جبيل. اما ارز بشري فهو على مسافة خمس عشرة
ساعة ويزيد. فمن أية الغابتين قُطع الارز الذي

/ حملته

حملته المراكب الفينيقية الجبيلية الى ميناء فلسطين لبناء
هيكل الرب؟

أيعقل أن يكون التاجر الفينيقي قد فضّل الأبعدَ على
الأقرب، وما بالى بالنفقات؟ أيعقل أن يكون قد فادى
بقسم من ارباحه اكراما لوادي قاديشه؟

اني اعتقد ان تجار الاخشاب الفينيقيين الجبيليين
فضلوا الغابات القريبة على البعيدة، لان نقل الاشجار المقطوعة منها
هو اقل نفقةً واسهل. هذا هو المعقول الذي يدحضه
المنقول ويتفيه.

ان ارز الرب اذن هو هنا بجوار حاج، لا هناك
بجوار بشري. في جبال تنورين

١٩٣٦

٦

الصخور

والصخور!

هل وقفت مرة بين الصخور، في اعالي الجبال، تتأمل تكوينها

واشكالها، ومعاني جمالها وجبروتها؟

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة الى ما وراء التهدم

والجدران – الى روح الكيان، ويد الزمان؟

ان في شموخها غير العز، وفي روعتها غير الرجولة،

وفي هولها غير الاخطار، وفي رسوخها غير القوة، وفي

تجاعيدها غير الضعف، وفي صفوفها غير الفوضى، وفي

تعرجاتها غير الجهل والحيرة.

الصخور الشاهقة المحلّقة، الصخور الرابضة والواثبة
والهاوية، الصخور المانعة الواجمة المتندرة، الصخور المكسّرة المشققة
المشتتة، الصخور المتكاثفة والمتخاذلة — هل وقفت
مرة نتأملها، ونحاول الدخول الى قلبها، الى السر المكنون فيها.
ان في قلبها النواة التي كانت تموج تحت الامواج، في
قعور البحار.
ان في قلبها جرثومة الحياة الازلية الابدية.
ان في قلبها الذرّة السرية، التي تحيا بالتحطم، فتغدو
غذاءً وشذاءً في الاشجار والازهار.
ان في قلبها سجن الانانية، وصمت الاحزان.
ان في قلبها الرمز الخالد لسقوط الزمان.
ان في قلبها رسالة التصعيد، حتى في الجلاميد.

من قعور البحار الى اعالي الجبال – من الظلمات الموحلة
المجرثمة المتحلبة، الى اوج النور والتبلور والصفاء –
هذه مرحلة الصخور. بل ملحمتها.
وان في شموخها غير العز والمجد : ان فيه اضابيح
التضحيات، واحاجي الموت والحياة.
وان في رغمها غير الصولة والجلال : ان فيها الصبر القاتم
والعزم الواجم والصمت الدائم.
وان في هولها غير الاخطار : ان فيه نبأ البراكين والسعير،
وقصة الزلازل والاعاصير.
وان في رسوخها غير القوة : ان فيه بيان الاجداد،
وسلاسل الليل والنهار.
وان في تجاريبها غير الدليل على الضعف والوهن : ان
فيها الدليل على عطف لا يزال في قلبها حيًّا، وعلى حنان لا يزال

/ نيويا

نديًا. ان في تخاريبها بيتًا للعصفور، ومأوى للحلزون. وان فيها [illegible] نايات للرياح.

وان في صفوفها غير الفوضى: ان فيها تتمثل اوليات الحياة في التحرير والتقييد، وسنن الحياة في التنوع والتوحيد.

وان في تعرجها وتقطعها غير الجهل والحيرة: ان فيها علمًا وهديًا ورحيًا لارباب الفنون.

هي الصخور الناطحات السحب، القاطعات الطرق على النسور.

هي الصخور الحاضنات البطاح، الحارسات مضائق الرياح.

هي الصخور المؤنبة الشرود، الرافعة للعزلة البنود.

هي الصخور الجاثمة الواجمة، الساخرة بالبروق والرعود.

هي الصخور الحافظة للارز الاحقاب، الضاربة حول الارز الاطناب، الحاملة عرش الارز على المناكب والرقاب.

٤٨

٧

الجميلات تحت الارز

جلسنا في طرف الغابة الاعلى، تحت الارزة الكبرى، ننتظر الرفاق الاخرين،
القادمين من وراء الجبل الجنوبي – من ~~الفلوق~~. فقد كنا على عهد وايام، عقد في
بيروت، وعلى تقاطع، لما كان من التأكيد، انهم سيصلون قبلنا.
وكانت الحملة قد حلت، فسارع الخدم الينا بالماء من عين حاج، وقد
بردوه بثلج الارز. ودهمة الصبر في
بيداننا، بعد الارتواء والاستراحة، اشعرنا بالجوع،
بعضنا فيها مسوا متضجرين. وما كل من رافقنا كان بالارز وبالبخور حققونا،
فأشفقنا على ابوصان التأخير، وتبنا نرقب المضيق بين الصخور، في الافق
الاعلى – المضيق الذي يجوزه القادم منا تنورين او من ~~الفلوق~~ – علنا نرى خيالا
هناك يبعث الامل والنشاط في النفوس. فكان
بينا نحن كذلك اذا بجوقة آخرين يلعبون في الارز عصا التحميه. فوصلوا
الدكتور فرحات قد دعا بعض اصدقائه واصدقائي من آل الحود المصيفين بجنفد،
دون ان نراهم. ولكننا سمعنا اصوات التأهيل والترحيب، فرحنا نشارك
بها، وكنا بين شاهدنا فرحين مبتهجين. كيف لا، وبينهم ثلاث من

العبد /

القيد بنسيان الرجال، وخصوصًا في وعور الجبال، العطش والجوع.

ثلاث من الحسانات يلبسن اثوابًا بسيطة ولكنها انيقة،
وينتعلن النعال، ويحملن العصي، ولا يبدو على وجوههن أثر من التعب
او من حرارة الشمس. فورد الخدود وياسمينها ناضر غير نديّ، وقرمز
الشفاه ثابت في مكانه، والاصوات منهن صافية كذلك رنانة، (١٩٩)
كانهن خرجن في [illegible] تلك الحين من خدورهن.

فكانت الدهشة الاولى، وكان السؤال بعد السلام: جئتن راكبات؟

فاجابت احداهن: نحن من هذا الجبل، فلا نعيا على ارجلنا.

فقلت في نفسي: أَوَ في هذا الجبل مثل هذا القناص؟ ثم

سألت متأكدًا: جئتن ماشيات؟!

— نعم ماشيات.

— من جاج؟

— بل منه لجفيد.

[illegible] بل [illegible] بالفخر والوهي ب. فنحن لا نفخر

وكانت الدهشة الثانية مقرونة بالفخر والعجب ... يمشين كالرجال،

ونعجب بالفتاة اللبنانية المهذبة المنعمة، التي تستطيع ان تخشوشن كالرجال،

بل [illegible] تباري الرجال وتفوق بعضهم عزمًا ونشاطا.

/ كرم

٥٠

سرت في الجماعة بعد وصول الضيوف الجدد، نسمات أنس منعشة،

فغاض الضجر، وفاضت الأحاديث.

وكانت الدهشة البالغة أن إحدى الحسان(1) «بنات هذا الجيل» من

الأديبات اللواتي يحببن العرب، ويعجبن بالآداب العربية، وبكل شيء عربي. وكلهن،

مثل زوجة الدكتور فرحات وشقيقته، يحسن الفرنسية، ولا يتكلمن بغير العربية. وهن

من قلب لبنان، يا حادي الغربة، يحببنه حب مؤلف «الجبل الملهم» له، ويغرن

عليه غيرة ناظم النشيد اللبناني. هي ذي اللبنانيات العربيات الكريمات،

اللواتي تفاخر بهن، وتطأطئ الرؤوس لهن.

سأل أحد الأدباء — والكرب حتى تحت الأرز يشعرون — ما هو

الجمال؟

فتناول الموضوع بعض الحضور، وأُبديت الآراء. ثم قالت إحدى

الحسان: الجمال ذوق، والأذواق تختلف.

فقالت الأخرى وهي أجمل منها: الجمال الحقيقي هو الكامن في ما

ظهر من الجمال.

فصفقنا لها بالأيدي، وهتف الأديب قائلاً: مرحى مرحى! ثم

---

(1) هي الأديبة فيولوس حمود. قد ترددت في ذكر اسمها، ثم قيل لي أن لا بأس بذلك. وما ذكر الكاتب لها، وقد ذكرها الله تعالى فشرفها بالجمالين، جمال الوجه وجمال العقل. إنه الكريم، وإنه الحفيظ.

همس في اذني : لولا الخوف من التحاسد بينهن لانتخبناها ملكة الجمال .

كنت ابعد الناس في تلك الساعة عن ملكات الجمال الاصطناعية، وعن الصيفية، وما كنت في تأملي الجمال اللبناني تحت الارز، مسترسلاً الى العاطفة اكثر مني الى العقل. بيد ان للمكان فعله في الرؤوس كما في النفوس. فان اقل النساء جمالاً هي جميلة تحت الارز. هذه هي حقيقة لا تنكر. وهناك حقيقة اخرى: ليس اجمل من المرأة الجميلة غير المرأة الجميلة تحت الارز.

هذا ما كنت اقوله في نفسي عندما باغتني ذلك الاديب بفكرة الانتخاب الاصطناعية.

ثم خرجنا من الظلال، ومشينا بين الصخور، في بهرة النهار، وانا لا ازال اتأمل الجمال الشائع، وافرش زاويةً في القلب للبناني منه، فغيرت رأيي في الجميلة تحت الارز، وقلت: ليس اجمل من الجميلة غير الجميلة بين الصخور. واني على صواب في القولين.

ان الجميلة تحت الارز تعارض بمجالستها شيئاً جميلاً في محاسن المخلوقات، ولو غيرها المعارضة، لا تزيد بوفق تلك المحاسن /

المحاسن البشرية. وان الجميلة بين الصخور لألطف وابهى وانعم ما خلق
الله امام اشد مخلوقاته قسوةً ووجومًا وهمودًا. انها في المحيط الاول
مستطحة للخالق في الابداع، وانها في المحيط الثاني آية من آياته تعالى.
وهناك فارق آخر. ان بعض محاسن الجميلة المنعَّمة، كنور
العين، وبريق الابتسام، تزداد حسنًا في الظلال. اما الوجه اجمالاً
ببشرته وأسِرَّته، وبأنواره وظلاله، فهو اجمل بين الصخور، في نور
الشمس، منه تحت الاشجار الظليلة.
وبعد هذا التفلسف اقول ان اجمل ما يفعل الرجل في تلك الاعالي،
بين تلك الصخور، هو ان يقبل الوجه الجميل، اعجابًا واجلالاً، ولو كان وجه امرأته،
وان ذكرى هذه القبلة لتنطبع في القلبين، قلب المرأة وقلب الرجل، مع ذكريات
المكان، فترسخ رسوخ تلك الصخور، وتظل خضراء مثل الارز. فهل فعل ذلك
احدهما نحن الرجال؟ وهل كان "الفيلسوف" في تلك الساعة الفريدة، قدوةً
يُقتدى به؟
لا ما نفعل التجلة والشهرة. فقد كنت "فيلسوفًا" محترمًا (وقاك
الله الفلسفة والاحترام، ايها القارئ العزيز، وجميل ذكرياتك كلها جميلة)
اقول

اقول : كنت ساعتئذٍ "فيلسوفاً" محترفاً، وما كانت ؟

وا اسفاه ! القبلة.

عفوك، ايتها القارئة الحسناء. اقبل يدك، واضع
زهرةً من العُصْفُر — زهرة الجبل الاولى بعد الصيف — على ضريح
السَوْبعة التي فقدناها . . .

اعود الى قصة النهار. بينما نحن جالسون على الصخور، سمعنا طلقة
رصاص، فبادرنا الى ناحية الصوت، فاذا بالصيادين يتبارون بالرمي، ويتفاخرون، واذا بشاب
يحمل سيكارة بيده، واقف على خمسة اقدام منهم، والاصوات فوضى من مستعجم
الكلام [illegible]. دنونا من اصحابها مستفهمين، ففهمنا ان
احدهم يدّعي، والثاني يتبجّح، انه بطلقةٍ واحدة من رصاصه مسدسه،
يشطر السيكارة التي بيد الشاب شطرين. والشاب واقف هناك
غير هيّاب، وقد تملكت فيه شجاعة البُلْه. فاوقفنا هذه البطولة في
عزتها، وقلنا للقوم سائلين: هل ينقص شيء من مهارة الرامي بأن، اذا كانت
السيكارة بيد الصخر، لا بيد الشاب؟ ضعوها على الصخر، وهاتوا
برهانكم ان كنتم صادقين.

مسمع الابطال لنا، فأُوقفت السيارة على الصخر. ثم أُطلق عليها البطل الاول مسدسه، فراحت الرصاصة في الهواء شاردة، واطلق الثاني رصاصة، فاصابت الصخر، وما تقلقلت السيارة. سبحان الله، والحمد لله. هنيئاً للراكب بمهارتهم، وهنيئاً للشجاع الابله بسلامة يده! وها ان البنادق تدوي بين الصخور. فقد مل الرجال الانتظار، على ما يظهر، وراحوا يتلهون بالرمي. ثم سمعناهم يهزجون، ورأيناهم، والبنادق بايديهم مرفوعة، حاشدين في الطريق المؤدية الى الجبل الاعلى. فقد ابتدروا في المضيق الرفاق القادمين من الشعلوق، وراحوا يلاقونهم هازجين:

يا بيكنا طُل وشوف
لمع البيارق والسيوف.
يا بيكنا طال المدى
وسلوحنا اكلها الصدا

وأُطلقت البنادق والمسدسات، فرُفع الستار عن مشهد العيد، ورفعت النساء اصواتهن بالزغاريد.

وكان الضباب تدغدغ وجه الجو، فتكاثف فوق الجبال، وبدأ في تلك الساعة

الساعة بذوب، فأمطرتنا السماء رذاذاً، كان له نغم شجي بين أغصان
الورد، ومنظر شيق وهو يتساقط في الغابة كخيوط من الفضة.

اذ ذاك جاءني نبي الجماعة، الذي كان يتنبأ عند الليلة البارحة
بأن سيكون اليوم ماطراً، جاءني وفي طرف عينيه النكتة، وفي طرف
فمه لفظة الظفر. فقلت له قبل أن يتلفظ بها: حاشا ربك
أن يكون المشهد ناقصاً. فقد مثّله لنا في الصيف، وها هو
سبحانه وتعالى، يرينا من جماله الشتاء.

فهز النبي رأسه وهو يقول: جمعنا والله جمعنا.

وكان وقت الانتظار ينقضي سريعاً. فهاكم جماعة اللقلوق يظهرون
بين الصخور، ثم يختفون. وهم جميعاً ماشون! حياهم الله وحياهم. ٢٠
وكان دوي البنادق، وأصوات الهازجين، تزداد روعة في البعد والخفاء،
فنسمع من البيت صدى "السيوف"، وجلجلة "المدى" و"الصدا"،
فتفعل في النفوس ما لا يفعله القرب والتظاهر.

ومن تظن كان في الطليعة؟ من السابق؟ غادة والله من الغيد.
غادة مشقراء هيفاء من المنعّمات. وحملت وهي تتنفس
"تنفساً"

تنفساً متعدداً رهواً هادئاً، كأنها قادمة من الكنيسة او البيعة.

رحبنا بها، وهتفنا بحياتها، وأكبرنا عزمها، ثم أجلسناها
على ديوان الشرف – عباءة مفروشة فوق الحجارة – تحت الدوحة الكبرى.
وتواصلت بعد ذلك الاهازيج وطلق الرصاص، والزغاريد. فأطل
من بين الصخور الذنبة فريق من "الفرسان" يحملون على أكتافهم سيد الشقوق،
وابن هذه الجبال البار، السعيد يونس.
فرحبنا نحن به، وهتفنا بحياته، وأكبرنا عزمه، ثم أجلسناه الى جنب
الشقراء الهيفاء، على ديوان الشرف، تحت الدوحة الكبرى.
ثم وصلت متوسطة الجيش، وفي مقدمتها ولد صفير، وجبار
فتى الخير، هو ابن اسعد يونس، وغادة اخرى من المنعّمات، هي شقيقة
الشقراء. فرحبنا بهما، وهتفنا بحياتهما الخ.
ثم تجددت طلقات البنادق، وعلت اصوات الهازجين، وبانت
المؤخرة، وقد حمل "الفرسان" على الاكتاف، بل رفعوا فوق رؤوسهم، من
تقدمها، وهو روح "الجيل الملهم" وشاعر النهضة، وحبيب كل موهوب وحطوم،

شارل

شارل فرم .

فرحبنا به ثلاثًا، وهتفنا بحياته ثلاثًا، وألبسناه على الحجر الوحش بين

الشفيفتنا .

وكنا في ذلك من الظالمين . فقد كان ينبغي ان نلبسه العباءة، ولنادي

الطبيب . غير ان صوته نفى ما بوجهه من امتقاع . فقد خرج من اللعلوق محمومًا،

فاشتدت الحمى في الطريق، وكانت حرارته، بعد اربع ساعات في المشي

والتصعيد في أوعر الجبال، تدنو من التسع والثلاثين درجة . فثابر مع ذلك

وجلد، فأدهش رفاقه وأدهشنا . بل كان هو البرهان على ان القوى

المعنوية والروحية تقوم مقام القوى الجسدية، وتبلغ ما لا تبلغه، اللهم

اذا كان المرء مسرورًا مبتهجًا بعمله .

وقد قال لنا شارل فرم : ان المشاهد التي كانت تنكشف امامي، المشهد

بعد المشهد، وتتنوع في عظمتها وجمالها، انستني والله الحمى . واني أؤكد

لكم ان الابتهاج يشد الركاب .

فما اشفقنا بعد ذلك عليه .

وكانت قد سكتت البنادق، وسكت الهازجون، فنفخ

القصاب بقصبه، وبادر الرجال والنساء الى الساحة يعقدون

الحلقة .

الحلقة، حلقة "الدبكة"

يا غزيّلة العل الغنا
اشربي لقلبك هنا
يا دلك وان مت انا
بعدي من الحاجبا.

وكان اسعد يونس في رأس الحلقة، يطأ الثرى حينًا كالغزال، وحينًا كالرئبال، وصوته الجهوري يبعث الحماس في الصدور، ويدوي في الوديان والجبال، واشتد صوت المزمار، وصفق بالايدي الكبار والصغار، حبّا هلا، حبّا هلا!

ثم مد السماط على بلوطة كبيرة، صفّت حولها الحجارة، فجلس فريق عليها، وجلس الآخرون في حلقات اخرى، فجاءت بنات القرية والخدم باللحوم المشوية والنيّة، وبالمحاشي والكباب. وكانت شقيقة الدكتور فرحات تدور بالصحون، وبيدها الكؤوس، والى جنبها شاب يحمل العرق.

أدرها، ايها الساقي،

وصل: اهلًا بعشاقي.

اما زوجة الدكتور فقد كنا نراها في كل مكان، مديرةً وخادمةً معاً، فتغذي الحلقات وتؤنسها بما تحمله بيدها وبقلبها.

ليعذرني القارئ، اذا انا تغنيت بهؤلاء اللبنانيات ومثيلاتهن، أخواتي في هذا الجبل — أخواتنا، اللواتي يقفن لنا وللجيل بما هو الوارث اللبناني الكريم، اي الكرم واللطف والمروءة والوداعة.

جلست الى السماط بين اثنتين منهن، وقبالة الشقيقتين الباسمتين على الدوام. قيل لي انهما من مصر. فما ادهشني جمال الخَلق والخُلق فيهما، كما ادهشني منهما ذلك العزم والنشاط. فقد قحمتا مشقات الطريق، وذللتا عقبات الجبال، كالرجال.

من مصر هما؟ لا، يا سيدي. ان والدهما لبناني، وامهما لبنانية كسروانية. ولكن الوالدين هجرا لبنان قديماً، وتمصرا، بل تفرنجا. غفر الله ما تقدم من تفرنجهما وما تأخر. فان البذرة، بذرتهما، ما فقدت، برغم التفرنج، شيئاً من الفطرة اللبنانية الطيبة، ومن النشاط اللبناني. حيّا الله الشقيقتين اللبنانيتين. وبما انهما جابتا ارز جاج مشياً، قد غفرنا لهما التغنغة بالفرنسية.

عادت الشمس تشق الغيوم شقاً رقيقاً، وتشرق إشراقاً
ناعماً، في البعيد من المشهد المنبسط امامنا، شرقاً بشمال.
فرأيناها تلثم البحر عند رأس الشقعة، وتشع فوق جبال الكورة.
ثم لوحت طرابلس من خلال حجابها الشفاف، وظهرت، بعد قليل، ارواد.
استمرت الشمس تمزق السحب بأناملها الذهبية، ففتحت نافذةً
لنورها فوق البترون، وباباً فوق دوما، وشرعت تنسج من ذهبها،
ومن فضة السحب في جونا العالي، فتلبس الدرز والصخور
السرابيل الموشّية.

ودّعنا هذا المشهد الرائع الساحر، وعدنا جميعاً في اقرب الطرق،
اي في المفرقات التي لم نطرقها ولم نسلك فيها. وكان يأخذ بعضنا بايدي
البعض، ونحن نعبر المنحدرات التي لم تصلح حقاً للتدحرج والزحلقة.
ومع ذلك كنا نسمع صوت القصب على الدولم، ونسمع الهاجزين
يهجزون. وكلما وصلنا الى منبسط بين الصخور، او الى سفح

منه

في الجبل ممدود، كان يعقد الراقصون والراقصات الحلقة.

«الدبكة» حتى النهاية!

وهذه اوزة من الاوزات الوحيدات، ترافقنا في الدوران، تتبعنا لهفاً وكرباً، ثم تودعنا، فتحجبها عنا شوامخ الجلاميد.

وهذه الشمس تغيب، والقصب يودّعها بنغم الفراق والعتاب.

ونحن لا نزال في منتصف الطريق، فنثب حيناً فوق الصخور، ونتسلل حيناً تحتها، في غسق يعدو فنباريه، لنصل الى الطريق الى تلك الاماكن.

وهناك، أنارت لنا السماء بعض النجوم، فرافقتنا

الى جاج

امين الريحاني

الفريكة في ٢٠ آب ١٩٢٤

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة الخامسة: إلى اللاّلوح

١. على نهر ابراهيم
٢. الانتداب اللبناني على اليمن
٣. عين البطرك
٤. اللاّلوح
٥. المير بشير
٦. ما تمتاز به المأدبة اللبنانية
٧. الآفاق

ص ٢٤٢

الخامسة

الرحلة ~~الرابعة~~

الى الأرز (١)

١- على نهر ابراهيم

٢- الانتداب اللبناني على الجبة

٣- عند البطريرك

٤- الأرز

٥- المير بشير

٦- ما تمتاز به الأديرة اللبنانية

٧- الاوقاف

١- ٢٢

٢٤٢
٢٠
٥٠
٧٥
٢٢

(١) المعروف باللقلوق

~~[illegible]~~

الخامسة
٢٠٥ الرحلة ~~الرابعة~~
١ يناير
الى الألكشدون

—

في جبل
لا تزال في البلاد التي نزح منها الاجداد، ان
وانه ليجدر بنا قبل ان تتحرك القافلة، قافلة السياحات، ان
نعرّف الى القارئ رفقاء الطريق، وهم في هذه الرحلة،
بث الله لنا فيهم السلام، كشبدون.
اقول "كشبدون" ولا اقول "كشدّ" جريا على اسلوب
المتنطسين، لاني اكره هذا التجدد اللفظي، كل هذا
البحث اللغوي في الادب الحديث، وان كرهت تلك الالفاظ
السلاسل؛ الساكنة العين، الساكنة الحاء، الساكنة القلب، الساكنة الروح -
فلا استعمل منها عامداً، الا اذا جاءت في آخر الجملة وعند الوقف
قفزة منه! انه مع ذلك يتحامى على القلم فيأمره بالوقف، ثم
المائلة! انها مع ذلك تتجاسر في آخر الجملة - وما اكثر
بالجري، فانه متحكم. اما اذا جاءت الكلمة التي يجب الوقف عندها -
الكتاب الذين يحسنون انتخاب الكلمة، وفيهما ما هو
فلا حرج اذ ذاك، ولا يقصر من الوقفتين، اذا لم يكن
اخبث من الموت، فيها تلتقط الاذان اللسان الى الجرادين.
سريع الحركة خفيفها، كما يلتقط الفخ الفرنجي الجرادين
اما في "كشبدون" فلا خوف عليك من العين الساكنة - من
الوقفة التي هي اخبث من الموت. انك في
القلب الساكن - من الوقفة التي هي اخبث من الموت
لهي بحبوحة من الحركة بل من الحياة. ~~X~~ المتنطسون -
"كشبدون"؟ ان يتقبل منا ارباب اللغة النطاسين - الفصحى
عسى ان يتقبل منا ارباب اللغة الاتقياء، وعسى ان يكون لنا
هذه الفضلة اللغوية من الموظفين الاتقياء، فتنزل آلامنا العقاب
كما تنقل الله الفاكهة للاتقياء المؤمنين
٨ من لدنه تعالى ما يكون للاتقياء المؤمنين

العقاب

(٢١١)

الصعاب، ولا نلقى في الجبال غير الاصحاب،
وهانحن في الموعد المعين للاجتماع على نهر ابراهيم، انما في غير
المكان المعروف المكشوف، الذي كنا نرى فيه، الى جنبي الطريق،
عند الجسر، قهوة ونسوة وخيمة وأسرة في نظرة واحدة.
اما النسوة فلا تزلن هناك، يقفن في الابواب، وفي خدودهن
الحلباء والرطب، وعلى ثغورهن ابتسام الحبيب، وتحت الجدائل
المستقلة بالإثمد أهيل وزهيب. تباركت يا جبيل بناتك
الفينيقيات، وتباركت شيخك القديم الذي لا يزال يرعاهن،
ويجرم من نار هيكله في احتفائهن. ما ظللنا الطريق،
وقفنا بين تلك الهياكل، ثم عدنا ادراجنا. يدعونا الى الايوان،
ولكن معالي النهر ارتفعت وتراجعت، فجاوزناه ويعزل عن العموم — الانعام —
في البستان، وراء الجادة العامة، ولنقول في الضيافة
من بني آدم.
نعم لقد تحدث النهر، وطار بحسه والابتهاج، على الطريق، فهوة
القول الصريح الفاصح. كيف لا وقد غدا الدكان وراء ستار من العرائش
عند المضيق، على الضفة الجنوبية، وراء ظلال الدلب والصفصاف
والقصب الفارسي، في كبوخه، الذي لا يزال عامرا بالمكارية
اننا في الطريق الينا نمر بجسر الحجر القديم، ارضه عالية مفروشة
الى جانب الطريق بين البحر والجسر، زراعي جديد في هذه
والمزارع. وبستان غرسا جديدا يبنى ويشى، ولكيف تتسع هذه البساتين
بالموز والليمون. فلا نكاد نسأل على سؤالك. لهذا
الاراضي القديمة حتى تصل الى ما يكب على تتسع عباه
والنهر اوطى منها، وفيه الاذواق والمنخفضات
بين الطاقة المائية فوق مستوى عن السائلة
حتى ترفع الرعن نحوها الى ما فوق
النهر
فتحمل /

فتحمل اليها الحياة، وتبعث فيها اسباب العمران والثروة.
وهناك على ضفة النهر الاخرى مطحنة ومعمل ثلج على الماء،
ورجال ونساء يشتغلون فيهما، ودواب محملة تروح وتجيء، وغنم وبقر ترعى
بين اشجار التوت، واسراب من الطيور الدواجن تنعم بنقاقة بجنبات
الطاحون، وقبالة معمل الثلج هو
اما القهوة فهي وراء بيت الطاحنة والزراعية والصناعية. وان
التمدن الحديث بادواته الاقتصادية، ان فيها خدامة يحسنون
في القهوة مظهراً آخر من مظاهر الرقي، وان فيها صفافة لبواسق
الخدمة، ولابسين يكونش في الحديث. من الموائد القائم
الدلب فخماً جليلاً، ينبسط ظلاله على صف
الى جنبها، في خط ذي أهلّة طويل، والزبدون فيه
الساطون، يفصل بينها وبين النهر، ظلال الدلب والصفصاف.
وقلما تثقل او تجف تلك الظلال، وهو قلما يجيء اصفر اليدين.
لما يغشيها على الدوام من النسيم ورحمه الرطبة المالحة، وان
كان جاء من البحر يحمل اليها شتاءً، فيتزود منه طيب اريجها
جاء من الجبال يمر بالبساتين، وهناك على هامش القهوة بستان
لينشره في تلك الظلال. دونه بستان من
من الزهور، دونه بستان من البقول، في شعب الوادي
الموز والليمون، يختفي اقصاه ولا اثر لهن في هذه
ولا علم للحوريات الفينيقيات، في احدى نوافذ
اما اذا ابصرت ورد الخدود
الجنان، في اطنافه الرحبة بدار جميلة
البيت، بيت صاحب القهوة الشبيه البستان القريب منك.
فلا اظنك انك تؤثره على ورد الغبطة الرحيبة، ويدخل
ذلك لان جو المكان يرفع بك الى مستوى والاطمئنان، فتكتفي
على القلب سروراً مصفى بصفاء السكينة ومن النسيم بطيبه، ومن النهر
من الورد بمنظره، ومن الصفصاف بظله،
بخريره

٢٢٨

ايام

ثم هو امواجه.
وقد تقف على شفا الضفة وراء الدرابزون تنظر الى تلك الامواج،
كما يقف الناس على ظهر الباخرة ينظرون الى البحر، فتسترسل الى احلامك،
فيحدث اثناء ذلك الحدث العجيب، تتم المعجزة، فبينا انت تحدق بالمياه
الجارية ينعكس المشهد، فتظن نفسك على ظهر مركب يجري
في النهر جريا معاكسا لجرى امواجه التي تبدو ساكنة. هي ٢١٢
نكتة في البصر تخدعك، فيصور اليك انك صاعد في النهر
الى الجبل! وكنت تؤثر مثل هذا اللهو في النزهات، الحقيقة
واذا كان الامر كذلك مثل هذا فان في الاوزة وهو يخوض عباب
النهر ما يستوقف شتى النظر والتفكير. هاكه في مياه بالقرب
من الطاحون، وهناك اوزة تتهادى الى المياه، فتخوض الرقراق
ماشية، فتغمرها بعد قليل حتى جناحيها، فتنشرهما وهي تركب
ظهر الموجة، فتجري بها تجاه البحر، ثم تعود تلك الاوزة
صعودا في النهر وهي تسبح بهدوء واناة وطمأنينة، مع انها
تغالب المياه الجارية عليها، ولكنها لا تنهض ولا تختصر
العودة، بل تستمر تسبح الى المكان الذي نزلت منه، فتعود
الى لهوها ومرعاها، الى حماها تحت حفافات الماطحنة.
ليس ما ذكرت من امر الاوزة بأهم ما استرعى نظرك اليه
فانك اذا صبرت في مراقبتها بعض ساعة فقط تعجب لفطنة فيها:
فهي تخوض عباب النهر بضع مرات متوالية، فتركب امواجه نزولا،
وتغالبها وهي تسبح صعودا، وبما ان العودة عليها، السباحة
عكس مجرى النهر، فهي تدرك مقدار ما تستطيعه، فلا
تمعن في الركوب نزولا، بل تقف عند حد، فلا تنثني الا
وقلما تتعب، ومن هناك تعود سابحة الى حماها تحت حفافات
الماطحنة. انها لبطة فطنة حكيمة، وقلما تجد بين
البط البشري من يدرك حكمتها ويعمل بها، فكم من
الناس

أيام

الناس يحسبون للعودة حسابًا في ركوبهم مطايا الإطماع
واللذات؟ فقد لا يروقك مثل هذه الأبحاث
العفوية أيها القارئ. فهي نحنه على
قولا بأسلوب الإطناب في وصف البط هوى في نفسك،
صفحة النهر، الناعسة في تلك النفحة أمواجه الزاخرة
في غلائل من النسيم العاطر. جلسنا الى الموائد في ظلال
الدلب. فجاء الخدم بطاولة اللعب، ثم بالأراكيل والقهوة،
وبعد ذلك بالعرق والمازا، ثم بالغداء، ورأس محاسنه
سمك النهر المشهور. فأكلنا السمكة تلو السمكة ٢١٤
حتى رأسيها. والعفو يا أيها القارئ العزيز، فقد نسيت ما وعدتك به
وهو أن أعرف إليك الرفقاء. فأنا فات الوقت وما تحركت القافلة،
فأنا في انتظار من لا يسرع في عمل من أعماله، إلا إذا كان الخير في
ذلك العمل لغيره، لا لنفسه. القدم ~~…~~ معًا –
ها هو طالع علينا كشمس تموز، شمس الظهر والآن
مبسوط الذراعين، مورد الوجنتين، رشيقًا، مثلما بالبنان وبالقلب
والعادات. ها هو يدرج بينه البحر الأبيض وبحر الظلمات. رجل وامرأة، من الشعوب
القاطنة فيما وراء البحرين، مثل الورد ينثرون
هو شارل قرم الذي نهض من فراشه ذات يوم
الشهرة أمامه تحمل إليه القهوة والسكارة على طبق من الفضة، وشبهها
الكليل من الشوك؟ هو الإكليل والأكاليل، رفعت رأسي
بدنه، ونظر بلطف إليه، نظرة واحدة لا غير. ثم وقف أمام المرآة
بعد خروجه من الحمام، وضحك ضحكة "رابليه"(١) ولكنت نسيًا
فقالت الشهرة: يا ليتني عرفتك قبل هذا.
منسيًا.

(١) نسبة الى فرانسوا رابليه (١٤٨٢-١٥٥٣) الكاتب الفرنسي المشهور بتهكمه ومجونه.

٢٤٠

وراحت تتأثر سارقوم لتثأر منه. حفر شارل هاري، رهام
الشعراء في كل واد يهيمون. وها انه الإنساني بوادي
على وجهه في الأودية —، يستنجد
أجدادنا الفينيقيين، وادي أدونيس وأفروديت
بهم من الطاغوت. جاءه منه أميركي ليبحث
وهاك أحد علمائه الشهرة حورية الطاغوت، ويا له، إذا ظفر به،
عن حقيقة هذا الشاعر اللبناني الفينيقي الفرنسي، لا أساطير لا ذلك طبه. فإذا تبغض
أقول إذا ظفر به لأنه قد يكون من أساطير وترى عليه أن يسأل له لماذا
انه حقيقة شعرية بشرية تلمس وترى سائح خرج من الحمام
ضحك تلك الضحكة الربلية صباح اليوم العاطر؟ أو بجنس هذا العاقل الربة الحمراء
أمثل هذا يكون إذا كان البلاد؟ حتى منه أميركيه
حورية الطاغوت؟ أما طاغوتهم بسلاسل الملك قبلك المغربون، وودوا
من بحسن الكلام ومنعة الكاس التي شربها
لو كانوا نسيانات
وخمول ذكرى في أفواه —
وهذا أبو ملحم جاءنا بشيء؟ وما اسم ديوانك
— وأنت ابتدأت؟ وأين تعلمت؟ وهل أنت متزوج؟
الأول — وكم ديوان نظمت؟ وما اسم أمك؟ وهل القراء
وهل زوجتك شاعرة مثلك — زوجتي كاتبة — وما هي المشاكل التي تعترضها
في هذه البلاد يقبلون على الشعر؟ والألوان — و
على سواها — والشرب — والألعاب ~~من الأطلس~~
جاء هذا الرجل من لدن الطاغوت، جاء
دون الأطلس وراء الأوقيانوس
الذهبي [illegible] لكيلا تبيت آدونابار
بجمع منه البلاد العلوم أخوته

٢٤١

~~ص~~

[illegible]

اجواء الاهداء بكليين الذين يسوحون في ارجاء مستكشفين عجائبها

وغرائبها، فيدخلون المدينة مع الشمس ويخرجون منها مع

الشمس بعد ان تكلموا وقابلوا ~~ويحدثوا~~ الى كل من هو

ذو شأن فيها، ثم يكتبون كتابا عنها ولا كتاب

عجائب المخلوقات والحيوانات. فتاة ذات عينين

وجاء الرجل الاديب ~~[illegible]~~ زوجته الاديبة - [illegible]

جامدة، وهم رقيق [illegible] الوفد جاء يحمل الى شارل وهم تلك الكأس ...

جاء يقتله. فاصطحبه شارل بالسيارة، والاستحمام [illegible] المشهور

الحالودي المشهور وادي ادونيسيه وانه منه

هذا الذي يقول ان شارل قد اخذته السكينة لينجو منه. تمنى

[illegible] حملت شارل ذلك الاديب السابق [illegible] سلسبيل

الطاهرين به [illegible] ابطال الحديث وهي صفحتهم

هو ولولا انه كان معنا في ابطال [illegible]، ارتشفنا العزيز

الحنين ومخلط المساعي [illegible] الضيق والعرق

ابراهيم حتى لا نحكي نحن الاوائل. ومن [illegible] الكل

فالسلام عليكم [illegible] من اجل [illegible] في لفورلوران

رأسه. كانت [illegible] لذلك الاديب فلسفة [illegible] كان هو المحقق

سمكة الذرة حتى [illegible] التحقيق بعد ان [illegible] السؤالات

~~[illegible]~~ واجلسه في كرسي [illegible] منه

~~[illegible]~~ وضرب عليه [illegible] جاوبي

علمه وعلى اوجه الاديبة. جاوب ايها الرجل. جاوبي

ايتها المرأة. ان من كلمك الان يحتز رقاب الناس،

هو يضحك الضحكة التي ضحكت العرجاء و الشمطاء والعوراء

٢١٦

أخرى

ومن ~~رفقتنا~~ رفقائنا الأديب العالي الجبين الناصع السحنة، ذو المال
والنسب، توفيق حسن الشربتلي. فلو لم يكن توفيق أديبًا مبتكرًا، أو
متأدبًا متحولًا، لكان بأشكاله من ذوات الأدب أو مستنطقًا في
الحكومة. فهو في سؤالاته يبدأ دومًا بالألف، ولا ينتهي
بالباء. ~~[illegible]~~ لأنه يعود من الباء لينتهي بالألف.
جاء توفيق يتجدد ابراهيم علي الأدهمكي. وكان عمه ترجمانه - عمه
الإسكندر السكاكيني، وهو يحسن الإنكليزية كما يحسن تصريف الأمور المالية
ويحسن كذلك المكارم والمطارف في الأحاديث الحافلة والمالحة.
وكان بين الرفقاء سيدات وآنسات لبنانيات يزيّن
المجالس بالعيون النواعس، والعيون النجل. ومنهن أميركية
ذات العين الجامدة، وسألتها إذا كانت تحسن الفرنسية.
فقالت: وا أسفاه لا. وسكتت
وسكتت لذلك زوجها الشديد تعرف وعرف الحق
ثقال، وقشرة جامدة - تذكروا الأبعاد - أمام المدافع الرشاشة
رئيس الطبع عليه الملازم ابراهيم، والعائدون توفيق والإسكندر
—

٢٤٧ ٤

الانتداب اللبناني على اليمن

وركبنا السيارات التي طوت بنا
خرجنا من القهوة سالمين جميعاً، فعطفت هناك الى طريق لولبية
طريق البحر بضع عشرين كيلومترا حتى ضواحي جبيل
حديثة العهد، حسنة التعبيد، فمررنا بالسلاط القرية الوحيدة بين
الساحل وطرزاي. وفي السلاط كنيسة قديمة لفتت اليها نظرنا
فقيل انه من اثار قديمة في لبنان لفتت نظرنا الى اثر قديم فيها
وعندما ... حجارة منه عهد او من عهد فينيقي
فينيقي، او ان فيه شيئاً فينيقياً. هي ولا
وهذه الكنيسة بنيت على ما يظهر من خرائب قديمة
ريب سابقة للعهد الروماني السورياني نعم هي فينيقية
وهذا الطريق يزداد اعجابنا كلما ارتقينا فيه. هو احسن ما رأينا
من الطرق التي لم تظفر بعد بنعيم الزفت، وهو منه الساحل الى طرزاي
اثنان وعشرون كيلومترا، يشرف على واد الى اليمين منبسط
الارجاء كثير الاخضرار والحراثة (۱) وفي منحدراته المقابلة لنا قرى عديدة
منها القرية المدعوة جبل العبوده، وقرية الحصون، رأينها
سهل لطيف الانحدار، لا كما حدثت لنا بعض ... لنا
نعم ... مستحق، وفي ذلك البرهان
البرهان من بير الكهنتي، كأنها في قعر واد، اذا نظر اليها ... زوقوف
والدليل على ان حقيقة الاشياء لا تظهر كاملة اذا نظرت من
واحد، او وجهة واحدة. فالحصون من بير الكهنتي مدحوة في
الوادي، والحصون من طريق طرزاي قائمة على صدر الوادي
منبعجة به. وفيه قدم نبع
في طرزاي التي تعلو عن البحر ثلاثة الاف
عزيز وغيضة ودكان، وشبه نزل اسرته البيضاء بادية للعيان

(۱) راجع/ ... الحالك

٢١٩

٢٤٤

٨

[illegible] تجمعها نور الشمس. وهي كلها اي الخيمة والنزل والركان

مشرف على الوادي الذي تركت طرزاي على منكبيه وتنشر

جلبيها. والذي اشترى بين الاحليب بثوبا للفلاحين وار الحسن

مزروعة. قيل لنا ان اشتره لوابين

ذلك الوادي المنبسط

جلسنا في الخيمة نستريح ونسرح النظر في ذلك الوادي المنبسط تحت ذلك الجبل "العودة"

نحتسي شرابنا نغرب؟ المدعوة فيه. هناك نظرة الوداع

الى كنز الاجداد. نظرت اليه النظرة الاخيرة

واجتمعنا في الخيمة باحد ابناء الحكومة اللبنانية الذاهبة

احد ابنائها الابرار الحاملين في صدورهم ذكرى البهجة وعلى صدورهم

في عروة الزر العليا شريط جوقة الشرف [illegible]

[illegible]

الزرد [illegible] والصيد" المتمازة تتبعها عن طرزاي الى قرطبة

تتسحر الطرق الهجج والألوف هو الطريق الذي سلكناه

خشنة وعرة

ولا فرع يصعد الى الاكداد

الادواع شديد

وهو كثير التصعيد والانشاء الهجج التي تعلو

عكس ما تقدم في التصعيد وصلنا الى ابج سند بابا

وبعد كوماتي متر [illegible] تنبسط بهذه

وهذه البحار وطريق الخيل العربية العالم

ثروة الاب وبما ماله قدم عنده البحار. هناك لبث حذيفا بين الناس ؛ خدعة

الارمة نطلل حنو. في كتاب النسل الشريف

بحائها واحائها الناشر علمه في ذلك

للؤلؤة البادية، الفرس التي اكتسبت شرقا وغربا

المنتشرة سلسلتها في العالم ؛ في لندن ؛ في سان فرنسيسكو

وانك حيث تكون في العالم ؛ في لوكيو او في لندن

حين تقول الخيل الاصائل تقول العرب

او في لنيغراد

ونحن

[illegible]

٢٤٥

٩

وكنا في لبنان الاوقات نجوب في الجبل الغربية ابتداءً من جبيل حتى الكورة
الأحسن ، الغاطن هذه البلاد ، القانع بقسمته في الحياة نظلال
(٢١٩)
سندبانه وذكرى بطولة ابنائه
هاكم عمال الساقية يعملون في تبليط الطريق . وهاكم في الجبال ممالكم
الهول والجلال شاهده بعد خروج من الحج . فقد فل الاحجار ، وكذب
الصخور ، ودكت قمم الجبال بمعاول ونصف . اما الوادي الى يميننا
فهو آخذ بالتفلت ، سامق ثم سامق فيغدو فوق [illegible]
الحج ظليلا فاتما مستحيقا . وحلوحا عندها
لقد ذكرتني هذه المشاهد الرائعة بجبال البحنة لونها كلون الصخر
بدا على قمة من القمم بيت فلاح - كقوم حجارة يبنون بروحهم
الذي قدت منه . وكذلك في البحنة فانهم [illegible] فتختلط
وحصونهم على قمم الجبال وحجارتها باللون الواحد . فالاشارات هنا
[illegible] للعدو الصائل . لونا تختفي
[illegible] بالبحنة يتخذ من لون محيطه
بيان ، وهناك بالبحنة ، شان الطيور دفاعا عن النفس
هو فيه من الاوجار ، ما برحوا يلبسون العباءة
هؤلاء العمال والنطارين في القرن الماضي
الغصبة الامام المقاصبة اذكر . هي العباءة الاميرية . لك ان تقول
هي العباءة العائلة الذكية التي لا تزال تلبس هناك ، وان الجبلي اخوان في كل مكان ،
ان الجبال جبال حيث كانت ، وهو شبه ذلك .
الا لم يكن الامر كذلك ان هؤلاء اللبنانيين يذكرونني
الى ذلك ان اسوار [illegible] من سحناتهم واشكالهم ،
وفي الكثير من احوالهم
مع عهد واحدة

١٣١

٢٤٦

١٠

اليمن ١/

يا اهل اليمن. يا جمجمة ~~المسترسل~~ الطويلة ~~...~~ العالم المجد العالي،

ذوي الانف الطويل والوجه ~~المستطيل~~ المخروط، والفم المستفيض

لهم من صفات عرب حمير. فمن الصلة يا ترى بين اللبنانيين

وبين اولئك العرب؟ هل اللبناني جد حميري، ام هل حميري

جد اللبناني؟ السابقة للتاريخ؟

اني اجنح الى الاعتقاد بان الهجرة القديمة

كانت من ~~...~~ الشمال الى الجنوب، وخصوصاً بعد العهد الجليدي، اي منذ

~~...~~ ان ... البلاد الشمالية حتى البحر المتوسط، الى البلاد الجنوبية،

الاجيد الذي عم البلاد ... فنزح كثيرون من السكان الى ...

خمسين الف سنة. فنزح ... الى ... ال تقع لنا ذكرها

فهل اصح على ما اعتقادي ان الهجرة القديمة كانت من الشمال الى الجنوب، ومنه

~~...~~ المعروف حيوانات، الى حوران وهمدان في اليمن!

لبنان في هذه البقعة المباركة، شعب وطن قدماء عنده الجبال،

وما يدريك ان الادوا هم من سلالة ... هرب حسوبا،

هرب من ~~...~~ البحر الجليد

سار ... بعد ذلك بلبنان. ... الى جبال مثل جباله،

وما توقف، وما اطمأن، ان عندما وصل الى جبال من الحق

وما يدريك ان الزيود اليوم، وهم يرتبون رؤوسهم باعصاب من ...

(الكان) والموارنة الذين يزرعون الكشف في ... بسوم الجبلية هم

ابناء عم، هم جميعاً سلالة جبلية واحدة.

وما يدريك ان زيدي زين العابدين هو منحدر من آدم

زينا الالاهة. افلا يحق للبنانيين بعد هذا ان يدعوا اهل اليمن

وان يبسطوا حمايتهم على تلك البلاد السعيدة. فما قول غبطة

البطريرك عرضه بانتداب لبناني ~~على اليمن~~ في صنعاء؟!

(٢٢١)

٢٢١

أرليس

عين البارد

وصلنا الى رأس الوادي الذي كان يزداد ضيقاً ويقل عمقاً
كلما امعنا في التصعيد. وفي هذه المظاهر الجيولوجية (حتى في الجبال العالية
خصوصاً) لونها مجردة مما يخفيها او يخفي بعض نواحي نموها، ما يستوقف
الانتظار ويسترعي الابصار.
فقد وصلنا بعد الاشراف على الوادي الى الدخول فيه الى رأسه مدخله،
وضيقه، الى اخفف مواطن ضعفه، حيث احترقته قديماً ارى ملايين من السنين
ملاءت ارجمه الى
وعندنا لنقول قديماً نعود في علم طبقات ارضها الطائفة في شرعت تحفر
تراوح بين الرعد والعواصف تسيل السيول انها انسابت المياه، من هذا المنحدر، هذا المضيق، فيزداد الوادي
في هذا المنحدر، هذا المضيق،. ويزداد الوادي
في الوادي عمقاً وتزداد قوة كلما ازدادت الحدار ١ . . بعد الاساس الصاد
عمقاً وانت على التراب جاء الاساس للفلاح وارع في التراب الخطر
فبني الدكاك وجبس وراءها التراب نهاية الفلاح بعيد السوم
وجر البناء ودك الاساس الادعاك التي لا تنتهي
التصعيد. ويسترعي السائرات التدرك اصنافها الصخور منه والمحراث
الطرقات ولنا احيانا والاحشاء فعلة العجب
جوانب لسنوعمدة، والطريق فيه تصل بالحافظ والاحشاء فعلة العجب
جعل الضيق لتكسير الحجارة، بحر الحجارة المكررة.
فهنا اسباب قرون في آثار النجارة وايضاً لصدقي قرحم لا لي ادركت
ما رتيبت احد في القافلة فاشرت بكرام اخلاقه
ان الطريق لا يحتاج تجربة لتقدر وانا نقدر الاحد كبير . . ووقدر حمدا
خرقته بشعوره بجاه تعصيه ضيفه الاحد كبير
جميعاً جنوا بخفعو اعلم لعل اجمال الجيولوجيا مظاهر التكلس
فقد ان اجمل ما في اعالي الجبال لمن له المام بعلم الجيولوجيا فطاهر المفاجئات
والتفكك. واجمل ما في هذه المظاهر الجيولوجية

١٠ هـ

٢٤٨
١٢

ما طال بنا المطاف فانتهينا منه الى سهول فسيحة غناء وربى ملتحفة خضراء، ومياه جارية رقراقة. هو ذا منبع البركات. هي ذي الينابيع وهي ذي ثمار جهود الانسان

انها تجليه هذه الحقول ~~[illegible]~~ الخضراء المخططة الملونة المدبجة بالازهار والاصفرار. صفوف البطاطا كأنها الكتائب المنتظمة. وصفوف البندورة كأنها سلاسل من الزمرد طويلة. وحقول الحنطة والشعير، وسهول عريضة فيها اعلام الذرة، ويسمع فيها عجيج المواشي، ونباح الكلاب وصهيل الجياد. اصغ الى الاصوات الشتى، صوت [illegible] الخشنة الهادئ، صوت ~~[illegible]~~ الزراع والفلاح

وما تلك الغرفة التي هناك، انه ذلك البيت ~~[illegible]~~ الواقف على تلك الربوة ~~[illegible]~~ محتضنة على [illegible] وكان البيت [illegible] [illegible] [illegible] كأنها سلة [illegible] وامراة. على المصطبة اذ [illegible] [illegible] المصطبة ام [illegible] [illegible] الامراة الواحدة وخفوا [illegible] البناء رفقة رجال، [illegible] المودي اليهم وتبو فعون ووقفنا عند المدرج والى جنبه جوزة قديمة

~~[illegible]~~ فالمكان بارح، والصوت كان في تلك الغرفة، ~~[illegible]~~ [illegible] السماء وقضت السيارة، [illegible] الى ذلك المكان لا لغرض سوى الهوى * عجيبة الطلل ~~[illegible]~~ ~~[illegible]~~ وصعدنا الى ذلك المكان ~~[illegible]~~ [illegible] قصد عشنا محضنا [illegible] ~~[illegible]~~ العلم. قصد [illegible] نقول الفضول - وهو رض محمود لطلاب العلم [illegible] بعد ان اعترناه نقول يمكننا من ~~[illegible]~~ افادة القارئ. او ان الطحرة [illegible] [illegible] يعلم بلا [illegible] او انه [illegible] في الصخرة. او انه [illegible] في صخرة

فعلينا ان يصدق القارئ الخبر، ليس بارح وليس بركان. اولا ان الصخرة كلنا نعرفها ان [illegible] هو الشيخ صاحب هذه الحقول المزروعة وهي [illegible] اعجب من العجب [illegible] الى الاستقبال هو بيت صغير لوحده [illegible] [illegible] ان [illegible] بيت رجال الى وان [illegible] الكراسي، ودار [illegible] الاجل [illegible] العرض [illegible] الحصر والنحاس. جاءنا السيد بالكراسي والنحاس [illegible]. قلنا: الا [illegible] فتفضلوا وكان

٢٧٤

٢٤٩

١٢

الرجل

وكان الرجل قد عاد يحمل طبقاً عليه زجاجات وكؤوس -

- تفضلوا: اشربوا البيرة ثم نجيئكم بالماء

واهتموا بالعشاء للقهوة. وكيف لا تشربون القهوة عندنا؟!

وذكرتني هذه ~~[illegible]~~ الضيافة بالبيرة - بذمة السلطان الذي ارسل

الحكم السلجني لبيدوكوا بالفطور

~~وكم ناقشنا كان~~ والضيافة لاتساع ~~[illegible]~~ السؤالات قبل ان يتم عمله

تشرب القهوة سأل جد الرجال الاشداء - وقام مع الشمال

سأل نا تقلوا: حمه الواصل؟

فمن يحبه يشتهي هؤلاء الرجال - سأل [illegible] وذكرى الاخ باسمي

قال احدنا الى ~~[illegible]~~ [illegible] هو منه [illegible] الصوف

النجيب وشف الرجل هناك الذهب ~~[illegible]~~ ويفخرون ~~[illegible]~~ بالكتب

الحوادث ويقرأون الكتب، حضرة الشيخ بارك بالجوري

حالت السيدة تعرف الرجل الليل وحضرة السيد با

وقال الشيخ بارك يعرف الشاعر صاحب الكتب

بطرس ابرباتوي وحضرة [illegible] ~~[illegible]~~ ايكان اسم [illegible] هم كله

أدب التعرف بالخط الانكليزي

جبال اسكتلندة؟ قوله الحرجة: لانها في [illegible] عرق

وقد عجبني من الشيخ وعقيلة وقرينة - وهذا ! ليس

اهل الذوق الطف من زوجة - عقيلة الرجل - فاقدته قرينته

في الحرجة" فانتشر منه القصود - في الحرجة" محرومة حافية

في الحرجة" احدام ومحرم فماذا تفعل يا رجل

ذلك باسم زوجها ابرباتوي ١٢ لتفضل كل اهل بالوحدة

به؟ وزانه جاء ابرباتوي. ان ذا الاسم اللساني على النحو. على ان

الشائنة الكاتبة وكل اهل الاسد ~~[illegible]~~ بطرس ابرباتوي —

هذا الرجل ذا الاسماء الثلاثة القاطعة

٢٤٤

هو في حضن الجبال. يقري الضيف، ويلاعب بالسيف، ويبني بيته

مثل صنوه في حوران، ومثل اخوانه النسور، بين الصخور

ثم التاعطرة الحرة عن ~~[illegible]~~ الجوزة وما قدر ما تحمل

الستة

الجوز فقالت: من الحبة الالوف الى الستة

قال الشيخ بطرس: ولكن ستجربين، يا استاذ، تحمل اكثر

انفع

ما دلك وتحادث الذي [illegible] الاعرج الشيخ البه

علمت بالقهوة وبادرت [illegible]

[illegible] ومجاملة لهؤلاء اللبنانيين، فاذ حسبهم لنا

قيلات بوقوفيا

وتكريم لنا الذي هو ضرب من الاباد اللبنانية القديمة، التي تتحلى

والكرم واللطف والمعروف. هي دي الفطر الطيب

بالصاحة. هي دي المزايا التي شرفت اجداده جدنا وما

في اللاني

اف البعد

حيث شرفه في هذه الحانية العالية [illegible]

لقمة

عند التدن لخبز و [illegible] الشأن صاحب الاكرم القاطع

جيدان ودعتنا اجل الكرم الشيخ [illegible] دربنا حول البيت

المكرمة، والشيخ بطرس ~~[illegible]~~ الفاضل

ودعنا بسلام [illegible] شكل الصخرة. في هناك

~~صلو~~ في شكل [illegible]

يذكر. هناك صخرة قائمة عند القدم الى جنبها اخرى [illegible]

طويلة، والكوخ مبني ~~[illegible]~~

منظره [illegible] في استقلال. كنا نسمع الابريق

ثم جاءنا احد الشبان بالابريق. [illegible]

الشيخ بطرس كلما

ثم شربنا ماء النبع البارد كالثلج.

بالمثل: طالب الصخرة والجوزة والنبع.

كلها مجموعة

الما

٢٥١
~~٦٥~~

تدمى عين البطريرك

فلما [illegible] شاهدين: عين البطريرك

قال الشيخ بطرس: وان نقص منها جرمان فلا بأس بذلك

يا سيد، والبابا البطريرك:

يوسف السمعوني: كأن احد البطاركة حرم لوحمان

هما قريب من هذه [illegible] العالي [illegible] ما طلق

الاكم [illegible] عليهم

الشيخ بطرس: اظن ذلك.

السيد اربانوس: بل هي الحقيقة. وجاء يجب ان

تسميه الان عين الجاني

فماذا [illegible] بابا بطرس اربانوس؟ اقول انا ان الحياة (في نيتها)

لا تنقى لاحد من الناس. وان صفت فقد تتعكر

جرن ~~[illegible]~~ العماد

ـــ

٢٢٥

٢٣

٢٥٢ ~~٤~~ ~~١٦~~

اللقلوق

بحدث الاصطياف هو ظهر
على مكان في طريق الجبل العام وتحته، ويتحدر
ولكنه فوق زفت الطريق
البيدر (٥١٠٠ قدم) فيذوب ثلجه في الشتاء، ولا يحمل تربته في
الحدار اسريعاً. حتى اذا ما ذكرنا المعزى.
الصيف ما يستحق الذكر من الكلاء تقضم وتهز باذنابها -
وكثيراً ما نرى المعزى هناك
لا كلاء ولا ماء. فهو عند شتوره
اما القاع المنبسط تحت ظهر البيدر وهو لمركزه، ونوسطا
لا يعلو عن البحر اكثر من ثلاثة الاف قدم، طرق الخيرات. هو للبنان
علوه، وغزارة مياهه، خصب التربة الذي ينساب
مخزن الحنطة والحبوب على انواعها، ذلك السهل الذي يغني الذرة
ولكن اللقلوق (٦١٠٠ قدم) اعلى منه ذلك وهو مع
اللبنانيات، واعلى من ظهر البيدر، يلمع حيناً
فيه كهو اللطيفات ذلك لانه محاط بالجبال التي تدوم الى المستغرق او الملحوظ +
غزير المياه. وتحمل سيولها ما يجدد خضرة اللقلوق، فنعم
البيد، على الدوام في تلك الجبال اولياء نعمة
تكاد في علوها عن البحر العشرة الالاف قدم من طبقات
عجيبة هي هذه الطبقات الخشبية في اعالي الجبال كأن الله كوّر
تحتها وفوقها صخرة مستوحشة ~~الكاوية~~ الحجرة حفنة
الجبل، الذي هو اليوم جبال ورمى في. فاحرث وازرع
من التراب وقال للانسان: هوذا عمر ارضك
يكن ما النظر من اللقلوق تفتقر الى الشجر، فلو زرع الحور
على ان ارضه على اطراف الحقول في الاقل، تحديداً
الصفصاف والزيزفون

٥٤
١٧

للاحراج، لحمايتها من الرياح، ودفئها بالظلال، وجعلت الاقامة فيها
مستحبة لغير المزارعين. وانه لمن الممكن ان يزرع التفاح ٢٢٧
الاميركي الاحمر الفاقع في هذه الاماكن العالية، الباردة الجو والتربة
والمياه. وانه لمن الفضول والتطفل ان ادلي برأي زراعي، ونحن
قاصدون الى لبنان هو شيخ الزراعة واستاذها ومهندسها في هذه
الجبال. فقد
لنستمتك اذن عن الزراعة ونستمر في السير.
عن الطرق بمرور بعض البياض، ونعلم ان في هذه الطرق عيوبا كثيرة
ولكنها كلها نشترك بالاسم الواحد اللألؤ الذي يفتح الان
ذراعيه مرحبا بنا.
فقد تحسن الطريق واتسع الافق، واسى الجو مرتعا لاشعة
شمس الاصيل ونفحات نسيم الغسق، وفاح عبق الارض بالروائح
الطيبة التي تخجل عن العطار، حتى الكنافري، فلا يدرك
المحقق ضبطها المركبة الغامضة. تخشى البرد؟ ان شمس
والى الساحل الى الاطمئنان، اذا كنت وهي لا تحمل معها
الظهيرة هي اشد حرا في اللألؤ منها في الساحل، شبابا منها عند في جوانبه
عندما تغيب كل حرارتها، مل تودع الليل في الصيف.
ولا يخطر الانسان الى اكثر من غطاء واحد وستر حفنة
قلت مما اسلفت كلمة شعرية في حضر رأس الجبل والشعر لا يختلفان
من التراب في الحفرة. فيجب علي ان اخبرك ان العلم الوقت الذي
في هذه المسألة كثيرا، الا في كيفية العمل، وفي كان يتوجب العمل
في تاريخ الارض الجيولوجي
تحت عشرة ملايين او عشرين مليون سنة والثاني – كانت هذه
العلماء يختلفون في الحكم الاول مختلفون والدلفين
الجوزة او الحفرة الواسعة العميقة بحيرة يسبح فيها التمساح
وزادها الوحل واليحمور. ثم علت المياه في
اعماد

امطار طالت مدة، فاشتد في طميها الضغط على جنوب البحيرة،

فهدّ اضعف موطن فيها، اخترق الطبقات الكلسية الرملية

في الجبل الى الغرب، فتكون المضيق الذي مررنا به، واخذت

المياه بعد ذلك تحفر في الوادي، الذي اثر فيما الطريق

عليه، وتتوسع وتتعمق وتتفنن في عملها، فكانت الشعاب ٢٢٨

والمنعطفات، وكانت الاغوار والانجاد، وكانت البطاح

والربى، وكانت السيول والسهول والمنحدرات والغدران.

وهذه البحيرة الجافة اليوم، المتجمع فيها تراب الجبال ورواسب

السيول، المنبسط جانبها الغربي، المندسة جوانبها الغربية

الشرقية، هذه البحيرة الجافة تدعى السهل اللألؤ.

ومن اي جاء هذا الاسم؟ من ذا الذي اخترعه؟ وما السبب في اطلاقه؟ وما المناسبة

في وضعه؟ وفي اي زمنه عرف المكان به؟ وهل هو اسم مكان او جوار او انسان؟

~~[illegible]~~ رسول الشهر

وهذا الجرس الادبي

لقد تسربت الي عدوى السؤال وهذا الجرس الادبي

الى شارل قرم.

او جز ازها يقف الجهل مستعجماً -

انه لامر مكرب. بيد ان الجهل اشد كرباً منه. اي

اثرت على هذه اللفظة صاح السوم فاستفزني فاستاذنت فيها، اسال

رفيقي مستعجماً، اي حاشا عاجزاً، اجاب، ومكرها كذبت،

السؤال الثالث باسم هذا المكان ومراحله، ولا استطيع ان اجاوب عنها،

فهل هو اللألؤ بالهمزة والسكون ام اللعلوق بالقاف المعجمة

سمعت الناس هناك في الحج وطرزا يقولون اللألؤ، ورآني احدهم انبه

بالهمزة فقال انه خطأ، وانها ~~[illegible]~~ بالقاف الحق، وما كان لفظا

بالقاف يختلف كثيراً عنه لفظه بالهمزة، وسمعت منه بلفظها بالقاف

لفظاً بليغاً، ورأيته يكتب بالهمزة. ان اهل القرى في الجرود

حائرون ادناه وجاهلون فيه.

٧/

ج ١

١٩ / ٥٥

لا حرج اذن في التقدير والتخمين. فهل تمتّ الينابيع هذه
باللقلوق، من لقلق اي صوّت. ليس لينبوع من الينابيع العديدة
اليوم صوت ليذكر؛
ام هل أُوحي بالاسم طير اللقلاق؟ فهو اليوم غير موجود، ولا اثر
له في تلك الاعالي الجبلية.
مما لا ريب فيه ان العربان كانوا يردون هذه الينابيع فيستقون
ويغسلون اغنامهم — ويلقلقون، او اللفظة اللبنانية عاشيهم اي
يعيشونها بالمياه، او يحكون ما حول الينابيع فتمسي مستنقعات وحولا
يلح فيها اللفظة اللبنانية العامة — تقلوق. ان ذلك ممكن.
ولكن المتأهب من اهل القرى المجاورة وممن يعرفون المكان في
الصيف، لا يرومون هذا التأويل، ولو يؤثرون تخفيف القاف — ليتمكن
بعضهم من لفظها؟! ان اللفظة بلألؤ
عجبني قول احدهم وهو من المتحرين الذي يطفو على وجه المياه
تشبيها بالحبب
فتنقض من اللؤلؤ فيساغ وانه من البيان
عند رأي الشيخ ان هذا التأويل ما ضعف احسنه منه، واقرب الى المعقول.
بحجان. بيد ان عندي ان الهمزة الساكنة — فيشق من
ان اللألؤ — وقد قرأناه بالهمزة اوفى نفخرها
لألأ اي لمع وبرق. والمياه في حبابها
تلمع لمعانا متلألئا اي تتلألأ تلألؤا.
وقد قرأنا اخيرا وهو ان الذي اسماه بهذا الاسم
هو شاعر من شعراء عرب النعيم — ابن القوم، اول من رأى
المياه في هذه الاعالي المنتوحة تختال الى النعيم، وكل شيء
يلمع ويتلألأ في النعيم، فنطق بالشعر وقال:
اللألؤ!

ابيلح

٥٠٦

٤٠

انا الآن في قلب الحي، بين خيام العرب، بل بين بيوت الشعر وقد
تخللها نافعة بيوت من الحجر، وان في الساحة طائفة من اشجار الحور
والجوز والصفصاف، وأناساً في ظلالها واغناماً يرعاها الذباب،
وولداناً في ثياب زرقاء يلعبون، واصواتاً تسمع فتستهجن، اصواتاً
عالية رفيعة، ولهجات مستنكرة لا بدوية هي ولا حضورية ولا هجينة.
فهل هي في التطور مثل اهل الحي؟ وهل تؤثر بيوت الحجر بأهل الشعر
والهجنة؟ هل الصوت العربي يرق، والعالي يخفت، والاخشن ينعم
بين الجدران وتحت السقوف المبطنة بالكلس والطين؟ ام هل
يخجل البدوي من صوته العربي الاخشن كلما وقع نظره على الحذاء الاصفر
او الاسود اللماع في رجله؟ فيحاول ان يلطف الصوت، فتفعل المحاولة
فعلها الخبيث فتفسد وهي آخذة الى فردوس التمدن؟ ولعل هذه الشبيبة
هذا الوبيل من الادب المجانة الذي يأت الى فكر وباشر
في تشكك السيكولوجي لعلامة الاستفهام؟
هم خذان الوشوم والدو تحرر.
اللالي من عرب النعيم، وهم مثل اسم المكان مجهول. من
عرب الفصحة اللبنانية، وهو مثل اسم المكان مجهول. ومن المرجح
اما ما يجهل في هذه الفصحة الجبلية شر الكبير. ومن المرجح
المحقق انهم كانوا هنا في عهد الامير بشير الكبير،
انهم اموا هذه الجبال، او نقلوا اليها، او أذنوا في استيطانها
في عهد الامير فخر الدين المعني. ان الكبار
وهم اليوم قليلون، وقلما ينقص عددهم وقلما يزيد.
المعروفين في القرى المجاورة يذكرونهم ويقولون انهم كانوا نحو مائتي
بيتاً، اي نحو خمسمائة نفس، وانهم احرار الكون كذلك.
اما سلوكهم فاحسن ما في ظاهره ان المتحضرين يسلكون ادابهم
اما سلوكهم فاحسن ما في ظاهره تحجب المرأة،
واما اقبح ما في ظاهره [illegible]
الى المداري، وستره في جنبه ومكانه.

٢١

٥ ٢٥٧

المدير بشير

حدثنا الشيخ اسكندر الخوري الاهجي، الذي كان مديرًا في هذه الناحية في
العهد العثماني، قال: كانت هذه الاراضي في ايام المدير بشير ملك الحكومة، او ملكا اقطاعيا
فباعها المدير من اهالي اهمج ومشورية والعاقورة، ووهبهم اياها لقاء خمسة
وثلاثين غرشا ندفعه كل ضيعة من هذه الضيع الثلاث سنويا. كل
هذه الاراضي من نبع الحديد الى حدود الحدث بجانبه تحرث وتحصد وتزرع.
البلح يرعى والصك يكمل وينتج الحدي عندنا!!
اذا كان لا يشتهي
الشيخ اسكندر لينبت اللؤلؤ بالهمز.
التاريخ ولا العلم فيجب ان يشتهي الذوق" يسلم عليه،
قال هذا وسارع الى ربة البيت
كنا في الساحة امام الدار نحو خمسين ضيفا وضيفانا، يدور كل
على محور نفسه، ويأمل ان يتحاوره، او ان يتبع محور غيره للامتزاج
والتعارف والحديث
ويتذوق الانفس ما يجود به
وكان الجو صافيا شفافا، والهواء جافا ذا نفحة باردة
وكان الحديث في اول الامر يشبه بالجو والهواء، لما لطف بنا فانا الروح،
الملوكية بالغناء روح المدنية والمدينة، وما ابدأ النساء يذوب
فما بين الجوانب الفاسية الحادة في النفس، فيرفع كل امرئ في قناعه
ويطلق البسمات واللهجات، الا بعد ساعة الغروب.
وهل في الجبل عبر صور وعالي ان كان للراحة او للصحة او
لنسيم الهواء. وتكثرت اطلعني في هذه الطريق. وعندما خرجنا
من السيارة يمشي اكبر كعب بوطي - جاجه جاجه. الالثاني
صاحبة هذا الكلام آنسة لبنانية المولد انجليزية اللسان.
وكلهم توفيق الزكتوني بالعربية، وابراهيم حتي بالانكليزية، وكسر عليهم
ا. اسكندر

الباب ٤٤

اسكندر حداد قصيباً من ارشينه.

— «الاخطار، يا حضرة الارشنة، لذة الاسفار.»

— «كيف كلامي دي؟ ما فهمت.»

— «ولذة الحياة يا المتنقل الدهاقين

— والذين يمتطون [illegible] عصير الجنون تقابلة الحبة في صوت

عالٍ يطلبون اذا دعوا الى مثل هذا الملذات»

— «ولكن الحق على من يقبل الدعوة.» بحركة غضبى

رفعت الارشنة قبضتها الحمراء وشدت رأسها بحركة بعنف الى الوراء، وهي

ومرت باليد الاخرى على شعرها الاسود تردده وهي المرة الاولى

تقول: «صحيح صحيح. ولكني سمعت من اخي

والاخيرة» اخوها قاحكاً كل مرة تقول هذا القول. ولكنها تعود الى البث

راضية «مسرورة.» تحاول ان تجبرها تكسر فحملت الارشنة

بين يديه في هذه الورطة. اذا ابتدأ الحديث، حيث كنت في حدائها

المنكوبة منه اضلعي وقلبي. وفي عينيه شكاية وفي فمه اعتذار.

ثم مسرعاً البناء،

— «يجب ان اعود الان الى المدينة»

صعقنا.

هنا جميعاً. والسيد زيدان رجع

— «الرعد يكي وقد اخته في ضباخي.

حالا، لانه يخاف الطريق، ويخاف العلو ويخاف برد الليل،

ولا تريد ان ترافق القمر. فقلت: اذن ارجع

معكما. انت قلت

— «ولكن السيدة لا تريد ان ترافق القمر.

— الله يخليك واجب على ان ارجع معها»

٢٤٢

ـلا والله – ما هو بواجب عليك."

وكان العطف قد حل محل الدهشة، فكملت قائلا: "اني اعلم منك

بهؤلاء الامريكيين والامريكيات واعرف اللغة التي يفهمونها ويقدرونها حق التقدير،

لقد جئت انت معنا وستعود معنا. حدثت هذه الانسة المحترمة

شاهوت وعالي وقل لها ان اللؤلؤ لا ساحل عليه، وانا اخاطبك من امريكي

والامريكية دون ان اخز بسمعتك الرفيعة العالية."

ثم رجعت الى الاستاذ الامريكي: "يا سيدي ان

إننا هنا لعقد مؤتمر زراعي، ومن الضرورة ان تشترك فيه انت، واحترامنا لهذه

الذي جئت من امريكا باسم الشهرة نحمل اليه حملة في المؤتمر،

لشكرك، ولكن سيدتك، ونأسف اننا لا نستطيع ان نعود

معه جميعا معك الى المدينة. واذا كانت زوجتك تخشى الطريق

والاماكن العالية والظلمة، واذا تريد ان تبقى للعشاء القمر

فالاحسن ان تعجل بالرجوع. وهذا السائق الذي قد يأتي بك

سائق سيارة فخم هو امهر من سائقي الحكومة اللبنانية، عصابه

هادئة، وفكره مثل يديه يطل على الدولاب، وعينه تخترق الظلمات

وهو مع ذلك لا يتجاوز في المنعطفات والمنحدرات العشرة اميال

في سيره. هو محترف. أوصل الاستاذ ومدامته

الى نزلهما ببيروت وراح انت بعد ذلك الى بشبيك

لا لزوم لذلك يا ~~لا لزوم~~ يا سيدي لا لزوم. انا اعتذر عنكم

لرب البيت، وابلغ الرفاق سلامكم."

وكان شارل ادم قد نسي الامريكية على ما يظهر في دفاعه عنا

احتة اللبنانية فسمعته وانا عائد يوبخ الجماعة:

"عيب عليكم. اتناقشون ~~تحقروا~~ هذه الفتاة؟ ولو كانت

على غير حق اتناقشونها بدلا ان تحقروها الكلام وتسلبوها

ويقولوا لها الحق معك، الحق معك. وتنشوا على

ادبها وجمالها، وظرفها. فهل مشت على هذا المكان

بلدا في الصين؟ اما اذا كنتم ترغبون بالمناقشة

[illegible]

[illegible] ٢٤٧

٢٦٠

هذه السيدة... تناقشكم، وهي لا تكلمكم بغير العربية - مثلي الآن.

وكانت السيدة... قد انضمت الى الحلقة فانبرت للدفاع عن

المعشوقة الدعجاء العابث.

- "الكهوف لها". وماذا في هذه الارض القفراء لمثلها. الصخور للبنات

والشباب، بدل الموسيقى والرقص وشم النسيم! انه الجهل وانه العدل في

معاملتهم معاملة الكبار الذين يشبعونه الدنيا؟ انا نفسي اكره الصخور

اذا كانت في الجبال، او في البيوت. اتفق مع البنت ليس في لبنان

مثل صوفر وعاليه، وحوالي صور وعاليه اماكن كثيرة للنزهة".

وأنشأ ابراهيم حقي الذي كان واقفا الى جانب شارل قرم يشحذ سليقته فقال:

"يا ست. ما زلت مستغربة ان ليس في لبنان للراحة وشم النسيم غير صوفر

وعاليه؟ فلماذا خاطرت براحتك العزيزة في مجيئك الى اللاذقية؟"

يا ست... اشفقت على السيدة من سليقة ابراهيم، وكان لحسن الحظ قد عاد الينا

الشيخ اسكندر الخوري، فاغتنمت الفرصة لانقذ السيدة واياه معا

وسألته سؤالا عن الامير بشير

الشيخ اسكندر: كان المير بشير يرسل خيله لترتع في اللاذقية، كان يحب اللاذقية

لشتائها يشتو بها ان الصيف على قباها

ثم يجيء هو ... يا استاذ. وحينما كان يحب حماه، كان يحب كذلك

المشنقة. ومكان المشنقة لا يزال مشهودا. عدل

المير بشير.

ابراهيم حقي: وكان عدله يشمل النساء ~~[illegible]~~

٢٥

ولا ريب. لولا ذلك لما كان نصب المشنقة.

شارل قرم: المرأة يا حجي ابراهيم هي الطاغية الكبرى.

ابراهيم: احسنت احسنت.

شارل

٣٦١

~~٣٥~~

شارل: ولكن الرجل هو المجرم الأكبر. كل الشرائع الظالمة التي سببت الجرائم والحروب في العالم سنّها الرجل.

الشيخ اسكندر: هذا صحيح. والمرأة ضحيته.

كان السيد رشيد يقول . . .

ما سمعنا ما كان يقوله الأمير رشيد لأن اسكندر الحداد ارتطم في تلك الغشية بنا ~~فقال~~ وهو يقول: "السلام عليكم. جئت ادعوكم الى داخل البيت باسم هم ذحوني و[illegible] وولتر."

٢٤٦

۱۸

اعصار شدید ظلمت فغفغت

٢٦٢

ما تمتاز به المأدبة اللبنانية

سأل احد الواقفين حول مائدة الشراب: "ومن هو أدجوني دوكرو؟"

فشرع اسكندر الحداد يقص قصة رجل كان دوماً يشكو ألم المعدة، فأشار عليه احد الاطباء بالمشي، وآخر بالحمية، وقال له الثالث: دونك والوسكي. وبما ان الرجل كان أكولاً وكان يكره المشي — وقف اسكندر بغتة وهو ينظر الى الباب ثم قال مختصراً: "كان يدعى ذلك الرجل أدجوني دوكرو" وراح يسلم على المطران بولس عقل.

رجل المال ورجل اللاهوت كلاهما يحتاج الى الآخر. فلا غنى لصاحب المال عن اللاهوت لتستريح به في الآخرة، ولا غنى لصاحب اللاهوت عن المال يتمتع به في الحياة الدنيا.

على ان المطران بولس عقل يختلف في هذا الامر عن سواه من احبابه واخوانه، وقد يكون الشيخ اسكندر عالماً بذلك فلا يخشاه، ولا يرى

(ما يقال) بأنه بلا هوية

والمطران بولس يمتاز ايضاً بمرونة [سهولة] طبعه الاجتماعي فلا يحجم في مجلس انس، ولا يتجهم الحاجة والكاس. وان له فوق ذلك ذوقاً رفيعاً في الموسيقى والغناء. فلا عجب اذا كان الاب والاستاذ اسعد يونس صديقاً حميماً للمطران بولس.

فلا عجب اذا كان الحلبي لا يجمع بينهما الذوق ورحم الاخلاق — والفن. فالمارونية لا تجمع بين الحلبي ... في لبنان والنفقة ... في ظلم الرأي.

اما الصحفي اسعد يونس فهو شيخ المهندسين في لبنان وهذا الشرق العربي، وهو صديق الادباء والفنانين، فهو من اتباع ابراهيم الموصلي ومن المستمعين للقصب النايي ومن القليلين في لبنان الذين يكسون الاغاني البدوية. النايي لا ... النيقة — في الحرب العظمى —

وقد حمل اسعد النايي في الحرب العظمى يوم كان طريداً شريداً في فلسطين. حمل النايي واحتضنه لبس الدرويش

٢٢٧

الدراويش، وراح سائحاً مغنياً اغاني البدو من مكان الى آخر،
فاجتاز الحدود، وعاد الى ارض الجدود، بفضل الدروشة والانشاد.
وهو اليوم يستطيع ان ينقل قسماً من المدنية بكامل حسناتها —
الشعر والفن والعلم والفضل والجاه والجمال الفتان —
ومن الادب يستطيع ان ينقل هذه المجموعة المختارة فالروح المدنية في المدنية
الى هذا المكان الوعر الطريق، العالي القصي، المنبسط بين الجبال
في صدورها، المشرف على الجبال في عروضها، المنحل حرس الشمس في النهار
الحامل خرج القمر في الليل — الى هذا المكان الذي يدعى اللآلئ.
~~[illegible]~~ اجمل ما يكون تاكل والطعام والنعمان بجميعها
كم بيت لبناني اصيل
لقد جلست الى موائد كبار القوم في البلاد الاوروبية والاميركية
وعرفت من الآكل اخرها وانذرها واطيبها وقد آكلت كذلك
على موائد الامراء والملوك في هذا الشرق العربي، وما ~~[illegible]~~ شعرت في
بشعوره وانا على مائدة لبنانية بنعمة في المائدة اللبنانية ~~[illegible]~~ في
وما السبب في ذلك؟ لا ~~[illegible]~~ ولا في مهارة الطباخين
ولا في الآكل الفاخرة النادرة،
الترتيب والاناقة
وحذق الخدام وحذاقة [illegible] اللباس على سواه من الآكل
ان غيرها والاكرام ما تفضله على اللباس ~~[illegible]~~
ولكن ذلك لا يحملني على التفضيل المطلق فارفع مائدة ابن جبلي
على موائد كبار القوم في الغرب ومن الامراء والملوك في هذه البلاد العربية.
فالذي يحملني على التفضيل اذن؟ ان كل شيء في الموائد
الرسمية رسمي ~~[illegible]~~ جامد بعيد عما يظهر القلب ضعف. ان في
المائدة البسيطة ما نحب ونلتذ به ونظل نصيباً اعما كان من
اسبابه، ومن العوامل في تحضيره.

الامم

وراء الآداب [illegible] [illegible] علم وفن واتقان

ووراء الآداب اللبنانية — ولا يمكننا ان نقول انها

رحيبة او غير رحيبة، ولا يمكننا ان نصفها بعد قولنا انها

لبنانية — وراء هذا الأدب علم واتقان — وقلوب!

ومن يحسن طبخ المآكل الاهلية مثل امهاتنا ومثل شقيقاتنا

ومثل زوجاتنا؟ وانه عادة لبنانية، وان تعدد الطباخون

فيها والخدم، لا تشترك ربة البيت في تحضيرها؟ وكثيرا

ما تكون هي العاملة الاولى تعاونها نسوة القرية، وبحب

البنات والشبان للخدمة حبا وكرامة. [illegible]

اجل، ان في كل لون من الوان الآدبة اللبنانية [illegible]

من قلب ربة البيت وقلوب المعاونات والمعاونين لها

ومما افتخر به عادة اللؤلؤ [illegible] خطبة [illegible]

من الشعر اللبناني الذي نظم الشعر بلغة

[illegible] اللغة العربية. فمجلس [illegible] ويحبه، ويكرمه ويكبره،

[illegible] العرب — ولا اعرف ان اقول:

[illegible] لغة اجداده الاقربين — العرب — الفينيقيين + هذا في

احبك بلغة اجداده الابعدين — بعد ان حظونا بمعرفة

ما نقدر فيه زمانه. ولكنه في زماننا

ونعمل كتبه والفنه، وتمنعنا عن محادثته لفقد هذه اللغة

الشريفة لغة الضاد [illegible] بالقول: انها دسيسة منكم ونعم

[illegible]. ما قال لنا العبارة الفاجعة والله ما لا

[illegible] اياها. [illegible] كذلك: سيعلمون لغة الى

ولادي وسأكون مجنونا لكم

/ وفي

وفي تلك الليلة باللؤلؤ، على المائدة البونية

وقف شاعر الشمسة الناظم قلادة درية لجيدها، وقفة شاعر

الجبل الملهم الملبس لبنان جلباب المجد والجلال،

وقف شارل خوري يخطب بالعربية. فأدهشنا جميعاً،

وأثار فينا جميعاً ~~[illegible]~~ الحماس والإعجاب

أتسألني ماذا قال؟ وماذا لم يقل؟

(٢٢٩) لقد خطب اللغة العربية وتغنى، الساحة

وحين كان يخطب كانت الدبكة حامية في

في نور مصابيح معلقة بأغصان شجرة الجوز، بطاقيتهم بكرمهم

هي العروبة بأجمعها، شبابنا

وبدبكتها وقصيدها ~~حلقة~~ [illegible] كلها غير شطور المرأة

تعال نشاهد الدبكة. [illegible] فأنت [illegible] عشاءه

العربية في اللؤلؤ. ~~هي حلقة كبيرة عامرة~~ أن النشء اللواتي تزين الحلقة

التطور [illegible] الكتابة - المحتذيات الأحذية الفرنجية

الأسمات الجوارب الحرير، أبهى من عرب اللؤلؤ!

العالية الكعاب، ترقصه ما تحت القادا

فقد ينسى كل ما ورثته

والتقاليد والأرض الدبكة والهازجة

٢٤٠

٢٦٦ ٢٠

٧

الآفاق

ليس من المستحيل ان تنشأ في اللألوة [illegible] زراعية حديثة، بنظام يكشف
لونها اولئك العربان [illegible] النعم، فيشتركون واخوانهم اللبنانيين في الحراثة
والزراعة. وليس بالعجيب ان يعود الى الفرس العربية في هذه الوديان كل
مجدها، فيقتني المزارع الخيل، ويربيها، ويستخدمها في جولاته
في هذا القاع وما يجاوره من البقاع. فما كل عمل من اعمال الناس
في الجبال تقتضي العجلة، وما كل عمل من الاعمال الاقتصادية والزراعية
يبرر نفقات البنزين.

وليس بالعجيب ان يزداد عدد البيوت في هذا القاع وفي رباه، فيغدو
مصيفاً لابناء الذوق السليم والفكر والحكمة، لا لابناء التمدن العربي العصري
اضم هذا الى الثالث ويقنعني لاني ارى رائد اللألوة السعيد [illegible] من اهل الحج وتدوين
ينتسبون الى اعزة ارض اجداده، واسمع المزارعين من اهلها
يقولون ان للألوة مستقبلاً باهراً.

وليس ذلك من اباطيل الرجل او بنات الخيال. فالعوامل متوفرة
والاسباب متيسرة، الكامنة منها والظاهرة. فتعود الخيول العربية
الى هذه البقاع، ويزداد فيها بيوت الاصطياف، فيجيئها مصطافاً من
يبتغي الراحة والصحة لنفسه ولاهله، والعاقل الذي يروم من الاصطياف
الجبلية سكينة لاعصابه وراحة من تكاليف الحياة، والاديب
الذي ينشد آفاق الوحي الرحبة نهاراً، وسماء الوحي القريبة ليلاً
بغمرها ونجومها، ويكون لمن يريد من هؤلاء الحكماء ابناء البساطة
والذوق السليم، ان يتنزه كل يوم على صهوة حصان عربي في هذه
السهول بين هذه الجبال، فيتمثل وهو [illegible] في العلاء (?)

٢٤١

يقول المتنبي:

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

واذا كنت ممن يحبوا الكتب والمطالعة، ولا يحبون اولا
هناك البندقية، هناك الضب (?)
لهذا [illegible] يحب الخيل [illegible] خان (?)

ابالع

كان في اللألئ كثيرًا من الغرف والآبار والأهضاب والحجل، وخصوصًا
في ايام الحصاد. فالحجل مثلاً يجيء ليصطاد الجندب (القبوط) في
الزرع فيجيء ابن نسورين او ابن الهجيج فيصطاد الحجل.
واذا كنت لا تجد شيئًا من السلوى او السرور او الفائدة
في بندقية الصيد، او في كتاب او قهوة سابح" فان ساعة من المشي
قبل طلوع الشمس او ساعة عند الغروب او ان تمشي كل يوم في نسيم
الفجر العاطر، وسكون الغيب الساحر لتعيدان اليك كل ما
فقدته من الامل بالحياة، احرى لذان تضاعفا لك كل ما عندك من الامال،
ومن الحزم والقوة للعمل.

ان اعلى بقعة في اللألئ هي الرابية القائم عليها بيت اسعد
بونس (١٣٥٢ مترًا = ٦١٢٠ قدمًا) وان دائرة المشاهد من هذا
المكان مترامية الاطراف رحيبة الآفاق، كثيرة المحاسن العلية والابعاد
الجبلية.
لكن اتجاهها شرقًا شمال. ان على سفح الجبل الاول شيئًا
فاتمًا كالسحاب مقيمًا على الدوام هناك. هو ارز الحدث. ووراء ذلك
الجبل ثلاث قنن بعضها فوق بعض، تحجب الاخيرة منها غابة الارز
الكبرى - ارز بشري - وهو على عشرين ميلاً او ركوبًا على الخيل
من اللألئ. وان بيننا وبين الجبل الاقرب الينا، على كيلومترين مسافة
تختبئ بلدة تنورين، وبين حرش الحدث والقنة العليا ~~من الجبال~~
من القنن الثلاث المذكورة، فرجة كبيرة نرى بعدها بالنظر
الجو شيئًا من البحر وقسمًا من طرابلس.
اما توجهت الى الغرب الشمالي ترى جدارًا اغرش الحجم
جدارًا طويلاً عاليًا هائلاً، ينبسط ظله في الاصيل عند اقدام تنورين
ولنذكره

٢٤٢

ابطح

ينشره في الصباح على ارزجاج ورداءه، وعلى بيوت الهمج
الى جانبه الغربي. هو جدار لحصنه في السماء، هو سور
لمدينة في عالم الاهوال. لونه كلون النسور او السباع
خضره كالمنار. وهو في حده المسنن اشد وضوحا
جلاءً وصفاءً بين قبتي الغروب والغسق. فهو
[illegible] صمصام حاجز قاطع بين الارض والسماء.
وهنالك على اعلى قمة من ذلك الجبل علم يرى
بالناظور، نصبته ادارة المساحة الانتدابية. وهنالك
بين هذه الصخور، تحت ذلك العلم، جادة تصل اللاذقية بارزجاج
اذا كنت لا تعبأ بالمشي، او لا تقوى على المشي في الاوعار
والتصعيد في الجبال، فاياك وذاك الطريق. فقد يقول لك المكاري:
الطريق سالكة وليس بين اللاذقية والاورزجاج اقرب منها للماشي.
وانا اقول لك: الطريق مهلكة، واذا خرجت من اللاذقية صباحا
قد لا تصل الى ارزجاج قبل الغروب. هذا اذا كنت في حالة لا
تستوجب اعتناء ممرضة او طبيب.
لنستأنف الوصف لذاك المشهد العظيم. انما لا ازال
في الاتجاه الغربي الشمالي. فاذا حرت بنظرك على الجدار الخطير تقف
في طرفه الغربي عند قمة كالهرم هي قمة جبل صفرون، وفيها اثر
ويرى الاعتقاد [illegible] الجبل في العودة الى الهمج. هو اثر قديم -
فيبقى منها بقايا خشاب شارل قدم [illegible] دربا سالكة
اما الجهة الشرقية من الدائرة فوراء جبالها
كما يقول المكاري هي دروب الجرد بين العاقورة وجهر القضيب
~~وهنالك مصايف [illegible] بطرابلس وحمص وعين [illegible] [illegible]~~
التي مر ذكرها في الرحلة الاولى الجبة [illegible] الاوعية

الباحة

عينيها في ظلال الجوز
قبل ان تولي وجهها شطر الأفق الجنوبي،
[illegible]
انت في اللألؤ، فاذا كنت تحب مراقبة طلوع البدر، فشاهد بدرًا منقطع
النظير في بهائه وكبره، وفي صفاء وجهه ووضوح هالته، وتجاهك قريبا من موطئ
قدميك. فهو يطلع من وراء جبل قائم كالسور، دون انحدار والتواء،
ويرسل اشعته من رأس الجبل الى الدار امام بيت بولس في خط ٢٤٢
مستقيم - الضلع الثالث من المثلث - لا يتجاوز الكيلومترين طولا.
كيلومتران اثنان بينك وبين القمر. واما الطيارة في هذه الايام
فتأكل خمس كيلومترات من الجو ارتفاعا وتقول: هات هات. فاين القمر
منها؟ وان [illegible] تكون قمر اللألؤ وهو يحول شطرها، اذا طارت في
سمائه، فان الاشعة التي تزداد طولا كلما دنت منها،
ومع ذلك فهي لا تتجاوز من رأس الجبل الى موطئ قدميك،
كيلومترين اثنين. لا يجوز الامعان في الموضوع، فانوط واورط
القارئ في حقائق هي كالاوهام، واوهام هي كالحقائق.
لنعد اذن الى ما تبقى من دائرة [illegible] هذا الفلك. ان اهم القرى
جنوبا من اللألؤ هي قرطبه والعاقورة ولاسه. ومن الجبال البادية كالاكتاف
عن الافق الصعيد جبل يدعى مشاع الفتوح، دونه قرى كسروان
ميروبا وحراجل وفاريا. اما هذه القرى فهي لا ترى من اللألؤ
الا بعض الجبال اذا كانت ماحية عالية في احضان تلك الجبال.
والى جنب مشاع الفتوح جبل آخر اطول منه واعلى، تتلألأ فيه
في الشمس المشرقة بقع بيضاء هي الثلج في تنيانه وتجاريبه.
وهذه التجاريب والشتاء الحافظة للثلج صيفا وشتاء، على الدوام
هي في الطرف الشمالي من جبل صنين.
وجبل صنين اطال الله بعمرك ساطل على وادي الفريكه.

٨

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة السادسة : أفقا

1. خرائب الآلهة
2. الحافورة
3. الأطراف المدرّجة
4. الغابة المغضوب عليها
5. القديسة تقلا
6. الحرية الكبرى
7. الأسطورة الخالدة
8. الحبل والنشيد
9. نهر أدونيس
10. يحشوش

٢٧٠

الباب

الرحلة السادسة

أُفْقيا

١- خرائب الآلهة :

٢- العاقوره :

٢- الأهرام المدرّجه

٤- الغابة المغضوب عليها

٥- القديسة تقلا

٦- الخربة الكبرى

٧- الأسطورة الخالده

٨- العيد الشهيد

٩- نهر ادونيس

١٠- يَحْشوش

٢٠
النار والغبار! ان ذلك
والتراب والغبار –
في نظر الحجاج يسير.

خرائب الآلهة

لكل نواحي الجبل حد غربي واحد هو البحر، وحد
شرقي واحد هو الانجاد التي يشرف بعضها على سهل
البقاع. اما الحدود الجنوبية والشمالية فهي على الاجمال
الاودية التي تتحدر غرباً من الصرود، والانهر التي تجري
فيها. فنهر الكلب مثلاً هو الحد الفاصل بين المتن وكسروان.
ووادي الصليب في بعضه يفصل كسروان عن الفتوح.
ونهر ابرهيم يجري بين جبال الفتوح جنوباً منه وبلاد
جبيل شمالاً. نسلك
والآن للمرة الرابعة في البلاد الجبلية، فنعبر نهر
الطريق التي سلكناها ثانياً الى طرزايا، قرية بدر الهيت،
ابرهيم وراء الجبل الجنوبي، وعلى قنطرة حتى نصل الى المشنقة، القرية المعروفة
وظلل مقتحماً ووصف الطريق وواديه
بخرائبها القديمة الى نفقة صاعدين، ثم
لقد تقدم في الرحلة الى طرزايا، فاستملنا منها
من الساحل الى طرزايا. فاللقلوق.
شرقنا الى اهمج فاننا نستمر في الطريق من طرزايا شرقاً، ونمر بثلاث
اما الآن فنتحول الى اليمين، ابد الثلاث.
فنشرف على وادي
قرى هي الحريق والصوانه وعلمات. ذلك النبع
هي علمات المشهورة قديماً بنبعها،
الذي كان تتغزل به الجد والعم والوالد، ويتاجرون

روحهم

وهم يتغزلون.

بلغنا المشنقة وهي على ستين كيلومتراً من بيروت، والف ومائتي متر عالواً من البحر. بلغناها وما رأينا منها غير دكان على الطريق، وبعض المكارين يحمّلون بغالهم خشباً، قُطّع حطباً للوقود والواحاً وروافد للبناء.

هي ذي صورة قديمة فينيقية حيّة، بل هي صفحة من الماضي صادقة الخبر والمعنى. وهي ذي الجبال التي كانت تكسوها غابات الارز والشربين في ذلك الزمان. وهوذا الحطّاب والتاجر يرافقهما المكارين. لا اظن ان الفينيقيين كانوا من اصدقاء الشجرة، اي إذرعْ ولا تقطع! او انهم اسسوا جمعية شريفة من اجلها، لوجهها الكريم. كان الفينيقيون يقطعون، ويبيعون، ولا يبالون بما يسكلون من مستقبل الغابات، غابات الصنوبر والارز والشربين.

وما ابصر من الملوك الفاكين نتيجة اعمالهم غير ذلك الروماني الوثني أدريان، الذي عمل بنصف حكمة اصدقاء الشجر فحرّم القطع، وما أمر بالغرس. ومع ذلك ما نعم في زماننا لبنان بغاباته والنعمة الكبرى، ان ملّة الدائمة.

فقد حرمتها التجارة اياها، فعرّيت الاودية والاكام والطرود من توبيخ الشمس، الا ما اتقى عليه منه الزمان، او ما نثرته الرياح من البذور الحيّه، فنمت افراداً وازواجاً بين

في
بين الصخور، وجاءت جمعية اصدقاء الشجرة في
هذه الايام تحاول اصلاح ما افسدته الاجيال الماضية،
فتوفقت بعض التوفيق في محاولاتها، عملاً وارشاداً
غرساً ودعاية. ولكان فضلها اكبر وأعم لو آزرتها
الحكومة مؤازرة فعالة صادقة التنفيذ. تنشر
جمعية الشجرة امرها في انحاء الجبل مكتوباً بخط عريض جميل:
ازرع ولا تقطع! ويصدر مدير الزراعة قانونه: لا تقطع
الا باذن من الحكومة. وبعد ذلك ماذا؟ عندما تعطي
الحكومة الاذن لا تشرف على تنفيذه الاشراف الفني الواجب
فيتصرف المالك به كما تشاء مطامعه التجارية او حاجته
المادية الوقتية، فيفوز في طمعه او جهله على الحكومة
والجمعية معاً.

(٢٤٨)

تركنا الحطابين والمكارين في عملهم، يحملون الاخشاب
المقطوعة من غابات الصنوبر والسنديان والشربين، في الجبال
القائمة فوق ضفاف نهر ابراهيم، بين المشنقة وقرطبة،
ومشينا وراء الرفيق الدليل الاستاذ يوسف الكويدي، الغيور
على آثار لبنان غيرة اصدقاء الشجرة على اشجاره،
فنكبنا عن طريق العربات، وبعد بضع دقائق من
السير في طريق قديم بين الصخور، وصلنا الى الاخربة
المبعثرة على قمة الجبل. كان
هناك بقية سور مستطيل مربع، وقد احيط
بسور الهيكل والابنية اللاحقة به، ولم يبق غير بعض القواعد
من الاطلال الدوارس، للعمد

٢٧٤

لِعُمُد الهيكل، وقد قام الشوك عندها خطيباً: معدودة
اما الارض التي يلفها السور، فقد زُرعت صفوفاً
من التبغ، الذي كان يزرعه ابناءُ علمات بلا حساب في الماضي،
وامسى زرعه اليوم مقيداً لقوانين شركة الاحتكار الاجنبية.
التبغ في ارض الهيكل الذي طالما انتشر منه قُتار
المحرقات والبخور! اشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك:
اي بعل بشموت، كم حُرق على مذبحك من القرابين؟ وكم
من عباد الله جاءوك خاشعين ضارعين؟ كم من القلوب
البشرية حملت اليك احمالها المكشوفة والمحجبة! كم من القلوب
التقية حطت رحالها في هيكلك، وعرضت بين يديك، وعند
قدميك، كل ما احتوته من الحب والشوق، والخوف والورع،
والامل والرجاء؟ وكأني في شهوة شاردة، وذروة مطاردة،
تجسمت خفقات الزيارة، لتظفر بالنعمة الكبرى - النعمة
الفانية الكبرى - ساعة قدسية تتلوها الساعة الالاهية،
ساعة النشوة والمتعة والحلول الرباني.
اشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك. إحرق من تبغ
هذا الذي كان على ذكر آدونيس فتى القينات، ادونيس المعبود
الاعلى، آله الحب والدم والبعث والخلود. وهل هناك
متعة وانعتاق؟ هل يخلو حب من الم؟ وهل ينجو الدم من الموت؟
هل يكرم الموت النعمة الكبرى - البعث والخلود؟ - ان كان
في الطبيعة او في الحياة البشرية، او في حياة الانسان الاجتماعية
والوطنية؟ فلو كان آدونيس متجسداً اليوم، ومقيماً في هذا الجبل
اللبناني، لرأى الخنزير البري في اسواق المدينة، وفي

دولتر

دوائر الحكم، لا في الاودية والغابات، وتُصرع في

قتاله كما صُرع الرؤساء والزعماء في هذه الاماكن

على ان صرعة الاله لغير صرعة السياسيين، لانها كانوا

او تجارا، ولا عجب. ان صرعةً فيها شجاعة*

الايمان والتضحية تنشر روح التضحية والايمان في اجيال

من الناس. اما الصرعة التي فيها ارادة غاوية،

ذات عين لاوية، يُقاد صاحبها بدعوة الى مأدبة،

او برشوة ووسام، فماذا تنشر يا رعاك الله؟

اشعل علبونك وارسل دخانه عمدًا وحلقات

من هذه الساحة التي تحبت حول غُمدها [illegible] حلقات من

الكهان ومن المتعبدين والمتعبدات، وكلهم يبكون

ادونيس ويندبون — يبكون الشجاعة والبطولة

والتضحية، وهي اليوم وهن جميعًا، ذكرى لنا،

استحالت دخانًا ورمادًا، فانتشر الدخان في هذا

الفضاء، ولصق الرماد بهذه الصخور فغدت

غبشاء دكناء.

والى هذه الصخور كان يلجأ الانسان في فابشتهم

[illegible] الذكرى [illegible] السعادة الابدية. فرَكن اليها، وآمن بثباتها

وخلود الذكرى ووفاء الجلاميد. احفر ايها الحفار، وصور

ودفائنها — وفاء الجلاميد. احفر اليها الحفار. احفر

معبودي ومعبودتي الى جنب [illegible] ضريح الحبيب. احفر

الرسم الخالد، والكلمة الخالدة. بورك فيك

واين من الضريح اليوم ذاك الحبيب، وذلك الحفار؟

ليس في هذه النواويس الفاغرة افواهها — فقد كسر

الفلاح اعظمتها لنبحث فيها العتبات لابواب بيته —

ليس

ب

ليس فيها عظم او شظية عظم بشري. هي خالية
خاوية، الا من عنكبوت تبنت بيتها في احدى زوايا
الناووس، او دودة ضلت في جوانبه الجافة العفنة.
هي النواويس الفاغرة افواهها للأيام والليالي. هي
الصخور الكلحاء وقد محت رسومها ~~الرياح~~ الامطار والاعاصير.
هي الآثار البائدة وقد حفر فيها الزمان حفيد العدم.

وقفنا في طريق قرطبة القديم، بين خرب، على
حافة متر من السور، فاذا هناك النواويس الفاغرة،
والأطر المنقوشة في الصخور، وقد امحى ما كان
ضمنها من "كلمة خالدة" و"رسم لزوال". دلني
صديقي الكوندي على شيء شبيه بظل شخص واقف هناك،
في احد تلك الأطر، والى رسم دارس في إطار آخر، قال
انه رسم امرأة جالسة تنوح. أهي عشتر تبكي ادونيس؟
هذا ما يقوله الاثريون الذين يقرأون الممحي من الكتابات.
دع عنك الطلول الدوارس، والآثار الممحية، وتعال
نسرح النظر من رأس الرابية في المشاهد حولنا. هناك
شمالاً إهمج وقد بدت سنديانات تنبسط كشامة
في خد الجبل. وهناك غرباً طرزايا، على كتف وادي
فرحيد، وقد لمع زجاج نوافذها كالماس في نور شمس
الضحى. وهذه شرقاً بشمال عقبة علمات، وفيها
طريق ذو عشرة أكواع، علينا اجتيازه الى قرطبة.
وهذا شرقاً بجنوب وادي نهر ادونيس، ودونه
جبل موسى في حلته السندسية الوارفة،
وقد /

وقد تنوع اخضرارها، فأشرق في البساتين، وأقتم في
الغابات، وظهر خلاله بقاع قهباء هي قرى شوكن
والعبري وفراد، كل في عزلة عن اختها، لاجادة
بينها ترى ولا سبيل.
ليس في كل ما شاهدت من قرى لبنان مثل
هذه القرى في وحدتها، ووحشتها، وشطط مزارها. وانك
لتعجب بابنائها المتغلغلين في تلك الاحراج، المقيمين
في الاغوار المقتمة، فتكاد تنكر انهم من سلالة آدم،
وما هم من غيرها. ما هم من الجن، بل من الانس الدكارين،
يحرثون الارض، ويحتطبون، ويأكلون ويتناسلون. وقد
نأوا عن العالم نأي النساك المتوحدين. بل حسبتهم وانا
اشاهد منازلهم القهباء، المسطحة المربعة، بين
ذلك الاخضرار الهادئ، حسبتهم في منتأى الارواح،
يستحيل الوصول اليهم، ويستحب الوصول، وتستحب
الاقامة. فما اجمل الانتساب الى ربات النوى والنسيان
في تلك السكينة المخيمة على النهر المقدس، نهر ادونيس،
هو هو الجمال الذي تراه العين ولا تدركه المتعة
هو هو الجمال الذي نظل حيالاً ما زال قصيًا
عصيًا، [illegible]. نستأنف السير الى قرطبة.
عدنا الى طريقنا المعبد، ونحن نجتاز اكواع الطريق الغزة،
فشهدنا في الجبل الشرقي، فتغيب نعيد الاخير الافق، وانكشف
الواحد بعد الآخر، جديد رائع، تلمع في قعره مياه النهر،
اما هنا فمشهد سوى قنة سمراء جرداء للجبل
وهناك قنن اخرى،
وتبدو دون جبل صدى نبع الحديد،
الماضي بين صخوره
اخرى

٢ ٢٧٨

ترى من فرجة فيها طرفاً ناصع البياض. هو طرف
من صنين الذي ~~الجبل~~ يبقى الثلج فيه حتى اواخر الصيف
وهناك وادي ادونيس المنعم بوفر من الاخضرار
والطيب. هناك قصيدة ادونيس السندسية العطرية
الصوفية، وقد تنوعت ابياتها شكلاً ولوناً
وشذاً ومعنى. هوذا حرج من شجر البطم وفيه
عناقيد القرمز تداعب ذخائر البخور، وهوذا حرج
من السنديان وفيه القوة والشموخ والخلود كامنة
كلها في بلوطة من بلوطه. وهناك غابة من الشربين
نسيب الارز، وتردد مجده وجلاله. وهناك ادغالاً
واحياناً تفوح بطيب الغار والصعتر والقصعين.
وهناك في اطراف الوادي ومنعطفاته مسرحات
من الصنوبر تعرش فيها الندى للخشار والوحوش.
وهناك اغرب ما في الغاب والاحراج، ارجبة حافلة
بالحوذ، وفيه الحب الذي هو للسمك كالخمر للانسان،
باخذه الصياد فيلقيه في البحر، فتسكر به الاسماك،
فيصطادها وهي سكارى.
لكننا على ذكر حبيب نبادي الكود، فكرنا صلبته أمه!
ترك الانسان، فنبلغ
برج، ووقفنا تحت ارز القدسي كنبارها لماضا فنصعد
عروض من الوادي وتخفيه. ثم ننكشف هي
منعطفاً منعطفاً هذا الجبل الفتانه،
آخر من هذه الغابات

٧٩

٩ — ٢

~~[illegible]~~

اللغاني

مؤرخ
للأب اغوسطين السخنة
قرطبة ورث ٤٦هـ اجتهاد في تفسير
اسم بلدة ، لا يتجاوز السريانية .
وعندي ان اخذ اسماء هذه [illegible] يمكن
اجل قرى الجبل القديمة
الى اللغة السريانية
حملها [illegible] ادخلها
الفينيقية
العبرية
[illegible] الى [illegible]
[illegible] الحضارة في [illegible]
تلك الخطأ في
[illegible] السريانية
هذه [illegible] ان [illegible]
في اخر اجتهاد
اما الان فانا نعارض اجتهاد
ولقارئ ان
آخر
يضع اجتهاد لنفسه .
نعارضها فانجلو [illegible]
قرطبة لفظة عربية
ليست هذا
Cordova
اسبانية
[illegible] غ ت
[illegible]
[illegible] هاس
[illegible]
اسماء البلدان [illegible]

٩ - ت

وقرناطه كما قالوا قرطبه

وبعد سقوط الاندلس وابتداح

العرب عنها في اواخر القرن الخامس عشر

عاد قسم الى بلاد اجدادهم

الفاتحين في الشام

وعندي ان

نفراً من هؤلاء العائدين من قرطبه الى

حمص اوحماه وجعلوا لسانا في

الطريق او في

الفاقوره، ومنها تقدموا

قرباً وراوا في جوار

الفاقوره ارضاً خضراء هائلة

بالغابات والمياه وحقل

تشرف على واد

ذكرهم ببلاد الاندلس فحل

فلتوطنوا البلد المهجوره

وبنوا البيوت

وغرسوا الاشجار والاعناب

واسموا المكان قرطبه

الدليل على ...

الغابات تؤدي الى البساتين - هي الحقول تنتشر بالمروج
الذهبية. مروج وبساتين تجري فيها السواقي
العيون، فتمتد منها القني للري. بساتين
ومروج تزينها لواسق الحور، ونواعس الصفصاف -
هاهنا الجنائن والكروم - التين والعنب والثمار
اليانعة. هاهنا التوت يجاهد جهاده الاخير، وليذب
موسم الحرير. هاهنا الحقول المزروعة تزدهي بشتى
البقول للمطبخ والمائدة. هاهنا قُرطُبة تسمية
تلك الاندلسية القطمى، قُرطبة العرب. وهي على
مسافة اثنين وعشرين كيلومترا من بيروت،
[illegible] وستين مترا من البحر.
وعلى علو الف وثلثين و[illegible] الاندلسي العربي الزخرف،
الاهلون الذين تشرفوا بالاسم [illegible] من اقحاح العرب. يمتون
[illegible] الى قيس التنوخي، فكعب اليماني، فيعرب
بالنسب بن سبأ. هم من صميم قحطان. وقد قال شاعرهم
في رثاء احد كبارهم:

في سهل تدمر او سبا قحطانية
لجدوده عبق زكي طيب

حيّ الله بني شخنة والأُسَر العربية الاخرى في
قرطبة - [illegible] الشعرية ونفع لبنان بهم جميعا.
وقفنا في سوق البلدة للنخبة، فشربنا القهوة
في احدى مقاهيها، واستأنفنا السير الى العاقورة،
ان بين البلدتين لبضعة عشر كيلومترا، وأخرية
في

٣٨١ ~~٢٨٤~~ ١٠

في منتصف الطريق الى جنبه تُدعى دير الازرق. وما ادراك
ما دير الازرق. ليس للاسم العربي صلة ظاهرة بما هناك
اليوم من بقايا سور قديم، وجدران هيكل كان لكنيسة
بيزنطية، بعد ان كان معبدًا رومانيا، بعد ان كان
هيكلًا اغريقيا بعد ان كان مذبحًا لإله من آلهة الفينيقيين
مذابح الآلهة - هياكل الآلهة - خرائب الآلهة! بين
هذه الحجارة المبعثرة، والعمد المحطمة، والجدران المتهدمة،
وعند هذه الابواب الفاغرة افواه لفراغين، امامها ووراءها،
يهمس الزمان كلمته الخالدة: لا شيء مما بناه الانسان
يدوم.

لا شيء بين هذه الاخربة اليوم، وامام هذه الابواب
ووراءها، غير ما علاها من العلّيق، وما ظللها
من السنديانات، ظللها، وارسل جذوره بين حجارتها لتكمل
الهدم. جذورًا هي كالثعابين المتحجرة تحت اكمة الباب.
وحجارة تلحق بالجذور كأنها تستجدي الحياة فيها، او تلوذ
بها من وحشة الاطلال، ومن الاضمحلال. ٢٥٦
كل لبنة للهدم ما بين الوضعاء والسيد الرفيع العماد.
علق اثرها بالنفس
انها لقينا لخرائب موحشة مفجعة.
فاستقبلتنا هناك البيادر،
حتى دنونا من العاقورة، والفلاحين على البيادر، والبقر
الرائعة في فيض من الشمس مباركة، والقمح تحت النوارج
يدرسونه في دوائر من سنابله:
ينطلق من قيوده الذهبية
هي الحياة المقرونة بالعمل. هو العمل المكلل بالحرية:
الحياة - العمل - الحرية - هو ذا مظهر من مظاهر
القداسة الحقيقية الخالدة. ٢٥٥

العاقوره

قلت في فصل سابق ان اكثر الأُسَر اللبنانية القاطنة في اواسط لبنان نزحت من بلاد جبيل. فينبغي ان اضيف الى ذلك ان في جرود جبيل بلدة عريقة في القِدَم، وكثيرة الشعوب والهجر، هي العاقوره.

وانا مع قول بعض العلماء والاثريين ان الانسان في هذه الديار توطن الجبال العالية قبل السواحل والسهول، فيجب ان ننقل مهد الشعوب اللبنانية من مدينة جبيل الى سفح جبلَي القرن والمنيطره، الى ما بين هذه الصخور العاقورية والعيون المنبجسة منها.

ولكن البحث عن المهود، بشرية كانت او حيوانية او نباتية، ليؤدي بنا الى غياهب الحياة الاولى على هذه البسيطة، فيتردى بنا ببلبالاً، وقلما يفيد. ان في الامر حقيقة بارزة، هي الغموض. فاذا استطاع العلماء ان يحددوا المكان والزمان لمسقط رأس الشعب الاول فتلك، او لمنبت الاسرة الاولى، فقد يستطيعون ان يكتشفوا مهد شعب او شعوب الواحد.

حسبنا الآن التاريخ الذي بين يدينا ~~العالم~~ للاديب المحترم الخوري لويس الهاشم. فان في فصوله الاولى اشياء من العلم المفيد، التاريخي والاثري، وفي فصوله الاخرى بحر من علم الانساب اللبنانية المفيد لاصحابها، المدهش لغيرهم من اللبنانيين. واول ما يدهشنا من هذا العلم

تعدد

١٢
٢٨٤

٢٥٦

تعدد الأُسَر التي هجرت الى العاقوره قديماً، ونزحت
بعد ذلك منها، ما عدا التي لا تزال مقيمة فيها. فبعد
ان قرأت الفصول الاولى، وتصفحت الخمسمائة
صفحة التي تليها، وصلت الى الفهرست، وفيه
من اسماء الاسر اللبنانية العاقورية الاصل ما يسر
الخواطر، ويبهج القلوب، في كل زاوية من زوايا لبنان
جنوباً وشمالاً، ساحلاً وجبلاً.
ان في الفهرست اسماء مائتين وخمسين
عائلة. وهل في جبال لبنان ما تُذكر مما فوق المائتين
وخمسين ج[illegible] نظهر، يا عباد الله، اثنا جميعاً من العاقورة
بشهادة المؤرخ المحترم الخوري لويس الهاشم، جميعاً
اقول، الاجل بكه ومعاد. فما جاء في ذلك الفهرست
التجانيين. على ان هناك فروعهم بالزواج. خذني
اسم فاني كاني من آل، هاشمي عفوي (عاقوري)، من جدي لأمي
انا مثلا. وأشتقري (عاقوري) ان اكثر
من جدي لابي، الاسر العاقورية من سلالة احد الصحابة
ادراهم متحدرة من العرب. فالهاشميون
هاشم بن عتبة، الذي تشيع بعدئذٍ لعلي بن ابي طالب. فتنصروا.
اقام في بلاد العجم، ثم نزح من ابنائه الى لبنان، فتنصروا
لخير ادراهم – وكان كبيرهم الشيخ هاشم اول من قطن في العاقورة.
واسرة نور الدين نزحت من دمشق الى بعلبك، ثم الى العاقورة،
فتعددت فروعها، وبرز فيها فرع الياس المعروف اليوم بفرع
جرمانوس. وهناك بنو كريدي وبنو حرب، ويجمعهم كنترون،
الناجون

١٢
٢٨٥

الناجون من حوران وما دونها جنوبًا. وقد يكون بنو
عميرة متحدرين من آل عميرة في حائل، ومنهم [illegible]
عميرة [illegible] رئيس التشريفات، وفاك(؟)
الملك [illegible] ابراهيم بن عميرة الاستشاري
[illegible] عبد العزيز آل سعود
المحافظات. [illegible] على انك في هذه الأسر
[illegible] العربي الغساني الكثير
تجد تناقضًا [illegible] والعجمية والرومانية والسريانية
العافورية، [illegible]
من أسماء أبنائها. فالعربية
وهي تتعانق وترضخ للنير الواحد المتعدد
تتبارى فيها، وهي
الألوان. خذ الأمثلة من صقر بن فاخوري، وفاخوري بن
[illegible] وزوجته مسيحية، وفاقولك بكنا ابن
قسطنطينة [illegible] الكامل عماد ابي الغيث؟
لنسيب العربي [illegible]، ولا غريغوريوس عرب
ابي الغيث فلا بأس به، وادريس بن
اما يوسف عرب [illegible] بن يستمر بن [illegible]. بكاز كنيته -
فانه لا اقطع من [illegible] دام ذوقك الرفيع
ارسانيوس. وماتوريك — والدهم جرمانوس
[illegible] بين النساء — في الشدياق
زهرة من شيراز؟! وهلا ترى الكفر [illegible]
ودوماتوس [illegible] والبطريرك جرجس عميرة؟
سريس نور الدين [illegible] في كثرة هذه الأسماء -
ليت شعري ما السبب في هذه الناحية من
[illegible] فيما نحن — في هذه
جرمانوس رومانوس ابريانوس [illegible]؟ ألأن الدين
لبنان* وقلتها او عدمها في النواحي الأخرى؟
تتغلب على الحسنة فيتقبل الاسم العربي باسم سرياني او
آرامي او بيزنطي؟ وصاحب الاسم المتحول لرياكي(؟)،
لقد كان العوافرة في عهد الغسانيين اكثر الناس
تعبدًا

١٤
٥٨٦

تعبدًا للبعل والبعلة، واشدهم تمسكًا باهداب هياكلهما،
حتى في عهدي اليونان والرومان. كما انهم اليوم من
اشد الموارنة تحمسًا لمار مارون ولكهانه ورهابينه.
وكأين من آله ومن معبد وهيكل، وكأين من عقيدة او
خرافة دينية، تخللت حياة العواقرة في سالف الازمان
من عشتر الى العذراء مريم، ومن بعل يشمون الى القديس
مارون!

يقول مؤرخهم المحترم ان العاقوره "مشتل طوائف"
ولكنه لم يبق في المشتل - لو في بحج - غير طائفة واحدة: وبحمد
الله. ومن المعقول ألّا تشذ هذه الطائفة الواحدة
عن الطوائف الاخرى البائدة التي تقدمتها، فتحل محلها
الطائفة الوطنية اللبنانية العربية، وتكون، بفضل
العواقرة الجبابرة، في مقدمة الحاملين لواء العروبة.
اقول "الجبابرة" والواري مؤرخ العاقورة وشاعرها
في وصفها: "مأوى الجبابرة،
ولكني استنكر قول الاول واستهجن السبب!
ومعقل الابطال"،
هي للجبابرة الاولى اعتصموا بها
من كل طاغية وكل هوان.

ولماذا الاستنكار والاستهجان؟ ان في هذا المديح،
نثرًا وشعرًا، شيئًا من قبيح التناقض. فالمعتصم
لا بد للمعتصم من ان يكون
غير البطل المستبسل. وقد

اجمع

~~١٥~~ ٢٨٧

قد فرّ من شرٍّ او مكروه - فرّ هاربا. فهل نجيب الهارب، ايها ان عزّ جبارا؟ وهل تعد العاقل، ايها المؤرخ، للابطال؟ ام المعقل الاوحد للبطل انما هو قلبه وحسامه.

اما ان يكون ابناء العاقورة من الابطال الجبابرة، فذلك لا يستغرب. ان للبيئة الطبيعية، كما للبيئة الاجتماعية، مفعولها في تنشوء الانسان وتكوين طبائعه. والبيئة الطبيعية في هذه الاعالي الجبلية (١٤٥٠ الى ٢٠٠٠ متر فوق البحر) تفخّم العظم وتحمي الدم، وتشد العصب في ابنائها.

ولك ان تسأل: وهل تتفرد العاقورة بهذه البيئة، وانتاجها البشري؟ فاجيب على سؤالك بما فيه الايجاب كله. ان في لبنان غير العاقورة من البيئات الطبيعية العالية ذات العوامل المذكورة للدم والعصب والعظام، كزحلة وبشري واهدن. وليس فيها ما في العاقورة وجوارها من العوامل الطبيعية الهادمة، التي تربي في من يقيمون بين اخطارها الكامنة والظاهرة، قوى خاصة للدفاع عن النفس والحمى، فتولد فيهم الشدة والشجاعة والجلادة والاستبسال، اي العناصر الحماسية للبطولة. اما عناصرها الروحية والمعنوية، فقد تنشأ وقد لا تنشأ عنها، ان لها حالات وشروطا خاصة بها، لا اظنها تتم في ابناء البيئة التي هي الان موضوع كتبنا. فقد

١٦
٢٨٨

ابليع

. فقد نبغ في العاقوره فئات من رجال الدين في
مسائل الازمنه، الوثنية والمسيحيه"(١). وفيها من
الكنائس، ومن بقايا الهياكل، عدد كبير، وما استشهد
من ابنائها احد على ما نعلم، وليس بين قديسيها
قديس واحد وطني عاقوري.
اما في التمرد على الحكام، وفي الدفاع عن حقوقها المحرمة
او مزعومه، وفي الحروب الاهلية، او ما يسمونه عندهم
"هوشات" فانهم في مقدمة اللبنانيين. لقد
ذكر ~~المؤلف~~ المؤرخ عشرين حادثاً، ذهب فيها عشرون
قتيلاً، في عشرين سنة (١٩٠٥-١٩٢٦)، اي
قتيل كل عام (وقد استكثر العدد ويعتقد ٨٠) ثم قال ان اكثر اسباب هذه
الشناعات العصوية، تنشأ عنه العداوات والاحن
وما كانت الحكومة في عهد من عهودها لتحسم او تحدد ارضاً
خلافاً قام بين من ادعوا وصل ليلى"، وعلى العاقورة
شائعة بينهم على هذه الارضه، وعلى العاقورة نفسه. وذلك
بيد ان الصائل الاكبر على العاقورة
والعاقورة احياناً، انما هو جبل العاقورة الممتد جنوباً، المؤلف
شمالاً وشرقاً، الجبل القائم تتخللها منحدرات طرية التربة
من قلاع وحصون صخرية الا

---

(١) "فقد اقام فيها بعد الملك الظاهر الى سنة
١٦٤٩ (اي خلال ٢٥٠ سنة) واحد وثمانون
مطراناً" — تاريخ العاقوره

١٧
٤٨٩

لا تحول الحصون والقلاع دون انهيارها في فصل
الربيع كل بضع سنوات او بضع عشرة سنة مرة.
وفي فصل الشتاء تنهار الثلوج انهيارها المهلك
الهدام. وفي اوقات لا تعرف ساعتها تزور
الزلازل العاقورة لتكمل عمل ~~[illegible]~~
الاعاصير والثلوج.
هي ذي العناصر الهدامة المهلكة في البيئة
الطبيعية التي اسلفت ذكرها. وهي ذي اسباب
البطولة في العاقورة، فالنكبات التي تدهم اهل
البلد الواحد، فيشتركون في احتمالها، وفي التغلب
على اهوالها، تولد فيهم من القوة والعزم والشجاعة
ما يلمس فيهم في اجلادهم، ويظهر في نسلهم،
فينشأون اباسل اشداء. والزلازل كل عشر
او بضع عشرة من السنين خفقات ورجفات، والعواقرة مقيمون منذ
القدم في ظلالها، وبين يديها القائمة على الصخور
والشوامخ، فلا يتزحزحون، ولا
يبالون. فلدكم يبنوا البطالة لما كانت البيوت
والبنايات. ولما كان اثر الزحفة الاخيرة (١٩٢٦)
العاقورة
لقد شاهدنا اخبار الزحفات والخسفات
وقرأنا في تاريخ العاقورة (انفجار) ١٩٢٩-١٩١١ فما وجدنا
الكارثة التي تفقدها (١٩٠٢

ا.خ

١٨

في الصفحة المكتوبة غير ما سمعنا من افواه الناس،
والاخير ما رأينا في صفحة الوجود. فان ادوات
الحرب الحديثة — الدبابات المجهزة بالمدافع الرشاشة،
والطيارات المسلحة بالقنابل، تقصر دون اهوال
الاعاصير والانقلابات الارضية.
هناك في الجبل الشرقي الشمالي منحدر ترابي التربة
حلوى، منه مملوك، ومنه مشاع، وكله معشوشب
او مزروع، تكسوه حلة زمردية من رأسه الى
اسفله عند ضفة النهر. وفي هذا الجبل المنحدر بنى
اجدادنا البيوت للفلاحين، ودكات صونًا للتربة،
جدرانها اصحاب الاملاك. هذا الجبل القائم بين حضنيه
وكلما غرس او زرع فيه، هو في الربيع
من الصخور، الى الشمال والى الجنوب، من مدخل العاقورة
بهجة للعيون خصوصًا اذا شوهد
الجنوبي الغربي، فانك لترى فيه بقعة كبيرة، وسعتها
(١٩٢٨)
اما اليوم ... الى الشح عند ضفة نهر
طولها من القمة ... هي سمراء او حمراء، لا
نحو اربعين مترًا، وطولها ثمانمائة متر، لا اثر لبناء فيها. بقعة
الرويس، تحد ... ولا اثر ... بين مشقي الجبل الاخضر الى
نبتة، ولا ورقة، بين زحلة او زحفة السنة
منخفضة جرداء هي
جنبيها اضيق هذه اول ضرر (مما نقدم).
الماضية. ان

١٩ ٢٦١

ان للزحفات والخسفات اسباباً اربعة هي
(١) غزارة الامطار و(٢) تراكم الردم من تراب وحجارة
وغيرها على سطح الارض و(٣) ~~...~~ التحوّل في طبقة
التربة الداخلية و(٤) انهيار الارض عند خفة
الانهار عن فيضانها فيزحف ما فوقها. وقد
تجتمع الاسباب الاربعة في الزحفة او الخسفة
الواحدة.

اما الخسفة فهي تحدث في الارض المنبسطة،
اذ تسوخ طبقة من التراب في بطنها، لسبب
من الاسباب التي تقدم ذكرها، فتتقلص، او تهبط،
فيهبط ما فوقها من ارض، وما عليها من شجر
او بناء.

واما الزحفة او الزحلة فهي ما ينهار من
اعالي الارض المنحدرة الى اسفلها. فتبدأ في اماكن
مختلفة، وقلما تستقر في خطوطها الاولية،
وتختلف وتتجدد، وعندئذ
فينتشر التشقق شهراً او شهرين:
الزحلة التي تدوم
في ايام عبوس، وتنبجس عيون، وتزدحم
فتغور ينابيع عيون، وتقطع الانهار،
وتسد الطرق، ومتى قرنت
السواقي، فتتفجر مجاريها
تخفف تزداد الشدة على الاهلين
و الثلوج
الامطار بالثلوج.
ويزداد الخراب.
وكان الحليب شديداً الزحفة سنة ١٩٢٩،
كان الثلج يرتفع كالآكام،
فكنت ترى مناظر مدهشة،
ولما انحدر

٢٦١

~~٣٢٠~~

٢٩٢

وكالصخور العظيمة . وفي اعالي الفراديس كان يشبه
الحيام والمغاور والكهوف ... وكان الانخساف
يشتد يوماً فيوماً ، فكانت الانهر تقذف الصخور
بدوي كالرعد . فالنهر الكبير اختلط بالنهر
الصغير ... ثم تحول الصغير عنه مجراه ، واختلط
بالكبير عند عرض الى مرعب ، فتكونت بحيرات
وبعد ايام انشقت البحيرات ، وغار ماؤها
واضمحلت . وتغير شكل الارض » (١)

فغدت الاودية آكاماً ، والاكام وهاداً .
واصبح السهل مضيقاً ، والمضيق بركاً من الماء .
وطمى نهر الدباغة على اراضي البياضة ،
فاتلف الاشجار — الدلب والصفصاف والحور —
وبساتين ~~[illegible]~~ والتوت ،
وذهب بكروم العنب قرب حرف الابيض
— «وكان نبع مسعود غزيراً ، وبانت اشجار الارز
اضمحلت الطواحين وتخربها وانمحت
فاختفى ، وطولها
مدهشة في اشكالها ثقيلة جداً
التركيبة ... واشجار ضخمة (٢)
غريبة الخشب ، شبيهة بالابنوس » ان يصف لنا
... لنا فلاحاً على البيادر ان الارض
رحلة السنة الماضية فقال : كانت الارض
تتشقق ، وتزحل ، وتغلي بالوحل .

(١) (٢) تاريخ العاقورة :- صفحات : ١٤٨-١٥١

وكان يتصاعد من الوحل دخان له رائحة مثل الكبريت .
ولا غرو، وفي ارض العاقوره، فوق ما
ذكرت، معادن وعيون كبريتية ومتفجرات !
وفي بعض الاحايين بتتبع سنة الزحفة شتاؤه
قليل البرد والامطار والثلوج ~~فيزحف~~ فيجيء الجراد، في
الربيع الذي يليه، من ناحية بعلبك ~~على~~ الى العاقورة
وضواحيها، فيجثم الزحفة الارضية بزحفة
على المزروعات ! والعاقوري
زحفات وخفقات !
مقيم في ارضه، مهيمن على اسباب الحياة فيها،
يستقبل ما كان من نكبة امس، و ~~ولا~~ ولا
فينسى ما كان من نكبة امس، نكبة الغد،
بقلب صلب هادئ، انه حقاً البطل جبار !
تنزح، ولا يبالي،

— — .

الاهرام المدرَّجه

ما اشتهرت العاقورة بالخسفات و"الهوشات" فقط، بل بما وجد العلماء والاثريون فيها، وفي ضواحيها، من الاثار القديمة ايضاً، آثار الهياكل والمعابد والقلاع والحصون، لسائر العهود السالفة، من الفينيقيه والاشورية الى البيزنطية والصليبيّة. فقد مر بالعاقورة الفاتحون من بابل واشور، وزار العاقورة غير واحد من عواهل الرومان، ويمم العاقورة للدرس والتنقيب طائفة من العلماء، اشهرهم الرحالة السويسري جوهان بركهاردت والعلامة الفرنسي ارنست رنان، فعثروا على كثير من الآثار والكتابات والنواويس في البلدة وفي ضواحيها، واخصها الطريق الشرقي الاقدم من جبيل الى العاقورة، ومنها الى بحيرة اليموّنه فبعلبك. ذلك الطريق هو طريق الفاتحين من بابل واشور الى السواحل الفينيقية، كما انه طريق القوافل التجارية من جبيل الى بلاد الكلدان، ومنها الى خليج فارس فالهند.

ذلك الطريق هو طريق الرومان العسكري من جبيل الى بعلبك. كما انه الطريق الذي طالما مرّ بالاحمال الثقيلة، فقد مر منها الحجارة الضخمه والعمد السامقة المعدّة لبناء هيكل الشمس.

يقول رنان ان هذا الطريق هو اقدم

الطرق

طرق الدنيا، لما في جانبيه من الكتابات الهيروغليفية
والفينيقية والمسمارية واليونانية واللاتينية.
هي كلمة كبيرة — اقدم طرق الدنيا — لعالم من
كبار العلماء المحققين المدققين. فقد يكون اختط
هذا الطريق غير الاشوريين، وغير الفينيقيين. قد
يكون فاتح هذا الطريق الانسان الاول، وهو يصعّد
في هذه الصرود حاملاً دبوسه الظرّاني للصيد. وما
يدريك انه من الطرق السابقة للعهود الظرّانية كلها. ٢٦٢
اقدم طريق في الدنيا! اني اقف على قارعته، امام
عالمه الفرنسي الشهير، مؤمناً خاشعاً، ولكني ارى
في الجوار هناك، جنوباً من هذا الطريق، اشكالاً من
الجبال الرواسي، واشكالاً من الصخور الشامخة، الهاً من
فاليس لبرية بابل، والهاً من القديم فاليس
السحر البشرية انصاباً طبيعية تحجّر عندها
لاقدم العهود. ان هناك رواسي هي في شكلها
اجل، انه هناك انصاب الانسان والامم. ان هناك في قدمها كل طرق الكتابة
كالاهرام، وقد شهدت من الهلامية، الى الفقرية،
الحيوانية الانسانية، الى ذلك الواقف على رجليه،
ذوات الثدي، الى الكامل بين كتفيه رأس
الى غير الفاتحين من الملوك، وقد احتوى القوة الفكرية،
الى امير من امراء العلم، بل تزن الارض،
التي تستطيع ان تزن الجبال، وتقيس المسافات النورانية بين الافلاك
والنجوم.

هذه الجبال، جبال العاقوره، التي قال فيها رينان:
انها اجمل من جبال الألب، تستوقفك أيا كنت،
فلاحا او عاملا او قائدا للجنود. وتستهويك،
وتبثّ الكلمة فيك، ان كنت من الادباء الذين
يحسنون مزج العلم والشعر مزجا فنيا.
عندئذ تنتقل من القديم في تاريخ الانسان الى
القديم في تاريخ الكون. وهذه الرواسي العجيبة الاشكال*
اعرق الارضيات قدما، واروعها شكلا وخبرا،
فاذا قال العالم الاثري في طريق قديم انه اقدم
الطرق في الدنيا، وانه يتجاوز تاريخ الانسان الى عهده
السابق للعهد الطوفاني، فلا يبلغ عمره، وهو كذلك،
العشرين الف سنه.
اما اذا قلنا ان هذا الهرم المدرّج عند مدخل
العاقوره هو اقدم ما قام من الاطواد في لبنان، فلم (٢٦٤)
يبلغ عمره ما نرى؟ اننا هاهنا لفي عالم القياس الذي
يشبه عالم الخيال ويختلط به.
فما عمر هذا الهرم - هذا الجبل - هذه الارضه -
هذا الكون ما عمره وما منشاه؟
كلما تقدم العلم، وتوفرت لدى العلماء اسباب البحث
والتحقيق، كلما دنونا من عالم الشعر والخيال، فيبدو
الكون قصيدة الهية، مطلعها السّدم، وبيتها
الاخير - اليوم - هو هذا الكاتب الواقف خاشعا
امامها، الناطق بحرف واحد من احرف كلمة البت

الدولي
~~[illegible]~~

الاولى.

كان العلماء يقولون ان عمر الكون هو ثلثمائة وخمسين مليون سنة. وهم اليوم يقولون، بناءً على الاكتشافات الفلكية بواسطة اكبر مرقب في العالم (مرقب مرصد ولسون في الولايات المتحدة) ان عمر الشمس، وكذلك عمر الكون الذي هي احدى شموسه، هو اكثر من خمسة آلاف مليون سنة؛

ونحن لا نعرف من تاريخ الانسان، فمنذ بدأ ينقش كلمته الاولى على الصخور، اكثر من سبعة آلاف سنة...

وان لهذه الصخور نفسها تاريخاً قديماً، يبدو تاريخ الانسان بالنسبة اليه، كحبة الخردل بالنسبة الى هذا الجبل. وذلك بالحساب الذي امسى قديماً مهملاً؛

اجل: ان للصخور مراحل في تواريخها الخالي، وفي ما كان من تبخرها وتكتلها، وخلوها من اثر الحياة؛ كما ان لها مراحل في برودتها وتجمدها، وفي احتوائها على الحيوانات البحرية المتحجرة معاصرتها للاحياء الهلامية.

وان لكل مرحلة من مراحلها عدداً من السنين يصدم الفكر البشري في تجرده صدمة عنيفة مدوّخة! من

فقد كنا امس نقول وبعد[1] على هذا السؤال:

الى عهد الاحياء الهلامية اربعة / والعهود

العهد السُواخي / الخالي

(٢٦٥)

---

(1) راجع اللائحة والفصل المعنون بسجل الصخور في تاريخ العالم لـ هـ. ج. ويلس. صفحة ١١. اما الرقمان في كل مرحلة فهما يجمعان بين ما اختلف فيه من التقدير العلمي.

واربعون او اربعمائة واربعون مليونا من السنين. ومن
الهلاميات الى العقارب البحرية اربعة وعشرون مليون سنة
او مائتان واربعون مليونا من السنين. ومن العقارب البحرية
الى الحيوان البحري البري الاول اثنا عشر مليون سنة او
مائة وعشرون مليونا من السنين. الى آخر اللائحة اي
الى عهد الثدييات والكلأ والغابات، فيظل بيننا
وبين ذات الثدي الاولى عشرة ملايين، او مائة مليون
من السنين.

كنا امس نقول هذا القول ونردد هذه الارقام، فصرنا
اليوم نقول: على المستر ولس ان يلحق لائحته. كيف لا،
وقد بان لعلماء الفلك من اكتشافاتهم الحديثة
ان عمر الشمس ولذلك الكون التي هي احدى
شموسه يتجاوز الالف مليون سنة.

واذا حللت الصخور المحتوية على مواد مشعة، ولكن
عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور.
وقد تبينوا ان اقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة
يرتد تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة! [1]
وليبني عليه ايتها

اقدم طائر في الدنيا، اين هو؟
ايتها الجبال المتحدرة من الازل المتطلعة الى الخلود
المتجلببة بالخلود، انت التي شاهدت الحوت الاول يخرج من
الماء ليستنشق الهواء، ويصطلي بنور الشمس. انت
التي شاهدت التمساح الاول تتفيأ النخيل على هذه السواحل
الشرقية. انت التي سمعت الجندب الاول تنشد نشيده
في ليالي الصيف، الفارغة من كل حي يغرد سواه.
الوحيد. انت

(1) المقتطف: الجزء الثالث من المجلد الثالث والستين صفحة ٢٦٧

٢٩٩ ٣٢٧

انت التي شاهدت الكركدن الاول يشق طريقه في
الغابات تحت قدميك، أفلا تدلينني على اقدم
طريق في الدنيا؟

٣٢٨
اشبه الجبال التي وقف الماضي في كل ادواره
حيواناته وشعوبه وجنوده
امامها، فاستعرضت وسمعت عواء ثعالبه وزئير
وملوكه ولياليه، كما سمعت
وسمعت شدوك
سباعه، عويل ابنائه الادميين،
اناشيدهم الوطنية، وتراتيلهم الدينية، وزفير
المتغلبية
ساعاتهم الغرامية، اشبه الجبال [illegible]
بالخلود، انك لاجمل واعظم واروع من جبال الآلهة
في عاصمتي الاغريق والرومان.
اشبه الاهرام المدرجة، المدفونة في احشائك
اجيال من الاحياء، المشيدة طبقات
البحرية والبرية
بعضها فوق بعض في الازمنة التي كان الانسان فكرة
او حلما او سرا في قلب الكائنات، الناطقة
صندك بالفن الاعلى، المزينة بالرواشن والطنافس،
المطرزة جوانبك بالطايب الراجحين - بالغار والشطير
والآس والقصعين - القائمة على اكتافك الصبابات
من الاهرام - هرم فوق هرم - تشيد بها الايام،
وتتوجها الرياح والاعاصير، انك حقا لأعظم
واجمل واقدس وانبت من كل ما شيده الانسان
من الاهرام ومن الهياكل والابراج، ان كان في مصر
او في الهند والصين.
لقد

لقد وقف امامك ذلك العالم الناشئ الفيلسوف،
الذي وقف على الأكروبول في آثينا يمجد آلهة
اليونان، ويطري الثقافة اليونانية، ببيانه
المشبع علمًا وفلسفةً وشعرا، وما رأى
~~قبل أن~~ يوم وقف امامك غير أنك اجمل
من جبال الألب، وازكى رائحة منها،
عفا الله عن رينان، الذي شغل يومئذ
بالزائل من آثار الإنسان عن الخالد من
آثار الطبيعة.

(٢٦٧)

الغابة المغضوب عليها

بعد ان نمر بظل الهرم المدرّج، ونجتاز جسراً من الحجر صغيراً امام غار في الجبل القائم بين الهرمين، نمشي الى مفرق الطريق، فنجنح الى فرع منه جديد، لا يزال العمال يعملون في شقه وتعبيده، هو الطريق الى منبع نهر ادونيس وهيكله الاكبر - هو الطريق الى افقا. ولقد كنا مسرورين بان نؤم ما شئنا ذلك المكان الذي قدسه الاقدمون. جئناه حاجين، نحن الاربعة المباركين: الفنانان [illegible] يوسف الحويك، ورجلا الدين [illegible] يوسف [illegible] وابراهيم حتي، وكانت هذه الحلقات، حاجين على الاقدام في يوم من ايام آب، ساعة تفتح الشمس ابوابها على الارض، فيتلج الفضاء بالنور الوهاج، وتتوهج النار على الطاريع [illegible] في فضائها القتاع. وقد غنت علينا لغيمة من [illegible] بالصفاء تلك الغيمة في السماء! [illegible] غيمة واحدة [illegible] الصفاء السماوي بعض [illegible] تكفر عن مظالم الحرارة بنسمات طيبات ولكن الورود [illegible] قطفت الحرارة [illegible] نسمات الجبال العالية. التكفير [illegible] نسمات باردات من [illegible] منابعكم [illegible] في الطريق الذي كان يعمل العمال في شقه وتعبيده، فكثرت فيه الحجارة والتراب

والتراب والغبار. النار والغبار! ان ذلك على
الحاج يسير. ومع ذلك نكبنا عن الطريق، فاقتفينا
اثر الفلاحين في جادة تتعرج بين الحقول المزروعة،
والصخور المنثورة، الى غابة من الشربين(١) قديمة العهد،
كثيرة النكبات. (٢٦٣)

ما رأيت في جبل لبنان شجرًا تنقبض له النفس
وترثي لحاله مثل هذه الاشجار المقطعة المهشمة،
المشتتة في الطريق الى افقا. هي الغابة المغلوب
عليها، المنكوبة بما جنى عليها الانسان والزمان،
وليس فيها شجرة فتية سوية، الا بعض الفتيات
التي غرست حديثًا، او بالحري نشأت مما نثرته الرياح من
بذور الامهات، فما وقفت شيئًا من التربة الصالحة
بين الصخور، فنمت هنا وهناك شجيرات نضرات
رشيقات. اما الاشجار الاخرى فهي جديرة بان يقف
اما الاشجار، لتبث بوحها العابر، وترثي
عندها نبي شاعر مثل ارميا، الطامع بجزية من الحطب.
مجدها. لله من يد الانسان – يسطو على
لله من هذا القاطع طريق الغابات، فيفتح قلبها للرياح والعواصف،
الجذوع والفروع من اشجارها، فيه
فتتكسر وتتقوح ما يبقى من اسباب النشوء والحسن،
بل من اسباب الحياة. يوم كانت تظلل
اني اتخيل هذه الغابة في مجدها، فيعلو اخضرارها
هذا الجبل من العاقورة الى افقا،

(١) (اقتب)

[illegible]

(1) من اشجار الجبل القديمة الارز السرو والشربين . اما
العرعر الذي يذكره بعض الكتاب مع السرو فهو الاسم
الفارسي الاصلي للسرو نفسه . والشربين يختلف
عن السرو بانه اكبر ورقاً منه واصغر ثمراً

الآفاق، وتحجب الطرق التي تنساب خلاله الى الهيكل
الاكبر. واني اتمثل، من الزوار الاقدمين، اولئك
العواهل والقواد الرومان الذين حجوا هذا المكان المقدس باسم
الزهرة وادونيس، فحملوا اليها القرابين متشفعين بها،
وامروا بما فيه صون هيكلها، وازدياد خيره ومجده.
ومن اولئك ادريان، الامبراطور الرحالة، المتعبد
للزهرة، ~~البا~~ المشيّد لها الهياكل في الشرق والغرب،
المحرّم قطع الاشجار – السرو والشربين والارز – في
جبل لبنان، وخصوصا في الطريق الى افقا المكرّسة.
وكأني به، وهو حاج في حاشيته المملكية، في بعده
القرن الثاني للمسيح، قد شاهد ما شاهدناه نحن
من اثر غزوات الحطابين، وعلى الاخص في غابات السرو
والارز والشربين، وقد قدّست لهيكل الزهرة، ٢٦٩
فامر بالمحافظة عليها، وحرّم قطعها.
وقد تكون ذهبت بعد ذلك، وظلت زاهية، الى
يوم الهياكل العاصب، يوم اضمحلال الوثنية في لبنان،
فعاد اللبناني بعد ذلك الى عادة اجداده القديمة، برسل فأسه
في الغابات فاتكا عائثا، والاسباب مما في عمله من عوامل
الخراب في الاودية والجبال.
لذلك لم يبق من الغابات القديمة غير غابتي الارز
في بشري وحاج، وهذه الشبيهة بالغابة، الكاملة جذوعها
وفروعها احتجاجا صارخا على جرائر الحطابين. تلك
الجذوع

المجوّفة

تلك الجذوع الهرمة الجافة المحدودبة المهشّمة،
لو رأيتها في الغسق، او في شيء من ضوء القمر، لبدت
كالمخلوقات الممسوخة، او كالخيالات المجسّدة لأولي الالم
والغم والقنوط.
تلك الجذوع المرعبة، وقد امتدت جذورها على الارض
وبين الحجارة، كالافاعي والثعابين. تلك الجذوع القاطعة
الاشكال، وقد بدت كرؤوس الافيال بخراطيمها المنتشرة،
او كاعناق الجمال المدفونة اجسامها في الرمال،
وكقرون الاوعال المتشعبة، وكاقسام محطمة
من تمثال اللاوكون(١)،
وهاكها كافراس النهر الواقفة على رجليها،
وهاكها الرافعة يديها الى العلاء. وهاكها جنيّة برزت
انيابها وتشعّث الشعر على كتفيها. وهاك
ثالوث الهول، جذعًا تجمّع من ثلاث لعنات
جهنمية: ظهرك في عنقك وعنقك بين
جنبيك. تلك الجذوع المبقورة،
سأحميك ان شاء الله! تلك الجذوع المحطمة
تلك الجذوع الممسوخة، لا تيأس من
الحياة. انها على بؤس حالها،
المهشّمة، على ان الاغصان الخضراء التي تنمو في جوانبها
وبين جروحها تزيد المشهد كآبة وقبحا.
قال الحديث الفنان، وهو يحاول ان يخفف
وقع المشهد في نفسي: هي اطياف الزوار عبّاد
عشتروت.
قلت: وهذه العجوز المرعبة، القابضة
على

(٢٧٠)

(١) اقلب

(١) لوكون (Laocoon) هو التمثال الذي
يمثل كاهن طرواده وابنيه وقد التفت على
اجسامهم الثعابين.

على صخرة لترجمني بها[1]، أين منها تلك المتعبّدة
لعشترَ وآدونيس؟"
فقال الفنان: "وفي الأشكال المرعبة
شيءٌ من روعة الفن".
ثم ذكّرني بذلك التمثال الإغريقي –
لَدَوكون، أي الكاهن وولديه يصارعون الأفاعي.
وما أكثر أمثاله في جذوع هذه الأشجار
وفروعها. إن في عجائب المسخ والتشويه ما يفوق
هوگو، تصوّر هوميروس ودانتيه،
هي الغابة المغضوب عليها، وكأني بها تقول،
لو كانت ذات فصيحة ولسان: اقطعوني من
أصولي واحرقوني – احرقوا جذوري وجذوعي
وفروعي كلها – ولا تدعوني على وجه البسيطة
مثالاً مروّعاً منكراً لنقمة الآلهة.

—١٠—

(1) حجر ضخم عالق بين جذعيها، فيما حوله وهما يضغطان عليه.

القديسة تقلا

كنا نقف في الغابة المطلة عليها لنريح النظر منها، لننظر الى ما دونها من الآفاق، وإن ضاقت جوانبها. فلا يمتد منها أفق واحد هو الغربي الجنوبي، وتنسد الآفاق الاخرى. هنالك فوق نهر ادونيس يلتقي جبل موسى بجبل علمات، وهاهنا تنطوي وراءنا الطريق. ومن جانبنا الى حيث تنكشف امامنا الحقول الخضراء، وقد رفعت ~~ونع الدا~~ صفوف الذرة اعلامها فيها، ونثرت البطاطس عليها الازاهر البيضاء. وهناك فلاحا يزرع الحب الذي سيحصد في الخريف. وهناك [illegible] يغنّي للماء بجولته الطويل، يغنّي ونغنّي ليفرّج عما يجده من ألم الفراق والنوى - يغني العتابا بصوت أجشّ طويل المدى:

سافر

~~٢٤ ب~~ ٢٧

~~سافر بابور ما انكسرت ما كنتو~~ وما كنتو

سافر بابور ما انكسرت ما كنتو

يحسبكم يا حبابي ما كنتو

ناس لشير عاشو بلا حجاب .

مشينا ساعة ونصف ساعة في تلك الشمس المحرقة

لولا نسمات الورود الباردة تلطف حرّها ، والطريق

ينعرج امامنا ، ويختفي وراءنا ، دون ان يبدو منه لضالتنا

المنشوده اثر او خيال ،

قال الرفيق الحويك ، وهو في المشي من المجربين

المبرّزين : اذا استقبلت له

عمالقة الافكار [illegible]

بسموهم [illegible]

ولو كان نعتبر الحجارة عربية او افرنجية . قال عندنا

باشرنا المشي ، فالتقينا على ساعة من مفرق الطريق ،

فذكّرنا الرفيق ابراهيم بذلك ، وهو يشد على رأسه ، ثم قال !

منتشفة الحمام ~~التي كانت~~ التي أعدّتها لمياه النبع ، بحس الذلاقة وتقدير

ليس في هذا الجبل بشر واحد ، الفنان النقاد ،

المسافات . هذا بدف الحديث ، الدقيق النظر في

الطويل الباع في العلوم والفنون ، فهو لا يبالي بها .

كل شيء سوى بلايا الحياة البشرية ، فهو يتحول

اذا اذا سألته عن المسافة بين بلد وبلد ، ملك

لك ما لا يختلف عنه قول المعاز او الفلاح:
يشربه سيكاره ! وسيكارته ~~[illegible]~~
ساعة ، وساعته مثل ساعة المعاز زحف
نهار . " الاكبر سناً فينا ، والاطول
وكان الرفيق الآخر
قامة ، والاوسع وقاراً ، الرفيق المطربش ، المجلبب
بجلباب السفر ، الحامل السبحة بيسراه ، والمنديل
بيمناه يمسح به العرق من جبينه ، كان هذا الرفيق
السلوك الصبور قد تقدمنا ، فاشرف على مرابع
الانس في منحدر الوادي ، فبشر بسمية الفنان
وراءه ، فبشر الفنان ابراهيم ، فبشر من جاء
في المؤخرة ، فقلت : وانه من ابراهيم وانه بسم
الله الرحمن الرحيم . افما اثر للانسان
ما كنا نظنه ان هناك في جوار النهر ، على منكب
فوق النهر ، له بيت ،
ففوجئنا بالبيت حول البيت
في هذا المكان . وبساتين ، هي المنطرة مزرعته
في عرض هذا الجبل ، ومزارعه ، بل هي جنة معلقة بين
~~[illegible]~~
وكتفول حول البساتين فرح . الانسان المتشبث في لبنان جامع .
النهر والجبل . ووقفنا اذ دنونا من الانسان اليوميه ، واهبطنا
اليها ، الانسان العاقل ~~[illegible]~~
وقفنا ننظر في امر حيوي من امور الانسان العاقل
شوري بينهم ، فتشاورنا . وكنت ذا العاقل
بزيارة المغارة والذهاب ثم العودة الى العاصمة للغداء .
فقال نسطور الحكاية (١)
وكانت الساعة تدنو من الظهر .
~~[illegible]~~ الرفيق

(١) نسطور المشهور في الالباذة بالحكمة واصالة الرأي .

٢٦

الرفيق يوسف صادر: «من حسن الادب، بل من الواجب

علينا، ان نزور اولاً صاحب هذا البيت. وبعد ذلك

نقرر امرنا. واذكروا الآية: كل امرئ بما

كسب رهين.»

٢٧٣

فقال الرفيق الكوريٌ: «ما فهمت الآية، ولكني فهمت كلامك.»

اما رأيه المبني على ما فهم، والمفصح عن تردده، فهو

تقسيم مثل علم اللاهوت الى قسمين، نظري وعملي. فالنظري

لاهوتي باطني، احترمناه وما فهمناه، والعملي تحوّل،

بعد المراجعة، من التردد الى القبول.

ولكن الرفيق ابراهيم قال بصراحته المعهودة انه لا يعرف

الرجل، ولا يليق لذلك ان يأكل في بيته.

فاجابه نسطورنا، العالم كل العلم بما يليق وما لا

يليق في ادب الاجتماع، قائلاً: «ستتعرف اليه

اولاً، فيزول المحظور في قبول الفطور.»

كذلك تمت الشورى بيننا، فتقدمنا بخطوة واحدة،

وخطاه

- في الظاهر - واحدة، الى بيت صاحب الجبة، ودخلناه

وقلب

متكلين على الله، فاذا نحن في صحن للدار رحب

منكاً تغضب، تتدلى فيها عناقيد العنب، التي

تخيّم عليه دالية جبارة، خضراء الكب حامضه. ... (marginal)

كانت لا تزال... سود وانط، وشيخ في قميص

الى جانب الدار جالسة مكشوف، وعند الحائط القاطنة

النوم جالس هناك يدخن الاركيله، وواقف يطنع خنجراً،

بين المجلس وصحن الدار رجل يضع القهوه.

وآخر جالس عند الموقد

فعندما رأى الشيخ رفيقنا الكوري نسي

ان يسلم علينا ويرحب بنا، او انه ظن ان

السلام

فرنسيس

٢٧ ~~٢١١~~

السلام على واحد هنا، والترحيب به يشملان
الجميع.

وقد استأنست أنا بالمعاميل بين يدي
القهوجي، تلك المعاميل العربية البدوية التي طالما ابتهجت
عيناي بها، وصفق القلب لها طربًا. فهي ذي
الركوات الطويلة البلابل، والفناجين الفيشانية [?]
الزرقاء، والقهوة — بقليل منها في كعب الفنجان،
وفيها حب الهال — جاءنا الخادم بها، فشعرت أني في ضيافة شيخ
عربي. ولكنني، وأنا ألتذ بهذا الشعور،
سمعت الشيخ يقول للرفيق المحبوب: «وأين
صورة رفيقنا الفنان ما [?] تقلا؟ أما وعدتني بها آخر مرة
زرتنا؟» فهمت إذ ذاك القسم الباطني اللاهوتي لما تقدم [?] في
البيت. فهمت معنى التردد في
مجلس الشورى خارج البيت. ويسمعه ~~الفنان~~
الرفيق يوسف صادر، وكيد الأقدار، فيزداد
قبوله اقتراح الرفيق من الاعتذار، فرأينا أن نتوسط
الكلام، المركب [?] ... شدة،
بجمجمته، وتزداد حجته شدة، وما يليه من مؤانسة
الشيخ حدة، حبًّا بالسلم، وتمهيدًا لأن عرفنا إلى
بينهما ... آخر عرفنا فيه أنفسنا،
فرحب الرفيق بالوساطة، فأردفنا التمهيد قلب الشيخ فرحًا أو
معذبه، من الأسماء

فما ... حزن [?]
كدرًا.

أمين

ثم تحول المجلس الى محكمة، فعلمنا من قصة الشيخ
جبرائيل جرجانوس آل نور الدين انه في عهد البطريرك الياس
الحويك، عم اخينا يوسف، اجتمع ذات يوم في المقر البطريركي
بالوح المذكور، واوصاه على صورة زيتية للقديسة
تقلا، ثم ارسل اليه ثمنها سلفًا - خمس ليرات
ذهبًا عثمانيًا - بواسطة الاسقف .... في
بكركي، ولكن الاسقف المذكور "اكل" على ما
يظهر الذهبات الخمسة كلها، ومات بعد
ذلك، فلم يصل الى يوسف ذهب واحد منها،
ومع ذلك فقد وعد بان يصور القديسة المذكورة
مجانًا لوجهها الكريم، وان كان لم يرها في حياته كلها،
ولا يعرف شيئًا عن سيرتها،
الا انه سمع [illegible] بشيء مما صنعته من العجائب.
عندئذ طلبت الشيخة زوجة الشيخ جبرائيل
الكلام، فقالت القول السديد المفيد، وارسلت خادمها [illegible]
الى الكنيسة الصغيرة في جوار البيت،
فعاد الخادم يحمل صورة ملونة لماعة مطبوعة على الحجر في
المانيا، فتناولتها الشيخة التقية بكلتا يديها، وقبلتها،
ثم شرعت تحدث عنها، وتشرح معانيها للرفيق الفنان.
"كانت القديسة تقلا عليها السلام، ابنة امير
وثني، فتنصرت، فغاظ تنصرها الملك، فامر بان
تطرح الى السباع، وها هي بين السباع عليها
السلام"

السلام. هذا السبع (تدل الشيخة عليه بسبابتها)
يقبل يدها، وهذا السبع الاخر تقبل رجليها.
وهذا السبع الكبير يقف امامها كالخادم المطيع.
وهنا (وهي لا تزال تدل بالسبابة) فصورة الامبراطور
وهو وحاشيته فيها تتفرجون. هذه من
عجائب القديسة تقلا، عليها السلام.
أبرقت عين الفنان، فقال بلهجة الخلوص
والفرج: "تعال. سأنقل هذه الصورة كما هي،
بسباعها وملوكها، بما عطيتك"، يا شيخ
جبرائيل، صورة زيتية طبق الاصل."
فقال الشيخ: ولكني لا اثق بوعدك. قد وعدتني مرارا
واخلفت. اريد كفالة: فهل يكفلك احد من زوارك
هؤلاء الافاضل؟" وكان الصوت من اعماق
قلوبنا جميعا بالصوت الواحد. فاختار الشيخ جرمانوس الاستاذ
بدر حادر لسمعته الطيبة، ولانه ذو عقار ببيروت يعزز
الكفالة. فاذا تغلت الفنان هذه المرة ايضا، فالكفيل
والعقار لبيت.
وقد علمنا بعد الغداء، الذي تلطف بتحضيره الشيخة
الفاضلة ورجالها، ان الشيخ جبرائيل سافر في صباه الى
اميركة، والقى مراسيه في جزيرة سان دومنغو هاييتي،
فاتجر فربح واثرى، وتزوج بزنجية من زنجيات الجزيرة.
ثم عاد بها وبثروته الى مسقط رأسه العاقورة
فتوفيت.

فيها رحمها الله، فدفنت في كنيسة القديسة

تقلا؛ وعلمنا كذلك أنه بنى الكنيسة الصغيرة في
جوار البئر له وللفلاحين "شركائه" وتخليدًا
للذكرى الغالية. فإن في قلبه مكانًا للحب،
وآخر للتقوى؛

— وكان جبرائيل بن جرمانوس متعبدًا، مثل
زوجته الثانية خازنية، للقديسة تقلا، عليها السلام
وكلّف فنانًا شهيرًا، بأن يصور
فبنى لها الكنيسة (٢٧٦)
لها صورة أيقونية ...

— وكان الامبراطور الوثني ادريان متعبدًا
للزهرة، فبنى لها الهياكل، وقرّب لها القرابين....

— ومن ادريان الى جرمانوس، ومن الربة الزهرة
الى القديسة تقلا ألف وثمانمائة سنة من
الزمان، ومقدار شعرة من الفرق في الإيمان.

٤١

٢١٤

٦

الخربة الكبرى

من المنيطره، جنة جرمانوس، الى مغارة افقا،
تنزل نحو مائتي متر في جادة وعره، تجري في اقسام
منها المياه الردغه، وقد اختلط بها في جوّ رحبها
روث الماشيه، ونبتت على جوانبها الدوالي
الشائكه والنباتات المسنوده، منها نبت يدعى
البرغون ذو حب بحجم الآس، غير انه اسود اللون،
ولا يؤكل.

وقد عثرنا في هذه الجادة، الف وثلثمائة متر فوق
البحر، على محارة صغيرة متحجرة! حيوانة بحرية صامتة
ناطقة! ايه، يا ابنة اليم الطامي، الحاملة نبأ الدهور،
منذ كانت الامواج تتلاطم بين هذه ~~[illegible]~~ الجلاميد، فتقذف
بك الى الشاطئ، كنت ~~[illegible]~~ تلك الاطناف، ثم تعود بك
الى بيتك المائي، كنت بوحيد تخالجين - تنعمين -
الى بنيات الطرية الشفافه، فشهدت الكارثة التي
في صدفتك الطرية، وباخواتك البحرية، عرفت، ابهج
حلت لعدائد بك، عاقبة السروح والطموح، تركتك
المخلوقة اللطيفة، كانت هي تستشهدين هذه
الامواج ونشأتك يوم هجرتك الى العمق الزرقاء فحملت ظمأ
الجبال. ولكن صخرتك صانتك من
بين هذه الصخور، وها انت ذي اليوم بعد
الكوارث المحطمه، محارة صخرية سليمة بين
ملايين من السنين، بيدي.

وديع

~~٤٢~~ ٢١٥

وامامنا، في هذه المهاوي المهابة الهائلة، نبأ
آخر من انباء الزمان. هناك صفحة من كتاب الجيولوجيا،
تقرؤ فيها سيرة تكوين الطبقات الكلسية، بعضها
فوق بعض. هناك المثال الناطق في شكل نصف
دائرة، تبدأ في الجهة الشمالية وتختفي في الجنوبية.
هناك الاهاب المشمخرة، وقد ارتفعت
خمسمائة متر فوق المغارة والوادي، وفي تكوينها
انواع من التربة والصخور، فقسم منها مرعى للغنم والمعزى،
وقسم قاحل صخري، ينحدر انحدارا شديدا، تخططه ٢٧٨
السيول بالخسفات. الناطحة السحاب،
تلك الدائرة من الجدران الابيض مستوي، هو كالطنف
يزينها نطاق من الصخر مطرد، وفيه مثال التكوين
في اسفله، وكالرف في اعلاه، وبعض الاشكال الافقية
المائل للطبقات الكلسية، مصفوفة بعضها الى جنب بعض،
والعمودية — حجارة بعضها فوق بعض.
وطبقات مرصوفة بعضها من هول ايضا، وروعة
انه لاعظم ما في المكان هذا النطاق يمتد مع الجبل
شامخة هاوية، وينقطع في الناحية الشمالية،
جنوبا بغرة، نحو عشرين مترا في رجفة
وقد سقط قسم منه، تلك الرجفة التي ذهب بقرية
سنة ١٩٠٥، وهناك حجارة
اخفا، فاست اثرا بعد عين. في كل مكان
الطبقة الكلسية، منتشرة انواعا من الطراوة
ان في طبقات الصخور والقساوة

والقادة . فالطبقة الطرية تفعل فيها السيول
والرياح افعالها العجيبة ، فتكوّن الكهوف فيها والاطناف ،
او تحفر فيها متغلغلة فيها وما فوقها .
ان في قرية الغابات وحولها البرهان والدليل على
هذا الظاهر من الظاهر الجيولوجية . هناك رجام الحجارة
والجلاميد — ركام منها — وقد تفلتت من طبقتها بعد
ان أتمت السيول والرياح عملها في الطبقة الطرية تحتها .
هي آثار زحفة طاغية هائلة ، قذفت برجام الصخور
في كل مكان ، فتراها في الحقول المزروعة ، وعلى ضفة
النهر . الغابات ، وفوقها جبيل الزحفات ، ينتدرها
على الدوام ، وهي تمثل بحياء في ظل جزفيوس ، لا تبالي .
قبل ان نصل الى المغارة نشاهد في الجهة الشمالية
من سفح الجبل مثال الغبراء في تكوينها . فالمياه تنبجس
من بين الصخور والطبقات الكلسية في مكانين قد
يصيران بعد الف سنة مغارتين ، تتدفق منها المياه
كما تتدفق اليوم من المغارة الكبرى .
قلت هذا لصديقتي الكاتبة المشهورة مي ، فقالت :
التي كانت جارتنا بالفريكة في صيف ١٩٢٨
"وساعود انا الى الارض بعد الف سنة وازور ذلك
المكان لاحقق صدق نبوءتك ."
فقلت : موعدنا اذاً بعد الف سنة !
موعدنا ، وتكونين جزءًا منها ، اذ
وقد تشهدين الاعجوبة ، او في ظل الجوزة التي
تجلسين هناك ، في ظل تلك الجبذرة ، ستكون

ستكون هناك ، وهذا الكتاب بيدها ، تقرؤ فيه
النبوءة وتقول : مثل كل الانبياء ،
الفلاسفة الى الامام ، فهل تعلمين ، ايتها
العزيزة ، بكل ما انطوى من الزمان واحداث
الانسان ؟ وهل تذكرين ؟
الفلاسفة الى الوراء ، فهل كنت تعلم بشيء
من مطويات الزمان المقبل ، ايها العاقل الروماني العظيم ؟
ليت شعري هل كانت المياه تنبجس من جوانب هذا
الجبل الشمالية يوم حج ادريان هذا المكان ؟ ليت شعري
هل كان في حاشيته الملكية من تلهمه المشاهد
الطبيعية اكثر من المناسك الدينية ؟ لو كان ذلك
لعلمنا اليوم بعض ما كان من محيط افقنا الطبيعي في
تلك الايام . ها هنا في مكان
لقد كانت المغارة ولا ريب ، كما تتدفق في
فتتدفق منها المياه الباردة العذبة ، وكان الطريق
يومئذ ، فتهبط شلالا تحت الطريق ، الواحد من الجنوب الغربي يمر
البركة طريقان كما هو اليوم ، والثاني من الناحية الشمالية التي اجتزناها .
بنبع الحديد ، وهذه الحجارة المنحوتة المبعثرة على رأس
الابنية ، وفي جوانبها الى اسفلها - الى النهر -
المتراكمة هنا وهناك ، القائم بينها اجزاء
من الحائط تحت من الكارثة ، هذه الحجارة المنبوذة
اليوم

اليوم كانت يومئذ منفذة "تنفيذاً هندسياً جميلاً،"
وكانت يومئذ من مقدسات أجمل الربات والارباب،
الزهرة وآدونيس. هيكل عشترت وتموز، أي
هيكل ادونيس والزهرة، بين هذه الجبال، (٢٨٠)
اتصوره قائماً [تفي منه وجلاله] على هذه الربوة، المتدفقة من فم المغارة،
امام تلك المياه المزبدة المبرقة
يحيط به سور لا تزال آثاره بادية للعيان، تحتضنه
ساحات كبيرة، فيها الحيوانات الطائفة، وبحيرة
الاسماك المقدسة.
وقد كان في الساحة التي امام باب الهيكل تمثالان
ضخمان لآلهتي التناسل: الفرج والذكر.
هيكل تموز — الحرم الأكبر الأقدس في
هيكل عشتر يتحج إليه زائري العيد السنوي، في الربيع
البلاد الفينيقية — كان يحج من كل فج وصوب، من البلدان
فيجيئه الاتقياء والاشقياء من بابل وآشور، يجيئونه خاشعين،
الفينيقية والعربية، يجيئونه متلبين، يجيئونه حاجين
يجيئونه طاهرين، يجيئونه حاملين القرابين.
هيكل الزهرة، اغنى الهياكل الرومانية الفينيقية في
ذلك الأيام الرومانية المظلمة —
البلاد السورية. جاءه ذات يوم كراسوس(١) فنهبه نهباً،
الغني، جشع الأشبر — مرقس الأشقياء — ونهب البلاد العراقية.
لعله كان قد حارب (البربريين)
فضي كراسوس هذا نفقة ايام ~~الهيكل~~ يزن الاواني الفضية
والذهبية التحف الثمينة التي اخذها من هيكل
زهرا

(١) Marcus ~~Licinius~~ Crassus (١٥ — ٥٢ — ق.م)

~~٤٦~~ ٢١٩

أفقا.

لقد صحبت معنا أيها القارئ. فهلا زرتها تحج مع
الفينيقيين؟ إنك لتسمع العج والثج قبل أن تشرف على
الهيكل. وإنك لتسمع أصوات الطبول والصنوج
والمزامير، وأصوات الكهان وهم يرتلون، وأصوات
الحجاج نساءً ورجالاً، وهم يولولون وينتحبون.
لقد ملأت الأصوات هذه الأودية العالية من الجبال،
وانتشرت في الوادي، فتراجعت أصداؤها فيه،
وبين رواسيه، فأقلقت النسور وروّعت الذئاب.
وإنك لتشعر بلهب النيران، وتشتم روائح
الدخان، وأنت ~~[illegible]~~ تصعد منعطف الطريق
فتشرف على الهيكل في البطحاء بين الهضاب،
فترى ساحاته مفعمة
المتجمهرة، وسدنة الهيكل يتقدمون قرابين
وهناك الكهان بالمناديل على [illegible] من الغابات
يتقدمون المتعبدين بالمشاعل على [illegible] أشجار يقطعونها من الغابات
تتهادى. وما بالمك [illegible] ~~[illegible]~~ وهم يترنمون
فيعلقونها على القرابين، بنات الهيكل يرقصن رقصة الورع
وهناك الموسات [illegible] وهناك الرجال يتقافزون — ينفخون
~~[illegible]~~ بالمزامير، ويضربون بالصنوج والطبول وهم ينشدون ~~[illegible]~~ الأناشيد
وبينهم حلقة من الراقصين، رقص الدراويش في هذه الأيام:
يقفزون ويتلوون، ويطوفون الصدور والظهور —
ويجثون على البطون.

وهنا [illegible]

وهناك المهووسين المهتوكين، وقد حملوا السياخ
وقطع الخزف، يطعنون بها صدورهم، ويخدشون الوجوه
والزنود (خُشَيْنيو ذلك الزمان) ومنهم
يقطعون قطعًا من اجسامهم، ومنهم يخصون انفسهم،
فيقدمون ما يقطعون قربانًا للمعبودة والمعبود
وهناك المخنثين، وقد طلوا وجوههم بالحمرة،
وراحوا يَعْدون في اسواق المدينة، طالبين الابنة
الانثية، فيلبسون لبس النساء تشبهًا بربتهم
عشية العالية، ثم ~~يبرعون~~ يخلعون تلك الالبسة،
ويرقصون عراة، والموسات تقربًا للوصال الشقي،
وما هذا الذي يرمون به من سطح المعبد؟
اكياسًا فيها عجول؟ لا، صدق ما يقولون. ان في تلك
الاكياس اطفالًا بشرية تقدم ذبيحة للآلهة....
— وجاء اليونان، ولعدهم الرومان، فاقتبسوا الاساطير
عمن تقدمهم، وحسنوا فيها وغيروا، فصارت عشتر
تعرف بأشترته ثم بالزهرة، و~~لطفت~~ تطهرت العبادات
والمناسك بعض التطهير من شعوذات الكهان
ورجاسات المتعبدين. تحارب الاصنام والتوثن
— ثم جاءت المسيحية في اوائل القرن الرابع
جميعًا، فدخلت لبنان ٢٨٢ ثم امر
قبل تنصر قسطنطينة، بهدا

هذا الملك، بقصد تنصره، بهدم الهياكل الوثنية
كلها، تقويضاً لما كان "ذلك الزون الرجس"
فهدم هيكل افقا في السنة الخامسة والعشرين
والثلاثمائة، وأجلى سكان البلدة الى بعلبك.
ولكن اللبنانيين ظلوا متمسكين بالوثنية
واصنامها، وكانوا في اواخر القرن الرابع قد اعادوا
بناء هيكل افقا. قال المطران يوسف دريان (1)
نقلاً عن ثيودوريطوس ان يوحنا فم الذهب
(٣٤٥-٤٠٧) "لما علم أن سكان فينيقية ما
زالوا يعرجون جنوناً في سبيل الاوثان، جمع
بعض الرهبان ممن اكلتهم غيرة الله، وعززهم بالاوامر
الملكية العالية، وارسلهم على هياكل الاصنام
فخربوها، وقتلوا الوثنيين اللبنانيين". (2)
ولكنهم لم يخربوها كلها على ما يظهر، والا لاستطاعوا
ان يبيدوا جميع الوثنيين. وظلت بعض الهياكل قائمة، ومنها هيكل
افقا، حتى اواخر عهد يوستنيانس السعيد
(٥٢٧-٥٦٥) وفي عهد هذا الملك
جاءت الزلازل تهد المسيحية وهياكلها، فخربت الهيكل

(1) البراهين الراهنة في اصل المردة والموارنة، صفحة ١٧٨
(2) وقد كتب الى روفينوس يقول: "بلغني أن شرور وهمجية فينيقية قد تجدد انتشارها، وزاد عدد الوثنيين".

اقلب

تابع الحاشية :

محمد عليهم المسجون باسم الدين . وكانوا جميعاً

تشكايديف .

الهيكل الأكبر الخربة القاضية، فجعلت أعلاه
اسفله، فاسى — وظل كما نراه اليوم —
طللاً دارساً قارساً يلح فيه قول ان عمر
الحلبي عمر ابو ريشا:

"لقد تعبث منه كف الدمار
وباتت كاف اذى لمسيه
هنا ينفض الوهم اشباحه
وينتحر الموت من يأسه"

فما امحها كلمة في ما هناك من اوهام
وخرافات، هجرها الموت، فتكاد تكون خالدة في

(٢٨٢)

تجددها الدائم. فلقد نبت في ما تبقى من الحائط الشرقي، بين
جوانب الربوة، شجرة جوز
عند اقميك الاساس، في جوانب الربوة، شجرة جوز
واوى من التين، من كل ذلك المجد "والجنون" عبر خرافة
وما سلم من كل ذلك عن بطلة الزمان الغابر.
وتشبهات ستيدة هذا الزمان الاشجار المقدسه — وقدست
فالتينة من طائفة ~~تلك~~ تلك الاشجار، لها المجد:
للسيدة القديسة المسيحية، لفي قدمه من
وان جهلة المتاولة في هذا الجوار وكثيرون الشجرة حاجتين،
ليقولون: "لها المجد." ويتبركون، وينذرون لها
فيعلقون على اغصانها الرقاع، تباركت السجلات في كل زمان،
النذور.

(٢٨٤)

الاسطورة الخالده

من منكرات العبادات الوثنيه، ومن عبث العقائد
الكهنوتيه، اعود بالقارئ الى الاسطورة الاولى ومنشأها
في هذا الشرق الادنى. فان فيها شعاعات النور الازلي
الخالد، وقد أبرق للمرة الاولى في قلب شاعر او
حكيم، وقف مستبشراً متحيّراً في بعض
اعاجيب هذا الوجود؛ هي الاسطورة التي صنع منها الكهان ديناً فطقوساً، ومناسك وعبادات
ديناً رسمياً ذا عقائد وتقاليد ومناسك
مادية الشكل والمعنى، ومشتبكة في اكثر
الاحايين منكرة؛ على تطورها المادي المنكر،
ولكن مغزاها، ظل مثل اصلها واحداً
ووجهها الشعري الجميل، في كل زمان ومكان:
اعود بالقارئ الى عهدها الاول، الى ذلك الاديب الكاتب الفنيقي
سنكنتن الذي كان قديماً حتى في ايام الاغارقة السوريه؛
الاشهر، الى أور الكلدانيين، بل الى ... رأى ان حبة
هنالك، في ذلك الزمان، تنبت عشرة وتنزع حبة
الحنطة تدفن في الارض، ثم تنبعث حية
في السنبلة الواحدة، فتصور السر او السحر او القوة
العجيبة في ظلمات الارض، وقال لنفسه ثم لاخوانه:
لابد ان يكون لهذه القوة رب يرعاها، ويبدي في كل عام
فطرها. اذن

٥١

اذن على الانسان ان يعبد ذلك الرب ليضمن
دوام خيره ورضاه .
هي ذي الفكرة الاولى في الاسطورة الاولى ، وقد
سُمّي هذا الرب بلغة السومريين دمُّوزي ، اي الابن
الذي يبعث من العالم الادنى ، الابن البار المطيع

٢٨٥

المبعوث .
ثم احب دمُّوزي اخته إِنّيني ربة الارض
والسماء حباً عذرياً ، فصارت تنزل الى أرالّو اي
العالم الادنى ، كل عام ، بعد وفاته ، لتعيده الى الارض .
وقد جاء في رواية اخرى أن دمّوزي هو رب المواشي
والحقول والري ، وأنه للأم الارض الزوج والاخ
والحبيب . في كلا الحالين تنبت الاشياء انه هو
الذي صعد من اعماق العالم .
وبعد ذلك أدخل على الاسطورة رمز الحياة والموت ،
فصار دمّوزي في النبات الذابل صيفاً ، المخضرّ ربيعاً
يموت في كل صيف ، ويبعث حيًّا في كل ربيع .
لذلك كان يقام له مأتم في منتصف فصل الصيف
من كل عام ، اي في الشهر الذي يعرف عندنا بتموز ، وكان
يدعى الشهر في الاغاني وتموز شهر رحيل إِنّيني
اي الشهر الذي تغيب فيه لتبحث عن حبيبها .
إِنّيني سيدة السماء ، تنشد سيد
الارض في اعماق الارض .
وعندها

وعندما اقتبس البابليون هذه الأسطورة عن
السومريين دعوا شهر الرحيل بتموز اي شهر الإله
واسموا اخته عشتر، اي الربة العذراء، ان الصلة
بين تموز ودموزي ظاهرة، كما ان الفرق ظاهر بين عشتر
وإنيني. اما سبب الفرق فهو ان العقاديين أسموا
هذه الربة أشداد باسمهم الخاص، فنقلها البابليون
عنهم، فصارت أشداد عشتر، وذكرت في
التوراة بزيادة الواو والتاء - عشتروت،
وكما تطور الاسم تطور الكب كذلك في الاسطورة
فلم تعد عذراء، اقترن تموز بعشتر في بابل، وقيل
في ذلك اقوالاً متناقضة، فكانت تذكر الربة الزوجة
في صلواتهم ومناجاتهم تارة كالاخت، وطوراً كالأم،
وكالأم العذراء حيناً، وحيناً كالزوجة الأم. فضلاً
عن انها كانت تدعى بربة الخصب وربة القمر.
هي الصيغة اللاهوتية التي اتخذتها الاسطورة في
بابل، على يد الكهان قبل ان انتشر
في الشرق الادنى. ولقد جاء ذكرها في الآداب السريانية،
كما انها حلت محل الدين عند الصابئين بحران،
فظلوا يعبدون عشتر وتموز حتى القرون الوسطى
من العهد المسيحي. وكانوا يغالون بمناقب تموز
وكراماته، فيقولون انه يشفي الامراض ويستجيب
الطلبات كلها، وان له سلطاناً على الشياطين. هي
الآثار البابلية في الاسطورة. فالبابليون،
وهناك تطورات اخرى بابلية وطنية ليبطلوا
يوم كانوا يجاهدون السومريين والاشوريين

سبادنا

(٢٨٦)

سيادتهم على البلاد، رأوا أن يشركوه تموز
بمردوخ الإله الأكبر، أو أنهم انتحلوا معنى الأسطورة
الأولى، فقرنوه بالوطنية البابلية، وصاروا يقيمون
لمردوخ عيدا في شهر نيسان - في الربيع - شبيها
بالعيد السوري: - هاكم إلهنا الأبد مسجونا في العالم الأدنى.
وهاكم كهنتنا ينشدونه، ونساؤنا ينتحبن عند قبره.
وهاكم زوجته بلتيس تهبط إلى عالم
الظلمات، باحثة عنه، فتعود ظافرة به: فينهض
مردوخ من قبره حيا. مردوخ - تموز إله الحياة،
والموت، والبعث، والخلود!
من أور الكلدانيين ولاغاش إلى بابل وآشور، وتحول
ومنها إلى فينيقية، تنتقل الأسطورة الخالدة،
في بعلبك، دون أن يتغير فحواها ومغزاها،
من دموزي إلى تموز إلى أدونيس - تعددت
الأسماء، والرب واحد. أما الاسم الأخير فهو فينيقي
مشتق من آدون أي سيد.
ولأدون هذا أسطورة فينيقية خاصة هي الحكاية
أو الملحق للأسطورة الأصلية. آدون هو ابن مرة ابنة
سينيراس ملك قبرص. ولد في البلاد العربية، حيث
فرت أمه هاربة من ظلم والدها، ثم عادت به شابا
إلى جبيل.

وجد /

ابحم

٥٤
٢٢٧

وقد كان آدونيس مثال الجمال الكامل، جمال التخلق
والخلق. فسمعت به عشتر ربة السماء، فشغفت
٢٨٧ بحبه، فنزلت من عليائها لتصحبه اياه (٥). وكان
ادونيس ولعاً بالصيد، فخرج ذات يوم لغرضه المحبوب،
بالرغم من تضرّع حبيبته، وهي في وجس من ذلك،
فما أن خنزيراً برياً، [illegible] ورماه بسهم من كنانته
فهجم الخنزير عليه، وأرداه قتيلاً.
وهناك رواية اخرى هي ان ادونيس هو ابن مُرّة من
زوجها ثياس الملك السوري. ولكن ربة الجمال أفروديت
أغرت الأم بابنها، فأحبته حباً شقياً، فغضب الملك
زوجها، وهمّ بقتلها، فأدخلت افروديت الرحمة
على قلبه، فمسخها شجرة، ولعبت بمسخها. وبعد
عشرة اشهر انشقت الشجرة، وانبثق منها ادونيس،
فخبأته افروديت (أشترت-عشتر) لجماله
في صندوق، ووكلت به ربة الظلمات پرسفونه،
فافتتنت به، وأبت بعد ذلك ان تعيده الى
افروديت. فرفعت الامر الى اله الالهة زوس،
فحبسته عندها، وأمر بان يقيم آدونيس ثلث مدة السنة مع پرسفونه،
وثلثاً مع افروديت، ويكون في الثالث الاخير حراً
طليقاً. وانك لترى في هذه الرواية الشعرية جمال الطبيعة
يقيم اذ ذاك
فالاله يغيب في الشتاء، ويعود في الربيع
بجماله البكر زوجاً لربة الظلمات پرسفونه.

الخو لبكوس

ابرائيم

٥٥

٢٢٨

ليكون زوجاً لأفروديت، وتجزر في الخريف من قيظ
الصيف وبرد الشتاء. هي ذي الاسطورة السومرية
البابلية الفينيقية في تطورها الشعري.
وقد تطور كذلك عيد رب الاسطورة. فقد كان
الفينيقيون يبكون أدونيس، ويقيمون له المناحات في
الربيع كل عام، فصار العيد في ابان الحضارة
الاغريقية عيداً للحمد والجذل. وكيف لا يكون
الجذل، وأدونيس قد عاد الى الحياة، تبعث
حياً اكراماً للحب الخالد، حب عشتر ربة القمر،
ربة الخصب، ربة الجمال. وكانت تمثل حاملة الغزل
ابداً والصولجان، على رأسها هالة من النور، ممنطقة
بنطاق ذهبي، راكبة في عربة يجرها أسدان.
(٢٨٨)
اما العيد الادونيسي الاغريقي فقد كان يقام في اماكن
متعددة من بلاد الاغريق، كما كانت تقام المناحات ~~في اماكن اخرى وخصوصاً في~~
جبيل منذ القرن الخامس قبل المسيح
وفي جبيل قبل ذلك. في اماكن
كما لطمتها الخلاعات قبل ذلك
فكان يندب ادونيس في العيد الاغريقي الفينيقي ذلك
الا هو عيد الموت والحياة - الموت
~~اوقفا~~ وتجدد معاً - كما كان احتفالاً في أور وأوروك، أي
والبعث والخلود.
في هذه الاسطورة السومرية:
وعندما انتقلت الاسطورة من الاغريق الى الرومان، ظل
اسم ربها واحداً - ادونيس - وتغير اسم الربة عشتر وصار
فينوس، اي الزهرة. على انه كان للرومان في بلاد الافراج
(آسيا الصغرى) اسطورة اخرى ربتها آتيس، الشبيهة
في بعض باسطورة آدونيس، وهي البعض الآخر بما اكتسبته
من الصفة اللاهوتية في بابل.

وهارج

ايلم

٥٦ ٢٢٩

وهناك الاسطورة الأتيسية، ولد أتيس
من أغديتسيس ابنة خنثية للاله الاكبر زوس.
فعشقت الام ابنها، وصدها عنه، فألحفت
ففر منها، وجبّ فرجه تحت شجرة من الصنوبر،
فنبت البنفسج من دمه عند جذعها (وفي اسطورة
ادونيس ينبت من دمه زهر الشقيق) فقضى تحت
الشجرة نحبه، وراحت امه تندبه وتبكيه.
وفي رواية اخرى ان الأم اتخذت ابنها بعلا
لها، فقتله ابوها، فهامت على وجهها
تندب الاب الزوج حبيبها.
وهناك رواية للشاعر أوفيد جاء فيها ان
حب الام لابنها كان عذريا (هو الاصل السوري)
ولكنها مع ذلك قتلت الفتاة
التي احبها اتيس، فجن وجنى على نفسه "علث"
فهي الام العذراء، الوحشية ظاهرا، الرمزية الخصوبية باطنا
الجبارة، فحزنت عليه جميع النساء، واقيمت
له المناحات كل عام (الاصل البابلي) تجتمع الوثنيات والرومانية
وفي رواية ثالثة ان أتيس، بعد نكبته، خرج للصيد
في الفنيقية. اي ان زوس خنزيرا بريا، فطارده
وارسل عليه الاله زوس خنزيرا بريا، فطارده
فارتد الخنزير عليه وارداه، وقد
ادخل الأتينيون على حفلات الالهة السنوية
اتيس، اشتياقا

٢٨٩

٥٦

كبيب

٥٧

شيئاً من عبادة اله الخمر الاغريقي ديونيسوس (باخوس
الرومان) فاختلط الفسق والخلاعة بمظاهر
الحزن والنحيب.
هذا التوحيد بين ربين، او الاقتباس والادماج
في الربوبية والعبادات، لجأ اليه الكهان والحكام لاغراض
سياسية دينية. فقد الّفت التقول على ما كان
في بابل من الشركة بين ادونيس ومردوخ، كما كان بعدئذ
بين ~~..~~ ديونيسوس الهندي وآدونيس، ثم بين المرتبين عشتر
وجونون ابنة اله الآلهة، وقد ادخل المصريون لذلك
شيئاً من عبادة مرقد اله الرقص والجذل على
عبادة بس اله التأدب عندهم، وادمجوه في
اما ما اقتبسوه من الاسطورة الخالدة، فان له روايتين: الاولى هي
عبادة أيزيس وأوزيريس، فقتله اخوه ست او
ان أوزيريس رب العالم الادنى، اخت أوزيريس وزوجته، اشتركت
ستيت، وان ايزيس احد آلهة العالم الادنى في
على الجثة، وساعدها أنبيس في الاعجوبة، وما الاعجوبة؟
اعادته الى الحياة، الاسطورة ~~..~~ التي ظهرت فيه الاعجوبة، هي سحر الكهان
~~فقد السحر الكهان~~ صفة فطرية اهلية، وهذه النفقة السحرية اعادت
أيزيسه، فمشى فنشأ الى العالم
ممثل في حب الحياة، أوزيريس الى رب الاموات،
الى جثته أوزيريس الابدي، اي رب الاموات
الادنى، واصبح ربه الابدي أوزيريس المثل الاعلى للأمم
وكان المصريون يرون في أوزيريس كل صفات الاب
الزوجة، ويرون في هورس ابنه الى
البار، فعادوا في ذلك الى الاصل السومري الى
الابن السميع المطيع.

(يقلب)

أزيريس

اما الرواية الثانية فهي ان ~~ادونيس~~ أزيريس كان ابن

الزارعة – قتل أتيس الذي انبثق من شجرة الصنوبر ،

وقتل ادونيس الذي نبت من دم ازاهر الشقيق – وهو

قتله ايضاً في انه سوري الاصل . دخل مصر مع

الملوك الرعاة ، ثم تحول تحولاً وطنياً ، فأشرك

مع تيس العنز الذي ~~[illegible]~~ كان يعبد هناك ،

وبعد ذلك قرنت عبادته بعبادة الالهة في

آلهة مختصين هما الثور والغراب .

ومما

(٢٥)

ومما يدل على ان أيزيس جاءت لذلك من سوريا، بحثها عن زوجها المقتول الذي وجدته في صندوق من خشب الارز في جبيل. اضف الى ذلك تلك الحقيقة البارزة في كل آلهة المصريين الاقدمين الالهيين، وهي ان رؤوسهم رؤوس حيوانات، ورأسا أزيريس وأيزيس رأسان بشريان.

ومن التقاليد الماثلة في هذه الاسطورة الخالدة أزيريس، مثل ادونيس وتموز، يبعث حيًّا هو ان المتعبدين له في كلما نبت الحب اي في الربيع كل الامم التي مرّ ذكرها يجمعون بعض البذور في اوان خزفية، قبيل هذا الفصل فتنمو وترمز الى حقيقة التجدد والخلود. هذه العادة لا تزال متبعة في ايامنا - جاءتنا من السوريين على يد كل من ذكرت من الامم البائدة - هذه العادة التي يزيد عمرها على الستة الآف سنة، وتتبعه في زماننا عند الطوائف كلها، فيضعون الحبوب - القمح والعدس والحمص - في اواني خزفية في آخر فصل الشتاء، وفي اول الربيع لتنبت في عيد الفصح عند المسيحيين، وفي عند المسلمين. وان في ذلك لتمثل الاسطورة في معناها الخالد، ذلك المعنى الذي لا يتغير وان تغيرت الاسماء وتطورت الاشكال والروايات.*

/ فادا

فاذا كنت تتبعت في ما قدمناه نشوء هذه
الاسطورة، وانتقالها من امة الى امة – من السومريين
الى البابليين والاشوريين الى الفينيقيين، ومنهم الى
المصريين والاغريق والرومان – من دَمُّوزي
وإِنّيني الى تموز وعشتر، الى عشتر وادونيس،
الى أيزيس وأُزيريس، الى ادونيس والزهره –
ترى ان تموز وادونيس وأُزيريس مثلثون
من دَمُّوزي السومري، وان عشتر وأيزيس
والزهره مثلثات من إِنيني
وافروديت. وانه لتتأكد فوق ذلك ان
المغزى الاصلي في حياتهم جميعا هو واحد –
الحب والالم، والموت والفداء، والبعث والخلود.
على ان الحب تنوع وتطور في ادوار الاقتباس كلها.
فكان عذريا عند الاولين، فصار شَهَويًّا سالما، ثم
شَهَويًّا ماديا صرفا. فكانت
شَهَويًّا للاصوليا، ثم أُم والزوجة الام العذراء –
والزوجة الام – والزوجة التي كانت اختا واما
والزوجة الاخت – والزوجة في عشتر
وقد كانت الثلاثة واحده في
لإله الحب. اوفي عقيدة
أيزيس، في زمن من الاسطورة، وكانت الاخت الزوجة في
طائفة من ابنائها – وتفرقت الثلاثة، فانحصر منها الحب
حالات اخرى. الشهوي في حب الزهره وافروديت.
الشقي، هي الاسطورة الشعرية الدينية السومرية،
تعود الى اصلها "منقولة" "منمقة" عند الاغريق
والرومان

٦٠ ٢٢٢

والرومان لعلو منزلة الشعر ~~حنيفي~~ في

الشعبين :

وهي الاسطورة التي اصطبغت بصبغة

اللاهوت عند المصريين والفينيقيين لتسلط

الكهان في الاقليمين :

ومما هو جدير بالذكر ان هذه العبادات

للأم الالهية والابن - للطبيعة والربيع -

وتلك العقائد في الموت والبعث والفداء،

هي مصدر الدين المسيحي القائم على

العقائد اللاهوتية الثلاث -

الأم الالهية ، والاله الفادي ،

والبعث والخلود .

٨

العيد والنشيد

ان في آداب الاغريق والرومان قصصاً نثرية وشعرية تصف عيد ادونيس كما كان يقام في جبيل وغيرها من المدن في عهد السلوقيين والبطالسة. ومن الشعر العالي في وصف ذلك العيد قصيدة للشاعر الاغريقي تيقريطس، هي الخامسة عشرة في ديوانه، يصف فيها الاحتفال الادونيسي في الاسكندرية وصفاً ناطقاً رائعاً، يعيد ذلك الزمان الى يومنا، وانت تقرأ القصيدة، بعد الفين وثلاثمائة سنة، فتشعر انك تشهد ذلك العيد وتسمع تلك الاناشيد.

وكان تيقريطس، السرقسطي المولد، في القرن الثالث قبل المسيح، وقد جاء من جزيرة صقلية الى الاسكندرية في عهد بطليموس الثاني، فمدحه في شعره، ونظم القصيدة الادونيسية يوم كان هناك في السنة السادسة والستين والمائتين.

وكان بطليموس قد تجاوز في حروبه وفتوحاته وجاوز فلسطين، فاستولى على جبل لبنان، وجعل عيدهم الوطني، عيد ادونيس، عيد اهله في دينهم. ثم الامم المتحضرة في الاعياد الاغريقية.

وكان اولئك الاغريق يفوقون الامم في حبهم للجمال، وفي آثارهم الفنية والادبية المتحيزة للجمال

٦٢ ٢٢٥

للجمال في دينهم ودنياهم، فمثلوا ذلك العيد
تمثيلا شعريا رائعا، واهتم الملوك البطالسة
اهتماما خاصا به، فكان الاحتفال الاسكندري السنوي
من اجمل الاحتفالات الادونيسية في البلدان
الفينيقية والاغريقية جمعاء؛ وان في قصيدة تيوقريطس وصفا جميلا لذلك الاحتفال،
بل فيها صورة حية نضرة متحركة ناطقة، اخذها
الشاعر من لوح الوجود في ذلك الزمان، وارسلها الى الاجيال
المقبلة بواسطة امرأتين من نساء الاسكندرية
تشهدان العيد، وتصفان ما شاهدتاه وصفا صادقا
يبلغنا ~~حرفيا~~. ومن جميل ما في القصيدة صورة ناطقة لنساء ذلك
الزمان، فترى انهن لا يختلفن في معظم شؤونهن
الانثوية عن نسائنا، وركبنا
ومن ازيائهن [illegible] في طريقهن الى دار الاحتفال
ها هنه في طريقهن وصفتاها: وقد يكون
وصيفتهما جرجا ووصفتاها وقت الارتياح -
- عجلي يا جرجا. لقد دنا ~~كان~~ محلنا النعل. فانه يعرض
ازدحم المكان بالناس فلا تكبد ~~هذا~~ على طائع هذا ~~الكبد~~
- بهلة الالهة على طائع هذا النعل واحمليه - لك
ارحلي من السير، حلبه، او انزعي النعل، عجلي، عجلي،
- حلي فلا بأس تعرضها ~~عارية~~ عارية
ارحلي جميلة فلا بأس في الدار المكتظة بالناس، وقد نصب
وها هنه في الدار المكتظة بالناس، وقد نصب تمثال الفتى الفينيقي
في وسطها فوق اريكة سندسية
الزي

خرشبس

~~٢٢٦~~ ٦٢

الذي افتتنت بجماله الربة أفروديت، وافتتن بعدها
كل واحدة من سلالة حواء في الشرق الأدنى، فكن
ليندبنه في موته، ويهللن بيوم عيد لبعثه، ذلك
البعث الذي كان ينعش في قلوب النساء
الحب الجامع الكلّي ـ الحب الواحد الأعظم ـ أي
حب المرأة لولدها الحب، ولحبيبها الزوج، والزوج
~~[crossed out]~~ وولدها معًا، وما تحته حتى هتفت قائلة:
ما كانت ركبتينا أبحر الشمال. ما أجمله حتى في الموت.
هوذا آدونيس على سريره الفضي.
وما أجمل شعره المتجعد حول ثغره،
وما أجمل محياه. وما أجمل احساسًا ووجدًا من رفيقته،
وما كانت جرحًا أقل ... ما ألذ قطف الورد
ـ وتنبت الشقائق من الورد تباعًا ـ
ـ وتلك الجراح القرمزية كأنها لا تزال تختلج بأنفاسه
منها:
(٢٩٤)
المودّعة: ـ آدون! ما أجملك وما أعزك حتى
في الموت!
ـ آدون ـ آدون ـ وبلهجة غرامية
وبين هي تهتف بهذه الكلمات، ... لقاك،
زجرها أحد أعوان قاتل ...
وغلطة، أنبح المرأة.
نزرة انبح الحصر ما يمثل لنا
أن في التصيد من فقد التصوير الحدوتي الأخروي
جروءًا قيمًا من ذلك الحياة الغابرة. وقد اسمى
الشاعر

الشاعر قصيدته ادونيازوسي اي النساء في عيد
ادونيس. واهم مافيها لما نحن في صدده هو نشيد
العيد الذي كانت تنشده منشدة رسميه
منتخبة من منشدات الهيكل الملكي.

(١)

النشيد

ألا عودي الينا يامعبودة قبرصه، ويا
معشوقة صقليه، اهجري اليوم
ايتها الحبيبة افروديت
الشواطئ الذهبية، وسارعي الينا.
لقد عادت الايام بأدونيسك المحبوب، التي
عادت به الينا من تلك الشواطئ السحماء
لا ينور فيها الزهر، ولا تخضر فيها الرياحين.
وها نحن ذو في شهر تموز
وها هي الساعة النادرة الغالية، تمشي
الينا بالكنز الاندر الاغلى.
هي تدنو بخطوات صامتة، تتقدم
بخطوات بطيئة [illegible] خفيفة
بخطوات،
الشعب المنير للعالم،

(١) مترجمة عن ترجمة انكليزية لصديقي الشاعر الاميركي المتطلع ماريون ميلار. وقد طبعت ترجمته من آداب الاغريق لديوان ثيوقريطس طبعة جميلة في نيويورك

حريصي

٦٥
٢٢٢

انها لابطأ ما في الحياة من رسل البعث

والخلود، وان لبطئها سبباً، هو ما تحمله لهذا الانسان

الفاني من الذكريات الخالده . تلك الذكريات الطيبة

الاريج التي تلأم جروح الزمان، وتنسي المرء

الغموم والاشجان .

فيا ابنة دلوزة الخالده، يا ربة الحب والحنو،

يا كثيرة الاسماء السريه، يا سيدة الهياكل والمذابح القدسيه،

لقد عاد آدونيسك اليوم، فعودي انت اليه .

لقد عاد فتى الفتيان، وهو الان بجانبك مكان .

هاته فوق شرفته السندسيه، ترينها زكام

٢٩٦

من الثمار، وركام من الازهار .

وان لشجرها ونورها الوانا من الشفق،

يزيدها حوات من الفضة جمالا، نسجته

وقد تغلغت جميعها نعلاق شفاف، نسجته

المباخر الذهبيه، بحرق فيها البخور من البلاد السوريه .

وما تلك الاقراص؟ وما تلك النجوم؟ انها الحلوى

المنقطعة النظير، صنع يداك - صنعتها من الدقيق

الابيض، ~~…~~ المختلط بمسحوق الشعير والثمار،

المعجون بزيت الزيتون ونشهد العسل .

صنعتها

٢٢٩

صنعتها يد الحسان اشكالا فاتنة من حيوان
الجو والبر والبحار - من ذوات الاجنحة والقوادم
والمخالب
فاعجب لهذه الحلاوى التي تحسبها تعدو
وتدب وتطير
وهناك تحت طنف من الحبق والخندقوق، مجبوك
باغصان القضبين والغار، هناك في لبت النسيج
الندي، مخفوق باطيار الحب والشوق، فرش
السوسن بالفرش الجميل الديباج والالوان.
اجل ان لتلك الالوان قصة تقص حتى اولئك
الذين اخترعوا الارجوان (١)
وان لتلك الاشكال من النسيج حكاية تستوقف
الرعاة فيتساءلون: من اين هذا الصوف الشبيه
بغيوم الصيف؟
سر ان الواحد لافروديت، والآخر لادونيس،
فتى الزمان، وعريس كل عام
فتى العشاق! ان قبلته كالقبلة النور
لندى الفجر
فتى الخلود! ان ثغره كورق الورد
على الدوام
ناعم فاتن،
انعمي يا افروديت به، نعمى هناءة،
يا افروديت بين ذراعي الحب

م. وجدي

(١) الفينيقيون.

٢٩٧

وخذي من الليل لحافاً الى ان يتلألأ أعلى

ويصحيك نداء الصباح،

وغداً، ساعة انبلاج الفجر، نحيي

نسيج ادونيس، ونحمل جثمانه الى البحر، الابدي.

فتشق الاثواب، ونكل الاحزان

الغدائر، ونردد مع الامواج النحيب،

ونشارك في الندب الرياح،

انت يا آدونيس، لمنقطع النظير بين

الابطال، وانت لفريد بين شبيهي الآلهه (1)

انت الوحيد الفريد الذي له ان يعود

الى هذا العالم من غياهب الجحيم

فلا أغاممنون المغوار، من جرّ على الاغريق الويل

والدمار، ولا بيروس ولا هكتور في كرام الابطال،

ولا من دوخوا البلدان، وادهشوا الزمان، في التاريخ

القديم

---

(1) لقد اكرم بطليموس آدونيس اكراماً للفينيقيين،
ولكنه اكراماً لآلهة اجداده، ورعياً لشعور رعاياه
الاغريق، ما اذن بان يدعى الهاً، فلم يرفعه
الشاعر الى مقام الآلهه، خشية ان يغضب
الملك. ولكنه وصفه بشبيه الآلهة - او بالحرى
نصف الاله demigod دعاه ب

القديم، وفي ما قبل التاريخ، لا ينعم واحد من
اولئك الابطال وشبه الآلهة بما نعمت
انت به. وليس فيهم من حظي حتى
باليسير من هذه الكرامة:

فيا ادونيس الحبيب، كن انت

كذلك كريماً:
الحفنا بكرمك، وأحضنا بنعمائك،
فتستيقظ الحياة في الاشجار، ويستيقظ
الحب في البشر:
الوداع، آدون، الوداع:
لعام آخر – السلام:
فقد كنت خيراً في القدم،
وخير انت على الدوام

–:–

نهر آدونيس

اني افضل الاسم الاصلي لهذا النهر على اسمه
الحاضر الذي لا يُعرف اصل له. وان قيل لي ان ابراهيم
كان اميرًا على المردة، فسُمّي النهر باسمه، اقول:
وما المردة، وما اميرهم، اذا ما ذكر الاله العزيز، اجمل
آلهة الاقدمين، واكرم ابطال الاساطير - آدونيس؟

وهوذا النهر الذي قُدس لذكره، ودُعي قديمًا
باسمه. فيجب ان يعاد الاسم اليه، احترامًا للتاريخ -
واكرامًا للشعر - وادونيس
وآدونيس طرفة المؤرخين، قديمًا وحديثًا، من ثيوقريطس وأوفيد
حبيب الشعراء،
الى شلي وشكسبير.

ليس نهر ادونيس من الانهر العظيمة في الارض. هو قزم في عيني الكنج
طفل في نظر النيل والفرات. هو ساقية اذا ما جرى الى جنب
الينغتسي والمسيسبي والامازون. ولكنه على صغره
عزيز الذكر، رفيع الشأن، ردد اسمه الانسان
في هياكله، وفي عبادته، وفي شعره واساطيره. ولا يسمع في
ما عرف هذا النهر الحيتان والتماسيح، ولكنه عرف
عهد الادونيسي زئير الأُسُد، وعجيج الاقيال. تنشد
وسمع الاناشيد
البخور تحرق على ضفافه، ولا رُفعت
في واديه ما جرت السفن في نهر ادونيس، ولا زُرعت
الفوق

فوق جباهه اعلام النواتي او الجنود، ولا شيدت
على ضفافه الابراج والقلاع، ولكن الآلهة مشت
على امواجه، والليل رفع فوقها راية الاحزان،
فخرت لها الشعوب ساجدات، وتطأطأت لها
رؤوس الملوك والكهان.
ليس لنهر آدونيس سهول تموج بطيب الاخضرار،
ولا مدن تباهي النجوم بالانوار، ولا خطوط من الحديد
يتبختر عليها الحديد الجبار، ولكن له من ذوات
الزيزفون والطيور غابات، ومن رواسي الجبال
قمماً في الغروب مذهبات، وفي الصباح بالاقحوان
آيات، ومن اضواء الليل والنهار آيات فوق
آيات في الامجاد، وفي الوهاد العالية الخفية
مخازن الثلج الى السراديب
~~الفتي تتر في~~
الكلسية والرملية، في ظلمات برودها خشلها لا يزول،
الى الباب الذي تحرسه الشمس في النهار، والقمر والنجوم
في الليل — الى باب الغار الذي يشرف اليوم على البطحاء
~~المقدس~~ وكان يشرف في قديم الزمان على هيكل ربة الحب والجمال،
المنقوبة، ومنه تتدفق ذوب الجبين شلالاً صافياً وتتكون بحيرة لازوردية
ومن الشلال الاول الى البحيرة الاولى الى الوادي، بين
السهول المزروعة، والى المخفورة، تحت ابواب مأتم الانسان،
وكهوف الذئاب والذئاب، الى المنفرجات في الصخور،
والكبريت في السطاح، في اغوار تتسع جنباتها
والضيق

وتضيق، بين الهضاب تزداد علوًّا وهوًّا كلما ازداد
الوعور وعرًا، تحت ارائك الصنوبر، وفي ظلال
الصنوبر والشربين حينًا، وحينًا في ظلال الدلب
والصفصاف، الى التربة المنبسطة الليّنة،
عند لقية قناة رومانية، الى بساتين الموز والليمون،
الى الساحل الذهبي، الى البيت الخالد، الى البحر ا—
هي ذي طريق نهر ادونيس، وهي لا تتجاوز الثلاثين
كيلومترًا، من علو النبع متر — من الثلج الى البرتقال، هو اصغر نهر مقدس في العالم، وهو في
نظرنا نحن ابناء هذا الجبل النهر الاجمل الاعز بين
الانهار. وعند
لقد طفنا الجبال القائمة الى ضفتيه، وعند خرائب على المشنقة،
فاشرفنا على واديه من علٍ، وصحبنا نبعه من المغارة
منبعه ومصبّه، مروج قرطبة، فسرنا على ضفة النهر
وعلى مياهه من الساحل
على الاقدام، ثم عدنا الى رواقه البحري، فصعدنا في جبل
البري (الجنوبية) واشرفنا من احدى هضابه على القناة التي
الفتوح، واشرفنا من احدى هضابه الى جبيل، والتي ترتفع اليوم في
كانت تحمل في عهد الرومان المياه الى جبيل، ورحنا نخترق بساتين الموز والليمون، فاختفى عنا النهر
لقيته فنحن فوق بساتين في صميم جبيل، حتى
في التصعيد، متغلغلين في صميم الجبل، لنرينا النهر
وواديه، وما عادا يتمتين، وقد كانت تزهو في قديم
الزمان بهيكل فخم كان للاله الناسم "(١)"، اطللنا على كيسوش.

(١) كيسوش نقطة سريانية معناها الاله الناسم.

فوقفنا على سطح احد بيوتها ننظر الى لمعات من النهر
في الناحية الغربية، وقد انحدر اليها الجبل انحدارًا الطبقات(?)
حافلًا بالكروم والبساتين. ونظرنا الى النهر من
الناحية الشرقية، فاذا هو يجري زبدًا بين
الصخور، في مضيق الوادي، تحت ناظري جبل موسى
وجبل المشنقة.

آدونيس، ادونيس! لا يزال اسمك يردد في
الجبال والاودية، ولا يزال ذكرك ندبًا عاطرًا، ولا
تزال تنور لك كل ربيع ~~في ذكراك~~ شقائق الذكرى الذهبية، الشقائق
القرمزية ~~الشقائق الذهبية~~. وهوذا اسمك في ذلك الصراع المجيد، صراع النور
والظلمة، صراع الربيع والشتاء، صراع الحياة والموت. فاردارك(?)
خنزير البر وما افتداك. أثخنك جراحًا، فنطق كل
جرح بالكلمة الخالدة: الحياة نزاع دائم فموت فبعث.

فلنعد، ضللنا عن الطريق في الغيبة، ومشينا في حقول
زرعت توتًا وزيتونًا الى الصخرة المنقوش فيها الاثر
الادونيسي. وهو في اطارين، الواحد يحتوي على
صورة الاله والخنزير البري يتصارعان، وفي الثاني
صورة امرأة جالسة تبكي الاله المذبوح.
وهناك تحت تلك الصخرة ناووس لا غطاء له،
ففيه حطب ولا ريب احد الفلاحين ليصنع منه اسكفة
لبابه.

السلام

٢٤٦

٢٠١

لبيته كما فعل اخوانه في اغطية نواويس
المشنقة . وهو اي الناووس يستخدم اليوم
كحوض للمياه ، يسقي منه الفلاح الجاني حقيلاً
من ارضه .
وهناك ايضاً ، الى جنب الناووس ، تحت الصخرة
الاثرية ، تشويه آخر ، اراده بعض الفرنجة ، على ما
اظن ، ان يكون حاشية "حديثة" لتاريخ الاثر
القديم . هناك نقشت باللغة الفرنسية
هذه الكلمات :

Ici Maurice Barrés s'arreta
pour aimer et comprendre
nos ames.

وهاك حرفياً الترجمة :
هاهنا وقف موريس بارس ليحب
ويفهم ارواحنا .
فمنها نعلم ان موريس بارس ، الكاتب الفرنسي الذي
نشأ ناثراً على الهيئة الاجتماعية والدينية ، وكان متكلماً ،
زار هذا المكان . ونعلم كذلك انه وقف هاهنا وقفة
الفيلسوف او العالم او الشاعر او المتعبد . وقد يكون
وقف وقفة الجاهل الكاثر العيي ، فشاء هو او
شاء رفيقه ، او شاء احد المعجبين به ، ان يشركه
في الخلود وآدونيس ، فحفر خبر زيارته وزاد عليه
الكلمة

إبراهيم

٢٤٧

٧٤ ٩٨

الكلمة التي لا أظن يغبط العالم الفيلسوف على خفائها،
إذا كان لها شيء من المعنى ..
ولكننا سكتنا عن هذه التسوية لو اكتفى
كاتبه بـ: "ها هنا وقف موريس باريس" ولكنه
وقف، لا حبًا باستنطاق الآثار على ما أظن، ولا
إجلالًا لأدونيس، بل "ليحيي أرواحنا ويفهمها".
بارك الله فيه! من مرجع ضمير الجمع في
على أننا في ريب، يا سيدي الجبار العيّار؟
"أرواحنا" - أرواح من، اللبنانيين؟
أأرواح الفرنسيس؟ أأرواح ~~الفينيقيين~~ أدونيس؟ أم أرواح
أأرواح الفينيقيين عبدة أدونيس؟ أم أرواح
إخوان ذلك الذي صرع الإله وأرداه؟ إننا
لفي بريّة من ~~المطبعة~~ دور المعاني، وإننا
نخشى عليها من الخنازير.
فبعد "الحب" و"الفهم"، يا أيها الزائر
الكبير، ماذا؟ ماذا حملت إلى أهل هذه البلاد في
حقيقة الحب والفهم؟ وقد كنت يومئذ نائبًا عني
في مجلس النواب الفرنسي؟
إني أقف عند ذكرى زيارتك، لا كما وقفت
"لأفهم وأحب"، بل أقف حائرًا في أمرك وأمر
أبناء بلادك الأذكياء المشغوفين بالمجد، وأمر
أبناء بلادي الأوفياء المشغوفين بالفرنسيس.

٢٠٢

٤١

٦

الخربة الكبرى

من حبنة

٧٥

١٠

يحشوش

ان لأفقا غير الطريق الذي سلكناه، اي طريق جبيل، الذي تقدم وصفه في فصول هذه الرحلة. فالطريق الآخر هو طريق الفتوح او فتوح كسروان، وهو يبدأ في المعاملتين، فيمر بغزير وعرمون، فالكفور، فالغينة، فيحشوش، ومنها او من الغينة يحيد المسافر، فيمر بينبوع الحديد، ويستمر شرقاً بشمال، فيصل الى افقا من الناحية الجنوبية.

وفي هذين الطريقين اخربة وآثار لهياكل وانصاب فينيقية ورومانية تقدم ذكرها، فكانت الغينة اولها، وماهي بآخرها في طريقنا هذا. فان لادونيس ذكر هيكل في يحشوش، وآثاراً في اعالي فتوح كسروان، بجوار الحائط الروماني الذي كان الحد الفاصل بين الفتوح وجبيل.

يقول الاثريون ان هذه الآثار القديمة، آثار الهياكل وما اليها من بناء، كانت باتفاق محطات او مضايف لزوار الهيكل الاكبر، هيكل عشتروت وادونيس في العهد الفينيقي، ثم هيكل الزهرة في عهد الرومان. فكان الزوار في الاعياد ~~[illegible]~~، وخصوصاً في العيد السنوي - في فصل الربيع - يجدون في هذه الاماكن بعض اسباب الراحة والضيافة. هذا رأي الاثريين. وللرفيق الكونت، العالم بتاريخ الاقدمين وآثارهم، /علمه

علمه بجهلته، بغفلته، القول ان تلك الأوثان
المقدسة، والآثار الدينية، هي من اعمال البر والتقوى
الخاصة، أقيمت اما لذكر الاموات، او لرغبة بعض
الوجهاء الاغنياء بتخليد ذكرهم في هذه الدنيا،
وتأمين خيرهم في الآخرة. والدليل على ذلك ان
في جوار كل هيكل، او عند كل نصب مقبرة، او ما تبقى
شبح من النواويس. فالوجيه في قومه او الكاهنة
او المتعبد التقي اراد ان يُشيِّد عند قبره
٢٠٤ معبداً او يقام نصباً، وينقش فيه شيء من
اسطورة أدونيس، او رسمه، او رسم احدى النساء
النوادب، كما يفعل المسيحيون في ترتيب قبورهم
معاً بالتماثيل والصور الدينية.
وان للنبيه وجهاً آخر هو ما كان يذاع
عن بعض هذه الهياكل وكهانها واخبار العجائب والكرامات.
فكان يؤمها الاتقياء بالنذور يتوسلون
بها لتخفيف طلباتهم، او ما تطلب اليه النوائب، كما يفعل زوار
السيدة لورد مثلاً في هذا الزمان، مستغيثين مستشفعين.
وكما يؤيد رأي الرفيق الكريم ان المسافات بين
الهياكل في الطريق غير متناسبة. فدير الدوزق مثلاً
هو قريب من هيكل المشنقة، وليس بين المشنقة والحل
جبل هيكل او اثر لهيكل آخر. لذلك قل في العقبة
التي هي على ثلاثين كيلومتراً من جونيه، وليس في
الطريق

هذه الجبال، جبال العاقورة، التي قال فيها زنان
تستوقفك أيا كنت،
إنها أجمل من جبال الألب،
من ~~الفلاحين ام~~

٢٥٠

الطريق اثر لهيكل آخر، الوما كان في بكشوش، وهي
من الغينة في القرب لدير الوزرق من المشنقه،
اي اجنح الى تصويب رأي الحويك، واضيف الى ما
تقدم هذه الملاحظة: في بكشوش اليوم كنيسة لمار
سمعان العمودي، وهو من سوريه، ديره في الجبل
المشرف باسمه، شرقاً بجنوب من حلب. فهل
يصح ان يقال إن كل ما شُيّد من كنائس واديرة
على اسم هذا القديس، من ساحل البحر الى جبل سمعان،
هي محطات او وظايف لحجاج مقرّ العمودي الاول؟
اما وقد بسطت الرأيين، فللقارئ ان يحكم فيهما، و
على كل حال ~~تبقى~~ المسألة في منزلة من
~~تختلف عن الاسماء~~ [illegible]
لتخفها ما تقدم من البحث،
الاهمية عالية
لنعد اذن الى بكشوش، والى ما هو اهم في نظرنا
من كنيستها، واقدم منها، واهم من اسمها
السرياني — الاله المتألم: سنديانة
السنديانة العظمى — سنديانة
وقفت عند السنديانة، سنديانة معلم القرية،
الكنيسة، سنديانة القرية، سنديانة
البكشوشي في غربته،
سنديانة الاديب (٢٠٥) الخالدة. لتتقدم كل ما
الذكريات اللبنانية تتقدم بنفسها
وان لهذه السنديانة قيمة بنفسها
لها من فضل ومآثره. كيف لا وهي من السنديان
اللبناني القديم (السجل في اللائحة الملحقة بهذا الكتاب)
بل هي تمتاز عما شاهدناه من تلك الاشجار الجبارة
بما تنعم به من حسن الرعاية، فتتفوق رفيقاتها
الخ"

بِعُمُد الهيكل، وقد قام حولها السُورُ خطيباً:
أما الأرض التي يضمها السور، فقد زُرعت صفوفاً
معدودة من التبغ، الذي كانا يُزرع

صحةً ونضارةً ونموًّا سويًا - اي انها متناسبة
الاغصان والفروع، افقيًا وعموديًا، وارفة الظلال،
ذات محيط يبلغ خمسة امتار.

هي هي
هي ذي سنديانة داود بركات رحمه الله، وتتخذها
السنديانة التي طالما كان يتغنى بها، وبخيمة البهاء
رمزًا على الوطنية اللبنانية، والمجد اللبناني. هي هي
السنديانة التي قرأ داود تحت اغصانها مزامير بتسميته
الملك النبي، وقرأ بعده الاديب بطرس معوض، والشاعر
شكرالله الجر، واخوه الخطيب عقل، وغيرهم من ادباء هذه
البلدة المتمسكة بين الجبال

وان في ظل هذه السنديانة، امام باب الكنيسة،
ذات قصة طريفة قصها علينا احد المتقدمين
بركة ماء

البيا [illegible] أن يكون اقدم واكبر قرية في فتوح
فاعلم اولًا أن [illegible] أسست في القرن السادس للمسيح او اعيد
كسروان، [illegible] قرية فينيقية. واعلم
تأسيسها بعد ان كانت [illegible] المسيحي السعيد كانوا
ثانيًا ان الذين سكانها في العهد [illegible] اسماعيل حماده في
من الشيعيين، وكان زعيمهم اسماعيل هذا
القرن الثاني عشر. واعلم اخيرًا ان
كانا يجلسه على سدة الزعامة(1) (قال الراوي: التي كانت
كان يجلسه على تخت روم ام اي تخت روان) فيقضي في الناس
منصب له مكان هذه البركة،
والكرباج بيده
ثم /

(1) قال الراوي:

وقد تنوع اخضرارها، فأثر في البساتين مرقشة

في الغابات وظهر خلاله بقع

ثم ذهبت ايام اسماعيل وتخت زوانيه وزجاجه،

وشرع المسيحيون بعده يتوطنون بحشونا، فيقل كلما

كثر عددهم، عدد الشيعيين، حتى اصبحوا نفراً

قليلاً، وغدت البلدة معقلاً للنصرانية، بل للمارونية

القحة، رمزها السنديانة والمزامير وشفيعها

القديس سمعان العمودي. (١) أن القديس

واعلم، دمت للفضل عموداً، بفضل الديدان والحشرات.

سمعان يتخصص في عجائبه:

وذلك بان ينثر من ترابه عليها! ان فيه الموت الزؤام لكل

تراب مار سمعان!

ما يدب ويحبو على هذه الارض!

تراب مار سمعان! لشد ما كان يتمناه داود

بركات لديدان الصحافة وعقاربها، بل لكل من

حمل قلماً ممن لا يكسبون غير الثلب واللذع

والتحوي(؟). من تحت السنديانة الى مدرسة [illegible]،

نقل داود بركات، ثم ~~علم سنة~~ دخل مدرسة الحكمة ببيروت،

بعرمون، واخرى لغزير، ثم [illegible] في مدرسة بير الهيت

وبعد ان علم سنة فيها هجر الجبل الى مصر، وتدرج في الصحافة الى رئاسة

تحرير الاهرام، فاستمر فيها ثماني وثلاثين سنة، وكان

في كل اطوارها السياسية.

مفخرة لها في تلك التجربة.

السند

١٠ الجامع

ثم ذهبت ايام اسماعيل وتخت زوانه وزباجه،

وشرع المسيحيون بعده يتوطنون بحشونا، فيقل كلما

كثر عددهم، عدد الشيعيين، حتى اصبحوا نفراً

قليلاً، وغدت البلدة معقلاً للنصرانية، بل للمارونية

الفخة، رمزها السنديانة والمزامير وشفيعها (٢٠٦)

القديس سمعان العمودي. أن القديس

واعلم، دمت للفضل عموداً، بفضل الديان والخورنة

سمعان يتخصص في عجائبه:

وذلك بان ينثر من ترابه عليها: ان فيه المبيد الزؤام لكل

تراب مار سمعان! ان فيه المبيد الزؤام لكل

ما يدب ويتكوى على هذه الارض:

تراب مار سمعان! لشد ما كان يتمناه داود

بركات لديدان الصحافة وعفاريتها، بل لكل من

لا يكتبون غير الكذب واللذع

حمل قلماً ممن ترك السنديانة الى مدرسة

والتكوي. نقل داود بركات من تركت السنديانة الى مدرسة، دخل مدرسة الحكمة ببيروت

~~علم~~ ثم

بعرمون، واخرى لغزير، ثم علم ودرس في مدرسة بيرالهيت،

وبعد ان علم سنة فيها

هجر الجبل الى مصر، وتدرج في الصحافة الى رئاسة

تحرير الاهرام، فاستمر فيها ثماني وثلاثين سنة، وكان

في كل اطوارها السابقة

مفخرة لتلك التجربة.

السند

إتابع

٢٠٦

٨٠

لست ممن توفرت علومهم بشؤون الصحافة

المصرية وسياساتها ليجوز لي البحث ~~في الموضوع~~ فيها، ولو

كان لي بعض العلم في الموضوع، فالمجال في هذا الكتاب

لا يتسع لغير ناحية واحدة في شخصية داود بركات،

وهي الناحية اللبنانية.

~~[illegible]~~

~~[illegible]~~

~~[illegible]~~

~~[illegible]~~ حمل داود لبنانيته في قلبه وعلى

~~[illegible]~~

كتفيه. فما فادى يوماً بها، ولا آثر خيراً على خيرها.

ما قال مرة لها: تواري، فلا أكون من انكاسوين، ولا

جلس عليها لينتعشها، ويجلسه بعد ذلك على الكراسي

العالية.

كان ~~[illegible]~~ في وطنيته اللبنانية سنديانياً، عفيف، تنزّه

وكان له في الدفاع عنها قلم شريف، وما أثار في الناس

عن المقاذعات والمهاترات، ولا تاجر بالمبادئ السياسية،

الفتن والنعرات الطائفية، ولا استثمر الجهل والتعصب

والنهفات اللبنانية، كما فعل غيره من الصحفيين المتزعمين في المهجر

وفي الوطن.

ما من لبناني عرف داود بركات، وإن كان وإياه في

~~على طرفي~~ السياسة اللبنانية العربية على طرفي نقيض،

/ الا

٢٠٧

اباج ٨١

الا وكان له من المحسنين المحترمين

فقد كان ذا فضل عالٍ في لبنانيته،

~~الى لقد تجلى في داود بركات المثل اللبناني~~ ذلك

الأسف ان يكون ~~ذلك~~

~~لعل~~ ، وكنا كما لانزال الآن

المثل ~~الاعلى~~ الخالي منحصراً في السندبانة والكنيسة

ومسوراً بسور من ~~[illegible]~~ صخور التقاليد

هذه الوطنية اللبنانية البريئة، الضيقة النطاق،

هي تجوش بين الجبال، وكالقروية اللبنانية بين الشاء،

ولكن المواصلات الحديثة الاسباب قربت حتى تجوش من

الثغور والامصار، وان التعليم الحديث ليدرك حتى

القرويات في اقاصي والاوجاد (الاغوار) اللبنانية. فهل تسلم

والحال هذه، تلك النفسية اللبنانية المتمرسة بروح

القرية، المتطلعة بسندبانة الكنيسة، المحجنة

بالشوامخ من الجبال.

كان ابن بشري في الماضي يعد العدة للسفر

الى بيروت، كما يعد العدة اليوم للسفر الى مصر، فيحسب

نفسه اجنبياً في الحالين. وكانت الرحلة الى مصر

في نظره كالرحلة الى امريكة، فيحسب نفسه غريباً

عندما يخرج من بلدته ويتجاوز في السفر نهر الكلب.

اما

حريشي ~~٨٢~~ ٢٥٥

أما اليوم فكان أبكر في السيارة من كشوش يفطر
في بيروت، وان واصل السير بعد ذلك الى دمشق تيتغدى
هناك، وان استمر شمالاً في ذلك اليوم يبلغ حلب قبيل
الغروب. ثم يعود من حلب في اليوم التالي باكراً
فيصل الى اللاذقية ويتناول طعام الغداء فيها. ثم
يستأنف السير جنوباً الى طرابلس فالمعاملتين،
ويجود صعداً في الجبل الى كشوش فيصل اليها
ساعة العشاء. يومان اثنان يكفيان لهذا
التطواف في لبنان وسورية. وفي ذلك ما لا يخفى
على اللبيب من مغريات الفكر، وموحيات الآفاق -
آفاق السواحل والجبال والسهول - ان كان في الامور
الاجتماعية او الوطنية
ان افق المرء الطبيعي لمن عوامل تكوينه الروحي
والعقلي. ومتى كان التعليم مثل الافق في ضيقه
او اتساعه كان العامل الافقي أشد فعلاً
ورسوخاً في النفس. فيصعب بعد ذلك التغلب
٢٠٨ عليه. وفي الاخص اذا كانت التقاليد الموروثة
هي واحدة وعاملي الافق والتعليم.

[illegible]

فما هو أفق الصبي داود بركات؟ انه قطعة المدى
شمالاً، وقائم كالسور شرقاً وجنوباً، وذو كوة غربية،
ترمق في الجو الصافي رقعة صغيرة من البحر. اما في
الناحية الشرقية الشمالية، فيكاد يكون الافق مقفلاً،
الا للعقبان والنسور.
هو افق داود بركات الصبي، وظل افقه الرجل المفكر
داود بركات. هو الافق الموحش المغم. ولكنه
لا يخلو من روعة في بعض نواحيه. فان في الشرق
الشمالي يجتمع وادي بخوش بوادي الشواية وعلمات،
وتصعد من الاودية الثلاثة القنن المهشمة المسننة، وهي تذكر
الشبيهة بعملات جبال سويسره، المهشمات المسننات
في لبنان. وهنالك فوق تلك المهشمات ودونه ذلك السند
سطح علمات والمنيقعة،
ذو القشرة الاكواع في الطريق الى قرطبه؛ فهناك بضع قرى منتشرة
اما في جبال غرباً شمالاً وقنان، وشنور، منها قترة و
بين الادراج والصخور.
وفي الصهوة على الافق الاسحم لبير الهيشة. ولكنه
في مداه من افق بخوش، ذلك الجبيل
هو القسم المنبسط في مداه من جبل حوكي، لا يزال من القلب كما نفعله به. بطلها
المنتصب فوق القرية كأن ظل المحبة كالدة،
بطلوله

خرستين ٢٥٧ ٨٤

بطلاله، من البت الاعلى فيها (٨٠٠ متر فوق سطح البحر) الى البت
الاسفل (٥٥٠ مترا) ويرمقها بالقليل من الشمس
انه لكالليل المدرك ذلك الشامخ وكالق منه
تنبجس العيون، وفي واديه السحيق نهر يلتقي بنهر
آدونيس، وهناك في وسطه، على رفيّ من رفافه،
دير للرهبان وحيد فريد، قد يكون شبيه اجداد داود
بركات، حقور لبنان والرهبان. ٢٠٩ فانا ابل حمل
بحتي داود، طوبات، في قديم تراث. دوالي العنب
ماشاهدناه فيك — بعد السنديانة — لكل داليه عرشها.
تعرش اشجار البطم والملول. وفي كل انحائه، من ضواحي
عزيزة فيه مستقلة. عروش راهبه، هي عروش
النهر الى مشارف الجبال، وقد التفت حولها، وكللت رؤوسها، وتغلغلت
الدوالي، فتدلت من جوانبها الغائل المترنحه،
في قلبها بعناقيد العنب الفضيه اللون، وبالياقوت
المشتعلة والبنفسج والفيروز.
فهي شعانين الصيف الذي
هي شعانين يخوش، شعانين العيد الذي
لا يخلف في وعده وعوده. ان كان آدونيس
تقيمه الطبيعة كل عام،
المعبود، او صاحب العمود.

— ٥ —

٨٢

اما اليوم فانه لذا كر في السيارة من

يحشون

أمين الرّيحاني

قلب لبنان

الرحلة السابعة: عمشيت

١. من بحنوش الى "تريخيه"

٢. السفينة المربية

٣. بين الشكّ واليقين

٤. البعثة التاريخيّة

٥. محى لبنان

٦. بعد خمسين سنة

الرحلة السابعة

عمشيت

١ – من يحشوش الى ترنجيه ٨٠٠

٢ – الشقيقة الموبية ١٢٥٠

٣ – بين الشك واليقين ١٢٢٥

٤ – البعثة التاريخيه ١٢٢٥

٥ – في لبنان ١١٢٥

٦ – بعد خمسين سنة ١١٩٠

٦٨٢٥

١

من كيشوش الى تريغيه (١)

ليس في هذا الانتقال ~~...~~ البعيد السريع شيءٌ من العبث في التجوال او العبث! لا خلط ولا هزل فيه. هو انتقال محتّم مرضٍ كما سترى. فقد ختمنا الفصل الاخير من الرحلة السابقة باسمي آدونيس والقديس سمعان العمودي، وسنفتتح الفصل الاول من هذه الرحلة باسمي اله البحر نبتون وقديس من قديسي البحر اسمه تُغْدُوال.

اذن بعون نبتون وتُغْدُوال ننتقل الان من شواطئ فينيقية الى شواطئ فرنسة الشمالية، الى بريتانية الفرنسية هناك على البحر الفاصل بين بريتانية الفرنسية وبريطانية العظمى. والادرى (Bretagne) التاء في الاولى، والطاء في الثانية، للتمييز بين البلادين. اما العظمة — بالفضل او بالفعل — فهي في صاحبة «الطاء» عنوانه التفضيل — وهي في صاحبة «الطاء» (قالوا: العظمى، قاسنا) وهي في صاحبة «التاء» روح ولاهوت. فالايمان لا تزال في الحالين.

———

(١) Treguier, Cote-de-Nord, Bretagne

١٢٥

ولكن الانتقال الفني أتى من الشرق الى الغرب،
من لبنان الى بلاد البريتان، من بحوش الى ترنغيه،
لا ينفصل ظاهراً بشيء مما قدمت. فما الداعي
وهل هناك، وقد ذكرت الالهة
أ يا ترى. صلة خفية لاهوتية؟
والقديسين، صفاءً محبته، فيقف
قد أعكر على القارئ على الجواب ان
فيها عند هذا الحد، اذا اقتصرت - فيما انا
لا لاهوت - الاعبث والاعبث - ٢١٢
فاعل. واذا انتقف من البرهان بالقول
ان صفة الانتقال ملازمة لصفة التجوال.
فاني في ذلك شيئاً من خبث العبث بالكلام
المركب المفيد. كما ان فيه عظماً من عظام الحقيقة.
ونسمة من روح ذلك الرحالة الاول ابليس.
أفلا تذكر الحديث بينه وبين الله في سفر ايوب؟
قال الرب لابليس: من اين جئت؟ فأجاب
ابليس الرب قائلاً: من التجوال في الارض.
على ان غرضنا في التجوال غير غرض ابليس الذي
اتخذه الله، ليمتحن ايوب في بلواه. ان غرضنا
لتبعد عنه البلوى والابتلاء. كيف لا وهو
ادبي تاريخي فلسفي شعري ~~[illegible]~~ وفوق ذلك
انساني

٢

انساني ، وكلمة اخص ان قدرنا الشريف في
الانتقال الى تلك المقاطعة الشمالية الغربية من فرنسه
التي تدعى بريتانيه ، والى البلدة الصغيرة فيها التي
تسمى تريغيه ، انما هو التصميم لما تقدم من
عمل ادبي تاريخي ، وما يجر اليه من التنقل في البرور
والبحار ، تنقل سندباد العلم في الكتب والاسفار .
واني ازيد القارئ الرفيق تبيانا ، ان انتقالنا
من لبنان الى بريتانية الفرنسية لبعيد في الظاهر ، قريب
في الباطن ، وفي الحقيقة التي تنبثق منهما . فان
بريتانية بلاد جبلية كلبنان ، وان كانت جبالها دون
جبالنا روعة وعلوا ، فهي تشبهها في ما
تكتنفه من الاودية والبطاح ، وفي ما تفيض به
من الصالحين الاتقياء ، المتعبدين والمتعبدات .
بل ان في ابنائها ما في ابناء لبنان من البساطة
الريفية ، الا انها قاتمة الوجه ، جافة الاهاب .
وفيهم السذاجة والصلابة والتشبث التي
يمتاز بها اللبنانيون .
وان بين البلدين اللبناني والبريتاني شبها
تاريخيا . فقد احتل الرومان بريتانيه ، كما احتلوا
لبنان ، في قديم الزمان ، واستمر ذلك الاحتلال في
البلدين

٢٦٤

البلدين اكثر من خمسمائة سنة، وقد تشبث

البريتانيون بوثنيتهم تشبث اللبنانيين،

فما تنصروا جميعًا قبل القرن الخامس [illegible]

وقد حارب البريتانيون في سبيل الاستقلال كما

حارب اللبنانيون قديمًا، فكان الاستقلال

الذي احرزوه لمعات في الظلمات، او

ظلمات تنفسحها لمعات ناعمة، ذات هدآت

وهجعات . . .

وبعد تنصر البريتانيين شيدت في بلادهم،

كما شيدت في هذا الجبل، الاديرة والكنائس من

حجارة هياكل الاوثان، وتطيبت حياتهم بطيب

القداسة التي كانت تعبق من هالات قديسيهم

الوطنيين، وفي مقدمتهم سان مالو وسان

تغدوال(١)، كما تطيبت حياة اللبنانيين بطيب

الابرار، والنساك والطوباويين، وفي

مقدمتهم مارمارون ومارسمعان ومار قزحيا،

عليهم السلام. فالحق يقال ان كلا الشعبين

له من [illegible] مآثر الورع والتقوى،

وصفو ايمان، واخر آيات

ما له من اخضرار العقائد

/ وقد

(١) St. Malo, St. Tugdual

خشبي

٥١١ ٥ ٢٦٢

وقد كان البريتاني يتفانى في حب الملك
والكنيسة، كما كان يتفانى اللبناني في حب الكنيسة
وفرنسة. تمرد البريتانيون على ارباب
الثورة الكبرى سنة ١٧٩٢، وعلى اليعاقبين،
اعداء الدين، كما تمرد اللبنانيون في النصف الاول
من القرن الماضي على الدولة العثمانية، فدارت
الدوائر، لا على الباغين، بل على المتمردين.
انتصر الجمهوريون على الكاثوليك في جبال ڤنديه
~~[illegible]~~ بريتانية، فنزعوا السلاح من الف مقاتل
ودكوهم جميعا، كما فعل الاتراك بالموارنة في
چگاتنا "الاستقلالية المباركة". والغريب في حوادث البلدين
ان الشبه بلغ حتى في المسببات. فقد كان
رجال الدين هنا وهناك، السبب الاول، والعامل
الاكبر، في نقمة المتمردين. هو حب الكنيسة لابنائها
الابرار. برتان ولبنان، كلاهما كان حصنا لما كان
حقا في اعتقاد المرؤوسين، وصالحة في نظر الرؤساء،
في القديم والحديث من الازمان. البريتاني واللبناني
كلاهما كان شديد التعصب لقوميته، ولدينه.
ولقد نبغ
وقد كان للبريتانيين دوغسكلان (١) كما

(١) Bertrand Duguesclin

٢

كما كان للبنانيين يوسف بك كرم - بطلا
الاستقلال المفقود ؛

وتكثر في بريتانية الحجات والصلوات
والمهرجانات الدينية، كما تكثر في لبنان

اما النوابغ فما خلت منهم البلدان :
فقد نبغ في بريتانية عدد من السياسيين والزعماء،
وابطال البر والبحر، مثل كارتييه(1) مؤسس كندا
الفرنسية، وسركوف(1) من كبار قواد الاسطول.
اما في العلم والادب فالفضل الاكبر للبنان. هذا
اذا كان الفضل يقدر بعدد النوابغ لا بامتيازهم.
اما اذا عُدّ الواحد من رجال العبقرية بمثابة
من ابناء النبوغ، فان الفضل الاكبر لبريتانية
الفرنسية، بل لبلدة صغيرة هناك، لا
يبلغ عدد سكانها الثلاثة الاف نفس، هي هي
تريغيه، القائمة على ذلك الشاطئ الصخري
الموحش، شاطئ الـ"منش" الشمالي.
ولكن لتريغيه نسبة ثانية لا تدرك ذات

---

(1) Cartier, Surcouf

٧ ٢٦٠

ذات ثلاث قباب ، ودير للقديسه
تغدوال ، وميناء تبحر منها الاشرعة
الباسلة للصيد في اقاصي البحار ،
في شمال العالمين القديم والجديد - في
مناطق الثلج والجليد ،
وفي تريغييه هذه ولد ارنست
رنان - موضوعنا الآن ،
حبيب الينا ~~حملنا على~~ هذا الانتقال الفني أي ،
فهو الذي هذا الفصل
وهو الذي اغرانا بان نجمع في عنوان هذا الظاهره
بين معاني الاقتران والمفارقة الظاهرة
والمستترة - التاريخية والاجتماعية
بل هو وشقيقته هنرييت ،
المدفونة في عمشيت ، رحمة الله
عليها وعليه .

٢١٦

الشقيقة المربية

كان والد زنان من نواتي تريغيه،
رزقه في الشراع — في الإبحار والأسفار. فخسر
في احدى سفراته التجارية خسارةً جسيمة،
ما عاضه الله منها.
وكانت ابنته الوحيدة هنرييت يومذاك
في الثانية عشرة من سنها، وفي ما فوق ذلك
من النضج العقلي والتبصّر. ثم ولد له في
سنة الخسارة، اي سنة ١٨٢٢ ولد
أسماه ارنست. فتنازع الفرح والحزن
تلك الشقيقة الصغيرة. فرحت بمولود
شقيق لها، وحزنت لخسارة والدها.
وكأني بها كانت تشعر بمكنونات الايام، فتحس
بالتبعة التي ستُلقى على عاتقها. لذلك كانت
الكآبة تخيم حتى على سرورها. فلئن اشتعل
الله لها في مهد الشقيق الطفل شعاع المحبة
والسلوان، فلقد كتب لها ان تكون ال~~رفيقة~~
لهذا

١٢٠ ابراهيم ٢٦٧ ٨

لهذا الشقيق الرقيقة المربية المرشدة

المعتنية طول حياتها.

وما عتمت ان رأت الوزر امامها، وليس

في البيت يد تُمد اليه غير يدها. فبعد خمسة سنوات

من نكبة والدها التجاريه، عاد مركبه ذات يوم

من البحر، وفيه الفراغ المفجع. دخل ميناء

ترثيغيه، والشراع يخنو على خشب لا ربان له.

راح ربانان الى البحر وما عاد، فامسى سرًا

من اسراره. ما عرف النواتي شيئًا مما كان.

ولا جاء احد بخبر عنه المختفي، او باثر ما له.

استأثر البحر به، واسدل عليه سواد نقابه.

كانت هندريت بوقتئذ في دير للراهبات

بترثيغيه اتلقى مبادئ العلوم، وتتشرب

روح الايمان والتقوى. ولكانت قد رجت

الى النعمة الخاصة، فلبست الثوب الاسود

والقلنسوة البيضاء، لولا اخوها الذي احبه

وهو في المهد حبًا تولته الايام، فنما والمحبوب

معًا. ولقد ودّ الشقيق بعدئذ لو ان رغبتها

بالترهب تحققت، لانها كانت عروس الاحزان.

أخرجت

٢١٧

خرجت هنرييت من الدير، والقلب فيها يتلفت
إلى جدرانه، ويرى داخل الجدران، على مذبح الكنيسة،
الشموع الدائمة النور، والمطلوب الدائم الكآبة.
خرجت من الدير تحمل مزامير داود، ذلك الكتاب
الذي كان النواة لغرسها الروحي. ولهذا
الغرس في نشوئه ونموه أطوار خاصة،
ستنكشف في ما سنقص عليك من
حياتها.

في تلك الأيام عاد الكثيرين بقية
الأسر من أشراف الفرنسية الذين كانوا قد هجروا
فرنسة في عهدي الثورة ونبوليون. وكان
بينهم سيدة فلنت أيام هجرتها في انكلترة،
فتثقفت بالثقافة الإنكليزية، واتخذت التعليم
مهنة في بلدتها، فكانت هنرييت زمانا من
تلميذاتها. ولئن كان ما كان من نفوذ هذه
السيدة على هنرييت، فازدادت أخلاقها
فتانة وسموا، واتسع نطاق فكرها وعقيدتها،
فتزعزع الإيمان الكاثوليكي في صدرها، وأخذ
بالانهيار.

[illegible]

١٢٠

٢٦٩ ١١

ببدان الكآبة والهم لزماها على الدوام. فقد
تعددت الخسائر والديون، وبدت خلوتها اشباح
الفاقة والعسر، وهي في كل احوالها تفكر في
مستقبل اخيها. ولقد رأته ذات يوم
في ثوبه البالي يحاول ان يستر خرقاً فيه،
فترقرقت عيناها بالدموع
جبينها الحياة باقبح ما فيها، فصممت
على هجر التعلم الى التعليم، وفتحت
مدرسة في ترغيبه
كانت مقاطعة البريتان في تلك الايام
اي في العهد الرجعي (١)، محط رحال الاشراف والملكيين
العائدين من مهاجرهم، وكانت ترغيبه تلك
البلدة الصغيرة الجميلة على شاطئ البحر، مثل
جونيه عندنا، تجذب اليها الكثير من اولئك
المهاجرين، الذين اقاموا فيها، فافسدوا
بيئتها القروية، وصار اهلها يقلدون
الاعيان في عاداتهم وادعاءاتهم. اولئك
الاعيان الذين فقدوا في الانقلابات السابقة
صفاتهم

(١) عهد الدستور الابيض la restauration
اي رجوع البوربون الى الملك (١٨١٤-١٨٢٠)

(٢١٣)

صفاتهم الطيبة، وما اكتسبوا شيئاً من حسنات الحياة الجديدة، فأمسوا على غلظٍ بارز في صفاتهم الأخرى القديمة، اي في القوة والوثرة والتعصب والصفاقة والادعاء.

ولكنهم من الاعيان. فكيف لا تقلدهم القرويون؟ وكيف لا يشمخون بانوفهم على تهذيب رنان وصدر اشباهه؟ وهل يليق بالاكابر ان يرسلوا اولادهم الى غير مدارس الاكابر؟ حيث يتلقنون العلم المقترن بالدين، ويتشربون حب التقعيد في السلّم الاجتماعي الذي هو ملك الاعيان.

وما كان للتهذيب من صفاتها العالية الهادئة تلك الصفات التي تحجب عنه عيون السواد جمال النفس الورعة الوادعة، ما كان لها فيها ما يمكن من محاربة التعصب والادعاء في الناس.

لقد كانت تلك الصفات العالية السبب الاول في اخفاق مسعاها. قال رنان نفسه في كلامه على الرسول بولس: "آفاتنا تشددنا في الاعمال، وحسناتنا تضعفنا."

أقفلت

أقفلت هنريت مدرستها، وعادت الى
أفكارها وهمومها تستخلص منها شيئاً من العزم
لتجديد السعي والتدبير.
قلت ان الناس ما رأوا فيها غير معلمة
مدرسة. ولكن شاباً مهذباً جسوراً رأى في
نعومة يديها، وعذوبة ناظريها، وما وراءهما من صفاء
النفس ونبلها، ما حمله على الافصاح بما نشأ في
قلبه من الحب، فقبلت العرض الذي كانت
فيه على يسر تستطيع ان تشرك فيه اخاها
وأمها. بقيت وحيدة أبوده، ترشف سلواها
من كأس الجهاد الشريف، وتغذي حبها بالمواظبة
على الواجب العائلي. وكان ان عُرضت عليها
وظيفة في مدرسة للبنات بباريس فقبلتها.
ولكنها لم تنعم بالاً في بيئتها الجديدة، وما
عتمت ان نفرت منها. هذه القروية الساذجة،
بنت الطبيعة الصافية الوجه والروح، ما رأت
في مدينة النور شيئاً من نور الصداقة،

و/

ولا خيالاً محباً للكرم والحنان . ومنذ آن
لازاهر الروح ان تنور في المدينة العظمى
حيث يقضى فيها على الكثير من الاغراس
الكبيرة العتيقة .
تلك المدارس الداخلية للبنات في باريس
كانت في تلك الايام مهزلة من مهازل الحياة ،
محورها الخذلقة والادعاء ، فزادت
بكآبة هذيب وعجلت بتطور اراءها الدينية
فبان لها ما في العقائد المقدسة من الاوهام ،
وما في ايمان المتطفين من الكذب والرياء .
هناك حد بين اسوار الخذلقة والتنطع ،
وخلال ما اتسع من آفاق خبرها وعلومها ،
بدأت تنور الازاهير في روضتها العقلية .
ولكنها ادخرت في اعماق نفسها هيبة الطبيعة
للمدرسين والمدرسات ، وللمخلصين المخلصات من بنيها .
تلك الهيبة التي تنطوي على الايمان السامي
الذي لا تغيره عوادي الزمان ، ولا يذهب
العلم والفلسفة بشيء منه .
كذلك كان حالها في باريس ، يوم استدعت
اخاها

ابراهيم ١٢٥

١٥ ٢٧٧

اخاها البكر. فجاء العاصمة في الخامسة عشرة
من سنه، بعد ان تلقن في دير ليتربغية
مبادئ العلوم اللاهوتية. وكان قد وطن
النفس على الانخراط في سلك الكهنوت، فما
سُرّت هنريت بذلك. ولكنها احترمت
في الصبي ايمانه، وما فاهت يوماً بكلمة
يشتم منها رائحة الشك او ~~التثبيط~~
في ما كان يراه، او التثبيط عما اعتزم
اقامت واياه اربع سنوات في باريس،
وهي تعلم في مدرستها وتساعد في دفع نفقات تعليمه، وفي
سنة ١٨٤١، بعد ان دخل ارنست ~~…~~ جامعة
سان سلبيس، سافرت الى بولونيه لتتولى
في احدى الأُسر الشريفة تعليم ابنائها. هناك في
قصر تلك الاسرة، على ضفة نهر ال"بوغ" وفي
جو قاتم كئيب كجو بريطانيه، اقامت ست
سنوات. وكان ذلك القصر كالمنفى
لولا لطف اهله وكرم اخلاقهم. فقد
استمتعت فيه للمرة الاولى بلذة العمل، ونعمت
بما لقيته في اهله من ~~…~~ الصداقة الحميمة والتعزية.
ثم

٢٢٠

١٦

ثم ساحت سياحةً صغيرة في المانيه
وايطاليه، زادت في معارفها، وحفلت ما
كان يزين تلك المعارف من فن، وادب. وبعد
هذه السياحة مكثت في برلين.
اما شقيقها، طالب اللاهوت في باريس،
فقد كانت على اتصال به، تراسله ويراسلها بدون
انقطاع. وقد علمت من رسائله اليها أن
دروسه لتاريخ اللغات السامية وفلسفتها
أثرت في ما كان أحرزه من علم اللاهوت
تأثيرًا هادئًا، فسرّت لذلك. هي التي كانت
وقد ساعدته هي ايضًا، في ازالة ما
تنبذ تدريجًا عقيدتها الكاثوليكية، كما
تبقى من اثر الطابع اللاهوتي في نفسه، كما
انها ساعدت في تمهيد السبيل الى حل المشاكل
التي كانت تعترضه في دروسه. وقد كانت
تمده فوق ذلك بالنقود كل سنة لتشجيع
تلك الدروس، وتودع رسائلها كنوزًا من
الحب والحكمة والارشاد.
هي ذي الشقيقة المربية في كل احوالها،
وخصوصًا في هذه السنوات التي فصلتها عن شقيقها.
اعوانًا

١٧
٢٧٥

ا.ب.ع

عوناً على الرواتب، عوناً متعدد الابعاد، حاضرة
كانت او غائبة.
ولكن الشقيق، يوم زارها في برلين في
سنة ١٩٥٠، شاهد المشهد المحزن المخيف.
فقد جاهدت هذه البنت، وقاست في الجهاد
ما كانت تخفيه عن الشقيق الحبيب.
أهذه بنت هذه في الاربعين من سنيها؟
أم هذه بنت هي في الخمسين؟!
لقد جار عليها الزمان، فأحملها فوق
ما عدّ لها، فعدت عليها العشر السنوات،
وسجلت في وجهها آثار حب، وفي
جبينها المتجعد.
ولكنها فازت في ذلك الجهاد [illegible]
فقد علمت اخاها، ودفعت الديون التي كانت
لا تزال على والدها، ورفعت الرهون عن
العقارات الموروثة عنه، فتركتها صافية!
خالصة لأمها.

—

١٨

٢

بين الشك واليقين

جميلة هي زغرتا بمشاهدها الطبيعية،
بساتينها وجنائنها والاحراج الغضة حولها،
كما انها جميلة بقصورها وابراجها، وبالاديرة
فيها والكنائس. والاصح ان يقال انها كانت
في تلك الايام لا تزال جميلة بما ابقت عليه
الثورة الكبرى من تراثها التاريخي الطبيعي
الديني الشعري. فالاديرة والمدارس
الدينية ظلت قائمة في ظلال القصور
والحصون. في احدى تلك المدارس تلقى الصبي زيان
مبادئ العلوم اللغوية واللاهوتية، وعقد
النية على ان يكون كاهنا. فتخرج من
المدرسة بجميع الجوائز، وطمح الى العلاء
في مملكة الكنيسة الكاثوليكية.
وعندما لحق باخته في باريس دخل
مدرسة لاهوتية خفية ما شفت غليله.

فتنقل

١٩

فنقل منها الى دير إسّي . ثم دخل
في سنة ١٨٤١ الجامعة اللاهوتية الشهيرة
سان سلبيس . كل ذلك بمساعدة
شقيقته ، التي لم تكن راغبة ، كما اسلفت
القول ، بما ظهر من فقده اللاهوتي ويقينه .
وما تحول رنان عنها وهو في سان سلبيس .
بعدئذ
على انه احس وهو في جامعة سنا فيتاس ،
بشيء من التردد في ذلك الفقد ، وباشياء
من الشك في ذلك اليقين . فكان
قد بلغ درجة عالية في العلوم التاريخية
واللغوية والدينية ، وادرك خلال
تدرجه اليها ما للكنيسة من السيطرة على
التفكير ، والاستبداد في تكييفه وتسييره .
ولما ان
نفر رنان من تلك السيطرة ، وابى ان
يخضع لعبودها . فاستمر الشك يقرض في
يقينه حتى ذهب باكثره ، فحوله عن قصده
اللاهوتي . وما كان رنان يخفي عنه
شقيقته شيئاً من اخبار ذلك النزاع
العقلي الروحي فيه ، فكتبت اليه

٢٠

من بولونيه تنقلح عنه رجالها بما تطور من

افكاره ، وتعزز فيه الميل الى العلم الحر

المجرد من السيطرة الدينية ، والى التفكير

المطلق من قيود المصالح والسيادات كلها .

ثم تتابعت الحوادث التي أيدت الطالب

في نزعاته الحرة وحققت بعض احلامه . فقد

تعرف في سنة ١٨٤٦ ببرتيلو الذي

اشتهر بعدئذ باتجاته الكيماوية فدامت الصداقة

عامرة بين العالمين طول حياتهما *

وفي السنة التالية نال رنان جائزة

"فلني" بما كتبه في تاريخ اللغات السامية .

وفي سنة ١٨٤٩ ارسلته الحكومة الى

ايطاليه بمهمة علمية ، فايقظت هذه الرحلة

فيه حب الفن في الحياة فكرًا وعملًا ، في

الادب كما في التصوير والموسيقى ، في

الانشاء والتفكير ، كما في النظم والتلحين .

ولقد تنازع في نفسه الفنان والعالم ،

حتى ان الرحى وكانت الغلبة للفنان .

اي ان رنان الفيلسوف الباحث عن

الحقيقة

١٤٠ ا.ب ٦ ٧٧٩ ٢١

الحقيقة، غدا يبحث كذلك عن الجمال، ان
كان في التاريخ، او في الاساطير، او في العلوم
الدينية والكونية. وان تنازع الاثنان،
الجمال والحقيقة، في مباحثه، فضل الاول على
الثانية. وذلك لانه ما كان يرى الجمال
في الحقيقة دائما، وكان يحس، واصبح يتيقن،
ان في كل نوع من الجمال شيئا من الحقيقة.

عاد رنان من ايطاليه مزودا من محاسنها
الشعرية والفنية، فزار شقيقته في برلين، ثم
اقام واياها في بيت واحد بباريس. وما
افترق عنها حتى بعد زواجه، فاستمرت
وزوجته معها في ذلك البيت، واستمرت
وصاحبته مساعده في اعماله وكتاباته.

لقد اشرت في ما اسلفت الى ان عائلة رنان
من طبقة الفلاحين والنواتي. وما في ذلك لابناء
هذه الطبقة غير الخير. فالبحر يغذي
النبوغ، والحقول تشحذ الذكاء. والبحر يفتح
للروح عبوبا تسرح في الآفاق فاتساعه [illegible] تبعث في العقل النشاط
السذاجة، والحقول
والحقول الاجنحه،
وزهف في التصور الفكري
على ان التراث يختلف في اختلاف
الامزجة /

٢٢٢

الامزجة والطباع، فيجيء مشرقاً مرناً في
بعض الناس، وقاتماً قاسياً في الآخرين.
كانت هنريت ابنة ابيها، كئيبة
النفس، جافة المزاج، حيية، متوارية.
تكره الظهور والأثرة، والادعاءات
وأباطيلها. وقد كانت مع ذلك دقيقة
الاحساس، شديدة الشعور، بعيدة
مدى الفكر، فغذيت قلبها بالنزعات
العقلية. احبت الجمال حباً ساكناً،
يستشعر العزلة والتأمل. ما ورثت
شيئاً من روح امها، تلك الروح التي
تبسمت في شفتيها. فكما كانت هي
ابنة ابيها، كان ارنست ابن أمه.
ولقد ادرك في نشأته معنى الابتسام
والتهلل، او بالحرى مستحبهما في الادب. وغمس
ريان قلمه في محبرة فاستبر في ابانه الاولى.
فما شرت هنريت بذلك، وكثيراً [illegible]
النابذة العقيدة الكاثوليكية، ما شاءت
العقائد السمحة المطلقة، وما شاء
ان ينشدي اخوها بقلتير، [illegible]
هو

هوان يغيظها. فأقلع عن ذلك الأسلوب
في التكلف والإنشاء. ولكنه في نزعته
حافظ على حقوق الشعر والخيال، وما
فادى بالعواطف في سبيل العقل المجرد.
فجاء الأسلوب الذي اشتهر به منقطع النظير،
يجمع بين البساطة والأناقة، والمرونة
والمتانة، والفخامة والحنان، ونتمثل
الطلاوة في كلماته وهمساته وسكناته،
في نواحيه ومناحيه كلها.
أقام الإخوان في باريس ثماني سنوات سعيدة
كان رنان يشغل وظيفة صغيرة في المكتبة
الوطنية، ويكتب في الليل المقالات الأدبية
والتاريخية والانتقادية لمجلة العالمين
الشهيرة. وكانت شقيقته تساعد
في تنقيح تلك المقالات وتحبيرها، وتقرأ
بعد ذلك مسوداتها، فلا تفوتها في
التصحيح الكلمة التي ينقصها المعنى والذوق
معاً. فكان علم البيان مهنتها، ولكنه لم
يكن مقتبساً لروحها السامية وإحساسها
الدقيق

الرفيق. فلا عجب اذا امتاز ادب اخيها
بالصفات الثلاث العالية، اي الاتقان
في الانشاء، والصفاء في التفكير، والاشراق
في الاسلوب.
ومما هو جدير بالذكر ان هذين الروحيين
الصنويين في التفكير الحر، والمنزع "الفكري"
كانا يقيمان دائماً في ظلال الاديرة والمعاهد
الدينية. فقد كان البيت في "ال رو
دنفير"، مجاوراً الدير الكرمليين، بل
مشرفاً على جنينته، فسرح الاخوان
النظر فيها، ويستمتعان بطيب
~~[illegible]~~ نفحاتها.
~~[illegible]~~ ما كان أثر ذلك في
ليت شعري. تلك النفحات
نفسيهما؟ فهل تغلغلت التي كان يزرعها رنات
الطيبة في الفلسفة وفي الاساطير التي
في زينة الاساطير، الفلسفة؟ مهما
كان ما تفتح لها ابواب ذلك البيت ظل
يكن الامر فان ذكر
عهداً زكياً في قلب الاخوين طول الحياة.

رمن

من مزايا الشرق الخاصة انه ينبغ فيه
اشخاص منحوا اشياءات الالوهية، ومنيوا
بالخمول ~~والعجز~~ والكسل. يفكرون، ولا يكتبون،
بل لا يأتون عملاً. ولكنهم يوحون الى غيرهم
بخطير الاعمال والاقوال.

ومن هؤلاء مثلاً جلال الدين الرومي،
الشاعر الصوفي العظيم. فلولا صديقه ورفيقه
شمس الدين التبريزي لمكث جلال الدين في
هذه الارض وخرج منها كالاناء الروحي
الفارغ. وشمس الدين يميل الى الشاق منه
وما كان
الاعمال او الى اي الاعمال. بل كان يقضي
معظم اوقات يقظته في قهوة بدمشق يلعب
الشطرنج والغلمان الصباح. وكان يومئ
في بعض الاحايين، الى صديقه جلال الدين
ايماءة التنبيه، فيعطيه شعاعاً من
من قبل الوحي - كلمة او فكراً او خيالاً -
ويقول له: سر في سبيلك. فيروح
جلال الدين متغنياً بالالهيات، وهو في
الحال

الحال، كما يقال بلغة المتصوفين، ولعود
شمسه الذهبية الى غلوائه الصبيح، ولوحة
الشطرنج.
ان طرق الالوهية محفوفة بالالغاز
والاسرار. فقد كانت هذه لبث رنان، كما ٢٢٥
مظهرها، على شيء من هذه الصفة الشرقية
العجيبة. انما نعبر عنها بغير لغة المتصوفين.
قال رنان نفسه ان شقيقته كانت العامل
الاكبر في نشوءه الفكري او تكييفه
منازعه. ولكنها لم تكن فظة كيله، ولا رضيت
بان تكون خاملة. انما سرورها الاكبر تمثل في
انزوائها، وفي اندماجها، في شخصية اخيها. وقل
فكانت العامل الحي الكامن - وقل
الظاهر - في حياته وادبه.
اي أثر لهذا المفعول الروحاني كوهيج
الشمس ينعكس على بقعة زاهرة بالبنفسج
او الاقحوان، خلال اغصان دوحة مجاورة
يجرجرها الشجر، فيرى ذلك الوهيج
متموجًا على الازاهير تموجًا لطيفا،
او لا

ولا يرى له منشأ يُلمس او يُحد
هي العوامل المركبة المرتبكة المتفاعلة
في الشخصيات الكبيرة . فهل التحقيق والتحديد
لما تولده هذه العوامل من الصفات الجديدة
في صاحبها ممكن يا ترى ؟ ليس من الخطل ان
ننسب ايمان هنريت وتقواها – ذلك
الايمان الصافي وتلك التقوى المجردة من
عرضيات التدين – الى السيدة الفرنسية
الشريفة التي عادت من انكلترة الى
تريغيه، وتعهدت ابنة رنان بالتربية.
ولقد نشأت هنريت على غرار معلمتها،
المتشربة روح تلك الطائفة من متشددي الانكليز،
اولئك الاتقياء الانقياء المتزمتين ال
بيوريتان (the Puritans) انما كانت
تختلف عنهم في كونها فرنسية، فلا
فلا تحرّم المسرات البشرية،
ولا تحجرها. فقد كانت هنريت
زهادة في قلبها بل كانت تدنو
في ابتهاجها الروحي الباطني من
الدراويش

١١٥
الجبل

الدروشة الشرقية، وان سكنت الغبطة سكونا فلسفيا في وجهها وناظريها. فقد ورثت السذاجة والاحساس الشديد المرهف من والدها. اما المتانة في اخلاقها، والنشاط في عملها، والاستقامة في سلوكها، فقد جاءتها على يد القدر، بواسطة تلك العلمة الفرنسية الانكليزية.

ثم عززتها عوادي الدهر والاداره مما كان من تمردها على الدهر. فان لمثل هذا التمرين نتيجة من اثنتين. فاما ان يودي بصاحبه، واما ان يزيد بعقله وقواه.

كان زمان الشاب يدرك هذه الاخلاق والطباع في شقيقته، فيزداد حبا لها واحتراما، وتتسع امامه سبل الفكر والعمل. وقد كان يعتقد في سلم الرقي والشهرة بجزل اجر النشاط والومل في هذه السنوات السعيدة التي قضاها وشقيقته في "الداور دنقير" اي شارع الجسر.

ولكنه صدم للمرة الاولى في سنة ١٨٥٩، بالسلطة الدينية، او بالحري بعداء اربابه

٢٩

ارباب الكنيسة واشباههم . فقد كان
مرشحاً لكرسي اللغات السامية في "الكوليج ده
فرانس" فقاومه الحزب الكاثوليكي،
وحمل عليه حملة شديدة .
- أيعين لوظيفة عالية تتعلق
بالدين هذا الرجل المارق الذي ارتدى ثوب
اللاهوت ثم خلعه؟ هذا الرجل
الكافر الملحد الخ .
وكانت الامبراطورة أوجيني تنصر
الحزب الكاثوليكي ورجال الدين، ففازوا
بما كانوا يبتغون .
ولكنهم لم ينتصروا على رنان الانتصار
التام . فقد كان الامبراطور نبوليون الثالث
يقدر العالم الفيلسوف قدره، ويعطف عليه .
فانتدبه لمهمة علمية في الشرق .
ارسله إرضاءً الى سوريه
للتنقيب عن الآثار الفينيقيه

٣٢٧

٢٨٢

٤

البعثة التاريخية

كان رنان في تلك الايام يدرس حياة المسيح
ليكتب كتابه في الموضوع، وقد رأت شقيقته ان من
الواجب ان يزور البلاد المقدسة تكملة لدروسه،
فاشارت عليه بان يقبل المهمة التي انتدبه الامبراطور
لها، ففعل. رغبته مسروره بالبعثات
وكان الامبراطور يرغب، على ما هناك من دواعي وبا
العلمية، اقول مسروره، بان لبيب السياسة
الريبة والنكران. فالعالمون ما يتعلق بسياسة
وراء اكماتها، يرون في البعثة ما يتعلق بحوادث
نابوليون الثالث الشرقية، وعلى الاخص ذبح الموارنة
لبنان المفجعة - في تلك السنة. فقد
على عهد "فرنسة"، قره بعينهم، والعهد الفاجعة،
جاء الاسطول الفرنسي. أجاء للتأديب، ام للحماية
للتعرض في ... أرجح ان التاريخ ما يجب ان اقوله
ام هو ان الاسطول جاء يدوف تستره غضبة
الاول هو ان الاسطول جاء لبيت الامبراطور هو
المتسربين وتعوده
وجاء رنان لبنان الدامي في ذلك
الصيف - صيف سنة الستين - لينقب عن الآثار
الفينيقية!

٢ ام الزحف ... ديار الحريم

١٤٥ ٢٨٩ ٢١

الفينيقية !

لقد انتدب نبوليون الثالث عالمًا آخر لمهمة
علمية اخرى في الشرق، هو اليسوعي الخالع ثوب
الرهبنة وليوم بغفرد بلغراف، الذي ساف(ر)
الى البلاد العربية، وتغلغل في بلدانها وبواديها
الى القلب منها - الى نجد.
في تلك الايام كانت فرنسة تباري انكلترة
في خطب ود العرب، ابتغاء الوصول الى ما وراء
بلادهم - الى الشرق المتوسط، بل كانت انكلترة
تبحث عن طريق الى الهند قصيرة، وكانت فرنسة
تحاول ان تقطع عليها ذلك الطريق، او تسبقها
الى اكتشافها وتأمينها لتحول دون مآربها
فهل تعانق العلم والسياسة، وتجاذبا اطراف
الحديث لاغراض الامبراطورية الذاتية، هناك
في البادية، وها هنا في لبنان ؟
اني في كل حال لأنتقل الى رنان المؤلف
"الحياة يسوع" حتى الى رنان المنقب عن آثار
الفينيقيين. الى افضل الطالب العلم في البلاد
التي كانت مسرح الناصري، ومنشأ المسيحية،
الناشد روح الحقيقة في سمائي هذه البلاد، وفي
جوها التاريخي الشعري - افضل هذا الرسول،
رسول الادب والتاريخ، على رسول امبراطور الفرنسيس.
اجاء

جاء رنان ناحيبه شقيقته (١) في صيف
سنة ١٨٦٠، ولقد صحبته في كل رحلاته،
من غور الاردن، الى وادي اليرموك، الى
انجاد لبنان - من مروج الجليل، الى سهول
البقاع، الى سواحل فينيقيه - فرأت ما كان
يراه، وسمعت ما كان يسمعه، وشعرت بما
كان يشعر به. فصفت لها الحياة في هذه
الرحلة الفلسطينية السورية اللبنانية. بل
جادت عليها بالجزاء الارضي الاكبر.
وما كانت تؤثر سرورها على سرور اخيها
وعمله. فلولا مساعدتها، كما يقول هو نفسه،
لما تمكن في راحته وحيزه من الاحاطة علماً
بموضوعه من نواحيه المتعددة، التاريخية
والاجتماعية والاثرية والشعرية، وتنسخ ما
فقد كانت تجمع المواد وتصنفها، كما كانت تعنى بشؤونه
ويكتب، وتدقق النظر فيه، نفقات
الخاصة، وتحفظ حساب النفقات. اضف الى ذلك ما كانت
الرحلة والمعيشة معاً. في علوم التاريخ
تمده به من الآراء الصائبة
والآثار والفنون، وما كان يؤنسه منها
ويعجبه في كل مكان.
/ الرحل

(١) لحقت مدام رنان بهما في نيسان سنة ١٨٦١، وقد
وعادت الى فرنسه في تموز من تلك السنة. وقد
قيل [illegible] في حب الاخت وغيرة الزوجة
(اقلب)

اقول انا ما عرفت غير اولئك الثلاثة وذويهم في
تلك الايام، ~~[illegible]~~ ولا اعرف منهم احداً في هذا
الزمان.

١٤٥

الله

٢٢ ٢٩١

رحل الاثنان الرحلة السعيدة حقيقة
ومعنى. فكانت حضرية غريبة في السرج، بدوية
على الرجل، تراكب وتماشي الرجال، وصلت
الى اماكن تعجز دونها النساء الاوروبيات،
وحشية منيعة،
وبعدها ابناء البلاد انفسهم
اجتازت الطرق الغائرة في ثنيات الجبال ٢٢٩
ومضايقها، المعلقة فوق المهاوي والوهاد.
وكانت في اليوم الواحد تصعد ناشطة من
واد الى جبل، وتهبط جذلة من جبل الى واد،
فلا تروعها الاغوار، ولا تتجهمها النجاد.
ان الخريف لابدع فصول السنة في سوريه،
وان الربيع لاعجبها. في الاول فردوس من الالوان
الرائعة العجيبة، وفي الثاني فردوس من الازهار،
وان في هذه كما في ذاك، اسرارا روحية لونية،
تتصل باعماق السليقة اللبنانية، وباعالي
الابداع اللبناني. فاذا كان الكلام - الربيع -
من زهر، فالسكوت - الخريف - من ذهب.
وحسبنا ذهب الغروب في فصل الخريف.
فقد سحر به رنان، وسحرت به شقيقة رنان.
هاهنا السهل الممتنع في التلوين الذهبي كما
في الانشاء، وكما في التصوير والتفكير.
هو ذا الجو القدسي الذي ملك حواس
الاخوين /

٢٢٤

الاكوان. هي ذي القداسة التي خرت لها وجوهها ساجدة: عظمة الجبال، والى جنب السهل الممتنع الروعة ووداعة الآفاق الجبلية. ان في الخندق الخالدة، وبينها رؤوس من الرواسي تهبط فجأة في البحر، وهضاب تنحدر انحداراً هادئاً الى السواحل الرملية. حسبك ما في هذين الطرفين من مهابط الوحي، وخصوصاً عند ما يبرقعها الفجر بنوره الدري، والغروب بنيرانه الذهبية.

في مسارح هذا الجمال الطبيعي الالهي سياح زيارة وتفقه، فكانت سياحتهم نشيداً من اناشيد القلب المفعم حبوراً. وتمثل ذلك القلب افقها الاول مثل بيت المقدس، الضاحك من تزاحم آثار الاديان فيه، الى نابلس القائمة بين جبلي اللعنة والبركة، الى جبل الكرمل وكبرياء صخره الف قدم فوق البحر، الى الجليل، "ذلك الفردوس المنتهب"، الى البحيرة التي لا تزال الحمائم تنوح على شواطئها الكئيبة، الى جبل الشيخ الناظر بعيني المحبة والغضب الى

٢٢٠

سهول سوريه، واغوار فلسطين:
انا لراحلون. فلا تهمنا الاديان المتناحرة
المتناحرة. ولا تهمنا الاديرة والمعاهد الدينية،
المشيدة لرب الاغراض الدنيوية، ولا تهمنا
الاماكن التي تقدّس فيها الاساطير والخرافات.
انا لراحلون في سبيل العلم، في سبيل الفكر
الحرّ، في سبيل الروح غير المقيدة بغير حب الله وكنيسته،
وخير الانسان في دنياه: هو هو ما كان
ينبوع ايمان وشفقته في كل ما بث هذان
في معالم التاريخ، وفي كل ما بعث لهما من
مآثر النبوة والشعر، كان ينبضان لهمسه
الزمان، وكلاهما والاستماع لضوضاء الايام،
وقد كان ينعمان صباحاً حلالاً، وخصوصاً في
لبنان ضيافة منقطعة النظير في بلدان العالم -
ضيافة مفطور على حب الضيف والكرامة،
فضلاً عنه ان هذه الضيافة كانت ترى في
البيئة اللبنانية، وعادات اهلها واخلاقهم، ما
يذكرها ببلادها بل بقريتها الصغيرة. وقد احبت
الموارنة على الاخص وطقوسهم الدينية، فكانت
تذهب الى الكنيسة (للصلاة وايايهم)، كما كانت تفعل
في ترغيبه، فيرافقها اخوها بالولد

٣٦
٢٩٤

ثالوث قلبها — الاخ ابن الحبيب. (الا
عدبي الى ذلك الزمان الاقدم يوم كان الرجل
اخاً وابناً وحبيباً للمرأة، رتبة الاب الطبيعي)
وها هوذا في زماننا ~~[illegible]~~ اليوم وراثته
الكنيسة المارونية، وقد رفعت قباءها
فوق رأسه لتقيه المطر.
والى من هذا البعد الصغير في ارجاء الزمان،
اري ذلك الروحين تحت قباء العقل الكلي،
او الضمير الكوني، او القوة الروحية المكونة،
او الازلية الخالدة، اراهما تحت ذلك القباء الالهي، يسرحان
لغزير
وقد جلسنا على سطح البيت نشاهد كروان الطبيعية،
البحر والصحرة في مشاهد
واجواء لبنان الالهية، ما تفعل الوراثة في النفس، وما
لبث يشعري ما ~~فهل~~ يستطيع المرء ان يتغلب
تفعل البيئة والتعليم؟
لقوة الانسان ~~[illegible]~~ كل التغلب على ايمانه الموروث؟
على ذلك الايمان الذي رضعه مع الحليب.
ان ذلك النور الذي يعلو وجه الام قبيل الولادة
وبعدها، ذلك الوهج الروحاني يمتزج بغذاء
الطفل، فيتغلغل الى ما كان مطوياً من حياة الرجل
فيه. وان صار هذا الطفل حتى في مستقبل ايامه.

فيلسوفا

(٢٢١)

فيلسوفاً او خطاباً فان اثر ذلك الوهج وهج
قلب الام، وقد انعكس على وجهها، يبقى هناك
في قلبه فيستعطفك او يستهويك.
هذا الوهج الالهي اراه منعكساً في
فلسفة رنان، وفي حياته. شقيقته هنريت،
فانها، وان نبذت الاعتقاد بالخوارق والمعجزات،
تحتفظ بنفس روح المسيحية تحفظ بل تملك
التذكارات الكاثوليكية التي هي ارثها القروي
الديني. وكانت لها تعيد ذكريات ترغيبه في
لبنان، وهي تتغلغل واياها في صميم فؤاد
الكون. وفي الدياجي
هناك على ذلك السطح في عرير، وفي
المقمرة، بين اضواء الشك، واخيلة التعصب، كان الاخوان
جو مقدس لاسرار الاقدمين وادبائهم، والدين،
يتباحثان ويتناقشان في الفلسفة والدين، وترتفع روح [illegible]
فترتفع عقل الاخ في التحليل، تتخللهن سامقتين
الاخت في بوادرها، في بحر من الحب والسكينة
على جزيرتين منفصلتين فاتمتين في جوار لتنبه
بل تستندان الى كوكب واحد، يشمل الفكر
واحدة، وتحت كوكب واحد والوانه — باغواره
البشري بابعاده كلها والوانه
وانجاده وآفاقه جمعاء.
رما

٢٩٦

٢٨

ماكان اعتقاد هنريت بالله الاعتقاد
الذي شاع في عهد الثورة الفرنسية الكبرى
وبعده. ماكان الهها اله ڤلتير واصحاب
الانسيكلوبيدي، اي الهاً خلق الكون
واستقل عنه — تركه وشأنه. او الهاً
تكون والكون معاً. فكان روحها العاشقة،
او النائمة، او الطائفة. ولا اظن ~~انها~~ ان هنرية
السيدة كانت تبعد كثيراً في اعتقادها عن الاعتقاد
المسيحي العالي، المجرد من شوائب
اللاهوت.

٢٢٢

ان آلهتك، ياهنريت،
لقد كان الهها — أُلمس ولا أُرى،
الهاً، وان كان في حُجُبه لا، كان في الحُجُب
بعيداً قريباً على الدوام، وفي القرب
الرحمة، وفي البعد المحبة
الطمانينة والسكينة. الا انت
وانا متيقنة، مؤمنة كنت
او غير مؤمنة، انك كنت في حياتك
الدنيا، كما انت الان وعلى الدوام في
محبوبات الله

ج.

٢٢٢

٥

في لبنان

شاغلان شغلا رنان في لبنان، التنقيب
في جبيل، والتأليف في غزير وعشيت. وكان
الشاغل الاول يقتضي الرحلات الاثريه،
فجاب سواحل فينيقية القديمه، وصعد في
الجبال متغلغلاً فيها، فوصل الى العاقوره
وتنورين. هنريت تفارقه في حله وترحاله،
وما كانت من اسباب الراحة والهناء
على ما قلّ في الجبال منغصهما احيانا
التي كانا يتمتعان بها في بيت. فقد كانا ينامان
يجايل طوبيا لعشيت، فيزيد الضنك ويخفة
غالبًا في بيوت الفلاحين في الليل والنهار.
السفر فيحرمان الراحة. ضمت في شهر تموز
تلك الرحلات الجبلية، فكانت الاخيرة،
منذ سنة ١٨٦١ برحلة الى الشنقه. جاءت
وكانت اولى مقدمات القدر المحتوم
هدتبت بوهن لزمها، فنزلت واخاها في دير
من الاديره، فمرضت هناك. وما زاد في
سوء

ابراهيم ٥١١ ١٢٠

~~٤٠~~ ٢٩٨

سوء حالها الانتقال السريع من اعالي
تنورين الى الحر الشديد في سهول تولا. حتى
في حلتها وجدت شيئا من الراحة
التي كانت تحتاج اليها. فقد تجمع حولها نسوة
القرية، وهن مدهوشات مسرورات، برؤية
امرأة فرنجية للمرة الاولى في حياتهن. ومنهن
من سارعن الى خدمتها، ثمّ ازعجنها بالسؤالات
والنصائح، وبالالحاح في البقاء عندهنّ، وهي
عاد الأخوان مسرعين الى عمشيت، فقبلا
في الصيف شديد الحر كان حل القرية فيه هذيب، وبعد
منها الى غزير، وقد انعشهما هواء البحر
الصعود من جونية الى غزير في ضوء القمر
تلك البهجة التي كانت تشعرهما في
احلام رحلاتهما اللبنانية الاولى "تشيقي
يقول رنان في كتيبه الجميل
"انه ما رأى في اهل غزير تلك
هذيبت" والبساطة المستحبة. اللبنان
النقطة الطيبة في عمشيت. ذلك لون في
يمتاز بها اهل الارستقراطية،
غزير تعجب بعض ادعياء
فتعلمهم الاهالي بما ساء لا ما حسن من اخلاق
الاعيان

٢٢٤

الاعيان وعاداتهم.

قد كان مع ذلك مغتبطًا باقامته هناك
مدة الصيف والخريف، لان شقيقته استعادت
صحتها، ولانه باشر في ذلك الجو الهادئ الجميل
تأليف كتابه "حياة يسوع"، فوصل فيه الى
يوم دخول السيد اورشليم.

ولشد ما كان ابتهاج الاخوين في تلك
الايام ايام الدرس والتأليف. ولشد ما كان
اروع تلك المشاهد ان غزير برًّا
وبحرًا، تلك القرى المتشبثة بصدر الجبل،
الجالسة على منكبيه، وتلك السهول والبطاح
المنحدرة الى ساحل البحر، انها لاجمل ما شاهداه
في لبنان. فاذا كانت وادي حمانا قرة
عين لامرتين، فان جونية غزير قرة عين
رينان. هذا الجمال الطبيعي لا يدركه بأجمعه
غير الشعراء. ولا يبلغ الابتهاج منتهاه في
الاديب الشاعر الا ساعة التأليف. فلا عجب
اذ هتف رينان قائلًا: "ما الذ تلك
الساعات! آه، لو ان الابدية فيها!"
ولقد كان يدأب في العمل من ساعة الفجر
الى المساء، فيشرب روحه نور الشروق، ويغمس

[illegible]

١٢٠ ابـ

يراعه في ألوان الشمس الغاربة، فتجيء
أفكاره في حلل من سماء لبنان شفافة،
زاهية نورانية.
وكانت هذبيت تنسخ تلك الصفحات وتنقحها،
فتلين قساوة المنطق فيها، وتنعكس اشعة
الشمس على ثلجها الطهور. اشعة
الشمس في الشروق والغروب، ما ابدع فيها
وما اعجب السحر فيها وفنه. فمثلما تلوّن
صخور لبنان ورواسيه، فتكسب جمالها
مهابة، وعظمتها روعة وجلالا، هي تنعكس
في قلب المؤلف وشفتيه، وعلى صفحات دفتره
براعة، وتفجر ابداعا، فغدت تتلألأ
لبنى القلب المسبّح، وتهيج الروح المتعبّدة.
قالت هذبيت لشقيقها: يا عجب
هذا الكتاب لا لأننا تعاونا في تأليفه، بل لأنه
٢٢٥ بشري". قالت: تعاونا، دون أن نفطن، الى الشمس
الى شريكها الثالث في التأليف، الى لبنان نفسه. فالكتاب
لبنان، الى سماء لبنان، الى لبنان وشفقه
~~كلنا~~ هو تأليف زنان و
جبران بسوع وحياة
زنان ولبنان،
وكان الأخوان يشتغلان نهاراً،
وجبران

ويسهران على سطح البيت في ضوء القمر،
فيتحدثان، ويتباحثان، ويعدّان المواد لعمل
اليوم التالي.

اذا كانت السعادة في اتقان العمل،
فقد طفحت كأس الاخوين بها.
ولكن الشؤم، في اعتقاد لبعض الشرقيين،
يكمن في الكأس الطافحة. او ان الساقي اذا
طفّح الكأس اراد بصاحبها شراً(١). فهل كان
القدر الساقي لهذين؟ ان لذة التواصل
العقلي الروحي ~~بينهما وبين اصحابهما~~ بين الاخوين، مع صفاء ساعات
العمل، وبهاء ساعات السمر والتأمل، أخفت
اليد السوداء التي كانت تمرّ بذينك الحبر
مرّ السحاب. وقد تكون بهجة العمل هي
التي اخفت عن هذين، او انستهما، ما
لزمهما من آثار المرض.
ودع الاخوان غزير وفي القلب اسف الوداع
واشدّ ان ينتهي. فعادا الى بيروت
لنعم حيث قضيا بضعة ايام اخر.
وقد كان لا يزال في جبيل لبعض النواويس
التي يجب ان تنقل منه الى الباخرة الحربية "كالوف"
لتحملها الى فرنسة.(١) ما كان يستوجب هذا
العمل

(١) انقلب

الحاشية :

(١) هل استرضى السلطان نيبوليون الثالث ،
وتجار التنقيب في جبيل
بامتياز للتنقيب مشاهدها في المغاورات
وكان الوفد الفرنسي فقد ادبائها في ما تلا
وشهد الدولة
~~[illegible]~~ سنة الستين ؟ أو ليس في
فتراجع الامتياز تسخّر العلم في
قتل هذا الامتياز سنة الدولية ؟
الب
سبيل

ابراهيم ١٢٠-

٤٤

ولكنه شق

العمل مساعدة زمان او اشرافه.

عليه وعلى شقيقته ان يغادرا لبنان قبل ان

يودعا مخيمت واصدقاءهما فيها. أهي الفرصة

السانحة، أم هو القدر المحتوم؟

عادا في الباخرة الحربية الى جبيل. وصعدا منها

ترحب اهلها بهما اجمل ترحيب

الى البلدة المحبوبة، سابقا،

الذي اقاما فيه

وعادا الى البيت انفسهما في

حيث كانا يحسبان

بيت زحبا، ببترنيغية

البيت الابوي، وهناك، امام

عادا الى فردوسهما اللبناني، وامام الجبال

الذهبية

جبيل الحالمة على الامال

الرافعة رؤوسها في افاق رمادية ووردية

ولازوردية، شربا الشمالة في تلك الكأس

العجيب. ولا احد احس

وما احد علم انها الشمالة، ولا احد احس

بمكنونها، او اوجس خيفة منه.

اني، وانا اخط هذه الكلمات، اتمثل روح الالهة

والاساطير التي كانها يدوم مترفق على هذه الشواطئ

القديمة، اتمثل روحها يذوب في تلك الكأس،

فيسكر الاخوان بصفاء الليالي والايام، ويجري

اذكرياتها

ذكراها التاريخية والروحية، ذلك المدى البعيد
العجيب... ولكل شيء اذا ما تم نقصان...
وفي الفترة الايام الاخيرة من حياة هنرييت
استأنف الاخوان العمل في "حياة يسوع"،
وهما لا يدريان بما يدب خفية اليهما.
فما عتم ان انقطع العمل في التأليف
والتحبير، فطفقت الحمى التي غشيت
الاخت قبل ان مست اخاها.
وما هذه الحمى الخبيثة التي ترافقها
آلام عصبية شديدة؟
استدعي طبيب الباخرة الحربية الراسية
في مياه جبيل. فقطب وهز رأسه.
هو لا يدري ما نوع هذه الحمى.
أرسلت الرسل الى بيروت. فجاء طبيب
الاسطول بحرا، وسارع برا طبيب فرنسي
عليم بحميات البلاد. ولكن الحمى قد غلبت رنان،
وكانت تلك الكتابة، وهو جالس
فاستمر مع ذلك يحاول الكتابة، وهو جالس
على الديوان بالقرب من الشقيقة المحبوبة.
ولكنه

٤٦ ٢٥

ولكنه ادرك بعد ذلك ان ما كتبه
في اوليات السلكينه كان مفككاً
مضطرباً. تشتد عليه، وعلى هذا
وكانت الحمى مع ذلك
في الغرفة المجاورة لغرفته) وقت ٢٢٧
نهضت ذات يوم ساعة الغروب
الى غرفة اخيها، فاتكأت على الديوان،
سكت يدها في الاوراق تقلب بها. حاولت
وارسلت نظرتها من الشباك الى
العمق في الارض دونه، الى جبل موسى، حيث
الافق الجبلي البعيد، كما جاء في بعض الاساطير،
قضى أدونيس نحبه، وعشاها
ثم مالت بوجهها الى ارنست تشعر بدنو
تترقرق بالدموع. لقد كانت آري الصغير
الاجل. ذكرت أمها، وذكرت شكلت وصغيرها.
ابا اخيها، وقالت انها: "لقد احببتك
ثم فاهت بهذه الكلمات:
يا ارنست حباً جماً، ولقد الملك صبي في بعض الذي
الاحاسيس، ذلك لاني احببتك الكثير، وقد لا يجوز..."
حباً يندر بين المحبين، وعادت الى غرفتها، كما
قالت هذا وعادت الى غرفتها، وقد آلمه انه
رأته اولادها بعد ذلك!
لم

في نشوءه العكري وكيفية مقارعته.

لم يكن الى جنبها ساعة لفظت النفس
الاخير. وظلت الذكرى تؤلمه طول الحياة.
في اليوم التالي ارسل قائد الباخرة
"كانون" زورقًا لنقل هذبت الى بيروت،
ثم وصل الاطباء، فكانت ساعة مريبة
محزنة، همساتها تعرف بهز الرؤوس.
انتشر الخبر في عجلتيت فاصطبغ جوها
بلون الساعة المكفهرة. وكان اهل زحلتا
واقفين في الباب وجالسين على الدرج يبكون.
تحولت القرية الى عاصمة تندب اميرتها،
وهي تلفظ النفس الاخير.
تشاور الاطباء، وجاء الخوري العالم
بالمداواة البلدية، فنفق الطريق اليهم ليشير
ولكنه، مثل الاطباء انفسهم،
بالفصاد.
جاء متأخرًا، وهو في ذهلة من الحمى: كيف حالها؟
سأل الاخ.
فقيل له ان لا امل بالشفاء، زبان، فكلم حلمًا محزنًا.
وجاءت الغيبوبة. وجب ضاك على المخيش
وضربت الى افقها، جنبًا الى جنب، ورفعا
عاد تحت الجوزات الى شفاههما الماسة، ثم
الندى، كأنما من الماء المنلح في ينابيع الحياة" -
غطسا في تلك المياه —
وهما يبكيان، ويشعران ان شعورًا ~~...~~ محزنًا الينا
اوعندها

وعندما استفاق سأل عن هنرييت، فعلم
انها فارقت الحياة. فارقتها في صباح الثلاثاء،
في ٢٤ أيلول سنة ١٨٦١
وقد صلى عليها الخوري الذي جاء لينقذه
بالفصاد، ساعة كان شقيقها في تلك الغيبوبة،
بحكم ذلك الحلم، على رغبة ابداها فيها،
واذ امسى هو في حالة خطرة لم يؤذن له
بأن يراها. فحُمل الى الباخرة الحربية على السرير
الذي جيء به لشقيقته
وحُملت هنرييت الى حجرة ميخائيل طوبيا،
التي قدمها ابنه زخيا، على شرط ان يُكتب
فوق بابها: اذا نُقلت الجثة بعدئذ، ان في
هذه الحجرة كانت ترقد امرأة فرنسية.
حباك الله، ايتها الروح اللبنانية النبيلة،
الروح البريتانية السامية جديرة
فلقد كانت هذه الروح باكرامك، وحزنك، ودموعك؛ ومشى اهل عمشيت
مع عائلة زخيا، وسُمعت
في جنازة بارونية، حرق فيها البخور،
فيها اصوات الكهنة يرتلون بتلك اللغة التي
كان

٥٠

كان يحفرها ويحيها زمان -
بالسريانية - ترتيلة الموت،
ووضعوها في تلك الحجرة،
في جوار الكنيسة، بين ظل السنديان،
وظل النخيل،

الفينيقية !

ولقد انتدب نيوليون الثالث عالمًا آخر

لمهمة علمية في الشرق، هو وليم پلغراف

ا

٥١

٦

بعد خمسين سنة

في قهوة من مقاهي بيروت البحرية،
صغيرة وادعة، مبنية بالخشب، مسقوفة
بالحصائر، تلعب بين ركائزها الامواج،
الى جنب المربع الفخم القائم هناك، الحافل في
هذه الايام ببنات الفنون الجليلة، هناك،
في تلك الزاوية المنخفضة من محلة الزيتونة،
كنا نجلس ساعة الغروب حول رجيجات
من العرق، وصحيفات من الابازير، تقوم
بيننا قسمة ال"بوكر" لشيخ الحلقة
وسيد سادات الحركة الفكرية في تلك
الايام الشيخ اسكندر العازار رحمه الله.
ومن اولئك السادات — سادات الادب
في العقد الاول من هذا القرن — الذين كانوا
يسارعون ساعة الغروب الى قهوة البحر، ولا
يسابقون في دفع الحساب، جماعة مرحة
صالحة، اعد منها بشارة —
الخوري(١) — البرق — وشبلي — الوطن — الملاط(٢)
وبولس
ود.. نقيب

الحاشية

(١) صاحب جريدة البرق

(٢) صاحب جريدة الوطن

وبوسف - الاقرع - ثابت(١) ، وجوجي -
الليل - ~~كا~~ اسعد(٢) ، وبترو - البطل -
باولي(٢) ومحيي الدين - الغازي -
الخياط ، الذي كان يحوم على تخوم الحرية ،
وامين تقي الدين الحامل علمها في ساعة
السلامة ، وجميل معلوف العائد بها
ظافراً من اميركيه ؛
ولا اذكر ان احداً منا كان يسبق
جميلاً ساعة الحساب ؛ اذكر تلك الحصائر
في تلك القهوة البابلية ، امام الشمس الغاربة ، في يوم من
الايام التي تتذبذب بين الصيف والربيع ،
من السنة الحادية عشرة والتسعمائة والالف ، ونحن الخارج
من الاشعار ، فاتقدنا
نارات الاشعار البارد المتحجر
من الفرن ، وفيح البارد سائف الاظعان"
من الحلقة من "شعر دمشق التريا
شيخ لاحد الشعراء : "
وهو يقول جزءة من اللحم اللذيذ لتسعة وتسعين
هذه جزءة من الهدف الاسود ان شئت ، الذي لا يصلح

(١) ~~كان يلقب الاقرع لاصلب~~
(١) كان يعرف بشاعر الليل لاتيادانه الزردانية .
(٢) كان اديب "القبضايات" و"قطار قبضاي"
الادباء .

حاشية (١) وكان قلبه قبل "قتبحه" الأصلع

البياض

حاشية (١) وكان في سمعته، مثله في

"قرعته" "[illegible] البياض" ظريفاً"

شريفاً،

(١) كان حسنه بالاصلع

فلقب

سطو

شعر

على

٥٢

يصلح لغيره" - وقف الشيخ اسكندر عمدي،
وهو يستخلص اللحم من الصدفة، فأكله ثم كرر
الكلمة: "لا يصلح لغيره..."
ورمى الصدفة الى البحر،
فتنحنح جميل وقال: ادب المستقبل
في النثر، لا في الشعر، وان من النثر لشعرا،
فقال محيي الدين: فذكر الشعر
فتفاعل البطل باولي، فتنو اريت خجلا في موضوع،
المنثور وصاحبه،
نصيب من نثرنا وشعرنا. ان في حياة
كنت اقرأ لرينان كتاب "شقيقتي هنرييت"
وكتيبه "يسوع" على شقيقها وادبه،
فذكرت ما كان من فضلها على شقيقها وادبه، اذ ان قبرها
انها مدفونة في عمشيت،
وقلت ان يكتبه الصالحون، وظرف فنجح
جدير بان الموضوع،
فتناول محيي الدين الموضوع، فذكر ما كان من
الى النبي، ومن النبي الى خديجة، ثم قال انه
فضل على محمد صلى الله عليه وسلم
ينجح فاشفعا ضريح السيدة الفرنسية العجيبة.

/ ل.

البك

بل اجمعت الحلقة على الحجة، فضربنا
للسفر موعداً، وكان المبرزون بالوعد ثلاثة لا
غير، هم بترو بولي شهيد الحرية رحمه الله،
وجميل معلوف(١) شهيد القدر تداركه الله
برحمته، وهذا الكاتب شهيد الالام الغاضبة
التي حملها — تأبطها — خمس وثلاثين سنة، وهو
للحياة، ولم يستعجل شيئاً منها.

٢٦١

ركبنا نحن الثلاثة عربة الى جبيل في
صيف العام الثاني من عهد الدستور العثماني
اي سنة ١٩١١، بعد خمسين سنة من وفاة
[illegible] — زيان —
وفي جبيل استأنفنا السير على الاقدام
الى عمشيت.

جميل: "أجمل ما قاله زيان كلمة في
المثل الاعلى هي انه يجب ان يكون في كل زمان
اعلى مما كان في الزمان السابق له. وعلى الاحرار
المفكرين ان يسعوا دائماً في سبيل هذا الارتقاء
البشري الدائم."

بترو: "أحكم. تقل زيان كذبت ان
الاحرار المفكرين قليلون، قليلون جداً؟ وهل
نجهل

(١) اقتبس

الحاشية

(١) له في الكتابة ما ينطق باعجاز عقله، وغزارة علمه، وصفاء ادبه.

وكان قد [illegible] قبل ان يكتب باعز [illegible] في الرسالة [illegible]

في "الزيتونة الجديدة" ووصية قد [illegible]"

١

٥٥ ٢١٤/٥
٥٦
ابحث

نجهل مصيرهم في بلاد مثل بلادنا؟ والله
يا جميل، اود ان احكم هذه الامة حكماً مطلقاً
شهراً واحداً. ومتى نُصبت المشانق
في ساحة البرج " يسلم العدد القليل اي
الاحرار المفكرون، وتنفتح لهم ابواب العمل
فتعزز اذ ذاك فلسفة رنان، ويتحقق
المثل الاعلى."
حلمه هو في النهاية
جميل: " ولكن الفوز في كل امة اجماع
للاحرار المفكرين. اما الاجماع فهم في
الحكام المستبدون والسياسيون النفعيون هم في
فرنسة وانكلترة مثلهم في تركية."
بترو: " ولكن الفرق بين رجالهم وشبه
الرجال عندنا..."
فقطع جميل الكلمة عليه قائلاً: " هذا
هو الفرق - رجال وشبه رجال. فمهمة
الاحرار المفكرين عندنا هي اصعب جداً من مهمة
الاحرار المفكرين في اوروبة واميركة. علينا نحن
الاحرار السعي لمحاربة الحاكم المستمر
ان نسعى لنجعل من الرجال رجالاً، ومن الرجال
لكي نكون نحن أشبه الرجال رجالاً. علينا ان تقتدي برنان،
احرار مفكرون. علينا ان تقتدي برنان،
وننبت في الجهاد."

٢٤٢

(١) اقلب   / الى

الحاشية

---

(١) كان من دعاة "الاستبداد العادل" —
فشاء القدر العابث أن يكون هو ~~انه يلوف~~
~~وعادا في حلقه~~
والمشانق.
من ضحاياها في الحرب العالمي.

٥٦ ٤١٧ اباليم

اني في ما اكتب الان ، وفي مجمل ما
تقدم من فصول هذه الرحلة ، انقل من مذكراتي
في تلك الايام ، واترجم من مقال لي في اللغة
الانكليزية كتبته لمجلة الـ "بوكمان"
النويوركية (١) ، كان اهل
منذ ربع قرن ، اي يوم جئنا ، سائلاً عن ضريح
عمشيت يعجبون لمن يجيء قريتهم
هنريت رنان ، شقيقة "ذلك الفرنسي
الكافر" ، وقد اجتمعنا يومئذ بكاهنه
بيبلس البيت الذي اقام فيه رنان ، وتوفيت
فيه هنريت ، وكتب فيه قسماً من "حياة
يسوع" . فقلنا لاول وهلة انه ولا شك
حر شجاع ، او انه لا يأبه بالذكريات ،
متخرج من [illegible] الشهير
وقد قيل لنا انه من سان سليبس
الذي درس رنان نفسه ، اي مهذب
بباريس ، وانه كاهن عصري ، في
الفكر والمذهب ، لما كان يراد من اللفظة في تلك

(١) The Renans in Syria —
The Bookman, February 1912

ابحم

تلك الايام. وعلى كل حال في
ولكنه على "عامريته"، ولا يخفي احتفاءه
لبيئته، كان يدعو ريان كافراً، وكأنه تخصص
حتى للزائرين المعجبين به.
في دروس اللاهوتية بعلم العقائد ~~[illegible]~~
والنبات ~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
قال ذلك المحترم ان احد اغنياء
اليهود استخدم ريان لكتابة كتابه
الذي استحسنه غير اليهود وانفسهم
والكفار من المسيحيين. وقال كذلك
ان شقيقة ريان، التي كانت تلبس
مثل الراهبات، وتدور الكنيسة مع اهل
القرية، ساعدته في تأليف ذلك الكتاب.
وهي واباه في الكفر سواء.
ولكن طوبيا، ابن اخت ريان،
شقيقته، رحب بنا ترحيب لبناني كريم،
فحدثنا في شتى الشؤون القروية والجبلية
ليبعدنا عن موضوع بحثنا، ثم دعانا
للغداء.

٥٨

للغداء، وافرح، وهو يسكب لنا من

خمره المعتق اللذيذ، عن بعض اعتقاداته الدينية كما روني لبناني. وقد تكون بعض

العقائد كالخمر المعتق، الا انها لا

تتكرر. وقلما تدخل على القلب السرور.

سألنا طوبيا بن زخيا عما عنده

من تذكارات زيارات الى والده، تترددا، وهو في حيرة من اهتمامنا

بمجمع الكلام، او نتكلم من

للامر، وفي خوف مما نقصد

قصدنا. وما الفائدة من الكتابة عن اشياء

منسية. او عن الاموات؟ وما الخير

في نبش القبور، وبعث البلى من

اكفانها؟

سمعنا كلام مضيفنا بما توجبه

اللياقة من الاعتبار، واستمررنا في الحديث

مستدرجين مطمئنين، ونحن نشعر انه يتقلقل

في رفضه، ويقترب في تقلقله من قلوبنا.

وما زاده في تغيير موقفه حديث الجميل

ذكرى جمال له في الازار وخزاياته"

تمثلت فيه نواعم التهكم والظرف.

فقال

الرحلة الثالثة

بلد جبيل

الشربيك ١ - ٢

«مقبرة» الخوري

٥٩

قال جميل يخاطب طوبيا: «زنان
من بلاد تشبه لبنان في عادات أهلها
ومعتقداتهم. في لبنان تحشو الأجراس
ليلة الغطاس مع الأشجار للسيد المسيح،
وفي بريتانيه، بلاد زنان، يوم خميس الغسل
من أسبوع الآلام، تجتمع الناس في الجبال حول
خرائب كنيسة القديسين منجا ثبل ليشاهدوا
الأجراس تسير الى روما ليباركها البابا.
ومثلما نشاهد نحن الأجراس تحشو للسيد
المسيح - يشاهدها بعين الإيمان طفلا - كان
الصبي زنان وشقيقته الغضة يشاهدان
تلك الأجراس، وهي تزغل بتحيات العبادة،
في الفضاء تطير الى روما لتحظى بالبركة الرسولية.»
ابتسم طوبيا ابتسامة ناعمة، فيها عذوبة الإيمان،
وقال وهو خارج من القاعة: الله قادر على كل شيء.
ثم عاد جميل الى شقيقته وبعض الأوراق
فأرانا صورة زنان مقدمة منه الى والده -
«الى صديقي القديم زخيا» وكتابا منه أيضا
الى صديقه العزيز يفصح فيه عن
الرغبة

٦٠

رغبته بان يضيفه في بيته اذا ما
زار باريس. اما البندقية فهي
هدية منه ومن شقيقته اعترافاً بفضل.
واهم من كل ذلك، في نظر طوبيا، كتاب
من الوزارة الخارجية الفرنسية يقول الكاتب
فيه ان جلالة الامبراطور امره بان يشكر
الموسيو زخيا على ما اسداه من المعروف
والمساعدة للبعثة الفينيقية اثناء
عملها في سورية

~~اما هذه~~

وبعد ان اعاد تلك الهدايا والتذكارات الذي
الى مكانها، مشى بنا الى الباب
الشمية الى الحجرة التي وضع
توقيت فيه هذه
الاستاذ رينان
وهو لا يزال هناك،
وهي لا تزال عندنا،
قال رينان: "ازدد في اخراجها من هذه
الجبال الجميلة، حيث قضت اوقاتاً عذبة، من بين هؤلاء
الناس الطيبين، الذين كانت تحبهم (١) لأضعها في
مقابرنا الكئيبة، التي كانت تبغضها."

(١) اقلب

٢٤٥

حاشية "تفتيش التهذيب" صحيفة ٩١

١١ "

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة الثامنة: عرزور

١. الصبي المطوّق
٢. الطوق الأقدس
٣. صخرة الرؤوس
٤. دائرة معارف القرية
٥. سطح مار شربل
٦. الجبابرة
٧. سفر القدّيسين
٨. جران وصاحبها
٩. في ظلال الأديرة
١٠. أخواتنا الفاتنات

٤١٨

الرحلة الثامنة

غَرْزوز

*

الصبي المطوَّق

١ - الطوق الاقدس ٦٢٠

٢ - حضرة الرؤوس ٩٤٠

٣ - دائرة معارف القرية ١٥٦٠

٤ - من سطح مار شربل ١٧٠٠

٥ - الجبابره ١٤٠٠

٦ - سفر القديسين ١٤٩٠

٧ - جران وصاحبه ٢٧٠٠

٨ - في ظلال الاديره ١٤٠٠

٩ - أخواتنا القانتات ١٢٠٠

١٠ - ١٤٧٠

١٤٢٤٠

—

=

من الرحلة الثامنة
في قلب لبنان

١

الصبي المطوّق

في العقد الثامن من القرن الماضي كان معمل الحرير بالقرية في اوج الاقبال، عامرًا بالمائة الكاملة من العمال والعاملات، تدير المائة من دواليبه المتلألئة بالخيوط الذهبية، المستخلصة من الشرانق في احواض المياه الساخنة. وكانت قوافل البغال المحمّلة شرانق تخب الى المعمل من كل حدب وصوب، وتحمل منه كل اسبوع بالات الحرير الى بيروت، لتُشحن الى مدينة ليون بفرنسه. وكان وكيل المعمل ببيروت يرسل المال ثمن الحرير [illegible] مجيديات عثمانية في اكياس من الكنفاص، تحملها تلك البغال عائدة الى القرية. ~~الى القرية~~

— تعالوا يا اولاد عدوا المجيديات، عدوها وصفوها في الصناديق.

وفي تلك الايام الفضية السعيدة، ايام القوافل المحملة حريرًا، العائدة من بيروت باحمال

ح/

من المجيديات ـ كان لاحد اصحاب المعمل ولد صغير
في الربيع الرابع من عمره، رأى بغلاً ذات يوم مربوطاً
بشجرة التوت امام الباب، فحدثته نفسه بالفروسية،
دنا من البغل وفك رسنه، ثم صعد الى الحافة،
ومنها الى ظهره. مشى البغل متباطئاً، متخففاً
فشل الصغير الرسن، ففهم ذو الاربعة، فتقلقل
امره، وراح يخب، ثم يعدو، في تلك الفينة،
المذكور معنى ذلك، وهوى الى الارض.
الفارس الصغير، رآه احد الجيران،
وهو بين الارض وجلال البغل (١)، وهرع
فصاح مستنجداً بمار انطونيوس ومار شليطا
وحمله دامي الرأس الى أمه. فلثمته، ولكن
الى الصغير ما كان بجرح مهمّاً، فما علم ان التأم،
الولد أُصيب بعد بضعة ايام بمرض في اذنه، شديد
الالم، تشبه الصديد، فحُمل الى طبيب بردانا المشهور
في تلك الايام، الدكتور نباره منسى، فوصف له
دواءً وحقنة. وكانت تلك الحقنة تزعج الصغير، وما اكرهت
في الشفاء. فتناولها ذات يوم من يد الخادمة،
وهي تحقن اذنه، وضربها بها على رأسها بعد
فانكسرت.

(١) القديس انطونيوس شفيع الاولاد، والقديس شليطا شفيع الدواب، في ملة بعض اللبنانيين واعتقادهم.

٤

انتخب

بعد يومين من هذا الحادث جاء القرية رجل من
غرزوز، كان يشتري الشرانق للمعمل. جاء للمحاسبة
فنزل ضيفاً على والد الصغير المصاب باذنه. فقصت
الام عليه القصة المكررة، وطمأنها قائلاً: الدواء
عندنا. ان شاء الله.
وما الدواء؟ اخبر ذلك الغرزوزي التقي الامَّ النقية
ان في ناحية البترون قديساً جديداً ينشر العجائب، هو
قديس كفيفان، وذكر بعض عجائبه، ثم قال: انذري
لقديس كفيفان عليه السلام، رطلاً من الشمع واقة
من البخور وخمسة مجيديات.
فنذرت الام لذلك القديس
وبعد ان عاد الغرزوزي الى بيته ارسل اليها طوقاً
من الفضة حاوية من الذخيرة كفيفان للولد الصغير القرية. وهي مشترة
وباتت تنتظر الاعجوبة.
فالمسح الام ابنها، بشتى الادوية،
في صالح اذن صغيرها بشتى الادوية ولكنه كان افضل الادوية
تعالج القديس املها. ولم يشف الصغير كل
ما خيب القديس املها. فلم يشف الصغير كل
لطيفاً في عمله. من تطويق عنقه بالطوق
وقبل الخفة، شهرين من
الشفاء الا بعد . لبنان
الكفيفاني المقدس. الصغير
وفي تلك الاثناء جاء والد الصغير لبنان
صديقه ليدعوه وعائلته لزيارته بغرزوز.
فقلق

٢٠٠

فانكسرت ،

فتلقت الأم الدعوة فرحة وقالت: نزور
عزوز وديك نقيعان. فقال الزوج المحب: كما
تريدين.
جاء اليوم السعيد، يوم السفر، فارتدت الست
فستانًا من الأطلس الأسود، واعتصبت بعصابة من
جنسه ولونه، ثم تعلقت بعنقها في سلسلة
من الذهب تدلت على صدرها. ولبس الخواجا سروالًا منفوخًا
من الجوخ الكحلي اللون، شدها بمنطقة عريضة من الحرير
المخطط، يختفي نصفها من وراء ومن الجانبين، كما
أدكبران ومطرز الأطراف كجيبتي السراويل، وتبدو
من أمام كالهوش الفخم لصدرية سوداء، ذات
عشرين زرًا، فرزواره في أسفلها وأعلاها،
ليظهر من خلال وسطها القميص الحرير الملشم
لونه الأصفر بلون المنطقة. قديس كفيعان، فقد
لطوق ~~الخد~~ تبس
أما صغيرهما المطوق مشدود الوسط
كان يرفل في قنباز مخطط معصفر، [illegible] على رأسه طربوش
بمنطقة من طراز منطقة أبيه، وفي رجليه حذاء لماع [illegible] عراه
تعلوه لوفية بيضاء، وكان وهو يمشي يرفق ذنبه
من النحاس الأصفر. والخيلاء،
الحذاء ~~[illegible]~~ يعيني العجب
وهذا رطل الشمع – وهذه أقة البخور –
اصفهان

ضعها، يا جرجس، في الخرج.

وكان الخادم جرجس قد انجز والمكاري تجهيز البغلة والبغل بما تستوجبه راحة المسافرين وسلامتهم من رُكب ووسائد وسجادات.

رسمت السيدة شارة الصليب على وجهها، واعتلت بمساعدة جرجس ظهر البغلة، فتمكنت في جلستها، ثم اجلست الصبي المطوّق امامها، فمشى المكاري حينا الى جانب البغل مركوب، ومشى جرجس الى جانب بغلة الوالدة، الوالدة و— الى كفنفان!

الى عزروز؛ استغفر الله.. هي رحلة العائلة المقدسة، هي رحلة عائلة رافقتها القداسة، طوق القداسة عنق صغيرها، ذلك الصغير هو الآن كاتب هذه السطور، وتلك الرحلة هي اول رحلاته في هذه الدنيا.

—

٢٥١

٢٥٢

٦

٢

الطوق الاقدس

القداسة أُمّ الايمان - والايمان حجّته
القداسة المعروفة بالكرامات والمعجزات . فاذا
كنت من المشككين ، فلا دواء لعينيك ، ولا
لقلبك .
واذا كنت متعصباً لدينك او لمذهبك او لطائفتك ،
فالطهارة تشفيك من تعصبك ، ولو وقتياً ، كما
يشفيك القديس من مرضك . تعالوا
— تعالوا الى ، يا اولي القلوب الطاهرة .
الى قلوب الصبيان ،
الى قلوب . القداسة المعروفة بالكرامات والمعجزات
اجل ، ان القداسة والاديان ، فتجتذب البشر قلوباً
لتعدو حدود الطوائف والاديان ، مسيحيين كانوا او مسلمين ، او عبدة احجار
المؤمنين ، اذا كان صاحب القداسة لبنانياً
وثنيين . على الاخص اذا كان صاحب المعجزات على يده . فان
ينقل الله دعوته ، ويأذن بالمعجزات على اجنحة
لتسري سري البرق في قرى الجبل ، على اجنحة
ذكره ، فتجيئه ذوو الامراض
الايمان والسنة الطهارة ، رجال ونساء ، مستشفعين
المهنة والعاهات ، مستغيثين

٧

مستشفيين. يجيئون من كل صوب وحدب.

ويجئ الدرزي قبل الماروني، والمتولي قبل الدرزي،

والارثوذكسي المستقيم الرأي قبل الجميع

فلا عجب اذا كان ~~...~~ عازار العرزوزي

الارثوذكسي من الذين سمعوا بالقديس كفيفان،

وآمنوا به، وراحوا يبشرون بعجائبه. ولا عجب، وهو

الصديق الحميم، اذا سارع الى انقاذ ابن صديقه مما كان

ينذر بالصمم، فارسل اليه ذلك الطوق المقدس،

الحامل الشفاء والعافية، مع البركة والنعمة،

وها هوذا الصغير المطوق، مع والدته في عرزوز،

وصلوها سالمين معافين، ونزلوا ضيوفا مكرمين على ~~...~~

السيد عازار، بل على آل عازار ~~...~~ باجمعهم، بل على عرزوز

العامرة جمعاء. وهي تعيد ذكرى تلك الزيارة:

كانت والذي تقول وكنا كل يوم في عزيمة."

يقينا عندهم عشرة ايام، هي عشرة اعياد، كانت تذبح فيها الاغنام

عشرة ايام هي الضيافة

وتفض اختام خوابي النبيذ المعتق.

اللبنانية التي اشترت البلاد مرارا في ما تقدم من فصول

هذا الكتاب. شهدتها لاول مرة في الربع الرابع

من عمري، يوم كانت الذاكرة لبنت سنتيتها، الا

٨ ٤٥٦

لا تعي غير العليل الرائع اد المروّع من
المرئيات والمحسوسات.
فاني في ما قلت في الفصل السابق، وفي ما انا
قائل الان، انقل ما كانت تقصه الوالدة علينا في
سنوات الحبو. ولكني لا ازال اذكر اربعة
اشياء، واتمثلها كما كانت، او كما حدثت منذ
خمس وخمسين سنة. اولها ذلك البغل الذي رماني
الى الارض وكاد يكسر رأسي. وثانيها تلك
الجفنة التي كسرتها انا على رأس الخادمة ما انا الا
ازال اذكر اسمها: مارية*، كأننا نقطة
ازال اذكر ابتهاجي من رحلة ٦ اوز ركوبي البغلة
ومجازفتي في النزهة عندما كنا نهبط او
واديا، وتطويقها لي بذراعيها عندما كنا نهبط او
نصعد في الطريق. وما نسيت فرحي بالطوق الفضي،
والحذاء الاسود اللماع الطويل، ذي العرى العديدة
الصفراء. اما ما سوى ذلك فالعهدة فيه على أم امين.
فقد اخبرتني ان الضيافات كادت تحول دون رغبتها
الاولى، وقصدها الاكبر، اي زيارة الدير بكفيفان ووفائها
بالنذر لقديسه، لولا جسارة نشأت من عزمها وشدة
ايمانها. وقد لقيت في بيت عازار [illegible] شريكة لها في
العزم والجسارة هي زوجة مضيفنا: فاتفقت
السيدتان على الرحيل باكرا، قبل الفجر، ساعة يكون
الرجال نائمين، واوعزتا الى المكاريين باعداد
الزاد

٢٥٤

٤٧ ٨

الزاد وتجهيز الركائب.

ولقد شارت رفيقة الى ان يكون الصبي

المطوّق، الذي احببته كثيراً، رفيقها على ظهر دابتها.

فسألت الوالده: وهل رضي ذلك الصبي بان

يفترق عن امه؟ فقالت: نسي امه.

وعندما كنت اسألها: وهل كانت رفيقتك

جميلة مثلك؟ كانت تقول مبتسمه، وبلهجة فيها

عذوبة الوحي: واحرتي. انا جميلة؟ انا

امرأة جدتنا الفرزوزي فقد كانت بارعة فيه

الجمال

- أثبتت تلك الجميلة رجلها في

الركاب، ثم تناولت الرسن من المكاري بيمناها،

وعقفت يسراها على ناصيتي الى صدرها

- وهذه نجمة الصبح - الزهرة - تشيعنا،

وتدعو لنا بالخير والسلامة.

سرنا من غزرون في طريقنا الجبل شرقاً فشمالاً،

فناحية جبيل الى ناحية البترون. سرنا سير الهوينا

كما تقول عرب البادية، فمررنا بقريتي معاد وصغار،

ثم بدير مار يوسف جربته، ووقفنا في منتصف

الطريق للاستراحة والغداء. ثم استأنفنا السير

فوصلنا الى دير كفيفان قبل الغروب

(اقلب)

وبعد ان زرنا الكنيسة، وقفنا امام
تابوت القديسة المعروفة جثمانه كاملاً،
دون ان يبلى شيء منه
زرنا

اتبع – في صفحة ١٠

[illegible]

٦

١٠

زرنا رئيس الدير، فقدمت له الوالدة رطل الشمع نذراً
واقة البخور والخمسة المجيديات، فتقبلها
للقديس وباسمه، ورفع يده فوق رأسي
مصلياً مباركاً. ثم دعا السيدتين للعشاء،
وامر بعدئذ الراهب الخادم بان يعد لهما غرفة النوم
ولكنهما، طمعاً ببركة القديس الكاملة، فضلتا
الكنيسة على الغرفة، ففرش لهما فيها.
– ونام الصبي بين امه ورفيقتها الجميلة نوم
الملائكة الاطفال. ولكنه حلم، على ما يظهر، بالجنان
الذي رأى في التابوت، فاستفاق مذعوراً، وسمع،
وهو يبكي، صوتاً لطيفاً يناديه باسمه ويقول: لا تخف،
يا حبيبي، لا تخف. فظنه صوت امه، او صوت
المرأة التي كان نائماً بين ذراعيها، فعاد اليهما
هادئ البال مطمئناً. ولكن امه، التي
استيقظت لذلك الصراخ، قالت انها سمعت
الصوت، وانه صوت القديس نعمان عليه السلام
وعندما ذكرت ~~الحادث الخطير~~ الاعجوبة صباح اليوم التالي
[illegible] قد لا [illegible] لسبب لم ادركه يومئذ
[illegible] خمسة وخمسين سنة، ان اقول
ما انكرت، اني اسر اليوم لعجيبة في سكونها شعور
ولست ادركه. فهل رغبت في شعوراً آخر تقترن الصغير به؟
اني [illegible] ام
لست ادري، ولكني

٢٠٠

١١ ٤٨٤

ابراهيم

ولكني كنت اناقش الوالدة في الموضوع كلما
اعدنا ذكر تلك الزيارة. فتنتهي المناقشة
بقولي ان الصوت الذي سمعت هو صوت امرأة،
وبقولها انه صوت القديس، قديسة كفيفان،
عليه السلام. ما كنت في مخالفتي مكذباً لها، بل مثبتاً
ظني الاول، لما استفقت
بناءً على روايتها، مذعوراً باكياً،
من نومتي في الكنيسة. فحسبت
فهل اصم القديس طرقة سمعي
صوته صوت امرأة، ام هل شفاني كل الشفاء
فاستطعت ان اميز بين صوت المرأة
وصوت الرجل؟ انه في الحال الاولى مسؤول
عن خطاي، وانه في الثانية جدير بالحمد والثناء.
اعيد في كلا الحالين ما اقتنعت به هذا
الايمان. ولكني اسائل
الفضل: القداسة ام الايمان؟ اين ذهب
ذي النفس الحائرة حجرة كاوية في تلك الايام —
القداسة التي غمرتني، والقداسة التي طوقتني
قداسة طوق كفيفان، والقداسة المزروعة في كنيسة
بها دعا تلك الحسناء

القديس؟

١٢

القديس؟ فهل تزال مضطجعة هناك امام
ذلك التابوت المسجّى فيه الجثمان الطاهر، ام
هو هي مسجّاة في تابوت الزمان،
بين شموع السنين المطفئية؟

لله من هذا الزمان. يشعل في الروح
شموع القلق، ثم يطفئها. يعلّم فيورث
الأسى والآلام. يعطينا النزر من المعرفة،
ويحرمنا الوفر من الطهارة والنعمة. يفتح العقل
فيتفتح الرأس، ويفتح القلب فيفرغ.
ولعد ذلك الانتفاخ وهذا الفراغ الموت،
هذا اذا كنت لا تسارع الى الطبيب الاكبر
الى مستشفى الروح. (٢٥٦) الموت، هناك، في
وهناك، في ذلك المستشفى - هناك، في
الكنيسة الكونية - تنام ليلة واحدة، وطوقا
بالطوق الاقدس، بين ذراعي الله، وتنهض في
اليوم التالي باكرا، لتغسل قلبك وعقلك
بنور الشمس. لعد ذلك تعود الى الحياة ظافرا بالمعرفة
والنعمة، وكل النعمة في السكينة والاطمئنان.

٢٥٧

١٣

٢

صخرة الرويّس

في جوار عرزوز، على ربع ساعة منها، غربا
بجنوب، الصخرة طويلة قرشيّة، تشرف على البر
والبحر دونها، يؤمها اهل البلدة للنزهة،
فاسموها المنتزه، او منتزه الرويّس.
"المنتزه"؟ وفي عرزوز منبت للشعر
والادب. وعلم اللغة؟ ان ذلك لعجيب. واعجب
منه ان شعراء عرزوز وادباءها واساتيذها
يجهلون او يتجاهلون ما تجدد من اللغة، وطعّم
وعرّب في بستانها المصري العصري، الذي تجرّه
اليه المياه من الجامعة، وتحمل اليه السماد من
الازهر. فقد طعّمت فيه "جديد جدًّا"، وازدهرت جدّ
فنًّا، فنمت جدّ جديد، "فحسب"،
ازدهار. وقد جدّدت فيه البستان بها، وتمغّصت
فاعشوشبت ارض البستان، وصار كل بستاني يزرع
بالقمح والبلان، او الاتيتيب من الجمعية
يغرس في بستانه
الزراعية العربية، شجرة التمدن القديمة العهد،
وقد قطعوا التمدين،
الاغصان منها، فالقحوه بلقاح فنما

فنما الغلط الجديد نموا عجيبا، وتهافت عليه
الزُرّاع من سائر الاقطار يبتغون المطاعم،
وهاكم غلطا جديدا يندر وجوده في البساتين،
وقد يندر حتى في مثل الروض العاطر، لنزهة الخاطر:
هو الاشتقاق الحديث من هذه المادة، التي أغار
عليها الكتاب المجددون، فصارت للخاطر نزهةً،
بعد ان كانت عفةً وصوناً للقلوب.
انا نحار في ما يريد اساطين اللغة.
فالقاموس يقول: نزّه الابل عن الماء اي ابعدها.
ويقول: تنزّه اي تباعد عن المياه والارياف.
فهل اشتقوا المُتَنَزَّه من تنزّه، وعلّوا
معناها، فاطلقوها على كل مكان يطلب المرء فيه
سلوًّا للسأم والضجر والغم؟ ام هل يريدون
التنزّه عن القبائح، والتباعد عن الاقذار؟
ومما جاء كذلك في القاموس، نقلا عن ابن
السكيت في فصل ما تضعه العامة في غير موضعه:
خرجنا نتنزه، اذا خرجوا الى البساتين. وانما
التنزه التباعد عن الارياف والمياه.
فهل يجوز لارباب بستان اللغة او يليق
بهم، وهم يأخذون الاغراض الجديدة من المجامعة،
ان يتمرّدون

مستغيثين. من كل حدب يجيئون،

الدرزي قبل الماروني، والماروني قبل

فنما الغرس الجديد نمواً عجيباً، وتهافت عليه
الزراع تترا من سائر الاقطار، يبتغون المطامع،
وهاكم غرساً جديداً، يندر وجوده في البساتين،
وقد يندر حتى في مثل الروض العاطر، لنزهة الخاطر،
هو الاشتقاق الحديث من هذه المادة، التي أغار
عليها الكتاب المجددون، فصارت للخاطر نزهةً،
بعد ان كانت عفةً وصوناً للقلوب.
انا محتار في ما يريد اساطين اللغة.
فالقاموس يقول: نزّه الابل عن الماء اي ابعدها.
ويقول: تنزّه اي تباعد عن المياه والارياف.
فهل اشتقوا المتنزّه من تنزّه، وعلموا
معناها، فاطلقوها على كل مكان يطلب المرء فيه
سمّاً للسأم والضجر والغم؟ ام هل يريدون
التنزّه عن القبائح، والتباعد عن الاقذار؟
ومما جاء كذلك في القاموس، نقلاً عن ابن
السكيت في فصل ما تضعه العامة في غير موضعه:
خرجنا نتنزه، اذا خرجوا الى البساتين. وانما
التنزه التباعد عن الارياف والمياه.
فهل يجوز لارباب بستان اللغة، او يليق
بهن وهم يأخذون الاغراس الجديدة من المجامعة،
ان يجددون

١٠

زرنا رئيس الدير، فقدمت له الوالدة النذر -
الشمع والبخور وخمس المجيديات

١٥

ويتمدّنون ارضها بالسماد الازهري، ان تفرسوا
من اغراض العامة فيه، وليفتحوا لها خاطراً عصرياً؟
وهل تجد، رعى الله ذوقك السليم، شيئاً من
الفرح او الراحة او النزهة في المتنزَّه الذي
لا يؤمه غير المتمدّنين، المتمدّنين جداً؟
لست منكراً ما في القاموس، ولست طامعاً
بان ازيد عليه، ولكنني، وانا اتفيأ شجرة
الذوق في الروض الازهري، اسأل هذا السؤال:
اذا خلت اشتقاقات نزه من التنزه، وكان معنى
تنزه على المطلوب والمفهوم، فهل يجيز القياس
او السماع التنزه غير اسم المكان فيها ~~ـ~~ الاسم
الذي اصبح معلوماً مفهوماً، وهو فوق ذلك خفيف
لطيف، لا اثر للتحذلق فيه؟ ان كل ما يجيء من احكامكم
فيا اصحاب العاصمة اللغوية ~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
وكلامكم ~~[illegible]~~ ، ان الشدَّة في
~~والذوق السليم~~ الفخامة التجديدية
ويا اصحاب متنزَّه ومنتزَّه، وان الفرق بين
متنزَّه غير هاتي بين الورم في ظهر البعير والسنام،
الانتفاخ لكالفرق ~~[illegible]~~ بين الشحم والورم؟
فهل تفرقون بين المرض والصحة
حكموا

وكلامكم شريف كريم، ومزاجه من تسنيم،
الا كذلغة، والإعراب، والذوق السقيم،

حسنيه ٢٢٩١

٠١

حكّموا الذوق، لا عدمتموه، في شدّة متنزّه
تجدوا فيها ثلاثة عيوب: فالعين تستنكر صعودها،
والأذن تستثقل وقعها، واللسان يمجّ اقترانها
بالميم والتاء. في المتنزّه موت الروح، وتنزّه
الجروح. أما المتنزَه فإن فيه الحسّ، وإن
في الحركات الثلاث بعدها سهولة ولطفاً
وسلامة لطالبي النزهة، وتجدها في المتنزَه،
لذلك تطلب النزهة وتجدها في المتنزَه. ولذلك
ولا تطلبها ولا تجدها في المتنزّه، ولذلك هنأتهم
هنأت أهل غزراوز على سلامة ذوقهم، وهنأتهم
بذلك المتنزه الذي يسمّونه معرض الفتيات
والفتيان. وكان بين الفتيات فتاة بداعب الأدب قلبها،
حادة النظرات. تبسمت
مليحة وضيحة، ناعمة اليد، ذكرني بمن حدثتك عنها
في عينيها برقاً قديماً، ذكرى تلك الغزراوزية الحسناء، حاضنتي
في الفصل السابق، تلك التي حملتني الى
على ظهر بغلها في الطريق الى كفنفان، ضاقتني الى
صدرها ليلة الكنيسة الخالدة.
بل خلقتها، وقد عادت الى هذا الوجود، مجددة
ذات النظرات الحادة البارقة. وما
في محدثتي الفاتنة، ذات النظرات الحادة البارقة، بعد ضياع
الذي يبرر الخيال، أو يبيح الذكرى، الإكبار

مستغفرين ، يجيئون من كل

الإكسير الذي يحوّل القبلة البشرية الى قبلة ملكية؟

لقد احببت ان اضم المليحة الفصيحة الى صدري، اكراماً
لتلك الخنساء ابنة بلدتها التي ضمتني الى صدرها
منذ خمس وخمسين سنة، فاشعر نفسي في الكنيسة ثانية،
اقوم بواجب الجميل المقدس، امام صورة القديسة.

ولكنك مقيد يا هذا بقيود صاغها
الزمان والانسان. فلو ملكتك إكسير الطهارة من
شوق قلبك، فما تفعل بشتم المجتمع البشري؟
ولو قالت الطبيعة: لكم القدوة الصالحة في
الطيور، ولو قالت الكنيسة: طوبى للقلوب
الطاهرة، فماذا يقول العقل المتحجر، وماذا
تقول الاعصاب الهائجة، وماذا تقول العوامل
الكيماوية، في الغدد الأنثية؟ . . .

ولقد قالت المليحة الفصيحة انها تحترم الذكرى
— ولقد التي حملتني على الزيارة الثانية لفرزوز. ولقد
لزمتني كالظل — الخفيف — في جولاتي التذكارية،
ولقد انتدبت نفسها للقيام بواجب الترحيب
وبفتح الابواب التي وقف القلب امام صورها ٢٦٢
القديمة، تحت سرادق التحنان والشجى
ولكنها في اختفائها مختفية، فكانت تسأل هي غيرة
كل مرة تجيب على سؤال السائلة

[illegible]

١٠

زرنا رئيس الدير فقدمت له الوالدة النذر -
الشمع والبخور والخمسة المجيديات، فقبل الجميع
باسم القديس شاكراً، ورفع يده فوق

سؤالات .
— وما معنى التجدد في الأدب ؟ — ومن هو أكبر شاعر
من شعرائنا اللبنانيين ؟ — وهل تفضل الشعر المنثور على
المنظوم ؟ — وماذا يعني الصحافيون بقولهم شاعر
المناسبات ؟ سؤال يتلو سؤالاً . وأنا في الطريق أحاول أن
أستوعب شيئاً من المشهد حولي ، فتحول نظراتها
دون ذلك ؛ وتحول نغمات صوتها دون ذلك :
ثم استوقفتني لتطرح هذا السؤال :
هل ترى في الشعر الباكي ، كما تسميه ، أو شعر
القلوب المحزونة والقلوب المكسّرة — كما قالت
بالطبيعة ” بالكهجة اللبنانية ، وقالتها ضاحكة —
هل ترى في هذا الشعر شيئاً من الجمال ؟ وهل
تحرم الأحزان ، وحرقات القلب شعراً سلبياً ،
شعراً يعزيها ؟ فشعرت وأنا أرمقها
بنظرة ، تعثّر القلب فيها ، أني على شفير هاوية .
كان القوم قد تقدمونا . فقد كنا في جادة
ضيقة ، بين صخرتين . وفي الجادة درجة عالية ، فأخذت
بيدها لأساعدها ، فلمست الندى في صدرها الناهد
ولبست الخفقة بأول خطر من الخيال .
فارعت بي من ذلك المضيق . ثم قلت ، ونحن في
فجوة السلامة : تظهر أنك ناقمة على الحماوي على
الأدب الباكي .

١٩

ـ لا، وحياتك، ولكني احب شعر بشاره
الخوري، واحب جبران، واحب كل ما يكتبه
الاستاذ الرجاني. عجلي:
ـ كل ما يكتبه؟ انت مجامله.

فقد سبقنا القوم،
وكان ~~ابرهيم~~ ابرهيم حقي وجبرائيل عزروزي،
قد تخلفا عنهم وهما ينتظراننا. فرماني جبرائيل
بنظرة خبيثة، وابتسم ابرهيم ابتسامة حزينة،
وضحكت الفتاة ضحكة شردت ما الحمراء،
وقالت:
ـ الاستاذ الرجاني نادر، عزاوزه كل حسنه
وانا عاشقة ادبه، اريد ان اتزود
منه.
ما استطعت منه:
فاجابها ابراهيم ـ وقد عرف انه يكره
النساء ويعبدهن، يكرههن مجموعات، ويعبدهن فردا
فردا، ويحب بالجزار وافناله، وان قلوا في هذا
الزمان ـ اجابها بصراحته المعهوده: ولكن عشق
النساء واحد، وان تعددت اسماؤه واسبابه.
واحد لا ~~يتعدد~~ غيره ولا يتبغى،
فاحمر وجه الفتاة خجلا، واشاحت به عنه،
تمرد عليه بقي الثاني جبرائيل عزروزي:
ـ وجبرائيل

وجبرائيل يجمع في شخصه اربعة اساتيذ.
فهو الاستاذ الخياط، والاستاذ الساعاتي، والاستاذ
الشاعر صاحب البيت المشهور في القرية المباركة.(1)

يا غزوز يا غزوز
غزوز يا غزوز مغامز ورموز
في ناظريك

وتهوى لذكره النساء،
مع ذلك
وهو الاستاذ الكبير في العزوبة. ولا اظن الا احداً من اصدقائه يعرف
والاكيسهن. ولا اظن - بين اللاذكرة واللاحب -
اذا كان هناك شيئاً هادئاً.
وضعي عملي.
شئ، جبرائيل كلام ابراهيم
سمع جبرائيل بوجهها اليه قال!
وعندما مالت المليحة بوجهها اليه
المرأة لم تولد بعد.
الرجل الذي يعرف ما في قلب المرأة كثيراً انما الذين
فالذين يدعونه لا يختلفون، يا حضرة الآنسة، عند الله.
يجحدون، والحقيقة الاثنين! انت
فقالت وهي تعرض عنه الاثنين! انسان. وحضرته
يا جبرائيل شيطان في صورة انسان في صورة شيطان.
لـ وهي تشير الى ابراهيم) انسان في صورة شيطان.
وكنا قد دنونا من الصخرة، فنادت الفتيات
فهمن في
رفقتنا، وسارع لمصافحتهن البعض
اذنها

(1) غزوز والقرى المجاورة لها تدعى قرنة جبيل.

٢٤٥

٢١

٧١

ورحن

٣٦٤ أذنيها كلمات، تمتمها قهقهات،

الى أنس

طيبة الأثير.

يتشدن جميعاً: انها جميلة.

قال ابراهيم لجبرائيل: ارتخت نفسه.

فقال جبرائيل لي: تستحقان أن ترميا

فقلت للاثنين:

من رأس هذه الصخرة، عشق الأديب

وكان واقفاً هنا ذات [illegible] مشرق الوجه، صاحب

العصامي، أديب غزرواي، الدكتور أوليفر، في المجلة التي

رأى الحق. وقف أديب على رأس الصخرة

يكررها له.

ينتظرنا لنجوم بواجب الدليل

هوذا منتزه الروشة، محط رحال

الشعراء والعشاق. وهوذا المشهد الذي

يمتد أمامهم من عمشيت الى جبيل، الى

~~الكلب~~ نهر ابراهيم الى بيروت. ليبدأ انبساطه

حقاً انه لبعيد المدى، البحر،

من الارض تنحدر انحداراً هادئاً الى البحر

وينتهي بقطعة من البحر تمتد الى العاصمة

اللبنانية. وبينها اربعة رؤوس من البر،

يبعد الواحد عن الآخر نحو عشرة كيلومترات.

رؤوسها وأقصاها عند نهر ابراهيم، وثانيها، وهو

الاطول

الطول من الاول عند جونيه ، والثالث عند
نهر الكلب ، والرأس الاخير ، وهو اطول
الاربعة ، يحمل مدينة بيروت .
وهناك جنوباً تقرب على رابية ، اسمها
المنزله ، دير قديم يعود الى القرن السابع
ويعرف اليوم بدير الوزيعب شهيدا .
هناك كانت عرازوز القديمة ، يوم كان
المكان حافلاً ~~الينابيع~~ بالمياه . فنزح الاهالي عندما
جفت العيون ، على ما نظن ، واسسوا [illegible]
عرازوز جديدة حيث هي البلدة اليوم
وذلك الوادي الصغير تحت المنزله ،
يدعى زير الغزاله ، اذكره لاضيف لفظة وضعية
الى الالفاظ اللبنانية في وصف انواع الارض
واشكالها . فالجل المعارض في وادٍ او في
سفح جبل ، الى جنب ساقية او غدير ، تسمى
في هذه الناحية زيره ، تجمع على زير .
جلسنا للحديث ، فتنوع وتشعب
وتلون تلون كالارض حولنا . فضرب الاديب بسهم
فيه ، واعادت الفتاة الاديبة الكرة علي
بالسؤالات ، فكنت اجيب على بعضها بما
تحملني

يمكنني الصبر، واحوّل السهام الاخر الى
مواضيع للمناقشة، فيتناقشون ويكتبون (الفنيان والفنيات)
فأذكر انا بالهدية التي كنت ارغب بها
كان الاديب في القرن الماضي اذا شاء
التمثل ببيت من الشعر، يذكر الشعر باسمه، توكيداً
واحتراماً. مثال ذلك: وعسى ان يتمهد
لي العذر في هذا التساهل الذي ارتكبه، شعره.

وقد يتزيّا بالهوى غير اهله
ويستصحب الانسان من لا يلائمه

واني احب ان احلّي هذه الصفحة بتلك الحلية
(اوثبت بدل الشعرية الصحيحة) فاقول: عسى ان يتمهد للاديب طريق
الادبية، في تساهل يرتكبه يوم يزور صحبه
السعادة نصيحة
في الغربة. على الاديب الذي يزور بلده وله شيء من
الشهرة فيها ان يعد العدة لجميع الطوارئ والمفاجآت
العلمية والشعرية والسياسية
الفكرية والوجدانية والغرامية.
والزراعية واللاهوتية من ذخيرة، وزاده هو الشعر
واول ما يحتاج اليه واقرأ منه، وخصوصاً من الشعر
الغزلي. فلتردد قطعاً وليقرأ بضع صفحات من كتاب القديسين
نزراً اللاهوتي. وليراجع قواعد التلقيح وغرس
الاشجار في كتب الزراعة. وليكن له رأي

جرج

في السياسات الدولية والوطنية.

جورج عاصم في الشعر
ونظرات محددة في سائر العلوم. فلا
بد لشاعر القرية او كاهنها او فلاحها او
سائسها او [illegible] او عالمها ان
يشارك في الفحص ليتيقن ويقتنع
ان زائرهم الكريم هو حقاً شيخ الادباء، او
امير الشعراء، او العالم الفيلسوف الذائع الصيت.
فيعود الى بيته، ويقول لامرأته، او لبقرته:
ما اجمل العلم، يا بنت الحلال، وما اشرف وأعز
صاحبه! او انه يقول: ما اكذب الجرائد والمجلات
التي تطبل وتزمر لهذا.. "الاستاذ الاكبر" او
"الفيلسوف الاكبر"! فهو لا يعلم، يا
بنت الحلال، اذا كانت الدجاجة ولدت البيضة
او البيضة الدجاجة. ولا يعلم اين نصف الارض.
ولا يعلم من اين تجيء الدودة التي تأكل الكرمة.
ولا يعلم عدد جروح المسيح - ولا - ولا . .
لذلك ليستعد الاديب الشهير لاساتذة
القرية الفاحصين، اذا شاء ان يعود من رحلته
ظافراً بشهادة الباكالوريا العالية.

٢٥

٤

دائرة معارف القرية

غرزوز قائمة على ذراع جبلٍ بين وادي
العقيبة ووادي الحوراف. اراضيها مفرطحة،
لا تتزاحم فيها الروابي. وهي جرداء في الجهة
الغربية - نسبيًا - خضراء في الجهات الاخرى.
هواؤها "صخري" كما يقول الغرازنة،
اي انه جاف منعش، يطرد الامراض
والاسقام من القرية، بل من القرنة جمعاء.
والقرنة هذه تسمّى في الجغرافية اللبنانية
قرنة جبيل، فيها سبع قرى قديمة، هي
الريحانية وحدايل وشيخان والمنصف وبجعاز
والبرباره وغرزوز. وهي تعرف طائفيًا
بقرنة الروم، اصحاب الرأي المستقيم في الدنيا
والدين منذ الازل. وهم لا يزالون محشورين
في هذه القرنة رغم فناء كسروان المارونية،
دون ان يتزحزح فيهم ذلك الرأي المذكور.
على ان المبشرين البروتستنت
غزوا غرزوز في هذا الزمان الاخير اي
/ منذ

٢٦

منذ ستين او سبعين سنه - يوم كان خبز
البشر لينّاً هيّناً - فعلق في شراكهم بعض
اصحاب الرأي المستقيم، فأسس حاملو
الانجيل في جيوبهم من خلف مدرسة
واولاد "المهتدين" بغرزوز. الى المدرسة
الاميركانيه التي لا تزال في قيد الحياة، تمتص
قوتها من ايدي ثلاث - قليلاً من
الارسالية البروتستنتية في بيروت، وقليلاً
من الاسقفيه الانكليزيه في جبل لبنان،
وقليلاً من اهل التلاميذ الذين يخرجونها من
المدارس في هذا الزمان ولا رأي لهم في الدين
غير ما كان مقبولا معوجا
وفي هذه القرية المباركه، ذات السبع
القرى، نبغ من الشعراء والادباء والصحافيين
ما يكفي لتخليد مجد الملة باجمعها. اذكر منهم
سليم بن يوسف جبور عازار، الذي حمل
الشعراء عناء العبقرية الى الولايات الاميركيه المتحدة
فخر هذا الجيل. ثم عاد به الى مصر، فاراحه الله
من عناء يقول سبحانه وتعالى مسلّياً الى جوار،
هناك، وهو في ربيع الشباب، ليغرد له في
قفص

٢٧

قفصه الفردوس .
ومن شعرائها نعمه الحاج ، الذي لا
يزال يغرد في سويعات الشفق ، من حين الى حين ،
بين القندولتين ، البيت والدكان ، في المهجر .
ومنهم الشاعر القروي المشهور ، رشيد الخوري ،
المولود في البربارة ، المقيم في قرية « بربارية »
في البرازيل ، فيغرد هناك تغريد القبّرة
لوطنيه العربي والشعري . ليل نهار ،
فلا يتعب هو ، ولا الابنا من معوه .
اما الادباء والصحافيون فان عددهم لا يحصى .
منهم من جالوا جولات منهكات في ميدان الادب
والصحافه ، فلطف الله بهم ، ومنهم من لطفوا
بانفسهم ، فخرجوا من الميدان غانمين السلامه ،
وحلبوا للشهرة والمجد ظهر المجنّ ، ومنهم من
لا يزالون في الحلبة يغالبون الاقدار ،
ويجددون ، والنبوغ عهد الجوار .
اذكر من هؤلاء يوسف شهاب الغزوزي
مؤلف كتاب « ماهو اللون » . ماهو اللون ؟
يجيب :

يجيب الاستاذ يوسف عن هذا السؤال بما يقصر دونه
علماء البيولوجيا والجيولوجيا والمثيولوجيا جميعاً
وهو فوق ذلك ينظم الشعر، فيذكّر بالحديث الذي
دار ذات يوم بين النملة والجُدجُد. قالت النملة:
اين كنت يوم الحصائد؟ فاجابها الجُدجد:
[illegible]
كنت احمل قصائد.

[illegible]
والاستاذ يوسف النابه لقب اجداده هو من
آل شهاب، الذين نزحوا الى بلاد جبيل في القرن
الماضي، فراراً من نقمة والي الشام عليهم
وحكاية ذلك بداءة معارف اقول انه في سنة
١٨٦٠ حدث خلاف بين الشهابيين ووالي الشام،
فثار الامير منصور واخوه الامير علي على الوالي فقتلاه،
فبلغ الخبر الصدر الاعظم محمد الكبرلي يومئذٍ، فكبّر
وتجبّر. ثم ارسل ابنه احمد والياً على الشام،
فجاء الوالي الجديد
وسيفاً على الشهابيين. فنفّذ اوامر الباب العالي الدموية في بني شهاب. ٢٦٧
ففرّ من نجوا الى بلاد جبيل، ومنهم الامير
منصور الذي استوطن غرزوز، فاستمرت
سلالته في ازدهار حتى يومنا، والاستاذ
يوسف منهم. ومن

١ أ

٢٩

ومن الأدباء الغرازوزة الذائبين في
هذه المهنة المرهفة ممن ذكرت عرضاً في
الفصل السابق، وهو يستحق جملة عاطفية لفعلة
خطابية فعلها يوم زيارتنا لغرزوز
قال أديب غرزوزي: مرحباً بالزائر الكريم
ومهنئاً له، إنه نجا مما كان يقاسيه الرسل
والأنبياء في الماضي من صنوف الاضطهاد،
فيجب عليه أن يشكر الله لأنه لا يزال حياً،
وفي نجوة من الصلب، أو من النار في
هذه الدنيا.. وفي الآخرة؟... إننا نحمد الله،
ونسأله ألا يغيّر عادته بعد أن يدعونا إليه،
ولئن راعنا ما قد نلقاه هنالك غداً،
من جديد في الكروب
فقد سرّنا ما لقيناه في غرزوز، فهو ألطف ما قيل؛ نثراً
في المديح والثناء.
ونظماً، حول السماط الذي بُسط في
على بيت بالقرية، والمأدبة التي أُقيمت
في المخزن ببيوتها. فقد طعمنا الزاد من
كبة وشواء في بيت إلياس فعول
أحباني دفعة إلى رحبة في عكار،
ودكنا

وكنا متفرنجين، الا في الروح واللسان، في
بيت نسيب بولس عازار.
ونسيب ثلاثة في واحد: فهو من ادباء
عزور، وهو من ظرفائها، ومن شبابها. اضاف
الى كتبه الجميل هذا الزمان، اي القواعد الذهبية
في العلوم المالية، واقترن حاجة بالادب
والوجدان، فما كان من الكافرين من
اهل المال. بشكوى فانها واحدة،
وان كان هنالك من شكوى لا يختلف فيها الفلاح والتاجر،
عامة شاملة، ومن في القرية، في
٣٦٨ والا الفقير والغني. ومن في القرية، لا يشكو
في لبنان وسورية، من يشكو
بلاد جبيل، جور شركة حصر الدخان
الاكبر، جور الشركة الشكاوى الى الحكام،
الى الله. بعد ان تعددت [illegible] سقطت مطالبها على
هذه الشركة [illegible] فكانت كالكابوس
على صدر الدولة اللبنانية السورية، وضميرها من ماء حديد،
[illegible] من حديد، واحكامها قديمًا والجديد
واحكامها كاحكام القرون، فلا يحق لك
- هذه الارض ارضك، فلا يحق لك
ان تزرع تبغًا غير قسم منها تحدده الشركة.
وهذا التبغ تبغك، فلا يحق لك ان تبيعه
من غير الشركة، وبالاسعار التي تحددها الشركة.
/ وانت

وانك تغرّم الغرائم اذا ما فعلت غير
ذلك. وان الزيادة التي تزرع فيه التبغ
تحجز ثم تحرق... هذه الارض ارضك،
فلا ارادة في استثمارها لغيري. انا الذي
تنفّذ الحكومة ارادتي، انا صاحبه
الاختيار، بالابتزاز...
ولا اعتراض على الغاء السببية في هذا
الكلام. فان للشركة عقلية الطغاة، وهي
التي احتلتها فتملكت. فلو كانت الارض ارضها
لما كان للمخاطب الحق ان يطأها، اما وانها
ارضه. فيحق له ان يطأها. ولا يحق
له ان ينزعها ابتغاء الارباح من الشركة.
وفي هذا ما فيه من التسامح والبر!
انها لمن كبائر الشركات الاجنبية في
هذه البلاد، نسجلها لابناء المستقبل، فيتحدثون
بما كان من حال اجدادهم، كما تحدثت نحن عما كان
من حال اجدادنا في ايام المظالم والمغارم العثمانية.
ولكن الذين نغبط من مضوا، نأمل الا يغبطنا
اللاحقون
وقد عبر شاعر عن رزوز الزجلي عن حال الفلاح
هذه الايام فقال:

محسوفا خد هذه الايام
يا تعتير

يا تعتيرك يا فلاح،
تقضي زمانك ما بترتاح.
قرنك والدخان ما قوا،
وما عاد في لك باب نجاح.

ولكن البيادر في غرزوز لا تزال تلبي داعي
الفلاح، وتحفظ للفلاح قصبة من الرجل. هذه
البيادر طرفة من الطرائف الجيولوجية والزراعية
في لبنان
فقطعة البيادر هي ذي صخرة عظيمة، بارزة في قلب
القرية، تتكون الساحة فيها سطحها الأملس، وفيه
عشرة من البيادر، لكل بيدر حافة طبيعية
تفصله عن الآخر. وهذه الصخرة ببيادرها هي في الصيف
مشهد بهيج لأهل القرية المزارعين. فهم في
النهار على البيادر يدرسون الحب ويذرون.
وهم في المساء يستذكرون في ضوء القمر
ويسمرون.
وفي القرية وجوارها غير "البلاطة"
البيادر من الصخور، فما جعل هواءها جافاً
صخرية، كما سلفت القول. ولكن ارضها كذلك
جافة ظمأى، تغل جميع المياه، بل لا أثر فيها
للينابيع. فالعجب لها من ناحية تكثر [illegible]
[illegible]

٢١

والنص اذا اطلقت بغير ذلك من تعرف

الغرائم وذكر الزيادة التي وعدها من التبع.

الدساكر مع ذلك فيها. فالقرى التي نمر بها من الرحل
الى غزروز تشرب كلها من ماء الامطار. وبما
ان التراب الحُوّاري صالح لتصفية المياه، نرى
الاهالي يغرسون به سطوح البيوت، التي يملأون
الصهاريج من مياهها؛
ولماذا نزل الناس ارضًا لا مياه فيها ؟
ما الذي حمل الاثوديسي الاول على الاقامة في
شنجان او في غزروز ؟ هل لجأ ورفقاؤه
الى هذه القرنة الجبلية من ظلمة او التجنيد ؟ ام هل
القاحلة هربًا من الاقطاع، فلا يطمع بها
احتاروها لانها قاحلة،
الطامعون ؟ لست ادري.
انما اذكر ان لكل قرية في تلك القرى نسبة
او نسبتين، وقد تكون شيقًا او قد تكون سخيفًا - وان
للقديسين، انا كانوا من جماعة الرأي المستقيم او
العوج، عجائب تذكرها في حياتهم وفي مماتهم.
منها ما يتعلق بالعيون والمياه. فكان
القديسين الشبيهة بعصا موسى،
يجعلون من الصخر ينابيع
فيتعجب لها ...
وهذه كنيسة السيدة الارثوذكسية
في غزروز، اخت السيدات الكاثوليكيات
المارونيات في لبنان، انشأها عدد من

ا. ر. ح

(٢٧)

بوجهها النوري أثناء هذا الوقت يفرشون
سطوح بيوتهم بالجوارى، ليصفّوا مياه الشتاء،
ولا تدل احداً منهم على عين في القرية، او
حفرة ماء في الجوار.
زرنا مع ذلك كنيسة السيدة الفرزونية،
مظلمة كثيرة الكوارث. في
التي بُنيت في سنة
تلك السنة كان والي الشام كنج يوسف باشا
المجنون يصدر اوامره الغريبة العجيبة، فمنها ألّا
يحكم احرق بالموسى وجهه، وكل من حلق
ذقنه يقتل. وفيها فتك الطاعون باهل
حلب، فكان يخرج من المدينة مائة جنازة
كل يوم. وفيها هجم الانكليزية اعداء الامير بشير
على جبيل فنهبوها، وقتل الامير المذكور
جرجس باز فهنّأه بذلك المعلم الياس
اده في قصيدة مطلعها:

زمانك ايها الانسان عابر
فكن متيقظاً فيه وساهر

في ذلك الزمان، اي سنة ١٨٠٧ — سنة
الطاعون وجنون والي الشام بالذقون — كان اهل
غزوز آمنين في قريتهم مطمئنين،
متجهين بقلوبهم الى السيدة القديسة، وهم
ليبنوا لها الكنيسة هذه،
مزارنا، ونحن عائدون منها، لنبيت عندهم
الى

برجها النوراني ابناءها الانقياء يفرشون

إلا قناطره الثلاث القائمة بين الانقاض.

امام هذه القناطر وقف القلب خاشعاً،

يعيد من الذكريات ما أنساه الحناء

الاولى، حديقة الوالده، في رحلتنا القديمة الى عرازو.

نسيت ان اخبرك، ونحن في الطريق الى

منتزه الرويس – والاحرج علي في النسيان، وانا

اسير الفتنة التي مضت الى جنبي – نسيت

ان اقول ان هناك، بالقرب من الرويس،

مكاناً يدعى أفقا. اللفظة قديمة، تناقلتها

الاجيال، فضاع معناها. ولكن الشائع هو ان

في أفقا، كان قصر لابنة ملك من ملوك جبيل

الفينيقيين.

اي نعم. هناك كان قصر بنت الملك، و ها

هنا كان قصر الحبيب الاول. ها هنا تحت هذه

القناطر كان مولد من انفتح القلب في قربها –

انفتح في روض فردوسي، بين الليل والنهار،

سويعة كانت تغض الطرف، وترفع سدوله.

في تلك السويعات الفردوسية كنت اجلس

الى جنبها ساكناً خاشعاً، استمع البيان،

واقدم القلب في مجمرة بين يديها.

كلانا كان في سن الفتوة الكئيبة

القاحلة، الوجلة الآبقة. يحوم حول ذلك

الشيء الخالد الذي يدعى الحب، ولا يدري

اين

ايام

ابن هو. ولا يكون، إن ظن المعرفة، أن
يدنو من العرش.
كنا نلعب امام ذلك العرش ولا نراه، او
في فناء القصر، دون ان يذكر الواحد منا اسم
صاحبه – صاحب الجلالة، احب.
وكانت هي تعدو في الحديث، فاحاول في بعض
الاحايين ان اباريها، دون ان اقول شيئاً،
فادركها ضاحكاً، فتقف واجمة، وقد أغمضت
عينيها. كنت اكاد انسى
كان ذلك في لوبوراك، يوم كنت تعلمت شيئاً من
لساني العربي. وكانت هي قد تعلمت بغزارة، فكانت
الانكليزية في المدرسة الاجنبية بلندن؛ كنت
فتنتني في بلاغتها، لسانها وفمها وعينيها؛ والتقييد
اشعر بلذة التغرد في حديثها، ولذة الكآبة حين تغمض
في فمها الصامت، ولذة
وتفتح عينيها. فقد عقدت العقدة
لا من الاقصاد، وانا على صدر غزوزية حسناء،
الاولى في قلبي وانا على صدر، وعقدت العقدة
في الخامسة من سني. وعقدت العقدة
الثانية وانا الى جنب غزوزية فتانة في لوبوراك.
وجاءت الغزوزية الثالثة ترافقني الى المنتزه
الرويس، فتذكرت، واشتكت، وهي لا تدري
انها تحيي ذكرى الماضي.

العقد

٢٧

٥٥٥

"أتكبي"
لقد اخطأت التعبير. فلا صحة
في زاوية من زوايا القلب العقدتين،
ها هنا. ان في زاوية من زوايا القلب العقدتين، سنة
تلك التي عقدت في عرزوز منذ خمسة وخمسين
والاخرى التي عُقدت في لونوان بعد ذلك
بعشر سنوات، وكلتاهما (١) لا تزال كما اردتهما
اناملُ العاقده، وثيقةً طريةً ناعمةً عاطرةً،
ومختومةً بختم الحب الطاهر.
فهل يستطيع احد ان يقول لي ماذا يحل بهاتين
العقدتين بعد الموت؟ وهل يستطيع احد أن
يدحض قولي ان ساجوب السموات السبع
وفي حقيبة الذكريات الطيبه، ذكرى هاتين
العقدتين للحب الخالد؟
رحم الله كل من عقد عقدةً خالدةً في
قلب «بشرى»

---

(١) ثم سافرت ~~...~~ الى البرازيل فماتت
غرقاً في نهر الامازون. وفي الكتابات، الجزء
الرابع، صفحات ٧٧-٧٩ قطعة من
الشعر المنثور، ذكراً لها.

٢٧٢

٢٨

٥

من سطح مار شربل

سألت الكتب الفرازنه هل في القرنة او في جوارها بقعة مارونية تشفع [illegible] بقراهم لدى كبير قديسي هذا الجبل، فقالوا نعم، وذكروا معاد. تباركت معاد! فهي ورّثيه نشأن البلاد، كما تقول المثل اللبناني. وهي على نصف ساعة من غرزوز، فوقها لا تحتها - وذلك عدل - وان كان الفرق في العلو لا يتجاوز المائة من الاقدام.

صعدنا الى معاد في الطريق الذي نرى منه شمالاً الغرب، قرية بجعاز، وتحتها البرباره، مسقط رأس الشاعر القروي المشهور المحبوب. ولكن الطريق يصل الى اعلى لذة في الناحية الجبلية، ثم نتحدر الى بجّة، اخت معاد في العظمة، وهي ظلّيب علبون،

فالسبيل

٤٥٧
٢٩

فرعية
فالسُبيل، ومنها في احد
الى مفوق، ثم
الى لحفد، وفي الثاني
جاج نفق لتبع في نواحيه الاربع،
ان الافق نقطة الدائرة. وهذا دير
وهذه معاد عليه السلام - عدنا الى الاعيان
مار عبدا في دير المسيح. وهذا راهب من
الفتح الدير يرحب بنا، ويفتح لنا الابواب
اهيان كلها. ولقد ادى لنا اكرمها
القدسية كلها ولقد ادى لنا احمرها
الى السطح الفسيح، المفروش بجوسم
السنة من القمح، المفروش للشمس
المطلة الواقية. من الحبوب. اوفي
كل ما تنتج ارض اللبناني، تشمس
التين والخرنوب والزيتون والتبغ، تشمس
على السطوح اذا كانت البيوت من الطراز القديم ذات
سطوح ترابية. لا ذات احرام من القرميد، تشمس
خصوصا، فلا تفقده الرطوبة في التخزين.
ليبس للشتاء، او الفصول
واهل لبنان جميعا يتحولون
السنة كلها. وعدو المونة السوس والعفونة.
وغذاء العفونة والسوس ما في الحب من زيادة
الى البذور وجفف، اي الرطوبة. لذلك يبسطونه
في

٢٧٤

في الشمس بضعة ايام، فيقطعون رزق
السوس، ويأمنون شر التعفن.

اما التبغ فانهم، بعد تشميسه، يجعلونه
في الاوبار، لاغراض ~~[illegible]~~ فنية — وغير فنية
التي لا علم لنا فيها،
على ما اظن. لقد علمت ما هي شركة حصر
الدخان — المونوبول — وما هي اساليبها في
الحصر والخنق والتجريد. فهل يلام الفلاح اذا
ما خبأ قسماً من موسمه؟ وقل الحمد لله
الذي لا يحمد على المونوبول سواه.
ان دخان معاد، بشهادة اهله، لاحسن
انواع الدخان في جبل لبنان. انه لكذلك للطافته
الطيبة كلها، وباطرادها في كل ما نزرع منه في هذه
الارض الحمراء الحامية. كذلك يقول راهب
الدير، ومعلم الولاد، وصاحب الدكان في القرية.
لقد سمعنا مثل هذا القول في وادي علمات،
وسمعنا انه يقال ايضاً في أشمر جبيل.
دخان وادي علمات، دخان اكرجبيل، دخان
معاد — كل يمجد دينا دخانه!
ولكن الكاهن الذي اضافنا في مدرسة
القرية اصلح هذا التمجيد، فقال ان دخان أشمر
جبيل

كح

بأيش الحلد وعمل

جبيل هو مثل دخان معاد، وقد يبزه في
بعض صفاته. هذا الكاهن المحترم هو مدير الدروس
الفرنسية في مدرسة الحكمة ببيروت، فلا عجب اذا كان
المحقق المدقق في ما يقول. وهو الذي اعلمنا
بعلو معاد عن سطح البحر: ٥٦٠ مترًا في ساحة
البلدة، و ٥٨٠ في ساحة الكنيسة، لا اكثر
ولا اقل. ان مثل هذا العالم واهله لمن محاسن
الساحة التي يريد صاحبها ان يستنير وينير.
ومن فضل اهل معاد - علماه بأن هذه -
٢٧٥ انهم يرعون سنديانة تنسبهم ويرغبون بأن
يكون اكبر واقدم واجمل سنديانة في لبنان. فقد
بنوا لها جدارًا علوه ثلاثة امتار، وردموا
داخله بالتراب، فاصبح مجموع جذعها تحت الارض،
وقد بدا منه فرعان، دائرة كل منهما نحو مترين
بل فرعان عاليان اغصانهما النضرة الوارفة.
اما الكنيسة فهي اقدم جدًا من السنديانة،
وقد قيل انها اقدم الكنائس المارونية في الجبل.
هندستها مزيج من القديم والحديث. ذات
معقودة البناء، ومدعومة بعمد. ليس اقبح من العمد، مهما
تيجان يونانية.
كانت جميلة، تحت سقف معقود.
وفي هذه الكنيسة صورة لفنان ايطالي،
فنشهد

تشهد الوانها واسلوبها بما مرّ عليها من الدهر.
وقد قال احد المستشرقين انها من القرن التاسع
او العاشر. ولكن العلامة رنان عثر
في الكنيسة على كتابة يونانية يعود
تاريخها الى ما قبل المسيح.
اما انها قديمة فان الشاهد الاكبر على ذلك
هو في الحجرة التي وراء المذبح، وقد صوّرت على
جدارها صورة مار يوحنا مارون والقديسة
ابربانوس. وهناك حجرة اخرى وراء الكنيسة،
مهدوم جدارها الشرقي، ومصوّرة على اثنين
من الجدران الثلاثة الباقية صور الرسل، وصورة
للمريمات لبدن يسوع. كل ذلك باسلوب
بيزنطي قبيح قبيح. ولكنه الشمس تشرق على هذه
التصاوير في كل يوم لتمحوها، وسيتم المسخ — ستمحى
باجمعها — بعد قليل من السنين.
هذه الكنيسة المختلطة العهود والمذاهب
في هندستها وتصاويرها هي اليوم لبيت القديس شربل —
~~الاسقف الرهاوي اشرك اللبناني.~~
~~شربل السوري ... الشرك ... تلك تكفي~~
~~لنعود الى ذكر ... في فصل القديسين~~
~~من ... الطريقة تكلمها~~
~~المتقدم ان ... هذه~~
ان اجمل ما نت هذه لمن سالح مار
شربل، لا في كنيسته. هلم نصعد الى الطح
فنشاهد

اقتبس

لا نزل اللبناني — بل شربيليوس الروماني،
الذي تنصر على يد اسقف الرها في عهد
الملك ترايانوس. اما شربل
اللبناني فلا نعلم شيئاً من
سيرة حياته في فصل القديسين
ان اجمل (اقلب)

٤٢

من هنا
فنشهد مشهدًا رائعًا من آفاق لبنان. من هنا
السطح نشرف على البعيد والقريب من
ناحيتي جبيل والبترون.
هناك غربًا بجنوب بشلالات، قرية المطران بولس
عقل ونسكه في الايام العلمانية المغطرسة.
وغلبون دونها مسقط رأس الفاضل الاب في
الغلبوني
مغنل الجزويت بالمعودة وطبع العذراء
والنغوي.
المشهور في بيروت، غربًا بجنوب، بجّه،
وهناك على ضلع الجبل، وسطه،
والسقف الآخر في
تقعد على رأس الضلع
بين الاثنين غابة غضّة. تحت نظرنا قريتان
في مقدمة المشهد - لولدان الجنة -
على الرابيتين فتقابلتا. فلت
الواحدة عنايا، والاخرى عين كفاع
على الرابيتين، والرابيتان في جفنة منا
وفي سفح الجبل، في الجهة
الجبال حولها. فرعية العرف بينه
الشمالية، نهر
المدفون. تمر على جسره في الطريق الى البترون،
حتى ذلك النهر كنا في ناحية جبيل، ومنه
شمالاً نحن في ناحية البترون. اولى قراها صغار،
التي مرّ ذكرها في رحلتنا من غزرون الى دير كفيفان،
وهناك شرقًا بشمال جربتا فعبدلّي فتولا،
ثم الدير المدفون فيه قديسي الكريم، وتحته
اجران

جران حب مولد خيرالله خيرالله وصدقته،
المجد لربنا بالجنة. ويشجيها معنا الناس والله.
اما الآن فاني استوقفك عند قلب هذا
المشهد، تحت أنظارنا، عند عين كفاع.
يلذ لي التغزل، وانا على سطح دار تربل
معاد، بعين كفاع، وبصاحبها اللوذعي مارون
الى محمد عبود. اقول اللوذعي على سبيل
الاكتفاء، لما بينها وبين قلمه من المناسبة،
لفظاً ومعنى. وان اعتذرت، على لغات
قلم مارون، كنزون.
عين كفاع لفظة سريانية، كما يقول صاحبها،
سريانية مركبة، تعريبها العين المخصبة. وهي لا
تزال كذلك بالرغم من قانون مارون البحري.
اما ان البلدة وصاحبها شبيهان بتلك العين
المخصبة، فما حمل مارون على التمثل بابي النواس،
الفاضل

تجنبت عنه دهري فطال جنابه
فصرت ارى دهري وليس يراني

فذلك غير صحيح
التمثل، ومارون
وكيف يصح التشبيه
مثل لبنان ملك عند الزمن؟ فالتواضع
ضائع

ضائع، والصوت "الماروني" مشتهيه.
اني في تغرّبي لعين كفاع – من بعد –
استعين بمارون نفسه، وهو المعين الكريم:
في سالف الزمان، كانت هذه "القرية"
المليحة المظهر والمخبر، "القبيحة الاسم"، معبر
القوافل القادمة من جبيل وجونيه وبيروت وصيدا
ودمشق، مثقلة بالبضائع الى بنادر الشمال:
دوما بشري اهدن، وغيرها من دساكر لبنان.
فكانت الطريق نظّارة "البدأ"، لا تخلو من
الرجل والحافر – اجراس بغال، وجمال تدق،
وحداة جمالين "هيهيهم"، ومكارون يغنون العتابا...
ويرتلون "حلاّ ذكرك معنا" ويسبون مع
ذلك بالدين". اما اليوم فالطريق خرساء، قلما يُسمع
فيها صوت انس او جن او حيوان، الا
يوم يكون اديب عين كفاع عائداً الى خلوة نقية
فيها، او خارجاً منه، راكباً "اتانه الوادعة
مثله"، وفي القلبين، قلبها وقلب
صاحبها، اصداء لاصوات الحضارة
الممقوتة، او للاصوات الشعراء والادباء
الذين يئنون من اسواط النقد
"الماروني".

وعلى /

وعن كفاع، من سطح كنيسة معاد،
تبدو كجزيرة بريّة، على رابية مخروطة،
تعلو مائتين وخمسين متراً عن الاودية
التي تطوقها. وهذه الاودية تعلو مائتين
متر عن البحر. وفيها الهوى العريش،
مثل هوى وادي الغربة. كان مارون في
صباه، كما كنت في صباي ووادينا الجميل،
يدهور الحجارة فيها، ويصغي الى صوتها وصداها،
وهي تتساقط وتتحطم على الصخور، [illegible]
[illegible] ثم تهبط في الاراضي المزروعة،
٢٧٨ [illegible] فتهدم الدكات، وتهشم الاشجار.
وكان الصبي مارون مثل الصبي امين يفرح
ويهلل لذلك التهشيم والتخريب.
دربك يا صنوبر، دربك يا خرنوب!
هي يه هي!
وبعد بضعة ايام كان يجيء "الغاباتي" من
قبل المدير، حاملاً شكوى صاحب الملك المجتاح،
فكنت ادفع التعويض (الشادار ما كان يفعله
مارون في مثل هذه الحال) واعود، ومعي نجدة
من صبيان القرية، الى دهورة الصخور، فنختار
منها الاكبر، ونتعاون في دحرجته، ثم —
هي يه هي! افتح الدرب، يا خرنوب!
ولعل

ولعل لفاع قديسه هو مار روحانا، له
مثل مار شربل عجائب كثيرة، يذكرها مارون ذكر
المؤمن الذي يعايش بإيمانه. فما استطاع
في مناجاة القديسة ان يقنعه بحاجة البلدة
اليوم الى أعجوبة من أعاجيبه:
- أعجوبة واحدة، يا مار روحانا، فينقط
بها عين لفاع، أو يكفيها: مَن
- اسكت، يا مارون، واقنع:
لسنة انت
استحق العجائب رآها؟ أو
من عين لفاع وفيها؟ +
ولكن مارون يذكر غير ذلك من عجائبه
هذا القديسه. فقد انقذ ذات يوم حبيبين
من اسد هاجم عليهما. أوقف مار روحانا الأسد
وحال دون الهجوم. بماذا؟ بالسيف؟ أو بيدي.
ليس مار روحانا كمار جرجس قاتل التنين
ليس مار روحانا من دعاة
بالرمح الطويل. فمار روحانا في سبيلها، وفي
السلم والمحبة، وله في مشكلة، حمل جميع وزره،
الانقاذ من اعدائهما. فقد الفقد الولدين
يغبطه فتح السباسبون.
من الاسد بنبرة اجراه بينهما وبينه.
فكانت كلمة الاسد! هي الاسد! مسكين
الأسد. وقف على ذلك الى الآن
حائرا/

وقفتُ وماروون
حائرًا بائرًا. قلت: هناك
المدقق أكثر مني يقول إنه أقصى
وخفق يعوّي كالكلب بالمقلوب.
ثم يسأل، وهو يلطم بكفه جبينه العالي:
وأين ذلك النهر، باكار روحانا؟ ألم يبق منه
ساقية أو سويقية، أو عين أو عُيَينة،
أو نبع أو نُبَيع؟ والأعين
الأعين لقاع المتعبد لك، هي ظمأى.
هي ظمأى، يا صاحب الطوبى، هي ظمأى
لها. هي ظمأى، يفتشون عند العين
وأهلها منذ القدم والأزل الون. فهل هي مغطاة
المخفية، أو يسبقه الكهف؟ وأين الكهف
كما تقول الأسطورة، لكي يكتشف كريم
إن ماروون، يا كار روحانا، فيكتشفها -
دلّه عليها، يا كار روحانا، والأولياء
يكشفها، والأولياء. تسعد
تسعد عين لقاع بوجهه. وتستجيبها
ويتطرّفها، ويحاورها
بعينيها، هي غير زرزرة
تلك الطريق، زرزرة جديدة، هي زرزرة الحديد والبنزين،
الدواب والمكاربا -
وأبواق السواقين،

ابراهيم

٤٦٧

٤٩

٦

الجبابره

عدنا من غرزوز الى سيف البحر، فمررنا بشيخان،
فجدايل، فالريحانية، ثلاث من قرى القرنة،
أسماؤها - الا واحدًا - تهزأ بجهل الناس،
وتحتفظ بغموضها حتى القدم والى ما شاء الله.
فما معنى جدايل، يا استاذ؟ الله اعلم. وما
الصلة بين شيخان هذه وشيخان اليزيدية
في العراق بالقرب من الموصل؟ الله اعلم. هل في
هذه الشيخان أثر لملك طاووس، او الشيطان
اليزيدي المعظم؟ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
وهل من بأس بالتأويل؟ لا بأس.
اقول اذن، بعد الاتكال على الله، وإذ غضب
ملك طاووس: ليس من المعقول ان يكون قد رحل
بعض ابناء شيخان، ذوي الرأي السقيم، الى الموصل،
فنزلوا ارض اليزيديين في جوارها، فاعتنقوا
الشيطانية، واسموا المكان الذي استوطنوه
باسم القرية اللبنانية التي هجروها. هذا غير
معقول. اما ان يكون بعض اليزيديين نزحوا الى لبنان
واسسوا في قرنة جبيل هذه القرية، فاسموها باسم
آخر قريتهم

٥٠

وتبذو الغيلان وعبادته
قرشيهم العراقية،
ظهريًا، اتقاءً بطش اولي الرأي المستغفهم
بهم، وحاروا فيهم مستعجبين، فذلك

حكاية:
يقول الشيجاني ان في بلدته آثاراً قديمة
مطمورة وظاهرة. فلا يُستغرب ان يُعثر فيها،
بعد ان تُكشف وتُدرس، على اثر لملك طاووس،
او خبر من جاهليتها، يثبت القول بالاصل الشيطاني
لهذه القرية. [illegible] والسيدة
كانت فيها عامرة،
اما اليوم [illegible]
فقد بنيتها [illegible] فمن شيجان.
[illegible] عليها السلام تطرد الشياطين طردًا انما
[illegible] ولكن في جدائل اثراً ظاهراً يستوقفك في الطريق
بوجودهم وعملهم. ليس الاثر في الكنيسة
عند كنيستها، بل هو في مسند بابها الحجارة،
معاذ الله. فقد قطع الشياطين
على هرمها ولوّى حالها
اعداء الاشجار خمسة من فروعها الكبيرة،
ونقروا في جزعها طاقة من الشرق الى الغرب.
وحشوا ذلك الجذع وملأوه بالحجارة!
فهل تنكر وجود الشيطان في هذا المكان؟ وشيطانته،
اسمعنا على مسند بابها
اسرعنا من جدائل
قسنتر لبنة

ابلغ

فستدركه اللعنة على شطحاته، فبلغنا
الرجالية، ولا جميل منها غير امها. هي اول قرية
في الطريق من السهل الى عرزوز، تعلو اربعمائة
قدم من سطح البحر، ويعلو بيوتها واحجارها
واكامها الغبار الكثيف، الذي تثيره
الفؤوس ~~والمعاول~~ والمناجل من ارجائها
الكلسية.
ان من اختاروا الاقامة في هذه الاراضي، وان في اهل
لجبابرة، وان كانوا في البربرية، من يستحقون
هذه القرى، حتى في ازماننا، اولئك الفاتحين،
ان يعدوا في سلالة وعفاريتهم. فجبابرة هذه
المدن لبني الاراضي، تنسب الجبابرة.
الارضين، على فحولها. ان عز جبرائيل قال:
حدثنا الاشياخ والخياط ان ذات يوم في
طعن
كان نوفل العرزوزي جبارا. طعن ذات يوم في
احدى المعركات طعنة في بطنه نجلاء، فاندلقت
مصارينه، فراح يحملها بيده الى البيت، فغسلها
معاونه فنظفته بعضة من القندول، واستمر
واعادها الى ركبة المحارب بيده، حتى المحارب
في سيره. فلما وصل الى البيت، واعادها الى بطنه، ثم كلف
بوضعها الى بطنه
مسلة

(٢٨٢)

مسلة وخيطاً من المقابس - لا
حكيم، ولا ادوات جراحة، ولا تطهير.
قطب نوفل بطنه بتلك المسلة، مسلة
المطارق، وبعد ثلاثة ايام شفي تماما
وعاد الى عمله، يحمل البلاطات والعتبات
الطويلة للبناء.
لبس الاستاذ جبرائيل حمزة بالعون في زاوية
اوبرسون الكلام على عواهنه. فقد استوقفنا عند
جدار في بيت آل فيروز، فيه رباط ذو
ثلاثة امتار من البلاطات التي يحملها نوفل
على ظهره، ويمشي بها الى البناء، والبعد
بها درجتين او ثلاث درجات عنده اي رُطل،
ليضعها في مكانها على المدماك.
قال احد اقارب الاستاذ، وهو يبدو وحوينا
ال أف، قال يزكي الشهادة:
وكان نوفل يأخذ المجيدة بين اصابعه ويبعجه
ومطانه الى الجانب من رأسها ~~على~~ عليه،
ويوقف المبيضة وانى
(يعتزه) هذا ... يألوف كل جبار.
[illegible]
قلت: هذا ... من رجال
[illegible]
اذكر ... كان يحمل
البلاطات

الرباطيات الطويلة الضخمة، كأنها أقبس من التبن،
او حمل من الشيح. ورأيته يأخذ المجدة
بالإبهام والسبابة، فيطويه طيًّا كأنه
قطعة من التنك. مالي كان عماد
وجاء في تاريخ العاقورة: نسيف
بن عبد الله الاسمر من الجبابرة. قطع بضربة واحدة، خمسة قضب من حديد
لبّادًا مطويًا سبع طباقات، بمقص جاءت
لا اثقل الحمل على اعمانك، او نحت اوقته
في الكتب، او سُمعت على البيادر. ساعود الى من عرفتهم
الكائنين في القرى. وشهدت فيهم آيات من القدرة والشجاعة
لقد ذكرت في فصل سابق، في رحلتي الى الكحلون،
شربكنا زخيا، زخيا الجبار في قدرته وفي ايمانه.
سمعته ذات يوم يقول لابي: بقوة مريم
العذراء اقتلع هذه الشجرة (الشجرة توت كبيرة)
وبقوة مريم العذراء اطلع من هذا
السطح، وافتح الى عملي بخير وسلامة.
ورسم زخيا شارة الصليب على وجهه
وهم بالقفز من سطح علوه خمسة عشر مترًا،
فأوقفته الوالدة، على ما كان من [illegible] ايمانها
بقوة مريم العذراء.
كان زخيا مشهورًا في بلاد كسروان
وجبيل

وانك اذا فعلت غير ذلك تعرض لك العزائم،

فتحرق الزيادة التي تزعمها من التبغ . . .

هذه الاراضي ارضك ، فلا ارادة في

استغلالها لغيري . والحكومة تتعنت ارادتي،

انا صاحب الامتياز بالاحتكار ، في هذا

لاعتراض على الغاء السيئة وهي التي احتملتها

الكلام ، فان للشركة

عقلية الطغاة

متكلمه

٤٧٢

وجبيل والبترون يتحدث الناس باعماله
وبقواه كما يتحدثون بعجائب القديسين .
ونحسبه قوة من الجبابره ، ويشهدوا انه منهم
وفي مقدمتهم ، توكل الغزدوزي نفسه . فقد
روي عنه قوله : كان زخيا الحلوني
يحمل العنبه كأنها عمد (عاتبة) توت .
كل هذا في نظر الجبابره بسيط مألوف .
ولكن لزخيا آية منقطعة النظير في ابات القدرة
والمروءة كلها جمعاء ، هي آية الحمارة ، حمارته
المحبوبة المدللة . تشتغل يوماً او يومين
كانت هذه الحمارة حتى في ايام عملها
لا غير في الاسبوع . وما كان يمشي وراءها ، او الى
ليثقل حملها . بل كان يمشي الى الى حل ،
جنبها ، في الطريق من الحصون الى الى حل ،
من الى حل عائداً الى الحصون . وكان يخاطبها
كأنها من نبات حواء المحبوبات ، يخاطبها
بلغة العاشق المدلل الهائم . ويستمع الى
انشود حضوري اجابتك ، وقد احملها كيساً
ودالبته .
كان زخيا عائداً من جوليه ، بالطحنة
من الطحين . كان عائداً من جوليه ، والطحنة العادية
للبيت " كما يقول ابن الجبل . والطحنة العادية
لا تتجاوز السنين رطلاً .
وكان ماشياً على عادته الى جنب محبوبته ،
او ليده

ومن الادباء الغرباء وزة الدائبين في

المهنة المرهقة من ذكرت عرضًا في الفصل

السابق، وهو يستحق جملة عطفية لفعلة

خطابية فعلها يوم زارنا الغرزوزي:

قال اديب غرزوزي: مرحبًا بالزائر

الكريم، مهنئًا له، انه نجا مما كان يقاسيه

الرسل والانبياء من صنوف الاضطهاد،

فيجب عليه ان يشكر الله مؤمنيه ان يزال

حيًا، وفي نجوة من الصلب او الحرق.

وبيده قضيب من التوت ليدغدغ به رقبتها
من حين الى حين. فوقفت في منتصف
الطريق عند ~~[illegible]~~ عقبة كأداء،
كأنها تعرفها. وقفت هناك، وقد عقدت
النية على الوقوف كل ذلك النهار، او
يحقق الله رغبتها. واستعطفها، ودغدغ
ناداها زهيبا، بغاية اللطف، فما حركت
رقبتها، ثم نعلها، ولا اذناً من اذنيها، امشي،
حتى ذنبها، ولا شدّي حبلك، ياحبوبة. في
يامباركة. المحبوبة المدللة تسمع او تجيب.
كانت المباركة كأنها صخرة بين الصخور.
وقفت هناك، وجهها للوجه، وخاطبها قائلاً:
فوقف زهيبا امامها، كلما وطلب
"هذه عادتك يا مخلوقة العمر: ظهر صاحبك
يخطر على بالك. الى هذه العقبة التي علمك الدلال."
زهيبا. فقدري صاحبك ثم تناول
قال هذا وهو يركع امامها وظهره البهيمة ثم
يديها بيديه، فرفعها الى كتفه، ومشى بها يحملها
وحملها على ظهره، ومشى صاعداً في تلك العقبة،
وهو يخاطب المدللة قائلاً: لعودت على الركوب
يامخلوقة العمر!
اشدد حقوى ايامك، واسمع الى غنائي

محمود

٦٢

يا تعبك يا فلاح،
تقضي زمانك ما بترتاح.
تركك والزمان ما تقوا،
وما عاد في لك باب نجاح.

مكس البيادر في عرزوز لا ازال تعبي،
ويحفظ للفلاح تقنية من الازل.

داعي الفلاح طرفة من الطرائف البيولوجية
هذه البيادر في لبنان
والزراعة منطقة النظر بامزة في طلب القرية، [illegible]
هي ذي ذكرة عاطفة
تتكون من سطحها الاملس ال

تحدثك عما شاهدت، لا عما سمعت او
قرأت في الكتب. كان لي صديق في
قرية الحمراء المجاورة الفريكة، صديق عزيز وفي،
احببته حبًا لا يقل عن اعجابي به، وكلاهما
كثير. وكان يقول لي، بعد ان سمعني مرة
اخطب: احب ان ترثيني يوم اموت،
يا استاذ. فوعدته بذلك.
ولكني كنت غائبًا عن الجبل يوم وفاته،
وكان حزني عليه مضاعفًا. رحم الله عبد الله نصر،
المعلم عبد الله. وهو المعلم الكبير، استحق اللقب
بما كان يحسن من الاعمال، وان كان [illegible] احيانًا.
فقد كانت التجارة [struck] صنعته الخاصة، وكانت كل صنعة
تتعلق بالبناء، وبالحياة الجبلية، مستهنة
له مستحبة. عينه تراقب ادق
الاشياء، وذهنه يدرك اغوص الامور،
وقلبه يسبق يده للخدمة.
كان المعلم عبد الله من اولئك اللبنانيين
الذين يلبون دعوة كل طالب في الخاص والعام
من الاعمال. انكسر قسطل المياه في القرية -
نادوا المعلم عبد الله.
اشتدت الحمى الى
العلاج - اخبروا المعلم
عبد الله. فدمع

مذبح الكنيسة في حاجة الى اصلاح -

ابن المعلم عبدالله ؟

ثور فلان تفلت من مربطه ،

(ثور شرس فتاك) [illegible] - دونكم والمعلم عبدالله.

المذبحة في البيت معطلة - عجلوا!

المعلم عبدالله طبيب اسنان يقلع
الاضراس بالكماشة التي يستخدمها في النجاره. وكان فوق ذلك
اذا ذكرت المروءه والمعروف، والحذق
والدقة في العمل، والشجاعة وشدة البأس،
كان المعلم عبدالله من ذكرت.
وما كان يطمع بحطام الدنيا. بل كان في سنواته
الاخيره يقضي حاجات الناس، وحاجات القرية، مجانا
لوجه الله.
اما في بيتنا فقد كان الراغب على كل عمل،
المستشار، الصديق، المشرف
المساعد في كل عمل،
المحاسب المدقق في كل شيء.
هذه المقدمة هي بعض ما يجب علي من القول
فيه، برًا بوعدي له. وهي في مكانها، من
قلب الموضوع الذي نحن بصدده -
موضوع الجبابره

افهد

فقد كان المعلم عبد الله جباراً، كما كان
حاذقاً في كل أعماله. وكان في شجاعته مثله في
المروءة والمعروف. سمعت قصة العملية
الجراحية التي عملها نوفل الغرزوزي لنفسه —
لبطنه. فقد عمل عبد الله نمر عملية مثلها
ليدٍ هشمتها بندقية قديمة، كان
يطلقها في حفلة من الحفلات الجبلية.
وقد وقف ذات يوم لثور ثائر
فمسكه بقرنيه من قرنيه،
في ساحة البلدة، فوثب الثور وثبات يحاول
بها الانفلات، ثم أخذ يرفسه برجليه ويديه،
ويدور ثائراً هائجاً ثم يدور، والمعلم قابض
على قرنيه ويديه، يدور معه واثباً حيناً وحيناً
زاحفاً ليتقي هجماته، كأنه من مهرة الألعاب،
وما كان لأحد المتحاربين
في محاربة الثيران، أن يهمّ أو يليق، حتى تقصّف القرن
بيد الرجل الجبار، فنزت بالثور نزوة
جديدة هائلة، فانطلق من يدي خصمه كالحجر
من المنجنيق، وراح المعلم مستلقياً على ظهره،
والقرن بيده.
ومن آياته في الشجاعة والمروءة حليب
القبة. إن البقرة الحمراء أنتجت فخمة
الحجة

ضخمة، علوها عشرون متراً، وعلو القبة
فوقها يربو عن العشرين. وهي من القباب
الرحيبة، يُصعد اليها في سلّم من سطح
الكنيسة. اراد الاهالي ان يركّبوا فيها
صليباً، فنادوا شبان القرية، فما
تقدم احد منهم.
وكان المعلم عبدالله حاضراً، وهو يومئذ ابن
السبعين من سنه. فتطوع
في الساعة، وتناول الصليب الكبير بيده
[illegible] حذاءه، وصعد الى سطح الكنيسة، ثم في
المشوهة [illegible]، كان يلوي ويهتز تحت
سلّم من الخشب
رجليه، الى رأس القبة، فركّز الصليب
هناك وأوثقه، بين هتاف الرجال والصبيان
في الساحة بقوله [illegible]، والنساء في
الكنيسة يصلّين من اجله
ونزل المعلم عبدالله من رأس القبة في
ذلك السلّم المزعزع، كأنه نازل درجاً في بيته.
فلبس حذاءه، ويشد المنطقة على
وسطه، ثم نفض الغبار عن قمبازه،
وعاد مسرعاً الى بيته ليحلب العنزة.

٧

سِفر القديسين

ليس هذا الزمان بزمان قداسة وبطولة. وان ظهر شيءٌ منهما، ولم تُعِقْه الطبل والزمر، يظل في منتأى عن الناس، فلا يُسمع صاحبه ولا يُبصر. وان سُمع او أُبصر، فلا يُؤْبَه به. فهو يحيا ويموت كالوردة في الحقل، او كالزنبقة في الوادي.

ويقول الجاهل في قلبه، كما يقول العالم في كتابه: ليس اله. وبالتالي ليس في الارض أُلوهة. وبالتالي المطرد ليس في هذا العالم عالمنا — عالم النفط والحديد والكهرباء — انبياء او قديسون.

فان نحن انكرنا هذا القول، وقلنا ان الانبياء والقديسين لا يزالون معنا، يظهرون اليوم كما كانوا يظهرون في الماضي، دون ضوضاء، وبأتمّ معاني الوداعة والحياء، قال لنا المشكك: واين هم؟ وان اشرنا الى واحد منهم، ورفعنا عن رأسه القلنسوة الخداعة، قال: هات غير هذا البرهان. هات الاعجوبة ان كنت من الصادقين.

/ اخنوني

٦١
٤٧٩

- الافاضل

خذوني بحلمكم ايها المشككون، وتعالوا نزور
احد القديسين اللبنانيين في هذا الجبل. فالقديس
اليوم، مثله في الماضي، يهجرها ربا(؟) من المدن،
الا في اوقات المناجيه، ويفضل الجوع بين
الصخور على الشبع في القصور.
لقد حدثتك في الفصل السابق عن بعض جبابرة
هذا الجبل، واني الآن محدثك عن بعض قديسيه.
انا في الطريق الى كفيفان، نعم اذ ندنو من
البترون في جبل يتراجع بلطف امامنا،
فلا يشمخ علينا كجبل كسروان الذي يطل
على جونيه، او كجبل السلجه(؟) الذي
يثب وثبة واحدة من البحر.
وفي هذه الجبال المتواضعه التي تيمّن(؟)
البها(؟) من جبيل الى اللآلؤ(؟)، او الى عمشيت، ومن
فجاج ومن بعشته(؟) الى غرزوز، ومن شكا الى حامات(؟)،
البترون الى كفيفان، ومن تنّبّاش(؟) الارضه،
في هذه الجبال المتواضعه كلمة حلوة
فتبوا(؟). اي انها تقل فيها القرى،
فاحلة ... مو ... هـ ... ثـ ... ـه
ولا تتجاور.
فمن البترون الى دير كفيفان ...
اخر

٢٨٦

٦٢
٤٨١

نمرّ بقرية صغيرة هي المكمل، فنبلغ
من العلو خمسمائة متر عند إدّه بعدها،
ثم نهبط قليلاً الى جران، ومنها صعودا
الى الدير مجتنبا، فنجتاز نحو ثلاثين
كيلومترا من سيف البحر، وليس غير ما
ذكرت من القرى، وما بينها غير غبار
الطريق، والصخور، وشجيرات مبعثرة
متنائية من الخرنوب والسنديان.
سأحدثك الآن عن القديسة لأنسيك
الطريق البه، ولأهيّئ نفسك لما
ستلقاه في المزار من البركة والنعمة.
نعمة الله الحرديني، نسبة الى حردين،
مسقط رأسه، هو الذي يعرف بقديس كفيفان. وهو
اشهر القديسين اللبنانيين. صنع العجائب في حياته
وفي مماته، بشهادة كثير من اهل القرى الدنية
والقاصية في لبنان. وستشاهد بعينيك الاعجوبة
الكبرى عندما تقف امام تابوته، فتراه تحت
غطاء الزجاج بشرا كاملا، لا نقصان ولا
فساد في جسمانه. كأنه في غيبوبة
القداسة الراقدة، وقد مرّ له على رقدته هذه
ثمانون

خدمة القداس، وصلّى النوافل بعد
وذلك حمداً لله على الشفاء.
ليس في الحادثتين ما يقبل علماء
النفس بان يسمّى اعجوبة. فالحادث الاول هو
من باب الـ clairvoyance والثاني
من باب الايهام suggestion [illegible] النفس. فهل في
آخرهما بما يقوله علماء الحادث الثاني عجب، او
ما يكشف السر في الحادث الذي لا يختلف عن اعاجيب
علمهم الاعجوبة؟ فسأل الرئيس
فنفى رئيس المعروفين في الدير، فسأل الرئيس
القندلفت: المؤونة في الدير، وخبره بما تقاضى
قلت المؤونة ان ينظر فيها وقال
النفس تعماله ان ينظر في المؤونة وقال
اللازم منه. فجاء لبيت المؤونة، فجاءه بالابريق،
ليجلب أعطي ابريقاً من الماء، وعاد الى
للوكيل: ورشّ الماء في البيت، وعاد الى
فصلّى عليه، المؤونة كافية ولا حاجة
الرئيس يقول: فراح الرئيس يتحقق
الى زيادة والحمد لله. فاذا زائداً فائضاً.
ذلك، فوجد كل ما في البيت زائداً من السماء؟
فمن اين جاء الفيض؟ أمن الماء ام من السماء؟
استند حضوري اجابك والتعجب. لقد مات
القديس، ونقل جثمانه الى العلم بعد اربع سنوات
الى الكنيسة. فذاع صيته في لبنان، وكان ذلك
الناس، وفي عنقه الطوق المقدس، ممن حملوا
اليه ليستشفوا، كما اسلفت القول.
ومن هؤلاء من كانوا في حال من المرض

/لا

ثمانون سنة.
سأزيدك مع ذلك علماً به، فأذكر
من عجائبه ثلاثاً* صنعها في حياته، وثلاثاً
بعد موته. فمن مواهبه الخارقة انه كان يشعر ببعض
الحوادث قبيل حدوثها. اي انه كان ما يدعوه
علماء النفس كليرفويانت clairvoyant
فقد رأى ذات يوم، من نافذة غرفته في الدير،
بيت الماشية في حالِ تصدّعٍ ارتاع له. فنادى
احد الخدم وامره بان يخرج الماشية من ذلك
البيت في الحال. فأتمر الخادم الامر، وما
كاد يخرج الماشية حتى سقط البيت بسقفه
وجدرانه دفعةً واحدة.
ومن كراماته التي تذكّر ببعض اولياء المسلمين
انه دخل ذات يوم الى الكنيسة لقدّاس، فما رأى
الشماس هناك، فطلبه، فقيل له انه مريض.
فبادر اليه، فالفاه على الفراش محموماً، فقال،
وقد وضع يده على رأسه: لقد شفيت
باذن الله. قم واتبعني. فنهض الولد من
فراشه بصحة جادة، ولا حمّى به ولا وهن،
ومشى الى الكنيسة مع القس لقداسه، وخدم
خدمته.

٢٨٩

مقلوجين، حيروعين، مقعدين
لا ريب فيها - مقعدون منذ ثلاث عشرة
هذا رجل من المتن الاعلى، مقعدٌ منذ ثلاث عشرة
سنة، يمرّ محمولاً على بغل بكفيا، فيبادره
طبيبه الشيخ ابو علي الجميل، ويسأله: الى اين؟
فيقول المريض: الى كفيفان لزيارة القديسة.
فيقول الشيخ الجميل: اهون على القديسة ان تصنع
رجلاً جديداً من ان تطلعك وتشفيك.
وبعد الزيارة عاد ذلك الرجل في الطريق
نفسه، وأوقف بغله امام بيت الشيخ ابي علي،
فلما رآه الشيخ اعاد ما قاله سابقاً. فوثب
الرجل عن ظهر البغل الى الارض، وشرع يركض،
فكاد الشيخ يجن مما رآه.
وهوذا راهب جريح من جاج يحج دير كفيفان،
وينام ليلة في الكنيسة امام تابوت القديسة، ويخرج
في اليوم التالي سليماً معافى. هذا الراهب عاش
بعد ذلك ثلاثين سنة في ديرنا في وظيفة في الاديرة
والعافية. لندرس حتى
وفي ذلك الزمان جاءت امرأة درزية عاقر
من بريمانا تستشفع بالقديس، فرزقت في
السنة التالية ولداً ذكراً. فانشأت ونذرت ان ترجع
بزيارة الدير ثانية براً بالنذر. فعادت
الزوج بذلك وكان رفيق الام وطفلها
وبنيها الوحيد. فلما وصلوا الى أسمر جبيل
اقوفي

توفي الطفل وهو على صدر امه ، فخففت الامر
[illegible] عن زوجها خوفًا من نقمته . وعندما وصلت
الى الدير ، وضعت ذلك الطفل عند جثمان
القديس ، وهربت من الكنيسة تخفي ما
بها ، وتأمل ان يستجيب القديس طلبتها . وكان
زوجها ينتظر خارج الكنيسة ، فسألها اذ رآها
وحدها عن الطفل ، فما أحارت سؤالًا ، ولا
ملكت دموعها . فهاج الزوج بها وهمّ [illegible] .
ولكن احد الرهبان جاء في تلك الغيبة يقول
للمرأة : تعالي خذي طفلك . فقد ملأ
الكنيسة صراخًا .
قد يسأل الضعيف الايمان هذا السؤال :
أمن المؤكد أن الطفل كان ميتًا عندما وضعته
الام عند تابوت القديس ؟ أوليس من المعقول
ان يكون قد أصيب بسكتة قلبية في [illegible] جميل
[illegible] بعد ذلك في الدير ؟
فزالت [illegible]
اننا لفي الارض الحرام نجتاز حرجًا غضان
السنديان ، لا نلتقي فيه سؤالات المتشككين ،
وها هو ذا الدير ، قائم على هضبة جميلة ، تحيط
به بساتين الزيتون ، وتنبسط الافق [illegible] هناك ،
فتلك [illegible] اراضي الشمالية [illegible] قرى الشتاء هناك ،
[illegible] في الصيف والربيع .
وتكتنفه الشرقية حرج السنديان
وهو ذا النبع الذي عرفناه في احدى
رحلاتنا

رحلتنا، فكانت المفاجأة هاهنا مثلها
في دير الروحيّة بالقلعات، ذات بهجة،
وحبور. وكان في طلعة القس انطونيوس
نعمة من السكينة والجلال والانس ما يتصف
به القديسون. وكان في صدره من الرحابة
ما يشبه الأفق القائم وفي قلبه ذلك الدير.
رحّب بنا القس انطونيوس ترحيب الأخ الحبيب،
على ما نعرف به من جفوة الأديرة والرهابين.
يحق علينا الشكر له، والإعجاب به،
فنسجلهما حباً وكرامة. فعندما أعلمنا
وهاهنا حد الفرح والحبور، فأذن لنا
حضرة الرئيس بقصدنا من زيارة الدير، فدخلناها
الى الحجرة التي فيها ضريح القديس، خاشعين،
مدهوشين، وجلنا النظر فيها غير آسفين محزونين.
ووقفنا امام ذلك الضريح و
أين القديس الذي رأته عيني السابقة؟ وأين
في تابوته منذ خمس وخمسين سنة؟
الكنيسة التي كان يشرفها بجثمانه القديس،
الكنيسة التي نما فيها أنا وأمي والعزيزة
تلك الكنيسة؟ وعلى م
أسماء؟ أتحت هذه القاعة المرمرية هو؟
أتحت هذه الحجرة، تحت هذا الرخام القبيح
يواري في هذه الحجرة؟ ما هذا بقبح
رفات العجب والكبرياء؟
أقدسه

قديسه، بل هو اشبه بضريح رئيس من الرؤساء،
او وجيه من الوجهاء، ما كان شيئاً في الدنيا -
ما كانا غير رئيس، او وجيه في قومه.
كل هذه السؤالات والخواطر
تزاحمت في نفسي المتكلفة، عندما وقفت
امام ذلك الضريح اقرأ ما كتب عليه :

الاب نعمة الله الحرديني

ولد سنة ١٨٠٨
ترهب في دير قزحيا سنة ١٨٢٠
سيم كاهناً سنة ١٨٣٣
نقل من المقبرة (الى الكنيسة) بامر
الرؤساء سنة ١٨٦٢
(زاره امين الريحاني مع احد ابنيه
ورفيقته القرزوزية سنة ١٨٨١)

وبعد ذلك ماذا ؟
نُقل من الكنيسة الى هذه الحجرة، ووضع
تحت هذه الثقالة من الرخام، سنة ١٩٢٦ - بأمر
من ؟ بامر روما - بامر سيد الفاتيكان
والكثلكة. ولماذا ؟ لان روما لا تعترف بقديسينا
الوطنيين اللبنانيين الا بعد احقاب من
السنين. ولماذا هذا التردد والابطاء ؟

[illegible] /

لست ادري، ولا المنجمون من الرؤساء
يدرون:
الا انهم يقولون ان هناك لجنة
تدعى لجنة فحص القديس المزعوم
باباويه (قد يكون اسمها الرسمي الطف في
غموضه) تعمل عملها بكل ما يقتضيه
الامر من التدقيق والتحقيق، على مهل،
على مهل. لتقتضي الكثير الكثير
وان ذلك العمل
من النفقات. اشترطها الفاتيكانيون
والمشككون. فقد ~~بعد~~ ادركنا (١)
السر الاقدس — المال! الا تطوب
بلا مال. والقديس الذي لا اهل له اغنياء،
ولا جمعية او رهبنة او طائفة تهتم لامره،
فتبذل ما تتقاضاه سدة العاصمة والقداسة
من المال، يموت — يموت — يموت،
ويدفن كما يموت ويدفن اي راهب،
واي اسقف، واي بطريرك من رؤساء ٢٩٢
واحبار هذه الطائفة المارونية المتزوقنة
فلا يُطوَّب قديساً، ولا يؤذن بان
يذكر اسمه مع القديسين.

. . . . . .

الريس

---

(١) اقلب

الحاشية

(١) ولا تطويب في القاموس. لا في مادة
طاب يطيب، ولا في مادة الطوب اي الآجر.
على ان في اشتقاقات
بلغة المصريين والعراقيين
طاب يجيء الطوبى اي الغبطة والسعادة الخ
فضلًا منها،
فهل بنى علماء الكنيسة المارونية، فقالوا:
وبالغوا في البناء، من اجل القديسين، اي
طوبه تطويبًا اي جعله من اهل الطوبى، اي
الغبطة والقداسة؟ ام هل توغلوا في درس
هذه المادة، فوجدوا فيها المطيّب
اسم احد ابني نبي الاسلام، وحلف
المطيّبين ٨ بمكة وكان النبي منهم، فقلبوا
الياء واوًا حتى لا يشتبه المعربي
الكريم والماروني الصالح ويلتبسان؟
ان بيننا وبينكم واوًا، وكل العلة
في حرف العلة. فهل يجمع الله ما
فرقته اللغة؟!

لبس القديس لقبعان الاسير الوحيد

اوراده روحيه الذهبيه . فهناك ابا مار شربل

اللبناني: هو شربل بن مخلوف من بقعكفرا، عاش

وترهب وتقشف وتنسك وصنع العجائب

في عهد البطريرك يوحنا الحاج، وتوفاه الله يوم

توفي صاحب الغبطة المذكور

حدثني العالم الفقيد بيبي لبنان واعاجيبهم قال:

هجم الجراد الجبل، فوصل الى ارض دير مار مارون

عنايا، فامر رئيس الدير بالماء فيؤخذ الى

الحبيس شربل الذي كان يومئذ ساكناً في

المحبسة. فصلى الحبيس على ذلك الماء، فرش منه جانباً

في املاك الدير، فتقهقر الجراد، وارتد عنها مدحورا.

فهل في اعاجيب القديسين الاوروبيين اعجب منها؟

وهذه اخرى. كان رجل من آل الجود بعمشيت

ولد مريض، اشرف على الموت. فارسل الى دير مارون عنايا

يدعو الحبيس. فامره رئيس الدير بان يذهب

مع الرسول، دون ان يعلمه بقصده. فلما اندفعا

في الطريق قال الحبيس للرسول: يا اخي، لا لزوم بعد هذا

لذهابي معك. فقال الرسول: لماذا؟ فاجاب

الحبيس: لان الولد مات.

قال هذا ورجع الى صومعته - فارسل الرئيس

راهباً الى عمشيت يتحقق الخبر، فكان صحيحاً.

مات الولد بساعة وقف الحبيس في الطريق ليعود

الى الدير. فمثل هذه تتنقل في اصول عن اعاجيب

اعاجيب القديسين الاوروبيين؟

وهل في قبور اولئك الابرار الاجانب غير
ما في قبور ابرارنا؟ بعد وفاة الحبيس شربل كان
النور ينبثق من قبره حيناً بعد حين. فُفتح القبر
بعد بضع سنوات من وفاة صاحبه، فأُلفي الجثمان
سليماً لا اثر فيه للبلى او الفساد. بل هناك
ما هو اعجب من ذلك. فبعد ان نُقل القديس
من القبر الى الكنيسة، كان يعرق كأنه
حي، وكان اذا جُرح يسيل الدم من جرحه. هذا
فهل تستغرب لجنة الفحص اليابونية
وفي كنائس ايطاليا صور قديسات
وتذكاره، [illegible] قديسين، تندى بالعرق والدم امام المؤمنات
والمؤمنين؟ [illegible] هذه اللجنة التي أمّت
لبنان في سنة ١٩٢٦ اين هي من هذا اللبناني
البار في رقدته القدسية، وسمعت
اخبار اعاجيبه كلها، واعترضت مع ذلك باب بواري
الى ان يحين وقت تطويبه.
ولا يزال الموارنة ينبول الكنائس لما
شربل بيلبون البروفي(?) ... وجلى بيالون عيار شربل
شربل الاورفاي ... ~~[illegible]~~ اللبناني ~~[illegible]~~
المتعلق في اللبناني
اين مخلوق ~~[illegible]~~ فاين
ذي الجروح الطارئة الدامية.
النقوى

(٢٩٤)

التقوى والغيرة؟ أين الإنصاف؟ أني لا
أأمل في تطويب أي مخلوق لأن ليس له
من أولي البر والمعروف من يبذلون المال
لسوء العاصمة والقداسة.

. . . . .

— وهذا، أيها المحترمون أعضاء اللجنة،
ما حدث للقس دانيال، الراهب البلدي، من
الموارنة. ما كان ظاهر حاله لينبئ أحداً
بباطن أمره. فقد كان يركب الخيل كالأمراء،
ويداوي بالأعشاب كالمغاربة، ويعمل في الدير
كالخدم. فأرباب الناس في
لبس وتعليل، وقد نسبه الآخرون. فوفي
أمره. فعاداه الرهبان، وقد كرس بقرطبه، فبدأ
القس دانيال في دير مار [illegible] يستشعره، هو
طول كان [illegible] —
ما كان بخفيه [illegible] الأطهار.
مع الناس [illegible] غدا النوارنج يشعون قبره.
وبعد وفاته بقليل غدا رهبان الدير،
فأخبروا أناس من القرية، وخوخة الكنيسة — وكانت
ابنه [illegible] ذلك الغيرة ودخل [illegible] على يده،
فأخرج دانيال [illegible] التي أول الله [illegible] إلى جانب المذبح [illegible] أنه مع
الأعجوبة الأولى [illegible] المسيحي
أو بواسطة [illegible] كانت نبغيه —
امرأة عاقراً ما كانت

أحمد

جبل العاقور
احد اعضاء اللجنة :
شيء مألوف لدى كل طامح بالتطويب . فلا
يُعد من الخوارق . ولكننا
— لقولكم وإنه ، ابانا المحترم .
نسترعي انظاركم لشفاء هذه الامرأة . هي
من فقراء الفلاحين ، من قرية المغيرة ، بالقرب
من العاقورة . أصيبت بمرض في عينيها ،
وصداع في رأسها . عالجها الدكتور شغبر
في بيروت عشرة اشهر ، ثم قال لها انها لا
تشفى بدون عملية جراحية ، وان العملية
لا تخلو من خطر .

رئيس اللجنة : أبعد علاج دام عشرة اشهر
وما دخل المرشح للقداسة
تأتيه العجيبة ؟! الامر باجمعه ان
في امره ؟ للجنة الموقرة
— اني باسط تلك الفقيرة عائدة الى
فبينا كانت ... ان تزور القديس
شاء الله . وهي مارة بقرطبه
بيتها ، أحست بنار تكسيس .
دانيال في دير ... اسه . العفو
— فهل المرشح للقداسة
— العفو ، ايها المرشح للقداسة تجلى
جثت المرأة امام تابوت المرشح
وتبكي .

٧٤

وتبكي وتقول: انا فقيرة، وانت طبيب الفقراء
في حياتك وفي موتك. إشفني، يا جار
دانيال، إشفني.
بعد ثلاثة ايام شفيت هذه المرأة من
كل اوجاعها، وجاءت تخبر رئيس الدير، فأقسمت
اليمين، واستشهدت الله وجميع الشهداء على ما قالته.

رئيس اللجنة: الكلام لوكيل الشيطان (١)
اين وكيل الشيطان؟
— لا شيطان، يا صاحب السيادة، ولا وكيل
له في قضايانا القدسية الكارونية.
الرئيس: لا بد منه. فالفحص لا يتم بدون
شهادته.
— هذا عندكم، يا صاحب السيادة. اما عندنا في
لبنان فلا الشيطان ولا وكلاؤه يتدخلون في
شؤوننا الطائفية.

ا. الريحاني

(١) Advocatus Diaboli — هو اسم الموظف في المجمع المقدس برومه، الذي يتولى
الحملة على المرشح للتطويب. فمن ذلك ان يقول
وكيل المرشح ان موكله كان قديساً يصنع العجائب،
فيذكر بعضها ويأتي بالشهود. فيقول ~~[illegible]~~ ال
~~[illegible]~~ "أدفوكاتس ديابولي" اي
موكل الشيطان ان هذا المرشح للقداسة
كان يسرق او يزني او يسكر، او انه دس السم في
~~[illegible]~~ لرئيسه فمات. ويستشهد على ذلك من عرفوه،
الشهود ~~[illegible]~~ كانوا ~~[illegible]~~ وأباه.

وكنا نفتخر بجبران الاخ الروحي والكيان،

في بيت نسيب جبور عازار المتحدر من

سلالة صديق الوالد.

نسيب هو من الادباء
نسيب جعفر زين شباب غرزوز وهو

وكان
على انه اضاف الى النبه

صحيح
اعظم ادبائها. اي كتاب الى العجب

انجيل هذا الزمان، اي كتاب كثر دار الكارى

والديوان، فهو الاخ ج

في رجال الكمال بين

نسيب بعد طول العمر،

قبل كتاب جبران،

بدي الفاجعة الاعظم حابانه،

والادب الكتاب المدون فيه بالاحصى واسم كان

فطغى الفقر

صفونيس

الرئيس، يخاطب المسجل: ارفع هذا الكلام من
السجل؛ ثم يقول للمحامي: لا تسمح
بالتحدي في الشهداء فأدعو. هل عندك غير
هذا المرشح؟
— عندنا امرأة قديسة: مرشحة!!
— مرشحة للتطويب!
— من الرئيس من عملائنا.
— اسمها رفقا الراهبة
انخرطت في سلك الرهبنة
اللبنانية في القرية. ولقد ان حل الإعياء
القلبين الوقد سكن.
هذه الراهبة؟
الرئيس: وما السبب في حلها؟
— لست وكيل الراهبة. ما أدري
بشؤونها مني. أتدري هذه؟
— وخلقت الراهبات في هذه الحال
— هو الواجب في هذه المشكلة؟
— وما كان لقد ذلك من امر المشكلة؟
— وما كان لقد زيد تعلم فتيات الاولاد،
— ذهبت الى معاد تعلم
فسئمت التعليم، وطفقت تصلي الى الله لينقذها من المدرسة
ما كانت فيه، او يهديها الى دير تعتزل فيه. فهداها الله الى رجل
البر. ولكنها كانت فقيرة، ولكن دير مار سمعان ان لا راهبات
دفع عنها ان الدخول في دير مار سمعان وتتقشف وتصلي.
فأقامت فيه بضع سنوات تخدم
اقبلوها

٢٩

ومن الادباء الغر الوزة الذائبين في

هذه المهنة المرهفة ممن ذكرت عرضًا في

الفصل السابق، وهو يستحق جملة عاطفية

لفعلة خطابية فعلها يوم زيارتنا لعزوزر.

قال اديب عزوزي مرحبا بالزائر الكريم

مهنئاله، انه نجا [illegible] كما كان نجا سببه الرسل

والانبياء من صنوف الاخطار، [illegible] فيجب ان

وانه يستحق شيئًا من ذلك، كما حيّا في نجوه

لكرال وان لوزه الله يشكر

من الاخطار والاخطار.

وهنا في

٧٦

فبلاها الله في عينيها، فاذنت لها ابنتها
بان تذهب الى بيروت مستشفية.
ولكنها اجتمعت ~~في جبيل~~ بالطبيب عند
احد اطبائها ان في جبيل، فاستشارته،
فعمد الى آلة يفحص بها عينيها، ففقأ
احداهما، فخرجت رفقا الى الارض
مغمياً عليها.
الرئيس: الظاهر ان اطباءكم
مثل رؤوس نائبكم المرشحين للتطويب.
— لست وكيل الاطباء، يا حضرة الرئيس.
— وهذا احد حسنة خطك.
— لا يهمني من خطي حسنة او
سيئة في الدفاع عن قديسينا الوطنيين.
— عن مرشحيكم — مرشحيكم!! وعسى
ألا تحوجني الى اصلاح لهذا الخطأ مرة اخرى.
ماذا حدث للمرشحة رفقا بعد ان فقأ
الطبيب عينها؟ نعم، غفرت لذلك
— غفرت له ذنبه. وراحت تستشفي في بيروت
الطبيب ذنبه. فبعد العلاج في مستشفى
ولكنها لم تتوقف.
احد الاخصائيين عادت من العاصمة اللبنانية
بعينين

٤٦٥

٧٧

لعبتي واحدة.

الرئيس: لماذا لا ترشحون احمد اسعد؟

اجابتهم للفداء: ~~[illegible]~~ هذا

– استغفر اللجنة الموقرة:

التهكم من حضرة الرئيس لا يليق بمقامي العالي.

احد اعضاء اللجنة: إحكي في القضية.

ماذا جرى لرفقا بعد ذلك؟

– عادت الى الدير، وبعد سنة فقدت عينيها

الاخرى. فنقلت، وهي بجريرة، الى دير مار

يوسف جربتا في ناحية البترون. وشرعت

تغزل وتحوك الأخرى للراهبات. فبلاها الله

بشلل في جسمها كله الا اللسان. فيفكر

الرئيس يومئ لينبه انا اسمع: كمّل.

ساكتا. ثم يقول للوكيل:

قليلا ومتجرد

ما بقي لرفقا غير ~~[illegible]~~ لسانها تحركه في الصلوات

دائما، وترتيل

فكانت تصلي على نعمة الحياة

والترانيل. وهي تحمد الله على هذه الحالة ثلاث وعشرين سنة

وتعذب عاشت ~~[illegible]~~ وهي عمياء كسحاء

والايمان. ~~[illegible]~~

نزيهة سنة، والترانيل والشكران.

فصنفت في الصلوات

ثم بعد وفاتها أخذت تعمل العجائب.

الرئيس /

٧٨

الرئيس: وما صنعت أعجوبة واحدة

في حياتها؟

— أي أجل اللجنة الموقرة عن مثل هذا

الجهل، أو التجاهل. أفلا ترى

في الترتيل مع الكسيح والأعمى أعجوبة

الأعاجيب.

— الزم الموضوع واذكر واحدة من

أعاجيب المرشحة بعد موتها.

— سأذكر ثلاثاً. الأولى:

الرئيس: النبش النوري قبرها؟

هذه نغمة قديمة. وهل ذهب النوري عن القبور

النوري يخرج من القبور؟

الوكيل: لا يليق فيه شيء من الغضب إذا كان

حضرة الرئيس أمام نفسه وكيلاً عن الشيطان،

فما الفائدة من القول، وإن كان القول دحضاً

هذراً. على أني أطالع اللجنة الموقرة بما يختلج

في قلبي. لقد عاشت رفقا الريّس فقيرة،

وماتت فقيرة. وإن أهلها لمثل أجنبتها،

ولمثل حالتهم. لا مال لديهم ليبذلوه في

سبيل تطويبها. فإن شاء الله هذا

التطويب، ألهم اللجنة الموقرة خيراً، فقلوب

رقعا. وإن لم يشأ سبحانه وتعالى، فلا أظلم ولا

تطويب، ولا تتمة للكلام في أمركم والسلام.

[illegible]

٧٩

قال هذا وهمّ بالخروج. فاستوقفه
رئيس اللجنة، وخاطبه قائلاً: هو كما تقول،
لا قيمة لدفاعك عن ابناء وطنك المرشحين
للصلب. فقد أضعت وقتنا وما
كنت متأدباً.

فقال الوكيل (بلهجة العطف والازدراء) ازودكم بكلمة
قبل ان تخرجوا من هذه الجلسة. كل قديس من قديسينا
تحملونه الى بلادكم يساوي عشرة وعشرين من قديسيكم
الوطنيين جميعاً.
الى ١٩٢٧
المنكوبين [illegible] الى الجلد.
[illegible] من الجلد الى الجلد
قرأت الإستكبار
فاخرج كل من اولئك المحترمين سيكاراً
اسود طويلاً من جيبه، واشعله
واحرقوا ١٠٠ بدون بروتوكول وهم
وبدأ يبتسمون.

حاشية تاريخية: في عهد المسيحية الاول
كانت اللفظة "قديس" تطلق على كل مؤمن من
النصارى. وفي القرن الرابع شرعت الكنيسة
في تقديس الشهداء لتمييزهم عن سائر المؤمنين،
ثم في القرن السادس اخذت تميّز المتنسكين
والمتقشفين عن الشهداء والمؤمنين
فتلقب منهم القديسين. ومنذ ذلك
الزمان والصالحون الابرار يزدادون في
الغرب والشرق، فيلقبون قديسين
هناك، ويحالون ~~هنا~~ عندنا الى
~~وكيل الشيطان.~~
"الادفوكاتس ديابولي" اي
وكيل الشيطان.

٢٩٩

٨٠

٤٩٨

٨

جران وصاحبها

عدنا من دير كفيفان في الطريق الذي سلكناه اليه ؛
وبعد عشر دقائق اشرفنا على بساتين الزيتون والسفرجل
في كف الوادي ، ثم على الصخرة المزدانة باشجار السنديان ،
وقد نبتت في نخاريبها ، فاذا نحن في جران ، حيث
القينا جيراننا .

استغفر الله والقارئ ، إن في هذا الجبل اللبناني
من اسماء الدساكر والقرى ما يغيظ الأخ الطالب العلم ،
وان الغيظ ليبلغ أشده في مواقف الشرح والتفسير ،
اذا ما كان اربابها من اساتذة السريانية او المشغوفين
بها . فهم لا يترددون في ردّ اسم كل ضيعة وقرية ،
مستشعرين الشرقية ، الى لغة الكلدان ، التي أخنى
عليها الذي أخنى على بني عثمان .

كأن الكلدان والاشوريين ، وكل من عنوا بارضه
الفراتين ، هم وحدهم استوطنوا هذه السواحل والجبال ، فاستقلوا
بتسمية قراها — أهملوا كل حوشي من الاسماء . أو كل

/ هذه

هذه الاسماء سريانية؟ ألم يكن للحثيين والعموريين
والفينيقيين والفرس واليونان وابناء الرومان السنة
يأخذون بها، ولغات يغرسون الفاظها بين صخور
هذه الجبال؟ أوَما سمعت
أوَما عندك نبأ من فقرا والبيعة؟ ها هنا
في العقب الخوالي؟
هذه السواحل الفينيقية لغة الضاد
في جوار ببلوس (جبيل) قرية تدعى الحلوه، واخرى
العقيبة، وثالثة هي الريحانية (مررنا بها في الطريق الى غرزوز)
ورابعة هي الصفراء، وخامسة هي البوار
فهل بادت في البوار العربية؟ وهل فقدت حلوها وريحانها
في الحلوه والريحانية؟ وهل للسريانية او الفينيقية أثر في
العقبة - العقيبة - او
زعفران الصفراء، او في الصفير
في الجرين والجران؟
اننا نضرب ها هنا بجراننا، ونستأذن القارئ بالكشف
هذه الغفلة. كأني بالقارئ
اللغوي المبرز إن شاء الله
عهدناك حلبيا، فمتى صرت لغويا؟ ليقل القارئ ما
يقول: وليسمع لمن طالما استمع الى الاساتيذ المستشرقين.
بناء،

الريحاني

(٤٠٠)

ليس في مادة جرن اثر للعجمة . فهي من طائفة جرم وغيرها من المواد التي اوردها ج د، كجرز – ومنها جارزه اي فاتهه مفاتهة "تشبه السباب" – وجرس – ومنها المجرَّس اي الخبير المجرَّب، والمجرِّس من يشهر عيوب الناس . لغة الضاد هي لغة الاضداد .

ومن طائفة جرم جَرَش يجرُش جرشًا عدا عدوًا بطيئًا، وجَرَش رأسه حكّه بالمشط حتى اثار هِبْرِيَته . الهِبْرِيَه ! ما اكثرها في رأس هذه اللغه . فمن يجرشه لنا؟ كيف السبيل الى تنظيف كل مادة من مواد القاموس، فتزول القشرة – الهِبْرِيَة – من رأسها؟

هذه مادة جرن، وفيها مثل غيرها اللطيف والسخيف، والقديم والشعبي من المعاني . فالذي يهمنا منها في هذا الزمان هو هذا :

جرن الحب جرنًا طحنه
اجرن الحب جمعه في الجرين
اجترن الرجل اتخذ جرينًا
الجُرْن ومن لا يعرفه من أكلة الكبّة في لبنان؟
الجَرْن ج اجران وجران البيدر

كل هذه الالفاظ متقاربة المعاني متجانسة . وهي مستعملة،

اما

اما جرن الرجل جرونًا تعود الزجر وجرن عليه، فان هو الا
الإعراب المعقوت. فاي كاتب من كتاب هذا الزمان، مهما يكن
من شغفه بالإعراب والتحذلق، يفضل الجرون على التعوّد
والتمرّن؟ (٤٠٢)

واما جرن الدرع لان وانملس من كثرة الاستعمال،
فسؤالي الاول فيما يتعلق بالدرع نفسه. فما محله من الإعراب
اليوم في حروبنا الميكانيكية الكيماوية؟ وما الفائدة منه
الجارن والجارنة اي الدرع الليّن الجرون؟ ومن منا يستهويه
التمثل ببيت لبيد العامري، المشرّف القاموس؟

وجوارن بيض وكل طمرّة (فرس)
يعدو عليها القرّتين (الصباح والمساء) غلام.

هذان الاسئلة التي احب ان تجرش جرشًا في القاموس.

بقية الجران، وهي لفظة وضعية لجزء من رقبة البعير. فلا
بد منها ولو من باب المحافظة على التذاكير الطريفة القديمة. اما القصة التي تتعلق بي،
فهي اجدر بان تذكر في الاغاني، لا في القاموس: اني ارويها لما فيها من
طرافة، ~~...~~ ولكتابيه وللكناية التي نشأت عنها:
الجران مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره، تعمل منه
السياط. والسياط لا تزال من الادوات التي تصنع للزينة او ~~...~~ للتحذير

للتحذير. وقد يكون في الالمان الذين يقرأون نيتشه، من يشبهون ذلك العربي القائل بالسوط للمرأة، عامر بن الحرث النمري، الذي لقب بجران العَود (الجمل) لقوله يخاطب امرأتيه:

خذا حذرًا يا جارتيَّ فإنني
رأيت جران العود قد كاد يصلح

فقد اتخذ الحرث لزوجتيه اللتين كانتا تعصيانه سوطًا من الجران - من اعصاب رقبة البعير - ووضعه في الشمس، فأنذرهما بجفافه وقرب ضربهما به.

ومن باب الكناية قال العرب ألقى فلان جرانه، وضرب الاسلام بجرانه، كما قالوا ألقى المسافر عصاه، اذا وصل الى المكان قصده.

اما المِجْرَن البيدر فلا حاجة الى اكثر من الجرن والجرين. واما رجل مجرن اي اكول فهي من الطفرات من المترادفات. او انها من النكات الباردة التي اللغوية التي تكثر في القاموس. فقد ذكر الرجل المجرن - الاكول - تلك للفيروزابادي. والحقه بالمجرن اي المرن من السياط! خذوا حذركم ايها الاكولون.

/ لقد

لقد أكثرت. وما كان القصد غير أن أؤدّي مثلاً من
مواد القاموس التي تحتاج الى من يجرشها، وعل الى مجمع لغوي،
لا لتوسيع نطاق اللغة فقط، فيضاف اليها من الجديد والحديث
ما يعوزها، بل لتنظيفها أيضاً من الهشبرية، ومن
كل قديم عقيم.
وهذه مادة جرن أخذتها مثالاً للجرش، لأن اسم القرية
جران، حيث ولد خير الله خير الله، مشتق منها. فهو اذن عربي لا
سرياني.
وان خير الله لجدير بهذه الجرأة اللغوية، ولهذه التبرئة من
السريانية. فقد كان، رحمه الله، عربياً في حياته الباريسية
اللبنانية، عربياً صافي النزعة، صادق اللهجة، بعيد مدى النظر والأمل.
حراً طموحاً كريماً.
ولد خير الله في هذا البيت الصغير الجميل بابوابه وصحنه وعليّته،
القائم فوق الصخرة المزدانة بالسنديان. وقد لبس في صباه الثوب الاسود،
فتعلم شيئاً من اللغة السريانية، ليلبي الدعوة الرحبة للكهنوت.
غير انه علم بعدئذ، وهو في بلجيكا، حيث ارسله البطريرك الياس
الحويك ليتمم دروسه اللاهوتية في جامعة لوفان، أنه أخطأ
ظنه بتلك الدعوة، فكتب الى البطريرك يقول انه ليس لها،
وانه عدل عن قصده. فاحترم البطريرك حرية ضميره، وأقام على محبته له مدة
حياته.

/ عاد

عاد خيرالله من تلجبتا الى باريس في سنة ١٩١٠، فتعرف الى أندره
تارديو الذي كان يومئذٍ رئيس تحرير جريدة الطان، وحدثه بالسياسة الفرنسية
والالمانية في الشرق الادنى، مبيناً ما ضعف من نفوذ الاولى، وما
قوي من نفوذ الثانية هناك، فأعجب تارديو بالشاب اللبناني
وحدثه، وقال له: اكتب لي مقالاً في الموضوع.

كتب خيرالله المقال، فكان طليعة حياته الكتابية السياسية،
بل كان باكورة عمله في جريدة فرنسه الكبرى، التي تولى بعدئذٍ فيها
تحرير القسم الشرقي، واستمر في تلك الوظيفة يحرر اخبار
الشرق الادنى، ويكتب المقالات في السياسة العربية واللبنانية،
عشرين سنة. ٤٠٢

كان خيرالله ذا شخصية فذّة، مؤلفة من العلم والشعور، ومن
الوداعة والطموح. أحب الحقيقة، وشغف بالخيال. غمس قلمه
في محبرة الواقع الجاف من حقائق السياسة، والبس قلبه ارجوان
التخيل والجاه. فكانت عبقريته تتخطى دائماً امام [illegible]
نبوغه في المخاوف السياسية، والعقبات الاجتماعية. عرف
الفرنسيين بكل ما فيهم من ضعف وقوة، فكان يخاطبهم
بلهجة الند للند — اني انا خيرالله من سلالة امراء لبنان، لي فخار
في ذلك الجيل الأشم. واني حر مستقل مثلكم.

كان يقول هذا، وهو جالس في غرفته الصغيرة، في ادارة الطان
الى منضدة حقيرة عارية، ليغربل اخبار الشرق الادنى، ويحررها،
فيقدم منها كل يوم فقرة او فقرتين لإنارة اذهان الادارة وليبين

/ حديثي

حدثني الأستاذ يوسف الحويك قال: ما عرفت السر في خيال عبد الله الوجري — فقد كان مثل جبران يهوى الوجارة وجاهها، ويتمثل نفسه منه أمانيها — ما عرفت السر في ذلك الوهم الخلاب، إلا يوم زرت بيت صديقنا في جران، ووقفت على السطح أمام تلك العلّيّة الصغيرة، المشرفة على الأودية والجبل، التي رآها عبد الله الشاب بعين الصبوة، فكانت كبيرة فخمة عالية. فالولد الذي تصور نفسه أميرًا في قصره هذا، حمل تلك الصورة في قلبه طوال حياته، فصارت حقيقة رائعة، حفظها في باريس. ومن المضحك أنه عندما كان يحدث الفرنسيين عن قصره في لبنان، وعن سلالته الأميرية، كان يستشهد بي أنا على ما يقول.

لا ريب في أن هذا الوهم، أو هذا الخيال الذي غدا حقيقة في نظر عبد الله وحده، ولّد تلك العنجهية التي كانت تساعده في صموده، سيما فيلقى الفرنسيين بوجه لا أروع منه، ولتعامله معاملة الأكفاء. ومحال أن يعاب فيه أبدًا أنه عاش في باريس حرًا كريمًا، فتجنب العفنة، طلب العون، بالرغم عما كان من ضيق أسباب العيش لديه في أكثر الأحايين. أما اجتماعيًا فقد كان على جانب عظيم من دماثة الأخلاق، ورحابة الصدر، تزينهما ثقافة جامعة، مشرقة. ومع أن منزله في باريس، في ما يسمى الحي اللاتيني، لم يكن حتى في علوه يشبه قصره بجران، فقد كان يلتم فيه إخوانه الأدباء الذين يؤمون عاصمة فرنسة من المهجر أو من لبنان، يؤمهم ما ثبت خياله الأميري، يدعوهم ركبًا لبنانيًا من عبد الأولمبيوس، ذلك اليوناني المضياف المنهمك وثنيًا، ويسكر في ضيافته من ذكر ذلك يتمتع طيبات الحياة الباريسية.

السيباد

ألسيبياد، فضلاً الى ان الضيافة الكاملة هي التي
تشمل الاطيبين . اما المشروب فما كان يقدم
منه للضيوف غير العرق، رمز حبّه واخلاصه للبنان .

وماذا بعد تلك الايام الصافية الحافلة في زاوية
وضيعة من ادارة "البطان"؟ وماذا بعد تلك الليالي
الألسيبيادية في الطابق الخامس من الرقم الرابع
في شارع ليوپول روبر، في مُنْبَرناس (جبل الآلهة)؟
ماذا بعد ربع قرن من الجهاد العقلي، والعبث
"البوهيمي" في مدينة النور؟
ما [illegible] غلبني الغم مرّةً في احلامي اللبنانية
فوقَت علي مجالس الحياة كلها، غلبته يوم وقفت في
تلك العلّيّة التي فتحت بابها شقيقة خير الله
ربّما الحزينة، الوحيدة [illegible] يومئذ في ذلك البيت بجران،
هاهنا في هذه العلّيّة نشأ خيال خير الله الاجبري،
ونعش روحه المقروره، يدفئ به
فحمله الى باريس، يدفئ به روحه المقروره، ونعشُ
طموحه واحلامه . ولقد حمل مع ذلك الخيال الوارث
اللبناني الخالد في نوابغ هذا الجيل، وليد الآفاق الرحيبة،
والصخور المشمخره، ومع الوارث بيتين من الشعر
/ الواحد

٥٠٦

الواحد للمعري –

أَأُنْي في سبيل المجد...

والثاني للمتنبي –

أروم من زمني.....

فجال جولات في ذلك الميدان، المزدحم بالجائلين والجائلات، وغزا غزوات، وفتح فتحاً هنا، وفتحاً هناك، فكان موفقاً في بعض اياته، توفيقه في لياليه، الى ان حان يوم الرحيل – حم القدر – فعانقَ اخوتنا ببيت المتنبي، وما أكمل بيت المعري:

شحن من بارس في صندوق مقفل، وشحنت ثم في صناديقه من خشب غنائمه.

وما الغنائم؟ الكتب، الكتب، الكتب! الكتب، الكتب، الكتب! فراح محلقاً في فضاء خيال نشأ في هذه العلبة، وعاد مجمجماً في الغي كتاب المدنية الطارئة المتوهج، وعاد خيال: غنائم يأكلها السوس، هي الغنائم – هو الخيال:

وخيال تكفنه العفونة....

/ أهدا

٥١٨

٩٠

وهذا صاحب الخيال والغنائم في كنيسة القرية،

تحت باعٍ من التراب، عند الباب، يدوسه

كل يوم المتعبدات والمتعبدون.

٢٨/١/٠١٢٨ ط

ألسيبياد مشيراً الى ان الضيافة الكعيبه

٩

في ظلال الاديرة

خرج الناسك من صومعته ، فالتقى بالقافلة فجارية
الطريق ، فخاطبها قائلاً :
تساقط النجوم من السماء ، ولا نصل الى الواحة .
يحلّق النسر في الفضاء ، ولا يصلون الى السماء .
فالى اين ، يا اخواني ، الى اين ؟
مقر الساقطين عميق ، وهدف المحلّقين
سحيق — كلاهما ليل لا يُدرك آخره .
فما الجهاد عبر النجاد في سبيل المجد او في سبيل
الحال ؟
وما الجهاد في الاوطان ، في سبيل الحرية والاستقلال ؟
وما الوطن اللبناني ، وما الوطن العربي ، في عين
الشمس ، وفي نظر الليالي ؟
لقد شهدتم مأساة النبوغ في جبران • وان
في

٩٢

وان في كل قرية من قرى لبنان مأساة.

ولقد شهدتم وتشهدتم بشعة النعيم، خلال

ظلال السكينة والاطمئنان، في الدير. وان في لبنان

على كل رابية ديرًا يناديكم.

الى الدير، يا اخواني، الى الدير.

وليس قلنسوة ومداس، خير من لبس

الشفوف والافلاس. فلا يغرنكم قول شاعر

المعرة:

أَلا في سبيل المجد ما انا فاعل..

وهو الذي كشف عن الحياة الهها، فما رأى

وراءها غير الافلاس — افلاس العقول، افلاس القلوب، افلاس الارواح،

افلاس الاخلاق، افلاس الاحكام والاديان. ٤٠٧

وقد رآها قبله اجدادنا الحكماء، الاتقياء،

فبنوا الاديرة وانارو فيها سبل الحياة العليا،

والمجد الاعلى.

فما

فما السياسة والسيادة، وما الشهرة والمجد،

وما المال والجاه والبنون، اذا ما انكشف الحجاب،

وفتحت الدروب؟

الى الدير، يا اخواني، الى الدير

فتعالوا الى الاديرة ترتاحوا من تكاليف الحياة،

وتنجوا من مآسيها. تنفتح لكم ابواب النعيم الخالد.

فتعالوا الى الاديرة،

وسكت الناسك، فانبرى له واحد من

القافلة وخاطبه قائلاً:

تتساقط النجوم من السماء، فتغور في الفضاء،

ثم تختفي [illegible] في الفضاء ليبدلوا النجوم.

ويخلق الشعراء [illegible] ويشعلوا بنارها العالم

ويتفقدوها، [illegible] ولا حياة بلا نور.

ولا نور بلا احتراق،

وما الحياة اليوم غير هاوية يرسب فيها

كل حيوان، ويحوم حولها الكهان، كالغربان، ويحلق فوقها

الامراء

البلد   ٥١٢
~~٩٤~~

واسياد الزمان .
امراء الفكر و .. الناسك . فالليل
عد الى صومعتك ايها الناسك . فالليل
اخوك فناديه ، والعنادل فبادلها تناجيك ،
وكل خيال في الغاب يجيبك .

- - - -

وقفت القافلة ، فالتفت لفلاح في الوادي ،
~~[illegible]~~
فخاطبها قائلاً :
هذا معولي يعرف قلب الواحة وكل اسراره .
وهذا منجلي يقرأ الزرع ، وما بين سطوره .
ولكنها معرفة حزينة محزنة . فانا في الزرع
الوفاء ، وانا في الواحة القبور .   (٢٠٣)
انتم راحلون — هاجرون — هاربون .
انتم راحلون — احب ان اكون رفيقاً لكم . ولكن المعول والمنجل
احب ان اكون رفيقاً لكم . ولكن معاول ومناجل .
فبقلوب عاشقة . وفي القلب كذلك معاول ومناجل .
انتم راحلونا . فهلا تذكرون ؟ وهلا تفكرون ؟
لقد فكرت كثيراً ، وهممت بتحطيم كل ما في
القلب /

٥١٢

~~٩٥~~

القلب، او السبحة والتذكرى.
فقد كان آباؤنا اتقياء صالحين، دون ان
يدخلوا الاديرة. وابناؤنا اليوم يدخلون الاديرة
ليصيروا صالحين اتقياء.
او ليهربوا مثلكم من متاعب الحياة — من
العمل، من القنوط، من الاخفاق.
اقول، وحق ما اقول، ليس في الدير صلاح
وتقوى، وليس في الحقول تقوى وصلاح.
اقول، وحق ما اقول، ان الصلاح والتقوى لفي
حقول الذكر والقناعة.
ولكن القناعة نفسها تخاف الظمأ والجوع.
والحقول يخاف من الفاقة والامراض.
ان الخوف لفي كل مكان، او في الاديرة.
انتبذوا ما قاله الناساك، وارجعوا الى
انكم انتم ايضا تخافون من الجوع، ومن الفقر
والامراض.
ولا تجدون في المنكرات ما تجدون في
الفضائل

الفضائل المصطنعة - نبات الخيال، او الرياء والادعاء.

تجنون يوماً جنون القديسين، وتطفرون.

ترقصون ساعة "رقصة الدراويش"، ثم تنامون

مطمئنين محبورين.

ثم تستيقظون مذعورين [illegible] عليكم.

٤٠٩

فما الذي جرى ؟

كذبتم على انفسكم في قولكم انكم لا تخافون الجوع، ولا

تخشون الفقر والامراض.

فليرجع الصادق منكم الى المدينة.

وليدخل الكاذب منكم الدير.

الى افقكم، والموت دليلكم.

ما بالكم تسكتون. ما بالكم لا تتحركون - لا ترجعون،

ولا تتقدمون؟

أتحول الاباطيل دون الرجوع الى المدينة؟

أتحول الاحلام دون الوصول الى الدير؟

ان احلامكم لمثل اباطيلكم، وانكم لجبناء.

تحلّقون في فضاء الخيال، ولا تجرؤن ان تدخلوا الاديرة.

أفتخشون

أفتخشون العزلة؟ الجبال بقراها وخيامها كلها لكم.

أتخشون برد الشتاء؟ هاكم الاحراج، تقطعون
منها للدفء ما تشاءون.

أتخشون الجوع الذي اخشاه انا؟ ان لكم في
بساتين النبق والزيتون، وفي جنائن الخوخ والتفاح والليمون،
ما ينسيكم الحنطة والفول في المدينة.
وهناك الكروم، فلا تحرمون الخمر.
وهناك الحقول المزروعة تبغاً، فلا تحرمون الدخان.
وهناك الصبايا الحسان، اللواتي لا يبتغين
غير الاقوياء.

هبوا بنا. لنمش كلنا الى الدير.

ومشى الفلاح يتقدم القافلة، فخاطبه احد
رجالها قائلاً:
انك اخونا، وإنا نعلم ما يشجيك، وما يثير
النقمة فيك.
ولكننا نقول لك ان للعبودية اجلاً
ينقضي

يتقضي، وان للفقر اجلاً قريب الزوال.

ان ثمار الارض لمن يحرثون الارض، وان

طيبات الحياة لمن يعرقون في سبيل الحياة.

احمل النبأ المبهج الى اهلك وجيرانك: ان

الغد لكم - ان الغد بخيره الوفير للفلاحين، وللعمال اجمعين.

. . . . .

واستمرت القافلة، فالتفت باديب جالس في

رواق الدكان بالقرية، وبيده خيزرانة وكتاب، فخاطبها

قائلاً:

هذا الذي جاء الي علي.

ادخلني المدرسة ليبعدني عن المعول والمحراث. ادخلني

المدرسة لاصير من الوجهاء، فخرجت منها احمل هذه الخيزرانة،

وهذا الكتاب.

فماذا اصنع بهما؟

ان جئت المدينة قالت لي: لا خبز عندي لاهل

الكتب والخيزران.

وان عدت الى الحقل قال لي: لا خبز

عندي

٥١٧
٩٩

عندي لغير المعول والمحراث
وصاحب المحراث والمعول يشكو الى الحكام امره، فلا
يسمعون، ويشكو الى الله فلا يجيب.
فان لبثة الارض، فالعدل في انتاجها لا
يلبسه: المدنية والحقول، لاجنبها، ولاولاها.

وها انا ذا بين
احاول ان اخفي ما بي، فيراني الدهر.
ابكي في سري، فيسمعني الدهر.
اصيح في الوادي، فيناديني الدهر.
الحق اقول لكم، ان خير لبنان لفي الاديرة،
وان ابناء لبنان خارج الاديرة المحرومون. فلاحهم واديبهم
على السواء.
اننا جميعا المحرومون.
فيا ايها المتفانون في حب الاوطان، ويا ايها
المتفلسفون بحقوق
الباحثون المشاغبون، ويا ايها
الانسان والمساواة — يا ايها المحرومون، المنبوذون،
ان الاديرة تناديكم
افلا

٤١٧

فلا خير يدوم في غير الاديره .

ولا حقوق تقوم لغير الاديره .

الحق اقول لكم ان عمران لبنان، ومجد لبنان،

واستقلال لبنان، لفي اديرته .

وان شرف اللبنانيين وفخرهم لفي طغمة الرهبان .

فلنكن جميعنا من الطغمة المباركه .

لنحتل الاديره ! لنحتلها متقشفين .

وان ضاقت بنا، اقتدينا بالاجداد الذين ~~بنوها~~ شيدوها .

لنبنِ كما بنوا، ونزيد .

ان في الجبل اماكن كثيرة جميلة لاديرة فيها :

فلنتوج كل هضبة وكل رابية بدير، فيغدو

لبنان اعجوبة الدنيا في اديرته – يصبح لبنان الفردوس الارضي

الوحيد في ~~[illegible]~~ العالم . ويصبح اللبنانيون جميعاً من ابناء الورع

والتقوى، بل من القديسين، فلا يجوعون، ولا يحزنون .

وان في الدير، خصوصاً للشعراء والادباء، كل ما يبتغون

في هذه الدنيا – خبزاً وتيناً وزيتوناً وخمراً ودخاناً ،

/ فراشا"

١٠١
٥١٩

وفراشاً وتبراً. — بالكتابة
وان فيه اتساعاً من الساعات للتشكيل

والنظم والمطالعة.
وان فيه، فوق ذلك كله، قبراً كريماً مثل قبور الناس،
بل مثل قبور الامراء والملوك. فهنا رخام يضم رفاة
عبقري، وهناك المرمر المشيد لعظام زعيم سياسي.
وان جميل حظنا بعد الموت، أن في الاضرحة، كما في
الاديرة تحدث العجائب. فالعبقري تحت الرخام يصبح
نبياً، والعاجي في قطيرة المرمر يصبح من القديسين.
ألا في سبيل القداسة ما نحن فاعلون. ٤١٢
والحق اقول لكم لو عاد خير الله خير الله الى هذا الوجود
اللبناني، وخُيِّر بين غرفة حقيرة ~~[deleted]~~ في دير حقير، ومكتب
فخم في ادارة "الاوطان" بباريس، لفضل الاول على الثاني، فيرقد
لعلمه انه سيكون مكرماً في وفاته على الاقل،
في ~~[deleted]~~ قبر لا تدوسه ارجل الناس.

ووقف الاديب يهز خيزرانته، وكمن يكمل
كتابة، فخاطبه شيخ القافلة قائلاً:
/ الكتابة

٩

~~الى العزيز الى الكبير~~

ذى الجلال الاكرمه

١٠٢

فمنه

الكتاب باب، والخيزران للبهلوان.

فمنه

ادرك معاني

لبذ الخيزرانه. وولج الدار من الباب، ادرك معاني

الحياة كلها بأتمها، وأحسن العمل الذي فيه الخير

الاكبر لنفسه والناس.

والمعول باب مثل الكتاب.

والجبال جادة الى لب الالباب.

فالفلاح بمعوله، والاديب بكتابه، والشاعر

بخياله، يطلون الناسك، والقطون الرهابين،

كما يعلمون ولقطون غيرهم من الناس.

ومن لا يتعلم شقي، ان كان في الدير او

خارج الدير، ومن لا يتعظ يهلك هلاكا ابديا.

واعمل

أفرح ادعك، ايها الاخ الاديب،

النبأ المعظم الى اخوانك وجيرانك: لا عبودية

غداً، لا عبودية ~~[illegible]~~ جسديه، ولا عقليه،

ولا روحيه.

ج. ت.

٤١٣

٩٨

لمن يعرقون في سبيله

١٠٢

١٠

أَخَواتُنا القانتات

ورأينا عُليَّةُ خيرِ الله،
لا تزال في الجوار القدسي. والى يمينِنا
وبساتين السفرجل والزيتون التي تشرف عليها،
هضاب يشرّف احداها ضريح القديسة رفقا في ديره،
وامامنا القرنة نفسها، وهي على نحو اربعة
كيلومترات من الدير.
في هذه الروابي والبطاح، بين الجبال القائمة
حولها من الجهات الاربع، فتحجب قُننها الغربية البحر،
وتلمح من منازلها الشرقية غيمة سوداء هي غابة
الارز، في هذه الاروقة الخضراء الصفراء الدكناء،
المعطرة الجوانب، الناعمة مطالع النور، الهادئة
الوادعة مثل اهلها، ها هنا حرم لم تمسّه
[illegible]

حدلية الاصطياف بشيء من الشعر او الخبر:

وما كنا مع ذلك آسفين. ولو كنا في
غشيتنا روح المكان فأصبحنا
محبة في الابتهاج:

فيه كالناس لا نشعر بغير النعمة الالهية.
وماذا يهم بعد ذلك ان كانت الطريق معبّدة
بالتراب او بالزفت؟ وماذا يهم ان كانت مياه
الشرب في كفيفان من الصخور او من الينابيع؟
وما ضرّك ان نسيت اسم القرية المفرسخة
على تلك الابنية؟ هو اسم فنكلي، وقد يكون من
الاسماء السريانية. على بضعة كيلومترات
اما القرية التي دونها، هو عشرين.
من كفيفان، فان اسمها خفيف اللطيف، نقعد،
وعلى الهضبة المجاورة لها يقوم الدير الذي باسم
دير الراهبات اللبنانيات، اللواتي اشتهرن
الفرنية

١٠٥

القرية، واشتهرت القرية بالكهنة - والراهبات

عشرين،

بعد ان نبلغ رأس الرابية، يستمر الطريق

في وسط بستان من الزيتون، حديث الغرس، بادي

النعمة، فينتهي الى الساحة امام صرح ذي

طوابق، متصل اسفلها، منفصل في الوسط

اعلاها. فان

ليدرك في ادارة لبنان الدير المبني على تصميم

اكثرها نشأ نشوءاً طبيعياً، وقلّ من فأ

دعت اليه الحاجة، فلبّت الدعوة السلطة الادارية

والمبدأ العاملة، بمعرفة فنية اكيدة، ان في

التعبير، وبجهل يتراوح بين الأكيد والإبهام

فكانت في البدء النواة - بيت مستطيل او مربع

كنيسة مثل البيت. فنشأ فوقها، او الى

جنبيها، او حولها من كل جانب، بيوت عدة

بابنيتها

١٠٦

بأقبيتها وأروقتها وأواوينها، فامسى الدير

كالتراث القديم الحديث، لا تُعرف مخرجه من مدخله،

أوله قبوة معقود، وآخره ايوان قشيد بالسمنت!

يتيح الزائر في ارجائه المتداخلة، وتؤخذ مع ذلك

بفوضاه الهندسية،

اما دير عبرين فقد بني اولاً على ورق المهندسين،

ثم شُيِّد على هذه

بناه باجمعه المهندس الرسام، فاذا هو صرح ذو واجهة

الهلقية الجميلة بموجب الرسم، في وسطها باب يدرج الى الدير،

مدبرة الجناحين، وفي كلا الجناحين باب مثله، الواحد

ولا تكرار، الى المستشفى،

الى الكنيسة، والآخر الى المستشفى، تحيط به

ولهذا الصرح المربع صحن فسيح،

الاربعة اروقة بقناطرها، فيه جنينة زاهرة،

في وسطها تمثال من الرخام الابيض

يقوم ... ، صنع الفنان المشهور يوسف

للقديس ايلياس الحويك

١٠٧

٥٥٥

الحويك، وفوق الباب الخارجي تمثال آخر من نحته،
يمثل العائلة المقدسة، التي تدعى هذه //هنبة
باسمها. ولا تتميز،
ان هندسة الدير اوروبية كما ترى.
من الوجهة الفنية، بغير التناسب في الخطوط، والاتقان
في البناء. هي بناية جميلة في معناها، انيقة في مبناها،
ذات ايوان خارجي، واروقة داخلية. في الطابق الاسفل
مخازن الدير، ~~وجناح~~ وجناح تحت الكنيسة مخصص لضريح البطريرك
الياس الحويك، وفي الطابق الثاني الكنيسة والمستشفى،
مع ادهة
واماكن التعليم والادارة والمعيشة،
وفي الثالث دور اخرى، وغرف
استقبال.
(٤١٥)
للراهبات. وهندستها
هي ذي الطريقة الاوروبية بروحها
وهي ذي حدودها. اما ما دون ذلك فهو كله لبناني
عربي، لبناني القلب، عربي اللسان – على الاقل –
اليوم. بيد ان هناك نزعة عربية تبدو

ا/خ

في اتساع نطاق المدارس التي تنشئها الراهبة.
فان مدارسها في التعليم، وان انحصرت مبدئياً في
لبنان، اخذت تنتشر في غير الجبل اللبناني،
فتدفق من الجيران شمال طرابلس، وفي
سهل البقاع. وبالجملة غير
وصلنا الى الدير الظهر، فاستقبلتنا احدى الراهبات
حبيبة، جوعة بكلمة. فاستقبلتنا البناشه، فشعرنا
ببهجة لبنانية، ولطف ... لبناني، واطلعنا على انا. فشعرت
اننا في بيت لبناني، واسرعت لتخبر الرئيسة.
الاخت الكريمة بهذه الحرية، وبشروا
وما كانت الرئيسة بأقل منها لطفاً وبشراً.
جاءت تؤهل وترحب بنا. ثم امرت بتحضير الطعام، بعد
ان اعتذرت عما تقتضي به المفاجأة.
قالت: لا تؤاخذونا، كما تقولها امرأة لبنانية
في بيتها. فأحسسنا اننا في دير. وما كنا لنحسه
الوالد

١٠٩

لولا الثوب الاسود والأنسار الابيض حول الوجه، ان
السيدة التي تخاطب هي راهبة، رئيسة راهبات.
وبالتدقيق هي الأم جوزفين حويك (١) الرئيسة
العامة لجمعية العائلة المقدسة المارونية.
قد أسس هذه الجمعية البطريرك الياس الحويك،
في سنة ١٨٩٥، اذ كان اسقفاً، «لتقوم بتربية الفتيات
على الروح الوطنية.» وقد بوشر ببناء هذا الدير بعد
ثلاث سنوات، فتم في سنة ١٩١٢، بهمة
الرئيسة الأم اسطفاني، وبفضل البطريرك الحويك الذي
قام بالنفقات كلها.
هذه الجمعية الحديثة العهد، التي لم يكن لها في مطلع
هذا القرن غير دير واحد ومدرسة واحدة، هي اليوم
اكبر جمعية من نوعها في لبنان، لها دير ومستشفى
ببيروت، واربعة اديرة اخرى، فيها مائة وثلاثون
راهبة

(١) الأم جوزفين هي الرئيسة الثالثة لهذه الجمعية.
خلفت الأم اسطفاني سنة ١٩٢٧، التي تولت شؤون
الرهبنة سنة ١٨٩٩، بعد وفاة الرئيسة الاولى
الأم روز الحي.

راهبة. اما المدارس الابتدائية للبنات، فقد بلغ
عددها، سنة زيارتنا الدير بعبثيرين، سبع
وعشرين مدرسة، منها اثنتان في ناحية
بعلبك، وواحدة في بانياس، وفي كل منها
نحو مائة طالبة.
سألت حضرة الرئيسة: هل تدفع كلهن
راتب التعليم؟ فابتسمت وهزت برأسها. ثم
قالت: من الاربعين الى الخمسين في المائة مجانيات"
والباقي يدفعن رواتب تختلف باختلاف مقدرة
اهلهن.
سبع وعشرون مدرسة، تضم اليها نحو الفين
وخمسمائة من بنات هذا الجيل، فمنهن الف على الاقل
يتعلمن مجاناً. وما أفلست الجمعية. بل هي
مستمرة في توسيع نطاق عملها، فيزداد فضلها
واحسانها في ازدياد مدارسها.

/ن/

١٦١
٥٢٩

ان في لبنان رهبنات اجنبية عديده، ومدارس
تعد بالعشرات. فأية مدرسة يا ترى من مدارس
الراهبات الاجنبيات تعلم عشراً او خمساً من
الطالبات مجاناً؟ وهذه الراهبات التجارية تجني
على اهل البلاد، وتجبي نفقتها من المعاهد الخيرية،
التي تكاد تنحصر في دير الراهبات العازاريات
ومدرستهن لليتامى. أفلا تشاركنا اذن في الاعجاب بمؤسسة
عبرين الوطنية؟
واني ازيدك علماً بها، براهباتها المهذبات
المحسنات. يتهمنا الاوروبيون بالعجز في
تأسيس الشركات وتنظيمها. وفي هذه الشركة
الخيرية التهذيبية - النسائية - البرهان
والدليل على فساد التهمة.
لست، كما تعلم، ممن يحبذون الراهبات
والتعليم /

والتعليم المجاني. ولكني مقيد باحترام الحقيقة،
وحب الانصاف. وهما يوجبان علي الإشادة
بذكر هذه الراهبة الوطنية، التي لا تقصر في التنظيم
وحسن الادارة عما اتصفت به راهبات الاجانب.
هي على الاقل مثل تلك الراهبات. واني ارضى
بألا تكون احسن منهن في غير الروح الوطنية،
والعاطفة الانسانية.
بل اقول فوق ذلك ان راهباتنا كأخواتنا،
أنهن الفاتنات الفاتنات – الفاتنات بلطفهن
وبشاشتهن اللبنانية، وبشجيهن
القروي، ويبعدهن عن القداسة المصطنعة
صفاء الروح.
فلا الروح القدس، ولا الآب والابن، ولا العائلة المقدسة
تريد على ما نالهن، ان تغير في طباع هؤلاء اللبنانيات.
لا قناع للتقوى ها هنا – لا وجوه كالحة، وانما
اصوات صالحة.

د/ حمنا

٤١٧

دخلنا غرفة الطعام المعدّة للضيوف، قبل أن
نُدعى إليها. وما كان على المائدة غير الخبز والجبن
والزيتون، فتناولناها كما لو كانت خروفاً محشياً.
وعندما دخلت الأخت الموكّلة بنا، وأبصرتنا في
تلك الهجمة، هتفت قائلة بلهجتها القروية
الضاحكة: "أتقبروا أماتكم! جميع الكم
جوعانين!"
ثم جاءت الخادمة - إحدى الطالبات المبتدئات -
تحمل الطبيخ. وأعادت الكرّة، والراهبة تزجرها، ذاهبة
آتية، فجاءتنا بالحلوى من تين مطبوخ وبقلاوة، ثم
بالفاكهة، ثم بالقهوة. فكانت تضعها على مائدة
صغيرة في زاوية الغرفة، فتنقلها الراهبة بيدها
الى مائدتنا. أعجبني هذا الأسلوب المقتبس
من التنزّل الكبري: خادمة تحمل الطعام، وراهبة
تقدمه لنا بيدها. هي الضيافة بأسلوبها الأنيق.

الهو

هو الاكرام في غايته القصوى.
وهو فوق ذلك في دير راهبات لبنانيات،
أخواتنا القانتات القانتات.
صحبتنا ثلاث منهن الى الطابق الأعلى
لزيارة الضريح الكريم، ضريح مؤسس هذه الرهبنة الوطنية
المغفور له البطريرك الياس الحويك. فاذا نجده في
قدس اقداس الدير، امام درابزون من حديد، يفصله
عن الباقي من المكان. وفي القسم المعقود، المربع الشكل،
مذبح تعلوه صورة مطورة بالدهان الزيتي على الحائط،
تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل المسيح الى الجلجلة. وليس
على المذبح شيء من الزينة القدسية المتبذلة. ليس هناك
غير الانجيل، وشمعدانان فيهما شمعتان.
في ~~[illegible]~~ الجهة اليمنى من هذا الحرم ضريح البطريرك،
المصنوع من المرمر الابيض اللبناني، في مصنع وطني بطرابلس.

اوال

٥٢٢

١١٥

والجانبية قبران مستويان والدرابزينه، الواحد
للأم الرئيسة الاولى، والثاني للأم اسطفاني
خلفها. وفي الوسط، قبالة الضريح المرمري،
تمثال من الفضة، يمثل البطريرك جاثياً يصلي،
وقد ضم يداه الواحدة الى الاخرى. وعلى
الجدارين المصفحين بالمرمر، فوق قبري
الأمين، مصباحان من الحجر نفسه،
محكمان الوضع، مشتعلان على الدوام
أما التمثال، وهو اقل قليلاً من القياس اللازم،
فانه ليشفع لكل ما صنعه الاستاذ الحويك من التماثيل
التي كُلّف ذويه بصنعها، وكان مقيداً بذوق
العامة، الذين لا يعرفون من الفن غير الصورة
المتكلفين، الذين لا يدركون من الفن غير ما
الظاهرة، او الذين لا يدركون من الفن غير ما
يخدم اغراضهم السياسية، او غاياتهم القروية.
اما في هذا التمثال، فقد برز الاستاذ
/ يوسف

يوسف عبقريته، اذ كان حر الفكر والنظر، مطلق الشعور
والعمل، فما رضخ لغير الحق، وما جامل غير الروح
فيه والعقيدة، فكان حاذقاً كل الحذق، ومجيداً كل
الاجادة.

هوذا الفنان، وقد تغلغل في جميع موضوعه، إحساساً
وفكراً وفناً، فمثّل الورع والتقوى في وجه البطريرك، وفي
طرفه الراجي، وأنطق بالاستسلام الوجهي الأتم
حتى الأنامل منه، التي تبدو في تماسّها الهادئ
اللطيف، كأنها تردد ما ينطق به قلب المصلّي.

وانك لتلمس عبقرية الحويك، ليس في التمثال فقط، بل في
الحرم بأجمعه، وقد تولى هو ترتيبه، واشرف على كل عمل فيه، واشارة
فجاء حتى في نوره الخارجي الضئيل، الذي يكاد يصل الى نور
المصابيح عند الليل، آية في الفن الباعث على
الخشوع والاعجاب.

ولا غرو، فان عمه البطريرك الجليل الخليق لجدير بهذا
التكريم، كما ان عبقرية الفنان لجديرة بهذا المقام.

—

أمين الريحاني

قلب لبنان

الرحلة التاسعة: في غياهب الزمان

التاسعة
الرحلة ~~السادسة~~

٥٢٥

في غياهب الزمان

—

محطات السنين

—
١

فرنسيس

١

٥٤٦

محطات السنين

من آفاق لبناننا الى آفاق لبنان الشعوب أعود
بالقارئ عودةً طويلة المدى - اربعة الاف سنة الى الوراء -
هي رحلة ولا كالرحلات الارضية او الجوية، نستعين
فيها بمصباح التاريخ وان ضؤل نوره، وبالخيال المثقف
القويم، فنشق بهما غياهب الزمان العابر،
ونمر بالمحطات التي وقف فيها التاريخ هنيهةً ملتفتاً
من السنين، وهو ينتظر الانسان ليخرج من
سبجات الجمود والجهل، ومن غمرات المظالم والحروب، من
طرة النور،
هلمّ نطير، ايها القارئ العزيز، ~~ايها القارئ العزيز~~ غبار
انفض عن جناحيك ما ورثته من عفنه، وتعاليم
كوابيه. وانس ما ورثته ويشغلك من تقاليد
الخمول والاستسلام، وما يشغلك هذا الزمان
من علم وشكوك، وما التبسته من حو حلات
وخرافات، وهلمّ نطير من مستنقعاته الاجتماعية والدينية.
السابقة، [illegible]
تعالَ نطير - من سراب الرجال وليداء
خنوع الاهالي وحرمانهم - الى المحطات
الاعمال - تعال نطير في اجواء الزمان الى فجر التاريخ الذي
الكبرى في مأساة المدنية
بهمنا الان. تعالَ نطير ولو للذة الطيران
والاستكشاف

فرنسيس

٢ ٥٦٧

والاستكشاف ~~[illegible]~~.

وها نحن في المحطة الاولى، اقرب المحطات من حاضرنا. هي

المحطة الزرقاء في التاريخ الحديث لهذا الجبل، وقد تقدمتها

المذابح البشرية، وتلتها الفاجعة العالمية الكبرى، [ارتشف] وقد

نعيم - نعيمة - بين كارثتين. واللبنانيون بعيدون عن السياسة

نسوا الماضي وجهلوا المستقبل، الا شيوخهم وكهنتهم

مكبون على الاعمال المثمرة - اولئك القناصل ~~[illegible]~~

وقناصل الدول الحامية لهم، اولئك اللاعبين لعبة الشطرنج

العابثين بمقدرات الجبل، اللاعبين بكرامته وحياته. فما كان نعيم اللبناني ليجول دون

الهجرة، فهاجر الفلاح والاديب - وتشددت بعد

ذلك حروج في الجبل. وحروج من العلم والادب في مصر

وامريكه. هي ذي ~~[illegible]~~ المحطة

الزرقاء، محطة المتصرفية، المحطة الشهباء،

وهناك على مسافة قصيرة منها، الاقطاع، والسيد الواحد المطاع؛

وقد كتب فوق بابها: الاقطاع، والسيد الواحد المطاع؛

هو بشير الشمس، خفير الامن، والحاكم المستبد العادل

في اكثر الاحايين. فنام اللبنانيون في زمانه ملء

جفونهم، وما كانوا ليحلموا بالثروات والقصور، ولا

بالحرية ولا بالاستقلال التام [illegible] ولقد

لقد كان ذلك اللبناني سعيداً في جهله، وقناعته
وطاعته. الا اذا لم تكن صافية في لونها الازرق الهادئ، فقد
تخلل الطمأنينة شرر من نار ~~[illegible]~~ الفتنة، ودخانات من نار الطموح،
ولمع في فيافي الجهل شعاع من مصباح العلم. هي المحطة
القائمة على تخوم الهول من الجهة الواحدة، وتخوم الامل من جهة
الجهة الاخرى. هي بين الخطين الزرقاء والحمراء
كالنجمة ~~[illegible]~~ المترجرج نورها بين أُفقي الشتاء والربيع. وقد
المحطة الحمراء، فاهي. الحمراء الدامية، نسجت
طالت فيها إقامة الزمان. اربعمئة سنة كاملة، القائم على ارواح
ايامها على المنوال الواحد، منوال السلاطين المستند بالمظالم ~~[illegible]~~
العباد، ~~[illegible]~~ بأبه ما عهد مثلها الناس
المنقطعة النظير في تاريخ الامم. يأكلون خبزهم
فيه الى قبورهم بين خلّتي الجزع والقنوط. ويدفعون الخراج، ويتشفون
مغموساً بالدم والعلقم، وهم مع ذلك يدفعون الخراج، ويشتفون نار العيان
للبادشاه.
وفي فترة من ذلك الزمان أُضرمت في لبنان نار العصيان
وتلألأت انوار عربية شعبية للاستقلال اللبناني -
انوار متقطعة، فالبنت ان انطفأت، كما انطفأت
في احلك الحياة.
وقد كان الجاهل في كل احوال الملك طاغياً، فعم البلاد
العربية جمعاء، من جبال طوروس الى جبال اليمن، ومن ارض
الكنانة

خميس

٤ 529

الكنانة الى وادي الرافدين . فأمسى الظلم والإرهاق ،
والسفه والفساد ، أشياء مألوفة ، يمارسها الناس
سلّم من
قويهم وضعيفهم ، بعضهم على بعض ، في يا هذا ورجلاك على رأسي
الشرور مبرور : رجلي على رأسك ، وادّع بالعز والتأييد للسادة بناة ،
من هو دونك فقل الحمد لله ، وأسفله في جميع الأمة ،
هو سلّم المساواة في المنكرات ، في المحطة الحمراء ،
وهو خالد الذكر
وأعلاه في يلديز .
المصبوغة بالدماء البشرية .
هاك محطة أخرى من محطات
هلمّ نظير - نظير . [redacted]
السنين ، وقف الزمان فيها حائراً ، لا يدري ما الأقطع في
تاريخ هذه البلاد ، أحروب الفاتحين أم حملات الصليبيين . هي
المحطة السوداء لسبعين من السنين ، وقد ضاع فيها كل
هي الظلمات
الثلاث ، شيء مقدس في الديانات الثابتة
وما شقع
السماوات ، وقد يسطع فيها المكسفة لوجهي
للهلال ، واتّوجز للصليب .
واحد
[redacted] نجمان اثنان فقط ، ١٢ ، فاكبر لعباده
في التحالف والتخاذل ، وقد ظهرت فيها المغريات
النصيرية
وحشت
الملوك والامراء المجاهدين اخوانهم
والمارونية في أخوة غريبة تنصران الصليب على الهلال .
الذي حلب ، وذلك الذي
الصليب ! الهلال ! ان ذلك
ومن
الى الله من اصحابها
حطم اصنام الكعبة ليبرأ
١٥ / ٩ / ١٩٧٥

فرنسيس

٥

حروبهم السياسية التجارية.

وما القبر المقدس، وما الأرض المقدسة؟ عاد الفرنجة الى
بلادهم يحملون من الشرق العلوم الصناعية والفنية، وعادت
الممالك الاسلامية الى التخاذل والتطاحن، ففتحت الطريق
للتتر والترك الزاحفين عليها من اواسط آسيه..

لنستأنف الرحلة في اجواء الزمان.
بعد ان تختفي المحطة السوداء عن الابصار ندخل منطقة
من الغيوم كنتفة فوق قمم لبنان، وقد رقشت هاهنا وهناك
فتخللتها خيوط من اشعة الشمس المشرقة فوق غوطة
دمشق. وهاكم ذي في المحطة الخضراء المخطوط ~~فوق بابها~~ في احدى زواياها هذه
الكلمات الثلاث: السلام لاهل الكتاب.
اللبنانيون النصارى من اهل الكتاب. والجبيليون من
جميع لبنان.
وبيد ان هناك من كان لهم في لبنان اغراض وحاجات،
اعني ملوك الروم، وقد ابوا ان يخرج اللبنانيون من حوزتهم،
~~...~~ وعلى اهل ~~...~~ صور وطرابلس الخليفة معاوية، ونبواله
ميالون العرب عاوالى الاجانب. وهل يخرج المؤمنون
~~...~~ ليحارب، اولئك الاجانب والكافر؟ وهل يخرج الكافر بانه العز؟
وهل يستوي في عين الله المؤمن والكافر؟
من حوزة خلفائهم واخوانهم في الدين، ليبقوا خلدا في حوزة الكافر بانه العز؟

ليتنقذهم

الصحن، فضيحة منهم

ليتقدّمْ المردة !

وجاء اولئك المردة (المعروفون عند العرب بالجراجمة
نسبة الى مدينتهم جرجومة في جبل اللكام) يفسدون
ما أراده العرب سلماً وولاءً . هم هم الجراجمة
والمردة بشهادة المؤرخين المدققين ،
الذين ارسلهم اللحياني قسطنطين الى الشام للدفاع عنها ، فاحتلوا
لبنان ، وظلوا يحاربون العرب ، الى ان صالح الخليفة عبد الملك
ملك الروم ، فامرهم بالرجوع الى وطنهم .
ومما رواه البلاذري أن الوليد بن عبد الملك ارسل
الى الجراجمة مسلمة اخاه ، فافتتح مدينتهم ، وعاهدهم على
ان ينزلوا حيث شاؤوا في بلاد الشام ، والا يكرهوا
على ترك النصرانية ، والا يؤخذ منهم جزية
وجاء في معجم ياقوت ان الخلفاء اجروا الارزاق على
الجراجمة ، واستعانوا بهم في حروبهم . ولا عجب
فكانوا هؤلاء الجراجمة اشتهروا ببروز الاسود وبعد النظر .
والأمويون يقدرون اولي البأس ، كما يقدرون أولي الحجى قدرهم
ويستعينون بهم في ادارة المُلك ، والدفاع عنه . *
ومما هو محقق كذلك ان اكثر اللبنانيين ، بعد
ان سكنت حركة الجراجمة ، ظلوا يؤدون الخراج لخلفاء بني
امية ، ولبثوا في ظلهم آمنين مطمئنين . هي بهجة
/ جنة

منذ ازمن مشرقة يسجلها التاريخ في المحطة الخضراء.
وها قد مرت الف ومائتا سنة في رحلتنا هذه من
عهد الجمهورية اللبنانية السعيد الى العهد العربي المجيد. فلا نزال
امامنا - [crossed out] وراءنا او بالحرى - ضعفاها من السنين - بارجائها
الداهمة وآفاقها ومحطاتها.
انك لتسمع وانت تدنو من جبيل الحديثة - نسبة الى
ماضيها البعيد القديم - صليل السلاح وعويل الناس، يمتزجان بالصوت
الارجة وقد زلزلت زلزالها، فتنقلب مدن الساحل
الفينيقي، وتجهز على ما ابقت حراب الفرس
سيوف البيزنطيين، وهم يقتتلون للاستيلاء على
البلاد السورية وجبال لبنان، وهجعت في الارجاء
وما ان وضعت تلك الحرب اوزارها، وبدت الاولى والاهوال الثانية،
زلازلها، فاستراح الناس من ويلات
حتى قام ملك الروم باسم الدين يعمل السيف في رقاب اهل
البلاد المتمردين! من الاوثوخيين لتعاليمه يقتل
المجمع الخلقيدوني المقدس، المسيحيين "الكفرة" وسام
وقد قتل البيزنطيون الملكيون كثيرين منهم [crossed out] على
ثلاثمائة وخمسين من رهبان مار مارون في ديرهم على
نهر العاصي! تعال نطير الى المحطة التالية - المحطة الرقطاء،
محطة

٨ ٥٤٧

محاربة البدع الدينية، وأنكرت تلك البدع في نظر علماء
الكنيسة المقدسة، التي تمخض بها مجمع خلقيدون، أنكر
تلك البدع البدعة الآريوسية التي تقول ان للمسيح
ناسوتاً، وليس له لاهوت. ثم النسطورية القائلة
بأقنومين للمسيح، الهي وانساني. ثم الاوطيخية
وهي نياقضة النسطورية بقولها ان للمسيح اقنوماً
واحداً. ولكنها تقول ايضاً ان له طبيعة واحدة.
وقد نشر التعاليم الاوطيخية (نسبة الى صاحبها
اوطيخوس) يعقوب البرادعي فعرفت الشيعة باسمه
اي اليعقوبية، ودعي اتباعها بالمعاقبة. وكانت الموارنة
منهم في بادئ عهدها وقد انكروا على المعاقبة قولهم
وهناك المونوثيليون ~~بالمشيئة~~
في الطبيعة الواحدة وجاروهم للسيد المسيح في العقيدة. (اقلب)
~~[illegible]~~ والمشيئة ~~[illegible]~~
~~الواحدة~~ بالعقل ~~[illegible]~~
تعددت الاقوال ~~[illegible]~~ والكمال الديني واحد!

هوذا
ابسط جناحيك واتبعني
ابسط جناحيك اتبختر في ساحة المدينة
الروماني في خوذته ودرعه
ويقول متبجحاً: اني روماني، واني لمن البرابرة. وهذه
القلاع

عقل المسيح، طبيعة المسيح، مشيئته، ناسوته، لاهوته –
تعددت الأقوال، والخيال الديني واحد!

القلاع والحصون، وهذه القصور والمعابد للرومانيين. وهم يصلّون يومًا للمشتري، ويومًا للناصري يسوع. بيد أنهم في كل أحوالهم روحانيون ماديون متعسفون، غليظو الرقاب والأكباد، لا يهمّهم من الدين غير أسباب السيادة فيه والراحة والمال. قال المؤرخ غيبون: «تعددت الأديان في الممالك الرومانية، وكانت كلها صحيحة في نظر الشعب، وكلها فاسدة في نظر الفيلسوف، وكلها في نظر الحاكم نافعة.»

وقد اشتهر الرومانيون لذلك بسلامهم الموطد الأركان. أنعم به من سلم، شديد الويل في مقدماته ونتائجه! فقد كان يبسط أجنحته السوداء فوق أطلال المدن، وبين بقايا الشعوب. السلم الروماني — بعد خراب البصرة! بعد الاكتساح الروماني، والاستعباد راحة للشعوب المغلوبة — سلام، سلام. فلا عجب إذا كانت الأديان كلها كاذبة — ونافعة — في نظر الحاكم الفيلسوف. اعبدوا من تشاؤون وما تشاؤون، وقدموا أطفالكم وبناتكم الأبكار قرابين للآلهة، وألّهوا الفروج والشياطين، بشرط أن تدفعوا الخراج أوفه، وأن تعنوا للحكام الرومانيين.

وكان كذلك. فقد دامت نار الوثنية — الإغريقية والفينيقية — مشتعلة في لبنان حتى

حتى اوائل القرن السادس للمسيح.

وكان القديس سمعان العمودي يسعى لهداية
اللبنانيين الوثنيين. وقد هدى منهم الكثيرين، كما يقول
المؤرخ، بما كان يصنعه امامهم من العجائب. ومنها،
ولاغرو، جلوس القديس سمعان على رأس ذروة العمود،
جلوسه السعيد المديد، الذي دام اربعين سنة!

الشاهل الروماني - السلم الروماني - الاستعباد
الروماني!

وكان قد تقدم كل ذلك انتشار الثقافة الاغريقية
في البلدان السورية والسواحل الفينيقية - تلك الثقافة
الفائقة بالجدل والفصاحة، المزدهرة بالشك والاستهتار،
المجلببة بجلباب الكسل والرفاهية. فمهّد افلاطون
وأبيقور السبيل لأغسطوس قيصر.

وها نحن في المحطة السابقة للمحطة الرومانية. هي المحطة
وفيها النبأ الفينيقي المخرّب. هناك الفينيقي
اللازوردية السلوقيين، خلفاء الاسكندر،
متأغرقاً، تقليداً للسادة ويتكلم ويكتب في لغتهم، وينسى
في عاداتهم وعباداتهم، وارباب التجارة في الاقطار.
ان اجداده كانوا اسياد البحار، طفرة واحدة، وان لعبد مداها،
هلمّ نطفر الطفرة الاخيرة سنة - الى ذلك
من الفتح الاسكندري الى ما دونه بالف وخمسمئة
العهد الفينيقي الاول، عهد إبشموأبي وأبي شمو في مدينة
جبيل.

هم الذين عدوا اجدادهم الاولين [illegible]

جُبَيْلُ ٱلشَّمُّويِّين

—

أُقيمت المناحات في قرى المملكة، على ضفاف النهر
المقدس، نهر آدون، وفي الجبل تحت اغصان السرو
والارز. وأَمَّ المقدَّسون العاصمة ليشتركوا في
المأتم العظيم، مأتم الملك أبي يشمو ملك جبيل، وكاهنه
رِشِف البعل.

فجئت انا معهم. وانضم اليها رهط منه ابناء السبيل،
فيهم النُدّاب والشحّاذ، وبياع الحلوى، وبياع الالاعيب والتعاويذ.
مشينا الى العاصمة جميعاً، المحزونون والمتفرجون والمرتزقون
واللاطمون، وكنا نقصّر الطريق بالاحاديث عن الملك الراحل
فنذكر حسناته وسيئاته، ونرفع الاصوات، كلما دنونا من احدى
القرى، بالندب والنحيب.

كان غنياً، كان تقياً، كان قوياً بين الملوك.
آه، واه، اواه!
تبكيه المدن، تبكيه القلاع،
تبكيه السفن، وارباب الشراع
آه، واه، اواه!
كان غنياً، كان تقياً، كان قوياً بين الملوك.

وبعد ان مشينا يوماً وادلجنا نصف ليلة، وصلنا الى
المدينة في مطلع الفجر، فجلسنا تحت النخيل خارج السور نستريح
وننتظر

١٢ ٥٤٧

وننتظر المتخلفين من قومنا. ~~فعندما وصلوا~~ ثم مشينا جميعاً الى
الباب التربيّ منه السور، فدخلناه وتقدمنا صامتين
تحت صفين من الجنود فوقنا، وراء الحصون الى جانبي الممرّ
الطويل، بين البابين الخارجي والداخلي.
٤٢٠
وعندما اشرفنا من الباب الثاني على المدينة، رفعنا
الصوت بالندب والبكاء، فكانت الوقفة مفجعة مرهبة.

كان حكيماً، كان كريماً، كان حبيب جميع القلوب.
آه، واه اواه!
كان لقصره مائة باب، تؤدي اليه جميع الدروب.
آه، واه اواه!

ثم نزلنا، بعد ندبة التسليم، في درج طوله خمسة ابواع،
الى الساحة الكبرى، وقد غصّت بالجموع المتفجعة، فبادرونا
بندب الراحل العظيم، فرددنا عليهم باحسن منه فدبّ بهم، فملأنا
السماء بالنحيب، والساحة بالدموع.
بعد ذلك مشينا جميعاً من الساحة، بين صفوف من
البيوت المربعة المشيدة بالحجر الابيض الكلسي، المسقوفة
بخشب السرو. وكانت النساء تقفن في الابواب
وقد حللن شعورهن، والمناديل بايديهن يحيّينا بها،
ويولولن باصوات رفيعة جارحة.
مشينا نخترق المدينة الى الهيكل الاكبر، المشيد على

/ البوة

ابوة بالقرب من قصر الملك. وكان الزحام يشتد،
واصوات الندابين والندابات تخفت، كلما دنونا من الهيكل.
فلما وطئنا الارض الحرام امام الباب، وقفنا فيها هنيهة
خاشعين خشوع الغنم في الحظيرة، ثم دخلنا الهيكل
صامتين صمت الجبل في ليالي الصيف.

تبارك البعل رب شيف
وتباركت عشتار البعلة الكبرى

ومن الناس من حملوا الاواني ملأى بالعطور الى الهيكل،
ووضعوها في طبقان الاخشاب الفائحة في الاروقة الوالعة
حول السدة العليا، سدة البعل، حيث وقف الكهان
امام النصب الاقدس.
ومن ذلك المكان ارتفع صوت بالترتيل، هو صوت الكاهن
وكان الكهان الآخرون يؤمّنون عند كل وقفة من
وقفاته المتدرجة. ثم هتفوا جميعا قائلين:

بذمتك مليكنا، ايها الظلال الابدية ما
لعنايتك أبي شمو، ايها البعل العظيم،
المجد والسمو لملكه بعده.
العز والبقاء لخلفه،
واليمن والاقبال لجبيل.

فرددت الجموع هذه الدعوات، دعوة دعوة، كلما نطق الكهان بها،
ثم بعد

بعد ذلك أضرم احد خدام الهيكل النار في موقد كبير
امام البعل، ونادى الكاهنة صاحبة الضحية. فأفسح
المصلون لامرأة تحمل طفلاً رضيعاً قدمته وهو يبكي قائلة:

من اجل ايشمو، ومن اجل جبيل.

تناول الكاهنة الطفل بيديه، وتقدم به الى البعل،
فرفعه، وهو يبكي، امامه. ثم دار به فرفعه امام الناس. وكان
صراخ الطفل يزداد ويشتد، كلما تحرك بين يدي الكاهنة،
فضج الهيكل بهتاف الهاتفين:

من اجل ايشمو،
ومن اجل خلفه.
العز والسمو لجبيل.

التهليل وآخره، فكان اثناءها
فغرق صراخ الصغير في لجج ولم يسمع، ثم
يُرى، وهو في جزعه وتشنجه. فساد الصمت والخشوع،
ارتفع صوت الكاهنة فوق اصوات الجموع
فقال وهو واقف امام النار:

تقبل هذه الضحية يا ايها البعل العظيم—
من اجل ملكنا الاجل،
ومن اجل خلفه الطويل العمر،
ومن اجل جبيل والجبيليين.

وعندما قذف الكاهنة بطفلها في النار، افترت ثغرها ببسمة الراضي
*كانت الام واقفة بالقرب من سدة الهيكل تسمع وترى.

١٥

الرضى والايمان.

تبارك يشف البعل،
تباركت ~~[illegible]~~ عشتر البعلة
العزد السمو جبيل.

خرجنا من الهيكل نغلوب نفعمة حبورًا واطمئنانا، وتوجهنا
الى القصر الملكي، وطفنا به مرارًا، ونحن نبتهج في الذهب والنخب.
وقد تمكنت وبعض القوم من الدخول الى البهو الكبير حيث
كان الملك جسّكي على سرره، وحوله العدة للقبر، والزاد
للرحيل. دهشت بما شاهدت عيناي، سحرت،
فما اجمل تلك الكؤوس والآنية، فخارها، وقد ملئت طعامًا
وشرابًا وطيبًا. ما في العالم مثلها شكلًا وصقلًا - وما
في العالم مثل الدمى ورسومها. وما ابدع تلك الملاعق الذهبية
والسكاكين الفضية. وسلاح الملك من خناجر وحراب، وحليّه
وتعاويذه، انها لمنقطعة النظير. وقد وقفت متطلعًا امام
صولجانه المصنوع من حديد الشبه، المزين بأفعى من الذهب
الابريز، وقد كتب عليه: ~~[illegible]~~ ابي شمو ملك جبيل،
يشف البعل.
وكاهن ~~البعل~~ يشف البعل على الراحل العظيم صلاة الاخيرة. وجاء
صلى الكهان على الراحل العظيم، وحملوا الجثة على الاعواد،
رجال القصر فحملوا العدة والزاد،
ام فمشوا

فمشوا بها، في موكب حديد مهيب، الى مقرها الاخير في
مقبرة الملوك، وراء السور، في سفح الربوة المطلة على
البحر. وهناك وضعوه في ناووس من الحجر الصلد،
وضعه زاده وحليه وسلاحه، وقفلوا الناووس واحكموا
الغطاء، ثم دلوه بالحبال الضخمة المقيرة في حفرة
عمقها ~~سبع~~ ثلاث قامات.

وفي ذلك النهار، بعد الدفن، مُدّت في القصر،
الاسمطة للزائرين، وفي بيوت العظماء، فاكلوا وشربوا الخمر، والحلوى،
وتطيبوا بالطيب، على ذكر الراحل العظيم، ودعوا للخلف بالعز
والسمو، ولجبيل والجبيليين بالخير والاقبال مدى الدهر.

وقد كان بين الزائرين الجبيليين عدداً غفيراً
من الغرباء، قيل لي انهم جاؤوا من الممالك المجاورة، من ارواد
وتدمر، ومن صيدا وصور، ومما وراء التخوم الفينيقية، من
آرام وموآب ويهوذا. ولا عجب، فقد كان الملك ابي
مشمو ع[illegible] ولدى جميع الملوك، محبوباً معظماً في
جميع البلدان.

دام عزك، يا جبيل، في عهد الملك ~~الخلف~~ الخَلَف، وفي كل الدهور.

مات الملك، عاش الملك! فقد خلف إبي إشتمو ابي اباه
ابي شمو، فاحتفلت جبيل بجلوسه على العرش. وقد وزع
الملك الشاب في ذلك اليوم النقود فضة وذهباً على الناس.
وأطعم

وأطعم الفقراء والمساكين. وأضاف الزائرين عشرة أيام.

أما أنا فقد أقمت وبعض قومنا في العاصمة شهراً كاملاً. فكنا نزور الهياكل كل يوم، ونطوف بحدائق المدينة نشاهد صناعاتها، ونسرّح الطرف والقلب في مخازنها ومصانعها. رأينا النساج ينسج على نوله الكتان والحرير. ورأينا الصابغ يصبغ الأنسجة بالأصباغ البهيجة، الأرجوانية واللازوردية. وقد زرنا مصنع السفن خارج السور، فرأينا العمال ينشرون الأخشاب ويقيّرونها، ويصقلون السواري الباسقة الضخمة وقد قطعت من غابات الأرز. ولقد أعجبني خصوصاً حذق الفلاحين ومهارتهم. فلا شك في أن سفننا أحسن السفن في الدنيا — أجملها شكلاً، ألطفها شراعاً، أمتنها صناعة. اسأل الرياح. اسأل البحار. اسأل الأعاصير.

وما كانت المشاهدات بأعجب مما سمعنا. فقد تحدثنا الى الصانع والتاجر والنوتي، فأثارت كلماتهم فينا الشوق الى الأسفار والإتجار. واني انقل بعض تلك الكلمات فلا تضيع قيمتها. قال مدير المصنع: الحبل كسل، والبحر عمل. وقال نقيب النساجين: الخشب في الجبال، والذهب في البحار. وقال صاحب معمل الأصباغ: الحياة تجارة، والتجارة عروة الإخاء والسلام. وهناك [illegible] حكمة نطق بها احد الصاغة: الحياة مثل هذا القالب بين يدي. فهي حسنة اذا انا احسنت العمل، وهي سيئة اذا اسأت.

أحسنت

١٨ أَحسنتِ الآلهة الى صناعك، يا جبيل،

والى تجارتك وتجارك. فقد اشتغلوا في صدورنا

فناعيل النحل والمغامرة، وحببوا الينا الاسفار والإتجار.

أَحسنتِ الآلهة الى حكمائك، يا جبيل، فقد

نفحنا الحكمة من افواههم.

وانا لنتوسل الى الربة عَشْتَر لتكلأ نساءك،

يا مدينة السرور، وتسبغ عليهن النعمة، فيزددن

عافية وحسنا. فقد بذلنا من مالنا فرحين، في

بأسواق المدينة، وفي معابدها ومهرجاناتها، فوجب

علينا البيان في الشكر والثناء: ان الجبيليات لجميلات،

وَعَشْتَر العالية! وانهن فوق ذلك لوديعات،

لطيفات، ناعمات. فلقد أعطيننا الكثير

طائعات، قانعات، وحمّلننا الذكريات الطيبات، نسكب

بالقبل، على الشفاه الجافة،

من طيبها في عزلة الجبال

وفي القلب الحرّان.

وقد حملنا من صنائع جبيل ومخازنها الامتعة

والفخار والتعاويذ والحلى الى الاهل

والاصحاب في القرية.

....

هذا

هذا ما كتبه الاديب الفينيقي عبدُ إشمون بن ابشعال.
وقد نقله عن الاصل هيبرقس الاغريقي، الحموي المولد،
الانطاكي الاقامه، الشاهد الفتح الاسكندري، المدارك
عهد الملك السلوقي الثاني انطيوخوس الاول. وقد ترجمه
من اللغة الاغريقية احد علماء جامعة أكسفورد الشهيرة،
فترجمناه نحن عن الانكليزية الى لساننا العربي الشريف،
ترجمةً دقيقة تكاد تكون حرفية. وذلك في الحادي عشر
من شهر ايار من السنة الثامنة والثلاثين والتسعمئة
والالف مسيحية، الموافق اليوم الحادي عشر من ربيع الاول
من السنة السابعة والخمسين والثلاثمئة والالف هجرية،
على واضعي التصويبات السلام.

وقد رأينا من الواجب البيان عن الترجمات المختلفة
دفعاً لما في الاهمال من ممكنات الخطأ والخداع. فقد تستغوي
هذه القطعة من النثر احد العلماء الادباء،
فيترجمها الى الانكليزية، او الى غيرها من لغات الفرنجة، ظناً منه
انها عربية الاصل مبتكره. وحسبها ما قاسته
في رحلتها اللغوية
من مشقات الاسفار الطويلة من الفينيقية الى الاغريقية، ومنها بعد
الفي سنة الى الانكليزية، فالعربية!

جميل الأتربي

—

يدفن بعضنا بعضاً وتمشي   أواخرنا على هام الأوالي

كلمة مزخرفة، نصفها نثر مبتذل، ونصفها من الشعر المرسل: فقد رأى المتنبي، بكبر مجردٍ من الأسى، ولقسوةٍ لا يلطفها حنان، أرجل الأحياء على هام الأموات، فقصّر عما جاء به المعرّي بعده، إذ قال في الموضوع نفسه كلمة كلها من الشعر الذي يستوي فيه الخيال الرائع والإحساس الرقيق.

خفّف الوطأ ما أظن أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد

وكان البعد من المتنبي خيالاً، وأحسن منه بياناً في البيت الآخر:

رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً   ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

وقد فاق أبو العلاء أبا الطيب في اشتمال فكره ~~[illegible]~~ وإحساسه على المتحتم في مصير الإنسان ومصير ما يبنيه في هذه الدنيا، فقال:

كل بيت للهدم ما تبتني الور   قاء والسيد الرفيع العماد

كل بيت إلا القبر   في نظر شكسبير:

- من هو أمهر البنائين؟

- حفّار القبور. فالقبر يدوم إلى يوم القيامة.

ولو كان للشاعر الإنكليزي الأكبر أن ينظر خلال الدهور المقبلة، إلى اليوم الذي سيقف فيه العالم الأثري الأول بين خرائب تبتوه أو الأقصر، ويأمر عماله بنبش قبورها، وبقايا قصورها، لكانت كلمة حفّار القبور في رواية هملت، أبلغ وأصدق مما هي.

إننا /

اننا في تطور الحياة، وتلوّن صفحاتها الحديثة، لهدّامون
حتى ما يبنيه الشعراء. فالذين يحرقون موتاهم يسخرون من
قول المتنبي والمعري معًا، والذين يشاهدون بعض اعمال
٤٢٧ بعثة أثرية في هذه الايام، ومن تلك الاعمال القبور المبعثرة،
والتوابيت الفارغة، ينكرون على شكسبير كلمته البليغة:
كل بيت للهدم حتى القبور، وعلى الاخص قبور الملوك. وكل
مدينة من مدن الشعوب البائدة شبيهة باهلها — يدفن بعضها
بعضًا، ويبني الاحدث منها على الاقدم، تُشيَّد الواحدة
بحجارة اخواتها الدوارس. تهدمها الحروب. تهدمها الزلازل
والاعاصير. تهدمها الكوارث البشرية. فيهجرها الانسان،
ويكفنها الزمان بكفن ثقيل من الحجارة والرمل والتراب.
هي ذي ربوة من الربى الغنية بما فيها، الحافلة بالمدافن
، مدافن المدن من العهد المسيحي الاول الى العهد الاول من
التاريخ. وهي ذي الادلة والبراهين على اقوال الاثريين تكشفها
معاول العمال، وهم يحفرون في التل، الطبقة تلو الطبقة، حتى
بضعة امتار تحت سطح البحر.
هذه الطبقات ينيرها الاثري بنور العلم، فيريك في الطبقة
الاولى خرائب كنيسة بيزنطية، وفي الثانية السُرج الرومانية، وفي الثالثة
النقود الاغريقية، وفي الرابعة التماثيل السمجة الحثية، وفي
الخامسة آنية خزفية فلسطينية، وفي السادسة ختوم اسطوانية
نُقشت فيها أحرف مسمارية، وفي ما دونها تماثيل صغيرة لربّة
طورية، وفي الطبقة التاسعة امثلة من الاواني المعدنية.
وبعد الطبقات التالية — آخر المعادن واول عهد الصوان —

يتصل

نصل الى الالف الثالثة من السنين السابقة لعهدنا. ويستمر
العمال في الحفر، والأثريون في التنقيب، فتنكشف آثار
البيوت الاولى – هي اول ما بنى الانسان – ثم الكهوف، وفيها
آثاره من الخزف والعظام.

اربعة عشر عهداً من التاريخ البشري، نتنزل في شبه
درج من آخرها، ثلاثة امتار من سطح الارض (٦٠٠–٢٠٠م)، ومنه،
الى عمق اثني عشر متراً تحته (٢٨٠٠–٤٥٠٠ ق م)، الى الارض
التي لم يطأها بشر، الى الارض مترين تحت سطح البحر، الى الارض
البكر. هناك خمسة الاف سنة من التاريخ، تزاحمت
خلالها آثار الانسان في تلك البقعة السورية الشمالية، ٤٢٨
تزاحمت بقايا الشعوب وآثارها، بعضها على بعض.
ودفين على بقايا دفين في طول الازمان والآباد،

ما ليس في جبيل ما يضاهيه – في تعدد الآثار وفي القدم، ما
تقدم ذكره مما اكتشفته البعثة الاثرية الاميركية في تل جُدَيْدَه
بجوار انطاكيه. ولكن في جبيل آثاراً لشعب واحد من شعوب
هذه البلاد، امتاز عن سائر الشعوب السامية في نزوعه الى
السلم، واكبابه على الصناعة والتجاره، وفي اقتحامه اهوال البحار،
فرفع شراعه فوق امواجه الصاخبه، شمالاً وغرباً، متحدياً الاعاصير،
مسلماً الى الرياح، تسوقه الى حيث شاءت من الجزر القريبة
والقاصية، بل الى اقصى شواطئ البحر المتوسط، الى مضيق جبل
طارق، بوابة بحر الظلمات، وما دونها، الى الجزر البريطانية.
وقد كانت هذه السواحل عامرة بالمدن التي شيدها
ذلك الشعب الباسل المقدام،

رضا ذوهرشه

فازدهرت ازدهاراً باهياً، وكانت تعد في زمانها من
أعظم مدن العالم: ألا إن أهل ~~[illegible]~~ أرواد وقبرص،
وجبيل وصيدا وصور، لرواد الحضارة، ومشعلو أنوارها
في البلدان الآسيوية والأوروبية، في العهود السابقة
للعهد الإغريقي الذهبي.
ومن هذه المدن جبيل الآن موضوع كتبنا. فقد عدنا
بالقارئ في الفصل السابق الى عهدها الاول، فطوفناه بالمدينة،
وأجلنا به في مخازنها ومصانعها، وأسمعناه أحاديث أهلها،
وشهدنا وإياه مأتم الملك أبي شمو. ووقفنا هناك عند ذلك
القبر، الذي دُلّي فيه الملك الراحل، لا نرى من الزمان إلا بوجه،
ولا نشعر بغير النكبة الواقعة. ووقفنا هناك آمنين في جهلنا
مطمئنين. فما كان في الحسبان أن الدهر مدرك حتى
الملوك الراحلين، وحتى بعد أوقد مئة السنين، وأن يد
الإنسان ستمتد الى قبورهم باسم العلم، وتعمل فيها عملها،
فتمسي تلك القبور كما كانت قبل أن شرّفتها الرفاة الملكية،
خالية خاوية. وما كان في الحسبان أن مصير جبيل نفسها، ٤٣٩
ان طال الأجل، هو كمصير غيرها من المدن التي سبقتها في
مضمار الحضارة، والى ظلمات ~~[illegible]~~ الفناء. فتندرس كما دُفنت
ملوكها ونبوها، ويجيء الإنسان الكُشاف في القرن العشرين،
فينبش كفنها باسم العلم، وليعيد هيكلها الى نور الشمس.
ألا في سبيل العلم ما نحن فاعلون، وجبيل الأدريين
اليوم فقدنا. انما سنعتاض عن دليل الخيال دليلاً من
لحم ودم، ومن أولي العلم والفضل، هو الأمير موريس شهاب،

امين

أحاديث دار الآثار في الجمهورية اللبنانية:

سرنا من بيروت في يوم من أيام الربيع، في طريق ظللته أشجار الكينا، يحيط بين بساتين ناضرة من الموز والليمون، فانكشف لنا البحر عند نهر الكلب، وما توارى بعدئذ عن الأبصار. ان أجمل طرف الساحل اللبناني لهذا الطريق، تجتازه في أجمل الأيام، والبحر الى يسارنا أزهر، والجبل الى يميننا ريان. ما أقبح السيارة، وكل شيء أمامنا في بهجة العيد يقول: مهلاً مهلاً. ان الربيع لعيد السنة. والسيارة لا ولكن الانسان لا العيد والأكوان، تأتمر بأمر النفط المحترق إسراعاً.

نمر بجونيه فترشق السهم، ونلمح لمحاً في العاملتين الجسر الروماني، ويدلنا الأمير موريس شهاب على صخر عند منعطف الطريق فيه «مغارة أبناء آدم» ثم على برج هيلانه (أهل هي القديسة أم الملك قسطنطين؟) بين الطريق والبحر. أساطير تباري الآثار في طلب الخلود، وآثار تجاري الأساطير في طرافتها.

أما طبرجا فانها تجمع بين الاثنتين، فتحدث عن بولس الرسول، وتريك في جونها الصغير، وعلى ضفته، مشلح السفينة. هل الطبرجي ومراكبه الشراعية كل ما تبقى من الحياة الفينيقية على هذه الشواطئ اللبنانية؟ أما ما يروى عن بولس الرسول فقد يكون تاريخياً وقد يكون من الأساطير. هاكه، والاعتراض.

من طبرجا هذه أبحر بولس مركباً يوم أبحر الى إفسوس.

والعلماء الذين يزورون الجبيل يدلون باجمع الاعجاب والاحترام
على ~~[illegible]~~ الصخرة من محفورات على الطبرجي. هي هي الصخرة التي
فقفز الرسول منها الى مركبه !

— وهذا نهر ابراهيم (نهر ادونيس) يحيينا قبل ان نصل اليه -
يطل علينا من البحر. انه لنهر لطيف كريم. وانه لذو اسرار طبيعية
ودينية. اما الطبيعية فلا يستحيل ولا يصعب كشفها. في
هذا الفصل من السنة بذوب الثلج في الجبال، فتطوف الانهار،
وعندما يطوف نهر ادونيس يحمل، لانحداره الشديد، كثيراً من
التراب، فيصطبغ به، ويجري احمر اللون الى البحر وفيه،
فيبدو على مسافة ميل منه ان على الجزيرة من الرمل الذهبي،
او كشريط احمر في البحر الازرق. اما اسرار النهر
الدينية فنحدثك عنها في فصل آخر. لقد وصلنا الى جبيل.

ان اظهر ما فيها قلعة صليبية كانت مقر المديرين في
~~[illegible]~~ قائمة بباب الجبيليين، وجبيل [illegible] جبيل مشت،
~~[illegible]~~
ايام المتصرفية. هي ~~[illegible]~~ وتلك شرقاً بشمال -
هذه غرباً بجنوب من القلعة،
دخلنا المدينة القديمة، فكان للامل الذي حملناه اليها
خيبات ثلاث. اولها بحجارة البناء، فهي كلها صغيرة غير
منحوتة. والشائع ان الفينيقيين كانوا يبنون معابدهم
في الاصل بالحجارة الضخمة.
وثاني ما كان من الخيبة صغر المدينة نفسها،
بدليل السور الذي اكتشف اساسه وقسم منه. ~~[illegible]~~ فان
مساحتها

فان مساحتها لا تتجاوز مساحة حي من احياء بيروت.
وهي المدينة التي كانت تعد في الماضي من المدن الفينيقية الكبرى.
وقالت خيبات الامل ان ليس في ما اكتُشف شيء من
الاثار الضخمة العالية. هي كلها، عدا النواويس الملكية،
وضيعة سمجة، ليس عليها مسحة من جمال، حتى ولا على هيكلها
الاكبر، وهو لا يدنو في حجمه من كنيسة في احدى قرى لبنان. بل
ذلك الهيكل بناء مربع بازائه اروقة في داخله حول مصطبة في
الوسط لنُصب الاله الاكبر ريشف البعل. وفي الاروقة
انصاب ومسلات شبيهة بالمصرية، الا انها صغيرة، على
احداها كتابة هيروغليفية واسم الاله ريشف.
ليست الانصاب والمسلات بالدليل على تعدد الالهة
الفينيقية، التي لم تتجاوز الاربعة او الخمسة - ريشف وعشترت،
وأدونا وملقرت. انما كان لها اسماء جلالة(1)
فيدعى الاله بها. كأن نقول: الرحمن الرحيم - العلي العظيم.
اما المسلات والانصاب فهي تقدمات - نذور - من الناس
لإله الهيكل. وفي انواعها المختلفة، من كبيرة وصغيرة، ومن
خشنة ومصقولة، البرهان على انها مقدمة من
اناس اختلفت اقدارهم واحوالهم في الحياة.
مشينا في سوق من الاسواق القليلة لهذه المدينة،
التي أُسست في الالف الثالثة من السنين قبل عهدنا،
تتلاصق بيوتها المربعة الصغيرة، اللاصق بعضها ببعض،
وقد أبقى الدهر على ثلثة او اربعة مداميك من جدرانها،

قال

(1) [illegible]

(١) بلسامين (رب السماوات) ايل (الاله الواحد)
اليون (الاعلى) الى حضارات الخفة اسماً لاله جديد،
فتعددت الآلهة . مثال ذلك في زماننا تعدد نعوت
السيدات عند النصارى الأرثوذكس للسيدة [illegible] الواحدة مريم العذراء،
فهناك سيدة الغابة، وسيدة الجوزة، وسيدة الجبل بيروديه
وسيدة الوردية الخ. تعددت الاسماء والخرافة واحدة!

البلد

قيل لنا ان الارض التي نطأها هي الارض البكر. فاذا كان
هذا التعبير الاثري ينحصر في الارض التي لم يطأها انسان،
كالارض التي اكتشفت في العراق، او في سورية الشمالية،
وهي تحت آخر طبقة من طبقات التاريخ، فلا يليق ان تدعى
ارض المدينة، مهما كان قدمها، بالارض البكر.
لقد كانت جبيل مدفونة تحت اثني عشر مترا من التراب
يثبت ذلك مستوى ارض القلعة الصليبية،
والحجارة. وقد اكتشف
القائمة على التل الى جانبها الشمالي،
الاثريون سور المدينة، وما تبقى من علوه يتراوح بين الاربعة
والخمسة امتار. هو مبني، مثل البيوت، بالحجارة الصغيرة
غير المنحوتة، والقسم العالي منه المضاف اليه في عهد حديث
هو او على عهد الرومان. ومن بابي السور يمتد درجان،
الاول من جهة البر نازلا، والثاني صاعدا الى المدينة
فمن شاطئ البحر.
في البيوت
لفت [illegible] نظرنا الى لون الحجارة الاسود
في قسم من السور، وهي كلها كلسية. فاما ان تكون بيضاء،
او ان تكتسي في طول الازمان، دكناء. اما هذا اللون الاسود
فهو اثر احتراقها. فقد اشعلت في المدينة نار الثورة في
القرن الالفين، على اثر ثورة اجتماعية اقتصادية حدثت
في مصر. فتسلط الجبليون على حكامهم والاغنياء يحذون حذو المصريين.
ولكن مصر في ذلك الزمان، اي في مطلع الدولة الثانية
عشرة، كانت آمنة مطمئنة، يسود فيها السلام، والعيش
والفلاح. فقد كان النظام الاقطاعي سائدا في
بلد

تلك الايام . هو النظام الذي وضعه الفرعون أمنحوطب الاول
وعممه في مصر. قال العلامة بريستيد في كلامه على الامراء
الاقطاعيين: "كانوا يعلمون عمالهم الصناعات والفنون،
ويشرفون هم على الاعمال، فغدا ذلك العهد عهداً عمرانياً
لم يسبق له مثيل في البلاد."
إن الثورة التي اشار اليها المدير هي في الاغلب ثورة
الفرعون أمنحوطب الرابع الملقب بإخناطون . فما العلاقة
بينها وبين ما حدث في جبيل ؟
الجواب على هذا السؤال يشتمل على بيان الصلة لذلك
بايجاز الاتفاق
بين البلادين . وهذا ~~[illegible]~~ الموضوع . اني اذن ملخصه لصفحات
من التاريخ . في عهد الامبراطورية الاولى (١٥٨٠-١٢٧٥ ق.م.)
كانت الممالك الاسيوية من اورشليم الى قرقميش، ومن سواحل
فينيقيه الى وادي الفرات، خاضعة للفراعنة . فكان لمصر في
كل مملكة او امارة ~~[illegible]~~ او ما نسميه اليوم المقيم العام،
او النائب العام، او المندوب السامي . فالمندوب هذا الزمان من
وقد كان لذلك المندوب السامي المعروف به . فيجامل الملك
السلطة التي تكاد تكون مطلقة، ومن السياسة المعروفة بها
او الامير واهل البلاد في كل ما يتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية
والدينية، ويشرف على الشؤون السياسية والاقتصادية، فيجعلون
فيها مصالح صاحب الجلالة الفرعون . واهم تلك المصالح المال المفروض سنوياً
على كل ملك او امير، مع مراقبة شؤونه الخارجية وضبطها، فلا
يحالف او يعاهد احداً من الملوك دون استشارة الفرعون واذنه .
وقد بلغت هذه السيطرة أوجها في الدولة الثامنة عشرة،
في عهد طحموس الثالث، فدخلت بعده في دور الانحطاط حتى

عهد

عهد إخناطون، فاوشكت في ايامه ان تضمحل. والسبب
في ذلك هو ان إخناطون، ذلك الملك الصوفي، روح الاله
أطون وكاهنه الاكبر، كان منشغلاً عن شؤون الدولة
الخارجية بثورته الدينية على الآلهة والكهان. فاضطربت
العلاقات بين مصر والملوك الخاضعة لسلطتها، وكان اول
من اغتنم فرصة الاستقلال والتوسع عزيرو ملك الحثيين،
فخرج بجيوشه غازياً فاتحاً. زحف من الشمال على البلاد السورية،
سهلها وساحلها، فاكتسح مدنها حتى حمص وحميدا فغلب
امراؤها ظهر المجن لفرعون، واستسلموا للملك الحثي.
وعندما احتل البلاد التي هي اليوم بلاد العلويين، ووصل
الى سميرا، تلك البلدة التي كانت قائمة في السهل، بين طرابلس
وطرسوس، شمالاً من نهر الكبير، خاف امير جبيل ريب
عدي على امارته، فكتب الى الفرعون مستنجداً، فما
جاوب الفرعون على كتابه. ولما سقطت سميرا في حوزة
عزيرو، وذبح المندوب المصري فيها، صرخ ريب عدي
صرخة الثانية، فالثالثة مستغيثاً، فذهبت صرخاته
ادراج الرياح. لقد كان إخناطون في غمرات ثورته يجاهد
الآلهة القديمة وكهانها، ويشيد المعابد للاله الجديد،
الاله الواحد، اله الشمس أطون، المكنون هو اخناطون
من نورها. تلك الثورة ~~[illegible]~~ التهت الرجل اخناطون
واضعفت ~~[illegible]~~ اخناطون الملك الحاكم.
وعندما رفض ريب عدي، بالرغم من ذلك، ان يخضع
لعزيرو، كما فعل امراء المدن الفينيقية الاخرى، ارسل
وذلك

حاجب أموري

ذلك الحي عليه بقبائل من بدو الخبيري، وكان الجبيليون
قد تمردوا على اميرهم لموقفه السياسي، فمنيت المدينة بالغزو
والفتن. ومع ان ريب عدي كان شيخاً فشاً مريضاً فما
لان ولا وهن.

ضرب عزيرو حصاراً على جبيل دام ثلاث سنوات،
جاهده فيها الامير الجبيلي، بالرغم عما كان يقاسيه من الفتن
ومن وطأة السنين والداء. وهل يستطيع غيره في
مثل حالته ان يقاوم اكثر من ثلاث سنوات؟ جاهد وما
استسلم، ولا فر هارباً الى بيروت. بل كان سفره اليها من
جانب الجهاد. راح يستنجد للمرة الثالثة او الرابعة (1)
ملك مصر بواسطة مندوبه فيها:
— أغثنا، أغثنا، يا ملك الارض. نمد
يدينا الى رجليك. الخبيريون نهبوا بلادنا، والخبيري
والعبيرون تحت اسوارنا.
لقد أسمعت، يا عدي، لو كان الفرعون تحتموس
ولكن إخناطون، الهته فلسفته على شفير الهوة،
من تنادي. لا يسمع ولا يجيب.

عاد ريب عدي من بيروت بحمل اوزار الخيبة
والمرض والشيخوخة والاخلاص لفرعون. فعندما وصل الى جبيل لم يؤذن له بالدخول
الى المدينة. وعلم فوق ذلك ان اخاه اغتصب الامارة،
وان ابناءه ... لعبد عزيرو. يسلمهم اليه المغتصب
اخوه.
وصلنا الى ظلمة في تلك الحوادث ما انارها المؤرخ
فقد استعاد ريب عدي زمام الامارة، ولا يقول المؤرخ

(1) في رسائل ملوك بابل وسوريا وفلسطين وفينيقيا الى ملوك مصر، عددها ٣٨٠ الرسائل المكتوبة على الطوب التي اكتشفت سنة ١٨٨٧ في تل العمارنة، ستون رسالة من هذا الامير السيء الطالع امير جبيل.

المؤرخ كيف استعادها. على أنه تسبب في اخلاص ملك
مصر بالرغم من الحاح زوجته واكرته في مسالمة الحثيين،
ان في امره العجب العجاب. ان في الاخلاص للعاجز البعيد عنك
والعداء للقوي الناجم سيفه في وجهك، والعلم أن هلاكك
في اخلاصك — ان في ذلك سرًا سياسيًا، او شيئًا هو
ابن المرض والشيخوخة، او ان فيه مظهرًا من مظاهر الاخلاق
الشرقية العالية. فهل نحن امام المثل الاعلى في الولاء
والاخلاص متجسدًا في ذلك العتيق، ام المثل العادي
في ذلك الشيء الذي يدعى الخرف؟ لا نستطيع، ولا نريد
ان نحكم في الامر. حسبنا المأساة بكاملها. فقد اعاد
عزيرو الكرة على جبيل بعيد عودة الامير الى الحكم،
ففتحها، واعمل فيها السيف والنار، فقتل الامير
عدي مع من قتلوا من اهلها.
هذه الكارثة وقعت في آخر عهد الفرعون اخناطون،
اي بعد نحو من الاربعمئة سنة من عهد الملك ابشمو ابي،
وقبل عهد الملك احيرام بنحو من خمسة وسبعين سنة. ففي
عهد احيرام كان الفرعون رعمسيس الثاني قد جدد (١٣٠٠ ق.م)
علاقات مصر بجبيل، وعززها بالولاء لمليكها والمجاملة
لاهلها، من ذلك انه رمم المعبد فيها، واهدى
احيرام الهدايا الثمينة.(1)

احيرام — نُبش قبره وأُخرج منه اكبر واجمل النواويس
الجبيلية. فقد نُقش عليه من الجهات الاربع رسوم وكتابات
رمزية وتاريخية. فالأُسود التي يرتكز الناووس عليها هي
في

(1) اقتبـ

١٦

(١) ومما يدل على ان نوعاً من السيادة المصرية على
فينيقية كان سابقاً لعهد الوجير ريب عدي
كتاب من هذا الوجير الى الفرعون يقول فيه:
"ان الملك كان سابقاً يرسل الى اجدادي دراهم
وغير ذلك مما كانوا يحتاجون اليه. وكان
يسيّر لهم جنوداً. اما انا فارسلت الى
سيدي الملك ساعياً ليساعدني ببعثة من
الجند فلم يرسل الي احداً."

زرنسكي

في فنها خشبية، والمشاهد التي تزين جوانب النواويس
هي وطنية. هو ذا حفرى السياسة الجبلية الجديدة:
فقد كان المصريون والحثيون يتنافسون في الاستيلاء
٤٤٦ على البلاد الفينيقية، فوقعت واقعة قدش بين
الفريقين، فأخذت جبيل خطة الحياد، ~~والمصريون~~
ونظر الاحوال هون عسيسه، فكتب النصر مع ذلك،
للحثيين:
وقد اكتشف الاثريون في مدفن الملوك، وراء السور،
غير ناووس احيرام، منها ناووسا الملكين الاب والابن
ابي شمو وابي شموابي، فوجدوا فيها الصوالج الفضية
والشبهية، والسكاكين والملاعق الذهبية، والتماثيل
والحلي والتعاويذ، وغيرها من التحف المعروضة
في غرفة صناديق من زجاج في المتحف اللبناني:
هذه هي توابيت الملوك، وفيها ما كانوا يعتقدون انه
من حاجات ~~الرحلة~~ الرحلة في الظلمات الابدية. ووجدت في حفرها
التي حفرت منذ الالف السنين، احد عشر جثة تحت الارض.
من تلك التوابيت ما هو من الحجر الصلد، ومنها ما هو من
الخشب المزين بقطع من القيشاني الملون.
اما توابيت ~~العامة~~ السواد من الناس فهي جرار من الفخار
كبيرة وصغيرة، كان يطوى الميت فيها طياً، كما يطوى
الطفل قبيل الولادة في بطن امه. وقد وجد في
الجرار ايضاً كثير من الاواني الخزفية والمعدنية،
وهونا

ومن السلاح والتحف والتعاويذ الفضية والذهبية. لقد
كانت العقيدة الدينية واحدة تستعبد الملوك
والصعاليك على السواء.

ومن اغرب ما شاهدنا في مدفن الملوك نفقاً بين
قبريّ الشموكين الأب والابن. فقد شاء الأب أن
يُحفَر هذا النفق من قبره الى قبر ابنه بعده لغرض في نفسه.
أكان الغرض روحانياً، ام الغرض من اغراض الحياة الدنيا؟ ما كان
الفينيقيون كالمصريين في البيان والشرح كتابةً عن اغراضهم
وعقائدهم بعد الموت. فكانت تدفن العقائد الفينيقية
مع اصحابها، برموزها واسرارها، وتُختم بختام الصمت الابدي.
على ان للاثريين آراء في هذه الاسرار، وان تكهنوا احياناً،
٤٤٧ جديرة لطرافتها بالذكر والتدوين. قال احدهم ان الغرض من
حفر ذلك النفق انما هو روحي، في نظر الملك الاب، فتتصل
الروحان الواحدة بالاخرى وتتزاوران. وقال آخر - وهذا القول
ارجح على ما اظن - ان الغرض من النفق محض مادي. فقد شاء الاب ان
يكسب مما سيحمله ابنه من القرابين، ويشارك في ما سيجيء
به بعده من الطعام والشراب والعطور.

ايها ابناء الظلمات. لكأني بكم خرافة تفترشون،
وتلبسون، وتأكلون، وتشربون، وتتكحلون! وكأني بكم خيبة،
ستفيقون منها، وتفقدون
ان صدقت الانبياء بعدكم
بتجليها

بخلقها وحريتها.

فلو كان لكم ان تشاهدوا الخلود في الطبيعة،
يجدده الربيع كل عام، لو كان لكم ان تنفخوا الارواح بطيب
الاجيف والازاهير التي تزين مدنكم، وتفرش بساط
الحب والحنان على قبوركم، لاستغنيتم في الحياة وفي
الممات عن ترهات الآلهة، وخرافات الكهان.

ولو سُئلتُ انا ما اجمل ما شاهدتُ في جبيل الاثريين،
لقلت: الربيع في مجده. واجمل ما في ذلك الربيع تينة نضرة
احتلت بها الطبيعة قبر ابي اشمون. هناك، حيث كان
راقداً في ناووسه، هناك الاثر الحي، الاثر الانور، هناك
اجمل الآثار. فقد حملت الرياح الى تلك الحفرة بزرة من
بساتين جبيل، فوقفتها جوانب القبر القرية والصقيع،
وسيقت اليها النفحة الالهية، فنبتت تلك البزرة ونشأت
تينة غضة نضرة مخضالة، ترفع اغصانها الى ما فوق
القبر لتتنشق الهواء في الاسحار، لتشم النسيم في جنح
الفجر، لترتشف نور الشمس وطيب الليالي.

انك لترى هنا صورة
الخلود في الطبيعة!

منثورة في تلك المدينة الدارسة، وفي
مدافن ملوكها الجميلة في المعبد الشفيق الخندقوق،

[illegible] الخ

ويبهجك المنثور والاقحوان حيثما وقفت، وحيثما
وجهت النظر.

٤٤٨

اذا اهيد الاقحوان الصفراء التي يسميها الاهالي
واذا اهيد المنثور الارجوانيه،
الباسوم، والفرنجة «مرغريت»،
انها لفي كل مكان، وانها في كل مكان لغزيرة بهيجة.
على حافات القبور، بين خرائب البيوت، عند اسكفة
باب المعبد، في ظلال السور وعليه — في كل مكان،
في كل مكان، ونضارة وبلغ لبان.

الباسوم لينثر الذهب بين قبور منه.
احبوا الذهب حبا جما.
والمنثور ليفرش الطنافس الارجوانية للارواح
من اكتشفوا الارجوان.

٤٤٩

٢٦
٥٧١

رسول الاله عموت

قلت في الفصل السابق ان لسور المدينة باباً على شاطئ البحر ودرجاً يؤدي الى الزاوية، حيث كان القصر الملكي. هناك يقف الدليل ليقص على الزائر قصة الرسول الذي جاء يطلب من ملك جبيل خشباً لملك مصر. وبما انه جاء صفر اليدين، يدعي ان المال سُلب منه في الطريق، رفض الملك طلبه قائلاً: لا مال، لا خشب.
فقال الرسول: ساكتب الى جلالة الفرعون ليرسل الي المال، وانتظر الجواب. فقال له الملك، وهو يريه من نافذة القصر مقبرة جبيل: لقد جاء غيرك من اخوانك المصريين يطلبون خشباً، ولا ذهب معهم ولا فضة — مثلك — ايها الغريب. فكتبوا الى بلادهم يطلبون المال، وباتوا ينتظرون الجواب، فماتوا وهم ينتظرون، فدفناهم هناك في تلك المقبرة.
هذه هي القصة التي يقصها الدليل، وفيها تتمثل سجية الفينيقي الاولى، سجية البازرگان، اي سجيته على اصول التجارة، وبالاحرى حبه للمال. على ان في القصة، وهي تاريخية، اشياء فاتت الدليل، وغيرها

وفيها، كما يقصها، بعض الغموض. فمن هذا الذي ارسل
الرسول؟ ولماذا لم يصحبه المال، او البدل بضاعة،
على الطريقة التجارية في تلك الايام؟ وماذا جرى بعد
ان كتب ولبث ينتظر؟ هل جاءه المال فظفر
بالخشب؟ ام هل حل به ما حل باخوانه، فدفن الى
جنبهم في تلك المقبرة؟ ومن هم اولئك المصريون
المقبورون في جبيل؟

قد استنطقنا التاريخ، فأعطانا علمًا بالشؤون
السياسية والتجارية في مصر وفينيقية، وبالصلات الولائية
وغير الولائية بين البلدين، في ذلك الزمان، فبدا
ما يبرر مجيء الرسول صفر اليدين، وطلب خشب الارز
مجانًا لوجه الاله عمون، ويبرر كذلك موقف ملك
جبيل التجاري، وقطوبه على الاصول التجارية الفينيقية
التي لا تعرف المهاودة، مهما كان من مشيئة
عمون وفرعون — الا اذا أيدت تلك المشيئة
جيش واسطول!
واين كان جيش مصر، واسطول مصر، في تلك
الايام؟ ليست القصة، على ما نظهر، قصة خشب،
وان فيها كذلك من
٥. قصة دولة ومستعمرات، السياسية والدينية،
طريف الاخبار لاحوال مصر وفينيقية،

/حا

ما يدنيها من عقلية زماننا، بل يجعلها مستساغة
في كل زمان ومكان. سنقصها اذن بما
تستحقه من التفصيل والتحقيق.

في ذلك الزمان كان الجبيليون قد جددوا
صلاتهم الحسنة بفراعنة مصر، كما جددوا بناء المدينة
التي دمرتها قبائل الخبيري، وعساكر عزيرو الحثّي،
في عهد الملك ريب عدّي، - راجع الفصل السابق -
وكان الفرعون الكبير، رعمسيس الثاني، قد قطع لأمراء
جبيل - كما يدعون في تاريخ مصر - عهداً في الحماية عززه
بالعمل، فاطمأنت جبيل الجديدة، ورحبت كذلك بالإله
المصري عمون، الذي شيّد له الفرعون معبداً فيها.
وعادت السفن الجبيلية تمخر البحار على سالف
عهدها، واستعادت التجارة الجبيلية سابق
خيرها وازدهارها، فحمد الأمير وعشيرته الإله الغريب
في مدينتهم حمدهم للإله رشف وللربة عشتر،
وحمل الملاحون والتجار صورهم جميعاً في أسفارهم،
وقدموا لهم جميعاً القرابين، وقد شمل العز
لعمون وفرعون العز والسعد! وقد عمّ
الإقبال الآلهة والناس في جبيل طوال عهد رعمسيس
الثاني، ذلك العهد السعيد المديد، أي سبعة وستين
سنة

سنة ٧ والى ما بعده بنحو من ربع قرن، حتى
عهد الفوضى في تلك الحقبة من تاريخ مصر: ذلك
العهد الذي طغت فيه الاشراف والكهان، وتطاحنت
الاحزاب، واشتد نفوذ الاجانب في ~~[illegible]~~ بلاط الملك،
فسقط الفرعون سيتي الثاني بعد حكم دام سنتين،
و"تفرعن" بعده احد السوريين الذين كانوا سائدين
في البلاط، فتفاقمت الشرور في عهده الذي استمر خمس
سنوات، وضعفت شوكة مصر في الخارج بل كادت
تضمحل، لولم يتداركها رعمسيس الثالث،
فقد اصلح هذا الفرعون بعض ما افسده ذلك السوري
المتلاشي، وحاول ان يوطد السيادة المصرية في الخارج
فما توفق كل التوفيق. عاد ملوك الشرق "الحثيون"
والفينيقيون الى سابق عادتهم، يظهرون الطاعة
والاخلاص، ويدفعون الجزية السنوية، ويترقبون
طالع الفراعنة في وادي النيل.
وما كان اسرع ذلك الطالع بالهبوط. فقد
خلف رعمسيس الثالث ثمانية من الاسرة الرعمسية، توارثوا
العرش الواحد بعد الآخر، فكان كل منهم ~~[illegible]~~ يرث من
السيادة والعز اقل من سلفه، حتى امسى
الارث اثرًا بعد عين.

[illegible]

في [illegible]

٤ ٥٧٥

في هذه البرهة، على ما يظهر، ارسل الفرعون وفداً
من قبله الى الشرق - لجنة ملكية! - لاستطلاع شؤون
امرائه، وتوطيد الصلات بينهم وبين مصر، وعلى الاخص
لجمع ما تأخر من اموال الجزية السنوية.

نحن الان في عهد رعمسيس الثاني عشر (١١٢٤-١٠٩٨)
نشهد اجتماعاً في القصر للبحث في امر اللجنة التي انقطعت عنه
زمنه اخبارها.
وقد كانت اللجنة يومئذ في جبيل لضيافة اميرها -
وبحراسة ثلة من جنوده! شرفتم ايها المبعوثون بلدنا،
لكنهم قصورنا، ولكنهم أنزلوا في قصر واحد،
مرصود الابواب. ومرت السنة الاولى، والثانية،
والثالثة وهم في ذلك القصر أسراء.
وكان الفرعون قد يشتغل عنهم بما تجدد في بلاده من
عوامل الفساد والخراب. انقسمت الدولة في السنة
الخامسة من عهد رعمسيس الثالث عشر، وهو الاخير من
هذه الاسرة، فقام في الشمال احد اخصامه المدعو
"نسوبنبدد" لدى الملك. وما لبث ان
"تفرعن" فاستقل بالحكم في ما يعرف اليوم بالبرج البحري:
اما الفرعون الاصيل فقد نقل عرشه الى طيبة، فأجمع على
جمع الكهان ليستشيرهم في امر الملك، فأجمعوا على
ان حالة البلاد ناشئة عن حالة الآلهة:- ان الآلهة،
ناقمة على مصر!
يا نور الارض
رد هودا

٤٥٢

وهوذا الكاهن الاكبر للاله عمون، يشكو الفقر
والمذلة. ليس لعمون العظيم سفينة تليق به. والغيرة
من الالهة. ردد الكهان الآخرون الشكوى: وكيف
تتفقد الالهة رعاياها في وادي النيل؟ انها،
يا نور الارض، لفي حاجة الى خشب الارز لبناء
السفن القدسية.

— ارسلوا الى جبيل من يجلب الخشب.

— والمال، يا ملك الملوك؟

— المال؟ ليذكر امير جبيل تقاليد اجداده.
وليذكر انه لم يدفع اموال الجزية منذ سنوات عديدة.

وقد فوض الفرعون هُرْهُر الكاهن الاكبر ليرسل رسولاً
الى الامير لجلب الخشب.

فانتدب هُرهر للامر احداً من رجال البلاط
يدعى وِنْعمون.

فطلب ونعمون المال. فاجابه الكاهن قائلاً:
يا ونعمون، ان لالهنا هيكلاً في جبيل. ورجال الهيكل
لرب الهيكل. ورب الهيكل عندنا في مصر. ومنه
ينبغي ان يرسل شيءٌ من اموال هيكله بجبيل.

فقال ونعمون: لست من رجال الهيكل، يا صاحب
الغبطة، لاجبي امواله. انا من رجال البلاط.

فقال

٥٧٧
٤٢

فقال هرحر: وعلى الامير من الجزية للفرعون مال كثير لم يدفعه بعد

فقال ونعمون: الوحيد الذي لا يدفع ما عليه متخيراً، لا يدفع مكرهاً الا اذا شرقته بكتيبة من الجيش.

انا اعرف امراء الشرق.

— توكل على عمون، يا ونعمون. وهذه صورة الاله — عمون السبيل، مانح الحياة والعافية — احملها الى امير جبيل، فتدخل على قلبه الورع والتقوى، فيذكر تقاليد اجداده، ويعطيك الخشب من اجل عمون، اله المجد.

وقد أعطى الكاهن الرسول شيئاً من المال يستعين به في سفره، وأصحبه كتاباً الى ذلك المتفرعن في الوجه البحري، صاحب الاسم الضخم الطويل، ليمهد له السفر الى جبيل: نسوبنبجدد. وصل الرسول بسلام الى مقر نسوبنبجدد، وأبحر من هناك بسلام، ولكنه عرج في طريقه على بلدة يقطنها، فسطا عليه اللصوص فيها وسلبوا ماله. فراح يستأنف السفر، وليس معه غير صورة الاله عمون، فوصل الى جبيل بصحبة آله الحياة والعافية.

وفي ذلك الزمان كان زكربعل امير جبيل — زكربعل الملك والكاهن الأكبر يشرف على البعل. وكان اهل جبيل

٥٧٨

وكان اهل جبيل قد بدأوا "يقاطعون" الدالة المصري،
فدخل رسوله المدينة دخول الغريب المرغوب عنه:
ما رحب احد به، ولا منحه ~~[illegible]~~ الملك شرف المثول
بين يديه! يالذلة رسول عمون! ولكن الصبر من شيمة
الرسل. ولا بد ان يفعل الاله فعله بقلب زكربعل،
فيأذن فيدخل عليه، وان ابطأ، الورع والتقوى.
على الاقل بالمقابلة.
وكان قلب زكربعل كقلب فرعون المذكور في
التوراة. فقال غاضباً: لا اقابل المصري. لا اقابله،
ليرجع الى بلاده.
وفي ذلك الزمان كان في جبيل رجل صالح تخلصه العبادة
فجاء الامير ناجحاً بل جاءه منتذراً، فخاطبه:
قابله لوجه عمون العظيم. قابله
للاله عمون. قابله واصرفه بالحسنى. قابله
فانك! والا تستنزل عليك نقمة ربه الذي لايزال من ارباب
هذه المدينة.
وكان لكلام الرجل الصالح أثر مَلَكيّ في قلب
زكربعل، فاذن بالمقابلة.
جاء ونعمون الى القلعة، حيث كان الملك جالساً
بالقرب من نافذة تشرف على البحر. جلس هناك جلسة
ملكية

(٤٥٤)

أنا زكربعل
ملكيه، وجبهه للباب، وظهره للبحر :
ملك جبيل والكاهن الاكبر لمريشف البعل، أدير ظهري
للبحر. فهل الفرعون اعظم من البحر؟ وهل الاله عمون
اعظم من البحر؟

دخل الرسول فسلم سلامه المألوف : المجد
والعز لعمون.
فلم يرد الملك السلام عليه. بل سأله قائلا : كم
من الزمان قضيت في السفر من مصر؟
- خمسة اشهر ويوم واحد، اليوم.
- انا كنت رسول عمون فاين خطه؟ الا
تحمل الينا خطا منه؟
- أخذه نسوبنعبدد.
- أتستهين بخط عمون الينا، فتسلمه الى
غيرنا؟ ..
- وماذا كنت تفعل لو هاج
البحر عليك وحطم مركبك؟
ثم قال وهو يتميز غيظا! أتستخف بعمون وقد
أهنته هذه الاهانة؟ وهل يعنينا عمون حتى لا يكرم خطه؟
ولا يهمنا ما بينه وبين الفرعون.
نحن لا نعرف نسوبنعبدد. في الميناء اليوم عشرون
مركبا للتجارة بيننا وبينه.
هو يشتري منا ويدفع ثمن ما يشتريه. وأنت ماذا جئت
تطلب منا؟

جشت

- جئت اطلب خشباً لسفينة فرعون، ملك الآلهة. والدك اعطانا خشباً، وانت فاعل ما فعل والدك.

- انا افعل ما فعل والدي، اذا انت فعلت ما فعله رسول فرعون قبلك. اني اذكر ذلك. فقد جاء يومئذ رسول فرعون بستة مراكب مشحونة بالبضائع من صناعات مصر ومحصولاتها. فأفرغت في مخازننا قبل ان أنزل الخشب اليها. أتريد البرهان؟

أمر زكربعل الكاتب بأن يحضر دفاتره، فجاء بها وقرأ ما كان مسجلاً فيها من الحسابات بين ~~[illegible]~~ اجداد زكربعل وفراعنة مصر. فقرأ على مسمع ونعمون: الف قطعة من الفضة. الفا قطعة من النحاس. خمسمئة قطعة من الذهب... قطع الملك على الكاتب قراءته قائلاً: لو كانت ازراقي لحاكم مصر، وكنت انا خادماً له، لقطعت لك الخشب بيدي. واذكر ايها المصري، ان والدي لم يدفع الجزية لفرعون. ولا انا ادفع الجزية. لست خادمك ولا خادم من ارسلك. انا صاحب المال. اذا ناديت لبنان سمعت الغابات ندائي، وجاء الخشب الى

٥٥٠

٤٦

الى شاطئ البحر: وما الذي جئت انت بسببه؟ اين
مراكبك تحمل الخشب؟ اين حبالك توثقه فلا يسقط
في البحر اذا هاج البحر عليك؟ بئس الاسفار اسفارك.
أتجيئنا صفر اليدين حاملاً الينا صورة عمون؟ نحن
لا ننكر عظمة الاله ونعمته. ولكننا نقول انه اله
عادل * محب العدل.
ونحون: ليس على وجه اليم مركب لا يملكه ملك
الآلهة. * ان له البحار وما عليها، وان له لبنان وما
فيه. كل شجرة في لبنان لعمون، ولمراكب عمون
القدسية. هكذا قال لكاهنه الاكبر، سيدي هرهر.
وهكذا تقول هرهر لك انت. وتقدم لك
صورة عمون القدسية. فماذا فعلت بها وبحاملها رسوله البلاد؟
اددتني خائبا. وما بالك انا انتظرت في بلدك ٨ عشرة يوما قبل ان
أذنت بالمقابلة. وجئت بعد ذلك تساوم في خشب
لبنان، وتقول ان لبنان لك، وان ملوك مصر ارسلوا
ذهبا وفضة الى اجدادك. اولئك رسل الفرعون،
وانا رسول الاله ملك الآلهة، ومانح الحياة والعافية.
— آمنا يا صاحبي بعمون — ويعمون السبيل. وحمشاه
ولكننا نقول: اذا كنت
ونحمه اشد على نعمائه. فلا تشكرنا باسمه.
انت مؤمنا به مثلنا، ولكن

وكن في المعاملة معنا كعهد تقيّنا نحو ينتعبد د.

أتريد ان نكتب الى من ارسلك؟ أُكتب.

وكان ان كتب ونعمون يطلب بضاعةً ومالًا بعد ثلاثة اشهر بلغة مراكب ٤٠٦

لشراء الخشب. فجاءه بعد ثلاثة اشهر مراكب مشحونة بالمنسوجات، وورق البردى، وجلود الجواميس، وقطع من الذهب والفضة والنحاس.

فاستلمها عمال زكربعل، ووضعوها في مخازنه، ثم سلموا ونعمون خشب الارز.

ويوم جاء يستأذن بالرحيل قال له زكربعل! انت في حظك احسن ممن تقدمك من اخوانك (اي اعضاء الوفد المصري الذين أُسروا وماتوا في جبيل) هم مدفونون في تلك المقبرة (دلّ عليها من نافذة القصر) فهل تريد ان تزور قبورهم؟

فاجاب ونعمون أن حسبه زيارة الامير.

وكان ان جماعة الثّكل (اي الفلسطينيين في ذلك الزمان) اولئك الذين سلبوا ونعمون ماله، علموا بمجاءه جبيل من اجل ه فتتبعوه يترقبونه في عشر مركباً ولبثوا باحة عرض البحر.

وفي ذلك اليوم، يوم أقلع ونعمون من ميناء جبيل، احاطت مراكب الثّكل بمراكبه، فاشتولت عليها

عليها، فنجا هو بمركبه، وعاد يشكو امره الى
زكربعل. فغضب الامير غضبة فينيقية، وارسل
اسطولا من سفنه على اولئك القرصان، وقد
كان من احسانه، فوق ما كان من عدله، انه ارسل
الى ونعمون في محنته زادا وخمرا، و"دشوقة
مصرية" تخفف من بلواه.

وكان أن اسطول الملك زكربعل ادرك مراكب
الثكل، فاستولى عليها، وساقها الى الميناء والامان.
فحسب الامير القرصان ~~[illegible]~~ ليؤمّن البحر لونعمون.
ولكن البحر غير قرصانه. وهو، وان ادار الملك
الفينيقي ظهره له، ليعصف عواصفه والليالي. ويكمن
ويغدر، ويفتك فتكه الذريع. فبعد ان اقلع ونعمون
للمرة الثانية من ميناء جبيل، واختفت عنه ناظره
شواطئ فينيقيه، هجم البحر عليه هجمة رهيبة،
قذفت به الى جزيرة قبرص. فقد نجا منه
رسول الاله العظيم، عمون رب البحار! فقد نجا من
البحر كما نجا من قرصانه، والقى مراسيه في مياه الجزيرة،
ولكن كبد الزمان انه كالظل. فما كاد يطأ ارضه
حتى هاج عليه رعاع اهلها،
الاسيا (قبرص) ٢٥٧
ففر هاربا الى قصر الملكة حطبيا، فادركوه هناك،
وهم يلحقون ويتوعدونه بالذبح.

وحده

وحدث ان الملكة كانت عائدة الى القصر، فاستغاث
نعمون بها، فنادت اللغوي في حاشيتها، وامرته
بان يفك لها الغاز الغريب. فقال نعمون
يخاطب الترجمان:
قل لمولاتي ان شهرتها جابت البحار والامصار،
فوصلت الى المقر الاقدس للاله عمون. فعلمنا وتيقنا ان
المظالم موجودة في كل البلدان الا في ألاسيا.
فضحكت الملكة حطيبا، ثم كلمت: ماذا تقول،
ايها المصري؟ ان المظالم لفي هذا البلد - كل يوم مظلمة.
~~فقال~~ وفزع نعمون على وتر آخر: لقد هاج البحر علي،
وساقتني الرياح الى مدينتك، اليك ايتها الملكة الذائعة
الصيت عفافاً وجمالاً. ايتها الجالسة على عرش الرحمة، فهل
يؤذى اللاجئ ببابك؟ فطيبت الملكة حطيبا،
حميت الانوثة في الملكة بجرأته شرطي،
وارسلته ورجاله
خاطر الرسول، وارسلته ورجاله! فعند نما
الى المضيف. وملكة ألاسيا
"شكراً لعمون، وطشتشيبا."
تلك الليلة آمنين. ونعمون تغرزه الى هرهر
هي الكلمة التي يختم بها. فلا ندري ما ذا جرى
الكاهنة الاسود في طيبة المحروسة التي كانت بين ليلة
ومراكبه المحملة خشباً في الرهنة ، وظلمات الزمان.
الاطمئنان

٤٥٨

فينيقية (١)
والفراعنة

في منتصف القرن الواحد والعشرين من العهد الاقدم
كانت البلاد الفينيقية المسالمة المطمئنة — نظنها خيراً
اذا جهلنا الخبر — كانت هذه البلاد محوطة بشعوب
همجية حربية، وبدولتين استعماريتين هما بابل ومصر.
فيوم كان حمورابي البابلي الاكبر (٢٠٦٧ - ٢٠٢٥) ينشر
الغارات على سومر وعيلام ليدخلها في حوزته، والفرعون
منتوحطب الرابع كبير الاسرة الحادية عشرة، ومعاصر حمورابي،
يسيّر الجنود على بلاد النوبة ليبسط سيادة طيبة
عليها، كان الفينيقيون مكبون على الاعمال السلمية،
الصناعية والتجارية، تسير قوافلهم شرقاً الى ما وراء
الفرات، وتمخر مراكبهم الى الجزر والثغور الدانية
والنائية في البحر المتوسط.

---

(١) جاء في اثر من الآثار المصرية، المكتوب باللغتين الهيروغليفية واليونانية، ان البلاد الفينيقية كانت تدعى قديماً كفت (Keft) وهي في اللسان الفينيقي شجرة النخل، لكثرة النخيل فيها. وكان المصريون يسمون البلاد السورية والفينيقية كلها زهي او زاهي (Zahi) وكان الفلسطينيون يعرفون بالثيكل (Thekel) وهو اسم قبيلة من القبائل التي نزحت الى فلسطين من جزيرة اكريت. فما الصلة بين هذه الاسماء القديمة والاسماء المعروفة اليوم؟ لا ندري. وكل ما يقال في تفسيرها وتعليلها هو من باب التكهن. انها تلف احاجي التاريخ.

كان الملاح الفينيقي سيد البحار في مهارته ومغامراته،
والتاجر الفينيقي امير التجار في حنكته واقدامه، والصانع
الفينيقي كبير الصناع في الحذق والذوق والاجتهاد.
فتأسست على السواحل المدن الفينيقية التي عززت
الشراع، ورفعت التجارة واسبابها، والصناعة
وارباببها الى المنزلة العليا في الحياة.
وما كان الحكام والكهان ليستنكفوا من تعاطي
التجارة. بل كانوا في العالم من اربابها، يتنافسون في
الثراء، وفي امتلاك الاراضي والماشية والعبيد.
فنشأت فيهم جميعا صفات الحرص والطمع - والدناءة،
يدوسون للكسب الخلق والسبيل. وكانت المصلحة
الخاصة تسود لذلك المصلحة العامة، فينزعون الى
الاستقلال بعضهم عن بعض، ويستأثر كل بما ملكت يداه.
ومن هذه الصفات الشخصية نشأت الصفات المدنية.
فكانت المدن، مثل الافراد، تستقل بعضها عن بعض، وتتبارى كلها
في العمران والجاه، وفي الترف والرفاه. وتتشعب محبة
السلام والراحة والرفاه. وهي كلها من طبائع الثراء.
وكانت تشيد حول تلك المدن الاسوار، لتقيها صولات
الطامعين، وغارات المتوحشين من الشعوب. وكانوا فوق ذلك
في هذه المدن كان الحكام يدعون بالملوك، ويلحقون
ينسبون الى الالهة، فيشتركون في حكم المدينة والقرابين
من القرى، ويشاركون في الحفلات التي تقام لها
التي تقدم على مذابحها، كما يشاركون كهانها بما تدره المعابد
عليهم

عليهم من المال. بل كان الملك، في بعض الاحايين، يجمع
في شخصه منصبي الحاكم والكاهن الاكبر. هذه المدن كانت
تحكي انتفاخاً صورة الممالك. هي هي التي نشأت
من نزعات الاثرة والاستقلال المحلي والفردي. هي هي
"الممالك" الحرة المستقلة في ايام السلم والاطمئنان،
المساومة الخائفة في ايام الخطر والحروب.
كذلك نشأت "الممالك" الفينيقية على ساحل البحر المتوسط،
من جبل الكرمل الى ما يعرف اليوم بخليج الاسكندرونة. في هذه
المساحة من الارض التي لا تتجاوز الثلاثمائة ميل طولاً
والعشرة الاميال في اعرض عرضها، اسس الفينيقيون ست ممالك،
مدن كبيرة، هي صور وصيدا وبيروت وجبيل وارواد
وسميرا.
وقد اختاروا السواحل البحرية لانهم لم يعنوا بالفلاحة والزراعة،
الاماكن التي تصلح للمرافئ وصنائع السفن،
وفضلوا من السواحل الخلجان غالباً، او الرؤوس البحرية. اما اذا كان
[illegible] وفي هذه الايام اقرب الى الخطأ منه
عند الاختيار القديم يبدو [illegible] حول مدينة صور
الى الصواب، لما نراه من [illegible] على اماكن آمنة كالخليج
الى الصواب، فان تفضيل الفينيقيين لها على [illegible]، انما هو الخفاء من
او جبيل مثلاً، او [illegible] مشكلة، [illegible]
الاسكندرونة مثلاً، فانا رواسي لبنان، وراء ما اختاروه
وجه نظامهم الخاص. للاحصان منيعة تحمي تلك المدن من
من الاماكن، [illegible] الصائلة، كالحثيين
غزوات القبائل وهجمات الشعوب
والبابليين والاشوريين. فلو أسست مدينة فينيقية
حيث هي اليوم الاسكندرونة، وهي اجمل مرفأ، واكثر
امانة

حصانة، من جهة البحر، من المدن الاخرى، لما طال عهدها.
ذلك لان الجبل وراءها تتقطع وتنفرج لجيوش الغزاة من
والفاتحين. هنالك الطريق الاقصر والاسهل الى فرنسيس وبابل الى
ساحل البحر عند ذلك الجون العظيم. اما جبيل
وصيدا وصور فان وراءها احصانًا حصينة، وبين كل
حصن وحصن طريقًا جبلية الى داخل البلاد تسهل
لقوافل التجار، وتصعب على الجيوش والغزاة.

مع ذلك ما كانت هذه المدن في نجوة من الاخطار على
الدوام. فقد ادركتها يد الفاتحين الناهبة المدمّرة، فكان
تاريخها المعروف يتلك دهرًا — دهر الامن والاطمئنان —
ثم ينطلق بكارثة من كوارث الزمان، تحل بجبيل او بصور،
فتدمرها تدميرًا، ثم يُعاد بناؤها، وتتجدد فيها الحياة
والعمران. ولقلّت تلك الكوارث التاريخية، فردّ لو اتحدت
الصائلون من هذه السواحل الهادئة، على الاقل، متحالفة
تلك الممالك "الفينيقية"، او كانت [illegible] للدفاع عن كيانها.

قال المؤرخ جورج رولنسون: "ما تأسس حلف من الولايات
الفينيقية كلها مرة واحدة، حتى ولا حلف موقت. وما كان
يجيء الولاية المهاجمة لعدو صائل أي اسعاف من الولايات
الاخرى شقيقاتها. الاعتزال على الدوام. والتنافس
والتحاسد، والمصالح الخاصة المتضاربة، وضعف الحس القومي،
كانت كلها تحول دون توحيد الكلمة والعمل في ايام الخطر
الشديد. فكانت كل ولاية تسقط وحدها، فتتبعها
الولايات الاخرى، واحدة واحدة."

هي كيفية تعبئتها. فما كان اولئك الفينيقيون ليدركوا
معنى التعاون القومي، ولا مالوا يوماً الى التضامن العام الذي فيه
خير الجنسية الواحدة والوطن × ولنا ان نقول ان ما كان
هناك وطن واحد، ولا حس ~~[illegible]~~ قومي واحد، حتى ولا اله واحد
يجمع شملهم، ويربطهم رابطة وطنية [illegible] واحدة، كالمصريين مثلاً
او الآشوريين. كان لجبيل ملكها وقسم من غابات لبنان تتصرف
بخشبها كيف تشاء، وتشادت مطامعه وسياسته. وكان لها الهها
الخاص تعبده، وتقام له الحفلات، ضمن سور المدينة، وفي القرى
التابعة لها. ~~بل كان لكل إ[illegible]~~
كذلك قل في صور وصيدا وارواد وسميرا. ~~هو تموز او رشف~~
~~[illegible] هذه المدن ملك واحد وما الوثنية من الالهة،~~ ~~إيل [illegible] في صور،~~
~~ويشتهر في جبيل، وهو يشترك~~ ~~وقد كانت تفرق هذه~~
~~[illegible]~~ ~~وبعل~~
~~المعابد (جميع بعل) [illegible] عبدتها فيقال: بعل صيدون،~~
~~ارواد وبعلة جبيل، كما يقال في حلولها~~
هي المدن المسورة بالاسوار الدينية والسياسية، كما كانت
مسورة بالحجارة. فما عرف ابناؤها المتحدرون من نسل واحد معنى
الاخاء القومي، ولا ادركوا مغزى الحياة الوطنية. وقل [illegible]
انهم كانوا متخاذلين متعادين – متعادين في بعض الاحايين،
متخاذلين على الدوام. البلاد الساحلية، فاكتسح سميرا،
عندما غزا عزيرو الحثي استعان باهل جبيل المتكلتين على ربيب عدي [عمري]
واخضع ارواد، استسلم زمريديا ملك صيدا
ملك جبيل فاعانوه. وبعد ان على ابي ملكي ملك صور.
لعزيرو عاونه، طمعاً بالغنيمة،
/ ولما

ولما زحف الاسكندر على بلدان فينيقيه، خرج حكامها وكهانها
ووجهاؤها يحملون اليه الهدايا ويرحبون به، خلافًا من الفرس
الذين كانوا مسيطرين على البلاد . الا صور العاصية، فضرب
الاسكندر عليها حصارًا دام سبعة اشهر . وكاد الصوريون
يردونه عن سوري مدينتيها البرية والبحرية خائبا
مدحورا لولا الاسطول الفينيقي الذي انجده به
ملكا جبيل وقبرص .

على ان هذا الشعب السامي، النازع الى الاستقلال، بل الى
الانفصال بعضه عن بعض والعزلة، شأن القبائل والشعوب
في بداءتها، الطامع على خلافهم بحطام الدنيا، المسترسل الى
الجاه والرفاه، يمتاز عن سواه من الشعوب الاسيوية الصغيرة
بما حرزه من اسباب الصناعة والتجارة، وبما سجله له التاريخ
من الاعمال الجبارة في جوب البحار، وتأسيس المستعمرات في
الثغور القصية، وما نشره من الحضارة الشرقية،
البابلية المصرية الفينيقية، في البلدان الاوروبية والافريقية .
فقد عاصر هذا الشعب في اوائل عهده الحثيين والميتانيين
في سوريه، والعيلاميين والكورايين في ارض الرافدين . وما كنا
لنعلم شيئًا عن اولئك الشعوب الصغيرة، الآرية والسامية،
لولا الاعمال الاثرية التي يقوم بها الاثريون في هذا الزمان .
بيد ان ما علمناه من اخبارهم لا يرفع بهم الى مستوى الفينيقيين،
ولا يجعلهم من الشعوب التي اقتبست عن غيرها، دينا او فنا
او صناعة، واضافت الى مقتبساتها شيئًا من التحسين
والابداع . فقد استقل الميتانيون (1) عن آشور، وكان من ملوكهم
ارتطاما

---

(1) كانت المملكة الميتانية في ما بين الفرات والخابور، حيث اليوم حسجه
والقامشلي، وكان المصريون يدعون ملوكها بملوك النهرين .

أرتطاما وطتوززما وشوطرنا وأرطارزور ما أنعم الأسماء!-

~~[illegible]~~ - فزوج أرتطاما ابنته زواجًا شرعيًا من الفرعون
تحوتمس الرابع، وقدم شوطرنا ابنته جيلوخيبا خطيبةً
للفرعون امنحوطب الثالث، واصحبها حاشية من
النساء قائمة - ثلاثمائة وسبع عشرة امرأة ميتانية!

- وتحالف الملك الحثي سبيلوليوما (١٣٥٠ ق.م) والملك
الميتاني ماتيعوذا على عاهل آشور، فكتب المحالفة باللغة
المسمارية التي كانت اللغة الدولية في ذلك الأوان. (462)
وما هي الآثار الأخرى لهؤلاء الميتانيين والحثيين؟ ما الذي
كان من مجدهم غير أخبار الغزوات والأعراس الملكية؟

- وجلب سوزرطا ملك الميتانيين أبوابًا للقصر من
الفضة والذهب، جلبها من بلاد آشور.

- وكتب ارتطاما الى صهره الفرعون يعلمه بانه في
حسن حال، كالشمس في السماء، وأن جيشه وعجلاته على ما يرام.
ثم طلب منه فضة وذهبًا وخيلًا وعجلات. «يقولون لنا ان
الذهب عندكم كتراب الارض كثرة..» ارسلوا ذهبًا الى حميكم
المحب لكم. ارسلوا ذهبًا وفضة.
لا، وربك. ما عند الأثريين على شيء لأولئك الشعوب يُذكر اذا
ما ذكرت امجاد الاقدمين، الا بعض التماثيل الحجرية، السمجة
الشكل، الرديئة ~~[illegible]~~ الصانعة، القبيحة الصورة والمعنى.
أرني قطعة منحوتة لشعب من الشعوب البائدة أقل
لك ما هي منزلة ذلك الشعب من المدنية.

[illegible]

وهذا حجر منحوت، مثال من الفن الميتاني، يمثل الهمام أنكيدو، وهو نصف ثور ونصف انسان. اما النصف الوحشي هو اقرب الى الحيوانية منه الانسانيه. هذا الاله ومعاونه له قبيح الصورة مثله — مسخان منكران بلحية آشورية — يحملان مظلة او ما يشبه مظلة، فوقها قرص الشمس المجنحة المصرية! يقلدون المصريين والاشوريين، ويمسخون ما يقلدون.

اما الفينيقيون فانهم يبدون بالمقارنة في مقدمة الشعوب المتثقفة المتحضرة. فقد كان الفينيقي يقتبس عن الصانع البابلي، والفنان المصري، فيحسن الاقتباس، ويضيف اليه شيئاً من الابداع، يسمه بميسمه الخاص، فتخرج التحفة من بين يديه وهي فينيقية الشكل والصنعة، ان لم تكن فينيقية الروح والمغزى. ساعطيك في فصل آخر المثال والبرهان، انما اقول، قبل ان اعود الى موضوع هذا الفصل، ان في هذه السجية الفطرية احد الادلة على ان الفينيقيين من ابناء [illegible] العرب. فان بينهم وبين من جاءوا بعدهم، اولئك الفاتحين المقتبسين من بني يعرب، المضيفين الى محاسنهم من مدنيتي الفرس والرومان، ان بين الفينيقيين وبينهم صلات الرحم والدار الواحد، محاسنهم مع المقدرة على الاقتباس والابداع.

ويجدر ان نسأل مع ذلك: من هم الفينيقيون الذين اسسوا هذه المدن المطلة عليه في ظلال لبنان وعلى ابانه؟ ومن اين جاءوا؟ وفي اي زمن هجروا المنازل الاولى؟

/ممما

مما اجمع عليه المؤرخون، وايدهم في ذلك علماء الآثار،
ان الفينيقيين مثل العرب ساميون. بل انهم عرب الاصل،
نزحوا من الشواطئ العربية الشرقية على خليج فارس، ومن
جزيرة البحرين، الى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان.(١)
اما ما هو بالتحقيق قديم الزمان، فلا المؤرخ ولا الاثري يستطيع
ان يقول قولاً جازماً. على اننا نستنتج من درس الآثار التي
وجدت في احد قبور المقبرة القديمة في البحرين، أن هجرتهم كانت
قبل عهد الكتابة، في اواخر العهد الصواني، يوم لم يكن الانسان
يحسن شيئاً من الكتابة. اذ لا كتابة البتة في مقابر
البحرين الفينيقية.
ومما يقوله المؤرخون ان اقدم الدول الآسيوية تأسست
عند فم الخليج الفارسي. فأيد الاثريون هذا القول في اثبات انهم
ان السومريين في دولتهم الاولى (٢١٠٠ ق م)
بلغوا درجة من المدنية عالية(٢) وقد اثبتوا كذلك بالبرهان
والدليل ان فم الخليج الفارسي كان في قديم الازمان حيث
اكتشفوا مدينة اور الكلدانيين، اي مائة وعشرين ميلاً
شمالي البصرة(٢) فلو كان الفينيقيون وهم من الشعوب
السامية الذين توطنوا شواطئ الخليج، قد ظعنوا في عهد
الحضارة السومرية لحملوا شيئاً منها الى هذه السواحل.
ولا اثر، على ما نعلم حتى الآن، لتلك الحضارة، الا ما جاء منهم
بعدئذ مختلطاً بحضارة بابل وآشور. اذن، ينبغي ان
يكون

(١) راجع «ملوك العرب» للمؤلف. الجزء الثاني: صفحات ١٨٩-١٩٢
(٢) راجع «قلب العراق» للمؤلف صفحة ١٧٤
(٢) «قلب العراق» صفحات ١٦٩ و١٧٤

وهذه قطعة من الحجر منحوتة، مثال من فرع الميتانيين،

تمثل

تكون هجرتهم قبل العهد السوري، ببضع مئات او بالف من السنين.
ومنذ تلك الهجرة الى ان يجيء ذكرهم في التاريخ لا نعرف
عنهم شيئاً البتة. فقد يكون مرّ على «جاهليتهم» الف
سنة، قبل ان عرفهم المصريون، وذكروهم في انصابهم،
وقبل ان ذُكرت البلاد السواحلية وسواحلها في اثر سرجون
العقادي المنتصر على الدولة السومرية. فقد غزا الملك
سرجون الاول (٢٧٥٠ ق م) سوريه، ووصل الى ساحل البحر،
ثم توالت غزوات الدول المشهورة.
ولكن خبر الفينيقيين الاول (٢٩٨٠-٢٨٠٠)* جاء من
مصر في عهد شنفرو، احد فراعنة الاسرة الثانية
— وارسل شنفرو اربعين سفينة الى الشاطئ الفينيقي لتجلب
له اخشاباً من ارز لبنان. ليس في هذا الخبر المسجل في
آثار ذلك الفرعون، غموض او ابهام. ارز لبنان الذي
شهره سليمان بن داود في اغانيه، ها هو ذا بين ايدي
صناع مصر، الف وتسعمائة سنة قبل عهد سليمان.
وها هم الفينيقيون في مدينتهم جبيل التي تأسست
كما يقول الاثريون، في اوائل القرن الثالث من العهد التاريخي
الاقدم، اي منذ خمسة الاف سنة، قد بلغت، مثل اور
الكلدانيين، درجة من الحضارة عالية. بل كانت تباري سومر
وكانت مصر، في ذلك الزمان،
بعمرانها وفنونها وثقافتها. وخصوصاً في عهد شنفرو،
الفرعون الكبير الاول. فقد بلغ من مهارة وجبارة صناع السفن
في عهده أنهم بنوا له عمارة بحرية طول احدى مراكبها مائة وسبعين
قدماً.

٤٦٦٠

٦٠
٥٩٥

وقد تضاعفت أعمال التعدين في مناجم الذهب في
بلاد النوبة، وفي مناجم النحاس في جزيرة قبرص وشبه جزيرة
سيناء، فتضاعفت معها الصناعات وانتاجها،
واتسعت أسواق التجارة، وعمت ربوع الري، فعم البلاد
الخير والاقبال. فلا عجب اذا رحب أمير جبيل وتجار الخشب
فيها بأولئك المصريين الاغنياء، وواظبوا على الولاء لهم
والاتصال تجاريا بهم برهة من الزمن استمرت نحو مائة سنة؛
ثم انقطعت العلاقات التجارية في ملوك مصر الاقطاع السابقة.
ففي سنة ٢٧٥٠ جهز الفرعون نشيهور، من الاسرة الخامسة،
اسطولاً غزا به السواحل الفينيقية، ولهذا الفرعون
أثر وجد في هرمه بابي صير مزبور فيه رسم اربعة مراكب
بحارتها، وبينهم اربعة من الاسرى الفينيقيين: هذه الصورة
هي اقدم ما في العالم من نوعها. فهي اقدم صورة لمركب بحري، واول
صورة تمثل اولئك الفينيقيين بشكلهم وقيافتهم.
ان اول ما نعرفه من تاريخهم اذن هو ما تنبئ به الآثار
المصرية، لا الآشورية كما كان يزعم المؤرخون. ومما لا ريب فيه
انهم كانوا معروفين في الجزر والبلدان الشمالية والغربية من
سواحلهم قبل عهد الفرعون نشيهور، معروفين بتجارتهم
وبسفنهم. كما كان لبنان معروفاً بغاباته، وخصوصاً منها غابات
الارز. انه من المحقق فعلى كل حال أن التجارة بخشب
الارز تعود الى القرن الثلاثين من العهد الاقدم، اي
ان الارز كان يقطع من غابات لبنان منذ خمسة الاف
سنة.

ومن

ومن المحقق ايضاً أن اول من حاول على الفينيقيين –
ألانهم كانوا يملكون الارز ؟ – وحاولوا الاستيلاء على بلادهم –
أمن أجل الارز ؟ – انهم المصريون . فمن حيث انهم كانوا
مستقلين طوال السنين التي تقدمت لعهد الفرعون شيبهور،
فقد بدأوا منذ ايامه (٢٧٥٠) ان يعانوا متاعب العلاقات
الاجنبية في بلادهم ،

٤٦٧

على ان هذه العلاقات – لا نعرف، لسوء الحظ، في تطورها،
من تجارية الى سياسية الى استعمارية ، الا ما نشره المؤرخون من
اخبار الفراعنة . وانك لترى، حتى في هذه الاخبار، سلسلة
منقطعة بين الحلقة والحلقة منها فراغ يستمر في بعض الاحايين
مائتان بل ثلاثمائة من السنين
فقد علمنا أن اول من جلب خشباً من شاطئ فينيقية هو
الفرعون شنفرو ، وان اول من غزا الشواطئ الفينيقية هو
الفرعون شيبهور . اما في عهد بيبي الثاني، الذي ملك
تسعين سنة (هو اطول عهد ملكي في التاريخ)
فقد كانت العلاقات التجارية بين مصر وفينيقية في حال حسنة،
وكان خشب الارز يجلب من لبنان ، وبالاجمال
فلا حرج في القول ان من عهد شنفرو الى عهد بيبي ، اي في خلال اربعمائة سنة،
من الدورة الثالثة الى الدورة السادسة ،
كانت مصر سوق الفينيقيين الاكبر للتجارة المجردة من عوامل
السياسة والذكر (٥٠٠) اذا استثنينا الغزوات
البحرية التي كان يقوم بها بعض الفراعنة لموفرة الدم
الحامي في عروقهم ، او لقلة المال في خزينة الدولة .

/ وما

وما دخلت السياسة في دورها الجدي قبل عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠-١٧٨٨) الذي هو عهد مصر الذهبي. ففي هذه الحقبة السعيدة من الدهر شرع الفراعنة يفكرون في الاستيلاء على الممالك الاسيوية، اي الفلسطينية الفينيقية السورية، ويمهدون لذلك بما يجوز ان نسميه البعثات الاستخبارية. فقد كان يرسل الفرعون رسله الى سورية وفينيقية مستطلعين مستخبرين، وكان اللسان المصري آخذاً بالانتشار في هذه البلاد، هي سياسة الاستعمار بلبابها واساليبها – وما اقدمها! أفيستغرب – أن يكون لها غير النتيجة المعروفة – الحرب؟!

في النصف الاول من القرن التاسع عشر غزا سورية للمرة الاولى الفرعون شيزسطروس الثالث، غزوة "مشرّدة"، ما تلاها استيلاء، فيجيء فراغ طويل الامد – ثم تنقطع سلسلة الاخبار في تاريخ فينيقية – اي نحو ثمانمائة سنة، سقط خلالها عرش فرعون مصر، فاستولى عليه الملوك الرعاة، ثم طرد الرعاة من مصر، وأسست الدولة الثامنة عشرة، التي جددت مجد مصر الغابر، وعززت شوكة الفراعنة في داخل البلاد وخارجها.

اما الفاتح الاول لسورية وفينيقية وفلسطين، الباسط السيادة المصرية على البلاد كلها، من غزة الى قرقميش والى حادونيج شرقي الفرات[1]، فهو كبير هذه الاسرة الفرعون طحوطمس الثالث (١٥٠١-١٤٤٧) الذي غزا / هذه

(١) التلب

(1) يختلف الأثريون في كتابة أسماء الفراعنة .
مثال ذلك : طحوطمس - طحوتمس - طهطموسيس - تحطمس
و امنحوطب - أمنوطس - أمنوطف .

هذه البلاد سبع عشرة غزوة !
— وجاء حكام البلاد الساحلية يحملون الجزية الى
الفرعون، ويقدمون له الطاعة.
وفي دُرْج من ادراج البردي قصيدة للاله عمون يمنّ
فيها على الفرعون، فيقول:

جئتُ أُشدّ ساعدك لتضرب امراء زاهي (سوريه)
وقد قذفت بهم في اعالي جبالهم، الى تحت قدميك.
وفتحت عيونهم لتبصر ضياءك، انت امير الضياء،
فسطعت امامهم كأنك صورة لجلالي.

سبعون سنة من السيطرة المصرية المستمرة — اي
الاستقلال الفينيقي النوعي والجزية — كما اسلفت في الكلام
على حوادث جبيل في عهد ريب عدي، سبعون
سنة من هذه السيطرة، تلتها ثورة الفرعون
الفيلسوف المتصوف امنحوتب الرابع، او اخناطون،
فضعفت شوكة مصر في الخارج، ففك امراء الشرق
وملوكهم قيود السيطرة الاجنبية، وقتل بعضهم
المستشارين المصريين في بلادهم، وامتنعوا — وهذا
اهم ما في الامر — عن دفع الجزية. فقد كان الفرعون
يرسل
على ان النير المصري لم يكن ثقيلا.
~~يطلب من [illegible] الجزية [illegible] تقيم~~

٠٩٩٦٤

يرسل مفوضًا او سفيرًا من قبله، ليقيم في عاصمة

الامير، فيراقب ماليته وسياسته الخارجية. ويرضى

بان يدفع الامير الجزية السنوية، وليعمل بعد ذلك

ما يشاء. – الآن نقفل السفير:

ولكن اولئك الامراء والملوك كانوا يعملون

فوق ما يأمر به الفرعون، عندما يكون قويًا، ودون

ذلك عندما يكون ضعيفًا، او يكون حكمه في

اضطراب. فما كانوا في حمل ذلك النير الخفيف

كبار النفوس أباة، والا كانوا في خلعه على

شيء كبير من البطولة. انه لسلوك العبيد،

يرفعون الصوت على الفرعون المنكوب، ويخرون

ساجدين امام ذي الصولة الفرعونية والاقتدار.

وهاك مثالاً من رسائلهم الى الفراعنة مأخوذًا

من كتابات تل العمارنة:

الى سيدي والهي ونوري –

الى شمس السماء ونور الارض –

انا عبدك، وتراب قدميك، وسائس

خيلك، اخر على اقدام مولاي سبع

مرات، وانطرح سبعًا على صدري

وظهري. .

ما انا غير كلب بطيء مولاي تحت

قدميه

قدمه . وكانوا يوقعون رسائلهم
بـ فلان عبدك ، او فلان كلب
الملك
وما كان احد منهم يلقب بملك او امير ، بل
كانوا يعرفون باسم "حزانو" اي الحاكم او الوالي
وهناك رسالة من احد ولاة بيروت اسمه
عمونيرا ، كان حاضراً لـ "حزانو" جبيل ريب
عدي لبعد السجود والانبطاح على بطنه وظهره
سبع مرات ، يقول : ~~الى~~ الي انا عبده
لما وصل امر مولاي وشمسي
وتراب قدميه قائلاً : اذهب الى مساعدة
انصار سيدي الملك ، للحال أطعت امره ،
وها انذا لاحق بأصحاب مولاي الملك
مع خيلي وعجلاتي وكل رجالي -
وفي رسالة اخرى يذكر عجلاته الحربية ، وما بينه
وبين ريب عدي من الصلات ~~الودية~~ الودية . ولكنها
على ما يظهر لم تدم طويلاً . فبعد ان استسلمت بيروت
لعزيرو الحثي ، انقلبت على جبيل المحاصر من عزيرو و

داغارز

وأغارت اغارة بحرية على اسطولها فاستولت عليه.
فبنيتي يحارب فينيقيا، والغنيمة للأجنبي.
والعز والمجد للفرعون — وأخر ساجداً
عند قدمي مولاي — واطرح على بطني وظهري
سبع مرات — عندما يكون الفرعون ذا صولة
واقتدار. وعندما تضطرب احوال مصر
الداخلية، وتتزعزع اركان الملك، فيعلو
عرش الفراعنة عاجز او سفيه، ليتفرعن "خزانو" جبيل.
ويتأسد "خزانو" قدس،
ولقد أسمعناك كلام زكربعل للرسول
ونعمون: لست خادمك، ولا خادم من
ارسلك. فادفع والدي الجزية لصاحب
مصر، ولا انا ادفعها. لو كان صاحب
مصر طحوطمس الثالث، او امنحتب الثاني، ج
فهل كان يتجاسر بازائي؟

تحت أنقاض الشرق والغرب

كان المؤرخون، حتى أواخر القرن الماضي، يستشهدون
هيرودوطس، الملقب بأبي التاريخ، في أخبار الأقدمين، ويزكون
شهادته بما جاء في التوراة، وقد أيّد علم
الآثار الحديث بعضه، وذهب بصحة البعض الآخر.
أما هيرودوطس، فإن في تاريخه عمن تقدم الإغريق
من الوهم أشياء لا يثبتها علم الآثار الحديث. فمن أين
لأبي التاريخ المحترم أن يعلم من أخبار المصريين الأقدمين
مثلما نعلمه نحن اليوم؟ وكيف نعلم نحن، بعد
خمسة آلاف سنة، ما لم يعلمه من تقدمنا بخمسمائة
والعشرين من السنين؟ في ظاهر الأمر ما يدعو للعجب،
وليس في حقيقته شيء من ذلك.
لقد زار هيرودوطس مصر في منتصف القرن الخامس
قبل المسيح، ووقف حديثًا عند آثارها الناطقة بما كان
لأولئك المصريين من حضارة، وفن وعلم وعمران.
ولكن العلم بتاريخهم، العلم المحقق المثبت،
كان في أيامه مدفونًا مع رفات العباد-
موميات الملوك- في أضرحة هي أشبه بالقصور،
وأهرامات هي كالحصون في أرجاء الزمان.
وكذلك قل في ما كان مدفونًا من أخبار
الشعوب الذين كانوا
غير المصريين، من أولئك الأقدمين"

"الاقدمين" الإغريقي ذلك الزمان . فنظر
هيرودوطس خلال الظلمات التي كانت تكتنفهم ، فادرك
شيئاً من ذلك الماضي الاقدم ، وفاته اشياء ..
اغفاه الكهان عنهم . قال هيرودوطس ان الفينيقيين
والبلاد بالمثل .
نزحوا من شواطئ الخليج الفارسي في اواخر القرن التاسع عشر ،
بناءً على ما جاء من ذكرهم في الاشعار الهومرية . ويقول
المؤرخ الحديث ، المستعين بالاثريين ، ان في عهد
الفرعون شنفرو ، اي في اواخر القرن الثلاثين ، جاءت
مراكب هذا الفرعون الى الشواطئ الفينيقية لتجلب
خشب الارز . فقد كان الفينيقيون اذن
له
متوطنين هذه السواحل ، التي دعيت باسمهم ،
في القرن الثلاثين وقبله .
وما كان هيرودوطس ليعلم شيئاً عن عمران
البحرين الفينيقية التي اكتشف احد الاثريين
بعضها في اواخر القرن الماضي .
هكذا يلج علم الآثار علم التاريخ . ولا اقول ان
الاثري معصوم عن الغلط . ولكن الصخور والآجر
وادراج البردي الناطقة باخبار الاقدمين هي اجدر
بالتصديق في اكثر الاحايين من الاخبار
المنقولة .

والباقي /

٦٩

واليك بمثل من عجيب النقل . قال هيرودوطس
في القرن الخامس قبل المسيح ما قاله في حجة الفينيقيين، فنقله
عنه المؤرخ اللاتيني جُستان، بعد سبعمائة
سنة، فنقله عن جستين، بعد الف وستمائة
سنة، رولنسون ورنان وغيرهما، فنقله
الكتاب، والان السون ينقلونه، عن هؤلاء المؤرخين
المحققين، والعلماء المدققين الخ، كأنه من
الحقائق الراهنة، لا يقبل الشك والتأويل.
ولا فضل لهذا الكاتب بمعارضة نقلهم المغلوط
بنقله الثابت المحقق، بل الفضل لاولئك العلماء
والاثريين الذين اكتشفوا في النصف الاخير من
القرن الماضي، اكتشافاتهم الفنية في بلاد اشور
وسومر، (1) وخصوصا منها اكتشافات تل العمارنة.
فالاكتشافات صححت الاغلاط، وازيل
ما هو شائع عن الفينيقيين، من الضلالات
فعلى ضوء تلك الاوهام.
لقد استوفينا البيان في الفصل السابق عما كان في عهود الفراعنة
بين فينيقية ومصر
الولائية وغير الولائية وطحوطمس
وسنوسطريس وبيبي و
ششنق ورعمسيس، الى الاخر الذي ابتدأت
واخناطون وشونبعبد وهرحور الكاهن الاكبر،
فيه الدولة بين شونبعبد قبل المسيح.
اي الى القرن الحادي عشر اشور تغلاط
وقد كان شونبعبد معاصرا لملك فلاصر الاول،
الذي كان يطمع الى الفتح والتوسع
فلا تسمح الدول، فغزا

(1) راجع

٤٧٢

(١) مفتاح اللغة الاهيروغليفية هو حجر الرشيد الذي اكتشفه قرب
الترعة التي دعي باسمها الضابط الفرنسي بوسار من جيش
نابوليون (١٧٩٩) واستولى عليه الانكليز بعد واقعة الاسكندرية (١٨٠١)
فنقلوه الى المتحف البريطاني. هذا الاثر مكتوب باللغات الثلاث
الهيروغليفية والعامية منها (demotic) والاغريقية، وهو الذي فتح
للعالم الفرنسي شمبوليون مغاليق كنوز الآثار
والكتابات المصرية القديمة.
ومفتاح اللغة السمارية هو حجر بيستون الثابت في
ارضه في جبال فارس. هناك في سفح جبل شاهق بالقرب من كرمنشاه
قرية بيستون، وبالقرب من القرية مكان يشبه في
شكله وصخوره وآثاره التاريخية نهر الكلب بلبنان. هناك آثار
منقوشة في الصخور فوق النهر، آثار ساسانية وعربية وأشكانية (برثية)
واهمها الاثر الذي كان يظنه الاقدمون، ومنهم المؤرخ ديودوروس
انه للملكة الاشورية المشهورة سميراميس. ولكن علم الآثار
كشف حقيقته، وحل رموزه واسراره بالكتابة السمارية
وحديث [illegible] الملك دارا وفتوحاته باللغتين [illegible] والفضل في
الناطقة باخبار الملك دارا الاول [illegible] يعود الى السير
الذي زار هذا الاثر العلامة السير هنري رولنسون لنسخ الاثر.
البريطاني في بلاد فارس وتسلق تلك الصخور فانجز ١٨٤٦!
الذي زار ذلك المكان [illegible] أوبيت الباقي
ثم بات الترجمة الفرنسي الدكتور أوبيت الانكليزي.
وقد ترجم العلامة [illegible] مستعينا بترجمة زميله الانكليزي
الذي [illegible] مفتاح اللغة السمارية، واساسه
العلوم الاشورية البابلية.

× التي كانت تدعى قديماً بارثيا

× والغاشستة [illegible]

فغزا سوريه ووصل الى سواحلها، فخشي بلونبعيدد
ان يستمر زاحفاً الى مصر، فارسل اليه الهدايا تزلفاً
واسترضاءً، فقبلها صاحب آشور، وعاد الى
بلاده ظافراً – ناهباً – راضياً.
بل عف عنه الغزو، على ما نعلم، واستمرت العفة
الآشورية زمناً طويلاً، السبح النابح ثم ران السكوت،
فلا ندري حقيقة حالها، الى ان يطلع على مسرح الغزو
شلمنصر الثاني، وذلك لبعد مجاملة نلوبتعبد
لتغلط بلاسر بمائتين وخمسين سنة.

فمشى شلمنصر الثاني بجيشه الجرار من نينوى،
وما كاد يصل الى الفرات حتى قام ملوك الدويلات
غربي النهر يتحدون – للمرة الاولى في تاريخهم –
ليدفعوا عنه البلاء شر آشور. وقد رأى فرعون
ذلك الزمان، صوناً كذلك لملكه، ان ينجد الدويلات
في حلفهم على الآشوري الصائل. ولكن النجدة
لم تنفع، ولا الحلف.
عاد الآشوري الى بلاده ظافراً – ناهباً –
راضياً. واستمرت آشور في طموحها الى ما وراء
الفرات من الممالك والغنائم. فجاء تغلط
بلاسر الثالث غازياً، فوصل في غزوته الى حدود
مصر! وكانت مصر الهرمى تحاول ان تشدد الدرابيز
على آشور، فأخفق مسعاها. الاّ في فلسطين حيث
ثار

ثار العبرانيون على السلطة الاشورية، فجاء سنحريب
يؤدب الثائرين، فوطد سلطته في البلاد الساحلية
كلها، الا صور. ثم زحف على عسقلان فالتقى
هناك بجيش من أخلاط المصريين والفلسطينيين،
فتغلب عليه، وضم فلسطين الى سورية وفينيقية،
الا اورشليم. صور واورشليم — ردّته عن الاولى
استبسال ابنائها، وحال الوباء الذي فتك
بجيوشه دون استيلائه على الثانية.
وكانت بابل قد ثارت على نينوى، فعاد
سنحريب مسرعًا الى بلاده لقمع الثورة.
تلك الاضطرابات في ارض الرافدين انعشت ما تبقى
من قوة في وادي النيل. فقام الفرعون طهرقا يجدد لمصر
عهدًا ماضيًا ومجدًا انقضى. فاتحد وملك صور على
أسرحدون، خلف سنحريب، فردّه في غزوته الاولى (٦٧٠)
خائبًا مدحورًا. فأعاد الكرة في السنة التالية
وقصده الاكبر الاستيلاء على مصر. فما استطاعت هذه المرة
وكانت صور هدفه الاول،
المقاومة، فاستولى عليها، واستمر زاحفًا الى مصر،
فوقعت هناك في قبضته الدلتا التي انتصر فيها المصريون، ففر
الفرعون طهرقا هاربًا الى الصعيد. فاكتفى صاحب
اشور بتلك الغارة وبما غنمه من الغنائم، وقفل
راجعًا الى بلاده، فعرج على نهر الكلب ليفاخر من
تقدمه من الفاتحين. فاذا سجل اسمه وخبره في
صخرة قريبة من اثر رعمسيس الثاني!
هناك بين تلك الصخور، المشرفة على ذلك النهر الوديع
يتفاخر الفاتحون، ويتبجحون.

وكأن طهركا قد علم بما نُقش في ذلك الصخر، ذلك الأشوري، وهو او انه رأى في عالم الغيب يتبجح امام روح بعنخي العظيم، فغضب غضبة فرعونية، وراح يلم شعث الحماة، ويقودهم في ثورة ثانية على السلطة الآشورية. فجاء اشور بنيبال بن اسرحدون يؤدب الثائرين، ففر طهركا ثانية من ساحة القتال، فلحقه دون ان يدركه حتى طيبة،

ثم عاد عاهل اشور الى بلاده ظافراً غانماً، وعاد المصريون الى العصيان بزعامة طهركا ومعه الداهية نخاو الذي كان يومئذ حاكماً لاحدى الولايات. فحمل آشور بنيبال حملته الاخيرة (٦٦١) على المصريين، ففتك بهم وشردهم، ولحق فلولهم وفرعونهم الى طيبة. وما كان ليدرك ذلك الفرعون الطيار، الذي لجأ الى البادية، وقضى نحبه فيها.

— ودخل اشور بنيبال بجنوده العتاة مدينة طيبة، بالنهب والسبي والتدمير. فختم تاريخها المجيد المديد.

— وجاءت ملوك الدويلات — فينيقية ويهودا وسورية وغيرها — عشرون ملكاً — يقدمون الطاعة صاغرين لـ"فاتح الممالك، وقاهر الملوك" — قدموا الطاعة، وقبلوا "اجل" عاهل اشور. الاستيلاء التام، الاستيلاء الآشوري.

— ودام الاستيلاء (٨٧٠ - ٧٢٧) تلتها نحواً من مائة وخمسين سنة، مائة سنة من الاضطرابات والفتن.

[illegible]

ــ وضُربت الجزية على البلاد، جزية آشورية
قطيعة، كانت على قسمين، قسم معيّن من المال، ذهبًا
وفضة ونحاسًا، يدفع سنويًا، والقسم الآخر من كل
منسوج ومصنوع ــ ثياب الصوف والكتان
والحرير، والأسلحة والخشب والأصباغ، والطيور والأسماك
وجلود الجواميس، والحجارة الكريمة والتحف ــ
ومما نال ملوك آشور من الغابات الفينيقية،
جوائز وخطيات. وقد كان لهم الحق، فوق كل
ذلك، أن يرسلوا رجالهم الى لبنان ليقطعوا
لهم ما يريدون من خشب الأرز! فلا عجب
تعيينًا، أن نير آشور لنير قطيع،
إذا نزع الفينيقيون في العهد الآشوري، على الفراعنة
إذا كانوا يطلبون الإغاثة
ولا عجب ولا لوم ، ويتحينون الفرص لخلع
نير آشور وملوكها،
محنة تحلّ بآشور
ذلك النير وتحطمه. يستقبلون بالتهليل
ــ وها هم ذو في أثواب العيد
والتسبيح. فقد هبطت على آشور برابرة من
الشمال. جيوش غزاة، اكتسحوا البلاد،
وزعزعوا أركان الملك، وضعفت في الداخل وفي
الخارج مشرفة نينوى.
ــ وهاهي ذي المدن الفينيقية الثائرة، تخلع
أنيارها، وتعلن استقلالها!

خمس واربعون سنة من عهد الاستقلال (٦٤٠ - ٥٨٥)
استعادت فينيقية فيها الحرية، ولقي الازدهار اطنابه.
ويح لهذا الكاتب. فقد خدعته الحماسة براعة، فعجل في
خط كلمتي الحرية والاستقلال، فوجب عليه التصحيح. ان
ذلك الاستقلال، في نظر المؤرخين، لنوع محدود، او ما
نسميه نحن اليوم استقلالاً نوعياً اداريا.
فقد كان الفينيقيون في تلك الايام يتذبذبون
بين مصر وبابل، يوالون القوي من ملوك احد البلادين،
الى ان يضعف فينتقلون بولائهم الى الاخر القوي. وقد
قال سنحريب لوفد من وفود البلاد: من اتكأ على
قصبة واهية انكسرت بيده، وجرحت الكف منها.
حكمة باهرة ما ترددوا في اقتباسها.
فكانوا يزنون ويلينون بحسب هبوط ميزان
السؤدد وصعوده في وادي الرافدين ووادي
النيل. فهاهم حيناً وعبيداً لنبوخذنصر.
وهاهم طوراً خلاناً للفرعون. وعندما تنقلب
الابية، ~~[illegible]~~ فعجل العسل الى عرش مصر
ودخل الى عرش بابل،
وها هوذا فرعون من الطراز القديم، وهو
الفرعون نخو (٦٠٩ - ٥٩٤) وقد قام يجدد سؤدد
مصر في البلدان الشرقية، فبنى عمارتين حربيتين،
الواحدة في البحر المتوسط، والثانية في البحر الاحمر،
وزحف فاتحاً باسم ~~[illegible]~~ آلهة المصريين، فاستولى على
غزة وعسقلان وبعض فلسطين والمدن الساحلية
/ كمله

فريد

٧٥

كلها (عُثر في صيدا على بقية أثر سُجّل فيه
بالهيروغليفية نصر الفرعون نخو)
وكانت دولة آشور قد انتقلت الى بابل، فارسل
ملكها ابنه نبوخذنصر على الفرعون، فالتقى الجيشان
في شمال سورية، قرب قرقميش، وكانت الواقعة (٦٠٥)
التي انهزم فيها المصريون. ولكنها لم تكن حاسمة، فقد
اضطر نبوخذنصر، اذ جاءه نعي والده، ان يعود الى
بابل ليخلفه على العرش. لا نعرف الى اي،
وباتت البلاد في حيرة واضطراب.
من الملكين تقدم العمل، والى اي اجل. عاد يكمل
ثم عاد نبوخذنصر يساعدها في تقرير مصيرها. ومشى الى
العمل الذي باشره في السنة الماضية ودخل البلاد فاتحاً، صور الأبية،
سواحلها ظافراً حتى صور — صور العتيبة، صور
العاصية الثائرة! ضرب البابلي عليها ذلك
الحصار الذي دام، كما جاء في التواريخ، ثلاث عشرة سنة!
وانتهى بان سلمت عروس المدن الفينيقية، فحارت قوى
الفينيقيين في كل مكان، وختم الاستقلال النوعي بالنير
البابلي. انما كان في بادئ الامر مستقلاً، فجاء حفيد
نخو، الفرعون أبريس، يعيد الكرة على حاملي ذلك النير،
وثأر لجده من نبوخذنصر، فضرب اسطوله بقيادة حدون
السواحل، واحتلت جنوده صور الواهنة المتلاشية
من ذلك الحصار الطويل، كما سلمت له المدن الاخرى.
فينيقية بين ابليس والبحر كما يقول المثل
الانكليزي. فينيقية بين شاقوفين كما يقول اللبنانيون

ويحك يا مصر، ويحك يا بابل. كما
اللبنانيون.
الشمس المخنجة، وما الأسد المجنح، والنار والعرب واحد،
لا فرق للقريبة فيهما.
وها هو ذا الأسد يزأر، ويثب وثبته الثالثة.
وها هي ذي جيوش الشمس المخنجة [illegible] تحت أسوار أورشليم
وهاكم الفينيقيين، وقد تحطمت بين أيديهم
أواني الخل والعسل، فتابوا إلى ملقرت
وعشتروت وتموز يستغيثون ويسترحمون.
حاصر نبوخذنصر أورشليم، فعجزت جيوش مصر عن
فك الحصار. فتحققت نبوءة النبي حزقيال الذي أنذر
العبرانيين ألا يتكلوا على مصر. فسقطت أورشليم
سحق العبرانيون، فزحف بعد ذلك نبوخذنصر إلى
مصر، فدخلها فاتحا ظافرا.
وعاد الفينيقيون يشحنون قوارب النصر —
نقرر المصير — فملأوها عسلا، وقدموها إلى عاهل
بابل، صاحب النير الجديد، الذي حملوه ثلاثين سنة.
ومن يحكم بالنير بالنير يحكم، ولو بعد ثلاثين سنة.
(٤٢٩ ق م)
فقد دهم بابل عدو من الشرق، هو قورش ملك
فارس، فأثخن في أهلها، وأذل مليكها نبونيدوس،
ووضع النير الآري على رقبة الكلدان الساميين.
فأي ملك يتسلمه أخوانهم الساميون في فينيقية؟
هل تأبى [illegible] فينيقية ما قبلته [illegible] رقبة أبناء بابل، وهي
من أحلب الرقاب وأغلظها؟ وما الفرق عند
فينيقية بين نير ونير، وهي التي اعتادت خلع
الأنبياء وحماها، كما يخلع المرء ثوبا باليا ويلبس
ثوبا

٦١٢

نوباجبرا:

— وجاء قمبيز، خلف قورش، يمتحن ذلك
النبيل؛ فالفاه متنبئاً مكتئباً، والفى حاشيته من
اطوع الطائعين، واسرعهم الى العمل.
— ألا ان مصر قصدنا، واننا لفي حاجة الى
السفن:
فبنى الفينيقيون اسطولاً لقمبيز، وشحنوه
بالمقاتلة. ففتح مصر بمساعدتهم، وبسط عليها
سيادة فارس في السنة الخامسة والعشرين بعد الخمسمائة

٤٧٩

قبل المسيح:
— والدنيا بما فيها لفارس. ولكل نصر نصر يتلوه
ولعلوه اذا ما قاد قمبيز الجيوش. هبوا ابنا.
هنالك في الغرب بلاد عظيمة (غنية) هي قرطجنة - لكل
نصر نصر يتلوه - هبوا ابنا.
— ولكل عمل نهاية يا ذا الجلالة والبهاء. ولكل صبر
حدود مبرورة، يا صاحب الصولة والاقتدار.
عجيب امر هؤلاء الفينيقيين. فما كانوا هذه المرة
من اطوع الناس، ولا كانوا من الطائعين. بل هم العاصون
يا عاهل الفرس! لا نحارب ابناء قومنا، لا نحارب اخواننا
لنا هناك.
ولقد سجل التاريخ للفينيقيين هذه المفخرة
القومية، وكان قمبيز محترماً لها، مكبراً اصحابها،
فعدل عن قصده، وعاد الى بلاده.

ولما

ومما هو جدير كذلك بالذكر أن نير الفرس على
فينيقية كان اخف من نير الأشوريين والبابليين.
فقد ضمت الى سوريه تحت مَتراب واحد في
التنظيم الوداري، وضُمن لها الاستقلال الداخلي،
وفُرض عليها نصف قيمة الخراج، مائة وخمسة وسبعين
وزنه، أي ما يوازي اثنين واربعين الف ليرة انكليزيه.
فاذا اعتبرنا تقدير المؤرخ رولينسون في توزيع هذا
الخراج، علمنا بالتقريب عدد سكان البلاد الفينيقية
في تلك الايام. فقد كان المكلف يدفع ما يوازي شلنيا وثمنا
شلين، اي كل اثني عشر مكلف يدفعون ليرة واحدة.
فالقيمة كلها اذن، اي الاثنان والاربعون الف ليرة يدفعها
خمسمائة الف مكلف. اضف الى هذا العدد ثلاثة اضعافه
للنساء ومن هم دون سن الرشد من الذكور، يكن المجموع
مليونين من النفوس.

اما استقلال فينيقية النوعي فقد كان مقيدًا
بهذه الشروط: لا يحق لملوك فينيقية ان يشهروا
الحرب على دولة اجنبية او يعقدوا وابا ها عقودًا
سياسية. وعليهم، فوق الخراج، ان يقدموا
قسمًا من المراكب للاسطول الفارسي. وقد
كانت هذه القسمة اكبر من اقسام غيرهم من الامم
لمهارتهم في صنع السفن.
في هذه الحدود ما يشبه المعاهدات الحديثة
المعقودة بين حكام المقاطعات التسع المحمية في البلاد
العربية والبلاد البريطانية العظمى، مع هذا الفارق الجوهري،
وهو

ومما هو جدير بكونه بالذكر

وهوان سلاطين وشيوخ تلك المقاطعات لا يدفعون
خراجاً، بل يتقاضون الحكومة البريطانية المشاهرات،
ذهباً وفضة، مقابل ما يتعهدون به من الانفصال
بعضهم عن بعض، فلا يكونون حلفاً عليها.

اما الحكومة الفارسية فقد كانت في ذلك
الزمان اكثر عدلاً وحكمة من الحكومة البريطانية في
زماننا. بيد انها وهي لم تعتبر الممالك الفينيقية
مستقلة بعضها عن بعض او اجنبية بعضها لدى
بعض، فلم يكن لها ان تتفاوض وتتفاهم وتتعاقد
سياسياً، كما هي الحال في المقاطعات التسع
وسورية، ولا هي وحدت تلك الممالك والاتحاد، فافقدتها
المحمية القدوة في النفقات
فكانت ذلك رواية تتعلق بتأسيسه مدينة
ومما يثبت ذلك الثلاث، صور وصيدا
وطرابلس. فان ممثلي الممالك للنظر في شؤونهم
وارواد، يجتمعوا حيث هي المينا اليوم
المختلطة، ومصالحهم المشتركة، فنزل ممثلو كل مملكة
في مكان خاص بهم، فأطلق على المنازل الثلاثة اسم
تريبولي، اي المدن الثلاث (1) وكانت

(1) كان هناك بلدان او قرى قديمة، ذكرها العلامة
برستد في كلامه على حملة طحوطمس الثالث السورية
في النصف الاول من القرن الخامس عشر قبل المسيح، فتكون
هذه المدن (Yenoam, Nuges and Herenkeru)
قد تأسست، ليس في القرن السابع، كما جاء في دائرة
المعارف الانكليزية، بل سبعة او ثمانية قرون قبل ذلك،
والمرجح انها كانت تعرف بهذه الاسماء يوم اجتماع الفينيقيين
فيها (انظر)

تابع الحاشية

فيها، لكل مرفق في مدينة، فأطلق عليها جميعًا، تذكارًا
لتسمية المثلثة، التقسيم الثلاثي، اسمًا واحدًا هو تريبولي.
وللقارئ أن يسأل كيف سُميت بلدة فينيقية
باسم يوناني؟ إننا نرجح — وليس في التواريخ ما
يجوز الجزم — أن الاسم هذا أُطلق عليها في العهد
السلوقي التابع للعهد الفارسي. أطلقه الإغريق
أو الأهالي المتأغرقون في ذلك الزمان، عملًا
بالتقليد الذي كان سائدًا بخصوص الحلف الثلاثي
الذي عُقد في حكام القرى الثلاث.
وخير ما نختم به البحث كلمة العرب الفاصحة:
والله أعلم.

~~كانت تعرف قبل ذلك~~
وقد يكون محرفًا من دُوبلي اسم
طرابلس القديم كما جاء في رسائل
تل العمارنة

وكانت طرابلس عاصمة هذه الممالك، ومقر المجلس النيابي، او الحلف الفينيقي، الذي هو الاول من نوعه في تاريخ فينيقيه. والفضل في تأسيسه، او جل الفضل، انما هو للاستقلال الداخلي التام الذي كانت تتمتع به الممالك الفينيقية في العهد الفارسي.

وجاء بعد الفرس اسكندر المقدوني صائلاً فاتحاً. جاء ينوء بجبارية الفرس ليحقق حلماً كان يحلمه في يقظاته وسكراته، وهو ان يستولي على العالم ويأغرق الامم. فعندما وصل الى شمال البلاد السوريه، وقف الفينيقيون موقف المتفرج متوقف الحياد. فظلوا موالين للفرس، وما جهروا بالعداء للاسكندر، وهم ينتظرون[8] في مثل هذه الحروب. وقفوا موقفهم التقليدي: لا تخضع لغير القوي الغالب. لينتفعوا بالنتيجة.

وقد علموا من هو الغالب القوي بعد واقعة إيسوس[2] وفرار الملك دارا. وعلموا اكثر من ذلك ان الاسكندر لا ينوي ملاحقة الفرس المدحورين، ومتابعة فتوحاته الاسيوية، قبل ان يستولي على سوريه ومصر والشواطئ الغربية. فارسل قائداً من قواده الى دمشق يحتلها، ووجّه هو الى المدن الفينيقية، فاستسلمت له ارواد بلا مقاومة، ثم جبيل، ثم صيدا. اما صور فقد ارسلت مثل المدن الاخرى رسلها يستقبلون الفاتح المقدوني، ويقدمون له الهدايا. فقبلها الاسكندر وجامل

٨١
٦١٦
٦٢٨

وجاس الرسل مجاملة مريبة، اذ افصح عن رغبته بزيارة معبد الاله ملقرت.

- وهل يزور الاسكندر وحده المعبد؟
- وهل تتحرك ركاب الفاتح العظيم، ولا يتبعها الجيش الظافر؟

لقد خشي الصوريون ان يكون للتقوى موكب حربي، وهم الذين كانوا يمنعون حتى الجنود الفارسية من الدخول الى المدينة.

فلا عجب اذا رفضوا طلب الاسكندر، ولا عجب اذا هو غضب غضبة الفاتحين، ~~[illegible]~~ فأنذر وتوعد، فأبت صور وتمردت، فضرب عليها الحصار.

وهل تخشى الحصار من الملك خنظلة، وشربت مرّه مرات عديدة؟ من طالما قاومت الفاتحين، وصمدت للمحاربين، وشرفت الوكر الفينيقي غير مرة في جهادها واستبسالها — هل تخشى النزال والطعان؟

شرع الاسكندر يردم البحر بين المدينتين، مدينة البر والجزيرة المجاورة لها، فدافع الصوريون عن حوزتهم دفاعاً مجيداً سجله التاريخ بمداد الفخر والاعجاب.

ولكانوا هم الظافرين، لولا ملكا قبرص وجبيل، المذعنين للطاغية المقدوني، العمارة البحرية التي امدّوه بها كما اسعفا الغول. فسقطت صور بعد حصار دام سبعة اشهر، فدخلها الاسكندر وقتل الالوف من اهلها. ودخلها بعد ان ~~[illegible]~~ هدم حصونها، فتقمّها منزلاً مبيداً. فجاء المجد ليندب عروس المدن الفينيقية، وقام النبي، نبي اسرائيل، يرثيها.

وانت يا ابن ادم فارفع مرثاة على صور، ايتها الساكنة عند مداخل البحر، تاجرة الشعوب، بنّاؤوك تمموا جمالك.

الواحد

الواحك من سرو سنير،

سواريك من ارز لبنان،

مجاذيفك من بلوط باشان،

مقاعدك من العاج المطعّم في البقش من

جزائر كتيم. شراعك من كتان مصر المطرّز

غطاؤك من الاسمانجوني والارجوان.

ملاحوك من اهل صيدون وارواد

ربابنك، يا صور، من حكمائك

قلافوك شيوخ جبيل.

جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك

لتتاجر وتجارتك.

فارس ولود وفوط كانوا في جيشك،

رجال حربك . . .

وكان الابطال في بروجك . . .

علقوا اتراسهم على اسوارك . . .

تجار ترشيش اقاموا اسواقك بالفضة

والحديد، والقصدير والرصاص.

بنو ددان وآرام وجزائر تاجروا

في اسواقك بالبهرمان والمرجان والياقوت.

يهوذا واهل اسرائيل تاجروا في سوقك

بحنطة منّيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان

دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك، وبخمر حلبون

والصوف الابيض.

ودان وياوان قدموا غزلاً في اسواقك

العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك

بالخرفان

٦

بالخرفان والكباش والاعتده . .
تجار شبا وكنّة وعدن، وحران
وكلمد وآشور تجارك . . . .
ثروتك واسواقك وبضاعتك ملاحوك
وربابينك وقلافوك والمتاجرون بمتجرك، وجميع
رجال حربك، وكل جمعك، يسقطون في قلب
البحر يوم سقوطك . . .
والتجار بين الشعوب يصفرون عليك،
فتكونين اهوالاً، ولاتكونين بعد الى الابد.
حزقيل : ٢٧

٤٨٤

. . وكانت المدن الفينيقية، في العهد اليوناني،
نهباً للدولتين الاغريقيتين، مصر وسورية.
فانتقلت من حوزة البطالسة الى حوزة
السلوقيين غير مرة. ثم استقرت فيها
سيادة ملوك انطاكية. وانتشرت ودامت في ازدهار
الثقافة الاغريقية بين اهلها حتى آخر
العهد السلوقي وبداية الفتح الروماني، في
النصف الاخير من القرن السابق للمسيح.
لست ادري ما قد يكون فعل الاسكندر
لو عاش ليتولى بنفسه حكم هذه البلاد. اما
سياسة من خلفوه فقد كانت تقضي على روح
الوطنية في كل من ~~فاتحهم~~ قاوموهم، بل في كل من استولوا عليهم
من الشعوب.

أ. الفينيقي

٥٧٠

~~٨٤~~ ٦١٩

- أفينيقي أنت؟

- نعم، أنا، نبعة ملقرت وعشتر، فينيقي.

- عشتر وملقرت، ياهذا، هل سمعت

نغمتها الفينيقية في عهد الإغريق؟ ولسانك

وعاداتك وتقاليدك وثقافتك، ياهذا، أليست

إغريقية؟

كلا إ فينيقية في تلك

لقد تأغرقت

بلى. في هذا الزمان..

الأيام، كما تتفرنج دعاتها في هذا الزمان..

ثم جاء آشور والفرس - والرومان - فقضوا

على الأثر الباقي من الفينيقية في هذه السواحل

القديمة. سحقت فينيقية

قال المؤرخ رولنسون: سحقت فينيقية

تحت أنعال الرومان الحديدية، فلم تعد تعرف

لا سياسيا ولا اجتماعيا. بل أمست

إسما جغرافيا لا غير.

—

٤٨٥

٨٠ ٦٢١

٧

الادب الفينيقي

يقول غلاة الفينيقية العلماء الاوروبيون انه كان للفينيقيين ادب ماتع دُرِست معالمه، او ان ثقافات الاعداء، وخصوصًا منهم اليونان والرومان، طغت عليه، فجرفته في تيارها، وان النزر الباقي نُسِخ في النقل والترجمة.

ويقول غلاة الفينيقية اللبنانيون ان الفينيقيين نبغوا في الادب والشعر والعلوم الطبيعية والدينية نبوغًا باهرًا، وان لوسيان احد كتابهم العظام، وزينو احد فلاسفتهم، وطاليس احد علمائهم الاعلام، والمرتقين فكر الانسان، في كل زمان.

وان لهؤلاء الغلاة غيرة عظيمة الصدى، ومحاماة لعبدة المدى، فلا يكتشفون منابع الادب والشعر والعلوم، بل يضيفون اليها منابع الموسيقى!

— وان الفضل يعود الى الفينيقيين اجدادنا بحسب اشار اللبنانيين باكتشاف الابجدية الموسيقية، واصول الاغاني الكبيرة الاولى في الغرب بحسب اصول التكنيك.

فاذا كانوا هم المكتشفين لما يدعوه صاحب هذا الاكتشاف "الابجدية الموسيقية والاغاني والتكنيك"،

رفائيل

فاين اسماؤها الفينيقية؟ ولماذا لايستعملها
هذا "الفينيقي" بدل الالفاظ الفركية؟
تالله ما يفعل الحب، وما تبدع المخيلة!
فقد رأيت آلات الطرب السومرية والآشورية والبابلية
والمصرية، وما رأيت اثرًا لآلة او ربابة فينيقية،
لا في متحف بيروت، ولا في المتحف البريطاني بلندن،
ولا في ال "لوفر" بباريس. ومع ذلك لا
انكر ما يقوله ذلك "الفينيقي" الموسيقي المحترم
الذي نقلت لك قوله. فهل له ان يزيدنا علمًا
ما يسميه "الاراغني والتكنيك" باللغة الفينيقية؟
اما تجارة العلم، اولئك الادباء الذين يريدون
ان يخطفوا لوسيان وطليسه وانبو من بلادهم ويجيئوا
به في المراكب الفينيقية الى جبيل وبيروت وصور،
ويضربوا عليهم في متاحفها نطاق الفوقية المحبوبة.
فاليهم اتقدم ببعض الحقائق الاولية، وقد جاءت في
الكتب التي لا جدال فيها: كمعجم لاروس ودائرة المعارف
البريطانية وغيرها، ثم في
لوسيان: ولد في عاصمة مقاطعة منبج، على الضفة
الغربية من نهر الفرات (١٢٥ - ١٩٥ م) ومارس المحاماة في
انطاكية عاصمة السلوقيين، ثم زاول الكتابة، وساح
في آسيه الصغرى وبلاد اليونان وايطاليه، واقام عشرين
سنة في آثينا، وتولى في اواخر ايامه وظيفة في حكومة
مصر. الف هذا الكاتب كل كتبه باللغة اليونانية،
وكانت البلاد السورية في زمانه في حوزة السلوقيين،
وكان

1-87

وكان اليونان قسماً كبيراً من سكان البلاد. فهل
الفرنسي الذي يولد من ابوين فرنسيين مقيمين
في سورية او لبنان تعدّ سورياً او لبنانياً؟

طاليس: ولد في ميليتس، على شاطئ
بحر الارخبيل ~~البحر الابيض~~، عند جزيرة كوس، من ابوين يونانيين -
أكراميون وكليوبولين. ويظن انه من اصل
فينيقي. نقلته دائرة المعارف ثم قالت:
ولكنه يوناني وليس فينيقياً. وقد زار طاليس مصر
وكان اول اطلاعه فيها على علم الهندسة. قال
الروحي هيرونيمس: ما قرأ طاليس العلم على
احد من العلماء، الا ما اقتبسه من كهان
مصر اثناء اقامته هناك. وهذا العالم
الف كتبه باللغة اليونانية، وكان يُعدّ من
حكماء اليونان السبعة.(1) [illegible]

اما زينو فالى القارئ ما جاء في معجم
لاروس الشهير انقله بالفرنسية [illegible]:

Zenon, né a Citium, philosophe
grec, fondateur de stoïcisme.

وجاء فيها في لاروس:

Thales, né a Milet, philosophe
grec de l'ecole ionienne

Lucien

(1) [illegible]

٤٨٧

قدموس

٨٧-ب

٦٢٧

حاشية لصفحة ٨٧-١

(١) قال فكتور برار في كتابه
La resurrection d'Homère صفحة ٢٥٢ :
«يقول هيرودوت ان طاليس، الفيلسوف اليوناني الاول، منحدر من اسرة فينيقية الاصل. فما هو اذن من اسرة فينيقية هاجرت الى اسيا الصغرى. بل من تلك الأُسر القدموسية (نسبةً الى قدموس) ذات المنزلة العالية بين اليونان بآسيا.»

٤٨٧

وقال في صفحة ٢٥٥ : «كان القدموسيون يفاخرون بسلالتهم الفنيقية، بل بسلالة عالية الهية، قالوا انهم من ابنائها. وربما كانت لغتهم كذلك لغة الآلهة،» انتهى

كما تقول دات ع ٤٠ .

وجاء في لاروس ودائرة المعارف : قدموس بن فينقس، ملك فينيقية، واخو اوروبة، التي شغف بها زوس اله الآلهة، فتحول الى ثور ابيض، فحملها على ظهره، وذهب بها الى بلاده. فراح اخوها قدموس يبحث عنها في بلاد اليونان، فتاه عنه البحث، فاستشار احد الكهان، فقال: اذهب في طريقك تلتقِ ببقرة، فاتبعها الى حيث تضطجع، فابنِ هناك مدينة. فالتقى بالبقرة، فتبعها، الى بويتية، واضطجعت في مكان فبنى هناك مدينة طيبة. وارسل رفقاءه ليجلبوا له ماءً من عين قريبة، فطلع عليهم تنين وقتلهم، فقتل قدموس التنين، وزرع اسنانه، باشارة من الربة ~~[illegible]~~ منيرفا، فانبتت رجال حرب اشداء، ~~[illegible]~~

الى آخر

تابع الحاشية

فاضاف في قتلهم، فقتلوا جميعًا الا خمسة منهم.
وينسب الى قدموس اختراع الكتابة، وادخال
الالفباء الى بلاد اليونان (١٦٠٠ ق.م.) وقد
تزوج هناك من هرمونيا، [illegible] ابنة الاله
أريس والالهة افروديت. فولدت له اربعة
اولاد، ولكن حياتهما الزوجية كانت مختنقة
بالبلايا، فتحولا قبل موتهما الى حيتين. انتهى

فاذا كان طاليس الذي عاش في القرن السادس
قبل المسيح من نسل قدموس بن فنقس بن "الاساطير"
الذي عاش في القرن السابع عشر، اكان بينه وبين
جده الاول احدى عشرة مئة سنة! فانه اسرة لنا
أن نسر زماننا المعرفة - الشرعية او المكتبة - نستطيع انا
نعود الفلسفة الى اصلها، اسلم اذا كانا مجردات او الاساطير. هل
القدموسيون - الالهة - الاساطير!
من الممكن ان يكون مجموعها حقيقة "تاريخية" راهنة؟!

مثل المؤلف نفسه، ومثل الادبيين الآخرين،
ذكرًا يردد في ~~[illegible]~~ من كتاب او حاشية،
على ان هناك شذورًا. قيل انها فينيقية
الوصل، عثر عليها المنقبون في تآليف يونانية
لِكلوديوس ودائيس وهيرودينيس وغيرهم،
فاختلف فيها العلماء. قال فريق منهم، ومنهم
إوَلْد والبارون بُنْصِن، انها فينيقية الوصل،
فانكر ذلك الآخرون ومنهم دُدْوِل وفان دايل.
اقول الشذور
اني اجهل تلك الشذور والكتب. فقد لا يكون فيها ما يجيز هذا المجاز الشرعي (١)
لطفًا وكرمًا. واسماء ناقليها،
الذهبي. ولكني انقل خبرها، واسماء ناقليها،
والمختلفين في حقيقتها لمن يريد (٢) التشعّب في المسألة
من القراء العلماء.

في الاثر الادبي الفينيقي الوحيد، الذي ذكر مرارًا،
ونقل تكرارًا، في الكتب التاريخية الحديثة، اعني تاريخ
سنخوناطن. لقد جرى ذكر هيشراطس، احد الادباء
الثلاثة الذين وصلت الينا اسماؤهم دون آثارهم. فينبغي ان
اعلمك ايضًا ان بعض العلماء يظنون انه وسنخوناطن
واحد. فاللفظتان اليونانية والفينيقية هما بمعنى
واحد لذلك الكاتب المشهور ~~[illegible]~~ ومعناه: السماء
عرشه. كأن نقول: فلان ~~[illegible]~~ العالي العرش،
كما نقول: فلان بن فلان الملقب بأبي العلاء.
وقبل ان اقدم للقارئ نموذجًا من ادب

ر العالي

(١)
(٢) (أقلب)

[illegible]

Claudius, Dius, Hieronymus (1)
Chaitus, Menander
Dodwell. Van Dale, (2)
Ewald, Baron Bunson.

[illegible]

"العالي العرش" — هيبكراطس سنشوناطن —

يجب ان اقول ان هنالك، في المغرب، كاتباً آخر لا
ريب فيه، ولا في كتابه. هو قرطجني، وقد كان قائداً
مشهوراً. اسمه ماغو، وكتابه في علم الزراعة
كتاب عظيم في موضوعه، على ما يظهر، ومن تعدد
اجزائه (١) فقد ترجمه ديونيسس الى اليونانية،
وترجمه سيلانس، بامر من مجلس شيوخ رومه، الى اللاتينية.
وهنالك، في المغرب ايضاً، اول التجارة
المكتشفين، حنو القرطجني، وقد دون اخبار
رحلته الشهيرة في الاوقيانوس غربي القارة الافريقية
في صفحات قليلة، ستقرؤ بعضها عقبة هذا الكتاب
في فصل آخر ان شاء الله.

اعود الآن الى "العالي العرش" سنشوناطن
فاقول ان اول من كتب عنه، وترجم بعض تاريخه من
الفينيقية الى اليونانية، رجل اقام في جبيل في القرن
الاول للمسيح، اي بعد سنشوناطن بنحو من الف سنة،
فيلو الجبيلي الوثني. فقد يكون هذا الكاتب اليوناني
هو مترجم تاريخ سنشوناطن باجمعه، ففقدت معظم الترجمة
[illegible] (٤٩٠)
الفينيقي ترجمه اوزيبيس (٢٦٤-٣٢٨)
ولم يصل الينا غير
وقد نقل بعضها الى اللاتينية بجمله، وتعليقاته على الوثنيات
الكاتب المسيحي المشهور والفينيقية الى
كلها، اللاتينية والانكليزية (Corey's Ancient Fragments)

(١) جاء في الكتاب الناقل عنه ان ماغو الف في الزراعة ثمانية وعشرين كتاباً!
ان الترجمة الناطقة ماغو الف ٢٨ كتاباً؟ - فصلاً؟ - كراساً؟ - اسماً؟

ليس في المصادر ما يحمل على الثقة التامة
بها . فقد يكون اليوناني الجبلي المتحيز
للإغريقية ، والروماني المسيحي المتعصب للمسيحية ،
نقلا عن ذلك الوثني الفينيقي ما لا قيمة له أدبية
أو تاريخية ، فجاءنا بمزيج تافه من الأساطير
اليونانية والفينيقية التي كانت شائعة في أيام
فيلو الذي عاش بين العهدين اليوناني والروماني .
وهاك أمثلة مترجمة عن الترجمة الإنكليزية :

وكان في البدء ريح قاتمة كدرة عاصفة
منتشرة في كل مكان . وبعد حقب من الدهر
شغفت تلك الريح بروح الحياة فيها ، فاقترنت
بها حبا بوصالها ، فنشأ عن ذلك الاقتران
مادة هلامية ، أو سائل كدر . ومن هذا
السائل الكدر ولدت جرثومة الحياة ، ونشأ
الكون .
وكانت عند البدء الغيرة في الحب ، والشقاء في الزوج .
قال الكاتب الفينيقي في سفر التكوين سفره :
وفي ذلك الزمان ولد رجل يسمى إليون
(الأعلى) وامرأة اسمها بروث ، فأقاما معا
بالقرب من جبيل (جبيل) وولد لهما أتكتون الذي
دعي بعدئذ أورانس (السماء) وأخت له
دعيت جي (الأرض)
وعندما ورث أورانس ملك أبيه اقترن
بأخته جي ، فرزقا أربعة أولاد هم كرونس
وبيتولس

وبيتولس وداجون(1) واطلس(2)

وقد رزق اورانس من زوجته الوخربات اولادًا كثيرين، فهاجت الغيرة في صدر زوجته جي، فنقمت عليه، فتخاصم الزوجان وافترقا.

وكان اورانس، مع ذلك، يزورها غبًّا، ثم يهجرها. وقد سعى لقتل الاولاد الذين ولدوا له منها فاخفق سعيه، وكانت جي تستعين بالجيران على زوجها الظالم.

وقد قام من بنيها كرونس ليثأر لها من ابيه. وقعت الواقعة بين الاب وابنه واشياعهما. فانتصر كرونس ابن اورانس على اورانس الاب وطرده من المملكة. ثم خلفه على العرش. فشيد كرونس سورًا لعبدته حول بيته، واسس اول مدينة فينيقية، ودعاها جبيل.

يظهر ان اورانس كان يعيد الكرة من حين الى حين على ابنه المغتصب ملكه، فيدحر فيهرب. فينجو بروحه. وما كل مرة تسلم الجرة، ففي السنة الثانية والثلاثين من عهد كرونس حمل اورانس حملة شعواء على ابنه، فكمنه الابن للاب، وقبض عليه، وقطع آلته، قطعها بالقرب من نهر فوار، فجرى الدم من اعضائه التناسلية في النهر فاحمر، وفارقت

(1) اقتبس

~~(١) داجون اله الاكرا ليين.~~ (حوت)

(١) داجون (حوت بري بحري) اله
الفلسطينيين – محصول الاحاح.

(٢) ~~الاطلس~~ اطلس اله من الهة اليونان القديمة.

ففارقت روحه الجسد هناك، فتقدس
النهر لذكره.
وصار كرونس اله الفينيقيين، الاله ايل الواحد،
فتطور شكله في الاساطير المخلوقة والمقتبسه.
قال سنخوناطن (سنخون يتن)، نقلها فيلو:
وكان لكرونس ثماني اعين، اربع من امامه
واربع من وراء رأسه. وكان له اربع اجنحة
كبيره. فكان يرى وهو نائم، وينام وعيونه
مفتوحه. وكان يطير وهو جالس، ٤٩٢
ويجلس وهو يطير.
مثلنا في هذا الزمان. نجلس في الطيارة، فنطير
ونحن جالسون. اما العيون فان لنا منها، نحن اللبنانيين،
اكثر مما كان لكرونس آله الفينيقيين. ان لنا من الخيال،
ومن الاحلام والاوهام، مائة عين وعين، فنرى الفراديس
ونحن نائمون، وننام ونحن ماشون الى الهاويه!
حسبنا من هذا التطفل على مائدة فيلو الجبيلي. فالحق
في الكلام حقه الان. وجل الحق في الطبخ، فهو يطبخ ما
بناء من اساطير الاغريق والفينيقيين والفلسطينيين
والاشوريين، ويقدمها الوانا باردة باسم المؤرخ
الفينيقي، العالي العرش، ~~سنخوناطن~~ (سنخون يتن)،
وفي ذلك الزمان ولد ولدان أخوان،
تكنيتس وجينيس، فاخترعا صناعة
الآجر، بأن مزجا القش بالطين، ثم
بنيا

بنيا السطوح للبيوت
وكان من سلالتهما أغرُس وأغرورس،
فبزاهما في الاختراعات، فعُدّا من الآلهة.
وكان أغروروس اعظم الاخوين، فبنى له
الفينيقيون هيكلاً كان يجر من مكان
الى مكان زوج من الثيران
ومن اختراعات هذين الالهين انهما
جعلا للبيوت ابوابا باقفال - وساحات
آكاما . ومن سليلتهما تحدر اولئك الذين
يحرثون الارض، والصيادون بكلاب البر،
وحيتان البحار
ومن نسل الفلاحين والصيادين نشأ
أمينُس وماغُس، فعلما الناس تربية
المواشي. ولده ميسور وصادق،
وأمينس ولد . وميسور ولد
اللذين اكتشفا الملح . ومن نسل
ثوت مكتشف احرف الكتابة . ومن نسل
صادق تحدر اولئك الذين اخترعوا السفن،
واكتشفوا المداواة بالاعشاب ،
وعلموا الناس علم التعاويذ
وكان الفينيقيون يقدسون ثمار الارض، فيؤلهونها -
ويأكلونها . قال احد حكمائهم : قِوامُ الحياة الاثمار والاشجار .
/ وكانوا

وكانوا في ازمنة الجدب يرفعون ايديهم الى الشمس
وقد أسموها بعل شمين (ربة السماء) فيستمطرونها
بالصلوات ،
وكانوا يقدمون الاطفال ذبيحة للاله ايل الاله
الواحد . رواها فيلو وبوزيبيوس . على ان هذه
العادة لا تخلو من الاسرار الدينية الشنيعة
ببعض الاسرار ~~[illegible]~~ اللاهوتية في الديانة العجيبة .
قال فيلو : ومن عادات الاقدمين انهم كانوا
فنكباتهم يقدمون الاطفال قربانا للآلهة ،
يسترضونهم ويسترحمونهم . فلما تهلك النكبة
الواحدة جميع الناس . كالملك كرونس (المسمى ايل)
الذي صار بعد موته الهاً ، وأنزل في السيارة التي
سميت باسمه عندما كان ملكاً في البلاد ، وله
له من فتاة تدعى أنوبريت ولد واحد سمي
يأود (الوحيد) وقدم بعد ذلك ذبيحة له .
وعندما كانت الاخطار تحوق بالبلاد كان
الملك يزين الهيكل ، ويلبس ابنه الوحيد ثوب
الملك ، ويقدمه ذبيحة للآلهة

وفي رواية بوزيبيوس بعض التفصيل :
لهذه الذبيحة السرية التي كانت شائعة
عند الفينيقيين حدثان : يجب ان يقدم
احد امراء البلاد ، ويجب ان تكون ~~[illegible]~~
الذبيحة

الذبيحة ولداً وحيداً ، ومنها نشأت
العقيدة الدينية بالفداء . فمن تعاليمهم
انه سيلد للآلهة اي ولداً يدعى الوحيد ،
يولد بالنعمة الالهية ، بدونس ، ويُقدّم
ذبيحة لابيه ، كفارةً عن ذنوب البشر ،
ودفعاً للمظالم والبلايا ، فلا تعم العالم
ولا يهلك بها جميع الناس .

ولكن الناس في جهلهم ، وفي ما يلزم الجاهل من المخاوف ،
يفسدون العقائد السرية ، ويشوهونها ، فيبتعدون عن معاودة
للكهان ، اصدقاء الامراء والملوك ، بل حلفائهم في الوحدانية
والاستعباد . وكان كهان فينيقية يقبلون بأجمعه
العامة من الناس "ذبيحة" ، ويتهافتون في الشرط
احد الثاني ، فلا يبقون الولد دائماً وحيداً ، فاستحالت
هذه العقيدة في
العقيدة السرية عادةً عامة . فينيقية الرجل ،
الفداء والخلاص هي ، على ما يظهر ، فينيقية الاصل ،
كما انها سامية .
— وقدّم ابراهيم بتقدمة ابنه اسحق
ذبيحة للرب . . .
— وارسل الله ابنه الوحيد الفادي
مخلصاً للعالم .
ومثل فكرة الفداء فكرة البعث ، اروحاً
وحيداً . فقد كان الفينيقيون يعتقدون بها ، ويعدّون

٤١/

لها العدة، فيتزودون لذلك اليوم، يوم القيامة،
يوم ينهض الملوك من قبورهم في الاثواب الملكية،
والانية والسلاح، ومعهم ما يحتاجون اليه من المال
ذهبًا وفضة.
كل ذلك كان يدفن معهم في القبور المرصودة. وخوفًا من ان تفتح تلك القبور، وتسلب كنوزها، كانوا
يكتبون على نواويسهم كلمات فيها تحذير وانذار،
وفيها انذرت الكذبة الاخيرة الخالدة عن ابي اختر هذا (لا مال في قبري ولا كنوز)
الفعل عبثًا. ومن تلك الكتابات

انا تبنيت كاهنة عشتروت وملك
صيدا اقول: لا تفتحوا قبري ولا
تزعجوني. ليس فيه كنوز، ولا ذهب
ولا فضة. من يفتح قبري لا يفلح في
حياته، ولا يلقى في قبره الراحة.

وقد فتح الاثريون القبر، بعد نحو ثلاثة الاف سنة، فوجدوا
فيه من المال ذهبًا وفضة، ومن التحف والحلي الفضية
والذهبية والتشبيهية شيئًا كثيرًا.
وقد كتب على ضريح اشمونازار ملك الصيدونيين
الصيداويين، بعد مقدمة التعريف، ما يلي:

/ لقد

٦٢٥

٩٨

هذا القبر بنيته لنفسي . لا كنوز
فيه ، ولا ذهب ولا فضة . فلا تفتحوه ،
ولا تنقلوا حجري ، ولا تزعجوني ، ولا
تدفنوا احدًا فوقي . كل من يفتح قبري
ويزعجني او ينقل حجري يجرم جرمًا
لنفسه ، ويحرم البنين في الدنيا ...

وعسى ان ارباب الملكوت يعطونا في
المستقبل يافا ودور الاراضي الخصبة في سهل
شارون ، فتلحق بارضنا وتبقى
تابعة للصيدونيين الصيداويين الى الابد .

٤٩٥

— وفي ذهن الافغان كان الملك اشمونازار
من ارباب الاستعمار !

ـــ
ا

٤٩٦

احمد شاكر

٨

الصناعات والاختراعات

اني عارض لك في هذا الفصل اشياءً فينيقية، صناعيةً
وفنية. فلا سبيل هاهنا للحدس والتكهن، او للشك
والتكذيب، والتأويل والاجتهاد. هذه آثارنا
تدل علينا ...
وهوذا الفينيقي الراسخة قدمه في التاريخ، العاملة
يده في بستان الحياة، البارزة اعماله في ما تبقى
من آثاره. فهناك في الورق آثار الحائك والصائغ
والرسام والحفار، وصانع التحف والصور والالاعيب.
ترى الحقيقة كلها في التحفة، هو مزج الفن لا الفنان.
ولا ترى — ولا تعرف — صاحبها او صانعها. لا الشخصية مطلقة
هاهنا، ولا الانانية مطلقة — لا طالب شهرة او مجد
او مال. لكل شيءٍ قيمة، وما التعامل منه وفيه، مجرده من العوامل
البشرية الفانية. فما الصانع، وما الفنان؟ ان هم الا
خداماً مسخرون، سخرتهم الآلهة. فان فيما هذا
وان في ذلك ما يدعو للتأمل والتفكير، يسعى الى العبقرية
الفنان، وهو ما نشد شهرة، او طالب مال، وهو يكبر هنا
ما في انانيته من النزعات المادية الفانية، وهو يرى
بالفنون مما تسببه تلك الانانية من التنافس والتطاحن
بين الفنانين. هذا حد الحقيقة الاولى. اما حدها الاخير
فهو ان الفنون الجميلة لا تنتشر وتزدهر بالسرعة التي تطلبها
الروح

روح هذا الزمان، اذا هي جُردت من شخصيات
بشرية معروفة مشهورة.
فهل للحقيقة خدٌّ آخر، او جبين يأبى النور
الآخرين؟ وهل من مجال للتفاضل اذا نحن وازنّا حسنات
الشخصية في الفن بسيئاتها؟ حبذا الانسان الذي
يحسن النقد والتذوق والتمييز، فيجرد الأثر الفني من
شخصية الفنان، وينظر الى ما صُنع لا الى من صَنع.
وحبذا الفنان الذي يقرن الابداع الحديث بتلك
الوداعة القديمة.

٤٩٧

من دواعي الاعجاب بالفنان الفينيقي - المجهول - حبه
للاتقان في كل اعماله، وشغفه بالجمال في كل احواله، مع
ميل الى المجون في منعطفات الفن، ومقدرته على
التهكم في اغواره وابعاده. فمن
سأقف بعد عنده بتماثيله القيمة المصنوعة من
الحجارة والخزف، او من الفضة والشبه والذهب، و[illegible]
صغيرة، والصور في تلك التي تمثل الحيوانات.
كان فيها تجتمع محاسن الفن صنعًا وشكلاً ومعنى.
فيها من دقة الصناعة والنظر، ومن رقة الذوق والشعور، وخصوصًا الاولى
فيها كثير ~~والسير~~ والكثير من هذه الحسنات، التي لا يستهان على
شيء في التماثيل الصغيرة،
منها، يندر في الاتقان والكمال في صنعها والشعور
الفنان الاتقان ان الرقة في الذوق والشعور في معالجته.
ولا يفوتنك ان الرقة في الذوق والفتور في معالجته
تستحيل مع جلال الموضوع، او الفتور، عالمًا بطبائعها
فقد كان الفينيقي محبًا للحيوانات، عالمًا بطبائعها
فجاءت هذه التماثيل على انواعها، ومنها الاسد والنمر
والفهد والغزال والحصان والثور والماعز والارنب
والكلب والثعلب والحية والعقاب، جاءت تثبت
مقدرة

١٠١
٦٢٨

مقدرة في البحث والابداع، وفي التطور والتصوير.

خذ التمثال من فرس البحر وهي في شتى الاشكال،

واقفةً ماشيةً مضطجعةً هادئةً هائجةً صارخة،

تحمل على ظهورها التماسيح، وتنطق بمهارة الفنانين،

وبنظراته الحادقة البليغة.

قف عند هذه السعادين، المطربة المضحكة في

اشكالها وحركاتها — وطموحها. هو ذا السعدان الموسيقي،

وقد حمل القيثارة، وحلق البصر في عالم الخيال والجمال.

وهو ذا موضوع القصة العربية المشهورة — أفاطم

لو شهدت ببطن خبت :. هو موضوع قديم قديم

يعود الى العهد الصوانيّ الاول، يوم كان الانسان أزيل

الاسد وعدوه، يقطنان الغاب الواحد، ويطردان

الطريدة الواحدة، فيتصادمان ويتصارعان ويقتتلان.

وهذه الجولة الفنية في الموضوع، انها جولة موفقة،

تمثل الصراع البشري الحيواني الاول وهو على الدوام الصراع الشعري

[illegible] — صراع الاسد والانسان.

وهذه السلاحف والضفادع والارانب والغزلان،

لقد عرفها الفنان معرفة الرفيق المحب، وراقب حركاتها،

وشغف بها — لولا ذلك لما استطاع ان يمثلها

هذا التمثيل الحاذق البليغ.

اما التماثيل البشرية فهي دون الحيوانية في

التصوير، وما هي دونها في التطور. نظر ان

المرأة

كانت المرأة الفينيقية، مثل الاشورية والعربية، تخفي جسدها بالأثواب الضفية الفضفاضة.

تلك التقاليد السائدة في اللباس، حالت دون درس الفنان للجسم العاري، فقلّت التماثيل للمرأة العارية في الآثار الفنية الفينيقية، وجاء ذلك القليل منها سمجًا مشوهًا تافهًا، وخصوصًا
على أننا نجد في مجون الفينيقي وتهكمه، بعض التعويض عما ينقصه
ما ظهر منهما في تماثيل الرجال، فما اختلفت حياة الأقدمين
جميعًا من فن وإبداع، في المواضع التي تستذرف الدمعة
عن حياتنا اليوم في المواضع التي تثير الضحكة أي الباسمة، في صفحات
"أنيقة" من الأدب، و"نكتة نادرة" من الفنون،
وهناك أحد المواضع التي تستوقف فتستوقف المجان، ذلك
كان لنا أدرقنا منها في سائر الأمم الراقية - أعني الكاريكاتور، الذي يمثله
الفيلسوف الأمي، ذلك الظريف الخفيف الظل، ساخرًا ضاحكًا للحياة، ساخرًا،
الفنان الصيني ضاحكًا ساخرًا، أي الحاجب عن ناظريه مواطن قديمه،
في قطار اللحم اللاصق بعظامه.

وظل جنبيه الكاريكاتور الفينيقي، بتماثيل من الحجر والنحاس،
يجود الواقع الشنيع، آكلًا شاربًا مسرورًا،
ويتناول في أشكاله التي - حمل الحياة - حرفًا
وحاملًا على شفتيه حمل الحياة، كما يحمل الأطلس الكرة الأرضية.
حولها، كما يحمل الأبطال في هيئات طريفة
وهناك طائفة من الأبطال يتنمرون، يتصارعون، يتراقصون...
ضاحكة، [illegible] ...

/ إلخ

اين انت، يا ابن الاسبان، الفنان المجان – اين انت
يا غوغيا من هذا الفينيقي، وقد سبقك الى ما
مثلت في رسومك من اقنعة قابضة، ووجوه
متقبضة.

اما الوثنية الكبرى في الفن والتهكم معاً فهي في هذا
الفينيقي العاري، المتأبط خنجراً، الحامل سيفاً بيمناه، وربما
بيسراه. ولكنه فينيقي يأبى القتال،
ويكره الحروب، ويتسلح لها! كأنه من دعاة السلم
في هذا الزمان.

لقد بلغنا في التطواف معرض الصاغة، وفيه انواع
الحلي والتحف والاواني والقوارير مصنوعة من
المعادن الثمينة، والحجارة الكريمة، وهي تفصح عما كان
لاولئك الفينيقيين من مهارة وذوق في الصياغة،
وفي الحفر والتنزيل، ان كان في المعادن او الحجارة او
العاج.

هذه الآنية من حجر السلوط (أوبستي) ومن الشبه
والذهب والفضة، اللطيفة الاشكال، الناعمة الخطوط،
الدقيقة الاجزاء، الانيقة الكئوس،
والصعاليج للعطور، للخمر، للطعام، هي اجمل ما صنعه الفينيقيون
فقد وجد الاثريون منها في كل
في اوطانهم وخارجها.
مستعمرة فينيقية عبر البحار –
واليك بمجموعة من الحلي باهرة – قلائد من ذهب
وقلائد كالحيات كانت تلتقي
في اطرافها رؤوس الاسود المزررة،
رؤوسها فوق صدور النساء، واساور من حجارة
الجزع

الجزع والعقيق المسلسلة، المزدانة اوساطها
بالتعاليق من زبرجد وجُمَشت في اشكال
هرمية وكروية. وهذه الخواتم الدقيقة الصوغ،
المرصعة بالزمرد والياقوت، وهذه الاقراط التي
كانت تطاول اعناق من لبسنها فتلمس الاكتاف
منهن... وما نسيت المرأة الفينيقية
ان تطلب من الصائغ ان يصنع الملاقط لشعرها،
والمكاحل للعيون.

كل هذه الحلي والتحف والاواني وُجدت في خرائب
جبيل، في بقايا المعابد والبيوت، وفي مدافن الملوك والسادة
من الناس – في نواويس من الصوان، وجرار من الخزف.
ومن اجمل هذه التحف وانفسها صحاف للملوك، وهي فؤوس
ذهبية (1) وفضية، بقبضات من خشب الارز او السرو، وقد
نقش في الفؤوس اشكال من الصبر الشمعداني، وخطوط
مسننة، كأنها مسلسلة من العدد ٧ و ٨ (هو نوع
من الوشي قديم جدًا، عرفه الفينيقيون، ولا يزال العرب
يستعملونه في تطريز صدور القمصان والعباءات.

ويقول بعض الاثريين والمؤرخين ان الفينيقي اقتبس
الصناعات والفنون من المصريين والاشوريين والبابليين،
وانه مقلّد لا مولّد. اما الاقتباس فان فيه شيئًا من حق

(2) اخبرني مدير المتحف اللبناني الامير موريس شهاب
ان في المتحف الوطني ببيروت اكبر مجموعة من الاسلحة الذهبية
في العالم.

٦٤٤
١٠٥

من الخفية . واما التقليد فليس على شيء منها!

قد أشرت في فصل سابق الى الفينيقي المقتبس،
والى طريقة الاقتباس التي امتاز بها عن جيرانه الشعوب
المتقدمة . ومما لا ريب فيه أن ذكاء الفينيقي
الفينيقي في كل جولاته وصولاته ، كان يرسل في ما
افق عينيه فيستحب وينتخب فكرة وثابة ، ومخيلة وضاءة،
شاهد وانفرجت ولا سيما روحه
فلا نت الاشكال المستعارة
[illegible] وتقاليد امته .
كرموز دينية ، تتعلق بهذه الاسوار
القوالب
ان اكثر ما كان من اقتباسه : نحن مع
ان اكثر ما كان من اقتباسه منفعة : نحن مع
والتقاليد ، ولا سيما ما يتعلق بسياسة البلاد ، وخصوصًا منها
السياسة الخارجية والدائمة التحول والتبدل والتغير.
فاليوم محور الاستقرار مصر ، وغدًا بابل ، وبعد غد اشور
وفارس . يقول الملك : المجد والسمو للفرعون . فيقول
الولد خوفًا ، يردده الكاهن الاكبر ،
الوله يشحون الولهة هيكلها وتماثيله تتعرض الشمس البهيجة!
فيزين العمات هيكلها وتماثيله ، وهذه بعلة جبيل تتفوق
المجد والسمو لمصر . – تخلع ثوبها الفينيقي
الاله يشحون عنوة لطفًا وكرمًا أيزيس!
وتلبس ثوب الالهة المصرية ، أيزيس ، عن المصريين ،
وقد اخذ الفينيقيون الكلام الفينيقية
نقشوا فيه النعاوية والطلاسم والحيوانات
كما اخذوا الكركدن والنفس في الحيوانات ،
الخرافية لتحرس هياكلهم . وتعادوا والاشتهاء على
فنكون ذخيرة في الاتجار ، وسلوكًا في الاعتقاد على
الولم

٥٠١

العدد ٢ :

هذه بعض الامثلة الدينية في الاقتباس. وان لهم في الصياغة كذلك، وفي صناعة الطلاسم والالاعيب، جولات اقتباسية وجولات. فيجيئون من مصر ببراق البردي وزهره، وبعقاب الاله رع، ومن آشور بالاسد المجنح، ومن بابل ببعض الرسوم المسمارية، فيدمجونها في اختراعاتهم، فتزداد الاعيبهم طرافة، وحليهم جمالا.

وهل من ضرر او عيب في الاقتباس اذا قرن بالمعرفة والذوق والابداع؟ ما انصف العلامة ابرشتيد في قوله ان الفينيقيين كانوا فعلة نقل فقط، يأخذون عن الاجانب كل ما يساعد في نفاق صناعاتهم وانتشارها. فهل يصح هذا القول في ما تقدم وصفه من الآثار التي وجدت في جبيل؟ وهل يصح في افانين النقش والهندسة والحفر والتطريز التي تجمل بها أحجار الصوري هيكل سليمان؟ (١) وهناك شهادة اخرى ناصعة — شهادة الخصوم — وقد سُجّلت في الاشعار الهومرية. — وعندما وقف أخيل في مأتم بطروقل، يتقدم جائزة للمجلّي في العدو، اجمل كأس في العالم قال ان تلك الكأس من صنع الفينيقيين.

---

(١) اقرأ وصفها الرائع في التوراة. الملوك الثاني، الاصحاح السابع: ١٢ - ٤٥

١٠٧

٦٤٤

— وعندما قدم منيلاوس الى تليماك اجمل وأثمن
ما يملك من التحف، كانت تلك التحفة كأسًا فضيه،
ذهبية الفم، جاءته هدية من ملك صور.
— وكانت الملكة هكوبا زوجة الملك آپرايم،
"فتيه دلدلًا" في الاثواب التي جاءها بها باريس
من البلاد الفينيقيه. ٥٠٢ حسب البطل
تلك الاثواب الفاخرة الباهره، حسبها
الاغريق جديرة بان تهدى الى ربات العروش. والاغريق،
فاى فينيقيه النسج، فينيقيه الالوان، ومن صنع
ايدي النساء الصيداويات.
كانت المنسوجات الفينيقية مشهوره في الشرق والغرب،
في كل البلدان التي وصل اليها الفينيقي في قوافله او في
مراكبه. تلك المنسوجات، من كتان وصوف وحرير،
الباهرة الفتانة باصباغها الارجوانيه، وما نشأ عنها،
بفضل المخترع الفينيقي، من جميل التلوين، والطيف
الشعاعات، تلك المنسوجات التي نظمت لها الاشعار،
وذهبت بها الاعاجيب في كل الارضين، انما هي الاكثر الاول
في تجارة الفينيقيين. الكتان والحرير. اما الصوف
فلعت اليها من البلاد — وطنا. واما الكتان والحرير
فمعظمه كان من البلاد من مصر، والثاني من بلاد فارس.
فقد كان يجلب الاول وحبيل على انوال فينيقيه، ويُصبغ
ثم ينسج في صيدا وصور بالاصباغ التي جاء بها الفينيقي من — من قعر
البحر!

البحر! اجل، من قعر البحر. هي ذي الاعجوبة، وفيها
اكتشاف، فيه اختراع:
اني قاص عليك القصة كما رواها المؤرخون
والشعراء. كان احد الفينيقيين يمشي على شاطئ
البحر، بين صور وعكا، ساعة الغروب. فرأى
كومة من الاصداف، سال منها سائل اسود يشوبه
احمرار. قذف بها البحر ساعة المدّ،
تلك الاصداف، فماتت الحيوانات
وتركها بعد الجزر للشمس والرمال، وقد صبغ دمها
فيها - ذبحها ~~[illegible]~~ الظمأ.
وقف ذلك الفينيقي يتأملها، فانشق منها نور الوحي.
فانتشل منها تلك الاصداف، وارسل
الرمال الجافة، بحمل بعجلة تلك الاصداف.
عاد الى بيته، الشمس الغاربة،
حلمه سابحاً في بحر من الالوان؟ تلك الالوان، ما
تلك الالوان، ما فائدتها للانسان؟ وتشربها النساء، ما يمنع
اجملها في الحلل، ترفل بها الاجيال، التي تستخدم ساعة الاختراع:
ما عنده هنه. هي ساعة الوحي التي على ذلك الحيوان،
لانعلم الاسم الذي اطلقه الفينيقي على ذلك الحيوان، ولكن العلماء
الاوربيين والمؤرخين غير اسمه العلمي اللاتيني
ويسمى في كتب الاوربيين Murex trunculus
مثل الموركس هذا من اقارب الاخطبوط octopus
الذي يستخرج من حبره في زماننا لوناً بنياً يصنع منه
"السيبيا" للفنانين. - الاخطبوط
حيوان كبير عاري قبيح الشكل، والموركس حيوان
اصغر

٥٠٢

صغير واسع يختبئ في طرفه كالحلزون . وامامه تحت
رأسه غدة تحتوي على مادة مائعة صفراء، شديدة
الرائحة الشبيهة برائحة الثوم . فاذا استخرجت هذه
المادة، وصُبّت على قطعة من قماش ابيض، ثم عرضت
للشمس، فانها تتلون تباعاً باللون الاخضر،
فالازرق، فالاحمر، فالارجوان. فقد كان الصوريون
هوذا الاكتشاف الذي تلاه الاختراع.
يصطادون الموركس بالشباك والسلال، وفيها طعم من الدود
او الضفادع. اما الغدد فكانوا يستخرجونها والحيوان
حي، لان اللون يفسد بعيد الموت. في
بعد ذلك تُغلى الغدد، ومعها شيء من الملح، في
آنية من رصاص (الحديد او النحاس يفسد بما يذوب منه)
تُغلى الغدد حتى يعقد الصباغ،
اللون الارجواني. ان في تلك الطائفة من الحيوانات الصدفية انواعاً،
تختلف في غددها مادة الصباغ بعض الاختلاف، وهو
فاختبرها الفينيقي في معمله الكيميائي، وتوالي التجربات، حتى احسن الاصباغ
يمزج بعضها ببعض، وخالدة الذكر
الفينيقية مشهورة في الشرق والغرب، وتاليها هو
في التاريخ.
وان اختراع الاصباغ الارجوانية
فينيقي لا غبار عليه.
اما قصة اختراع الزجاج فهي لا تخلو من
غبار الاختلاف. ان الزجاج نفسه على زعمي؛

المغيرة

٥٠٣

المغبر، والشفاف. فالاول قديم جداً، وجد
منه في مصر في عهد الفراعنة الاول وقبله ٢٥٠٠ ق م
والثاني اي الشفاف اخترع بين القرنين الرابع عشر
والخامس عشر، كما كان يظن العلماء.
وكانوا يقولون ان اول من اخترعه الفينيقيون،
ثم قام منهم من انكروا ذلك، ونسبوا اختراعه الى
المصريين، لكثرة ما في بحيراتهم من الصودا، وفي بلادهم
من الرمال.
فانبرى المتشيعون للفينيقيين يدعون الدليل
بالدليل: ان في السواحل السورية وفرة من الرمل
الصافي، اي الخالي من الحجارة، الصالح لصنع الزجاج. وقد
ادرك ذلك الفينيقيون في قديم الزمان، واستثمروا
رمالهم. الا انهم كانوا يجلبون القلي من مصر
او من داخل البلاد السورية.
فتثبت كل من الفريقين برأيه حتى هذه
السنة (١٩٢٨) فجاءت البعثة الاثرية الاوسترجية
المصرية تؤيد اصحاب الرأي الاول بما عثرت عليه
من الزجاج الشفاف في حفرياتها بالدلتا، وتلمح علمنا
حتى اليوم. فالزجاج كان معروفاً في مصر في القرون
العشرين. اذن المصريون، لا الفينيقيون، مخترعوه.
هذه هي الكلمة الاخيرة، الكلمة الحاسمة، اليوم.
وقد يجيء الاثريون باكتشاف آخر غداً، وكلمة
اخرى حاسمة – والاختلاف –
على ان الاواني الفينيقية.
هي/

١١١

٦٤٨

هي من اجمل ما صُنع في ذلك الزمان. ومن جملتها
منها تلك القوارير الرفيعة الأنيقة الأشكال،
التي كانت تدعى قوارير الدموع لظن خطاء،
لـ ادري حاخنتشاه، وهو ان الفينيقيين
كانوا يملأونها من دموعهم على موتاهم، ويضعونها
معهم في القبور. يلمع ظلتنا. فان تلك القوارير
ولكن الأوزي البوم ، كانت تُستعمل
الجميلة، الملونة بالوان الفجر والغروب، في هذه الايام
في قديم الزمان، كما تستعمل امثالها في هذه الايام. او
للعطور، فتقدم الى الآلهة مع القرابين. او
تنثر على ضريح الميت، ثم تنظر الى ما يدفن معه من
عدة وحلي، او من ادوات العمل
ومن هذه الادوات، المنشار والفأس لقطع الاحجار،
وادوات للنقش والصياغة، التي وجدت مع العظام ، والتوابيت الخزفية - الحجار -
والسعاوين في تلك ، عظام خير الناس في كل الاوطان
وقد حوت يوم اكتشافها، عظام الصناع والفنانين. وقد
عظام العمال والصناع والفنانين في صناعاتهم.
اعود الى موارد الفينيقيين في تجارتهم، والكتان من مصر.
انهم كانوا يجلبون الحرير من بلاد فارس، والكتان من مصر.
وانهم اخترعوا الاصباغ، فكانت من تجاراتهم الرابحة،
فقلدوا عنهم فنحت لنفسها اسواقا في كل
حكاف

~~١١٢~~ ٦٤٩ OK

مكان، وابواباً للتوسع في الاستعمار عبر البحار.

لتنقيب المعادن للصناعات والفنون. فمنه اين

جادوا بها؟ من قعر البحر استخرجوا الاصباغ. وقد

علمت الحقيقة، فاكشفت لك الاعجوبة. ومن

قلب الارض ومجاورها انتزعوا المعادن الثمينة.

اذن سأختم هذا الفصل بكشف الاعجوبة الثانية.

وصل الفينيقيون في اسفارهم الى الجزائر

البريطانية — قبل ان وصلوا على ما اظن، الى قلب الارض —

فعادوا منها بالتنك. وجادوا بالنحاس من قبرص

وشبه جزيرة سيناء. وقد صنعوا الشبه (برونز)

من المعدنين على القاعدة التي لا تزال متبعة في

تسعة اجزاء من النحاس لكل جزء واحد

من التنك.

اما ثانيا: اعاجيب في

ولكن اعاجيب الحياة، لعبد جوب البحار، الذي عاش

التعدين. قال بوصيدون الاغريقي الصوري، انه في اسفاره في بلاد الغرب

في القرن الاول قبل المسيح، حيث شاهد المعادن

وصل الى اسبانية الجنوبية، وراى استثمرها بعدهم

الذي كان قد فتحها الفينيقيون،

القرطجنيون والرومان.

وشهد ما كان اعجاب ذلك الصوري الاغريقي شبلك

الاعمال الهندسية. كان الفينيقيون ينقبون في

الارض

الارض حتى الصخر الصلد، ثم ينقبون انفاقاً من
الاعماق التي يبلغونها، فتمتد منها الدهاليز في
الجهات المختلفة الى حيث يظهر المعدن. ومن
هناك، او من بعض الدهاليز، كانوا ينقبون
انفاقاً الى سطح الارض للهواء، وانفاقاً اخرى
في ارض الدهاليز لتنزح منها المياه إبان الامطار.

٥٠٦

أي اتجه الى الاعتقاد ان تقاليدهم في حفر
القبور — قبور الملوك في جبيل وصور، وشكلها في
القبر — مع الحجرات في جوانبها والسراديب من
بعضها الى بعض، أوحت اليهم بالتنقيب في
الارض عن معادن الذهب والفضة. فحفّار
القبور صار مُعدِّناً في قلب الارض،
وبعد ان يخرجوا المعدن ~~[struck]~~
كانوا يحمّونه في النار الى درجة معلومة من الحرارة، فتحمّيه
ثم يجرون اليه المياه بقوة من الضغط معلومة
ثم تغسل وتحوّل، فتفرز المعدن من
غباره ثم تغسل المادة الصلبة التي احتوت عليه.
اما القوة المائية فقد كانوا يحرزونها بما
يبنون في اعالي الجبال من الاحواض، التي تمتد منها
القني الى مصانع الحرق والتصويل. وهي، على الاجمال،
الطريقة التي لا تزال متبعة في ~~[struck]~~ ايامنا الحاضر
هذا

٦٥١
١١٤

هذا اذا استثنينا قوتي البخار والكهرباء المستنبـ
اعتصامهما عن القوى البشرية، وعدا اختراع ارخميدس في
رفع المياه.
وما حاول الفينيقيون ان يفرزوا المعادن
المختلطة بعضها من بعض، فجاء ذهبهم وفيه احياناً
شيء من الفضة، وكان يتخلل الفضة الرصاص.
ما سوى ذلك فانهم في التعدين من الرواد،
بل هم اقدم الرواد عهداً، واولهم بدءاً، واكثرهم
شجاعة واقداماً وتجلداً الى ابواب الطرق.
ولقد وصلت اخبارهم العجيبة الى ايوب الصديق
وورد ذكرهم في صرخاته، وهذه كلماته (٢٨: ٤-١٠)
حفروا المناجم بعيداً عن السكان.
بلا موطئ للقدم، متدلين.
بعيدين عن الناس، يتدلون.
وما كان يعني غير ذلك المعدن الفينيقي بقوله:
وما كان يمد يده،
الى الصوان من اصولها،
يقلب الجبال من اصولها،
ينقر في الصخور سرباً،
وعينه ترى كل ثمين.

-

٦٥٢
~~١١٥~~

٩

نشوء الالفباء

قبل ان نقص قصة نشوء الالفباء، التي مكنت
الانسان من تدوين افكاره واخباره، وادابه وشرائعه،
واساطيره وخزعبلاته، على الانصاب والاطواب، على
الواح الشبه والخزف، على ورق البردي، على الرق
على القرطاس، هذه الالفباء التي ملأت الدنيا كتبا
- نفيسة، تافهة،
مفيدة ومفكهة وجليلة
بليدة - وهذا الكتاب من احد الانواع الثلاثة -
يجب ان نستعرض ما تقدمها من الكتابات
التصويرية والسمارية والهيروغليفية، منذ نحو اثني عشر الف
سنة، اي عندما كان الانسان يحسن ويصقل في
العهد النيوليتيك،
ادواته الحجرية، من صوان وغيره، بخلاف ما تقدمها في
العهد الصواني الاول اي الپليوليتيك، بدأ يرسم على
الصخور والعظام ما يراه، ويتأثر به، من حيوانات ونباتات
وجماد، ليعبر عن بعض ما يريد من فكر، او يحتاج اليه
من قوت او اداة او ماعون.
وقد شاعت هذه الكتابة التصويرية واتقنت
في الصين قديما، وفي اميركة الوسطى في عهد حضارة
الـ مايا (Maya)، وظلت حتى القرن الماضي تستخدم
في بعض مدن المكسيك، وبين هنود اميركة الشمالية.
اخبرني احد المعمرين في مريدا عاصمة اليوكاتان أن
اسماء شوارع المدينة، ~~كانت~~ في النصف الاخير من القرن الماضي،
كانت تسمى باسماء الحيوانات، وتعرف برسومها،
كالديك
~~١١٦~~

كالديك والثور والهر والكلب الخ، المعلقة تحت
المصابيح او على الجدران،
وقد رأيت مثالا من كتابات الهنود بأشكاله
وصوره، كالدائرة للقمر، والدائرة ذات الخطوط الخارجة منها
للشمس، ورأيت رسماً لمركب، بوسطه خطوط
عمودية هي عدد الرجال فيه، والى جنبه قوس يمثل
السماء، وتحته نقط هي عدد ايام الرحلة.
هذه اللغة بالاشارات والرموز ~~~~ استعملها الاولون
كما تستعمل اليوم لغة الاشارات باليد
والانامل بين الصم البكم من الناس.
ولكن بعض الاقدمين ما احسنوا الكتابة بالصور
والرموز - ما احسنوا التصوير - كالسومريين مثلاً في وادي
الفرات، الذين اتخذوا الخطوط ذات الرؤوس والتيجان،
الشبيهة بالمسامير، وسيلة للتفاهم، فكانوا
يركبونها تراكيب مختلفة ليعبروا عما يريدون، فسميت
اللغة المسمارية.
اما في وادي النيل فقد نشأت من التصاوير
حرفتهم، اي لغة الكهان
والرموز الاولى اللغة الهيروغليفية
(هيرو = كاهنة. غليف = صورة)
التصويرية. ~~~~ افكاره واخباره
وقيل ان بدأ الانسان "يرسم"
في وادي النيل
في وادي الفرات، و"يتهرلف" في وادي النيل
مرت على محاولته الرسم والتصوير، كوخمة الاف سنة.
اما اللغتان المسمارية والهيروغليفية فكلتاهما
تعود الى الالف الرابعة او الخامسة من العهد السابق للمسيح.

/ ولا

ولا يمكن التحديد بغير المئات من السنين، فنقول مثلاً:
بدأ السومريون يكتبون بالمسمارية في القرون الثلاثة
او الاربعة من اواخر الالف الرابعة (٢٩٠٠-٣٦٠٠ ق.م)
ومن من الامتين، السومرية والمصرية، كانت السابقة
في هذا المضمار؟ وبكلمة اخرى أية اللغتين اقدم؟
هذا السؤال يشمل كذلك الحضارتين في وادي الفرات
ووادي النيل، وفي الجواب عليه يختلف الاثريون.
سألت صديقي الاستاذ إليهوغرنت، الذي قضى بضع
سنين ينقب في العراق، هذا السؤال، فاجابني
في كتاب ننقل منه ما يلي!
مما لاريب فيه ان الاقتباس والمقايضة [illegible] في الحضارتين
وبينهما يعودان الى اقدم الازمنة الحضارية في وادي
النيل ووادي الفرات. الا اني اميل الى الاعتقاد،
وقد يكون ميلي ناشئ عن اختصاصي بالآثار العراقية، ولكن
ان حضارة الفرات اقدم من حضارة مصر. ~~الحضارة المصرية~~
الاختصاصي بالآثار المصرية يؤكد لك ان
حضارة مصر اقدم الحضارات في الدنيا. وفي الاثنين
يتخير. فقد يكتشف غداً في وادي الفرات ما
يفسد زعم الاثري المصري، او في وادي النيل ما
يحمل الاثري العراقي على التراجع. اما الحقيقة
اليوم فهي ان الحضارتين متساويتين في القدم.
ومن المضحك ان تتعصب لاحداهما ضد الاخرى،
اللغتان السمارية والهيروغليفية اذن نشأتا في زمن
واحد، مقداره منذ ستة او ستة آلاف اوثلاثمئة من السنين،
نشأتا مما تقدمهما من الرسوم والرموز ومقاطع الكلام.

/ تم

ثم تطورت المسمارية، فبُدّل وأُسقط منها، في انتقالها من السومريين الى العقّاديين، فالبابليين، فالأشوريين، فالإيرانيين. وقد نشأ عنها في العهد الإيراني طريقة أولية في الكتابة الهجائية، تلتها تجربات في أوضاع الألفباء، كما سترى.

وقد كانت المسمارية العقّادية في الألف الثانية من العهد السابق للمسيح شائعة في الشرق الأدنى، تُكتب بها الحسابات والعقود كما تبحث في رسائل ملوك أشور وبابل الى الفراعنة ومنهم، وتسجل بها المعاهدات الدولية، كما تقدم في الكلام على المعاهدة بين ملكي ميتاني وأشور.

وكانت الهيروغليفية على نوعين، الهيراتيك اي لغة الكهان والديموتيك لغة الشعب. وهذه الأخيرة اختلطت بالمسمارية العقّادية في بعض أوضاعها كما تختلط الفرنسية بعربية اللبنانيين، والإنكليزية بعربية أهل عدن والبحرين في هذا الأوان.

وظلت الشعوب الاسبرتية من سومر الى مصر تستعمل اللغتين المسمارية والمسمارية الديموتيكية حتى القرن العشرين. فما تفرد فيها غير اللهجات، ولغات الاصطلاحات المحلية.

مما لبث ان اهل جبيل مثلاً كانوا يستعملون اللغة هذه الهيروغليفية المسمارية ما وجده الأركيولوجيون في قبر الملك الشمو ابي (١٩٠٠) وهو صورجانه المحفوع من الشبه، وقد حفر فيه اسم الملك بحروف هيروغليفية. وأهم من ذلك ما اكتشفه الأستاذ دونان في جبيل، وهو لوح من الشبه بحجم صفحة هذا الكتاب.

/ محفور

محفور في صفحتيه كتابة ظاهرة جلية، أخبرني مدير دار
الآثار أنها هيروغليفية مسمارية، وأن فيها بعض حروف
لا زال مجهولة. هذا اللوح يعود في القدم الى نهاية
الالف الثالثة (٢٩٠٠) فمما لا ريب فيه ان
ومهما اختلف في تحديد الأزمنة،
لغة الهجاء، او بالاحرى الالفباء، لم تكن تعرف قبل القرن العشرين.
ومن المرجح ان اولي الفكر الرواد في كل الامم بدأوا في
مطلع القرن العشرين يفكرون في تأليف لغة بسيطة من
اللغات التي كانت شائعة في تلك الايام، اذ
فضلاً عن ان التطورات الاجتماعية والسياسية
واتساع نطاق المواصلات والتجارة، كانت تتطلب ذلك.
وقد ألحت المساعي الاولى في شبه جزيرة سيناء في
القرن التاسع عشر
كانت تلك البقعة من البلاد بين سوريا ومصر
محط رحال الرواد والمغامرين في عالم المشاريع والذهب!
كانت هناك المناجم - كانت هناك الارض الغنية
بالنحاس والذهب والحجارة الكريمة. فلا عجب اذا كان
سكان سيناء الساميون على جانب عظيم من النشاط
والاقدام والمغامرات الصناعية والتجارية والفكرية.
ولا عجب اذا كانت التجربات والمحاولات في الاوضاع الالفبائية
اولا هناك. فقد اكتشف السر فلندرس بيتري،
بحثه في جبل سيناء بالقرب من معادن الزبرجد المصرية،
سنة ١٩٠٤ هي الاولى من نوعها في تاريخ الكتابة.
احرفا هجائية ومما لا ريب فيه ان الذين اخترعوها
هي احرف الالفباء.

اهم

هم ساميّون، وانهم استعملوا ما وجدوه في الهيروغليفية
من الاحرف التي تلتئم وغرضهم شكلاً ولفظاً، ومن تلك
المؤلفة من مقطع واحد الصالحة للهجاء، كما انهم اقتبسوا
اجزاء من بعض الصور الحيوانية، واكتفوا بجزء واحد من البعض
الآخر، فوضعوا اثنين وعشرين حرفاً هجائياً عدوها كافية"
للكتابة.

وهذه الالفباء السينائية هي أم الالفباءات النبطية
والعبرانية والآرامية والفينيقية، التي تطورت وتغيّرت فيها
وفقاً لحاجات اهلها ~~النوعية~~ المتعددة ولهجاتهم ~~المحلية~~ المتعددة وتقاليدهم المحلية
التاريخية والدينية.
هذا ما يقوله المتشيعون لهذه الالفباء من الاوربيين والعلماء.
وقد خالفهم العالمان الافرنسيان دوسو ودونان. فقال دوسو
ان البحث عن اصول الالفباء الفينيقية لا ينبغي ان يكون في
شبه جزيرة سيناء، بل في آثار الفينيقيين انفسهم
من ذلك ناووس احيرام الذي كان معاصراً لعجمسه الثاني.
اخف اليه حاجة الجبيليين التجار الى لغة بسيطة
وحاجة عديسته الكهان في جبيل الى لغة
تفاهمون بها تصلح للتعليم.
اما الاستاذ دونان فقد اكتشف ما هو اقدم من ضريح
احيرام — اكتشف كتابة الفبائية يعود تاريخها الى القرن الرابع عشر
قبل الميلاد أي قبل عجمسه واحيرام بأكثر من مائة سنة × وهو
اللوح (الذي اشرت اليه) الهيروغليفي المسماري
يقول انه الالفباء الفينيقية، ولكنه ولكن تقرأ بعد.
أما ما يميل اليه الاثري المحترم، فان ظاهر
نقص ما في الكتابة ينفي هذا الظن.
اشكاله ...
وقد

× وبعد ان ورثنا في السيناء نحو خمسمائة سنة

من الواجب علي في كل حال، ان اعلمك برأي الفريقين.

فقد قال المستشرق الاميركي الاستاذ آلبرايت ان التقصي في درس الآثار الكتابية الفلسطينية يصل بنا الى جسر فيها يمتد فوق الفراغ بين الالفباء السينائية وما سبقها من محاولات وتجربات في العهود السابقة. فلا شك اذن في ان مصدر الالفباء الفينيقية هو في الالفباء التي اكتشفت في جبل سينا.

ويقول المكتشف السر فلندرس بيتري انَّ الذي ~~الفينيقية~~ ذلك. فهو يزعم ان مصدر الكتابات الالفبائية كلها كامن في ما اخترع قديماً من احرف الهجاء في جزائر الارخبيل.

لا لاحبا، ولا لبغيا، هذا النوع الاول من الموضوع، اني لاحبا ان تنجلي الحقائق للقارئ وتتضح المطربات، فلا بد ان يسلخ في دحضه غير المحقق الثابت منها. اذن ينحصر الكلام فيه الآن.

فمن الثابت المحقق ان شعوب آسيه الصغرى، الآريين والحثيين، كانوا يحاولون، في النصف الاخير من الالف الثالثة، اي بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ قبل المسيح، ان يغيروا ويحسنوا في لغاتهم المعروفة المسمارية والهيروغليفية ليتوصلوا الى لغات اصلح منها للكتابة. وذلك لسببين اوليين، احدهما انتشار التجارة الخارجية بين هذه الشعوب المختلطة، واحتياجهم في المراسلات والحسابات الى لغة كتابية سهلة. والسبب الآخر هو مستوى الرقي العقلي وانبثاق الفكر الرواد فيه، ابتغاءً للاكتشاف والاختراع. وان انصع الادلة على ذلك لفي الحركة الالفبائية

في

في الزمان المختص بهذا البحث، فقد اكتشف الاثريون
كتابة الفبائية اخرى، مؤلفة من نيف وثلاثين حرفاً،
تشبه الفينيقية في انها خالية من احرف العلة،
وتختلف عنها في انها ناشئة عن اللغة المسمارية.
هي الالفباء المسمارية التي اكتشفت سنة ١٩٢٩
في راس شمرا (سورية الشمالية) والتي تعود في تاريخها الى ما
بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، اي لعهد الالفباء
السينائية بمائتي سنة، كل ذلك بالتقريب.
ومن اثمن ما تملكه الالفبائية كذلك ما اكتشف في
النصف الثاني من القرن الماضي (١٨٦٨) وهو اثر للملك ميشا
يدعى حجر موآب، لانه اكتشف هناك. هو اول الاكتشافات
الاثرية الالفبائية، واخذها عهداً (٩٥٠ ق م) وهو مكتوب
على اوضح واتقن كتابة هجائية موجودة حتى اليوم. هي ذي
اللغة الالفبائية التي كانت تنسب الى الفينيقيين، وهي اول
الاثار التي يهتدي بها الاثريون في عودهم الف وخمسمئة سنة،
الى الزمن المتمادي، والتطورات الكتابية الذي انتهى
بالالفباء السينائية. استمر الفينيقيون وجيرانهم في
الجنوب يكتبون في الالفباء هذه ومن ذلك الزمان حتى اصبحت بعد الف
سنة صالحة للتعبير عن فكر اول الشعراء هوميروس
وخياله وادق مواقف التفكير واوسع مرامي الخيال.
يقول الاستاذ جان فلكيت[1]: «والرأي الراجح
اليوم هو ان الالفباء اختراع سامي، وان الالفباء
السينائية

(1) The Haverford Symposium on Archeology and the Bible
صفحه: ١١٨

السينائية هي اول الاختراعات الالفبائية».

وقد اكتشف الاثريون في سورية وفلسطين، في السنوات العشر الاخيرة، غير ما ذكرت من هذه الكتابات ~~الالفبائية~~. اثبت اهمها بتواريخها الاركيلوجية:

ق.م.
الكتابة السينائية ١٩٠٠ - ١٨٠٠
الالفباء السمارية (دير شمرا) ١٦٠٠ - ١٤٠٠
الالفباء الجبيلية ١٥٠٠ - ١٤٠٠
٩٠٠ -
ناووس احيرام (جبيل) ١٠٠٠ -
اثران لأبيبعل وإليبعل ٩٠٠ -
حجر موآب (فلسطين) ٦٠٠ -
رسائل تل الدوير (فلسطين) (1)

اذن، في قصة الالفباء مظهر من مظاهر الشوق والارتقاء، وليس فيه ما يصح ان يدعى اكتشافا او اختراعا. فالخلاصة في ما تقدم هي ان الفينيقيين، حتى عهد الملك الشموالي (١٩٠٠؟)، كانوا يستعملون احرفا ورسوما في الكتابة هي خليط من الهيروغليفية والسمارية، وغيرهما من لهجات الشعوب المجاورة لهم، وان الالفباء السينائية تقدمت الالفباء الجبيلية بنحو من المائة سنة، وان في الاشتقاق والتهجي احرفا مشتبهة بعضها ببعض، وان الرغبة في التخلص من اللغات السمارية والهيروغليفية ظهرت في النصف [illegible] والمحاولات الالفبائية التي نجحت ظهرت في النصف الاول من الالف الثانية قبل المسيح.

(1) هي ثماني عشرة رسالة كتبت بالحبر على قطع من الخزف، كتبها بعض الضباط المرابطين على الحدود، في غزوة الكلدانيين لفلسطين سنة ٥٨٩ ق.م. الى قائد الحامية في تل الدوير.

السامية والآرية في جنوب البلاد وشمالها.

فالقول ان الفينيقيين هم الذين اخترعوا الالفباء لا تشبه الاكتشافات الكتابية التي مر ذكرها. وليس له من الانصار في علم الاثار الحديث، غير ~~...~~ ثلاثة او اربعة من العلماء منهم العالمان الافرنسيان دوسو ودونان اللذان ترأسا الحفريات بجبيل. وانهما لمن الاختصاصيين. وانك لتذكر ما قاله الاستاذ غرنت في ما تعلقت في كتابه عن الاختصاصيين وتشتتهم نظريات تتعلق بموضوع اختصاصهم،

فقبل هذا الاختلاف، وقبل اكتشاف الكتابة السينائية كتب المؤرخ رولنسون المحقق المدقق، المعجب بالفينيقيين كل الاعجاب، ما يلي (١) "ليس من الثابت ان الفينيقيين ~~ولكنهم~~ اخترعوا الاحرف الهجائية المنسوبة اليهم. انما من المؤكد انهم ~~الوضع الت~~ وقد يكونون المخترعين حسنوا ما كان شائعاً في تلك الايام."

لا ريب في انهم حسنوا الالفباء السينائية، وجعلوها اسهل استعمالاً. وجدير بهم ان يفعلوا ذلك، لانهم ~~...~~ التجار المشهورون في العالم القديم. والتجارة تحتاج في حساباتها ليس الى الارقام فقط، بل الى الكتابة ايضاً. ففي عهد بابل المجيد كانت التجارة والعلم يمشيان معاً، فراحوا غرباً يتاجرون، ونشروا معهم الاسفينية في التجارة للبابليين. فقد نشروا الالفباء في حيثما حلوا علم الكتابة المسمارية. وكذلك فعل الفينيقيون، وكان اول من اخذها عنهم الاغريق، لانه ابان عهدهم التجاري. وينسبوها اليهم لانهم لم يعرفوا لم يكن هنالك غيرهم من تجار الشرق.

٥١٥
٥١٦

---
(١) الفينيقيون صفحة ٢٢٩
عندهم

١٢٥

١٠

الفينيقيون والاغريق

بعد ان اكتشف السر فلندرس پتري الكتابة الالفبائية السينائية، شرع يدرسها ويتقصى في البحث والاستقراء، بما لا يخلو من الحماسة الاكتشافية والتهور، ثم ادلى بنظريته الشائقة، وهي ان الكتابات الالفبائية كلها مصدرًا واحدًا هو جزائر الارخبيل. وبالاحرى جزيرة كريت التي كان قد اكتشف بعض آثارها في مدينة كنوسس البائدة، وخصوصًا في قصرها المعروف بهذا الاسم. (Knossos) تلك الآثار الهندسية والفنية والثقافية تمثل حضارة قديمة، تعود الى عهد الحضارة المصرية الاولى، وتجاريها في الرقي والعمران. وقد دعاها الاثري العلامة إڤنس، رائد الاثريين في تلك الجزيرة، الحضارة المينوسية نسبة الى اله الجزيرة مينوس (١) او الى ملك من ملوكها اتخذ اسم ذلك الاله.

ولكن الاثريين، وقد استمروا في البحث والتنقيب هناك، واستأنفوا اعمالهم بعد الحرب العظمى، اكتشفوا من العاديات ما يدل على اتصال بين الحضارتين المينوسية والمصرية، فيه من الاقتباس والتقليد ما هو جدير بالاعتبار، من ذلك اختام نقشت فيها كتابة هيروغليفية وآنية ترتسم عليها زهر البردي. فهل يصح ان نقول لمجرد هذه الآثار، ان الحضارة المينوسية هي

---

(١) جاء في الاساطير ان مينوس ~~[illegible]~~ مخترع الاحرف الهجائية. راجع الشرح في صفحه ...

هي الاصل والحضارة المصرية فرع منها؟

ترأى في هذه الفصول اكثر الاشارة الى الاعمال
الاثريين، واهميتها في تصحيح التاريخ. فيجب علي ان
احدد كلماتي، فاحصرها في الاعمال دون الآراء.
أما الاثر الكتابي او الفني او الثقافي الذي لا يختلف الاثريون
في قراءته او تحديد معناه وتفسيره، هو من الحقائق
الكبيرة بالاعتبار. ولكني احذرك من الاستقراءات
والنظريات الخاصة. فقد اسلفت القول في مبالغات
الاختصاصيين، وتحيزهم لموضوع اختصاصهم، فذكرت واحدا
منهم، ونقلت لك ما جاءني به، حبا بالحقيقة.(١)
ومن تلك المبالغات نظرية السر فلندرس بتري في
مصدر الكتابات الالفبائية، وادعاء بعض المشتغلين في
البحث والتنقيب في جزيرة كريت، ان الحضارة المنسوبة
هي اقدم الحضارات، او انها والمصرية والسومرية واحدة
في القدم!
واني احذرك كذلك من النظريات المبنية على كتابة
في اثر اوصورة في كهف، او شكل في ماعون، اللهم اذا كان الاثر
فريدا لا شبيه له. فقد اكتشف في قصر كنوسس
دمى فينيقية. فهل نستنتج منها ان الفينيقيين احتلوا
في قديم الزمان، او حاولوا ان يحتلوا جزيرة كريت؟
ومن الآثار الكريتية آنية من الخزف ملونة ورسوم
على جدران القصر مرسومة بالاصباغ الجميلة. ومن تلك الآنية
اناء تتفوق عليه رسم الحيوان البحري "جوركس" اخطل

(١) راجع صفحة ....

فهل نستنتج من ذلك ان الكريتيون اكتشفوا هذا
الحيوان، واخترعوا من المادة فيه الارجوان؟
هذه الطريقة في البحث يلجأ اليها العلامة الاستاذ
فكتور برار، الاختصاصي في الفينيقية والفينيقيين، ليثبت
نظريات له شبيهة بنظرية السر فلندرس بتري في مصدر
الكتابات الالفبائية. ولكن العلامة برار يقلب
الآية: في فينيقية ومصر مصدر الحضارة
الاغريقية!

قرأت كتاب برار Le resurrection d'Homère — اجتهادات
علمية وشبه علمية
الحماس بالاجتهادات الادبية والعلمية
يهلل لها غلاة الفينيقية، ولا يستطيع ان يمحو
غير من كان عالماً بلغات الاقدمين — الفينيقية والعبرية
والارامية والهيروغليفية والمسمارية واليونانية واللاتينية!
فهل ينبغي ان اقول للقارئ انني لست هذا الرجل
العالم؟ ولكني وقفت عند بعض نظريات العلامة
برار، وقد جرّتني الى ذكر اللغة العربية، ففهمت،
ودهشت. وقبل ان اجيء على ذكرها انقل بعض
ما في الكتاب من سديد القول وسلامة الفكر
والنظر:

اجرت العادة خلال عشرين سنة ولت (١٨٩٠
—١٩١٠) ان ينكر العلماء كل ما ينسبه الاقدمون
الى الفينيقيين: هو نوع من التعصب العلمي ضد
السامية، تزعّمه في فرنسه سلمون ريناخ
وابن بدور ليفي. فطرد ريناخ الفينيقيين
المحمديين

الممدّنين من بلاد الاغريق القديمة، وبشطحة
قلم أغرقهم لينفي في البحر المتوسط – محاهم من
لوح الوجود.»

ولا اثر لهذا التعصب في المباحث الفينيقية الحديثة،
على ما أعلم: فان في الكتاب (1) الذي بين يدي الآن
مقالات لنخبة من الاثريين، وكلهم مجردون
من التحيز، يثبتون الحقائق بالدقة التي يستوجبها
العلم، ولا يشطحون في الاستقراء. فهم يرون مثلاً
ما يراه العلامة برار في كلام المؤرخ
هيرودوتس على الفينيقيين: كانت المراكب الفينيقية
تحمل الى بلاد الاغريق احمالاً من البضاعة، نصفها مصري،
والنصف الآخر آشوري. والبضاعة الفينيقية، يا ابا
التاريخ؟! ان هيرودوتس متحامل على الفينيقيين
الذين علموا الاغريق اشياء كثيرة، وفي رأسها
الملاحة. – الكلام للدكتور برار.
الملاحة، واشياء اخرى كثيرة
فهم الذين سبقوا الآخرين جميعًا الى اكتشاف
واستيطان البلدان اليونانية، فقد أطلقوا على الثغور
هم الرواد، وهم المعمّرون. وقد حملوا
والجزائر التي اكتشفوها اسماء فينيقية، وقد حملوا
الى تلك البلاد بضاعتهم وثقافتهم وحضارتهم
واساطيرهم التي كان يتغنى بها النوتيون. بشهادة
على ذلك شيخ الشعراء هوميروس في شعره الخالد، وهذا

(1) The Haverford Symposium

٥١٥

وهذا الذي حدا العلامة الفرنسي الى تأليف كتابه
"بعث هومير". وهناك
اما علم الملاحة فالارجح انه فينيقي الاصل.
اسطورة تتعلق بابراهيم الخليل وهذا العلم ارجئها الى
فصل آخر. اما الحقيقة المعترف بها اليوم فقد يكتشف
الاوريون غداً ما ينشئ او ينبغي. فينيقون او ينيقون
ماقاله قديماً اسطرابون، وهو ان الصيدونيين اول من
اهتدوا بالدب الاكبر في الملاحة. وعنهم اخذ اليونان
هذا العلم. تارةً في حماسته الفينيقية،
ولكن العلامة برار يسترسل
مثال ذلك قوله، بعد
وطوراً لتقيدها بالاستدراكات. ان الفينيقيين والمصريين والحثيين هم
السحر والاطلاق، الذين علموا اليونان الاقدمين وحضروهم - فالمراكب التي
كانت تحمل البضاعة الفينيقية والمصرية والاشورية الى البلاد
اليونانية حملت كذلك الحضارة المركبة من الحضارات
ومن اقواله ان البحر المتوسط كانت له في مختلف الازمنة +
ثلاث
صفات استعمارية خاصة. هي الفينيقية واليونانية
والعربية (في عهد الامويين في الشام وفي الاندلس) والطليانية
ثم الاتراك صبغوه بصبغتهم
حضارتنا المدنية وجنوا) في زماننا.
المغولية التترية، ثم الفرنجة في جيل قبل اليونان.
اذن كان الفينيقيون اسياد الارض جيل قبل الغزوة
وان كان المصريون - المصريون الذين غزوا فينيقية - المصريون
الاولى في القرن الثامن والعشرين قبل المسيح
الذين

١٢.
٦٦٧

الذين بنوا الاساطيل البحرية في القرن التاسع والعشرين؟ اسياد الارخبيل؟ انها لا تزال من غوامض العلم، وقد تكتشف غداً الحقيقة الراهنة، فنعلم اذ ذاك من من الثلاثة الشعوب — المصريين والفينيقيين والكنوسيين — كان الاول في جوب البحار.

قلت ان العلامة برار يعود الى اشعار هوميروس الاوديسي، ليثبت نظريته ان كثيراً من وخطوطها الاوديسية، واسماء الاعلام فيها، هي فينيقية سامية الاصل. واحياناً نقول: فينيقية الاصل. لتبح له باب الاجتهاد. فالبطل بروتيس في الاوديسي هو بروتي، اي الاسم الذي اطلقه كهان مصر مثلاً على الفرعون — اذن لمصر كذلك فضل على هوميروس.

وهناك مثال من مباحث برار التاريخية اللغوية: بين الجزائر السبع اليونانية جزيرة فقدت اسمها الساميّ. اما اسمها اليوم الاجتهادية: واسمها الاقدم الساميّ فهو كركير وهو غير اسمها القديم، واما اسمها القديم الذي جاء في الاوديسي فهو كُرفو. وان له قصة طريفة جاءت في الاوديسي. يوناني. يوم كان عوليس عائداً الى أتيكا نقم عليه اله البحر فحول مركبه الى صخرة عند الشاطئ، فسميت الجزيرة باسم ذلك المركب، تذكاراً للحادث المفجع. ثم قال العلامة برار ان معنى كركيرا المركب السريع، وان الاسم فينيقي ساميّ. فقد كان العرب والعبرانيون يسمون المركب السريع والناقة السريعة كُركر او كُركور.

السند

لست، كما قلت، ممن يستطيعون ان يجاروا العلامة براد في علومه اللغوية. ولكني من ~~ال~~ الكتاب الذين يقتبسون فاحوشا، ولا يزدرون اصحاب القواميس.

وها هو ذا الفيروزابادي - فصل الكاف، باب الراء - وفيه: الكَركَرة وعاء قطب البعير والتيس والثور. وفيه: كَركَر في الضحك!

وقد يكون العلامة الفرنسي يريد قرقر، لا كركر: فالى فصل القاف - باب الراء - اذن، وفيه ما يلي:

قرقر البعير هدر وصفا صوته: القُرقار اناءه، وهدير البعير. القَرقَر ارض مطمئنة لينه - والقاع الاملس، ولباس المرأة. خاين المركب السريع في الماذين، وابن الناقة "الطيارة"؟ ~~[illegible]~~

وهاك شيئاً آخر من الالفاظ الفينيقية او السامية هي zephyr بالانكليزية والفرنسية. معناها في الشعر الهومري، الاصل في الاوديسّي. zephuros اليونانية من العاصفة فوق البحر. اما في ~~[illegible]~~ الفرنسية والانكليزية فهي الريح اللطيفة الناعمة. اما في العربية - السامية - والزفير اول صوت اخراج النفس بعد مدّه. والشهيق آخره.

فهي ... الاوديسّي، ما حكاه، ومن اغرب ما نقله من النشيد الخامس من الاوديسّي، ما يلي: وصل الى جزيرة سيروس؟ ~~[illegible]~~ السوفيليون الفينيقيون النهابون، الحاملون في مراكبهم السوداء الوفا

الوثائق التحف والاعاجيب. وكانت تخدم في احد
بيوت الاشراف فتاة فينيقية، هيفاء دعجاء، مرفوق
ذلك مهذبة متفننة artiste en beaux ouvrages

لقد نقف هاهنا العلامة برار ليهتف قائماً:
كان اذن لابناء ملوك الجزر مربيات فينيقيات،
كالانكليزيات زماننا. ثم تستأنف القصة وفيها ان تلك الفتاة
الفينيقية المهذبة اجتمعت بابناء قومها الفينيقيين،
فطلبوا منها، وألحوا عليها، ان تعود معهم الى بلادها،
فقبلت، ولكنها قبل ان فرّت هاربة من بيت
سيدها، سرقت كل ما وصلت اليه يدها من
الذهب — المربية "الفينيقية"!
ارادها بركة فجاءت من اللعنات السود، وصرود السهام
وهناك غيرها من ملتويات المقاصد، فضلاً عن الفينيقيين

قرأت مرة، في جريدة افرنسية لبنانية، قد تكون صحيحة
الترجمة، وقد تكون ممسوخة، كلمة للعلامة برار، جاء فيها ان الحضارة
الفينيقية هي للاغريق كالحضارة الاغريقية للاوروبيين.
ومعنى ذلك ان الثقافة الاوروبية بما فيها من ادب
وفن وعلم وفلسفة مستمدة من الحضارة الاغريقية. افلا
يصح ان نقول، لتتم القياس، ان الثقافة الاغريقية، بما فيها
من ادب وفن وعلم وفلسفة، مستمدة من الحضارة الفينيقية؟

انا

~~١٢٢~~
٦٧٠

ان في تاريخ اوروبه علواً مجيداً تتشبه عصر بركليس،
وتمت اليه باوشاج الفنون والعلوم. فاين في فينيقية
العصر الذهبي الذي ~~يصح~~ يصح ان تقول فيه انه مصدر ما
٥٥٢ ازدهر من العلوم والفنون في العصر الاغريقي الشهير؟
اين الاجداد الفينيقيون للمؤرخ هيرودوت، وللشاعر
صفوكل، وللفنان فيدياس، وللفيلسوف انكزاغوراس،
وللسياسي الاكبر بركليس؟ اين في كل ازمنة التاريخ الاخر
الفينيقي لذلك النبوغ، بل لتلك الينابيع، التي تفجرت
في مكان واحد من هذا العالم هو مدينة آثينا، وفي زمن
واحد، لا يتجاوز مدته الخمسين سنة، هو زمن النوابغ
في السياسة والادب والفن والشعر والحكمة والفلسفة؟
انه لمن اعجب الازمنة وامجد العصور. ليس في كل
الحضارات السابقة، السورية والبابلية والاشورية والمصرية،
والفينيقية ما يشبهه ولو في اصوله واسبابه، او
يدنونه في ما اشتمل عليه من مظاهر الرقي والعمران كلها.
فكان قدر على الانسان المتحضر اربعة الاف سنة
في شبه قالب ضعف واستولى عليه الكهان. فما
عقله في فنونه وعلومه غيرها الحجر في ذلك القالب
كان من فنونه وعلومه طالبا للعلم، الحائل فما انتجه الكهان
ولم يكبر عليه. جاء هيرودوت مصر الكوى الصغيرة
فابوا عليه ذلك. وما فتحوا له غير ابواب الكوى. وقد كان الجمود صفة
مدة اقامته بينهم ثلاث سنوات. وكان العصر صفة
ذلك العقل الذي هو عقل الكهان.
ذلك العقل الجامد المقيد علومهم.
اما العقل البشري العام، العقل الحي الذي ينمو ويتغذى
بما كانت ارض تلك الحضارات المكبوت فقد

بما في التراب دون الشمس من الاغذية، وظل
كذلك في مصر وبابل وآشور. ينمو نموًا بطيئًا
الا في طفرات، من حين الى حين - وما اطول
الاحتجاب بين الحينين - تمثلت في شخصيات
ملكية كبيرة. من عهد منكاورع
الفنان وخمسمائة سنة -
السومري وشيشنق المصري الى عهد اليوناني بركليس،
ثم حققت الحاقة. خرج الامر من يد الكهان. تبشرت الفكر البشري.
فلفت الفكر البشري القوالب قوالبهم والقيود، وانطلق في فضاء الدهر
من كواهنه من ظلماته، محلقًا في سماء التفاكير
متجاوزًا في نبوغ ابنائها، الذي عاش كالحلزون، اولئك
الحر - الفكر البشري، ازدهر في نصف قرن من
الفين سنة في بطن الارض. لقد ثارت في لفحة صغيرة
من الزمن ازدهارًا عجيبًا. بعدان أظلمت مصر، وعقمت
الكهوف انواره، وطلبت شرايين بابل وآشور.
ثم ~~[illegible]~~ [illegible] و فكتور برار.
فينيقية، ~~[illegible]~~ قد قاله العلامة فكتور برار، بما
هذا ما وددنا لو كان، دون ان نطيل البحث
فلابد، وقد قلناه عنه، ان نصله عن المصريين،
لقد اخذ الاغريق عن البابليين والاشوريين،
تقدم من اسبابه. ويوا... سطتهما عن البابليين وظلوا يستمدون بذور
والفينيقيين، وليوا كذلك عن الفرس، وظلوا حتى آخر القرن
كما اخذوا كذلك ~~[illegible]~~ من هذه المصادر حتى آخر قرن التغذية
الثقافة والعلم قبل المسيح. وكان القرن السادس قرن التغذية
السابع قبل المسيح. وكان القرن الخامس قرن الازدهار والانتشار.
والنمو، والقرن الخامس قرن الازدهار والانتشار.
اي

اي ان الاغريق استدانوا، فاستمروا، وشرعوا بعد
ذلك يصدرون الى خارج البلاد من ثمارهم. وقبل انهم
بدأوا في اواخر القرن الخامس، واوائل القرن الرابع -
عهد افلاطون وسقراط - يدفعون ديونهم. ومن وصلهم
شيء من الدين الفينيقيون.

قال العلامة وليوم آلبرايت: "ابتدأ الفن اليوناني
ينتشر في فينيقيه في القرن الرابع، كما يظهر في
نواويس الرخام التي اكتشفت في صيدا. ومما لا
ريب فيه ان صناعات اليونان وتجارتهم كانت قد
انتشرت في مدن السواحل الفلسطينية والفينيقية
قبل الفتح الاسكندري بمائة سنة في الاقل".

هذه الكفة في الاخذ والعطاء تشمل كذلك
الالفباء السينائية الفينيقية الاغريقية، التي اخذها
اليونان من الفينيقيين باليد اليسرى، واعطوها باليمنى
الى الاوروبيين. اما القول الذي يستخرجه
غلاة الفينيقية من اجتهادات العلامة برار خصوصاً
الالفباء، وانه خسارة العالم لولا عمل الفينيقيين بنقل الالفباء
كانت جسيمة، فهو قول مردود. فلو لم ينقل
الفينيقيون، ولو لم تخترع في جزيرة سيناء، او في
جبيل، او في موآب، لاخترعها شعب آخر
في بلد آخر اسيوي، ولما خسر العالم شيئاً. ذلك
لان العالم الشرقي كان قد بلغ درجة من الرقي تتطلب
كتابة هجائية راقية.

اهـ

هي سنة العمران. فعندما يبلغ مستوى الوعي العقلي
درجة تؤهله لعلم من العلوم – ولك ان تهمل الاشارة
الصوفية في "تؤهله" وتقول: تستوجب لقضاء حاجاته
او لاستمرار رقيه الفكري، علماً من العلوم، او اكتشافاً من
الاكتشافات، يظهر لذلك العلم او الاكتشاف اناس من
المفكرين والمغامرين في شتى البلدان – يظهرون جميعاً
في زمن واحد، ويعملون، دون ان يعلم بعضهم بالبعض الآخر،
عملاً واحداً.

مثال ذلك اكتشاف الكهرباء والمسكنات (anesthetics)
ودورة الدم واختراع اللاسلكي والراديو في زماننا.
فقبل ان صار اسم اديسون مرادفاً للكهرباء، كان قد
اقدم على كشف هذا الموضوع وكشف اسراره، رهط من
العلماء في القرنين الثامن والتاسع عشر وفي شتى البلدان:
ومن اولئك العلماء موشنبروك في المانيا، وفرانكلن
في امريكه، وكولمب في فرنسه، وغلفاني في ايطاليه،
وفارادي في انكلتره. ~~[illegible]~~
وقبل ان اكتشف الدكتور هرفي (١٥٧٨-١٦٥٧) دورة الدم
كان بحثها قبله وفي زمانه فبريكس استاذ هرفي، وللناني
وديرفيتس وفشر كاتير وفرز اليوس. والمباراة
زماننا امثلة من هذه الاتجاهات الفكرية، ونفعل
الاكتشافية، في الابحاث اللاسلكية لماركوني والامريكيين
تيسلا، وفي اختلاط الطيارين الاوروبيين والامريكيين في
الخطوط الكروية، كما كان يختلط المستشرقون في
الماضي

~~١٢٧~~
٦٧٤

الماضي خطط البحار.
وهل نظن ان اميركا، لولا كولمبوس، كانت
اليوم قارة مجهولة؟
وهل نظن اننا كنا لا نزال نكتب بالهيروغليفية او
المسمارية لولا الالفباء السينائية او
الجبيلية؟ ولولم يحملها الفينيقيون الى الاغريق لخلنا
انها كانت قد دفنت مع اجسادهم
في ناووسه ج الرشيد في سنة العراق،
العمل او رثية في
بارك الله فيك،
ا.

٥٢٥

٥٢٦

فرنسيس

فرنسيس

التجارة

ما كانت العلوم العقلية، المجردة من اسباب
العمل والمنفعة، لتشغل الفينيقيين، ما
اهتموا للنظريات الفلسفية، ولا للظاهرات
الشعرية، ولا استغواهم مرة طيف من اطياف
الروح او الخيال. ما نبغ فيهم واحد من اولئك
الذين يشغفون بقرائن الحقيقة، ولا من اولئك
الذين في كل واد يهيمون. كانوا، رعاك الله،
عمليين حسابيين ماديين – كانوا الاميركيين
في زمانهم. ولا اثر في الشتات ادبهم، التي نقلنا بعضها
في فصل سابق، لشيء من العلوم الاجتماعية او السياسية
او الصحية او الفلسفية. لا علم لنا بما كان من
رقيهم في الطبابة [illegible]، او في الفقه، او في
التشريع السياسي والاجتماعي. كل ما نعلمه مما
يتعلق بالاسرة والزواج مثلاً هو ان البنات الفينيقيات
كنّ يتعاطين الدعارة قبل زواجهن، لا حبًا بالمال،
على ما يظهر، بل حبًا بالزواج ~~التقسم~~ فقد كانت الفتاة تقدم
قسمًا مما تجمعه للهيكل تيمنًا، وتدّخر الآخر لتشتري به
عريسًا على الطريقة الفرنسية الشائعة بين تجار
الشرق اليوم، اي الـ"دوطه". الا ان دوطتها
كانت ~~مالها~~ من عرق جبينها، من مالها، لا من
مال ابويها. وكانت تطمع بان تكون الدوطة
كبيرة*

١٢٩
٦٧٦

كبيرة لتظفر بعريس من اليونانات، او شباب من صفوة
الشباب. هو الطموح لا الطمع، وهو في
ما اصطلح القوم عليه طموح مبرور.
بيد ان فوائده الفلسفة العملية المؤسسة
على المنافع المتبادلة. فقد امتاز الفينيقي امتياز
الاميركي اليوم، في مضمار العمل، وفي عالمي الصناعة
والتجارة. فما تقدمه شعب من الاقدمين في بناء
السفن وجوب البحار، والى الاكتشافات البحرية، والى فتح
والصناعات، والى انشاء الجوالي والمستعمرات،
والى صنع الانسجة وصباغها. وهذه كلها من
المناجم، اركان الحضارة الحاضرة.
فالفينيقيون، والاغراق، هم رواد الحضارة في
قديم الزمان. وقد مهدوا السبل، بما اوتوا من
حذق وذكاء، ومن شجاعة واقدام، لمن جاء بعدهم من
الامم ومتى فاقتهم رقيا وعمرانا. والفضل للمتقدم!
ومما هو جدير بالذكر انهم كانوا من عوامل القصاد،
التي تكسب الغناء ورغد العيشة، بما امتازوا به من
الهمة والاقدام. تقيناً ازاهير الاميركيين وامثالهم
الحكمة الامنية، وفي المقدمة. فقد ازدهرت
ولذلك كانوا من الفالحين، وفلسفتهم العملية،
فينيقية، بفضل رجالها العمليين، من الالف بين الامم
وحافظت على مركزها في حقبات من
الصغيرة والكبيرة. وكان لها ما يسمونه عصرا ذهبيا، بل عصورا.
يقول المؤرخون ان العهد الفينيقي المجيد استمر تسعمائة
سنة، اي منذ بداية القرن الثالث عشر قبل المسيح الى العهد
الاغريقي

الافريقي. فيكون المجد الفينيقي معاصراً لمجد اسيد
الثاني، ولمجد سليمان بن داود، ولمجد سرجون
البابلي وسنحريب.
على ان للمسألة وجهة نظر اخرى. فاذا اعتبرنا
السياسة منفصلة عما يُعد من اسباب العصر الذهبي في
امة ما، فالمؤرخون في ما يدّعون على صواب. اما اذا
كانت امجاد الامة لا تنفصل عن احوالها السياسية
والوطنية، وهي في ما يدعى العصر الذهبي مغمّة
مذلّة — فلها في هذا الزمان بلبنان — فالفينيقيون
لكن لم غير حقبات من الزمن تتراوح بين الخسف
والكآبة، لا يصلح ان تعد عصوراً ذهبية.
ليس لدينا من العلم ما يبرر الجزم في ما كانت
عليه احوال التجارة في مختلف الازمان — زمن الاستقلال
التام، وزمن الاستقلال النوعي، وزمن الاتكالة والحماية
فهل كانت تتأثر التجارة بما يفد على البلاد استقلالها؟
أم هل كانت تستمر انتشاراً واقبالاً مهما كانت
احوال البلاد السياسية والاجتماعية؟
لا ندري. ولا علم لنا ببعض شؤون المستعمرات
التجارية التي اسسوها في اقاصي البلدان، وصلاتها
على الاخص بالوطن. فهل كان هناك غير الحس الفوضي
بين المهاجرين وبين اخوانهم المتخلفين؟ هل كانت تلك
المستعمرات عند التجار تدفع شيئاً من الخراج للحكومة في الوطن
الاول؟ من العلوم المحقق انهم كانوا ينقلون
الهتهم معهم، او يشيدون لها هياكل في المهجر، كبرانهم
الى ذلك

٥٢٩

لذلك الكهان. الكهان في كل الازمنة – الكهان على
الدوام! فقد كانوا يراقبون رعاياهم، ويقيتونهم،
حراسًا على ارواحهم وشركاء لأكياسهم، حيثما حلوا –
[illegible]. وكان
اولئك المهاجرون الفينيقيون، شأن المهاجرين اللبنانيين
اليوم، يرسلون الى اهلهم في الوطن، والى هياكلهم – [illegible] –
والى كهنتهم واساقفتهم – وكاهنهم الاكبر –
والى رجال حكومتهم ايضًا – مما كسبوا من مال،
واستحبوا لهم من متاع. هدايا سنية لوجه الله والوطن!
ومما هو معلوم كذلك ان الروح الفينيقية كانت
تتلاشى في ظل الفاتحين، وتنتعش فتزدهر كلما استتب لها
شيء من نعمة الاستقلال. وما اقل عهدها
بنعمة ~~[illegible]~~ الممالك والشبه
الثلاث ~~[illegible]~~ استقلالهم – الا قليلًا –
اما انهم ما جاهدوا في سبيل
ولا انهم اسسوا حلفًا عامًا مثل المدن الاغريقية في ابان
نهضتها – الا التحالف الطرابلسي المشكوك فيه – فذلك هو
العجيب. لقد كانوا مستقلين بعضهم عن بعض،
وخاضعين جميعًا للاسر التي كانت تدعى ممالك، ومثل
في مدنهم التي كانت تدعى ممالك، ~~للحاكم الاجنبي~~ لحكومة اجنبية – مثل [illegible]
في اكثر الاحايين، المحميه
العرب اليوم في القاطعات التسع [illegible]
أفمن شك اذن في ان التجارة تغلبت على الوطنية
عندهم؟ ليست التجارة، اذا استثنينا هذا
الامر في تغلبها من النكرات. بل هي في اصفى
احوالها

بل هي والعمران
احوالها من دعائم السلم والعمران . بل هي والعمران
يسيران معاً، كما اسلفت القول. فقد حمل التاجر
الفينيقي بضاعته الى الشعوب التي كانت لا تزال
بعيدة عن الحضارة، والى الشعوب التي كانت واقفة في
بابها، والى الشعوب التي بلغت منها الدرجات الاولى.
فايقظ ذلك الفينيقي النائمين، وحرك الجامدين،
وشجع الناهضين، واثار للمتقدمين سبلاً جديدة
في مضمار الحياة المادية؛ الدمث الاخلاق، الحلو
هو ذا التاجر الفينيقي الدمث الاخلاق، الحامل من
الشمائل، المحب للسلم ورغد العيشة، ويبهج القلوب،
اسبابها كل ما يبهر العيون، ويبهج القلوب، ومشحذات
ويدخل على العقول محركات التعلم ومشحذات
خذوا عنه، ابناء الشعوب المتهذبة، والا
الذكاء؛ والشعوب النائية، واقتدوا به، وحققوا ما تنجم
في الجزر ما تقوله فيه الشعراء، ذلك الشاعر الذي يعود اليه
تصدقوا ما تقوله فيه هوميروس. ذلك الشاعر عما جاء في اشعاره
الطريفة؛ العلامة فكتور برار ليستشهد بما جاء في فتوح البلدان،
العلامة فكتور برار على مآثر الفينيقيين المجيدة في فتوح البلدان، يطلعنا على
على مآثر الفينيقيين - وذلك الشاعر يطلعنا على
واقامة المعالم للعمران - ذلك الشاعر يطلعنا على التجارة.
الفينيقي في احدى رحلاته التجارية، وقد رست
وهاكه في احدى رحلاته التجارية، فانزل بضاعته
مراكبه "السوداء" عند شاطئ الجزيرة، فانزل بضاعته
منها، وعرضها ~~صفاً صفاً~~ على رمال الشاطئ صفاً صفاً. ثم

ثم جاء الناس من الجزيرة زرافات، راغبين بالشراء ومتفرجين:
رجالاً ونساءً واولاداً يطوفون بتلك البضائع،
والتاجر الفينيقي واقف في مركبه يرقب وينتظر:
فمن رجل يرغب بثياب منقوشة بالذهب، الى امرأة
ترغب بمرآة من النحاس المصقول، الى شاب يختار قارورة
من العطر. فيضع كل شاري او شارية الى جنب
الحاجة المختارة قطعة من فضة او ذهب، او شيئاً
من محصولات او مصنوعات الجزيرة (1) ويعودون القهقرى،
فيقفون بعيدين منها:
وبعد ان ينتهي الناس من اختيارهم ووضع المقابل
لما يختارونه، ينزل الفينيقي من مركبه، وينظر في
ما وضع هناك، فاذا كان المطلوب اخذه، واخذ
الشاري السلعة، واذا كان قليلاً، تركه مكانه،
ثم يعود بعد ان ينتهي من هذا العمل، الى المركب.
فيعود الشاري والشارية الى الاختيار والمساومة،
فمن كان قد قبل ما قدم مقابل ما ابتغاه، اخذه،
ومن كان قد رفض زاد اذا شاء بالدفع، وهكذا
يتقدمون ويتقهقرون، ويدفعون ويزيدون، وينزل
التاجر من مركبه ويعود اليه مراراً، وقد تمت صفقات
واخفقت اخرى، طوال ذلك النهار. فيجمع ما تبقى من البضائع
الى مركبه عند غروب الشمس
ويرفع الشراع مبحراً الى ثغر آخر، بهذه
النقود

(1) كانت التجارة اجمالاً بالمقايضة. وما ظهرت النقود
المسكوكة، من ذهب وفضة ونحاس، قبل القرن السابع السابق
لعهد المسيح. وجاء في الالياذة امثلة في هذه المقايضة
منها ان ثمن الدرعين رأس من البقر.

هذه ما كانت تدعى "التجارة الصامتة". وسببه السبب الوحيد
فيها ان الفينيقيين لم يكونوا يحسنون لغات اهل البلاد
التي يؤمونها. هو من الاسباب، وما هو باهمها.
فالدافع الاول الى الصمت، والى هذه الطريقة الصامتة
في البيع والشراء، هو ما خبره الفينيقي وقاساه
من اضرار المساومات. سلام يجر كلام - كلام يجر طبخ -
طبخ يجر نار الكلام - والسيخ! اذن الصمت اولى.
وطريقة الصمت في البيع والشراء هي من اختراعات
~~الفينيقيين~~ ذلك الفينيقي.
فاين الذنب منه؟ اين في هذه التاجر الفينيقي، والاسم
ذنب التجارة. انها لنزوة شاعر، ما ترفع عنها،
حتى شيخ الشعراء هوميروس.
فهل من المعقول ان يرافق الاقبال التاجر الفينيقي
حيثما رحل وحل لو لم تكن الاستقامة رائده، والصدق
رفيقه، وجودة البضاعة اعلانه في كل مكان؟
وهل يستغرب حب الشعوب له، وعجبها به،
وهرولتهم الى الشواطئ،
فيرقبون مجيء مراكبه، ويشترون، ابتهاجهم في العيد،
وحبيب لهم عندهم اعز والذ من كعكاته
واغنى مما هو
والاعشيبه؟

٥٢٢

وللفينيقي في هذه الاسفار التجارية، التي بدأت
قصيرة، وأخذت تبعد، فتبلغ مضيق هرقل وما دونه في
الاوقيانوس الشمالي حتى الجزر التي تدعى اليوم الجزر البريطانية،
للفينيقي، اقول، الفضل الاكبر في انشاء المواصلات بين
الحضارة المصرية وحضارة الارخبيل والاغريق،
الخ

هو هو الفاتح للمصريين الطريق الى الجزر والثغور الشمالية،
رحل الفينيقي رحلته الاولى الى قبرص، فالجزر
دونها، اي رودس وكوس، فالثغور الاسيوية، فجزر
الارخبيل، فاليونان الجنوبية. فانشأ فيها الجوالي
الفينيقية، واسس المستعمرات. ثم اجترأ غربا
فوصل الى سيسيلية، ولعله انشأ في مالطة
مستعمرة. أتيكس المدينة التي هي اليوم اكبر الموانئ
الفرنسية.

اما مستعمرات المغرب فقد اسسوا منها في اواخر
القرن الثاني عشر مستعمرات صقلية، و أوتيكا على الشاطئ
الافريقي بجوار تونس اليوم، وقادس على الشاطئ الاوروبي
الاسباني بالقرب من النهر الكبير. هذه المدينة لا تزال
تحمل اسمها القديم الفينيقي Cadiz. وفي بداية القرن
التاسع قبل المسيح نزح جماعة من ابناء صور الى الغرب،
واسسوا هنالك اكبر المستعمرات التي اصبحت بعدئذ
دولة زهت زهوا رائعا اسمها قرطجنة، وكانت
وعندما بلغت قرطجنة درجة من القوة رفيعة، وصارت هذه
الحضارات الشرقية قد اندمجت في حضارة الاغريق، فكانت
تنافس الدول الفارسية والاشورية قوة وعمرانا، انكمشت التجارة
مراكزها الحربية والتجارية في البحار، فاصبحت السيادة في المغرب
الفينيقية وتقهقرت، الشرف للاغريق،
للقرطجنيين، وفي الشمال للفينيقيين خاطرون في

اما تجارة البر فقد كان للفينيقيين الازمنة القديمة، اي بين القرن
بابل وآشور، وعلى الاخص في الازمنة القديمة
الخامس والعشرين والقرن الخامس عشر. فمنهم ملك
وجاءت قوافل بابل تقصد مصر، فمنهم
عكا الذي كان يوشك ان يدفع الجزية للفراعنة، وكتب
برقا

برنا بوریاش صاحب بابل الى الفرعون اخناطون يطلب
التعويض، ومعاقبة المجرمين، تأمينًا للطرق والقوافل
التجارية بين مصر وبابل.
ولكن الفينيقيين، على ما كان من مناظرة البابليين
والاشوريين لهم في اسواق التجارة، احتفظوا لانفسهم الخطط
الى الشرق برًا وبحرًا. فكانوا من ابطال تلك
الخطط في عهد سليمان بن داود، ومن اسباب ذهاب
العهد الفارسي.
ومن تلك الطرق التجارية طريق الى ارمينيا،
حيث حملوا بضاعاتهم ومنسوجاتهم وعادوا منها بالخيل
والبغال والعبيد. وكانت احدى طرقهم تمر
بتدمر، فحمص شمالًا الى ~~الموصل~~ نينوى، وجنوبًا
الى بابل، فالخليج، فالهند.
وكانت لهم طريق برية بحرية الى الهند في
ايام الملك سليمان من طريق الى يافا، فالقدس،
فشاطئ إيله (خليج العقبة اليوم) ومن هناك في
البحر الاحمر الى البحر العربي. الى ارموز على الخليج،
الى ثغر هندي هو اليوم كراتشي.
— وعمل الملك سليمان سفنًا في عصيون جابر
التي بجانب إيله، على شاطئ ~~البحر~~ بحر سوف في ارض
ادوم. فارسل حيرام في السفن عبيده
النوتيين، العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان،
فاتوا الى اوفير، واخذوا من هناك ذهبًا،
اربعمئة

١٤٧
٦٨٤

اربعمئة وزنة وعشرين وزنة، وأتوا بها
الى الملك سليمان
الملوك الاول ٩: ٢٦-٢٨

وعادت السفن الفينيقية (التي رافقت سفنه
الغربي الشمالي
سليمان فوصلت الى ثغر الهند (ترشيش) مشحونة
بخشب الصندل، وبكثير من الذهب،
والحجارة الكريمة،

٥٢٧

١٤٨

١٢

اسياد البحار

قال يوزيبيوس، برّد الله مثواه: كان في قديم الزمان رجل
عالم صالح يدعى ابراهيم، فاق جميع الناس بما أُوتي من علم وحكمة.
فاخترع علم النجوم والسحر البابلي. وكان مقرّباً من الله.
فأوحي اليه بان ينتقل الى فينيقيه، فنقل من بلاد
الكلدان اليها، واقام بين اهلها، وعلمهم علم النجوم،
ودورات الشمس والقمر، فأحبه ابيملك ملك
صور، وقربه منه..

وأجمع المؤرخون على ان الفينيقيين كانوا يهتدون ليلاً
بنجمة القطب الشمالي.. في اسفارهم البحرية.
وقال العلامة براز ان اول من اختطوا الخطط في
البحر المتوسط، ودرسوا الاحوال الجوية، وكشفوا بعض
ظاهر المد والجزر، ووضعوا الاصول للملاحة، انما هم
الفينيقيون، [illegible] ذلك الزمان..

وقد تعلّموا اليونان ما تعلموه من ذلك الفلكي
الساحر ابراهيم..
اما علم السحر فما رغب به الفينيقيون، على ما ظهر،
فاهملوه. اوزاهم تلقوه عن ابراهيم، ونقلوه توّاً الى
كهان مصر، فاستعملوه في مهنتهم الالهية.. تتعلق
هذه طائفة من الاخبار التاريخية والمشيد لوحيه
بالفينيقي صاحب الشراع، ومعلم الملاحة الذي احتاز
وفاق جميع الشعوب الاخذ منه في استخدامه لاغراضه
الاستكشافية
واستعاده لارواد
~~التجارية~~

لحد

لقد سبق فوصفنا هذا الفينيقي بدماثة الاخلاق، وبحبه
لطيبات العيش، والترف والرفاهية. فهذه الصفات
قلما تتفق وصفات النوتي، اي اشدة البأس،
والشجاعة، والصبر على المكاره، وفي رأسها شظف
العيش. ولكنها وغيرها من الصفات المتناقضة
اجتمعت في الفينيقي، فكان تاجرًا مترفًا،
وكان نوتيا. امتاز بالاناقة، والاخشيشان،
بالاسترسال في الملذات والنشاط في العمل، بالمرونة
وصلب العود، بالعذوبة مع التنمر، والتجلد مع
الاقدام. وكانت له معدة قوية ونهامة، مع
ارادة الناسك في الصبر والثبات.
من الحقائق الطبيعية ان المحروم كثيرا ما حُرِمَه،
ويرغب دوما به. فعرب البادية يألفون المشقات
وشظف العيش. ولكنهم في الامصار يسترسلون
في الملذات، ويستهترون. ولا تذهب صلابة
عودهم الا بعد جيلين او ثلاثة اجيال منهم في البيئة
الجديدة، بيئة الترف ورغد العيش. الا انهم
والفينيقيون النواتي مثل عرب البادية، تتجاذبهم البحار
كانوا في كل الازمنة ابناء البيئتين، والرفاهية.
باخطارها، والامصار بما فيها من رغد العيش. وكانوا
فتولدت فيهم المتناقضات الخلقية والخُلقية.
تجارًا متنعمين، وكانوا النواتي المغامرين
المخشوشنين

٦٨٧ ١٥٠

المكتشفين؟

وهل تعلمه ان كل من اقلعوا من ميناء فينيقي،
مستكشفين، تاجرين، مؤسسين الجوالي والمستعمرات،
كانوا يعودون الى الاهل والاوطان، او انهم كانوا
دائمًا يعودون سالمين غانمين؟

ان للبحار تاريخًا قديمًا كُتب على امواجه بالدم
والدموع. فكم من مركب فينيقي صاحت به العواصف، وهاجت
عليه الامواج، فقذفت به الى الشاطئ العتي، وحطمته
على صخوره؟ وكم من مركب مزقت شراعه الرياح الهوجاء،
وكسرت صواريه الامواج الصاخبة، فامسى ومن فيه
بقبضة البحر كالفار بين براثن الهر يداعبه حتى الموت؟
وكم من اولئك النواتي البواسل فقدوا الربان والقبطان، ثم
على خشبة من سفينة محطمة، تتقاذفهم الرياح، ثم
تمن عليهم التقادير، فتسوقهم الى شاطئ جزيرة
جديدة، او ثغر قصي، فيطعجون بعد النجاة من
المكتشفين؟ وكم من مرة ضلوا السبيل في
بحر الظلام فقاسوا رحمة العواصف والانواء،
وقد نفد ما لديهم من الزاد والماء، فاجهز عليهم الجوع
والظماء؟ وكم من مرة سطت عليهم القرصان — وما
كانوا هم مقصرين في القرصنة — فاشتبكت المجاذيف
في القتال، والتهبت النيران بايدي الرجال، وغرقت
هشرجة الموت في احضانها بالامواج والابطال، وما
بقي في النهاية على وجه اليم غير شظايا المراكب
المشتعلة.

٦٨٨

OK

المشتعلة والمحطّمة ؟!

هذه الناحية من حياة النوتي الفينيقي والتاجر المتقرّف
لا نعرفها غير البحار. فما نبغ في الفينيقيين شاعر
يشيد بها ويخلد ذكراها. وليس بين شعراء
الأقدمين من أشاد بمغامرات أبناء فينيقية النواتيّ،
وبأعمالهم الجبارة، أو ضمّخ على الأقل قوافيه بطيب
الرثاء عند تلك النكبات البحرية،
لقد ذكر المؤرخون والأثريون أسفارهم، وإتجارهم،
ومستعمراتهم، ذكروها بالقلم الجامد، والكلمة الجافة،
وقد دوّن هيرودوت، بحبر الشك والاستهجان، خبر
رحلتهم الاستكشافية الأولى حول القارة الافريقية،
تلك الرحلة التي يشتهي المؤرخون والأثريون في هذا
الزمان، هي أول رحلة استكشافية في التاريخ البشري، قامت
بها بعثة فينيقية في عهد الفرعون نخو، آخر الفراعنة
العظام (٦٠٩-٥٩٢ ق م) اندحاره في محاربة البابليين
ولا يقدح في عظمته بعد ذلك الى
في شمالي سورية. فقد وجّه اهتمامه بعد ذلك الى
المشاريع الزراعية والاقتصادية والعلمية. ومن
تلك المشاريع الترعة التي تصوّرها لتصل البحر الأحمر
بالبحر المتوسط. وقد أمر بمباشرة المشروع من النيل،
فعمل في حفر، بل ضحّى في العمل على ما يقال، بضعة
الألوف من العمال.

/ البعقول

٦٨٩ ١

يقول هيرودوت ان مئة وعشرين الف عامل هلكوا

في المشروع (وهيرودوت، مثل مؤرخي العرب بعده، اشتهروا

فلا يدقق دائماً بتعدادها). ولما تم ذلك

الارقام

المشروع فقد حذر المهندسون الفرعون قائلين ان البحر الاحمر

اعلى من النيل، وان فتح ترعة اليه تحمل الى وادي النيل،

سيلاً فيه خراب البلاد. انه، في كل حال،

من ابرز المقاصد الاقتصادية الزراعية التجارية في

تلك الايام. واني اقول فيه ما قاله بلوترك في

المجلس النيابي العام رشدي باشا

كلامه على مشروع بركليس العظيم، وتماثيم، قال بلوترك:

ناسبه بركليس العظيم ... لما فيه من الدليل

مع ذلك ارى من الواجب ذكره لما فيه من الدليل

على عظمة بركليس فكراً وعملاً، مثل بركليس

وقد كان الفرعون نخو مولعاً

بعده، بالمشاريع العامة وعلى الاخص منها البحرية. وكان

محباً للفينيقيين، معجباً بتجارتهم، فاختار منهم

بعثة استكشافية، تطوف حول القارة الافريقية

لتحقق ما كان من شأنها في تلك الايام، وهوان

الاوقانوس محيط بالبلاد المصرية، فاجتازوا البحر

الفينيقيون من السويس، سافروا غرباً بجنوب

الاحمر، وبعد خروجهم من باب المندب

في البحر العربي، فالبحر الهندي، فمروا ببلاد الصومال،

وبعدها قطعوا خط الاستواء، فاجروا بين الشاطئ

الافريقي وجزر مدغسقر، واستمروا جنوباً بغرب

صح

حتى بلغوا رأس القاره، الذي يدعى اليوم رأس الرجاء الصالح، ثم ولوا شراعهم شطر الشمال، فمروا بالشواطئ الافريقية الغربية (التي جابها بعدهم مواطنهم حنو من الشمال الى الجنوب) ووصلوا الى مضيق هرقل (جبل طارق) فعبروه الى البحر المتوسط، وعادوا بعد الى مصر.

استمرت هذه الرحلة ثلاث سنوات. ومما وصلنا من اخبارها، غير ما ذكرت، هو انهم كانوا ينزلون في بعض الثغور، فيستميلون اليهم قلوب اهلها بما كانوا يحملونه من البضائع، ويقيمون في تلك البلدان، فيزرعون القمح ويحصدونه، فيجددون مؤونتهم ويرحلون. والخبر الثاني الذي يثبت الرحلة وينفي شكوك هيرودوتس، هو انهم، بعد ان اجتازوا خط الاستواء، وهم يعودون ثم رأوا الشمس تشرق عن يمينهم، أي شمالاً، رأوها كما كانوا يرونها فوق رؤوسهم، هي الشمس الشاهدة على طوافهم حول القارة الافريقية في اواخر القرن السادس قبل المسيح.

رحلة حَنّو

The "Periplus"[1] of Hanno

بعد نيف ومئة سنة من هذه الرحلة الفينيقية الاستكشافية الاولى، رحل حنو القرطجني رحلته

---

(١) بريبلوس كلمة يونانية مركبة معناها الطواف حول (الشيء).

١٦٩١

OK ١٥٤

رحلته الشهيرة (٤٧٠ ~~[illegible]~~ ق م) فسُجّلت
اخبارها في تقرير رسمي، وعُلّقت نسخته الاصلية في
هيكل الاله ايل (المشتري) بقرطجنه، فتُرجمت
الى اليونانية، ومنها الى اللغات الاوروبية، فترجمنا
نص الترجمة الانكليزية المثبتة في كتاب
Carey's Ancient Fragments
وقد اثبتنا الاسماء المعروفة اليوم لما نظنه مقابلاً
للاسماء القديمة، اسماء البلدان والانهار، المذكورة
فيها:

تبدأ النسخة الاصلية بتمهيد صغير يتضمن قرار
القرطجنيين بان يقوم حنّو بهذه الرحلة في ما وراء
مضيق هرقل (جبل طارق) ويؤسس هنالك مدناً
ومستعمرات فينيقية ليبيّة. فأبحر من قرطجنه باسطول
مؤلف من ستين مركباً شراعياً، مجهز كل منها بخمسين مجذاف
تحمل كلها ثلاثين الفاً من رجال ونساء، مع حاجاتهم
من زاد وعتاد. ثم يسرد حنّو او احد اعوانه
اخبار الرحلة فيقول:
بعد ان خرجنا من المضيق، وأبحرنا يومين جنوباً،
اسسنا اول مدينة واسميناها (Thymiaterum)
ثميا تيريوم (١) ثم تقدمنا في الجهة الغربية فوصلنا الى
سولوييس (٢) (Soloeis) وهو رأس البرّ في
ارض مكسوة بالاشجار، حيث شيدنا هيكلاً للاله
نبتون: وهي على

(١) ~~مغادور~~ الصويرة اليوم (Mogadore)
خط مستقيم غرباً من مراكش.

(٢) رأس بوجادور Cape Bojadore

ومن هناك أجرنا لحق يوم تجاه الشرق، فوصلنا الى
بحيرة قريبة من البحر(١) وفيها معاطب كثيرة،
ترعى في جوارها الفيلة والحيوانات البرية. وبعد
يومين من السفر جنوباً(٢) اسسنا مدناً قريبة
من البحر، خمساً منها(٣)
ثم استأنفنا الإبحار فبلغنا النهر الكبير لكسوس(٤)
الذي تقيم على ضفافه قبيلة من الرعاة،
([illegible]) فأقمنا بينهم على ولاء مدة من الزمن.
وما دون بلاد اللكسوسيين(٥) يقيم الأحباش
الوحشيون، في أرض موحشة، تحيط بها الجبال،
التي يجري منها كما يقال النهر لكسوس. وبالقرب
من تلك الجبال كهوف تقيم بها أناس مختلفو
الأشكال، يفقهم اللكسوسيون بالعدو، ويقولون
انهم يسبقون الخيل
توفقنا الى من يترجم لنا لسان الشعوب هناك،
فاصطحبنا المترجمين، بالقرب من سواحل
من السفر، اسسنا
وبعد ثلاثة ايام جزيرة صغيرة، اسسنا فيها
قاحلة، بلغنا خليجاً فيه جزيرة صغيرة،
سواحل غمبيا،

---

(١) سبخة من السبخات عند سواحل المدن البائدة -
(٢) شرقاً كينوب اسباعاً وهي اليوم من البلاد المعروفة بهذا
(٣) ذكر الكاتب اورو - نهر الذهب - في البلاد المعروفة بهذا
(٤) ريو ده اورو يسمى باسم عربي: الشط، وريو ده اورو
الذكر، وهو اليوم
التي كانت تدعى بونتيه ليبيا (...) هي اليوم في
حوزة الاسبان.
(٥) نسبة الى النهر لكسوس.

فيها مستعمرة اسميناها كِرْني (Kerne)(١).
وقد تبين لنا من المسافة التي قطعناها، اننا
وجب طول المسافة من المضيق الى قرطجنه،
في كرني على خط مستقيم منها،
سافرنا من كرني في نهر كبير يدعى كريتيس
(Chretes)(٢) فوصلنا الى بحيرة هناك فيها ثلاث
جزر اكبر من جزيرة كرني. وبعد يوم من السفر في
النهر، جئنا على آخر البحيرة، القائمة عندها
جبال كبيرة، يسكنها قوم وحشيون، يلبسون
جلود الحيوانات البرية، فرشقونا بالحجارة،
ليمنعونا من النزول الى البر. (٣) تسيح
عدنا ادراجنا فوصلنا الى نهر آخر كبير
فيه التماسيح والافراس النهرية، فعدنا منه الى كرني.
ومنها واصلنا السفر جنوباً، قريبين من السواحل التي
يقطنها الاحباش، فكانوا يجزعون لقدومنا، ويفرون
هاربين. وما كنا نفهم لسانهم، والافهمه الادلاء
اللكسيتيون. وبعد اثني عشر يوماً من السفر دنونا من جبال عالية
مشجرة

(١) جزيرة اغادير عند رأس بلانكو (Cape Blanco) في الدرجة
العشرين من خط الطول. وهناك ايضاً Port Etienne
في افريقية الغربية الفرنسية.
(٢) النهر سان جان او النهر سان لويس.
(٣) نهر السنغال R. Senegal

مشجرة بالاشجار الجميلة الشكل، الطيبة الاريج.
فابحرنا بالقرب منها يومين، فبلغنا من البحر جونًا
واسعًا، الى كلا جانبيه سهل فسيح. رأينا النيران
تشتعل ليلًا في شتى النواحي منهما. وقد تزودنا
من هناك الماء، واستأنفنا الرحيل، دون ان
نبعد عن السواحل. فوصلنا بعد خمسة ايام الى
جون عظيم، قال لنا المترجمون انه يدعى الرأس
الغربي(١)، وفيه جزيرة كبيرة، فيها بحيرة
مالحة، وفي البحيرة جزيرة اخرى، فما رأينا فيها
نهارًا غير الاشجار(٢)
ولكننا في الليل شاهدنا النيران تشتعل في
اماكن متعددة. وسمعنا اصوات العزف على
القصب والصنج والطبول، وضجيج اصوات ضجّاجة
عجّاجة. فعرانا الخوف، وأمر المنجمون بان
نخرج من الجزيرة(٢). فمررنا ببلاد تشتعل
فاقلعنا منها مبحرين. وكنا نرى الشرر
فيها النيران، وتفوح منها الطيب. فاقلعنا منها
نسرابًا من النيران الى البحر. والزهر
واللهب الأرس والحيون

(١) سيراليون (Sierra Leone)
وعندها مدينة فريتون (Freetown)
(٢) جزيرة شربورو (Sherboro)
(٣) جزيرة مكولي (Macaulay)

٦٩٥ ١٢٠

والذعر مستولٍ علينا. فخبنا بعد اربعة ايام الى بحر واخرى نقطه بها النيران. فحسبت كأنها شعلة واحدة غلبه، في وسطها علم كذلك مشتعل (١) فتطاير الشرر واللهب منه، منتسباً وحلت الى النجوم. وفي اليوم التالي علمنا انها ربوة تسمى عربة الآلهة (٢)، وفي اليوم الثالث، بعد ارتحالنا من ذلك المكان لشدة ما كان من الحر، ~~وضيعو النيران~~ وصلنا الى جون يدعى القرن الجنوبي (٢) وفيه جزيرة مثل التي مررنا بها، فيها بحيرة، وفي البحيرة جزيرة اخرى، يقطنها قوم برابرة، اكثرهم من النساء، تكسو الشعر اجسامهم جميعاً. اسماهم التراجمان الدليل غوريللا (٤)، فطاردناهم طلبنا الرجال منهم ففروا هاربين، كانوا يعدون بين الصخور، ويتقفزون فوقها، وهم يرشقوننا بالحجارة. (٥) وما ادركنا احداً منهم.

ا / ا

(١) في هذه البلدان التي ~~كانت~~ تشتعل فيها النيران" الحشيش الياباس في كان الاهالي يحرقون على عادتهم ذلك الفصل من السنة.

(٢) رأس بلماس Cape Palmas

(٢) Cape Three Points

(٤) هي طائفة من الشمپانزي من السعادين. او الغوريلّا

(٥) كما فعلت طائفة من الرباح لقيناها في جبال اليمن. راجع ملوك العرب الجزء الاول صفحه

اما النساء فقد ظفرنا بثلاث منهن:
ولكنهن سطون على حراسهن بأسنانهن
وايديهن، وهنه يحاولن التفلت والفرار.
فقتلناهنه، وسلخنا جلودهنه، فحملناها
الى قرطجنه، وعلقناها في هيكل

جونو هناك.
وما تقدمنا لبعد ذلك في السفر
لنفود زادنا.
. . . .

من جبل طارق — في اللغة الجغرافية الحاضرة —
الى سان لويس وداكار، الى غمبيا وغينيه التي نسبه،
الى كوناكري، والسنغال، الى سيرا ليون — الى
شواطئ العاج والذهب، الى سيكوندي واكرا —
هذه بسماة بعزمة اللبنانيون، ابناء الشمال
وجنوب. اولئك الذين هاجروا الى تلك
الاصقاع في اوائل القرن العشرين، بعد الفين
ونحو الفين وخمس مائة سنة من رحلة حنو القرطجني.
فكان اولئك القرطجنيون المكتشفين، وكان
هؤلاء اللبنانيون المستعمرين!

٦٩٧

١٦٠ OK

خاتمة الرحلة السادسه

درج العلماء والمؤرخون في هذا الزمان على عادة
في نشر المصادر والمستندات التي تتعلق بمواضيعهم
المعنية، فيثبتون، بعد المقدمة للكتاب، او
قبلها، او ضمنها، اسماء ما طالعوه من
الكتب في مختلف اللغات، قبل ان باشروا
التأليف، فيستغنون بذلك عن الشروحات،
وتبقى الهوامش لكتبهم نظيفة خفيفة لطيفة.
وفي هذه العادة، عدا الناحية الفنية في
حذف الهوامش من الحواشي، وفي ذكر المصادر والاسانيد
دفعة واحدة، عوامل في الاقناع سيكولوجية.
هات، ايها اللبيب، اللائحة، وهي كما ترى طويلة
جليلة، ومتنوعة اللغات. فهل يحتمل معها
الخطأ او الشطط او المجازفة؟ انها
لغلابة الشكوك، وانها لأمارة بالثقة
والايمان.
وقد رأيت - وقرأت - احدى هذه اللوائح
ضمن وثيقة [illegible]
لتاريخ عربي حديث، نشرها المؤلف في
من جزئه الاول، بعد المقدمة، فاشتملت
صفحة على

احمد [illegible]

ولقد أهاجت بي هذه العادة نزعة ~~التقليد~~ الاقتداء والمباراة. فجئت أحشر نفسي في صفوف أولئك العلماء ~~المدققين~~ المحققين، والمؤرخين ~~المحققين~~ المدققين، فأقدم للقارئ لائحة بالكتب التي طالعتها قبل أن باشرت كتابة هذه الفصول القشيبية.

أأقول لائحة؟ ويلاه، لبست بشيء منها: فالكتب فيها لا تعد بالألوف، ولا بالمئات، ولا بما دونها من العقود. لأنني والأسفار، لا تبلغ العشرة من الكتب الإنكليزية، وبكتاب واحد إفرنسي.

ولكني قرأتها كلها قبل التأليف وخلاله، وحتى الآن، والفخر، انتبهوا ها هنا في آخر الرحلة، علّ فيها بعض الفائدة لأحد القراء الراغبين بالتحقيق، أو لغيرهم من أصحاب "الإصبع الشوماوي"، ~~...~~ عليهم السلام أجمعين. آمين.

وبعد هذه الرحلة في غياهب الزمان،
وفي كتب التاريخ والآثار، نعود الى مرابع
الشمس، والى الكتاب الاوحد
الخالد - الى فصل من اجمل فصوله -
الى لبنان

احمد شاكر

١٦٢

اللائحة

1 Phenicia } George Rawlinson
2 Ancient History }
3 A History of Egypt, James Breasted
4 The ~~Harvard~~ [Haverford] Symposium on Archeology
5 Corey's Ancient Fragment
6 The Sumerians. C. Leonard Wodley
7 The Tell Amarna Tablets, C. R. Conder
8 Le resurrection d'Homère, Victor Berard
9 Le Liban, H. Lammens, S.J.

دائرة المعارف والتوراة

احمد ١٤٠

احمد شاتيلا

١ فينيقيه } جورج رولنسون
٢ التاريخ القديم }
٣ تاريخ مصر جامس ابرستيد
٤ مجموعة مقالات في الآثار القديمه
٥ نبذات قديمه
٦ السوريون - ليونرد وولي
٧ رسائل تل العمارنه
٨ بعث هومير - فكتور برار
٩ تسريح الابصار د جا احنوى
لبنان من الآثار - الاب لومنس اليسوعي

١/ السلك البتاني (bitate) الجنود المغاربة

١/ جبل مدينة الملك مولاي

بزورا مدينة

سلا مدينة

٢/ اناحا وحه الاحلة ٢

الب عجزي

١/ المطرون الذي كان عو

(المدينة التي احتلها عزيزي)

ثم قد المدينة

بلي - (او جبل) ×

اخوتي / حالهم ١١

وليس (عندكم)

طلقوا عائلتي وزوجتي

المكبوتة - اخذهم

ولست ادري مقرهم -

افلا يدفع الملك مولاي عن

المدينة وعني - ان مولاي

لكريم - ولا انساني -

[illegible] الكبير ... ١ - [illegible]

[illegible] والسيد [illegible]

Mr. Smith

+ 7

Clinton

× ارتكبنا [illegible] مادرا

وحنطة (Corn)

ليس عندنا

وانا اكل - [illegible]

البلاد [illegible]

في القحط - والجراد

(بيروت) (بيروتا) ملك ابوروبي
اشّوبيرا
Ziduna صيدا
زمريدي

Ammuya
Durubli
Sigala
Ambe
Batruna

امّيا = امبون
Tripoli
طرابلس =
سيكاتا = شُكّا
عابابا
امبي =
بترونا = البترون

الحرب ا لكلب عبد عزيرو
(عزوان عزيزو) بضع سنوات
استمرت الحرب - فقد احتل جبيل
وقد حمل على صيدا اهل ارواد الى عزيرو
زمريدي ملكها . وسلم اهل صيدا

Paka = General = القائد
كانت مملكة جبيل تمتد الى شكا على طابلس
ن رسائل رب عدّي . والبلد بترونا هي
والمدينة شكا سكانا
والملك الشمس - لملكي انا الترا - تحت قدميه"

سمعت جبيل ان من عشرين سنة ... على السواحل - وكانت بيروت ...

وحمل عزيزو عليه جبيل عبر البحر

فتغلب على أسطول ريب عدى وأغرق

أسطوله ثم أولاده - ~~وراح يهاجم المدن~~

وكانت سفنه أرسلت إليه [illegible]

ففر ريب عدى هاربا في إحداها -

وعلم أن الفرعون كان قد بعث إلى ملك بابل

يشجعه على الحوريين وقوادهم عزيزو

وإخوانه الأرادمة - فما فعل.

(أخبر أحد [illegible] [illegible] وصول ريب عدى إلى الفرعون)

أهلكوا [illegible] بلادنا - [illegible] على

[illegible] [illegible]

our papyrus

عدا الملك [illegible]

كانت البردي تزرع في ضواحي [illegible] أدونيس

وكانت جبيل مشهورة [illegible]

عندهم البردي - وكانت

البردي.

وأرسل ريب عدى ماله وكنوزه إلى مصر [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] الرسائل الآتية [illegible]

[illegible] هاربا - في إحدى الرسائل ~~والفضة~~

ذكر الكمية الكبيرة وكيف أن الذهب ريب عدى

وضع تلك الكنوز العجيبة - [illegible] [illegible] قبل

أن أخرجها كل الفضة

أن هدمه العدو"

وعندما حلت الكارثة . نزلت ربيب عدي

اخاه يتراجع عن المدينة - بعد ان اخرج منها شبوزه

وعشيرته - وارسل ابنه رسولاً الى الفرعون

ها الملك عن طلب المساعدة حتى النهاية به

وفي النهاية طلب ان يؤمن له ملجأً في

~~[illegible]~~ شرقاً بجنوب

الكورة -

بلدة في جبال الكورد .

هسود مزبرو .

لم نصل اليها

هذا امسوف - الى الجبل .

ولابد لم يتمكن من الصعود

كما جاء ذكرها

في مزو ابزي

والبلدة هذه

هي

وزو ابزي .

في الرسالة الاخيرة

زيزا السوم

لبت ... الى

تحوار ... اثم

كرو زيزا علش زيزا

زيزا - بزوا

لبت

والاصل اذا كان وصل الى ملجأه الاخير -

والاصل اذا كان ~~[illegible]~~ الملك الكاتب

الى زيزا - هذا

المحبة من كتب حسبة رسالة الى

امنحوتب الثالث والرابع

... محمد ...

... ١٢٩٦ ...

١٦

١٧

قطعنا الحد والوادي والاخشاب طالبين مستعلمين

وما كانت الحكومة لتسمع او تجيب . . وما الطريق

من الخند الى حاج ؟ لا تتجاوز الخمسة كيلومترات

دجب الاوحد

فرغ الوحيد فاستغرقت العدة شهرا شهرا ودمر حالها

شمروا للعمل شقوا الطريق وعمروها

وعبروها دون ان يطلعوا شيئا من العدة

احدا من عمال حاج

ويقول شبان حاج : لولا همة الدكتور

العمل

عبد ربه هاشم

١٨

ملك فقد
وجاءت ارز تحضنها الدهور . وجمع ذ
الملك
عزاها الدكتور باسم احدى بناتها الملكوت
حسن جوار

فعقد بين البلدين معاهدة وداد و
نشيدا للفرحا احباد

وصار يوسف اخوا وحسن جوار
وعقد بين البلدين معاهدة وداد
الارجبة
وكانت ليلة احبت احسا اسعد
ووقف صديقنا الدكتور كوكبا
وجاءت الفرحة كوكبا احببت الدكتور
صديقنا فيها
فاذا
يزهر هات محمود الصادق
بك الليلة نيران الصادق
المرات فاضرمت نيران المسرة
اشعلت انوار المسرة
*

أصبح يدعى بوادي الغزيلة. وكان جدي أديب رحمهما
الله، يحن دومًا الى تلك البلاد، ويكثر من الرحلات
اليها، فيستقبل ترابها بعد مشقات السفر،
ويعود الى اهله باحمال من خيرها - من قمحها المشهور
وتينها المجفف - ويقطيع من مواشيها.
كان جدي اذن تاجرًا.
وكانت التجارة في تلك الايام تقوم على
الاغلب بالمقايضة. فماذا كان يحمل جدي الى بلاد
لست متيقنًا انه كان يحمل مالًا.
جبيل غير المال؟
فهل كان يحمل سيفًا ويروح غازيًا بلاد اجداده، فيعود منها غانمًا
ظافرًا؟ ام هل كان يسوق اليها قطيعًا من الغنم
ومعه حمل من الحرير، ويعود الى اهله بقطيع من
البقر، وباحمال من التبغ والتين؟
ما خطر لي في صباي ان اتحقق هذه المسألة
ولكني اعلم ان تجارة جدي كانت
مثل سائر التجارات، مصدرًا للكسب، وعرضة
للخسارة. وكان الكسب. وكان الدين.
وكان على ما يظهر العجز لدى بعض الجبيليين،
فاضاف جدي الاراضي الى مكاسبه، فصارت املاكًا +
كاجداده ملكًا - في جبيل.
وقد ورث والدي بعض تلك الاملاك، فبلي
بها. على ما علمت، ما استطاع ان يتمكن من بيعها بما يشبه
[illegible] يستثمرها بواسطة شركاء
رحل الدين [illegible]
لا يتقنون في الاستثمار، ولا انا بتعاطيه
الغزيلة. بقيت له - وعليه - الى اخر ايامه،
رحمه الله. فكتب لي - وعلي الاهتمام بها حتى الآن.
والاهتمام!

وقد/

وقد رحلت مرة مع خال جدي ووالدي الى ببود جبيل
استقصي خبر ذلك المغار . فصعدت في وادي
نهر ابرهيم - وادي ادونيس - الى آتا ناتا . فوصلت
المكان يشرف على [illegible] البطحاء المدفون فيها
كنز العائلة .

وصلت الى نهر ابرهيم في عربة أثرية عليها جلال
الفضة والذهب يجرها حصانان من ضوامر الخيل الاصيلة .
هزيلان جائعان حزينان . وهناك وقفنا . لا طريق
تعذر الى هنا
عربات في الجبل . والخيل ولا البغال في جوار النهر
ما ساعدنا ... وما انا صاحبه
فاستأجرنا حمارا انه آثار
فاستأجرنا [illegible] دليلا
الى الطريف الطريف استأجرنا - وادي ادونيس -
وسرنا نتقدم في وادي نهر ابراهيم . بنو ساعة
ذو موكب فيشي قروي
[illegible] الدليل ... الحمار ... الحمار
وتقدم الدليل . وتحمي موخرته الحمار ...
السيد الحمار وتتقدمه الدليل ... الدليل ...
يغني المواليا . فانزعج ...

قضب
من المقاف
وكان الحمار
فعقعا
فاطلقه
...
بالمواليا
فانزعج الدليل

ثم [illegible] قام فقام في اطراف وكان صوته انكر
فاسكته . وسرنا نتقدم الجبل لبنان
واجمين . حتى وصلنا الى المكان الذي يشرف
على البطحاء المدفون فيها كنز العائلة .

على ... في اطرابي وتطرابي
فانزعج الدليل ثم خطر للدليل ان يقوم فقام في ... وسرنا
فاسكته . فاسكته .
وكان صوته انكر من صوت الحمار . واجمين . حتى
نتقدم في ... الجبل ساكتين
وصلنا الى المكان الذي يشرف على البطحاء المدفون
فيها كنز العائلة . ... اذكر اسمه
الى لا ازال اذكر ذلك المكان
... في الطريق الى قرطبة ... اذكر ...
هو بيت الهيتي في الطريق ... وان رئيس الدير عندما شاهد
ان فيه ديرا [illegible] وجمع اثنان ... ان ...
الموكب - ... على حمار ... اوان ... وعانا
ووزراءه - ظنه موكب ... مستراحه ...

٦

[illegible]

* أكرمنا أهل القرية وحملوا "للشريف" الذي كان لفاخرهم إلى قصر ... بمطلبه.

واستأنفنا الركوب، واستقبلنا الدليل أمامي والحمار

وراءي وسرنا بهذه الأبهة

إلى قرية الحصون المحصّن فيها الكنز العظيم.

وهناك نزلنا على "الشريف" الأول بالليث

والقائم ... الذي أحب لنا امرأته بالذبائح والدجاج ... فعلتها

(تكملة 3 صحيفة 5)

قبلت الدعوة وما كنت من ا... فقد كان عندي

الريب كما عرفته في نويورك وما ألفت

وما كنت في ...

وما كنت في قبول الدعوة من المجبورين. فقد كان عندي

كما كنت أعرفه في نويورك - كاتا

في الدرر ... بل بحرفه - فتنادمنا

الماروني هناك ... بعد أن

برغم انحراف ... الرئيس ...

عرفني الحج في الدعوة لغني بأن القهوة. فالتقينا

بالماء من أبريقه ووعدناه من كرمه.

ونزلنا في العقبة من بير الأحيمي ماشين كل

فاعدت

نسوق الحمار أمامنا حتى لقينا البطحاء.

تنظيم الموكب، ...

في باطني، فتجلجلت وكادت تنابع.

ثم جاءت ساعة الانصراف، والحمد لله، وكان المرحوم

وفتشت عني التاجوري ففرشت لي "الشربكة"

كان لا يزال طريًّا طيّب

على السطح، تحت خيمة منه الشيخ

الاربع، فرشت فراشين "اكرمها الله"، الواحد فوق

الآخر، وما تمكنت أنا في قلبها من اللطف والحب،

من ازالته ما في حشوها محاسن

اعرضه. ومن غير الساحر يستطيع ان يعمل

من الفراشين الخشنين فراشًا ناعمًا وثيرا؟

بيد اني كنت شاكرًا للشيخ طيبه، وراحت

استنشقه لكن

تيمني سكرة منه، فبنام اذ ذاك على الحجارة.

ولكن النجوم أفسدت على الشيخ عمله. فقد

كانت الليلة صافية الاديم، وكانت الكواكب

كلها في اصفى وابهج احوالها. فبت ارعى

النجوم كما يقول الناس، واصبح ما نعلمه من

علم الفلك في لباجي لبنان الصافية.

وكنت

وكنت وانا اقيس المسافات بين الثريا والميزان
الرمايين الاكبر والاصغر
فلكاً ، او باين [illegible]
النظري
[illegible] بالقياس [illegible]
[illegible] اقول في نفسي : يمكن اجتياز
[illegible]
هذه المسافة على حمار
بساعة او بساعتين – [illegible]
كبيرة
استنشق نشقات [illegible] من
طبيب الشيخ [illegible] وانا
اقول : اين ابلغك او [illegible] . فما كان
سبحانه بعد بدء اليها . وماذا بعد ذلك
الانفجار
غير الاحلام ? [illegible] وتلك [illegible] ? اطمئني
باللغة الانجليزية [illegible] الى [illegible]
طمئن بيستي [illegible]
انبئه فيها رحلتي هذه العجيبة –
[illegible]
رحلتي على حمار اي آتان من الثريا الى الميزان
وكل نشقة من نشقات طبيب الشيخ
وكنت بعد كل رحلة من رحلات الخيال اعود الى
فاقول لنفسي البقعة الارضية المنفجرة – اقول [illegible] عابساً :
حلمي الذهبي . غداً يرجع الشيخ [illegible] ما تأخر من
حسابه – فتستمنا ربع الارضية منذ عشر سنوات
معبود [illegible] فاعود الى القرية كما كان جدي يعود من رحلاته غانماً
ظافراً

هذا [illegible] [illegible] الى [illegible] « [illegible] [illegible] » [illegible] البيت [illegible]

الحمار الى معلف حمارها فتاركا الحمارات

البقرة والعنزة في الجهة الاخرى من السطح

فجاءنا . ونام الدليل والحمار بيننا وبين

الماشية .

وكانت الليلة صافية الاديم ، عليلة الهواء ،

فتقلبت [illegible] على الفراش « الوثير » وليت

واسمع خلال التحليق الشري عطعط الشريف واصوات البط

[illegible] وذلك ارعى النجوم ، وارخ الحلم الذهبي [illegible] الحلم الذهبي

والتفتح في [illegible] ، والماشية ، ومع ذلك [illegible]

فغدا بدفع الشرك ، اعانا اخر من خرابه — فسمعنا

خارج الاوطه مده عشر سنوات — ما عود

الى القرية ، ما كان يعود وجرى من رحلاته ،

عاشا طاهرًا .

وجاء الصباح الباسم ، حسبه الاحلام ، وانتهت

فانقضى الشريف الى اخباره الى [illegible] بدأت

[illegible] ، وكانت [illegible] الغاني ،

[illegible] ومن المرابين ، ومن الجدران

[illegible] الحكومة ومن المرابين ،

المعتدين . يا جعلي ،

بالويل والبلاء . وكانت بلوانا من الزمان

ومن ضرائب الحكومة ومن المرابين ، ومن الجدران

المعتدين . والبلية الكبرى يا جعلي . .

فهمت بالاستقراء والاستنتاج ، قبل ان فاه ببيت

القصيد ، ان الكنز قد ذاب ، واحببت جداً السؤال عنه

قسمة او حساب . ولكن المخيلة خذلتني فما

ماشتني الى اقاصي المجدود الكلية .

فبعد ان شربت القهوة وجاءت « الشريكة » بارجيلة

استعارتها من بيت كاهنة القرية كشف « الشريك »

الستار عنه كل ما به . فعلمت ان البيت مرهون ،

والملك عارف بالديون ، والزمان ملعون يا جعلي انه ملعون .

فهلا تشبهت انا بابي الكريم وافتديت بجدي الفاضل ،

رحمهما الله ، فارفع يد الدائن عن البيت ، وانقذ المالك من المرابين بدراهم !

ليعيد الى المال بعد ستين ، ولعيد [illegible] الى الارض الى [illegible] حيرها وحصيرها . فتحيا [illegible] وذوي [illegible] قسمنا في حل [illegible] — وجباه الله يا جعلي وصف [illegible] القديس !

أطلقت الإقامة. عاد الرئيس، بعد ان عرفني

ألحّ في الدعوة لفنجان من القهوة. فاكتفينا

بالماء من ابريقه وودعناه شاكرين.

نزلنا في العقبة من بير الهيتي ماشين كلنا،

نسوق الحمار امامنا، حتى بلغنا البطحاء، فأعدت

تنظيم الموكب اكراماً لاهل القرية وخصوصاً «للشريف» الذي

كان يفاخرهم بـ«معلميه» اي انا. استأنفت

الركوب، وانشبت الدليل امامي، والحمار ورائي،

وسرت بهذه الأبهة الى قرية [illegible]

الكثير [illegible] مرحب لنا ترحيب محمود ومسعود. ولكن [illegible] فذبحت لنا [illegible]

وهناك نزلنا على «الشريف»، [illegible]

امرأته ذبحت لنا [illegible] وجعلتها

الذبيحة - دجاجة فنبقتها في قدرها،

لبّ القصد للمأدبة فتحت بزيتون من ارضنا،

وختمت بجبن من ضرع بقرتنا.

ثم جاء اهل القرية مسلّمين مرحبين، اثنى

[illegible]

تقدمهم الكاهن الذي [illegible]

على «الشريف»، وشهد انه من أصدق الناس [illegible]

وانشطهم (عرفت [illegible] بعدئذ ان الاثنين

قبرا الشيخ زكي) ثم تكلم القرويون فسألوا

عن اهلهم في اميركه، [illegible] وعن سعر الشرانق في

جهتنا، وسعر الزيت، وسعر السمن. وعن البقر

والمعزى ومرعاها فأخرجوا في سؤالاتهم

احوالها والماعز ومرعاها. وكادت تصيح

الدجاجة في بطني فتجلجلت وكادت تصيح. فأعاد الكاهن

[illegible] ساعة الانصراف [illegible] ×

ثم جاءت، والحمد لله، [illegible]

بالحالة في الشريف والكرسي الا [illegible] على السطح - تحت [illegible] الشيخ

فعرشت لي «الشرشف» للبيت [illegible] والتراب (دوما)

[illegible] «المحسوب» الفرش والتراب

فراش وشبر [illegible] على [illegible] (شي من الحصى) فنامت

غرب التراب جيداً، وظل فيه شي من الحصى

[illegible] وزوجها بالقرب مني. وكنا قد [illegible] الحمار

× وفاتنا النوم في تلك الليلة [illegible] القهوى [illegible]

(انتبه) الحمار

السناد عنه كل ما به. فعلمت ان البيت

مرهون، والملك غارق بالديون، [illegible] والدهر

يامعلمي، ملعون ابن ملعون.

فهل تشبهت انا بوالدي الكريم، وبجدي

الفاضل، رحمهما الله، فارفع يد الداشر عن البيت،

وانقذ الملك من براثن المرابين؟!

وقد أقسم "الشريف" [illegible] بالله ومريم العذراء

وجميع القديسين انه يعيد الي المال بعد سنتين،

ويعيد الوردة الى سابق عهدها وخصبها، فتجيئنا

اوذاك قسمتنا في كل موسم — وحياة الله، يامعلمي،

وحق جميع القديسين!

ركبت حماري وسقته مسرعًا صوب العقبة.

فعدا الدليل والحمار [illegible] ورائنا.

[illegible]

ركبت حماري وسقته مسرعًا صوب العقبة

فعدا الدليل والحمار ورائي، فاكتب بها:

المواليا الملوك! فرفعا عقيرتاهما معًا بالغناء.

وما استهلكه به بي كل

فاستغنيت والله بساعة وتذكرت ما كان يحدثنا عنها الوالد

ثم فكرت في البلاد التي [illegible] وعلا بعد جبال:

البلاد التي تدر كنبا

نقلا عن ابيه [illegible] والله كبيل.

فاني [illegible] ما هذه

هي؟